مقدمة

العلامة ابن خلدون

كتابٌ قد حوى دررَ المعاني · وبحر فوائد للمقتنيه
فلا تعجب لما تأتيك المباني · فان البحر كل الدرّ فيه

طبعت برخصة مجلس معارف ولاية سوريا الجليلة
بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٧٩
وطبعت ثانية سنة ١٨٨٦
ثم طبعت ثالثة بالشكل الكامل سنة ١٩٠٠

الجزء الاول

من

كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر

في

ايام العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر

وهو

تاريخ وحيد عصره العلامة

عبد الرحمن ابن خلدون

المغربي

بسم الله الرحمن الرحيم

يَقُولُ ٱلْعَبْدُ ٱلْفَقِيرُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلْغَنِيّ بِلُطْفِهِ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنُ خَلْدُونَ ٱلْحَضْرَمِيُّ وَفَّقَهُ ٱللهُ

أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْعِزَّةُ وَٱلْجَبَرُوتُ * وَبِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَٱلْمَلَكُوتُ * وَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى وَٱلنُّعُوتُ * أَلْعَالِمِ فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ ٱلنَّجْوَى أَوْ يُخْفِيهِ ٱلسُّكُوتُ * أَلْقَادِرُ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا يَفُوتُ * أَنْشَأَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ نَسَمًا * وَٱسْتَعْمَرَنَا فِيهَا أَجْيَالًا وَأُمَمًا وَيَسَّرَ لَنَا مِنْهَا أَرْزَاقًا وَقِسَمًا * تَكْنُفُنَا ٱلْأَرْحَامُ وَٱلْبُيُوتُ * وَيَكْفُلُنَا ٱلرِّزْقُ وَٱلْقُوتُ * وَتُبْلِينَا ٱلْأَيَّامُ وَٱلْوُقُوتُ * وَتَعْتَوِرُنَا ٱلْآجَالُ ٱلَّتِي خُطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا ٱلْمَوْقُوتُ وَلَهُ ٱلْبَقَاءُ وَٱلثُّبُوتُ * وَهُوَ ٱلْحَيُّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ * وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ ٱلنَّبِيِّ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْمَكْتُوبِ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ ٱلْمَنْعُوتِ * ٱلَّذِي تَمَخَّضَ لِفِصَالِهِ ٱلْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ ٱلْآحَادُ وَٱلسُّبُوتُ * وَيَتَبَايَنَ زُحَلُ وَٱلْيَهْمُوتُ [1] * وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ٱلَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ ٱلْأَثَرُ ٱلْبَعِيدُ وَٱلصِّيتُ * وَٱلشَّمْلُ ٱلْجَمِيعُ فِي مُظَاهَرَتِهِ وَلِعَدُوِّهِمِ ٱلشَّمْلُ ٱلشَّتِيتُ * صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا ٱتَّصَلَ بِٱلْإِسْلَامِ جَدُّهُ ٱلْمَبْخُوتُ * وَٱنْقَطَعَ بِٱلْكُفْرِ حَبْلُهُ ٱلْمَبْتُوتُ * وَسَلَّمَ كَثِيرًا

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَنَّ ٱلتَّارِيخِ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي تَتَدَاوَلُهُ ٱلْأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ وَتُشَدُّ إِلَيْهِ ٱلرَّكَائِبُ وَٱلرِّحَالُ * وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ ٱلسُّوقَةُ وَٱلْأَغْفَالُ * وَتَتَنَافَسُ فِيهِ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَقْيَالُ * وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلْجُهَّالُ * إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارٍ

---

(١) قوله اليهموت هو النون اي الحوت الذي على ظهره الارض السابعة ويسمى ايضاً لوثيا كما في المزهر وروح البيان باللهجة ومعلوم ان بينه وبين زحل الذي هو في الفلك السابع بوناً بعيداً وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي اه في اول سورة نون اليهموت بفتح المثناة التحتية وسكون الهاء وما اشتهر من انه بالباء الموحدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشي ومثله في روح البيان قاله نصر الهوريني اقره المصحح الثاني

عَنِ ٱلْأَيَّامِ وَٱلدُّوَلِ * وَٱلسَّوَابِقِ مِنَ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُوَلِ * تَنْمُو فِيهَا ٱلْأَقْوَالُ * وَتُضْرَبُ فِيهَا ٱلْأَمْثَالُ * وَتُطْرَفُ بِهَا ٱلْأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا ٱلِٱحْتِفَالُ * وَتُؤَدِّي لَنَا شَأْنَ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا ٱلْأَحْوَالُ * وَٱتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا ٱلنِّطَاقُ وَٱلْمَجَالُ * وَعَمَّرُوا ٱلْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمِ ٱلِٱرْتِحَالُ * وَحَانَ مِنْهُمُ ٱلزَّوَالُ * وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ * وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ * وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ ٱلْوَقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا عَمِيقٌ * فَهُوَ لِذٰلِكَ أَصِيلٌ فِي ٱلْحِكْمَةِ عَرِيقٌ * وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ * وَإِنَّ فُحُولَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي ٱلْإِسْلَامِ قَدِ ٱسْتَوْعَبُوا أَخْبَارَ ٱلْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا * وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ ٱلدَّفَاتِرِ وَأَوْدَعُوهَا * وَخَلَطَهَا ٱلْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَهِمُوا فِيهَا وَٱبْتَدَعُوهَا * وَزَخَارِفَ مِنَ ٱلرِّوَايَاتِ ٱلْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا * وَٱقْتَفَى تِلْكَ ٱلْآثَارَ ٱلْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَٱتَّبَعُوهَا * وَأَدَّوْهَا إِلَيْنَا كَمَا سَمِعُوهَا * وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا * وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا * فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ * وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ * وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ * وَٱلتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ * وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ * وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ * وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ * وَٱلْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ * وَٱلنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ * وَٱلْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلَ * وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلْقُلُوبِ وَيَصْقُلُ

هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا * وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا * وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْإِمَامَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ * وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمِ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ * هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْأَنَامِلِ * وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ * مِثْلُ ٱبْنِ إِسْحٰقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ بْنِ عُمَرَ ٱلْأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ * ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ ٱلْجَمَاهِيرِ * وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْأَثْبَاتِ * وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحَفَظَةِ ٱلثِّقَاتِ * إِلَّا أَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ * وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ * وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوِ ٱعْتِبَارِهِمْ * فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا ٱلْأَخْبَارُ * وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ

وَالآثَارُ * ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لِهَؤُلَاءِ عَامَّةُ الْمَنَاهِجِ وَالْمَسَالِكِ * لِعُمُومِ الدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ الْإِسْلَامِ فِي الْآفَاقِ وَالْمَمَالِكِ * وَتَنَاوُلِهَا الْبَعِيدَ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الْمَآخِذِ وَالْمَتَارِكِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنِ اسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ * وَالْأَمْرِ الْعَمَمِ * كَالْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ وَوَقَفَ فِي الْعُمُومِ وَالْإِحَاطَةِ عَنِ الشَّأْوِ الْبَعِيدِ * فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ * وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفُقِهِ وَقُطْرِهِ * وَاقْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ * كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ الْأَنْدَلُسِ وَالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِهَا وَابْنُ الرَّفِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالدَّوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ * وَبَلِيدُ الطَّبْعِ وَالْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ * يَنْسِجُ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ * وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِالْمِثَالِ * وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ الْأَيَّامُ مِنَ الْأَحْوَالِ * وَاسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ * فَيَجْلِبُونَ الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ * وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأُوَلِ * صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا * وَصِفَاحًا انْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا * وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا * إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا * وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا * يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأَخْبَارَ الْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا * اتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا * وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا * بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا * فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا * ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا * مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا * لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا * وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا * وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا * وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا * فَيَبْقَى النَّاظِرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدُ إِلَى افْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِئِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا * مُفَتِّشًا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا * بَاحِثًا عَنِ الْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُبِهَا * حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الِاخْتِصَارِ * وَذَهَبُوا إِلَى الِاكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالِاقْتِصَارِ * مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ * مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ الْغُبَارِ * كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ * وَمَنِ اقْتَفَى هَذَا الْأَثَرَ مِنَ الْهَمَلِ * وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهَؤُلَاءِ مَقَالٌ * وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا انْتِقَالٌ * لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ الْفَوَائِدِ * وَأَخَلُّوا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ

• وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ * وَسَبَرْتُ غَوْرَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ * نَبَّهْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ مِنْ

سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلنَّوْمِ * وَسِمْتُ ٱلتَّصْنِيفَ مِنْ نَفْسِي وَأَنَا ٱلْمُفْلِسُ أُحْسِنُ ٱلسَّوْمَ * فَأَنْشَأْتُ فِي ٱلتَّارِيخِ كِتَابًا * رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلنَّاشِئَةِ مِنَ ٱلْأَجْيَالِ حِجَابًا * وَفَصَّلْتُهُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَٱلْاعْتِبَارِ بَابًا بَابًا * وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَّةِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْعُمْرَانِ عِلَلًا وَأَسْبَابًا * وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ ٱلْأُمَمِ ٱلَّذِينَ عَمَّرُوا ٱلْمَغْرِبَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَعْصَارِ * وَمَلَأُوا أَكْنَافَ ٱلضَّوَاحِي مِنْهُ وَٱلْأَمْصَارِ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلطِّوَالِ أَوِ ٱلْقِصَارِ * وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَنْصَارِ * وَهُمَا ٱلْعَرَبُ وَٱلْبَرْبَرُ * إِذْ هُمَا ٱلْجِيلَانِ ٱللَّذَانِ عُرِفَ بِٱلْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا وَطَالَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَحْقَابِ مَثْوَاهُمَا * حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ مَا عَدَاهُمَا * وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ ٱلْآدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا * فَهَذَّبْتُ مَنَاحِيَهُ تَهْذِيبًا * وَقَرَّبْتُهُ لِأَفْهَامِ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْخَاصَّةِ تَقْرِيبًا * وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيبِهِ مَسْلَكًا غَرِيبًا * وَٱخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ ٱلْمَنَاحِي مَذْهَبًا عَجِيبًا * وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأُسْلُوبًا * وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلتَّمَدُّنِ وَمَا يَعْرِضُ فِي ٱلْاجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلذَّاتِيَّةِ مَا يُمَتِّعُكَ بِعِلَلِ ٱلْكَوَائِنِ وَأَسْبَابِهَا * وَيُعَرِّفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ ٱلدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا * حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ ٱلتَّقْلِيدِ يَدَكَ * وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْأَيَّامِ وَٱلْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ وَرَتَّبْتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ

أَلْمُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ ٱلتَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَٱلْإِلْمَاعِ بِمَغَالِطِ ٱلْمُؤَرِّخِينَ

أَلْكِتَابُ ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَذِكْرِ مَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلذَّاتِيَّةِ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْكَسْبِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلْعُلُومِ وَمَا لِذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلَلِ وَٱلْأَسْبَابِ

أَلْكِتَابُ ٱلثَّانِي فِي أَخْبَارِ ٱلْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدُوَلِهِمْ مُنْذُ مَبْدَإِ ٱلْخَلِيقَةِ إِلَى هٰذَا ٱلْعَهْدِ وَفِيهِ مِنَ ٱلْإِلْمَاعِ بِبَعْضِ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْمَشَاهِيرِ وَدُوَلِهِمْ مِثْلِ ٱلنَّبَطِ وَٱلسِّرْيَانِيِّينَ وَٱلْفُرْسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَٱلْقِبْطِ وَٱلْيُونَانِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّرْكِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ

أَلْكِتَابُ ٱلثَّالِثُ فِي أَخْبَارِ ٱلْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ زَنَاتَةَ وَذِكْرِ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ وَمَا كَانَ بِدِيَارِ ٱلْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ ثُمَّ كَانَتِ ٱلرِّحْلَةُ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ لِاجْتِنَاءِ أَنْوَارِهِ * وَقَضَاءِ ٱلْفَرْضِ وَٱلسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ * وَٱلْوُقُوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي دَوَاوِينِهِ وَأَسْفَارِهِ * فَزِدْتُ مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ بِتِلْكَ ٱلدِّيَارِ * وَدُوَلِ ٱلتُّرْكِ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ * وَأَتْبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ ٱلْأَسْطَارِ * وَأَدْرَجْتُهَا فِي ذِكْرِ ٱلْمُعَاصِرِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَجْيَالِ مِنْ أُمَمِ ٱلنَّوَاحِي * وَمُلُوكِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلضَّوَاحِي * سَالِكًا سَبِيلَ

الاختصار والتلخيص * مقتديا بالمرام السهل من العويص * داخلا من باب الاسباب على العموم إلى الاخبار على الخصوص فاستوعب اخبار الخليقة استيعابا * وذلل من الحكم النافرة صعابا * واعطى لحوادث الدول عللا واسبابا * فاصبح للحكمة صوانا * وللتاريخ جرابا

ولما كان مشتملا على اخبار العرب والبربر * من اهل المدر والوبر * والالماع بمن عاصرهم من الدول الكبر * وافصح بالذكرى والعبر * في مبتدإ الاحوال وما بعدها من الخبر * سميته كتاب العبر * وديوان المبتدإ والخبر * في ايام العرب والعجم والبربر * ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر * ولم اترك شيئا في اولية الاجيال والدول * وتعاصر الامم الاول * واسباب التصرف والحول * في القرون الخالية والملل * وما يعرض في العمران من دولة وملة * ومدينة وحلة * وعزة وذلة * وكثرة وقلة * وعلم وصناعة * وكسب واضاعة * واحوال متقلبة مشاعة * وبدو وحضر * وواقع ومنتظر * إلا واستوعبت جمله * واوضحت براهينه وعلله * فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم الغريبة * والحكم المحجوبة القريبة * وانا من بعدها موقن بالقصور * بين اهل العصور * معترف بالعجز عن المضاء * في مثل هذا القضاء * راغب من اهل اليد البيضاء * والمعارف المتسعة الفضاء * في النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء * والتغمد لما يعثرون عليه بالاصلاح والاغضاء * فالبضاعة بين اهل العلم مزجاة * والاعتراف من اللوم منجاة * والحسنى من الاخوان مرتجاة * والله اسأل ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل

وبعد ان استوفيت علاجه * وانرت مشكاته للمستبصرين واذكيت سراجه * واوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه * واوسعت في فضاء المعارف نطاقه وادرت سياجه * اتحفت بهذه النسخة منه[1] خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد * الفاتح

(١) قوله اتحفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله اتحفت وبعد قوله وادرت سياجه ونصها فتوسمت له الكف الذي يلج بعين الاستبصار فنونه · ويلحظ بمداركه الشريفة معياره الصحيح وقانونه · ويميز رتبته في المعارف عما دونه · فسرحت فكري في فضا الوجود · واجلت نظري ليل التمام والهجود · بين التهائم والنجود · في العلماء الركع والسجود · والخلفا اهل الكرم والجود · حتى وقف الاختيار بساحة الكمال · وطافت الافكار بموقف الامال · وظفرت ايدي المساعي والاعمال ·

ٱلمَاهِدِ * ٱلْمُتَجَلِّي مُنْذُ خَلْعِ ٱلتَّمَائِمِ * وَلَوْثِ ٱلْعَمَائِمِ * بِحُلَى ٱلْقَانِتِ ٱلزَّاهِدِ * ٱلْمُتَوَشِّحِ بِزَكَاءِ ٱلْمَنَاقِبِ وَٱلْمَحَامِدِ * وَكَرَمِ ٱلشَّمَائِلِ وَٱلشَّوَاهِدِ * بِأَجْمَلَ مِنَ ٱلْقَلَائِدِ * فِي نُحُورِ ٱلْوَلَائِدِ * ٱلْمُتَنَاوِلِ بِٱلْعَزْمِ ٱلْقَوِيِّ ٱلسَّاعِدِ * وَٱلْجِدِّ ٱلْمُوَاتِي ٱلْمُسَاعِدِ * وَٱلْمَجْدِ ٱلطَّارِفِ وَٱلتَّالِدِ * ذَوَائِبَ مُلْكِهِمِ ٱلرَّاسِي ٱلْقَوَاعِدِ * ٱلْكَرِيمِ ٱلْمَعَالِي وَٱلْمَصَاعِدِ * جَامِعِ أَشْتَاتِ ٱلْعُلُومِ وَٱلْفَوَائِدِ * وَنَاظِمِ شَمْلِ ٱلْمَعَارِفِ وَٱلشَّوَارِدِ * وَمُظْهِرِ ٱلْآيَاتِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ * فِي فَضْلِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ * بِفِكْرِهِ ٱلثَّاقِبِ ٱلنَّاقِدِ * وَرَأْيِهِ ٱلصَّحِيحِ ٱلْمَعَاقِدِ * ٱلنَّيِّرِ ٱلْمَذَاهِبِ وَٱلْعَقَائِدِ * نُورِ ٱللّٰهِ ٱلْوَاضِحِ ٱلْمَرَاشِدِ * وَنِعْمَتِهِ ٱلْعَذْبَةِ ٱلْمَوَارِدِ * وَلُطْفِهِ ٱلْكَامِنِ بِٱلْمَرَاصِدِ لِلشَّدَائِدِ * وَرَحْمَتِهِ ٱلْكَرِيمَةِ ٱلْمَقَالِدِ * ٱلَّتِي وَسِعَتْ صَلَاحَ ٱلزَّمَانِ ٱلْفَاسِدِ * وَٱسْتِقَامَةَ ٱلْمَائِدِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْعَوَائِدِ * وَذَهَبَتْ بِٱلْخُطُوبِ ٱلْأَوَابِدِ * وَخَلَعَتْ عَلَى ٱلزَّمَانِ رَوْنَقَ ٱلشَّبَابِ ٱلْعَائِدِ * وَحُجَّتِهِ ٱلَّتِي لَا يُبْطِلُهَا إِنْكَارُ ٱلْجَاحِدِ وَلَا شُبُهَاتُ ٱلْمُعَانِدِ * (أَمِيرِ المومنين) أَبِي فَارِسٍ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱبْنِ مَوْلَانَا ٱلسُّلْطَانِ ٱلْمُعَظَّمِ ٱلشَّهِيرِ ٱلشَّهِيدِ أَبِي سَالِمٍ إِبْرٰهِيمَ ٱبْنِ مَوْلَانَا ٱلسُّلْطَانِ ٱلْمُقَدَّسِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱبْنِ ٱلسَّادَةِ ٱلْأَعْلَامِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرِينَ * ٱلَّذِينَ جَدَّدُوا ٱلدِّينَ * وَنَهَجُوا ٱلسَّبِيلَ لِلْمُهْتَدِينَ * وَمَحَوْا آثَارَ ٱلْبُغَاةِ ٱلْمُفْسِدِينَ * أَفَاءَ ٱللّٰهُ عَلَى ٱلْأُمَّةِ ظِلَالَهُ * وَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ ٱلْإِسْلَامِ آمَالَهُ * وَبَعَثْتُهُ إِلَى خِزَانَتِهِمِ ٱلْمُوقَفَةِ لِطَلَبَةِ ٱلْعِلْمِ بِجَامِعِ ٱلْقَرَوِيِّينَ مِنْ مَدِينَةِ فَاسَ حَاضِرَةِ مُلْكِهِمْ وَكُرْسِيِّ سُلْطَانِهِمْ * حَيْثُ مَقَرُّ ٱلْهُدَى * وَرِيَاضُ ٱلْمَعَارِفِ خَضِلَةُ ٱلنَّدَى * وَفَضَاءُ ٱلْأَسْرَارِ

يندي المعارف مشرفة فيه غرر الجمال • وحدائق العلوم الوارفة الظلال • عن اليمين والشمال • فانخت مطي الافكار في عرصاتها • وجلوت محاسن الانظار على منصاتها • واتحفت بديوانها مقاصير ابوابها • واطلعته كوكبا وقادا في افق خزانتها وصوانها • ليكون آية للعقلاء يهتدون بناره • ويعرفون فضل المدارك الانسانية في اثاره • وهي خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد • الفاتح الماهد • الى اخر النعوت المذكورة هنا ثم قال الخليفة امير المومنين المتوكل على رب العالمين ابو العباس احمد ابن مولانا الامير الطاهر المقدس ابي عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس امير المومنين • ابي يحيي ابي بكر ابن الخلفاء الراشدين • من ائمة الموحدين الذين جددوا الدين • ونهجوا السبل للمهتدين • ومحوا اثار البغاة المفسدين من المجسمة والمعتدين • سلالة ابي الحفص والفاروق • والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق • والنور المتلالي من تلك الاشعة والبروق • فاوردته من مودعها الى العلي بحيث مقر الهدى • ورياض المعارف خضلة الندي • الى اخر ما ذكر هنا الا انه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ

ٱلرَّبَّانِيَّةِ فَسِيحُ ٱلْمَدَى *وَٱلْإِمَامَةُ ٱلْفَارِسِيَّةُ ٱلْكَرِيمَةُ[1] ٱلْعَزِيزَةُ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ بِنَظَرِهَا ٱلشَّرِيفِ *وَفَضْلِهَا ٱلْغَنِيِّ عَنِ ٱلتَّعْرِيفِ * تَبْسُطُ لَهُ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ مِهَادًا *وَتَفْسَحُ لَهُ فِي جَانِبِ ٱلْقَبُولِ آمَادًا *فَتُوضِحُ بِهَا أَدِلَّةً عَلَى رُسُوخِهِ وَأَشْهَادًا *فَفِي سُوقِهَا تَنْفُقُ بَضَائِعُ ٱلْكُتَّابِ وَعَلَى حَضْرَتِهَا تَعْكُفُ رَكَائِبُ ٱلْعُلُومِ وَٱلْآدَابِ * وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا ٱلْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ ٱلْقَرَائِحِ وَٱلْأَلْبَابِ *وَٱللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا *وَيُوَفِّرُ لَنَا حُظُوظَ ٱلْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا *وَيَجْعَلُنَا مِنَ ٱلسَّابِقِينَ فِي مَيْدَانِهَا ٱلْمُجَلِّينَ فِي حَوْمَتِهَا *وَيُضْفِي عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا *وَمَا أُوِيَ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عِمَالَتِهَا * لَبُوسَ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا * وَهُوَ سُبْحَانَهُ ٱلْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وِجْهَتِهَا * بَرِيئَةً مِنْ شَوَائِبِ ٱلْغَفْلَةِ وَشُبْهَتِهَا *وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من اسبابها

إِعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَوَائِدِ شَرِيفُ ٱلْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ . وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ . وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ . حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلْإِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلْإِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَيِمَّةِ ٱلنَّقْلِ مِنَ ٱلْمَغَالِطِ فِي ٱلْحِكَايَاتِ وَٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا وَلَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا وَلَا قَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ

---

(١) قوله الفارسية اي المنسوبة الى ابي فارس المتقدم ذكره اه

وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو أزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء. ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس يقال إنه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والأبواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين ألفا كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف وعن عائشة والزهري فإن جموع رستم الذين زحف بهم سعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفا كلهم متبوع وأيضا فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فإن العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب الأول والقوم لم تتسع ممالكهم إلى غير الأردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وأيضا فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون فإنه موسى بن عمران بن يصهر

بْن قَاهِث بِفَتْحِ ٱلْهَاءِ وَكَسْرِهَا ٱبْن لَاوِي بِكَسْرِ ٱلْوَاوِ وَفَتْحِهَا ٱبْن يَعْقُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ ٱللّٰهِ هٰكَذَا نَسَبُهُ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْمُدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا نَقَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ قَالَ دَخَلَ إِسْرَائِيلُ مِصْرَ مَعَ وُلْدِهِ ٱلْأَسْبَاطِ وَأَوْلَادِهِمْ حِينَ أَتَوْا إِلَى يُوسُفَ سَبْعِينَ نَفْساً وَكَانَ مُقَامُهُمْ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَى ٱلتِّيهِ مِائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً تَتَدَاوَلُهُمْ مُلُوكُ ٱلْقِبْطِ مِنَ ٱلْفَرَاعِنَةِ وَيَبْعُدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ ٱلنَّسْلُ فِي أَرْبَعَةِ أَجْيَالٍ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْعَدَدِ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ ٱلْجُيُوشِ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمَنْ بَعْدَهُ فَبَعِيدٌ أَيْضاً إِذْ لَيْسَ بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيلَ إِلَّا أَحَدَ عَشَرَ أَباً فَإِنَّهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ يَشَّا بْنِ عُوفِيذَ وَيُقَالُ ٱبْنِ عُوفِذَ ٱبْنِ بَاعَزَ وَيُقَالُ بُوعَزَ بْنِ سَلْمُونَ بْنِ نَحْشُونَ بْنِ عَمِّينُوذَبَ وَيُقَالُ حَمِّينَاذَابَ بْنِ رَمَّ بْنِ حَصْرُونَ وَيُقَالُ حَسْرُونَ بْنِ بَارَسَ وَيُقَالُ بَيْرَسَ بْنِ يَهُوذَا بْنِ يَعْقُوبَ وَلَا يَتَشَعَّبُ ٱلنَّسْلُ فِي أَحَدَ عَشَرَ مِنَ ٱلْوُلْدِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْعَدَدِ ٱلَّذِي زَعَمُوهُ ٱللَّهُمَّ إِلَى ٱلْمِئَتَيْنِ وَٱلْآلَافِ فَرُبَّمَا يَكُونُ وَأَمَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى مَا بَعْدَهُمَا مِنْ عُقُودِ ٱلْأَعْدَادِ فَبَعِيدٌ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلْحَاضِرِ ٱلْمُشَاهَدِ وَٱلْقَرِيبِ ٱلْمَعْرُوفِ تَجِدْ زَعْمَهُمْ بَاطِلاً وَنَقْلَهُمْ كَاذِباً وَٱلَّذِي ثَبَتَ فِي ٱلْإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ جُنُودَ سُلَيْمَانَ كَانَتِ ٱثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً خَاصَّةً وَأَنَّ مُقَرَّبَاتِهِ كَانَتْ أَلْفاً وَأَرْبَعَمِائَةِ فَرَسٍ مُرْتَبِطَةً عَلَى أَبْوَابِهِ هٰذَا هُوَ ٱلصَّحِيحُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى خُرَافَاتِ ٱلْعَامَّةِ مِنْهُمْ وَفِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) وَمُلْكِهِ كَانَ عُنْفُوَانُ دَوْلَتِهِمْ وَٱتِّسَاعُ مُلْكِهِمْ هٰذَا وَقَدْ نَجِدُ ٱلْكَافَّةَ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ إِذَا أَفَاضُوا فِي ٱلْحَدِيثِ عَنْ عَسَاكِرِ ٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي لِعَهْدِهِمْ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ وَتَفَاوَضُوا فِي ٱلْأَخْبَارِ عَنْ جُيُوشِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَوِ ٱلنَّصَارَى أَوْ أَخَذُوا فِي إِحْصَاءِ أَمْوَالِ ٱلْجِبَايَاتِ وَخَرَاجِ ٱلسُّلْطَانِ وَنَفَقَاتِ ٱلْمُتْرَفِينَ وَبَضَائِعِ ٱلْأَغْنِيَاءِ ٱلْمُوسِرِينَ تَوَغَّلُوا فِي ٱلْعَدَدِ وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ ٱلْعَوَائِدِ وَطَاوَعُوا وَسَاوِسَ ٱلْإِغْرَابِ فَإِذَا ٱسْتُكْشِفَ أَصْحَابُ ٱلدَّوَاوِينِ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ وَٱسْتُنْبِطَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ ٱلثَّرْوَةِ فِي بَضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ وَٱسْتُجْلِيَتْ عَوَائِدُ ٱلْمُتْرَفِينَ فِي نَفَقَاتِهِمْ لَمْ تَجِدْ مِعْشَارَ مَا يَعُدُّونَهُ وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِوُلُوعِ ٱلنَّفْسِ بِٱلْغَرَائِبِ وَسُهُولَةِ ٱلتَّجَاوُزِ عَلَى ٱللِّسَانِ وَٱلْغَفْلَةِ عَلَى ٱلْمُتَعَقِّبِ وَٱلْمُنْتَقِدِ حَتَّى لَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى خَطَإٍ وَلَا عَمْدٍ وَلَا يُطَالِبُهَا فِي ٱلْخَبَرِ بِتَوَسُّطٍ وَلَا عَدَالَةٍ وَلَا يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ وَتَفْتِيشٍ فَيُرْسِلُ عِنَانَهُ وَيُسِيمُ فِي مَرَاتِعِ ٱلْكَذِبِ لِسَانَهُ وَيَتَّخِذُ آيَاتِ ٱللّٰهِ هُزُؤاً وَيَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ

سَبِيلِ اللهِ وَحَسْبُكَ بِهَا صَفْقَةً خَاسِرَةً وَمِنَ الأَخْبَارِ الوَاهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي أَخْبَارِ التَّبَابِعَةِ مُلُوكِ اليَمَنِ وَجَزِيرَةِ العَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُرَاهُمْ بِاليَمَنِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَالبَرْبَرِ مِنْ بِلَادِ المَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقِشَ بْنَ قَيْسِ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعَاظِمِ مُلُوكِهِمُ الأَوَّلِ وَكَانَ لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَزَا أَفْرِيقِيَّةَ وَأَثْخَنَ فِي البَرْبَرِ وَأَنَّهُ الَّذِي سَمَّاهُمْ بِهَذَا الاسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ البَرْبَرَةُ فَأُخِذَ هَذَا الاسْمُ عَنْهُ وَدُعُوا بِهِ مِنْ حِينَئِذٍ وَأَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ مِنَ المَغْرِبِ حَجَزَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فَأَقَامُوا بِهَا وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صِنْهَاجَةُ وَكُتَامَةُ وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الطَّبَرِيُّ وَالجُرْجَانِيُّ وَالمَسْعُودِيُّ وَابْنُ الكَلْبِيِّ وَالبِيلِيُّ إِلَى أَنَّ صِنْهَاجَةَ وَكُتَامَةَ مِنْ حِمْيَرَ وَتَأْبَاهُ نَسَّابَةُ البَرْبَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَذَكَرَ المَسْعُودِيُّ أَيْضًا أَنَّ ذَا الإِذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ قَبْلَ أَفْرِيقِشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) غَزَا المَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وَكَذَلِكَ ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرَ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِيَ الرَّمْلِ فِي بِلَادِ المَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مَسْلَكًا لِكَثْرَةِ الرَّمْلِ فَرَجَعَ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تُبَّعٍ الآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرِبٍ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَشْتَاسِفَ مِنْ مُلُوكِ الفُرْسِ الكِيَانِيَّةِ أَنَّهُ مَلَكَ المَوْصِلَ وَأَذْرَبِيجَانَ وَلَقِيَ التُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَثْخَنَ ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَغْزَى ثَلَاثَةً مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصُّغْدِ مِنْ بِلَادِ أُمَمِ التُّرْكِ وَرَاءَ النَّهْرِ وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ فَمَلَكَ الأَوَّلُ البِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ المَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِيَ الَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَثْخَنَا فِي بِلَادِ الصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعًا بِالغَنَائِمِ وَتَرَكُوا بِبِلَادِ الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فَهُمْ بِهَا إِلَى هَذَا العَهْدِ وَبَلَغَ الثَّالِثُ إِلَى قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا وَدَوَّخَ بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ وَهَذِهِ الأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الصِّحَّةِ عَرِيقَةٌ فِي الوَهْمِ وَالغَلَطِ وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيثِ القَصَصِ المَوْضُوعَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ مُلْكَ التَّبَابِعَةِ إِنَّمَا كَانَ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ وَقَرَارُهُمْ وَكُرْسِيُّهُمْ بِصَنْعَاءِ اليَمَنِ. وَجَزِيرَةُ العَرَبِ يُحِيطُ بِهَا البَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا فَبَحْرُ الهِنْدِ مِنَ الجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ الهَابِطُ مِنْهُ إِلَى البَصْرَةِ مِنَ المَشْرِقِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ الهَابِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ المَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فِي مُصَوَّرِ الجُغْرَافِيَا فَلَا يَجِدُ السَّالِكُونَ مِنَ اليَمَنِ إِلَى المَغْرِبِ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسِ وَالمَسْلَكُ هُنَاكَ مَا بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْسِ وَالبَحْرِ الشَّامِيِّ قَدْرُ مَرْحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا المَسْلَكِ

مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرَ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هٰذِهِ مُمْتَنِعٌ فِي الْعَادَةِ . وَقَدْ كَانَ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ الْعَمَالِقَةُ وَكَنْعَانُ بِالشَّامِ وَالْقِبْطُ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلَكَ الْعَمَالِقَةُ مِصْرَ وَمَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّامَ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَابِعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ هٰؤُلَاءِ الْأُمَمِ وَلَا مَلَكُوا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَأَيْضًا فَالشُّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَالْأَزْوِدَةُ وَالْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ احْتَاجُوا إِلَى انْتِهَابِ الزَّرْعِ وَالنَّعَمِ وَانْتِهَابِ الْبِلَادِ فِيمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكْفِي ذٰلِكَ لِلْأَزْوِدَةِ وَلِلْعُلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ نَقَلُوا كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَفِي لَهُمُ الرَّوَاحِلُ بِنَقْلِهِ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمُرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكُوهَا وَدَوَّخُوهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةُ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ الْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهٰؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهَيِّجَهُمْ فَتَحْصُلُ لَهُمُ الْمِيرَةُ بِالْمُسَالَمَةِ فَذٰلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعًا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ الْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ

وَأَمَّا وَادِي الرَّمْلِ الَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى كَثْرَةِ سَالِكِهِ وَمَنْ يَقُصُّ طُرُقَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْقُرَى فِي كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْغَرَابَةِ تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ التُّرْكِ وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ وَأُمَمُ فَارِسَ وَالرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَابِعَةَ مَلَكُوا بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ الرُّومِ وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْحِيرَةِ وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ ذٰلِكَ بَيْنَ ذِي الْأَذْعَارِ مِنْهُمْ وَكَيْكَاوُسَ مِنْ مُلُوكِ الْكَيَانِيَّةِ وَبَيْنَ تُبَّعٍ الْأَصْغَرِ أَبِي كَرِبَ وَيَسْتَاسِفَ مِنْهُمْ أَيْضًا وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بَعْدَ الْكَيَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمُجَاوَزَةِ أَرْضِ فَارِسَ بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتُّبَّتِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ أَجْلِ الْأُمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْأَزْوِدَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بُعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ فَالْأَخْبَارُ بِذٰلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةَ النَّقْلِ لَكَانَ ذٰلِكَ قَادِحًا فِيهَا فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَالْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ أَنَّ تُبَّعًا الْآخِرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ مَحْمُولًا عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَمَّا بِلَادُ التُّرْكِ وَالتُّبَّتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا بِوَجْهٍ لِمَا تَقَرَّرَ فَلَا تَثِقَنَّ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ وَتَأَمَّلِ الْأَخْبَارَ وَاعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَانِينِ

ٱلصَّحِيحَةِ يَقَعُ لَكَ تَمْحِيصُهَا بِأَحْسَنِ وَجْهٍ وَٱللّٰهُ ٱلْهَادِي إِلَى ٱلصَّوَابِ

فصل

وَأَبْعَدُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَعْرَقُ فِي ٱلْوَهْمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ ٱلْفَجْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرَمَ ٱسْماً لِمَدِينَةٍ وُصِفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينَ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عُوصِ بْنِ إِرَمَ ٱبْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ وَشَدَّادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَلَصَ ٱلْمُلْكُ لِشَدَّادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ وَصْفَ ٱلْجَنَّةِ فَقَالَ لَأَبْنِيَنَّ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مُدَّةِ ثَلٰثِمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ عُمْرُهُ تِسْعَمِائَةِ سَنَةٍ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا مِنَ ٱلذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ ٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلْيَاقُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ ٱلشَّجَرِ وَٱلْأَنْهَارُ ٱلْمُطَّرِدَةُ وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ. ذَكَرَ ذٰلِكَ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلثَّعَالِبِيُّ وَٱلزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ ٱلْمُفَسِّرِينَ وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ قِلَابَةَ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبَرُهُ مُعَاوِيَةَ فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَبَحَثَ عَنْ كَعْبِ ٱلْأَحْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمُ ذَاتُ ٱلْعِمَادِ وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشْقَرُ قَصِيرٌ عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالٌ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ فَأَبْصَرَ ٱبْنَ قِلَابَةَ فَقَالَ هٰذَا وَٱللّٰهِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلُ. وَهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمَئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بِقَاعِ ٱلْأَرْضِ وَصَحَارَى عَدَنَ ٱلَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسَطِ ٱلْيَمَنِ وَمَا زَالَ عُمْرَانُهُ مُتَعَاقِباً وَٱلْأَدِلَّاءُ تَقُصُّ طُرُقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ خَبَرٌ وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ ٱلْإِخْبَارِيِّينَ وَلَا مِنَ ٱلْأُمَمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دَرَسَتْ فِيمَا دَرَسَ مِنَ ٱلْآثَارِ لَكَانَ أَشْبَهَ إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوهَا وَقَدْ يَنْتَهِي ٱلْهَذَيَانُ بِبَعْضِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَعْثُرُ عَلَيْهَا أَهْلُ ٱلرِّيَاضَةِ وَٱلسِّحْرِ مَزَاعِمُ كُلُّهَا أَشْبَهُ بِٱلْخُرَافَاتِ وَٱلَّذِي حَمَلَ ٱلْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذٰلِكَ مَا ٱقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ ٱلْإِعْرَابِ فِي لَفْظَةِ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ أَنَّهَا صِفَةُ إِرَمَ وَحَمَلُوا ٱلْعِمَادَ عَلَى ٱلْأَسَاطِينِ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ بِنَاءً وَرَشَّحَ لَهُمْ ذٰلِكَ قِرَاءَةُ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ عَادِ إِرَمَ عَلَى ٱلْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِٱلْأَقَاصِيصِ ٱلْمَوْضُوعَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْكَذِبِ ٱلْمَنْقُولَةِ

في عِمَادِ الْمُضْحِكَاتِ وَإِلاَّ فَالْعِمَادُ هِيَ عِمَادُ الأَخْبِيَةِ بَلِ الْخِيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا الأَسَاطِينُ فَلاَ بِدْعَ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينَ عَلَى الْعُمُومِ بِمَا اشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ لاَ أَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ أُضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَعَلَى إِضَافَةِ الْفَصِيلَةِ إِلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا تَقُولُ قُرَيْشُ كِنَانَةَ وَإِلْيَاسُ مُضَرَ وَرَبِيعَةُ نِزَارٍ وَأَيُّ ضَرُورَةٍ إِلَى هٰذَا الْمَحْمَلِ الْبَعِيدِ الَّذِي تُمُحِّلَتْ لِتَوْجِيهِهِ لأَمْثَالِ هٰذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي يُنَزَّهُ كِتَابُ اللهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصِّحَّةِ وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مَوْلاَهُ وَأَنَّهُ لِكَلَفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهُمَا الْخَمْرَ أَذِنَ لَهُمَا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ دُونَ الْخَلْوَةِ حِرْصاً عَلَى اجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي الْتِمَاسِ الْخَلْوَةِ بِهِ لِمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا (زعموا في حالة السكر) فَحَمَلَتْ وَوُشِيَ بِذَلِكَ لِلرَّشِيدِ فَاسْتَغْضَبَ وَهَيْهَاتَ ذٰلِكَ مِنْ مَنْصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبَوَيْهَا وَجَلاَلِهَا وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلاَّ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ الدِّينِ وَعُظَمَاءُ الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ. وَالْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ ابْنِ عَبْدِ اللهِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّجَّادِ ابْنِ عَلِيٍّ أَبِي الْخُلَفَاءِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ تَرْجُمَانِ الْقُرْآنِ ابْنِ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ (صلعم) ابْنَةُ خَلِيفَةٍ أُخْتُ خَلِيفَةٍ مَحْفُوفَةٌ بِالْمُلْكِ الْعَزِيزِ وَالْخِلاَفَةِ النَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ الرَّسُولِ وَعُمُومَتِهِ وَإِقَامَةِ الْمِلَّةِ وَنُورِ الْوَحْيِ وَمَهْبِطِ الْمَلاَئِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِبَدَاوَةِ الْعُرُوبِيَّةِ وَسَذَاجَةِ الدِّينِ الْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَمَرَاتِعِ الْفَوَاحِشِ فَأَيْنَ يُطْلَبُ الصَّوْنُ وَالْعَفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا أَوْ أَيْنَ تُوجَدُ الطَّهَارَةُ وَالذَّكَاءُ إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا أَوْ كَيْفَ تُلْحِمُ نَسَبَهَا بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَتُدَنِّسُ شَرَفَهَا الْعَرَبِيَّ بِمَوْلًى مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ بِمِلْكَةِ جَدِّهِ مِنَ الْفُرْسِ أَوْ بِوَلاَءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُومَةِ الرَّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتُهُمْ بِضَبْعِهِ وَضَبْعِ أَبِيهِ وَاسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الأَشْرَافِ وَكَيْفَ يَسُوغُ مِنَ الرَّشِيدِ أَنْ يُصْهِرَ إِلَى مَوَالِي الأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ وَلَوْ نَظَرَ الْمُتَأَمِّلُ فِي ذٰلِكَ نَظَرَ الْمُنْصِفِ وَقَاسَ الْعَبَّاسَةَ بِابْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لاَسْتَنْكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا وَاسْتَنْكَرَهُ وَلَجَّ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَيْنَ قَدْرُ الْعَبَّاسَةِ وَالرَّشِيدِ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّمَا نَكَبُ الْبَرَامِكَةِ مَا كَانَ مِنِ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ وَاحْتِجَافِهِمْ

أَمْوَالَ الْجِبَايَةِ حَتَّى كَانَ الرَّشِيدُ يَطْلُبُ الْيَسِيرَ مِنَ الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَغَلَبُوهُ عَلَى أَمْرِهِ وَشَارَكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مُلْكِهِ فَعَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَبَعُدَ صِيتُهُمْ وَعَمَرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخِطَطَهَا بِالرُّؤَسَاءِ مِنْ وُلْدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَاحْتَازُوهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنْ وِزَارَةٍ وَكِتَابَةٍ وَقِيَادَةٍ وَحِجَابَةٍ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ. يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ بِدَارِ الرَّشِيدِ مِنْ وُلْدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَئِيساً مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ زَاحَمُوا فِيهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَاكِبِ وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا بِالرَّاحِ لِمَكَانِ أَبِيهِمْ يَحْيَى مِنْ كَفَالَةِ هَارُونَ وَلِيِّ عَهْدٍ وَخَلِيفَةً حَتَّى شَبَّ فِي حِجْرِهِ وَدَرَجَ مِنْ عُشِّهِ وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ فَتَوَجَّهَ الْإِيثَارُ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ وَعَظُمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ وَانْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ وَانْصَرَفَتْ نَحْوَهُمُ الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهُمُ الرِّقَابُ وَقُصِرَتْ عَلَيْهِمِ الْآمَالُ وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى التُّخُومِ هَدَايَا الْمُلُوكِ وَتُحَفُ الْأُمَرَاءِ وَتَسَرَّبَتْ إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ التَّزَلُّفِ وَالِاسْتِمَالَةِ أَمْوَالُ الْجِبَايَةِ وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشِّيعَةِ وَعُظَمَاءِ الْقَرَابَةِ الْعَطَاءَ وَطَوَّقُوهُمُ الْمِنَنَ وَكَسَبُوا مِنْ بُيُوتَاتِ الْأَشْرَافِ الْمُعْدَمَ وَفَكُّوا الْعَانِيَ وَمُدِحُوا بِمَا لَمْ يُمْدَحْ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ وَأَسْنَوْا لِعُفَاتِهِمِ الْجَوَائِزَ وَالصِّلَاتِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الضَّوَاحِي وَالْأَمْصَارِ فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ حَتَّى أَسِفُوا الْبِطَانَةَ وَأَحْقَدُوا الْخَاصَّةَ وَأَغَصُّوا أَهْلَ الْوِلَايَةِ فَكُشِفَتْ لَهُمْ وُجُوهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ وَدَبَّتْ إِلَى مِهَادِهِمِ الْوَثِيرِ مِنَ الدَّوْلَةِ عَقَارِبُ السِّعَايَةِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ بَنُو قَحْطَبَةَ أَخْوَالُ جَعْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَعْطِفْهُمْ لِمَا وَقَرَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ عَوَاطِفُ الرَّحِمِ وَلَا وَزَعَتْهُمْ أَوَاصِرُ الْقَرَابَةِ وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَاشِئُ الْغَيْرَةِ وَالِاسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجْرِ وَالْأَنَفَةِ وَكَانَ الْحُقُودُ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ الدَّالَّةِ وَانْتَهَى بِهَا الْإِصْرَارُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى كَبَائِرِ الْمُخَالَفَةِ كَقِصَّتِهِمْ فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الْمُلَقَّبِ بِالنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الْخَارِجِ عَلَى الْمَنْصُورِ وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ وَبَذَلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبَرِيُّ وَدَفَعَهُ الرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَرٍ وَجَعَلَ اعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ فَحَبَسَهُ مُدَّةً ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِحَلِّ عِقَالِهِ حَرَماً لِدِمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ وَدَالَّةً عَلَى السُّلْطَانِ فِي حُكْمِهِ. وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ فَفَطِنَ وَقَالَ أَطْلَقْتُهُ فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَ

الاستحسان وأسرّها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

وإن الرشيد لما سمعها قال إي والله إني عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ وما لي لا أعبد الذي فطرني وقال والله ما أدري لم فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً إياك إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما وأيضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاماً وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطأ يا أبا عبد الله

إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك وإني قد شغلتني الخلافة فضع أنت للناس
كتابا ينتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة
قال مالك فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد
هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه يوما وهو بمجلسه
يباشر الخياطين في إرقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدي من ذلك
وقال يا أمير المؤمنين عليّ كسوة هذه العيال عامنا هذا من عطائي فقال له لك ذلك ولم
يصده عنه ولا سمح بالإنفاق فيه من أموال المسلمين فكيف يليق بالرشيد على قرب
العهد من هذا الخليفة وأبوته وما ربي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلق
بها أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية في
اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها مذمة عند الكثير
منهم والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق
بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب وانظر ما نقله الطبري والمسعودي
في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أحضر له السمك في مائدته فحماه عنه ثم
أمر صاحب المائدة بحمله إلى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى
عاينه يتناوله فأعد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح خلط
إحداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصب على الثانية ماء مثلجا
وعلى الثالثة خمرا صرفا وقال في الأول والثاني هذا طعام أمير المؤمنين إن خلط السمك
بغيره أو لم يخلطه وقال في الثالث هذا طعام ابن بختيشوع ودفعها إلى صاحب المائدة
حتى إذا انتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ أحضر ثلاثة الأقداح فوجد صاحب الخمر
قد اختلط وأماع وتفتت ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما فكانت له في ذلك
معذرة وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته
وأهل مائدته ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة
حتى تاب وأقلع وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم
فيها معروفة وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الأخبار الواهية فيها
فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة ولقد كان

أُولٰئِكَ ٱلْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنِ ٱرْتِكَابِ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ مُتَنَاوَلَاتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ ٱلْبَدَاوَةِ وَسَذَاجَةِ ٱلدِّينِ ٱلَّتِي لَمْ يُفَارِقُوهَا بَعْدُ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ ٱلْإِبَاحَةِ إِلَى ٱلْحَظْرِ وَعَنِ ٱلْحِلَّةِ إِلَى ٱلْحُرْمَةِ وَلَقَدِ ٱتَّفَقَ ٱلْمُؤَرِّخُونَ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْمَسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي ٱلْعَبَّاسِ إِنَّمَا كَانُوا يَرْكَبُونَ بِٱلْحِلْيَةِ ٱلْخَفِيفَةِ مِنَ ٱلْفِضَّةِ فِي ٱلْمَنَاطِقِ وَٱلسُّيُوفِ وَٱللُّجُمِ وَٱلسُّرُوجِ وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحْدَثَ ٱلرُّكُوبَ بِحِلْيَةِ ٱلذَّهَبِ هُوَ ٱلْمُعْتَزُّ بْنُ ٱلْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ ٱلْخُلَفَاءِ بَعْدَ ٱلرَّشِيدِ وَهٰكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ وَيَتَبَيَّنُ ذٰلِكَ بِأَتَمَّ مِنْ هٰذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ ٱلدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ وَٱلْغَضَاضَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي مَسَائِلِ ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ وَٱللّٰهُ ٱلْهَادِي إِلَى ٱلصَّوَابِ . وَيُنَاسِبُ هٰذَا أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِي ٱلْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنَّهُ كَانَ يُعَاقِرُ ٱلْخَمْرَ وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرْبِهِ فَدُفِنَ فِي ٱلرَّيْحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ ... قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي

إِنِّي غَفَلْتُ عَنِ ٱلسَّاقِي فَصَيَّرَنِي ... كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ ٱلْعَقْلِ وَٱلدِّينِ

وَحَالُ ٱبْنِ أَكْثَمَ وَٱلْمَأْمُونِ فِي ذٰلِكَ مِنْ حَالِ ٱلرَّشِيدِ وَشَرَابُهُمْ إِنَّمَا كَانَ ٱلنَّبِيذَ وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عِنْدَهُمْ وَأَمَّا ٱلسُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَتْ خِلَّةً فِي ٱلدِّينِ وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي ٱلْبَيْتِ وَنُقِلَ فِي فَضَائِلِ ٱلْمَأْمُونِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ أَنَّهُ ٱنْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانَ فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ ٱلْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يُوقِظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ وَثَبَتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ ٱلصُّبْحَ جَمِيعًا فَأَيْنَ هٰذَا مِنَ ٱلْمُعَاقَرَةِ وَأَيْضًا فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ عِلْيَةِ أَهْلِ ٱلْحَدِيثِ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ ٱلْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيلُ ٱلْقَاضِي وَخَرَّجَ عَنْهُ ٱلتِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ ٱلْجَامِعَ وَذَكَرَ ٱلْمُزَنِيُّ ٱلْحَافِظُ أَنَّ ٱلْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ ٱلْجَامِعِ فَٱلْقَدْحُ فِيهِ قَدْحٌ فِي جَمِيعِهِمْ وَكَذٰلِكَ مَا يَنْبِزُهُ ٱلْمُجَّانُ بِٱلْمَيْلِ إِلَى ٱلْغِلْمَانِ بُهْتَانًا عَلَى ٱللّٰهِ وَفِرْيَةً عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنِدُونَ فِي ذٰلِكَ إِلَى أَخْبَارِ ٱلْقُصَّاصِ ٱلْوَاهِيَةِ ٱلَّتِي لَعَلَّهَا مِنِ ٱفْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّهُ كَانَ مَحْسُودًا فِي كَمَالِهِ وَخِلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ مُنَزَّهًا عَنْ مِثْلِ ذٰلِكَ وَقَدْ ذُكِرَ لِٱبْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ ٱلنَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ ٱللّٰهِ سُبْحَانَ ٱللّٰهِ وَمَنْ يَقُولُ هٰذَا وَأَنْكَرَ ذٰلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا وَأَثْنَى

عليه إسماعيل القاضي فقيل له ما كان يقال فيه فقال معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذيب باغ وحاسد وقال أيضاً يحيى بن أكثم أبرأ إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق فرمي بما رمي به ابن حبان في الثقات وقال لا يشتغل بما يحكى عنه لأن أكثرها لا يصح عنه ومن أمثال هذه الحكايات ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل في سبب إصهار المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته بوران وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنبيل مدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاعتقده وتناول المعالق فاهتزت وذهب به صعداً إلى مجلس شأنه كذا ووصف من زينة فرشه وتنضيد انيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس وأن امرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائقة الجمال فتانة المحاسن فحيته ودعته إلى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ورجع إلى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حباً بعثه على الإصهار إلى أبيها وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان الملة ومناظرته العلماء وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين(1) في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الأعراب وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وإنما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المخدرات ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيراً ما يلهجون بأشباه هذه الأخبار وينقرون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيراً لهم لو كانوا يعلمون ولقد عذلت يوماً بعض الأمراء من أبناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالأوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي أفلا

(1) المستهتر بالشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشتم له والذي كثرت اباطيله اه قاموس

تَرى إِلى إِبْراهيمَ بْنِ ٱلْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمامَ هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ وَرَئِيسَ ٱلْمُغَنِّينَ في زَمانِهِ فَقُلْتُ لَهُ يا سُبْحانَ ٱللّٰهِ وَهَلَّا تَأَسَّيْتَ بِأَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوَ ما رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذٰلِكَ بِإِبْراهِيمَ عَنْ مَناصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ وَٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ . وَمِنَ ٱلْأَخْبارِ ٱلْواهِيَةِ ما يَذْهَبُ إِلَيْهِ ٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْأَثْباتِ فِي ٱلْعُبَيْدِيِّينَ خُلَفاءِ ٱلشِّيعَةِ بِٱلْقَيْرَوانِ وَٱلْقاهِرَةِ مِنْ نَفْيِهِمْ عَنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ صَلَواتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِمْ وَٱلطَّعْنِ فِي نَسَبِهِمْ إِلى إِسْماعِيلَ ٱلْإِمامِ ٱبْنِ جَعْفَرٍ ٱلصّادِقِ يَعْتَمِدُونَ فِي ذٰلِكَ عَلى أَحادِيثَ لُفِّقَتْ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفاءِ بَنِي ٱلْعَبّاسِ تَزَلُّفًا إِلَيْهِمْ بِٱلْقَدْحِ فِيمَنْ ناصَبَهُمْ وَتَفَنُّنًا فِي ٱلشَّماتِ بِعَدُوِّهِمْ حَسْبَما نَذْكُرُ بَعْضَ هٰذِهِ ٱلْأَحادِيثِ فِي أَخْبارِهِمْ وَيَغْفُلُونَ عَنِ ٱلتَّفَطُّنِ لِشَواهِدِ ٱلْواقِعاتِ وَأَدِلَّةِ ٱلْأَحْوالِ ٱلَّتِي ٱقْتَضَتْ خِلافَ ذٰلِكَ مِنْ تَكْذِيبِ دَعْواهُمْ وَٱلرَّدِّ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مَبْدَإِ دَوْلَةِ ٱلشِّيعَةِ أَنَّ أَبا عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْمُحْتَسِبَ لَمّا دَعا بِكُتامَةَ لِلرِّضى مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَٱشْتَهَرَ خَبَرُهُ وَعُلِمَ تَحْوِيمُهُ عَلى عُبَيْدِ ٱللّٰهِ ٱلْمَهْدِيِّ وَٱبْنِهِ أَبِي ٱلْقاسِمِ خَشِيا عَلى أَنْفُسِهِما فَهَرَبا مِنَ ٱلْمَشْرِقِ مَحَلِّ ٱلْخِلافَةِ وَٱجْتازا بِمِصْرَ وَأَنَّهُما خَرَجا مِنَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي زِيِّ ٱلتُّجّارِ وَنُمِيَ خَبَرُهُما إِلى عِيسى ٱلنُّوشَرِيِّ عامِلِ مِصْرَ وَٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَسَرَّحَ فِي طَلَبِهِما ٱلْخَيّالَةَ حَتّى إِذا أُدْرِكا خَفِيَ حالُهُما عَلى تابِعِهِما بِما لَبِسُوا بِهِ مِنَ ٱلشّارَةِ وَٱلزِّيِّ فَأَفْلَتُوا إِلى ٱلْمَغْرِبِ وَأَنَّ ٱلْمُعْتَضِدَ أَوْعَزَ إِلى ٱلْأَغالِبَةِ أُمَراءِ أَفْرِيقِيا بِٱلْقَيْرَوانِ وَبَنِي مِدْرارٍ أُمَراءِ سِجِلْماسَةَ بِأَخْذِ ٱلْآفاقِ عَلَيْهِما وَإِذْكاءِ ٱلْعُيُونِ فِي طَلَبِهِما فَعَثَرَ أَلْيَسَعُ صاحِبُ سِجِلْماسَةَ مِنْ آلِ مِدْرارٍ عَلى خَفِيِّ مَكانِهِما بِبَلَدِهِ وَٱعْتَقَلَهُما مَرْضاةً لِلْخَلِيفَةِ هٰذا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ ٱلشِّيعَةُ عَلى ٱلْأَغالِبَةِ بِٱلْقَيْرَوانِ ثُمَّ كانَ بَعْدَ ذٰلِكَ ما كانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ ثُمَّ بِٱلْيَمَنِ ثُمَّ بِٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ثُمَّ بِمِصْرَ وَٱلشّامِ وَٱلْحِجازِ وَقاسَمُوا بَنِي ٱلْعَبّاسِ فِي مَمالِكِ ٱلْإِسْلامِ شِقَّ ٱلْأَبْلُمَةِ وَكادُوا يَلِجُونَ عَلَيْهِمْ مَواطِنَهُمْ وَيُزايِلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتَهُمْ بِبَغْدادَ وَعِراقِها ٱلْأَمِيرُ ٱلْبَساسِيرِيُّ مِنْ مَوالِي ٱلدَّيْلَمِ ٱلْمُتَغَلِّبِينَ عَلى خُلَفاءِ بَنِي ٱلْعَبّاسِ فِي مُغاضَبَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمَراءِ ٱلْعَجَمِ وَخَطَبَ لَهُمْ عَلى مَنابِرِها حَوْلًا كامِلًا وَما زالَ بَنُو ٱلْعَبّاسِ يَغَصُّونَ بِمَكانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ وَمُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةَ وَراءَ ٱلْبَحْرِ يُنادُونَ بِٱلْوَيْلِ وَٱلْحَرْبِ مِنْهُمْ وَكَيْفَ يَقَعُ هٰذا كُلُّهُ لِدَعِيٍّ فِي ٱلنَّسَبِ يَكْذِبُ فِي ٱنْتِحالِ ٱلْأَمْرِ وَٱعْتَبِرْ حالَ ٱلْقَرْمَطِيِّ إِذْ كانَ دَعِيًّا فِي

انتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرقت أتباعه وظهر سريعا على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم ولو كان أمر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام إبراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة ثم انقرض أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ولقد خرجوا مرارا بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها داعين إلى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون إلى تعيينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من الأئمة ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله والعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين كيف يجنح إلى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الرأي الضعيف فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين والتعمق في الرافضية فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم وليس إثبات منتسبهم بالذي يغني عنهم من الله شيئا في كفرهم فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها يا فاطمة اعملي فلن أغني عنك من الله شيئا ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمرا وجب عليه أن يصدع به والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل

فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت وأين مكاني ما عرفن مكانيا

حتى لقد سمي محمد بن إسماعيل الإمام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من إخفائه حذرا من المتغلبين عليهم فتوصل شيعة بني العباس بذلك عند ظهورهم إلى الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الرأي القائل للمستضعفين

مِنْ خُلَفَائِهِمْ وَأُعْجِبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأُمَرَاءُ دَوْلَتِهِمْ ٱلْمُتَوَلُّونَ لِحُرُوبِهِمْ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعَرَّةَ ٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلْمُقَاوَمَةِ وَٱلْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلَبَهُمْ عَلَى ٱلشَّامِ وَمِصْرَ وَٱلْحِجَازِ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ ٱلْكُتَامِيِّينَ شِيعَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَأَهْلِ دَعْوَتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ ٱلْقُضَاةُ بِبَغْدَادَ بِنَفْيِهِمْ عَنْ هٰذَا ٱلنَّسَبِ وَشَهِدَ بِذٰلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ ٱلنَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمُ ٱلشَّرِيفُ ٱلرَّضِيُّ وَأَخُوهُ ٱلْمُرْتَضَى وَٱبْنُ ٱلْبَطْحَاوِيِّ وَمِنَ ٱلْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدٍ ٱلْإِسْفِرَايِينِيُّ وَٱلْقُدُورِيُّ وَٱلصَّيْمَرِيُّ وَٱبْنُ ٱلْأَكْفَانِيِّ وَٱلْأَبِيوَرْدِيُّ وَأَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ فَقِيهُ ٱلشِّيعَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَعْلَامِ ٱلْأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ وَذٰلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فِي أَيَّامِ ٱلْقَادِرِ وَكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلسَّمَاعِ لِمَا ٱشْتَهَرَ وَعُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِبَغْدَادَ وَغَالِبُهَا شِيعَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلطَّاعِنُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّسَبِ فَنَقَلَهُ ٱلْأَخْبَارِيُّونَ كَمَا سَمِعُوهُ وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا وَعَوْهُ وَٱلْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي كِتَابِ ٱلْمُعْتَضِدِ فِي شَأْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ إِلَى ٱبْنِ ٱلْأَغْلَبِ بِٱلْقَيْرَوَانِ وَٱبْنِ مِدْرَارٍ بِسِجِلْمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ فَٱلْمُعْتَضِدُ أَقْعَدُ بِنَسَبِ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَٱلدَّوْلَةُ وَٱلسُّلْطَانُ سُوقٌ لِلْعَالَمِ تُجْلَبُ إِلَيْهِ بَضَائِعُ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَتُلْتَمَسُ فِيهِ ضَوَالُّ ٱلْحِكَمِ وَتُحْدَى إِلَيْهِ رَكَائِبُ ٱلرِّوَايَاتِ وَٱلْأَخْبَارِ وَمَا نَفَقَ فِيهَا نَفَقَ عِنْدَ ٱلْكَافَّةِ فَإِنْ تَنَزَّهَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَنِ ٱلتَّعَسُّفِ وَٱلْمَيْلِ وَٱلْأَفَنِ وَٱلسَّفْسَفَةِ وَسَلَكَتِ ٱلنَّهْجَ ٱلْأَمَمَ وَلَمْ تَجُرْ[1] عَنْ قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ نَفَقَ فِي سُوقِهَا ٱلْإِبْرِيزُ ٱلْخَالِصُ وَٱللُّجَيْنُ ٱلْمُصَفَّى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ ٱلْأَغْرَاضِ وَٱلْحُقُودِ وَمَاجَتْ بِسَمَاسِرَةِ ٱلْعَرَبِ ٱلْبَغْيِ وَٱلْبَاطِلِ نَفَقَ ٱلْبَهْرَجُ وَٱلزَّائِفُ وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ نَظَرُهُ قِسْطَاسُ بَحْثِهِ وَمِيزَانُ وَمُلْتَمَسِهِ وَمِثْلُ هٰذَا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَاجَى بِهِ ٱلطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ ٱلْحَسَنِ ٱبْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رضوان ٱلله عليهم) ٱلْإِمَامِ بَعْدَ أَبِيهِ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَيُعَرِّضُونَ تَعْرِيضَ ٱلْحَدِّ بِٱلتَّظَنُّنِ فِي ٱلْحَمْلِ ٱلْمُخَلَّفِ عَنْ إِدْرِيسَ ٱلْأَكْبَرِ إِنَّهُ لِرَاشِدٍ مَوْلَاهُمْ قَبَّحَهُمُ ٱللهُ وَأَبْعَدَهُمْ مَا أَجْهَلَهُمْ أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ ٱلْأَكْبَرَ كَانَ إِصْهَارُهُ فِي ٱلْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ ٱلْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِي ٱلْبَدْوِ وَأَنَّ حَالَ ٱلْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ إِذْ لَا مَكَامِنَ لَهُمْ يَتَأَتَّى فِيهَا ٱلرَّيْبُ وَأَحْوَالُ حُرَمِهِمْ أَجْمَعِينَ بِمَرْأَى مِنْ جَارَاتِهِنَّ وَمَسْمَعٍ مِنْ جِيرَانِهِنَّ لِتَلَاصُقِ ٱلْجُدْرَانِ وَتَطَامُنِ ٱلْبُنْيَانِ وَعَدَمِ ٱلْفَوَاصِلِ بَيْنَ ٱلْمَسَاكِنِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَلَّى

(١) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جار اي لم تمل اه

خدمة الحرم أجمع من بعد مولاه بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب الأقصى عامة على بيعة أدريس الأصغر من بعد أبيه وآتوه طاعتهم عن رضى وإصفاق وبايعوه على الموت الأحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح أو منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم ومن بني الأغلب عمالهم كانوا بأفريقية وولاتهم وذلك أنه لما فر أدريس الأكبر إلى المغرب من وقعة فخ أوعز الهادي إلى الأغالبة أن يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص إلى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الإسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية وإدهانه في نجاة أدريس إلى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالي المهدي أبيه للتحيل على قتل أدريس فأظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه فاشتمل عليه أدريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته سماً استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بني العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولما تأدى إليهم خبر الحمل المخلف لأدريس فلم يكن لهم إلا كلا ولا وإذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بأدريس بن أدريس قد تجددت فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام وكان الفشل والهرم قد نزلا بدولة العرب عن أن يسموا إلى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على أدريس الأكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه إلا التحيل في إهلاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا إلى أوليائهم من الأغالبة بأفريقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشج منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الأغالبة عن برابرة المغرب الأقصى أعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتزاء مماليك العجم على سدتها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل خططها وسائر نقضها وإبرامها كما قال شاعرهم

خَلِيفَةٌ فِي قَفَصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وَبُغَا
يَقُولُ مَا قَالاَ لَهُ كَمَا تَقُولُ ٱلْبَبغَا

فَخَشِيَ هٰؤُلاَءِ ٱلْأُمَرَاءُ ٱلْأَغَالِبَةُ بَوَادِرَ ٱلسِّعَايَاتِ وَتَلَوْا بِٱلْمَعَاذِيرِ فَطَوْرًا بِٱحْتِقَارِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ وَطَوْرًا بِٱلْإِرْهَابِ بِشَأْنِ أَدْرِيسَ ٱلْخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ أَعْقَابِهِ يُخَاطِبُونَهُمْ بِتَجَاوُزِهِ حُدُودَ ٱلتُّخُومِ مِنْ عَمَلِهِ وَيُنْفِذُونَ سِكَّتَهُ فِي تُحَفِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمُرْتَفَعِ جِبَايَاتِهِمْ تَعْرِيضًا بِٱسْتِفْحَالِهِ وَتَهْوِيلاً بِٱشْتِدَادِ شَوْكَتِهِ وَتَعْظِيمًا لِمَا دُفِعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَمِرَاسِهِ وَتَهْدِيدًا بِقَلْبِ ٱلدَّعْوَةِ إِنْ أُلْجِئُوا إِلَيْهِ وَطَوْرًا يَطْعَنُونَ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بِمِثْلِ ذٰلِكَ ٱلطَّعْنِ ٱلْكَاذِبِ تَخْفِيضًا لِشَأْنِهِ لاَ يُبَالُونَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ لِبُعْدِ ٱلْمَسَافَةِ وَأَفَنِ عُقُولِ مَنْ خَلَفَ مِنْ صِبْيَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَمَمَالِيكِهِمِ ٱلْعَجَمِ فِي ٱلْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ وَٱلسَّمْعِ لِكُلِّ نَاعِقٍ وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا دَأْبَهُمْ حَتَّى ٱنْقَضَى أَمْرُ ٱلْأَغَالِبَةِ فَقَرَعَتْ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ ٱلشَّنْعَاءُ أَسْمَاعَ ٱلْغَوْغَاءِ وَصَرَّ عَلَيْهَا بَعْضُ ٱلطَّاعِنِينَ أُذُنَهُ وَٱعْتَدَّهَا ذَرِيعَةً إِلَى ٱلنَّيْلِ مِنْ خَلَفِهِمْ عِنْدَ ٱلْمُنَافَسَةِ وَمَا لَهُمْ قَبَّحَهُمُ ٱللّٰهُ وَٱلْعُدُولَ عَنْ مَقَاصِدِ ٱلشَّرِيعَةِ فَلاَ تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ ٱلْمَقْطُوعِ وَٱلْمَظْنُونِ وَأَدْرِيسُ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ وَٱلْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ عَلَى أَنَّ تَنْزِيهَ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هٰذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ ٱلْإِيمَانِ فَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمُ ٱلرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا فَفِرَاشُ أَدْرِيسَ طَاهِرٌ مِنَ ٱلدَّنَسِ وَمُنَزَّهٌ عَنِ ٱلرِّجْسِ بِحُكْمِ ٱلْقُرْآنِ وَمَنِ ٱعْتَقَدَ خِلاَفَ هٰذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ وَوَلَجَ ٱلْكُفْرَ مِنْ بَابِهِ وَإِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِي هٰذَا ٱلرَّدِّ سَدًّا لِأَبْوَابِ ٱلرِّيَبِ وَدَفْعًا فِي صَدْرِ ٱلْحَاسِدِ لِمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ مِنْ قَائِلِهِ ٱلْمُعْتَدِي عَلَيْهِمِ ٱلْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفِرْيَتِهِ وَيَنْقُلُهُ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ مُؤَرِّخِي ٱلْمَغْرِبِ مِمَّنِ ٱنْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَٱرْتَابَ فِي ٱلْإِيمَانِ بِسَلَفِهِمْ وَإِلاَّ فَٱلْمَحَلُّ مُنَزَّهٌ عَنْ ذٰلِكَ مَعْصُومٌ مِنْهُ وَنَفْيُ ٱلْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ ٱلْعَيْبُ عَيْبٌ لٰكِنِّي جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلْتَعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ ٱلطَّاعِنِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمُ ٱلْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ أَدْرِيسَ هٰذَا مِنْ مُنْتَمٍ إِلَى أَهْلِ ٱلْبَيْتِ أَوْ دَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنَّ ٱدِّعَاءَ هٰذَا ٱلنَّسَبِ ٱلْكَرِيمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِيضَةٌ عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ ٱلْآفَاقِ فَتَعْرِضُ ٱلتُّهْمَةُ فِيهِ وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِي أَدْرِيسَ هٰؤُلاَءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَاسَ وَسَائِرِ دِيَارِ ٱلْمَغْرِبِ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْوُضُوحِ مَبْلَغًا لاَ يَكَادُ يُلْحَقُ وَلاَ يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي

دَرْكِه إِذْ هُوَ نَقْلُ ٱلْأُمَّةِ وَٱلْجِيلِ مِنَ ٱلْخَلَفِ عَنِ ٱلْأُمَّةِ وَٱلْجِيلِ مِنَ ٱلسَّلَفِ وَبَيْتُ جَدِّهِمْ
أَدْرِيسَ مُخْتَطِّ فَاسَ وَمُؤَسِّسِهَا مِنْ بُيُوتِهِمْ وَمَسْجِدُهُ لِصْقُ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ وَسَيْفُهُ
مُنْتَضًى بِرَأْسِ ٱلْمَأْذَنَةِ ٱلْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ آثَارِهِ ٱلَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا
حُدُودَ ٱلتَّوَاتُرِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِٱلْعِيَانِ فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلنَّسَبِ إِلَى
مَا أَتَاهُمُ ٱللّٰهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَضَدَ شَرَفَهُمُ ٱلنَّبَوِيَّ مِنْ جَلَالِ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي كَانَ لِسَلَفِهِمْ
بِٱلْمَغْرِبِ وَٱسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذٰلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ وَأَنَّ غَايَةَ
أَمْرِ ٱلْمُنْتَمِينَ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلشَّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ
لَهُمْ حَالُهُمْ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ مُصَدَّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَبَوْنٌ مَا بَيْنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلظَّنِّ وَٱلْيَقِينِ وَٱلتَّسْلِيمِ
فَإِذَا عَلِمَ بِذٰلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَصَّ بِرِيقِهِ وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذٰلِكَ
سُوقَةً وَوُضَعَاءَ (١) حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى ٱلْعِنَادِ وَٱرْتِكَابِ ٱللَّجَاجِ
وَٱلْبُهْتِ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلطَّعْنِ ٱلْفَائِلِ وَٱلْقَوْلِ ٱلْمَكْذُوبِ تَعَلُّلًا بِٱلْمُسَاوَاةِ فِي ٱلظِّنَّةِ وَٱلْمُشَابَهَةِ
فِي تَطَرُّقِ ٱلِاحْتِمَالِ وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ فِي ٱلْمَغْرِبِ فِيمَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْبَيْتِ
ٱلْكَرِيمِ مَنْ يَبْلُغُ فِي صَرَاحَةِ نَسَبِهِ وَوُضُوحِهِ مَبَالِغَ أَعْقَابِ أَدْرِيسَ هٰذَا مِنْ آلِ
ٱلْحَسَنِ وَكُبَرَاؤُهُمْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَنُو عِمْرَانَ بِفَاسَ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى ٱلْجُوطِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى
ٱلْعَوَّامِ بْنِ ٱلْقَاسِمِ بْنِ أَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ وَهُمْ نُقَبَاءُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ هُنَاكَ وَٱلسَّاكِنُونَ بِبَيْتِ
جَدِّهِمْ أَدْرِيسَ وَلَهُمُ ٱلسِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ كَافَّةً حَسْبَمَا نَذْكُرُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ
ٱلْأَدَارِسَةِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَيَلْحَقُ بِهٰذِهِ ٱلْمَقَالَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ وَٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفَائِلَةِ مَا
يَتَنَاوَلُهُ ضَعَفَةُ ٱلرَّأْيِ مِنْ فُقَهَاءِ ٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْقَدْحِ فِي ٱلْإِمَامِ ٱلْمَهْدِيِّ صَاحِبِ دَوْلَةِ
ٱلْمُوَحِّدِينَ وَنِسْبَتِهِ إِلَى ٱلشَّعْوَذَةِ وَٱلتَّلْبِيسِ فِيمَا أَتَاهُ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِٱلتَّوْحِيدِ ٱلْحَقِّ وَٱلنَّعْيِ
عَلَى أَهْلِ ٱلْبَغْيِ قَبْلَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ لِجَمِيعِ مُدَّعَيَاتِهِ فِي ذٰلِكَ حَتَّى فِيمَا يَزْعُمُ ٱلْمُوَحِّدُونَ
أَتْبَاعُهُ مِنِ ٱنْتِسَابِهِ فِي أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَإِنَّمَا حَمَلَ ٱلْفُقَهَاءَ عَلَى تَكْذِيبِهِ مَا كَمَنَ فِي نُفُوسِهِمْ
مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُنَاهَضَتَهُ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْفُتْيَا وَفِي ٱلدِّينِ
بِزَعْمِهِمْ ثُمَّ ٱمْتَازَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُ مَتْبُوعُ ٱلرَّأْيِ مَسْمُوعُ ٱلْقَوْلِ مَوْطُوءُ ٱلْعَقِبِ نَفِسُوا ذٰلِكَ عَلَيْهِ
وَغَضُّوا مِنْهُ بِٱلْقَدْحِ فِي مَذَاهِبِهِ وَٱلتَّكْذِيبِ لِمُدَّعَيَاتِهِ وَأَيْضًا فَكَانُوا يُؤْنِسُونَ مِنَ

(١) قوله ووضعا بضم الواو جمع وضيع اه.

ملوك المتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتثريب عليهم والمناصبة لهم تشيعا للمتونة وتعصبا لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاؤهم فنادى في قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصارا وحامية وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من الهلكة وتقربوا إلى الله تعالى بإتلاف مهجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه حتى الولد الذي ربما تجنح إليه النفوس وتخادع عن تمنيه فليت شعري ما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره وانفسحت دعوته سنة الله التي قد خلت في عباده وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانتسب إليه فلا دليل يقوم على بطلانه لأن الناس مصدقون في أنسابهم وإن قالوا إن الرئاسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما يأتي في الفصل الأول من هذا الكتاب والرجل قد رأس سائر المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد إليه وإلى عصابته من هرغة حتى تم أمر الله في دعوته فاعلم أن هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه وإنما كان اتباعهم له بعصبية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم فيكون النسب الأول كأنه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره الانتساب الأول في عصبيته إذ هو مجهول عند أهل العصابة ومثل هذا واقع كثيرا إذا كان النسب الأول خفيا وانظر

قِصَّةَ عَرْفَجَةَ وَجَرِيرٍ فِي رِئَاسَةِ بَجِيلَةَ وَكَيْفَ كَانَ عَرْفَجَةُ مِنَ ٱلْأَزْدِ وَلَبِسَ جِلْدَةَ بَجِيلَةَ حَتَّى تَنَازَعَ مَعَ جَرِيرٍ رِئَاسَتَهُمْ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ تَتَفَهَّمُ مِنْهُ وَجْهَ ٱلْحَقِّ وَٱللهُ ٱلْهَادِي لِلصَّوَابِ وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ ٱلْكِتَابِ بِٱلْإِطْنَابِ فِي هٰذِهِ ٱلْمَغَالِطِ فَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَثْبَاتِ وَٱلْمُؤَرِّخِينَ ٱلْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱلْآرَاءِ وَعَلِقَتْ أَفْكَارُهُمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ ٱلْكَافَّةُ مِنْ ضَعَفَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَٱنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ ٱلتَّارِيخِ وَاهِيًا مُخْتَلِطًا وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكًا وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي ٱلْعَامَّةِ فَإِذًا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْبِقَاعِ وَٱلْأَعْصَارِ فِي ٱلسِّيَرِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْعَوَائِدِ وَٱلنِّحَلِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْإِحَاطَةِ بِٱلْحَاضِرِ مِنْ ذٰلِكَ وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْغَائِبِ مِنَ ٱلْوِفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ ٱلْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَٱلْمُخْتَلِفِ وَٱلْقِيَامِ عَلَى أُصُولِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْمِلَلِ وَمَبَادِىءِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا وَأَحْوَالِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ خَبَرَ ٱلْمَنْقُولِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأُصُولِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَٱسْتَغْنَى عَنْهُ وَمَا ٱسْتَكْبَرَ ٱلْقُدَمَاءُ عِلْمَ ٱلتَّارِيخِ إِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى ٱنْتَحَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْبُخَارِيُّ وَٱبْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ وَقَدْ ذَهَلَ ٱلْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا ٱلسِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱنْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَٱسْتَخَفَّ ٱلْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي ٱلْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَٱلْخَوْضَ فِيهِ وَٱلتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ وَٱللُّبَابُ بِٱلْقِشْرِ وَٱلصَّادِقُ بِٱلْكَاذِبِ وَإِلَى ٱللهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ وَمِنَ ٱلْغَلَطِ ٱلْخَفِيِّ فِي ٱلتَّارِيخِ ٱلذُّهُولُ عَنْ تَبَدُّلِ ٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَعْصَارِ وَمُرُورِ ٱلْأَيَّامِ وَهُوَ دَاءٌ دَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْخَفَاءِ إِذْ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ فَلَا يَكَادُ يَتَفَطَّنُ لَهُ إِلَّا ٱلْآحَادُ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ وَذٰلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنِحَلَهُمْ لَا تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَاجٍ مُسْتَقِرٍّ إِنَّمَا هُوَ ٱخْتِلَافٌ عَلَى ٱلْأَيَّامِ وَٱلْأَزْمِنَةِ وَٱنْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَشْخَاصِ وَٱلْأَوْقَاتِ وَٱلْأَمْصَارِ فَكَذٰلِكَ يَقَعُ فِي ٱلْآفَاقِ وَٱلْأَقْطَارِ وَٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلدُّوَلِ سُنَّةُ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَتْ فِي ٱلْعَالَمِ أُمَمُ ٱلْفُرْسِ ٱلْأُولَى وَٱلسِّرْيَانِيُّونَ

وَالنَّبطُ وَالتَّبابِعةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقِبطُ وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُوَلِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ وَأَحْوَالِ اعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمِ الْفُرْسُ الثَّانِيَةُ وَالرُّومُ وَالْعَرَبُ فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ وَانْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةِ مُضَرَ فَانْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارَفٌ لِهٰذَا الْعَهْدِ يَأْخُذُهُ الْخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ ثُمَّ دَرَسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتِ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شَيَّدُوا عِزَّهُمْ وَمَهَّدُوا مُلْكَهُمْ وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْفِرَنْجَةِ بِالشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَمٌ وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالٌ وَعَوَائِدُ نُسِيَ شَأْنُهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكَمِيَّةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ وَأَهْلُ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذٰلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضًا بَعْضَ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلْأُولَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّدْرِيجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُبَايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ فَمَا دَامَتِ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَاقِعَةً وَالْقِيَاسُ وَالْمُحَاكَاةُ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنَ الْغَلَطِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ قَصْدِهِ وَتَعْوَجُّ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ السَّامِعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ وَانْقِلَابِهَا فَيُجْرِيهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيسُهَا بِمَا شَهِدَ وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْغَلَطِ فَمِنْ هٰذَا الْبَابِ مَا يَنْقُلُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْحَجَّاجِ وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ مَعَ أَنَّ التَّعْلِيمَ لِهٰذَا الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَّةِ الْبَعِيدَةِ مِنِ اعْتِزَازِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْمُعَلِّمُ مُسْتَضْعَفٌ مِسْكِينٌ مُنْقَطِعُ الْجِذْمِ (١) فَيَتَشَوَّفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلِ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ

(١) الجذم الاصل اه قاموس

المعاشية إلى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ويعدّونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها في حقهم وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلّمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والإسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم وشرفوا فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمة لا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا يزعهم عاذل الأنفة ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم فما استقر الإسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيام أحوالها وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطإ وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقراً عند أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام ومن هذا الباب أيضاً ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ إذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرئاسة في الحروب وقود العساكر فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب يحسبون أن الشأن خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنون بابن أبي عامر صاحب

هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف بإشبيلية إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبينه في فصل القضاء من الكتاب الأول وابن أبي عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرئاسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظائم الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغنى فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة بفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبيات (1) من البربر فبقيت أنسابهم العربية محفوظة والذريعة إلى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر ورئموا للمذلة يحسبون أن أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكم فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصدين لذلك ساعين في نيله فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر فقلما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره. ومن هذا الباب أيضا ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون

---

(1) العصبية بفتحتين التعصب وهو ان يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره منسوبة الى العصبة محركة وهم اقارب الرجل من قبل ابيه لانهم هم الذابون عن حريمهم من هو منهم وهي بهذا المعنى ممدوحة واما العصبية المذمومة في الحديث الجامع الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة اخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام نسبة الى العصبة بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير اقرار به ظالما كان او مظلوما وفي الفتاوي الخيرية من موانع قبول الشهادة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لانه من بني فلان او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث ليس منا من دعي الى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه. قاله الاستاذ ابو الوفا اه

تَوَارِيخِهِمْ لِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَبْنَاؤُهَا مُتَشَوِّفُونَ إِلَى سِيَرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لِيَقْتَفُوا آثَارَهُمْ وَيَنْسِجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ حَتَّى فِي ٱصْطِنَاعِ ٱلرِّجَالِ مِنْ خَلَفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ ٱلْخِطَطِ وَٱلْمَرَاتِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَٱلْقُضَاةُ أَيْضًا كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ ٱلدَّوْلَةِ وَفِي عِدَادِ ٱلْوُزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ لَكَ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ ٱلدُّوَلُ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ ٱلْعُصُورِ وَوَقَفَ ٱلْغَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱلْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَنِسَبِ ٱلدُّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فِي قُوَّتِهَا وَغَلَبَتِهَا وَمَنْ كَانَ يُنَاهِضُهَا مِنَ ٱلْأُمَمِ أَوْ يَقْصُرُ عَنْهَا فَمَا ٱلْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي هٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي ذِكْرِ ٱلْأَبْنَاءِ وَٱلنِّسَاءِ وَنَقْشِ ٱلْخَاتَمِ وَٱللَّقَبِ وَٱلْقَاضِي وَٱلْوَزِيرِ وَٱلْحَاجِبِ مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيمَةٍ لَا يُعْرَفُ فِيهَا أُصُولُهُمْ وَلَا أَنْسَابُهُمْ وَلَا مَقَامَاتُهُمْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ ٱلتَّقْلِيدُ وَٱلْغَفْلَةُ عَنْ مَقَاصِدِ ٱلْمُؤَلِّفِينَ ٱلْأَقْدَمِينَ وَٱلذُّهُولُ عَنْ تَحَرِّي ٱلْأَغْرَاضِ مِنَ ٱلتَّارِيخِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا ذِكْرَ ٱلْوُزَرَاءِ ٱلَّذِينَ عَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَعَفَتْ عَنِ ٱلْمُلُوكِ أَخْبَارُهُمْ كَٱلْحَجَّاجِ وَبَنِي ٱلْمُهَلَّبِ وَٱلْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَكَافُورٍ ٱلْإِخْشِيدِيِّ وَٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَغَيْرُ نَكِيرٍ ٱلْإِلْمَاعُ بِآبَائِهِمْ وَٱلْإِشَارَةُ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لِٱنْتِظَامِهِمْ فِي عِدَادِ ٱلْمُلُوكِ. وَلْنَذْكُرْ هُنَا فَائِدَةً نَخْتِمُ كَلَامَنَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ بِهَا وَهِيَ أَنَّ ٱلتَّارِيخَ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْخَاصَّةِ بِعَصْرٍ أَوْ جِيلٍ فَأَمَّا ذِكْرُ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْعَامَّةِ لِلْآفَاقِ وَٱلْأَجْيَالِ وَٱلْأَعْصَارِ فَهُوَ أُسٌّ لِلْمُؤَرِّخِ تَنْبَنِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ وَتَتَبَيَّنُ بِهِ أَخْبَارُهُ وَقَدْ كَانَ ٱلنَّاسُ يُفْرِدُونَهُ بِٱلتَّأْلِيفِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مُرُوجِ ٱلذَّهَبِ شَرَحَ فِيهِ أَحْوَالَ ٱلْأُمَمِ وَٱلْآفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ ٱلثَّلَاثِينَ وَٱلثَّلَاثِمِائَةِ غَرْبًا وَشَرْقًا وَذَكَرَ نِحَلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ ٱلْبُلْدَانَ وَٱلْجِبَالَ وَٱلْبِحَارَ وَٱلْمَمَالِكَ وَٱلدُّوَلَ وَفَرَّقَ شُعُوبَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ فَصَارَ إِمَامًا لِلْمُؤَرِّخِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَأَصْلًا يُعَوِّلُونَ فِي تَحْقِيقِ ٱلْكَثِيرِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ ثُمَّ جَاءَ ٱلْبَكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَسَالِكِ وَٱلْمَمَالِكِ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ ٱلْأُمَمَ وَٱلْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ يَقَعْ فِيهَا كَثِيرُ ٱنْتِقَالٍ وَلَا عَظِيمُ تَغَيُّرٍ وَأَمَّا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَهُوَ آخِرُ ٱلْمِائَةِ ٱلثَّامِنَةِ فَقَدِ ٱنْقَلَبَتْ أَحْوَالُ ٱلْمَغْرِبِ ٱلَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِٱلْجُمْلَةِ وَٱعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ ٱلْبَرْبَرِ أَهْلُهُ عَلَى ٱلْقِدَمِ بِمَا طَرَأَ فِيهِ مِنْ لَدُنِ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ ٱلْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ وَٱنْتَزَعُوا مِنْهُمْ عَامَّةَ ٱلْأَوْطَانِ وَشَارَكُوهُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنَ ٱلْبُلْدَانِ لِمُلْكِهِمْ هٰذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِٱلْعُمْرَانِ

شرقًا وغربًا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلّص من ظلالها وفلّ من حدّها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدّل الساكن وكأنّي بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدّل الخلق من أصله وتحوّل العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلاً يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إمّا صريحًا أو مندرجًا في أخباره وتلويحًا لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطّلاعي على أحوال المشرق وأممه وأن الأخبار المتناقلة لا تفي كنه ما أريده منه والمسعودي إنما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلّبه في البلاد كما ذكر في كتابه مع أنه لمّا ذكر المغرب قصّر في استيفاء أحواله وفوق كل ذي علم عليم ومردّ العلم كله إلى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعيّن واجب ومن كان الله في عونه تيسّرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب ونحن آخذون بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف والله المسدّد والمعين وعليه التكلان وقد بقي علينا أن نقدّم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب إذا عرضت في كتابنا هذا

إعلم أنّ الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد هي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس أو بقرع الشفتين أيضًا فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع

وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا وفي لغتنا أيضاً حروف ليست في لغتهم وكذلك الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم ثم إن أهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء إلى آخر الثمانية والعشرين وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملاً عن الدلالة الكتابية مغفلاً عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتنفه من لغتنا قبله أو بعده وليس بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله. ولما كان كتابنا مشتملاً على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لأنه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارىء بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام كالصراط في قراءة خلف فإن النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل اسم بلكين فأضعها كافاً وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو اثنتين فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً ليعلم القارىء أنه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا

لُغَةَ الْقَوْمِ فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَاللّٰهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

الكتاب الاول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال . ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه . فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله . ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار ايضاً الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح . ومنها الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب . ومنها توهم الصدق وهو كثير وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه . ومنها تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها . ومن الأسباب المقتضية له أيضاً وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الأحوال في العمران فإن كل حادث من الحوادث

ذاتاً كان أو فعلاً لا بدّ له من طبيعة تخصّه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا أبلغ في التمحيص من كلّ وجه يعرض وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودي عن الإسكندر لمّا صدّته دوابّ البحر عن بناء الإسكندرية وكيف اتّخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر حتّى صوّر تلك الدوابّ الشيطانية التي راها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرّت تلك الدوابّ حين خرجت وعاينتها وتمّ بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتّخاذه التابوت الزجاجيّ ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه ومن قبل أنّ الملوك لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرور ومن اعتمده منهم فقد عرّض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس إلى غيره وفي ذلك إتلافه ولا ينتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفة عين ومن قبل أنّ الجنّ لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختصّ بها إنّما هي قادرة على التشكّل وما يذكر من كثرة الرؤوس لها فإنّما المراد به البشاعة والتهويل لا أنّه حقيقة ٠ وهذه كلّها قادحة في تلك الحكاية والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كلّه وهو أنّ المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفّس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلّته فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدّل لمزاج الرئة والروح القلبيّ ويهلك مكانه وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمّامات إذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلّين في الآبار والمطامير العميقة المهوى إذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فإنّ المتدلّي فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر فإنّ الهواء لا يكفيه في تعديل رئته إذ هو حارّ بإفراط والماء الذي يعدّله بارد والهواء الذي خرج إليه حارّ فيستولي الحارّ على روحه الحيوانيّ ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضاً في تمثال الزرزور الذي برومة تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتّخذون زيتهم وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعيّ في اتّخاذ الزيت ٠ ومنها ما نقله البكري

في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخرثي (1) وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وأمثال ذلك كثيرة وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط . وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق

(1) الخرثي بالضم اثاث البيت اه قاموس

مِنَ ٱلْكَذِبِ بِوَجْهٍ بُرْهَانِيٍّ لَا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ وَحِينَئِذٍ فَإِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ عَلِمْنَا مَا نَحْكُمُ بِقَبُولِهِ مِمَّا نَحْكُمُ بِتَزْيِيفِهِ وَكَانَ ذٰلِكَ لَنَا مِعْيَارًا صَحِيحًا يَتَحَرَّى بِهِ ٱلْمُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ ٱلصِّدْقِ وَٱلصَّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ وَهٰذَا هُوَ غَرَضُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ تَأْلِيفِنَا وَكَأَنَّ هٰذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ ذُو مَوْضُوعٍ وَهُوَ ٱلْعُمْرَانُ ٱلْبَشَرِيُّ وَٱلِاجْتِمَاعُ ٱلْإِنْسَانِيُّ وَذُو مَسَائِلَ وَهِيَ بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ وَٱلْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَهٰذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَضْعِيًّا كَانَ أَوْ عَقْلِيًّا. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي هٰذَا ٱلْغَرَضِ مُسْتَحْدَثُ ٱلصَّنْعَةِ غَرِيبُ ٱلنَّزْعَةِ عَزِيزُ ٱلْفَائِدَةِ أَعْثَرَ عَلَيْهِ ٱلْبَحْثُ وَأَدَّى إِلَيْهِ ٱلْغَوْصُ وَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْأَقْوَالُ ٱلْمُقْنِعَةُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱسْتِمَالَةِ ٱلْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ أَوْ صَدِّهِمْ عَنْهُ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَدَنِيَّةِ إِذِ ٱلسِّيَاسَةُ ٱلْمَدَنِيَّةُ هِيَ تَدْبِيرُ ٱلْمَنْزِلِ أَوِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْحِكْمَةِ لِيُحْمَلَ ٱلْجُمْهُورُ عَلَى مِنْهَاجٍ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ ٱلنَّوْعِ وَبَقَاؤُهُ فَقَدْ خَالَفَ مَوْضُوعُهُ مَوْضُوعَ هٰذَيْنِ ٱلْفَنَّيْنِ ٱللَّذَيْنِ رُبَّمَا يُشْبِهَانِهِ وَكَأَنَّهُ عِلْمٌ مُسْتَنْبَطُ ٱلنَّشْأَةِ وَلَعَمْرِي لَمْ أَقِفْ عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي مَنْحَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْخَلِيقَةِ مَا أَدْرِي أَلِغَفْلَتِهِمْ عَنْ ذٰلِكَ وَلَيْسَ ٱلظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هٰذَا ٱلْغَرَضِ وَٱسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا فَٱلْعُلُومُ كَثِيرَةٌ وَٱلْحُكَمَاءُ فِي أُمَمِ ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنَ ٱلْعُلُومِ أَكْثَرُ مِمَّا وَصَلَ فَأَيْنَ عُلُومُ ٱلْفُرْسِ ٱلَّتِي أَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ بِمَحْوِهَا عِنْدَ ٱلْفَتْحِ وَأَيْنَ عُلُومُ ٱلْكَلْدَانِيِّينَ وَٱلسُّرْيَانِيِّينَ وَأَهْلِ بَابِلَ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَنَتَائِجِهَا وَأَيْنَ عُلُومُ ٱلْقِبْطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانُ خَاصَّةً لِكَلَفِ ٱلْمَأْمُونِ بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لُغَتِهِمْ وَٱقْتِدَارِهِ عَلَى ذٰلِكَ بِكَثْرَةِ ٱلْمُتَرْجِمِينَ وَبَذْلِ ٱلْأَمْوَالِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ يَصْلُحُ أَنْ يُبْحَثَ عَمَّا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ ٱلْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِٱعْتِبَارِ كُلِّ مَفْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ يَخُصُّهُ لٰكِنَّ ٱلْحُكَمَاءَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا لَاحَظُوا فِي ذٰلِكَ ٱلْعِنَايَةَ بِٱلثَّمَرَاتِ وَهٰذَا إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَقَطْ كَمَا رَأَيْتَ وَإِنْ كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي ٱخْتِصَاصِهَا شَرِيفَةً لٰكِنْ ثَمَرَتُهُ تَصْحِيحُ ٱلْأَخْبَارِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ فَلِهٰذَا هَجَرُوهُ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا. وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلَّذِي لَاحَ لَنَا ٱلنَّظَرُ فِيهِ نَجِدُ مِنْهُ مَسَائِلَ تَجْرِي بِٱلْعَرَضِ

لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما
يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم
فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب إثبات
اللغات أن الناس محتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان
العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد
في أن الزنا مخلط للأنساب مفسد للنوع وأن القتل أيضا مفسد للنوع وأن الظلم
مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية
في الأحكام فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض
له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة وكذلك أيضا يقع إلينا القليل
من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه فمن كلام
الموبذان بهرام بن بهرام في حكاية البوم التي نقلها المسعودي. أيها الملك إن
الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا
قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال
ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان
المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك. ومن كلام أنوشروان
في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة
والعمارة بالعدل والعدل بإصلاح العمال وإصلاح العمال باستقامة الوزراء
ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها
ولا تملكه. وفي الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء
صالح منه إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد أشار
في ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبذان وأنوشروان وجعلها
في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها هو قوله. العالم بستان سياجه الدولة الدولة
سلطان تحيا به السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند
الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية عبيد يكنفهم العدل
العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم ترجع إلى أول الكلام. فهذه ثماني

كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت أعجازها إلى صدورها واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها فخر بعثوره عليها وعظم من فوائدها . وأنت إذا تأملت كلامنا في فصل الدول والملك وأعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في أثنائه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل إجمالها مستوفى بيناً بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان أطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة موبذان وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه إنما يجليها في الذكر على منحى الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام وكذلك حوم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة إنما يبوب الباب للمسئلة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليقة ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً وأعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره فللناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء . ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتندفع بها الأوهام وترفع الشكوك . ونقول لما كان الإنسان متميزاً عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وإن كان لها

مِثْلُ ذٰلِكَ فَبِطَرِيقٍ إِلْهَامِيٍّ لَا بِفِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ وَمِنْهَا ٱلسَّعْيُ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلِاعْتِمَالُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ وُجُوهِهِ وَٱكْتِسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ ٱللّٰهُ فِيهِ مِنَ ٱلِافْتِقَارِ إِلَى ٱلْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ وَهَدَاهُ إِلَى ٱلْتِمَاسِهِ وَطَلَبِهِ قَالَ تَعَالَى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَمِنْهَا ٱلْعُمْرَانُ وَهُوَ ٱلتَّسَاكُنُ وَٱلتَّنَازُلُ فِي مِصْرٍ أَوْ حِلَّةٍ لِلْأُنْسِ بِٱلْعَشِيرِ وَٱقْتِضَاءِ ٱلْحَاجَاتِ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنَ ٱلتَّعَاوُنِ عَلَى ٱلْمَعَاشِ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَمِنْ هٰذَا ٱلْعُمْرَانِ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلضَّوَاحِي وَفِي ٱلْجِبَالِ وَفِي ٱلْحِلَلِ ٱلْمُنْتَجِعَةِ فِي ٱلْقِفَارِ وَأَطْرَافِ ٱلرِّمَالِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضَرِيًّا وَهُوَ ٱلَّذِي بِٱلْأَمْصَارِ وَٱلْقُرَى وَٱلْمُدُنِ وَٱلْمَدَرِ لِلِاعْتِصَامِ بِهَا وَٱلتَّحَصُّنِ بِجُدْرَانِهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ أُمُورٌ تَعْرِضُ مِنْ حَيْثُ ٱلِاجْتِمَاعُ عُرُوضًا ذَاتِيًّا لَهُ فَلَا جَرَمَ ٱنْحَصَرَ ٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ . ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْبَشَرِيِّ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ ٱلْأَرْضِ . وَٱلثَّانِي فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْبَدَوِيِّ وَذِكْرِ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ . وَٱلثَّالِثُ فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلْخِلَافَةِ وَٱلْمُلْكِ وَذِكْرِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ . وَٱلْخَامِسُ فِي ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ . وَٱلسَّادِسُ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱكْتِسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا . وَقَدْ قَدَّمْتُ ٱلْعُمْرَانَ ٱلْبَدَوِيَّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ وَكَذَا تَقْدِيمُ ٱلْمُلْكِ عَلَى ٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ وَأَمَّا تَقْدِيمُ ٱلْمَعَاشِ فَلِأَنَّ ٱلْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمُ ٱلْعِلْمِ كَمَالِيٌّ أَوْ حَاجِيٌّ وَٱلطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْكَمَالِيِّ وَجَعَلْتُ ٱلصَّنَائِعَ مَعَ ٱلْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ بِبَعْضِ ٱلْوُجُوهِ وَمِنْ حَيْثُ ٱلْعُمْرَانِ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ وَٱلْمُعِينُ عَلَيْهِ

الفصل الاوّل

من الكتاب الاول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الاولى فِي أَنَّ ٱلِاجْتِمَاعَ ٱلْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ وَيُعَبِّرُ ٱلْحُكَمَاءُ عَنْ هٰذَا بِقَوْلِهِمْ ٱلْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِٱلطَّبْعِ أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلِاجْتِمَاعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَدِينَةُ فِي ٱصْطِلَاحِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعُمْرَانِ وَبَيَانُهُ أَنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصِحُّ

حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على
تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء
غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من
الحنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من
هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من
حداد ونجار وفاخوري وهب أنه يأكله حباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله
أيضاً حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي
يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع
كثيرة أكثر من الأولى بكثير ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد
فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل
بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد
منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه لأن الله سبحانه لما ركب
الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم
من القدرة أكمل من حظ الإنسان فقدرة الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة
الإنسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته . ولما
كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعته ما
يصل إليه من عادية غيره وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة
للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح
المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف
النائبة عن المخالب الجارحة والتراس النائبة عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك
وغيره مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم
قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده
بالجملة ولا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة لها فلا بد في ذلك كله من
التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا
تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضاً

دفاعٌ عَنْ نفسه لفقدان السِّلاحِ فيكونُ فريسةً للحيوانات ويعاجلُهُ الهلاكُ عن مدى حياته ويبطلُ نوعُ البشرِ وإذا كان التعاونُ حصلَ لهُ القوتُ للغذاءِ والسِّلاحُ للمدافعةِ وتمّتْ حكمةُ اللهِ في بقائهِ وحفظِ نوعِهِ فإذنْ هذا الاجتماعُ ضروريٌّ للنوعِ الإنسانيِّ وإلّا لم يكملْ وجودُهُم وما أرادهُ اللهُ من اعتمارِ العالمِ بهم واستخلافهِ إيّاهم وهذا هو معنى العمرانِ الذي جعلناهُ موضوعاً لهذا العلمِ وفي هذا الكلامِ نوعُ إثباتٍ للموضوعِ في فنّهِ الذي هو موضوعٌ لهُ وهذا وإنْ لم يكنْ واجباً على صاحبِ الفنِّ لما تقرّرَ في الصناعةِ المنطقيةِ أنّهُ ليسَ على صاحبِ علمٍ إثباتُ الموضوعِ في ذلك العلمِ فليسَ أيضاً من الممنوعاتِ عندهم فيكونُ إثباتهُ من التبرّعاتِ واللهُ الموفّقُ بفضلهِ · ثمّ إنّ هذا الاجتماعَ إذا حصلَ للبشرِ كما قرّرناهُ وتمّ عمرانُ العالمِ بهم فلا بدّ من وازعٍ يدفعُ بعضهم عن بعضٍ لما في طباعهم الحيوانيةِ من العدوانِ والظلمِ وليست السِّلاحُ التي جُعلت دافعةً لعدوانِ الحيواناتِ العجمِ عنهم كافيةً في دفعِ العدوانِ عنهم لأنّها موجودةٌ لجميعهم فلا بدّ من شيءٍ آخرَ يدفعُ عدوانَ بعضهم عن بعضٍ ولا يكونُ من غيرهم لقصورِ جميعِ الحيواناتِ عن مداركهم وإلهاماتهم فيكونُ ذلك الوازعُ واحداً منهم يكونُ لهُ عليهم الغلبةُ والسلطانُ واليدُ القاهرةُ حتّى لا يصلَ أحدٌ إلى غيرهِ بعدوانٍ وهذا هو معنى الملكِ وقد تبيّنَ لكَ بهذا أنّ للإنسانِ خاصّةً طبيعيةً ولا بدّ لهم منها وقد يوجدُ في بعضِ الحيواناتِ العجمِ على ما ذكرهُ الحكماءُ كما في النحلِ والجرادِ لما استُقرئَ فيها من الحكمِ والانقيادِ والاتّباعِ لرئيسٍ من أشخاصها متميّزٍ عنهم في خلقهِ وجثمانهِ إلّا أنّ ذلك موجودٌ لغيرِ الإنسانِ بمقتضى الفطرةِ والهدايةِ لا بمقتضى الفكرةِ والسياسةِ أعطى كلَّ شيءٍ خلقهُ ثمّ هدى وتزيدُ الفلاسفةُ على هذا البرهانِ حيثُ يحاولونَ إثباتَ النبوّةِ بالدليلِ العقليِّ وأنّها خاصّةٌ طبيعيةٌ للإنسانِ فيقرّرونَ هذا البرهانَ إلى غايةٍ وأنّهُ لا بدّ للبشرِ من الحكمِ الوازعِ ثمّ يقولونَ بعدَ ذلكَ وذلكَ الحكمُ يكونُ بشرعٍ مفروضٍ من عندِ اللهِ يأتي بهِ واحدٌ من البشرِ وأنّهُ لا بدّ أنْ يكونَ متميّزاً عنهم بما يودعُ اللهُ فيهِ من خواصِّ هدايتهِ ليقعَ التسليمُ لهُ والقبولُ منهُ حتّى يتمَّ الحكمُ فيهم وعليهم من غيرِ إنكارٍ ولا تزييفٍ وهذهِ القضيّةُ للحكماءِ غيرُ برهانيةٍ كما تراهُ إذ الوجودُ وحياةُ البشرِ قد تتمُّ من

دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فأهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون بالنسبة إلى المجوس الذين ليس لهم كتاب فإنهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فإنه يمتنع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي وإنما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الأمة والله ولي التوفيق والهداية

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم

إعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح وإنما التحت الطبيعي قلب الأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض وإن قيل في شيء منها إنه تحت الأرض فبالإضافة إلى جهة أخرى منه . وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة احاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحراً يسمى البحر المحيط ويسمى أيضاً لبلايه بتفخيم اللام الثانية ويسمى أوقيانوس اسماء أعجمية ويقال له البحر الأخضر والأسود ثم إن هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفار والخلاء اكثر من عمرانه والخالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال وإنما المعمور منه أميل إلى الجانب الشمالي على شكل مسطح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء ومن جهة الشمال إلى خط كروي ووراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري الذي

بَيْنَهُمَا سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهٰذِهِ ٱلْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ ٱلْمَشْرِقِ وَيَنْتَهِي مِنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ إِلَى عُنْصُرِ ٱلْمَاءِ أَيْضًا بِقِطْعَتَيْنِ مِنَ ٱلدَّائِرَةِ ٱلْمُحِيطَةِ وَهٰذَا ٱلْمُنْكَشِفُ مِنَ ٱلْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ ٱلنِّصْفِ مِنَ ٱلْكُرَةِ أَوْ أَقَلُّ وَٱلْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ ٱلْمُنْقَسِمُ بِٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ وَخَطُّ ٱلْاِسْتِوَاءِ يَقْسِمُ ٱلْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَهُوَ طُولُ ٱلْأَرْضِ وَأَكْبَرُ خَطٍّ فِي كُرَتِهَا كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ ٱلْبُرُوجِ وَدَائِرَةَ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ أَكْبَرُ خَطٍّ فِي ٱلْفَلَكِ وَمِنْطَقَةُ ٱلْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَٱلدَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ ٱلْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرْسَخًا وَٱلْفَرْسَخُ ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَٱلذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إِصْبَعًا وَٱلْإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتِ شَعِيرٍ مَصْفُوفَةٍ مُلْصَقٌ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ ٱلَّتِي تَقْسِمُ ٱلْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتُسَامِتُ خَطَّ ٱلْاِسْتِوَاءِ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً لٰكِنَّ ٱلْعِمَارَةَ فِي ٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ خَطِّ ٱلْاِسْتِوَاءِ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَٱلْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ ٱلْبَرْدِ وَٱلْجُمُودِ كَمَا كَانَتِ ٱلْجِهَةُ ٱلْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءً كُلُّهَا لِشِدَّةِ ٱلْحَرِّ كَمَا نُبَيِّنُ ذٰلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى. ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُخْبِرِينَ عَنْ هٰذَا ٱلْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَعَمَّا فِيهِ مِنَ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْمُدُنِ وَٱلْجِبَالِ وَٱلْبِحَارِ وَٱلْأَنْهَارِ وَٱلْقِفَارِ وَٱلرِّمَالِ مِثْلَ بَطْلِيمُوسَ فِي كِتَابِ ٱلْجُغْرَافِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ زَخَّارٍ مِنْ بَعْدِهِ قَسَمُوا هٰذَا ٱلْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ يُسَمُّونَهَا ٱلْأَقَالِيمَ ٱلسَّبْعَةَ بِحُدُودٍ وَهْمِيَّةٍ بَيْنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي ٱلْعَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ فِي ٱلطُّولِ فَٱلْإِقْلِيمُ ٱلْأَوَّلُ أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ وَهٰكَذَا ٱلثَّانِي إِلَى آخِرِهَا فَيَكُونُ ٱلسَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا ٱقْتَضَاهُ وَضْعُ ٱلدَّائِرَةِ ٱلنَّاشِئَةِ عَنِ ٱنْحِسَارِ ٱلْمَاءِ عَنْ كُرَةِ ٱلْأَرْضِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمٌ بِعَشَرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ عَلَى ٱلتَّوَالِي وَفِي كُلِّ جُزْءٍ ٱلْخَبَرُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ عُمْرَانِهِ. وَذَكَرُوا أَنَّ هٰذَا ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَغْرِبِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ ٱلْبَحْرُ ٱلرُّومِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ يَبْدَأُ فِي خَلِيجٍ مُتَضَايِقٍ فِي عَرْضِ ٱثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا أَوْ نَحْوِهَا مَا بَيْنَ طَنْجَةَ وَطَرِيفَ وَيُسَمَّى ٱلزُّقَاقَ ثُمَّ يَذْهَبُ مُشَرِّقًا وَيَنْفَسِحُ إِلَى عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ وَنِهَايَتُهُ فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرْسَخٍ وَمِائَةٍ وَسِتِّينَ فَرْسَخًا مِنْ مَبْدَئِهِ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ سَوَاحِلُ ٱلشَّامِ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ سَوَاحِلُ ٱلْمَغْرِبِ أَوَّلُهَا طَنْجَةُ عِنْدَ ٱلْخَلِيجِ ثُمَّ

افريقية ثم برقة إلى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الإفرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية قالوا ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين . أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقاً في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقلة وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس . والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد انكلاية على ألف ومائة ميل من مبدإه وعلى حافتيه من البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة . قالوا وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلاً حتى ينتهي إلى الاقليم الأول ثم يمر فيه مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبدإه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وأرض الوقواق وأمم أخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدإه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الأحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة . قالوا ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقاً ثم يمر مستبحراً إلى ناحية الشمال ومغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى القلزم في الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبدإه ويسمى بحر

ٱلْقُلْزُمِ وَبَحْرَ ٱلسُّوَيْسِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ فُسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَالِكَ ثَلَاثُ مَرَاحِلَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ سَوَاحِلُ ٱلْيَمَنِ ثُمَّ ٱلْحِجَازُ وَجِدَّةُ ثُمَّ مَدْيَنُ وَأَيْلَةُ وَفَارَانُ عِنْدَ نِهَايَتِهِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلْغَرْبِ سَوَاحِلُ ٱلصَّعِيدِ وَعِيذَابُ وَسَوَاكِنُ وَزَيْلَعُ ثُمَّ بِلَادُ ٱلْحَبَشَةِ عِنْدَ مَبْدَإِهِ وَآخِرُهُ عِنْدَ ٱلْقُلْزُمِ يُسَامِتُ ٱلْبَحْرَ ٱلرُّومِيَّ عِنْدَ ٱلْعَرِيشِ وَبَيْنَهُمَا نَحْوُ سِتِّ مَرَاحِلَ وَمَا زَالَ ٱلْمُلُوكُ فِي ٱلْإِسْلَامِ وَقَبْلَهُ يَرُومُونَ خَرْقَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتِمَّ ذٰلِكَ وَٱلْبَحْرُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْحَبَشِيِّ وَيُسَمَّى ٱلْخَلِيجَ ٱلْأَخْضَرَ يَخْرُجُ مَا بَيْنَ بِلَادِ ٱلسِّنْدِ وَٱلْأَحْقَافِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَيَمُرُّ إِلَى نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ مُغَرِّبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْأُبُلَّةِ مِنْ سَوَاحِلِ ٱلْبَصْرَةِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ فَرْسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرْسَخًا مِنْ مَبْدَإِهِ وَيُسَمَّى بَحْرَ فَارِسَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ سَوَاحِلُ ٱلسِّنْدِ وَمَكْرَانَ وَكَرْمَانَ وَفَارِسَ وَٱلْأُبُلَّةِ وَعِنْدَ نِهَايَتِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلْغَرْبِ سَوَاحِلُ ٱلْبَحْرَيْنِ وَٱلْيَمَامَةِ وَعُمَانَ وَٱلشِّحْرِ وَٱلْأَحْقَافُ عِنْدَ مَبْدَإِهِ وَفِيمَا بَيْنَ بَحْرِ فَارِسَ وَٱلْقُلْزُمِ وَجَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ مِنَ ٱلْبَرِّ فِي ٱلْبَحْرِ يُحِيطُ بِهَا ٱلْبَحْرُ ٱلْحَبَشِيُّ مِنَ ٱلْجَنُوبِ وَبَحْرُ ٱلْقُلْزُمِ مِنَ ٱلْغَرْبِ وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ ٱلشَّرْقِ وَتُفْضِي إِلَى ٱلْعِرَاقِ بَيْنَ ٱلشَّامِ وَٱلْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا وَهُنَالِكَ ٱلْكُوفَةُ وَٱلْقَادِسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيوَانُ كِسْرَى وَٱلْحِيرَةُ وَوَرَاءَ ذٰلِكَ أُمَمُ ٱلْأَعَاجِمِ مِنَ ٱلتُّرْكِ وَٱلْخَزَرِ وَغَيْرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ بِلَادُ ٱلْحِجَازِ فِي جِهَةِ ٱلْغَرْبِ مِنْهَا وَبِلَادُ ٱلْيَمَامَةِ وَٱلْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ مِنْهَا وَبِلَادُ ٱلْيَمَنِ فِي جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ مِنْهَا وَسَوَاحِلُهُ عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْحَبَشِيِّ . قَالُوا وَفِي هٰذَا ٱلْمَعْمُورِ بَحْرٌ آخَرُ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ ٱلْبِحَارِ فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ بِأَرْضِ ٱلدَّيْلَمِ يُسَمَّى بَحْرَ جُرْجَانَ وَطَبَرِسْتَانَ طُولُهُ أَلْفُ مِيلٍ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ فِي غَرْبِيِّهِ أَذْرَبِيجَانُ وَٱلدَّيْلَمُ وَفِي شَرْقِيِّهِ أَرْضُ ٱلتُّرْكِ وَخُوَارَزْمُ وَفِي جَنُوبِيِّهِ طَبَرِسْتَانُ وَفِي شَمَالِيِّهِ أَرْضُ ٱلْخَزَرِ وَٱللَّانِ . هٰذِهِ جُمْلَةُ ٱلْبِحَارِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ ٱلْجُغْرَافِيَا . قَالُوا وَفِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَهِيَ ٱلنِّيلُ وَٱلْفُرَاتُ وَدِجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخَ ٱلْمُسَمَّى جَيْحُونَ . فَأَمَّا ٱلنِّيلُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ خَطِّ ٱلْاِسْتِوَاءِ بِسِتَّ عَشْرَةَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلَ ٱلْقَمَرِ وَلَا يُعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ تَخْرُجُ مِنْهُ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فِي بُحَيْرَةٍ هُنَاكَ وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهَارٌ مِنَ ٱلْبُحَيْرَتَيْنِ فَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي بُحَيْرَةٍ

وَاحِدَةٍ عِنْدَ خَطِّ ٱلْإِسْتِوَاءِ عَلَى عَشْرِ مَرَاحِلَ مِنَ ٱلْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْبُحَيْرَةِ نَهْرَانِ يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ عَلَى سَمْتِهِ وَيَمُرُّ بِبِلَادِ ٱلنُّوبَةِ ثُمَّ بِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَارِبَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَلِيجًا وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ عِنْدَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَيُسَمَّى نِيلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ ٱلصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَٱلْوَاحَاتُ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَيَذْهَبُ ٱلْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى ٱلْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَهُوَ نَهْرُ ٱلسُّودَانِ وَأُمَمُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى ضِفَّتَيْهِ ٠ وَأَمَّا ٱلْفُرَاتُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ ٱلرُّومِ وَمَلَطْيَةَ إِلَى مَنْبِجَ ثُمَّ يَمُرُّ بِصِفِّينَ ثُمَّ بِٱلرَّقَّةِ ثُمَّ بِٱلْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْبَطْحَاءِ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلْبَصْرَةِ وَوَاسِطَ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْحَبَشِيِّ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ ٠ وَأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدَأُهَا عَيْنٌ بِبِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرْمِينِيَّةَ أَيْضًا وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ ٱلْجَنُوبِ بِٱلْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِيجَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَاسِطَ فَتَتَفَرَّقُ إِلَى خُلْجَانٍ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ ٱلْبَصْرَةِ وَتُفْضِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ فِي ٱلشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ ٱلْفُرَاتِ وَيَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيمَا بَيْنَ ٱلْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةُ ٱلْمَوْصِلِ قُبَالَةَ ٱلشَّامِ مِنْ عُدْوَتَيِ ٱلْفُرَاتِ وَقُبَالَةَ أَذْرَبِيجَانَ مِنْ عُدْوَةِ دِجْلَةَ ٠ وَأَمَّا نَهْرُ جَيْحُونَ فَمَبْدَأُهُ مِنْ بَلْخَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ مِنْ عُيُونٍ هُنَاكَ كَثِيرَةٍ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عِظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خُوَارَزْمَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ ٱلْجُرْجَانِيَّةِ ٱلَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فِي مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرْغَانَةَ وَٱلشَّاشِ ٱلْآتِي مِنْ بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَعَلَى غَرْبِيِّ نَهْرِ جَيْحُونَ بِلَادُ خُرَاسَانَ وَخُوَارَزْمَ وَعَلَى شَرْقِيِّهِ بِلَادُ بُخَارَى وَتِرْمِذَ وَسَمَرْقَنْدَ وَمِنْ هُنَالِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ ٱلتُّرْكِ وَفَرْغَانَةَ وَٱلْخَزْلَجِيَّةِ وَأُمَمِ ٱلْأَعَاجِمِ وَقَدْ ذَكَرَ ذٰلِكَ كُلَّهُ بَطْلِيمُوسُ فِي كِتَابِهِ وَٱلشَّرِيفُ فِي كِتَابِ زُخَارَ وَصَوَّرُوا فِي ٱلْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي ٱلْمَعْمُورِ مِنَ ٱلْجِبَالِ وَٱلْبِحَارِ وَٱلْأَوْدِيَةِ وَٱسْتَوْفَوْا مِنْ ذٰلِكَ مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطُولِهِ وَلِأَنَّ عِنَايَتَنَا فِي ٱلْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلَّذِي هُوَ وَطَنُ ٱلْبَرْبَرِ وَبِٱلْأَوْطَانِ ٱلَّتِي لِلْعَرَبِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في ان الربع الشمالي من الارض اكثر عمرانًا من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِيَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمْرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وُجِدَ مِنْ عُمْرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ وَالرِّمَالُ وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأُمَمُ هٰذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأَنَاسِيُّهُمَا لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذٰلِكَ وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرِّمَالُ كَذٰلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأُمَمُهَا وَأَنَاسِيُّهَا تَجُوزُ الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تُجَاوِزُ الْحَدَّ عَدَدًا وَالْعُمْرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذٰلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقِلَّةِ مَيْلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلْنُوضِحْ ذٰلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ . فَنَقُولُ إِنَّ قُطْبَيِ الْفَلَكِ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأُفُقِ فَهُنَالِكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَارَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَتُسَمَّى دَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يُحَرِّكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاكِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا وَهٰذِهِ الْحَرَكَةُ مَحْسُوسَةٌ وَكَذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا حَرَكَةً مُخَالِفَةً لِهٰذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ آمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي السُّرْعَةِ وَالْبُطْءِ وَمَمَرَّاتُ هٰذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا تُوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكِ الْأَعْلَى تَقْسِمُهُ بِنِصْفَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكِ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةً بِاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَلَى نُقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدَّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ نِصْفٌ مَائِلٌ عَنْ مُعَدَّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ وَنِصْفٌ مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأُفُقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ

عَلَى سَطْحِ ٱلْأَرْضِ خَطٌّ وَاحِدٌ يُسَامِتُ دَائِرَةَ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَيُسَمَّى خَطَّ ٱلِاسْتِوَاءِ وَوَقَعَ هٰذَا ٱلْخَطُّ بِٱلرَّصْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا فِي مَبْدَإِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ وَٱلْعُمْرَانُ كُلُّهُ فِي ٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنْ آفَاقِ هٰذَا ٱلْمَعْمُورِ بِٱلتَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ٱرْتِفَاعُهُ إِلَى أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَهُنَالِكَ يَنْقَطِعُ ٱلْعُمْرَانُ وَهُوَ آخِرُ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَإِذَا ٱرْتَفَعَ عَلَى ٱلْأُفُقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلْقُطْبِ وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ عَلَى ٱلْأُفُقِ وَبَقِيَتْ سِتَّةٌ مِنَ ٱلْبُرُوجِ فَوْقَ ٱلْأُفُقِ وَهِيَ ٱلشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةٌ تَحْتَ ٱلْأُفُقِ وَهِيَ ٱلْجَنُوبِيَّةُ وَٱلْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ ٱلْأَرْبَعَةِ وَٱلسِّتِّينَ إِلَى ٱلتِّسْعِينَ مُمْتَنِعَةٌ لِأَنَّ ٱلْحَرَّ وَٱلْبَرْدَ حِينَئِذٍ لَا يَحْصُلَانِ مُمْتَزِجَيْنِ لِبُعْدِ ٱلزَّمَانِ بَيْنَهُمَا فَلَا يَحْصُلُ ٱلتَّكْوِينُ فَإِذَا ٱلشَّمْسُ تُسَامِتُ ٱلرُّؤُوسَ عَلَى خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ فِي رَأْسِ ٱلْحَمَلِ وَٱلْمِيزَانِ ثُمَّ تَمِيلُ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ إِلَى رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَرَأْسِ ٱلْجَدْيِ وَيَكُونُ نِهَايَةُ مَيْلِهَا عَنْ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ثُمَّ إِذَا ٱرْتَفَعَ ٱلْقُطْبُ ٱلشَّمَالِيُّ عَنِ ٱلْأُفُقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ بِمِقْدَارِ ٱرْتِفَاعِهِ وَٱنْخَفَضَ ٱلْقُطْبُ ٱلْجَنُوبِيُّ كَذٰلِكَ بِمِقْدَارٍ مُتَسَاوٍ فِي ٱلثَّلَاثَةِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَوَاقِيتِ عَرْضَ ٱلْبَلَدِ وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا ٱلْبُرُوجُ ٱلشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرِجَةً فِي مِقْدَارِ عُلُوِّهَا إِلَى رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَٱنْخَفَضَتِ ٱلْبُرُوجُ ٱلْجَنُوبِيَّةُ مِنَ ٱلْأُفُقِ كَذٰلِكَ إِلَى رَأْسِ ٱلْجَدْيِ لِٱنْحِرَافِهَا إِلَى ٱلْجَانِبَيْنِ فِي أُفُقِ ٱلِاسْتِوَاءِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَا يَزَالُ ٱلْأُفُقُ ٱلشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ أَبْعَدَ ٱلشَّمَالِيَّةِ وَهُوَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَانِ فِي سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ وَذٰلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرْضُ ٱلْبَلَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ فِي ٱلْحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْمَيْلُ ٱلَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَانِ عَنْ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ فِي أُفُقِ ٱلِاسْتِوَاءِ ٱرْتَفَعَ بِٱرْتِفَاعِ ٱلْقُطْبِ ٱلشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامِتًا فَإِذَا ٱرْتَفَعَ ٱلْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ نَزَلَتِ ٱلشَّمْسُ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ وَلَا تَزَالُ فِي ٱنْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ٱرْتِفَاعُ ٱلْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِّينَ وَيَكُونَ ٱنْخِفَاضُ ٱلشَّمْسِ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ كَذٰلِكَ وَٱنْخِفَاضُ ٱلْقُطْبِ ٱلْجَنُوبِيِّ عَنِ ٱلْأُفُقِ مِثْلَهَا فَيَنْقَطِعُ ٱلتَّكْوِينُ لِإِفْرَاطِ ٱلْبَرْدِ وَٱلْجَمَدِ وَطُولِ زَمَانِهِ غَيْرَ مُمْتَزِجٍ بِٱلْحَرِّ . ثُمَّ إِنَّ ٱلشَّمْسَ عِنْدَ ٱلْمُسَامَتَةِ وَمَا يُقَارِبُهَا تَبْعَثُ ٱلْأَشِعَّةَ قَائِمَةً وَفِيمَا دُونَ ٱلْمُسَامَتَةِ عَلَى زَوَايَا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ وَإِذَا كَانَتْ زَوَايَا ٱلْأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ ٱلضَّوْءُ وَٱنْتَشَرَ بِخِلَافِهِ فِي ٱلْمُنْفَرِجَةِ وَٱلْحَادَّةِ فَلِهٰذَا يَكُونُ

ٱلْحَرُّ عِنْدَ ٱلْمُسَامَتَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعُدَ لِأَنَّ ٱلضَّوْءَ سَبَبُ ٱلْحَرِّ وَٱلتَّسْخِينِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُسَامَتَةَ فِي خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي ٱلسَّنَةِ عِنْدَ نُقْطَتَيِ ٱلْحَمَلِ وَٱلْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ ٱلْحَرُّ يَعْتَدِلُ فِي آخِرِ مَيْلِهَا عِنْدَ رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَٱلْجَدْيِ إِلَّا إِنْ صَعِدَتْ إِلَى ٱلْمُسَامَتَةِ فَتَبْقَى ٱلْأَشِعَّةُ ٱلْقَائِمَةُ ٱلزَّوَايَا تُلِحُّ عَلَى ذَلِكَ ٱلْأُفُقِ وَيَطُولُ مُكْثُهَا أَوْ يَدُومُ فَيَشْتَعِلُ ٱلْهَوَاءُ حَرَارَةً وَيُفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا مَا دَامَتِ ٱلشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ فَإِنَّ ٱلْأَشِعَّةَ مُلِحَّةٌ عَلَى ٱلْأُفُقِ فِي ذَلِكَ بِقَرِيبٍ مِنْ إِلْحَاحِهَا فِي خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ وَإِفْرَاطُ ٱلْحَرِّ يَفْعَلُ فِي ٱلْهَوَاءِ تَجْفِيفًا وَيُبْسًا يَمْنَعُ مِنَ ٱلتَّكْوِينِ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ ٱلْحَرُّ جَفَّتِ ٱلْمِيَاهُ وَٱلرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ ٱلتَّكْوِينُ فِي ٱلْمَعْدِنِ وَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ إِذِ ٱلتَّكْوِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرُّطُوبَةِ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَانِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ فَمَا بَعْدَهُ نَزَلَتِ ٱلشَّمْسُ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ فَيَصِيرُ ٱلْحَرُّ إِلَى ٱلِاعْتِدَالِ أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مَيْلًا قَلِيلًا فَيَكُونُ ٱلتَّكْوِينُ وَيَتَزَايَدُ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يُفْرِطَ ٱلْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ لِقِلَّةِ ٱلضَّوْءِ وَكَوْنِ ٱلْأَشِعَّةِ مُنْفَرِجَةَ ٱلزَّوَايَا فَيَنْقُصُ ٱلتَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ بَيْدَ أَنَّ فَسَادَ ٱلتَّكْوِينِ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ ٱلْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ ٱلْبَرْدِ لِأَنَّ ٱلْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّجْفِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلْبَرْدِ فِي ٱلْجَمَدِ فَلِذَلِكَ كَانَ ٱلْعُمْرَانُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي قَلِيلًا وَفِي ٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِاعْتِدَالِ ٱلْحَرِّ بِنُقْصَانِ ٱلضَّوْءِ وَفِي ٱلسَّادِسِ وَٱلسَّابِعِ كَثِيرًا لِنُقْصَانِ ٱلْحَرِّ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ٱلْبَرْدِ لَا تُؤَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ ٱلتَّكْوِينِ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْحَرُّ إِذْ لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ ٱلْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْرِضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ ٱلْيُبْسِ كَمَا بَعْدَ ٱلسَّابِعِ فَلِهَذَا كَانَ ٱلْعُمْرَانُ فِي ٱلرُّبْعِ ٱلشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَٱللهُ أَعْلَمُ. وَمِنْ هُنَا أَخَذَ ٱلْحُكَمَاءُ خَلَاءَ خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُتَوَاتِرَةِ فَكَيْفَ يَتِمُّ ٱلْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا ٱمْتِنَاعَ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا أَدَّاهُمُ ٱلْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ ٱلتَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ ٱلْحَرِّ وَٱلْعُمْرَانُ فِيهِ إِمَّا مُمْتَنِعٌ أَوْ مُمْكِنٌ أَقَلِّيٌّ وَهُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ خَطَّ ٱلِاسْتِوَاءِ وَٱلَّذِي وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمْرَانٌ كَمَا نُقِلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا. وَقَدْ زَعَمَ ٱبْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ ٱلِاسْتِوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي ٱلْجَنُوبِ بِمَثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فِي ٱلشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا

عمر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لأن العمران متدرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم. ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زخار ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة اقسام من الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها إقليماً فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله. فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهي كلا عمارة ويليه من جهة شماليه الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب. ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة

وَكَذٰلِكَ فِي آخِرِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ مِمَّا يَلِي ٱلشَّمَالَ أَيْضًا يَنْتَهِيَانِ إِلَى أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي آخِرِ ٱلرَّابِعِ إِلَى أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفِ سَاعَةٍ وَفِي آخِرِ ٱلْخَامِسِ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي آخِرِ ٱلسَّادِسِ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفٍ وَإِلَى آخِرِ ٱلسَّابِعِ إِلَى سِتَّ عَشْرَةَ سَاعَةً وَهُنَالِكَ يَنْقَطِعُ ٱلْعُمْرَانُ فَيَكُونُ تَفَاوُتُ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ فِي ٱلْأَطْوَلِ مِنْ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا بِنِصْفِ سَاعَةٍ لِكُلِّ إِقْلِيمٍ يَتَزَايَدُ مِنْ أَوَّلِهِ فِي نَاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ مُوَزَّعَةً عَلَى أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلْبُعْدِ. وَأَمَّا عَرْضُ ٱلْبُلْدَانِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بُعْدِ مَا بَيْنَ سَمْتِ رَأْسِ ٱلْبَلَدِ وَدَائِرَةِ مُعَدَّلِ ٱلنَّهَارِ ٱلَّذِي هُوَ سَمْتُ رَأْسِ خَطِّ ٱلْاسْتِوَاءِ وَبِمِثْلِهِ سَوَاءً يَنْخَفِضُ ٱلْقُطْبُ ٱلْجَنُوبِيُّ عَنْ أُفُقِ ذٰلِكَ ٱلْبَلَدِ وَيَرْتَفِعُ ٱلْقُطْبُ ٱلشَّمَالِيُّ عَنْهُ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَبْعَادٍ مُتَسَاوِيَةٌ تُسَمَّى عَرْضَ ٱلْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذٰلِكَ قَبْلُ. وَٱلْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلْجُغْرَافِيَا قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ فِي طُولِهِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ بِعَشَرَةِ أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ وَيَذْكُرُونَ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ وَٱلْجِبَالِ وَٱلْأَنْهَارِ وَٱلْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي ٱلْمَسَالِكِ وَنَحْنُ ٱلْآنَ نُوجِزُ ٱلْقَوْلَ فِي ذٰلِكَ وَنَذْكُرُ مَشَاهِيرَ ٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَنْهَارِ وَٱلْبِحَارِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا وَنُحَاذِي بِذٰلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ نُزْهَةِ ٱلْمُشْتَاقِ ٱلَّذِي أَلَّفَهُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْإِدْرِيسِيُّ ٱلْحَمُّودِيُّ لِمَلِكِ صِقِلِّيَةَ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ وَهُوَ زَخَّارُ بْنُ زَخَّارٍ عِنْدَ مَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقِلِّيَةَ بَعْدَ خُرُوجِ صِقِلِّيَةَ مِنْ إِمَارَةِ مَالِقَةَ وَكَانَ تَأْلِيفُهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّادِسَةِ وَجَمَعَ لَهُ كُتُبًا جَمَّةً لِلْمَسْعُودِيِّ وَٱبْنِ خُرْدَاذْبِهِ وَٱلْحَوْقَلِيِّ وَٱلْقَدْرِيِّ وَٱبْنِ إِسْحَاقَ ٱلْمُنَجِّمِ وَبَطْلِيمُوسَ وَغَيْرِهِمْ وَنَبْدَأُ مِنْهَا بِٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْصِمُنَا بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

أَلْإِقْلِيمُ ٱلْأَوَّلُ * وَفِيهِ مِنْ جِهَةِ غَرْبِيِّهِ ٱلْجَزَائِرُ ٱلْخَالِدَاتُ ٱلَّتِي مِنْهَا بَدَأَ بَطْلِيمُوسُ بِأَخْذِ أَطْوَالِ ٱلْبِلَادِ وَلَيْسَتْ فِي بَسِيطِ ٱلْإِقْلِيمِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ جُزُرٌ مُتَكَثِّرَةٌ أَكْبَرُهَا وَأَشْهَرُهَا ثَلَاثٌ وَيُقَالُ إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ سَفَائِنَ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ مَرَّتْ بِهَا فِي أَوَاسِطِ هٰذِهِ ٱلْمِائَةِ وَقَاتَلُوهُمْ فَغَنِمُوا مِنْهُمْ وَسَبَوْا وَبَاعُوا بَعْضَ أَسْرَاهُمْ بِسَوَاحِلِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَصَارُوا إِلَى خِدْمَةِ ٱلسُّلْطَانِ فَلَمَّا تَعَلَّمُوا ٱللِّسَانَ ٱلْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِرِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَحْتَفِرُونَ ٱلْأَرْضَ لِلزِّرَاعَةِ بِٱلْقُرُونِ وَأَنَّ

الْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ وَعَيْشُهُمْ مِنَ الشَّعِيرِ وَمَاشِيَتُهُمُ الْمَعَزُ وَقِتَالُهُمْ بِالْحِجَارَةِ يَرْمُونَهَا إِلَى خَلْفُ وَعِبَادَتُهُمُ السُّجُودُ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يُوقَفُ عَلَى مَكَانِ هَذِهِ الْجَزَائِرِ إِلَّا بِالْعُثُورِ لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ سَفَرَ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَاحِ وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِ مَهَابِّهَا وَإِلَى أَيْنَ يُوصِلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي فِي مَمَرِّ ذَلِكَ الْمَهَبِّ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُّ وَعُلِمَ حَيْثُ يُوصِلُ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ حُوذِيَ بِهِ الْقِلْعُ مُحَاذَاةً يَحْمِلُ السَّفِينَةَ بِهَا عَلَى قَوَانِينَ فِي ذَلِكَ مُحَصَّلَةٍ عِنْدَ النَّوَاتِيَةِ وَالْمَلَّاحِينَ الَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ وَالْبِلَادِ الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَفِي عُدْوَتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَمَهَابُّ الرِّيَاحِ وَمَمَرَّاتُهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّونَهَا الْكُنْبَاصَ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ السُّفُنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرْأَى السَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوِّ هَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَبْخِرَةِ الْمُمَانِعَةِ لِلسُّفُنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الْمُنْعَكِسَةُ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ فَتُحَلِّلُهَا فَلِذَلِكَ عَسُرَ الِاهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَصَعُبَ الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا . وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُّ النِّيلِ الْآتِي مِنْ مَبْدَإِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَمَّى نِيلَ السُّودَانِ وَيَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أَوْلِيلَ وَعَلَى هَذَا النِّيلِ مَدِينَةُ سَلَا وَتَكْرُورُ وَغَانَةُ وَكُلُّهَا لِهَذَا الْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكِ مَالِي مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ وَإِلَى بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تُجَّارُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِيِّهَا بِلَادُ لِمْتُونَةَ وَسَائِرُ طَوَائِفِ الْمُلَثَّمِينَ وَمَفَاوِزُ يَجُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِيِّ هَذَا النِّيلِ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ لِمْلِمْ وَهُمْ كُفَّارٌ وَيَكْتَوُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَالتَّكْرُورِ يُغِيرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ وَيَبِيعُونَهُمْ لِلتُّجَّارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ عَامَّةُ رَقِيقِهِمْ وَلَيْسَ وَرَاءَهُمْ فِي الْجَنُوبِ عُمْرَانٌ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنَاسِيُّ أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانِ الْعُجْمِ مِنَ النَّاطِقِ يَسْكُنُونَ الْفَيَافِيَ وَالْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ وَالْحُبُوبَ غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ الْبَشَرِ . وَفَوَاكِهُ بِلَادِ السُّودَانِ كُلِّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلِ تُوَاتِ وَتَكْدَرَارِينَ وَوَرْكَلَانَ . فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ

يعرفون ببني صالح وقال صاحب كتاب زخار إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الإقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك ويمر مغربا فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كانم من أمم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه وفي شرقي بلاد ونغارة وكانم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدإه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال ويخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوءه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهبا إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا هائلا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد

أَسْوَانَ قَاعِدَةِ ٱلصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ ٱلْجَنَادِلِ وَبَيْنَ ٱلْجَنَادِلِ وَأُسْوَانَ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ مَرْحَلَةً وَٱلْوَاحَاتُ فِي غَرْبِيِّهَا عُدْوَةَ ٱلنِّيلِ وَهِيَ ٱلْآنَ خَرَابٌ وَبِهَا آثَارُ ٱلْعِمَارَةِ ٱلْقَدِيمَةِ . وَفِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ ٱلْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ ٱلْاسْتِوَاءِ ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ ٱلنُّوبَةِ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي ٱلنِّيلِ ٱلْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَهِمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نِيلِ ٱلْقَمَرِ وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ ٱلْجُغْرَافِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلنِّيلِ . وَإِلَى وَسَطِ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ ٱلْهِنْدِ ٱلَّذِي يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلصِّينِ وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ عُمْرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي ٱلْجَزَائِرِ ٱلَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَعَدِّدَةٌ يُقَالُ تَنْتَهِي إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ ٱلصِّينِ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ ٱلْيَمَنِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ ٱلْهَابِطَيْنِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَهُمَا بَحْرُ قُلْزُمَ وَبَحْرُ فَارِسَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ ٱلْعَرَبِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ ٱلْيَمَنِ وَبِلَادُ ٱلشِّحْرِ فِي شَرْقِيِّهَا عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ ٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا كَمَا نَذْكُرُهُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَّا ٱلَّذِي عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ فَبَلَدُ زَالِعَ مِنْ أَطْرَافِ بِلَادِ ٱلْحَبَشَةِ وَمَجَالَاتُ ٱلْبُجَةِ[1] فِي شَمَالِيِّ ٱلْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ ٱلْعَلَاقِي فِي أَعَالِي ٱلصَّعِيدِ وَبَيْنَ بَحْرِ ٱلْقُلْزُمِ ٱلْهَابِطِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالِعَ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ خَلِيجُ بَابِ ٱلْمَنْدَبِ يَضِيقُ ٱلْبَحْرُ ٱلْهَابِطُ هُنَالِكَ بِمُزَاحَمَةِ جَبَلِ ٱلْمَنْدَبِ ٱلْمَائِلِ فِي وَسَطِ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ مُمْتَدًّا مَعَ سَاحِلِ ٱلْيَمَنِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فِي طُولِ ٱثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا فَيَضِيقُ ٱلْبَحْرُ بِسَبَبِ ذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ أَوْ نَحْوِهَا وَيُسَمَّى بَابَ ٱلْمَنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمُرُّ مَرَاكِبُ ٱلْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ ٱلسُّوَيْسِ قَرِيبًا مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ ٱلْمَنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِنَ وَدَهْلَكَ وَقُبَالَتَهُ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَجَالَاتُ ٱلْبُجَةِ مِنْ أُمَمِ ٱلسُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ شَرْقِيِّهِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ تَهَائِمُ ٱلْيَمَنِ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ بَلَدُ عَلِيِّ بْنِ يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالِعَ وَعَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ قُرَى بَرْبَرٍ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِيِّهِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَلِيهَا هُنَالِكَ مِنْ

(١) ويقال ايضاً البجاة واما زالع فهي زيلع . اه

جهةِ شرقيّها بلادُ الزنجِ ثمَّ بلادُ سفالةَ من ساحلِهِ الجنوبيّ بلادُ الوقواق متّصلةً إلى آخرِ الجزءِ العاشرِ من هذا الإقليمِ عندَ مدخلِ هذا البحرِ من البحرِ المحيطِ. وأمّا جزائرُ هذا البحرِ فكثيرةٌ. من أعظمِها جزيرةُ سرنديبَ مدوّرةُ الشكلِ. وبها الجبلُ المشهورُ يقالُ ليسَ في الأرضِ أعلى منهُ وهي قبالةَ سفالةَ. ثمَّ جزيرةُ القمرِ وهي جزيرةٌ مستطيلةٌ تبدأُ من قبالةِ أرضِ سفالةَ وتذهبُ إلى الشرقِ منحرفةً بكثيرٍ إلى أنْ تقربَ من سواحلِ أعالي الصينِ ويحتفُّ بها في هذا البحرِ من جنوبيّها جزائرُ الوقواقِ ومن شرقيّها جزائرُ السيلانِ إلى جزائرَ أُخَرَ في هذا البحرِ كثيرةِ العددِ وفيها أنواعُ الطيبِ والأفاويهِ وفيها يقالُ معادنُ الذهبِ والزمرّدِ وعامّةُ أهلِها على دينِ المجوسيّةِ وفيهم ملوكٌ متعدّدونَ وبهذهِ الجزائرِ من أحوالِ العمرانِ عجائبُ ذكرها أهلُ الجغرافيا وعلى الضفّةِ الشماليّةِ من هذا البحرِ في الجزءِ السادسِ من هذا الإقليمِ بلادُ اليمنِ كلُّها فمن جهةِ بحرِ القلزمِ بلدُ زبيدَ والمهجمُ وتهامةُ اليمنِ وبعدها بلدُ صعدةَ مقرُّ الإمامةِ الزيديّةِ وهي بعيدةٌ عن البحرِ الجنوبيّ وعن البحرِ الشرقيّ وفيما بعدَ ذلكَ مدينةُ عدنَ وفي شماليّها صنعاءُ وبعدهما إلى المشرقِ أرضُ الأحقافِ وظفارِ وبعدهما أرضُ حضرموتَ ثمَّ بلادُ الشحرِ ما بينَ البحرِ الجنوبيّ وبحرِ فارسَ. وهذهِ القطعةُ من الجزءِ السادسِ هي التي انكشفَ عنها البحرُ من أجزاءِ هذا الإقليمِ الوسطى وينكشفُ بعدها قليلٌ من الجزءِ التاسعِ وأكثرُ منهُ من العاشرِ فيهِ أعالي بلادِ الصينِ ومن مدنِهِ الشهيرةِ خانكو وقبالتَها من جهةِ الشرقِ جزائرُ السيلانِ وقد تقدّمَ ذكرُها وهذا آخرُ الكلامِ في الإقليمِ الأوّلِ واللهُ سبحانَهُ وتعالى وليُّ التوفيقِ بمنّهِ وفضلِهِ

الإقليمُ الثاني * وهو متّصلٌ بالأوّلِ من جهةِ الشمالِ وقبالةَ المغربِ منهُ في البحرِ المحيطِ جزيرتانِ من الجزائرِ الخالداتِ التي مرَّ ذكرُها وفي الجزءِ الأوّلِ والثاني منهُ في الجانبِ الأعلى منهما أرضُ قنوريةَ وبعدها في جهةِ الشرقِ أعالي أرضِ غانةَ ثمَّ مجالاتُ زغاوةَ من السودانِ وفي الجانبِ الأسفلِ منهما صحراءُ نستر متّصلةً من الغربِ إلى الشرقِ ذاتُ مفاوزَ تسلكُ فيها التجّارُ ما بينَ بلادِ المغربِ وبلادِ السودانِ وفيها مجالاتُ الملثّمينَ من صنهاجةَ وهم شعوبٌ كثيرةٌ ما بينَ كزولةَ ولمتونةَ ومسراتةَ ولمطةَ ووريكةَ وعلى سمتِ هذهِ المفاوزِ شرقًا أرضُ فزّانَ ثمَّ مجالاتُ أزكارَ من قبائلِ

ٱلْبَرْبَرِ ذَاهِبَةً إِلَى أَعَالِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي ٱلشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ وَهِيَ جِهَةُ ٱلشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِنْتَرِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْوَاحَاتِ ٱلدَّاخِلَةَ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنْ أَعْلَاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلْبَاجُوِيِّينَ ثُمَّ يَعْتَرِضُ فِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِلَادُ ٱلصَّعِيدِ حَافَاتُ ٱلنِّيلِ ٱلذَّاهِبِ مِنْ مَبْدَإِهِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى مَصَبِّهِ فِي ٱلْبَحْرِ فَيَمُرُّ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ بَيْنَ ٱلْجَبَلَيْنِ ٱلْحَاجِزَيْنِ وَهُمَا جَبَلُ ٱلْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَجَبَلُ ٱلْمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَعَلَيْهِ مِنْ أَعْلَاهُ بَلَدُ أَسْنَا وَأَرْمَنْتَ وَيَتَّصِلُ كَذٰلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى أَسْيُوطَ وَقُوصٍ ثُمَّ إِلَى صُولٍ وَيَفْتَرِقُ ٱلنِّيلُ هُنَالِكَ عَلَى شُعْبَيْنِ يَنْتَهِي ٱلْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ عِنْدَ ٱللَّاهُونِ وَٱلْأَيْسَرُ عِنْدَ دِلَاصٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ وَفِي ٱلشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ ٱلْمُقَطَّمِ صَحَارَى عَيْذَابَ ذَاهِبَةً فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ ٱلسُّوَيْسِ وَهُوَ بَحْرُ ٱلْقُلْزُمِ ٱلْهَابِطُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ فِي ٱلْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَفِي عُدْوَتِهِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ أَرْضُ ٱلْحِجَازِ مِنْ جَبَلِ يَلَمْلَمَ إِلَى بِلَادِ يَثْرِبَ فِي وَسَطِ ٱلْحِجَازِ مَكَّةُ شَرَّفَهَا ٱللّٰهُ وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جُدَّةَ تُقَابِلُ بَلَدَ عَيْذَابَ فِي ٱلْعُدْوَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلَادُ نَجْدٍ أَعْلَاهَا فِي ٱلْجَنُوبِ وَتَبَالَةُ وَجُرَشُ إِلَى عُكَاظَ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَتَحْتَ نَجْدٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي ٱلشَّرْقِ بِلَادُ نَجْرَانَ وَخَيْبَرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ ٱلْيَمَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي ٱلشَّرْقِ أَرْضُ سَبَأٍ وَمَأْرِبَ ثُمَّ أَرْضُ ٱلشِّحْرِ وَيَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ ٱلْبَحْرُ ٱلثَّانِي ٱلْهَابِطُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى ٱلشَّمَالِ كَمَا مَرَّ وَيَذْهَبُ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلْغَرْبِ فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ شَرْقِيِّهِ وَجَوْفِيِّهِ قِطْعَةٌ مُثَلَّثَةٌ عَلَيْهَا مِنْ أَعْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ وَهِيَ سَاحِلُ ٱلشِّحْرِ ثُمَّ تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلَادُ عُمَانَ. ثُمَّ بِلَادُ ٱلْبَحْرَيْنِ وَهَجَرُ مِنْهَا فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ فِي ٱلْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيِّهِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِٱلْقِطْعَةِ ٱلْأُخْرَى فِي ٱلسَّادِسِ وَيَغْمُرُ بَحْرُ ٱلْهِنْدِ جَانِبَهُ ٱلْأَعْلَى كُلَّهُ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ بِلَادُ ٱلسِّنْدِ إِلَى بِلَادِ مَكْرَانَ وَيُقَابِلُهَا بِلَادُ ٱلطُّوبَرَانِ وَهِيَ مِنَ ٱلسِّنْدِ أَيْضًا فَيَتَّصِلُ ٱلسِّنْدُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَتَحُولُ ٱلْمَفَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ ٱلْهِنْدِ وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ ٱلْآتِي مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ وَيَصُبُّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ فِي ٱلْجَنُوبِ وَأَوَّلُ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ بَلْهَرَا وَتَحْتَهَا فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْأَسْفَلِ أَرْضُ كَابُلَ وَبَعْدَهَا شَرْقًا إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ بِلَادُ ٱلْقَنُوجِ مَا بَيْنَ

قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الإقليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم

الإقليم الثالث * وهو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم إلا خالقهم حسبما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نستر المفازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه إلى أن ينتهي وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم ثم إن جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش وأغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط أسفي ومدينة سلا وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع ويذهب مشرقا فينتهي إلى بلاد الشام فإذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل في الإقليم الثالث والخامس

فلهذا كان على ساحله من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلاده ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسطنطينية في الشرق منها وفي آخر الجزء الأول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبي هذه البلاد ومرتفعاً إلى جنوب المغرب الأوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدته بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثاني من هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهباً فيه من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقاً أرض ودان التي بقيتها في الإقليم الثاني كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والأربس وعلى ساحل البحر بلد بونة ثم في سمت هذه البلاد شرقاً بلاد أفريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم السوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونفزاوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقاً بلد طرابلس على البحر الرومي وبإزائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هوارة متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم يمر أيضاً فيه جبل درن إلا أنه ينعطف عند آخره إلى الشمال ويذهب على سمته إلى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوثان والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه إلى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار إلى آخر الجزء في الشرق وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم أجدابية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلمسة على البحر هنالك ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة إلى آخر الجزء في الجزء الرابع من هذا الإقليم وفي الأعلى من غربيه صحارى برقيق وأسفل منها

بِلَادُ هِيبٍ وَرُوَاحَةَ ثُمَّ يَدْخُلُ ٱلْبَحْرُ ٱلرُّومِيُّ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ فَيَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى ٱلْجَنُوبِ حَتَّى يُزَاحِمَ طَرَفَهُ ٱلْأَعْلَى وَيَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ قِفَارٌ تَجُولُ فِيهَا ٱلْعَرَبُ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ ٱلْفَيُّومِ وَهِيَ عَلَى مَصَبِّ أَحَدِ ٱلشُّعْبَيْنِ مِنَ ٱلنِّيلِ ٱلَّذِي يَمُرُّ عَلَى ٱللَّاهُونِ مِنْ بِلَادِ ٱلصَّعِيدِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي وَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ فَيُّومَ وَعَلَى سَمْتِهِ شَرْقًا أَرْضُ مِصْرَ وَمَدِينَتُهَا ٱلشَّهِيرَةُ عَلَى ٱلشُّعْبِ ٱلثَّانِي ٱلَّذِي يَمُرُّ بِدِلَاصٍ مِنْ بِلَادِ ٱلصَّعِيدِ عِنْدَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي وَيَفْتَرِقُ هٰذَا ٱلشُّعْبُ ٱفْتِرَاقَةً ثَانِيَةً مِنْ تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شُعْبَيْنِ آخَرَيْنِ مِنْ شُطْنُوفَ وَزِفْتِي وَيَنْقَسِمُ ٱلْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قُرْمُطٍ بِشُعْبَيْنِ آخَرَيْنِ وَيَصُبُّ جَمِيعُهَا فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ فَعَلَى مَصَبِّ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْ هٰذَا ٱلشُّعْبِ بَلَدُ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَعَلَى مَصَبِّ ٱلْوَسَطِ بَلَدُ رَشِيدَ وَعَلَى مَصَبِّ ٱلشَّرْقِيِّ بَلَدُ دِمْيَاطَ وَبَيْنَ مِصْرَ وَٱلْقَاهِرَةِ وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلسَّوَاحِلِ ٱلْبَحْرِيَّةِ أَسَافِلُ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ كُلُّهَا مَحْشُوَّةٌ عُمْرَانًا وَفُلَجًا وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ بِلَادُ ٱلشَّامِ وَأَكْثَرُهَا عَلَى مَا أَصِفُ وَذٰلِكَ لِأَنَّ بَحْرَ ٱلْقُلْزُمِ يَنْتَهِي مِنَ ٱلْجَنُوبِ وَفِي ٱلْغَرْبِ مِنْهُ عِنْدَ ٱلسُّوَيْسِ لِأَنَّهُ فِي مَمَرِّهِ مُبْتَدِئًا مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى ٱلشَّمَالِ يَنْعَطِفُ آخِذًا إِلَى جِهَةِ ٱلْغَرْبِ فَتَكُونُ قِطْعَةٌ مِنِ ٱنْعِطَافِهِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ طَوِيلَةً فَيَنْتَهِي فِي ٱلطَّرَفِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهُ إِلَى ٱلسُّوَيْسِ وَعَلَى هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ بَعْدَ ٱلسُّوَيْسِ فَارَانُ ثُمَّ جَبَلُ ٱلطُّورِ ثُمَّ أَيْلَةُ مَدْيَنَ ثُمَّ ٱلْحَوْرَاءُ فِي آخِرِهَا وَمِنْ هُنَالِكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ إِلَى ٱلْجَنُوبِ فِي أَرْضِ ٱلْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ غَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غَرْبِيِّهِ عَلَيْهَا ٱلْفَرَمَا وَٱلْعَرِيشُ وَقَارَبَ طَرَفُهَا بَلَدَ ٱلْقُلْزُمِ فَيُضَايِقُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَالِكَ وَبَقِيَ شِبْهُ ٱلْبَابِ مُفْضِيًا إِلَى أَرْضِ ٱلشَّامِ وَفِي غَرْبِيِّ هٰذَا ٱلْبَابِ فَحْصُ ٱلتِّيهِ أَرْضٌ جَرْدَاءُ لَا تُنْبِتُ كَانَتْ مَجَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى ٱلشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَمَا قَصَّهُ ٱلْقُرْآنُ وَفِي هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ قُبْرُصَ وَبَقِيَّتُهَا فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ كَمَا نَذْكُرُهُ وَعَلَى سَاحِلِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ عِنْدَ ٱلطَّرَفِ ٱلْمُتَضَايِقِ لِبَحْرِ ٱلسُّوَيْسِ بَلَدُ ٱلْعَرِيشِ وَهُوَ آخِرُ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ وَعَسْقَلَانُ وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ثُمَّ تَنْحَطُّ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةُ فِي ٱنْعِطَافِهَا مِنْ هُنَالِكَ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ وَهُنَالِكَ يَنْتَهِي ٱلْبَحْرُ ٱلرُّومِيُّ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَعَلَى هٰذِهِ

ٱلْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ ٱلشَّامِ فَفِي شَرْقِهِ غَزَّةُ ثُمَّ عَسْقَلَانُ وَبِٱنْحِرَافٍ يَسِيرٍ عَنْهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ بَلَدُ قَيْسَارِيَةَ ثُمَّ كَذٰلِكَ بَلَدُ عَكَّاءَ ثُمَّ صُورُ ثُمَّ صَيْدَاءُ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ٱلْبَحْرُ إِلَى ٱلشَّمَالِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيُقَابِلُ هٰذِهِ ٱلْبِلَادَ ٱلسَّاحِلِيَّةَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ مِنْ بَحْرِ ٱلْقُلْزُمِ وَيَذْهَبُ فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ مُنْحَرِفًا إِلَى ٱلشَّرْقِ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هٰذَا ٱلْجُزْءَ وَيُسَمَّى جَبَلَ ٱللُّكَامِ وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ فَفِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ ٱلْعَقَبَةُ ٱلَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا ٱلْحُجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ بَعْدَهَا فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ مَدْفَنُ ٱلْخَلِيلِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ ٱلسَّرَاةِ يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ جَبَلِ ٱللُّكَامِ ٱلْمَذْكُورِ مِنْ شَمَالِ ٱلْعَقَبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ ٱلشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ بَلَدُ ٱلْحِجْرِ وَدِيَارُ ثَمُودَ وَتَيْمَاءُ وَدُومَةُ ٱلْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسَافِلُ ٱلْحِجَازِ وَفَوْقَهَا جَبَلُ رَضْوَى وَحُصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ عَنْهَا وَفِيمَا بَيْنَ جَبَلِ ٱلسَّرَاةِ وَبَحْرِ ٱلْقُلْزُمِ صَحْرَاءُ تَبُوكَ وَفِي شَمَالِ جَبَلِ ٱلسَّرَاةِ مَدِينَةُ ٱلْقُدْسِ عِنْدَ جَبَلِ ٱللُّكَامِ ثُمَّ ٱلْأُرْدُنُّ ثُمَّ طَبَرِيَّةُ وَفِي شَرْقِيِّهَا بِلَادُ ٱلْغَوْرِ إِلَى أَذْرِعَاتٍ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا دُومَةُ ٱلْجَنْدَلِ آخِرُ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَهِيَ آخِرُ ٱلْحِجَازِ • وَعِنْدَ مُنْعَطَفِ جَبَلِ ٱللُّكَامِ إِلَى ٱلشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مَدِينَةُ دِمَشْقَ مُقَابِلَةٌ صَيْدَا وَبَيْرُوتَ مِنَ ٱلْقِطْعَةِ ٱلْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلُ ٱللُّكَامِ يَعْتَرِضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِي ٱلشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكَّ ثُمَّ مَدِينَةُ حِمْصَ فِي ٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ آخِرُ ٱلْجُزْءِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ جَبَلِ ٱللُّكَامِ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْ بَعْلَبَكَّ وَحِمْصَ بَلَدُ تَدْمُرَ وَمَجَالَاتُ ٱلْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ مَجَالَاتُ ٱلْأَعْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدٍ وَٱلْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ ٱلْعَرْجِ وَٱلصَّمَّانِ إِلَى ٱلْبَحْرَيْنِ وَهَجَرُ عَلَى بَحْرِ فَارِسَ وَفِي أَسَافِلِ هٰذَا هٰذَا ٱلْجُزْءِ تَحْتَ ٱلْمَجَالَاتِ بَلَدُ ٱلْحِيرَةِ وَٱلْقَادِسِيَّةِ وَمَغَايِضُ ٱلْفُرَاتِ • وَفِيمَا بَعْدَهَا شَرْقًا مَدِينَةُ ٱلْبَصْرَةِ وَفِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ يَنْتَهِي بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عَبَّادَانَ وَٱلْأُبُلَّةِ مِنْ أَسَافِلِ ٱلْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ عَبَّادَانَ نَهْرُ دِجْلَةَ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ بِجَدَاوِلَ كَثِيرَةٍ وَتَخْتَلِطُ بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ ٱلْفُرَاتِ ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عَبَّادَانَ وَتَصُبُّ فِي بَحْرِ فَارِسَ وَهٰذِهِ ٱلْقِطْعَةُ مِنَ ٱلْبَحْرِ مُتَّسِعَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُتَضَايِقَةٌ فِي آخِرِهِ فِي شَرْقِيِّهِ وَضَيِّقَةٌ عِنْدَ مُنْتَهَاهُ مُضَايِقَةٌ لِلْحَدِّ ٱلشَّمَالِيِّ مِنْهُ وَعَلَى عُدْوَتِهَا ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَسَافِلُ ٱلْبَحْرَيْنِ وَهَجَرُ وَٱلْأَحْسَاءُ وَفِي غَرْبِهَا أَخْطَبُ وَٱلصَّمَّانُ وَبَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلْيَمَامَةِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ ٱلشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ

أَعْلَاهَا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلشَّرْقِ عَلَى طَرَفٍ قَدِ ٱمْتَدَّ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مُشَرِّقًا وَوَرَاءَهُ إِلَى ٱلْجَنُوبِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ جِبَالُ ٱلْقُفْصِ مِنْ كَرْمَانَ وَتَحْتَ هُرْمُزَ بِلَادُ فَارِسَ مِثْلَ سَابُورَ وَدَارَابْجِرْدَ وَنَسَا وَإِصْطَخْرَ وَٱلشَّاهِجَانِ وَشِيرَازَ وَهِيَ قَاعِدَتُهَا كُلُّهَا وَتَحْتَ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى ٱلشَّمَالِ عِنْدَ طَرَفِ ٱلْبَحْرِ بِلَادُ خُوزَسْتَانَ وَمِنْهَا ٱلْأَهْوَازُ وَتُسْتَرُ وَصَدَى وَسَابُورُ وَٱلسُّوسُ وَرَامَهُرْمُزُ وَغَيْرُهَا وَأَرَّجَانُ وَهِيَ حَدٌّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُوزَسْتَانَ جِبَالُ ٱلْأَكْرَادِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِنُهُمْ وَمَجَالَاتُهُمْ وَرَاءَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ وَتُسَمَّى ٱلرُّسُومَ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ فِي ٱلْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ ٱلْقُفْصِ وَيَلِيهَا مِنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلشَّمَالِ بِلَادُ كَرْمَانَ وَمَكْرَانَ وَمِنْ مُدُنِهَا ٱلرُّودَنُ وَٱلشِّيرَجَانُ وَجِيرَفْتُ وَيَزْدَشِيرُ وَٱلْبَهْرَجُ وَتَحْتَ أَرْضِ كَرْمَانَ إِلَى ٱلشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ وَمَدِينَةُ أَصْبَهَانَ فِي طَرَفِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ ثُمَّ فِي ٱلْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كَرْمَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ أَرْضُ سِجِسْتَانَ وَكُوهِسْتَانُ فِي ٱلْجَنُوبِ وَأَرْضُ كُوهِسْتَانَ فِي ٱلشَّمَالِ أَغْرَبًا وَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ كَرْمَانَ وَفَارِسَ وَبَيْنَ سِجِسْتَانَ وَكُوهِسْتَانَ وَفِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلْمَفَاوِزُ ٱلْعُظْمَى ٱلْقَلِيلَةُ ٱلْمَسَالِكِ لِصُعُوبَتِهَا وَمِنْ مُدُنِ سِجِسْتَانَ بُسْتُ وَٱلطَّاقُ وَأَمَّا كُوهِسْتَانُ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرْخَسُ وَقُوهِسْتَانُ آخِرَ ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مَجَالَاتُ ٱلْخَلَجِ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ سِجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابُلِ ٱلْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا. وَفِي ٱلشَّمَالِ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَجَالَاتِ جِبَالُ ٱلْغَوْرِ وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتُهَا غَزْنَةُ فُرْضَةُ ٱلْهِنْدِ وَفِي آخِرِ ٱلْغَوْرِ مِنَ ٱلشَّمَالِ بِلَادُ أَسْتَرَابَاذَ ثُمَّ فِي ٱلشَّمَالِ غَرْبًا إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ بِلَادُ هَرَاةَ أَوْسَطَ خُرَاسَانَ وَبِهَا أَسْفَرَايِنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنْجُ وَمَرْوُ ٱلرُّوذِ وَٱلطَّالَقَانُ وَٱلْجُوزَجَانُ وَتَنْتَهِي خُرَاسَانُ هُنَالِكَ إِلَى نَهْرِ جَيْحُونَ. وَعَلَى هٰذَا ٱلنَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَدِينَةُ بَلْخَ وَفِي شَرْقِيِّهِ مَدِينَةُ تِرْمِذَ وَمَدِينَةُ بَلْخَ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَمْلَكَةِ ٱلتُّرْكِ وَهٰذَا ٱلنَّهْرُ نَهْرُ جَيْحُونَ مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَّارَ فِي حُدُودِ بَذَخْشَانَ مِمَّا يَلِي ٱلْهِنْدَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ ٱلشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبٍ مُغَرِّبًا إِلَى وَسَطِ ٱلْجُزْءِ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ نَهْرَ خَرْنَابَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بُحَيْرَةِ خُوَارَزْمَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ كَمَا نَذْكُرُهُ وَيَمُدُّهُ عِنْدَ ٱنْعِطَافِهِ فِي وَسَطِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٌ مِنْ بِلَادِ ٱلْخُتَّلِ وَٱلْوَخْشِ

مِن شَرْقيهِ وَأَنْهارٌ أُخرَى مِنْ جِبَالِ ٱلْبُتْمِ مِنْ شَرْقِيهِ أَيضًا وَجَوْفي ٱلْجَبَلِ حَتَّى يَتَّسِعَ وَيَعظُمَ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْهارِ ٱلْخَمْسَةِ ٱلْمُمِدَّةِ لَهُ نَهْرُ وَخشَابَ يَخرُجُ مِنْ بِلَادِ ٱلتُّبَّتِ وَهِيَ بَيْنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلشَّرْقِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فَيَمُرُّ مُغَرِّبًا بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ يَعْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَمُرُّ مِنْ وَسَطِ ٱلْجَنُوبِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مُشَرِّقًا بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فَيَجُوزُ بِلَادَ ٱلتُّبَّتِ إِلَى ٱلْقِطْعَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَيَحُولُ بَيْنَ ٱلتُّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ ٱلْخُتَّلِ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسْلَكٌ وَاحِدٌ فِي وَسَطِ ٱلشَّرْقِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ جَعَلَ فِيهِ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى سَدًّا وَبَنَى فِيهِ بَابًا كَسَدِّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فَإِذَا خَرَجَ نَهْرُ وَخشَابَ مِنْ بِلَادِ ٱلتُّبَّتِ وَٱعْتَرَضَهُ هٰذَا ٱلْجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فِي مَدًى بَعِيدٍ إِلَى أَنْ يَمُرَّ فِي بِلَادِ ٱلْوَخْشِ وَيَصُبَّ فِي نَهْرِ جَيْحُونَ عِنْدَ حُدُودِ بَلْخَ ثُمَّ يَمُرُّ هَابِطًا إِلَى ٱلتِّرْمِذِ فِي ٱلشَّمَالِ إِلَى بِلَادِ ٱلْجُوزَجَانِ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ ٱلْغُورِ فِيمَا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ نَهْرِ جَيْحُونَ بِلَادُ ٱلنَّاسَانِ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي ٱلْعُدْوَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ هُنَالِكَ مِنَ ٱلنَّهْرِ بِلَادُ ٱلْخُتَّلِ وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ وَبِلَادُ ٱلْوَخْشِ وَيَحُدُّهَا مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ جِبَالُ ٱلْبُتْمِ تَخْرُجُ مِنْ طَرَفِ خُرَاسَانَ غَرْبِيَّ نَهْرِ جَيْحُونَ وَتَذْهَبُ مُشَرِّقَةً إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ طَرَفُهَا بِٱلْجَبَلِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِي خَلْفَهُ بِلَادُ ٱلتُّبَّتِ وَيَمُرُّ تَحْتَهُ نَهْرُ وَخشَابَ كَمَا قُلْنَاهُ فَيَتَّصِلُ عِنْدَ بَابِ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَيَمُرُّ نَهْرُ جَيْحُونَ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ وَأَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِيهِ مِنْهَا نَهْرُ بِلَادِ ٱلْوَخْشِ يَصُبُّ فِيهِ مِنَ ٱلشَّرْقِ تَحْتَ ٱلتِّرْمِذِ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَنَهْرُ بَلْخَ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ ٱلْبُتْمِ مَبْدَإِهِ عِنْدَ ٱلْجُوزَجَانِ وَيَصُبُّ فِيهِ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَعَلَى هٰذَا ٱلنَّهْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلَادُ آمُدَ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي شَرْقِيِّ ٱلنَّهْرِ مِنْ هُنَالِكَ أَرْضُ ٱلصُّغْدِ وَأُسْرُوشَنَةَ مِنْ بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ فَرْغَانَةَ أَيْضًا إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَكُلُّ بِلَادِ ٱلتُّرْكِ تَحُوزُهَا جِبَالُ ٱلْبُتْمِ إِلَى شَمَالِهَا وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْ غَرْبِهِ أَرْضُ ٱلتُّبَّتِ إِلَى وَسَطِ ٱلْجُزْءِ وَفِي جَنُوبِيِّهَا بِلَادُ ٱلْهِنْدِ وَفِي شَرْقِيِّهَا بِلَادُ ٱلصِّينِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَفِي أَسْفَلِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ شَمَالًا عَنْ بِلَادِ ٱلتُّبَّتِ بِلَادُ ٱلْخَزْلَجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ ٱلتُّرْكِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ غَرْبِيِّهَا أَرْضُ فَرْغَانَةَ أَيْضًا إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَمِنْ شَرْقِيِّهَا أَرْضُ ٱلتَّغَزْغُزِ مِنَ ٱلتُّرْكِ إِلَى ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ فِي ٱلْجَنُوبِ مِنْهُ جَمِيعًا بَقِيَّةُ ٱلصِّينِ وَأَسَافِلُهُ وَفِي ٱلشَّمَالِ بَقِيَّةُ

بِلَادُ ٱلتَّغْزغُزِ ثُمَّ شَرْقًا عَنْهُمْ بِلَادُ خِرْخِيزَ مِنَ ٱلتُّرْكِ أَيْضًا إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي ٱلشَّمَالِ مِنْ أَرْضِ خِرْخِيزَ بِلَادُ كُشْمَانَ مِنَ ٱلتُّرْكِ وَقُبَالَتَهَا فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ جَزِيرَةُ ٱلْيَاقُوتِ فِي وَسَطِ جَبَلٍ مُسْتَدِيرٍ لَا مَنْفَذَ مِنْهُ إِلَيْهَا وَلَا مَسْلَكَ وَٱلصُّعُودُ إِلَى أَعْلَاهُ مِنْ خَارِجِهِ صَعْبٌ فِي ٱلْغَايَةِ وَفِي ٱلْجَزِيرَةِ حَيَّاتٌ قَتَّالَةٌ وَحَصًى مِنَ ٱلْيَاقُوتِ كَثِيرَةٌ فَيَحْتَالُ أَهْلُ تِلْكَ ٱلنَّاحِيَةِ بِمَا يُلْهِمُهُمُ ٱللهُ إِلَيْهِ وَأَهْلُ هٰذِهِ ٱلْبِلَادِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ وَٱلْعَاشِرِ فِيمَا وَرَاءَ خُرَاسَانَ وَٱلْجِبَالُ كُلُّهَا مَجَالَاتٌ لِلتُّرْكِ أُمَمٌ لَا تُحْصَى وَهُمْ ظَوَاعِنُ رَحَّالَةٌ أَهْلُ إِبِلٍ وَشَاءٍ وَبَقَرٍ وَخَيْلٍ لِلنِّتَاجِ وَٱلرُّكُوبِ وَٱلْأَكْلِ وَطَوَائِفُهُمْ كَثِيرَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ مِمَّا يَلِي بِلَادَ ٱلنَّهْرِ نَهْرِ جَيْحُونَ وَيَغْزُونَ ٱلْكُفَّارَ مِنْهُمُ ٱلدَّائِنِينَ بِٱلْمَجُوسِيَّةِ فَيَبِيعُونَ رَقِيقَهُمْ لِمَنْ يَلِيهِمْ وَيَخْرُجُونَ إِلَى بِلَادِ خُرَاسَانَ وَٱلْهِنْدِ وَٱلْعِرَاقِ

ٱلْإِقْلِيمُ ٱلرَّابِعُ ✲ يَتَّصِلُ بِٱلثَّالِثِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ . وَٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ مِنْهُ فِي غَرْبِيِّهِ قِطْعَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ أَوَّلِهِ جَنُوبًا إِلَى آخِرِهِ شَمَالًا وَعَلَيْهَا فِي ٱلْجَنُوبِ مَدِينَةُ طَنْجَةَ وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ تَحْتَ طَنْجَةَ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ فِي خَلِيجٍ مُتَضَايِقٍ بِمِقْدَارِ ٱثْنَي عَشَرَ مِيلًا مَا بَيْنَ طَرِيفَ وَٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ شَمَالًا وَقَصْرِ ٱلْمَجَازِ وَسَبْتَةَ جَنُوبًا وَيَذْهَبُ مُشَرِّقًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى وَسَطِ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ وَيَنْفَسِحُ فِي ذَهَابِهِ بِتَدْرِيجٍ إِلَى أَنْ يَغْمُرَ ٱلْأَرْبَعَةَ ٱلْأَجْزَاءَ وَأَكْثَرَ ٱلْخَامِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَٱلْخَامِسِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلْبَحْرُ ٱلْبَحْرَ ٱلشَّامِيَّ أَيْضًا وَفِيهِ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُهَا فِي جِهَةِ ٱلْغَرْبِ يَابِسَةُ ثُمَّ مَايُرْقَةُ ثُمَّ مَنُرْقَةُ ثُمَّ سَرْدَانِيَةُ ثُمَّ صِقِلِّيَةُ وَهِيَ أَعْظَمُهَا ثُمَّ بَلُونَسُ ثُمَّ أَقْرِيطِشُ ثُمَّ قُبْرُصُ كَمَا نَذْكُرُهَا كُلَّهَا فِي أَجْزَائِهَا ٱلَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا وَيَخْرُجُ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ عِنْدَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مِنْهُ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ خَلِيجُ ٱلْبَنَادِقَةِ يَذْهَبُ إِلَى نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ عِنْدَ وَسَطِ ٱلْجُزْءِ مِنْ جَوْفِهِ وَيَمُرُّ مُغَرِّبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْخَامِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ شَرْقًا مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ خَلِيجُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَمُرُّ فِي ٱلشَّمَالِ مُتَضَايِقًا فِي عَرْضِ رَمْيَةِ ٱلسَّهْمِ إِلَى آخِرِ ٱلْإِقْلِيمِ ثُمَّ يُفْضِي إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ إِلَى بَحْرِ نِيطِشَ ذَاهِبًا إِلَى ٱلشَّرْقِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ كُلِّهِ وَنِصْفِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ كَمَا نَذْكُرُ ذٰلِكَ فِي أَمَاكِنِهِ وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ هٰذَا ٱلْبَحْرُ

ٱلرُّومِيُّ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنْجَةَ وَيَنْفَسِحُ إِلَى ٱلإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ يَبْقَى فِي ٱلْجَنُوبِ عَنِ ٱلْخَلِيجِ قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةُ طَنْجَةَ عَلَى مَجْمَعِ ٱلْبَحْرَيْنِ وَبَعْدَهَا مَدِينَةُ سَبْتَةَ عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ثُمَّ قَطَاوُنُ ثُمَّ بَادِيسُ ثُمَّ يَغْمُرُ هٰذَا ٱلْبَحْرُ بَقِيَّةَ هٰذَا ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلثَّالِثِ وَأَكْثَرُ ٱلْعِمَارَةِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي شَمَالِهِ وَشَمَالِ ٱلْخَلِيجِ مِنْهُ وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ ٱلأَنْدَلُسِ ٱلْغَرْبِيَّةُ مِنْهَا مَا بَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ أَوَّلُهَا طَرِيفُ عِنْدَ مَجْمَعِ ٱلْبَحْرَيْنِ وَفِي ٱلشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ٱلْجَزِيرَةُ ٱلْخَضْرَاءُ ثُمَّ مَالَقَةُ ثُمَّ ٱلْمُنَكَّبُ ثُمَّ ٱلْمَرِيَّةُ وَتَحْتَ هٰذِهِ مِنْ لَدُنِ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ شَرِيشُ ثُمَّ لَبْلَةُ وَقُبَالَتَهَا فِيهِ جَزِيرَةُ قَادِسَ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْ شَرِيشَ وَلَبْلَةَ إِشْبِيلِيَّةُ ثُمَّ أَسْتَجَةُ وَقُرْطُبَةُ وَمَدِيلَةُ ثُمَّ غَرْنَاطَةُ وَجَيَّانُ وَأُبَّدَةُ ثُمَّ وَادِيَاشُ وَبَسْطَةُ وَتَحْتَ هٰذِهِ شَنْتَمَرِيَّةُ وَشِلْبُ عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ غَرْبًا وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْهُمَا بَطَلْيُوسُ وَمَارِدَةُ وَيَابُرَةُ ثُمَّ غَافِقُ وَبَزْجَالَةُ ثُمَّ قَلْعَةُ رِبَاحٍ وَتَحْتَ هٰذِهِ أُشْبُونَةُ عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى نَهْرِ بَاجَةَ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينُ وَمَوْزِيَّةُ عَلَى ٱلنَّهْرِ ٱلْمَذْكُورِ ثُمَّ قَنْطَرَةُ ٱلسَّيْفِ وَيُسَامِتُ أُشْبُونَةَ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ جَبَلُ ٱلشَّارَاتِ يَبْدَأُ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ مُشَرِّقًا مَعَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ مِنْ شَمَالِيِّهِ فَيَنْتَهِي إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ فِيمَا بَعْدَ ٱلنِّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَ هٰذَا ٱلْجَبَلِ طَلَبِيرَةُ فِي ٱلشَّرْقِ مِنْ فُورْنَةَ ثُمَّ طُلَيْطِلَةُ ثُمَّ وَادِي ٱلْحِجَارَةِ ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ وَعِنْدَ أَوَّلِ هٰذَا ٱلْجَبَلِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُشْبُونَةَ بَلَدُ قَلَمْرِيَّةَ وَهٰذِهِ غَرْبِيُّ ٱلأَنْدَلُسِ. وَأَمَّا شَرْقِيُّ ٱلأَنْدَلُسِ فَعَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ مِنْهَا بَعْدَ ٱلْمَرِيَّةِ قَرْطَاجَنَّةُ ثُمَّ لَقَنْتُ ثُمَّ دَانِيَةُ ثُمَّ بَلَنْسِيَةُ إِلَى طَرْطُوشَةَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ فِي ٱلشَّرْقِ وَتَحْتَهَا شَمَالاً لُيُورَقَةُ وَشَقُّورَةُ تُتَاخِمَانِ بَسْطَةَ وَقَلْعَةَ رِبَاحٍ مِنْ غَرْبِ ٱلأَنْدَلُسِ ثُمَّ مُرْسِيَةُ شَرْقًا ثُمَّ شَاطِبَةُ تَحْتَ بَلَنْسِيَةَ شَمَالاً ثُمَّ شُقْرُ ثُمَّ طَرْطُوشَةُ ثُمَّ طَرَّكُونَةُ آخِرَ ٱلْجُزْءِ ثُمَّ تَحْتَ هٰذِهِ شَمَالاً أَرْضُ مَنْجَالَةَ وَرِيدَةُ مُتَاخِمَانِ لِشَقُّورَةَ وَطُلَيْطِلَةَ مِنَ ٱلْغَرْبِ ثُمَّ أَفْرَاغَةُ شَرْقًا تَحْتَ طَرْطُوشَةَ وَشَمَالاً عَنْهَا ثُمَّ فِي ٱلشَّرْقِ عَنْ مَدِينَةِ سَالِمٍ قَلْعَةُ أَيُّوبَ ثُمَّ سَرَقُسْطَةُ ثُمَّ لَارِدَةُ آخِرُ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالاً. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلإِقْلِيمِ غَمَرَ ٱلْمَاءُ جَمِيعَهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنْ غَرْبِيِّهِ فِي ٱلشَّمَالِ فِيهَا بَقِيَّةُ جَبَلِ ٱلْبُرْتَاتِ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ ٱلثَّنَايَا وَٱلسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلأَوَّلِ مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ يَبْدَأُ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلْمُنْتَهِي مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ عِنْدَ آخِرِ ذٰلِكَ ٱلْجُزْءِ جَنُوبًا وَشَرْقًا وَيَمُرُّ فِي ٱلْجَنُوبِ

بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ مُنْحَرِفًا عَنِ ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي فَيَقَعُ فِيهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ تُفْضِي ثَنَايَاهَا إِلَى ٱلْبَرِّ ٱلْمُتَّصِلِ وَتُسَمَّى أَرْضَ غَشْكُونِيَّةَ وَفِيهِ مَدِينَةُ خَرِيدَةَ وَقَرْقَشُونَةَ وَعَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ مَدِينَةُ بَرْسَلُونَةَ ثُمَّ أَرْبُونَةُ وَفِي هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي غَمَرَ ٱلْجُزْءَ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ وَٱلْكَثِيرُ مِنْهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ لِصِغَرِهَا فَفِي غَرْبِيِّهِ جَزِيرَةُ سَرْدَانِيَّةَ وَفِي شَرْقِيِّهِ جَزِيرَةُ صِقِلِّيَةَ مُتَّسِعَةُ ٱلْأَقْطَارِ يُقَالُ إِنَّ دَوْرَهَا سَبْعُمَائَةِ مِيلٍ وَبِهَا مُدُنٌ كَثِيرَةٌ مِنْ مَشَاهِيرِهَا سَرَقُوسَةُ وَبَلَرْمُ وَطَرَابِغَةُ وَمَازَرُ وَمَسِينِي وَهٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةُ تُقَابِلُ أَرْضَ أَفْرِيقِيَّةَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ أَعْدُوشَ وَمَالِطَةَ ٠ وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضًا بِٱلْبَحْرِ إِلَّا ثَلَاثَ قِطَعٍ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا أَرْضُ قَلَوْرِيَّةَ وَٱلْوُسْطَى مِنْ أَرْضِ أَنْكِبَرْدَةَ وَٱلشَّرْقِيَّةُ مِنْ بِلَادِ ٱلْبَنَادِقَةِ ٠ وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضًا بِٱلْبَحْرِ كَمَا مَرَّ وَجَزَائِرُهُ كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ كَمَا فِي ٱلثَّالِثِ وَٱلْمَعْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةُ بَلُونَسَ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ وَجَزِيرَةُ أَقْرِيطِشَ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسَطِ ٱلْجُزْءِ إِلَى مَا بَيْنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلشَّرْقِ مِنْهُ ٠ وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ غَمَرَ ٱلْبَحْرُ مِنْهُ مُثَلَّثَةً كَبِيرَةً بَيْنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلْغَرْبِ يَنْتَهِي ٱلضِّلَعُ ٱلْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ فِي ٱلشَّمَالِ وَيَنْتَهِي ٱلضِّلَعُ ٱلْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ ٱلثُّلُثَيْنِ مِنَ ٱلْجُزْءِ وَيَبْقَى فِي ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنَ ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ نَحْوَ ٱلثُّلُثِ يَمُرُّ ٱلشَّمَالِيُّ مِنْهَا إِلَى ٱلْغَرْبِ مُنْعَطِفًا مَعَ ٱلْبَحْرِ كَمَا قُلْنَاهُ وَفِي ٱلنِّصْفِ ٱلْجَنُوبِيِّ مِنْهَا أَسَافِلُ ٱلشَّامِ وَيَمُرُّ فِي وَسَطِهَا جَبَلُ ٱللُّكَامِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلشَّامِ فِي ٱلشَّمَالِ فَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَالِكَ ذَاهِبًا إِلَى ٱلْقُطْرِ ٱلشَّرْقِيِّ ٱلشَّمَالِيِّ وَيُسَمَّى بَعْدَ ٱنْعِطَافِهِ جَبَلَ ٱلسِّلْسِلَةِ وَمِنْ هُنَالِكَ يَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَجُوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطَفِهِ قِطْعَةً مِنْ بِلَادِ ٱلْجَزِيرَةِ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَيَقُومُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطَفِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَغْرِبِ جِبَالٌ مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى طَرَفٍ خَارِجٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ مُتَأَخِّرٍ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ ثَنَايَا تُسَمَّى ٱلدُّرُوبَ وَهِيَ ٱلَّتِي تُفْضِي إِلَى بِلَادِ ٱلْأَرْمَنِ وَفِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ وَبَيْنَ جَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فَأَمَّا ٱلْجِهَةُ ٱلْجَنُوبِيَّةُ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا أَنَّ فِيهَا أَسَافِلَ ٱلشَّامِ وَأَنَّ جَبَلَ ٱللُّكَامِ مُعْتَرِضٌ فِيهَا بَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَآخِرِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فَعَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ بَلَدُ أَنْطَرْطُوسَ فِي أَوَّلِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ مُتَاخِمَةً

لغزّة وطرابلس على ساحله من الإقليم الثالث وفي شمال أنطرطوس جبلة ثمّ اللاذقية ثمّ إسكندرونة ثمّ سلوقية وبعدها شمالاً بلاد الرّوم وأمّا جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً من غربيه حصن الخوابي وهو للحشيشة الإسماعيليّة ويعرفون لهذا العهد بالفداويّة ويسمّى مصيات وهو قبالة أنطرطوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلميّة في الشمال عن حمص وفي الشمال وفي مصيات بين الجبل والبحر بلد أنطاكية ويقابلها في شرق الجبل المعرّة وفي شرقها المراغة وفي شمال أنطاكية المصيصة ثمّ أذنة ثمّ طرسوس آخر الشام ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثمّ عين زربة وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام. وأمّا الدّروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرّومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا. وأمّا بلاد الأرمن التي بين جبل الدّروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرّة إلى آخر الجزء الشمالي ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمرّ بها جيحان جنوباً حتّى يتجاوز الدّروب ثمّ يمرّ بطرسوس ثمّ بالمصيصة ثمّ ينعطف هابطاً إلى الشمال ومغرباً حتّى يصبّ في البحر الرّومي جنوب سلوقية ويمرّ نهر سيحان موازياً لنهر جيحان فيحاذي المعرّة ومرعش ويتجاوز جبال الدّروب إلى أرض الشام ثمّ يمرّ بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثمّ ينعطف إلى الشمال مغرباً فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها وأمّا بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام إلى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرّافضة والرّقّة ثمّ حرّان ثمّ سروج والرّها ثمّ نصيبين ثمّ سميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من شرقيه ويمرّ في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الإقليم الخامس ويمرّان في بلاد الأرمن جنوباً إلى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمرّ نهر الفرات من غربي سميساط وسروج وينحرف إلى الشرق فيمرّ بقرب الرّافضة والرّقّة ويخرج إلى الجزء السادس ويمرّ دجلة في شرق آمد وينعطف قريباً إلى الشرق فيخرج قريباً إلى الجزء السادس وفي الجزء السادس من هذا الإقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفي

ٱلشَّرْقِ مِنْهَا بِلَادُ ٱلْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي ٱلشَّرْقِ إِلَى قُرْبِ آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَيَعْتَرِضُ مِنْ آخِرِ ٱلْعِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلُ أَصْبَهَانَ هَابِطًا مِنْ جَنُوبِ ٱلْجُزْءِ مُنْحَرِفًا إِلَى ٱلْغَرْبِ فَإِذَا ٱنْتَهَى إِلَى وَسَطِ ٱلْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي ٱلشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغَرِّبًا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هٰذَا ٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ فَفِي ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ جَنُوبِيِّهَا مَخْرَجُ ٱلْفُرَاتِ مِنَ ٱلْخَامِسِ وَفِي شَمَالِيِّهَا مَخْرَجُ دِجْلَةَ مِنْهُ أَمَّا ٱلْفُرَاتُ فَأَوَّلَ مَا يَخْرُجُ إِلَى ٱلسَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ هُنَالِكَ جَدْوَلٌ إِلَى ٱلشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ ٱلْجَزِيرَةِ وَيَغُوصُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمُرُّ مِنْ قَرْقِيسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ ٱلْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ ٱلرَّحْبَةِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلُ مِنْ هُنَالِكَ يَمُرُّ جَنُوبًا وَيَبْقَى صِفِّينُ فِي غَرْبِيِّهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقًا وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا بِٱلْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ٱبْنِ هُبَيْرَةَ وَبِٱلْجَامِعَيْنِ وَتَخْرُجُ جَمِيعًا فِي جَنُوبِ ٱلْجُزْءِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ فَيَغُوصُ هُنَالِكَ فِي شَرْقِ ٱلْحِيرَةِ وَٱلْقَادِسِيَّةِ وَيَخْرُجُ ٱلْفُرَاتُ مِنَ ٱلرَّحْبَةِ مُشَرِّقًا عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هِيتَ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى ٱلزَّابِ وَٱلْأَنْبَارِ مِنْ جَنُوبِهِمَا ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ بَغْدَادَ. وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةَ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ يَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ٱبْنِ عُمَرَ عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِٱلْمَوْصِلِ كَذٰلِكَ وَتَكْرِيتَ وَيَنْتَهِي إِلَى ٱلْحَدِيثَةِ فَيَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَتَبْقَى ٱلْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَٱلزَّابُ ٱلْكَبِيرُ وَٱلصَّغِيرُ كَذٰلِكَ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوبًا وَفِي غَرْبِ ٱلْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطَ بِٱلْفُرَاتِ ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوبًا عَلَى غَرْبِ جَرْجَرَايَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ٱلْجُزْءِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارِسَ عِنْدَ عَبَّادَانَ وَفِيمَا بَيْنَ نَهْرِ ٱلدِّجْلَةِ وَٱلْفُرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِهِمَا بِبَغْدَادَ هِيَ بِلَادُ ٱلْجَزِيرَةِ وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بِبَغْدَادَ نَهْرٌ آخَرُ يَأْتِي مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ ٱلنَّهْرَوَانِ قُبَالَةَ بَغْدَادَ شَرْقًا ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةَ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هٰذَا ٱلنَّهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلْأَعَاجِمِ بَلَدُ جَلُولَاءَ وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ ٱلْجَبَلِ بَلَدُ حُلْوَانَ وَصَيْمَرَةُ. وَأَمَّا ٱلْقِطْعَةُ ٱلْغَرْبِيَّةُ مِنَ ٱلْجُزْءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ ٱلْأَعَاجِمِ مُشَرِّقًا إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلَ شَهْرَزُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي ٱلْجَنُوبِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ ٱلصُّغْرَى بَلَدُ خُونَجَانَ مِنَ ٱلْغَرْبِ وَٱلشَّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ وَتُسَمَّى هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةُ بَلَدَ ٱلْبَهْلُوسِ

وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور غربا عند ملتقى الجبلين والدينور شرقا عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للأكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز والبيدقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر وفي الجزء السابع من هذا الإقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همذان وقزوين وبقيتها في الإقليم الثالث وفيها هنالك أصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالإقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس إلى الإقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك وإنه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط بأصبهان من الإقليم الثالث إلى جهة الشمال ويخرج إلى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحته هنالك قاشان ثم قم وينعطف في قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشيء ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا إلى الشمال حتى يخرج إلى الإقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غربا إلى آخر هذا الجزء ومن جنوبه من هنالك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهبا إلى الشرق والشمال إلى وسط الجزء ثم إلى الإقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الإقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه إلى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه إلى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقا وبانحراف قليل إلى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدإهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلد أستراباذ وحافات هذا الجبل من شرقيه إلى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقا

وكل هذا تحت الجبل وفي الشمال عنها بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزئين الشمال والشرق مفاوز معطلة . وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب إلى الشمال ففي عدوته الغربية زم وآمل من بلاد خراسان والطاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل أستراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم سردارا وأشنة ومنها خجندة آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن سمرقند وسردار وأشنة أرض إيلاق[1] ثم في الشمال عن إيلاق أرض الشاش إلى آخر الجزء شرقا ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن إلى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله إلى الإقليم الخامس ويختلط معه في أرض إيلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الإقليم الخامس وينعطف شرقا ومنحرفا إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطا بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك إلى جنوبه فيدخل في الإقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد إسبيجاب وطراز . وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزلجية في الجنوب وأرض الخليجية في الشمال وفي شرق الجزء كله أرض الكيماكية ويتصل في الجزء العاشر كله إلى جبل قوقيا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل يأجوج ومأجوج وهذه الأمم كلها من شعوب الترك . انتهى

الإقليم الخامس * الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء إلا قليلا من جنوبه وشرقه لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الإقليم الخامس والسادس

(١) في المشترك ايلاق إقليم متصل بإقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون اليا بعدها ا ه

وَٱلسَّابِعِ عَنِ ٱلدَّائِرَةِ ٱلْمُحِيطَةِ بِٱلْإِقْلِيمِ فَأَمَّا ٱلْمُنْكَشِفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُتَّصِلَةٌ مِنْ هُنَالِكَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحِيطُ بِهَا ٱلْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا ضِلْعَانِ مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ ٱلْمُثَلَّثِ فَفِيهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ ٱلْأَنْدَلُسِ سَعِيُورُ عَلَى ٱلْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلْغَرْبِ وَسَلَمَنْكَةُ شَرْقًا عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَمُّورَةُ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْ سَلَمَنْكَةَ أَبِلَةُ آخِرَ ٱلْجَنُوبِ وَأَرْضُ قَشْتَالِيَةَ شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةُ شَقُوبِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ لِيُون وَبَرْغَشْتُ ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي ٱلشَّمَالِ أَرْضُ جِلِيقِيَّةَ إِلَى زَاوِيَةِ ٱلْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي آخِرِ ٱلضِّلْعِ ٱلْغَرْبِيِّ بَلَدُ شَنْتَيَاقُو وَمَعْنَاهُ يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ شَطَالِيَةَ عِنْدَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ فِي ٱلْجَنُوبِ وَشَرْقًا عَنْ قَشْتَالِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشْقَةُ وَبَنْبَلُونَةُ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشَمَالًا وَفِي غَرْبِ بَنْبَلُونَةَ قَسْطَالَةُ ثُمَّ نَاجِرَةُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشْتَ وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاذٍ لِلْبَحْرِ وَلِلضِّلْعِ ٱلشَّمَالِيِّ ٱلشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى قُرْبٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ وَبِطَرَفِ ٱلْبَحْرِ عِنْدَ بَنْبَلُونَةَ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَتَّصِلَ فِي ٱلْجَنُوبِ بِٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَصِيرُ حَجْرًا عَلَى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَثَنَايَاهُ لَهَا أَبْوَابٌ تُفْضِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَةَ مِنْ أُمَمِ ٱلْفِرَنْجِ فَمِنْهَا مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَخَرِيدَةُ وَقَرْقَشُونَةُ وَرَاءَهُمَا فِي ٱلشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ طَلُوشَةُ شَمَالًا عَنْ خَرِيدَةَ . وَأَمَّا ٱلْمُنْكَشِفُ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ ٱلْحَادَّةُ وَرَاءَ ٱلْبُرْنَاتِ شَرْقًا وَفِيهَا عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ عَلَى رَأْسِ ٱلْقِطْعَةِ ٱلَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ ٱلْبُرْنَاتِ بَلَدُ نِيُونَةَ وَفِي آخِرِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ أَرْضُ بِنْطُو مِنَ ٱلْفِرَنْجِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضُ غَشْكُونِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ بِنْطُو وَبَرْغَشْتَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمَا وَفِي شَرْقِ بِلَادِ غَشْكُونِيَةَ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةُ أَرْضٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ كَٱلضِّرْسِ مَائِلَةً إِلَى ٱلشَّرْقِ قَلِيلًا وَصَارَتْ بِلَادُ غَشْكُونِيَةَ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةً فِي جَوْنٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَعَلَى رَأْسِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ شَمَالًا بِلَادُ جَنْوَةَ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي ٱلشَّمَالِ جَبَلُ نِيتْ جُونْ وَفِي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ بَرْغُونَةَ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنْوَةَ ٱلْخَارِجِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ طَرَفٌ آخَرُ خَارِجٌ مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جَوْنٌ دَاخِلٌ مِنَ ٱلْبَرِّ فِي ٱلْبَحْرِ فِي غَرْبِيِّهِ نِيشُ وَفِي شَرْقِيِّهِ مَدِينَةُ رُومَةَ

ٱلعُظْمَى كُرْسِيّ مَلِكِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ وَمَسْكِنِ ٱلْبَابَا بَطْرَكِهِمِ ٱلْأَعْظَمِ وَفِيهَا مِنَ ٱلْمَبَانِي ٱلضَّخْمَةِ وَٱلْهَيَاكِلِ ٱلْهَائِلَةِ وَٱلْكَنَائِسِ ٱلْعَادِيَّةِ مَا هُوَ مَعْرُوفُ ٱلْأَخْبَارِ وَمِنْ عَجَائِبِهَا ٱلنَّهْرُ ٱلْجَارِي فِي وَسَطِهَا مِنَ ٱلْمَشْرِقِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ مَفْرُوشٌ قَاعُهُ بِبَلَاطِ ٱلنُّحَاسِ وَفِيهَا كَنِيسَةُ بُطْرُسَ وَبُولُسَ مِنَ ٱلْحَوَارِيِّينَ وَهُمَا مَدْفُونَانِ بِهَا وَفِي ٱلشَّمَالِ عَنْ بِلَادِ رُومَةَ بِلَادُ أَقْرَنْصِيصَةَ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَعَلَى هٰذَا ٱلطَّرَفِ. مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي فِي جَنُوبِهِ رُومَةُ بِلَادُ نَابِلَ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنْهُ مُتَّصِلَةً بِبَلَدِ قَلُورِيَّةَ مِنْ بِلَادِ ٱلْفِرَنْجِ وَفِي شَمَالِهَا طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ ٱلْبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مُغَرِّبًا وَمُحَاذِيًا لِلشَّمَالِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَٱنْتَهَى إِلَى نَحْوِ ٱلثُّلُثِ مِنْهُ وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ ٱلْبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ جَنُوبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَمِنْ شَمَالِهِ بِلَادُ إِنْكِلَايَةَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيِّهِ بِلَادُ قَلُورِيَّةَ بَيْنَ خَلِيجِ ٱلْبَنَادِقَةِ وَٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ يُحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِيِّهِ يَصِلُ مِنْ بَرِّهَا فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ فِي جُونٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ ٱلْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ ٱلشَّمَالِ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي شَرْقِيِّ بِلَادِ قَلُورِيَّةَ بِلَادُ أَنْكِبَرْدَةَ فِي جُونٍ بَيْنَ خَلِيجِ ٱلْبَنَادِقَةِ وَٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَيَدْخُلُ طَرَفٌ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي ٱلْجُونِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَفِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِيِّهِ خَلِيجُ ٱلْبَنَادِقَةِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمْتِ ٱلشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلْغَرْبِ مُحَاذِيًا لِآخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُوَازِيهِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى ٱلشَّمَالِ ثُمَّ يُغَرِّبُ مَعَهُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ قُبَالَةَ خَلِيجٍ فِي شَمَالِيِّهِ فِي بِلَادِ إِنْكِلَايَةَ مِنْ أُمَمِ ٱللَّمَانِيِّينَ كَمَا نَذْكُرُ وَعَلَى هٰذَا ٱلْخَلِيجِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَا ٱلْجَبَلِ مَادَامَا ذَاهِبَيْنِ إِلَى ٱلشَّمَالِ بِلَادُ ٱلْبَنَادِقَةِ فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى ٱلْمَغْرِبِ فَبَيْنَهُمَا بِلَادُ حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ ٱلْأَلْمَانِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ ٱلْخَلِيجِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ قِطْعَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ مُضَرَّسَةً كُلُّهَا بِقِطَعٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ وَبَيْنَ كُلِّ ضِرْسَيْنِ مِنْهَا طَرَفٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ فِي ٱلْجُونِ بَيْنَهُمَا وَفِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا قِطَعٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ خَلِيجُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَخْرُجُ مِنْ هٰذَا ٱلطَّرَفِ ٱلْجَنُوبِيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِ ٱلشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَالِكَ عَنْ قُرْبٍ مُشَرِّقًا إِلَى بَحْرِ نِيطَشَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ وَبَعْضِ ٱلرَّابِعِ

قبله والسادس بعده من الإقليم السادس كما نذكر وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الأحاديث والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها برصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الأمم إلى أن صارت للتركمان . وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم من غربيه وجنوبيه أرض باطوس وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عمورية وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات ويخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء إلى ممره في الإقليم الرابع وهنالك في غربيه آخر الجزء في مبدإ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما وفي شرقيه هنالك مبدأ نهر دجلة الذاهب على سمته وفي موازرته حتى يخالطه عند بغداد وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافارقين ونهر قباقب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين إحداهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ دجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقب وهي عريضة وفي آخرها عند مبدإ الفرات بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية . وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبه وغربه بلاد أرمينية متصلة إلى أن تتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق وفيها بلدان أردن في الجنوب والغرب وفي شمالها تفليس ودبيل وفي شرق أردن مدينة خلاط ثم بردعة في جنوبها بانحراف إلى الشرق مدينة أرمينية ومن هنالك مخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد المسمى بأرمى وقد مر ذكره في الجزء السادس منه ويتاخم بلاد أرمينية في هذا الجزء وفي الإقليم

ٱلرَّابِعِ قَبْلَهُ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ فِيهَا بِلَادُ أَذْرَبِيجَانَ وَآخِرُهَا فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ شَرْقًا بِلَادُ أَرْدَبِيلَ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ دَخَلَتْ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ وَيُسَمَّى بَحْرَ طَبَرِسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ شَمَالِهِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ ٱلْخَزَرِ وَهُمُ ٱلتُّرْكُمَانُ وَيَبْدَأُ مِنْ عِنْدِ آخِرِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ ٱلْبَحْرِيَّةِ فِي ٱلشَّمَالِ جِبَالٌ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمْتِ ٱلْغَرْبِ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةً وَمُحِيطَةً بِبَلَدِ مَيَّافَارِقِينَ وَتَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ عِنْدَ آمِدَ وَتَتَّصِلُ بِجَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فِي أَسَافِلِ ٱلشَّامِ وَمِنْ هُنَالِكَ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ ٱللُّكَامِ كَمَا مَرَّ وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ ٱلشَّمَالِيَّةِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ ثَنَايَا كَٱلْأَبْوَابِ تُفْضِي مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ فَفِي جَنُوبِيِّهَا بِلَادُ ٱلْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي ٱلشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْبِلَادِ مَدِينَةُ بَابِ ٱلْأَبْوَابِ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ ٱلْأَبْوَابِ فِي ٱلْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِيِّهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَةَ وَبَيْنَهُمَا فِي ٱلشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلَادِ أَذْرَبِيجَانَ ٱلْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ ٱلزَّابِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَفِي شَمَالِ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ ٱلسَّرِيرِ فِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا وَفِي زَاوِيَةِ ٱلْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضًا مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ ٱلَّذِي يَمُدُّهُ خَلِيجُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ وَيَحُفُّ بِهٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ مِنْ نِيطِشَ بِلَادُ ٱلسَّرِيرِ وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلَدُ أَطْرَابَزِيدَةَ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ ٱلسَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ ٱلْأَبْوَابِ وَٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقًا إِلَى جَبَلٍ حَاجِزٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ ٱلْخَزَرِ وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُولَ وَوَرَاءَ هٰذَا ٱلْجَبَلِ ٱلْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ ٱلْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَآخِرِ ٱلْجُزْءِ شَمَالًا ٠ وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّابِعُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ غَرْبِيُّهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِبَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ ٱلْقِطْعَةُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا هُنَالِكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبَرِسْتَانَ وَجِبَالَ ٱلدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ وَفِي غَرْبِيِّ تِلْكَ ٱلْقِطْعَةِ مُتَّصِلَةً بِهَا ٱلْقِطْعَةُ ٱلَّتِي فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا ٱلْقِطْعَةُ ٱلَّتِي فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ شَرْقِهِ أَيْضًا وَيَنْكَشِفُ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِهِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ أَثَلٍ فِي هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَيَبْقَى مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ هِيَ مَجَالَاتٌ لِلْغُزِّ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ وَيَذْهَبُ فِي ٱلْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى ٱلشَّمَالِ إِلَى أَنْ يُلَاقِيَ بَحْرَ طَبَرِسْتَانَ فَيَحْتَفُّ بِهِ ذَاهِبًا مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ

ثُمَّ يَنعطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفارِقُهُ وَيُسمّى هُنالِكَ جَبَلَ سِياهَ وَيَذْهَبُ مُغَرِّباً إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوباً إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَهٰذَا ٱلطَّرَفُ مِنْهُ وَهُوَ ٱلَّذِي ٱعْتَرَضَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ ٱلسَّرِيرِ وَأَرْضِ ٱلْخَزَرِ وَٱتَّصَلَتْ بِأَرْضِ ٱلْخَزَرِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَٱلسَّابِعِ حَافَاتُ هٰذَا ٱلْجَبَلِ ٱلْمُسَمّى جَبَلَ سِياهَ كَمَا سَيَأْتِي. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّامِنُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ كُلُّهُ مَجَالَاتٌ لِلْغُزِّ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ وَفِي ٱلْجِهَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ خُوارَزْمَ ٱلَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ جَيْحُونَ دَوْرُهَا ثَلَاثُمِائَةِ مِيلٍ وَيَصُبُّ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هٰذِهِ ٱلْمَجَالَاتِ وَفِي ٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ عُرْعُونَ دَوْرُهَا أَرْبَعُمِائَةِ مِيلٍ وَمَاؤُهَا حُلْوٌ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ جَبَلُ مِرْغَارَ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ ٱلثَّلْجِ لِأَنَّهُ لَا يَذُوبُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْجَنُوبِ عَنْ بُحَيْرَةِ عُرْعُونَ جَبَلٌ مِنَ ٱلْحَجَرِ ٱلصَّلْدِ لَا يُنْبِتُ شَيْئاً يُسَمّى عُرْعُونَ وَبِهِ سُمِّيَتِ ٱلْبُحَيْرَةُ وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلِ مِرْغَارَ شَمَالِيَّ ٱلْبُحَيْرَةِ أَنْهَارٌ لَا تَنْحَصِرُ عِدَّتُهَا فَتَصُبُّ فِيهَا مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ بِلَادُ أَرْكَسَ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ فِي غَرْبِ بِلَادِ ٱلْغُزِّ وَشَرْقِ بِلَادِ ٱلْكِيمَاكِيَّةِ وَيَحُفُّ بِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ آخِرِ ٱلْجُزْءِ جَبَلُ قُوقِيَا ٱلْمُحِيطُ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَعْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ حَتَّى يَنْعَطِفَ أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ قَبْلَهُ وَٱحْتَفَّ هُنَالِكَ بِٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ فِي ٱلشَّمَالِ ثُمَّ ٱنْعَطَفَ مُغَرِّباً فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِبِلَادِ ٱلْكِيمَاكِيَّةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَذَهَبَ فِيهِ مُغَرِّباً إِلَى آخِرِهِ وَبَقِيَتْ فِي جَنُوبِيِّهِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى ٱلْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ ٱلْكِيمَاكِيَّةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ فِي شَرْقِيِّهِ وَفِي ٱلْأَعْلَى مِنْهُ وَٱنْعَطَفَ قَرِيباً إِلَى ٱلشَّمَالِ وَذَهَبَ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَفِيهِ ٱلسَّدُّ هُنَالِكَ كَمَا نَذْكُرُهُ وَبَقِيَتْ مِنْهُ ٱلْقِطْعَةُ ٱلَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلُ قُوقِيَا عِنْدَ ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مُسْتَطِيلَةً إِلَى ٱلْجَنُوبِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ أَرْضُ يَأْجُوجَ مُتَّصِلَةً فِيهِ كُلِّهِ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ ٱلْبَحْرِ غَمَرَتْ طَرَفاً فِي شَرْقِيِّهِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ إِلَّا ٱلْقِطْعَةَ ٱلَّتِي يَفْصِلُهَا إِلَى جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ وَٱلْغَرْبِ جَبَلُ قُوقِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا

سِوَى ذٰلِكَ فَأَرْضُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

أَلْإِقْلِيمُ ٱلسَّادِسُ. فَٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ مِنْهُ غَمَرَ ٱلْبَحْرُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِهِ وَٱسْتَدَارَ شَرْقًا مَعَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ إِلَى ٱلْجَنُوبِ وَٱنْتَهَى قَرِيبًا مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ فَٱنْكَشَفَ قِطْعَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ دَاخِلَةٌ بَيْنَ ٱلطَّرَفَيْنِ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ كَٱلْجُونِ فِيهِ وَيَنْفَسِحُ طُولاً وَعَرْضًا وَهِيَ كُلُّهَا أَرْضُ بَرِيطَانِيَةَ وَفِي بَابِهَا بَيْنَ ٱلطَّرَفَيْنِ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِلَادُ صَاقِسَ مُتَّصِلَةً بِبِلَادِ بِنْطُو ٱلَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ دَخَلَ ٱلْبَحْرُ ٱلْمُحِيطُ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ فَمِنْ غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِهِ ٱلشَّمَالِيِّ مِنْ شَرْقِ أَرْضِ بَرِيطَانِيَةَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ وَٱتَّصَلَتْ بِهَا ٱلْقِطْعَةُ ٱلْأُخْرَى فِي ٱلشَّمَالِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَٱنْفَسَحَتْ فِي ٱلنِّصْفِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ وَفِيهِ هُنَالِكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ أَنْكِلْتَرَّا وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مُدُنٍ وَبِهَا مُلْكٌ ضَخْمٌ وَبَقِيَّتُهَا فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَفِي جَنُوبِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ وَجَزِيرَتِهَا فِي ٱلنِّصْفِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِلَادُ أَرْمَنْدِيَةَ وَبِلَادُ أَفْلَادَشَ مُتَّصِلَيْنِ بِهَا ثُمَّ بِلَادُ إِفْرَنْسِيَةَ جَنُوبًا وَغَرْبًا مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَبِلَادُ بَرْغُونِيَةَ شَرْقًا عَنْهَا وَكُلُّهَا لِأُمَمِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ وَبِلَادُ ٱللَّمَانِيِّينَ فِي ٱلنِّصْفِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنَ ٱلْجُزْءِ فَجَنُوبُهُ بِلَادُ أَنْكِلَايَةَ ثُمَّ بِلَادُ بَرْغُونِيَةَ شَمَالاً ثُمَّ أَرْضُ لَهْوِيكَةَ وَشَطُونِيَةَ وَعَلَى قِطْعَةِ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ أَفْرِيزَةَ وَكُلُّهَا لِأُمَمِ ٱللَّمَانِيِّينَ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ بِلَادُ مَرَاتِيَةَ فِي ٱلْجَنُوبِ وَبِلَادُ شَطُونِيَةَ فِي ٱلشَّمَالِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ بِلَادُ أَنْكَوِيَّةَ فِي ٱلْجَنُوبِ وَبِلَادُ بَلُونِيَّةَ فِي ٱلشَّمَالِ يَعْتَرِضُ بَيْنَهُمَا جَبَلُ بَلْوَاطَ دَاخِلاً مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ وَيَمُرُّ مُغَرِّبًا بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي بِلَادِ شَطُونِيَةَ آخِرَ ٱلنِّصْفِ ٱلْغَرْبِيِّ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِ أَرْضُ جَثُولِيَّةَ وَتَحْتَهَا فِي ٱلشَّمَالِ بِلَادُ ٱلرُّوسِيَةِ وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلُ بَلْوَاطَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْجُزْءِ غَرْبًا إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي ٱلنِّصْفِ ٱلشَّرْقِيِّ وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَثُولِيَّةَ بِلَادُ جُرْمَانِيَةَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ ٱلْخَلِيجِ ٱلْخَارِجِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَعِنْدَ مَدْفَعِهِ فِي بَحْرِ نِيطِشَ فَيَقَعُ قُطَيْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ فِي أَعَالِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا

ٱلْجُزْءِ وَيُمِدُّهَا ٱلْخَلِيجُ وَبَيْنَهُمَا فِي ٱلزَّاوِيَةِ بَلَدُ مَسِينَاهَ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ ثُمَّ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نِيطِشَ يَتَّصِلُ مِنَ ٱلْخَلِيجِ فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ وَيَخْرُجُ مِنْ سَمْتِهِ مُشَرِّقًا فَيَمُرُّ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ كُلِّهِ وَفِي بَعْضِ ٱلسَّادِسِ عَلَى طُولِ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدَإِهِ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ وَيَبْقَى وَرَاءَ هٰذَا ٱلْبَحْرِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرْبِهِ هِرَقْلِيَّةُ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ نِيطِشَ مُتَّصِلَةً بِأَرْضِ ٱلْبَيْلَقَانِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ ٱللَّانِيَّةِ وَقَاعِدَتُهَا سُوتَلِي عَلَى بَحْرِ نِيطِشَ وَفِي شَمَالِ بَحْرِ نِيطِشَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ غَرْبًا أَرْضُ تَرْخَانَ وَشَرْقًا بِلَادُ ٱلرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَبِلَادُ ٱلرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تَرْخَانَ مِنْ شَرْقِهَا فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهَا فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا فِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ فِي غَرْبِيِّهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نِيطِشَ وَيَنْحَرِفُ قَلِيلًا إِلَى ٱلشَّمَالِ وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَالِكَ وَبَيْنَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَمَالًا بِلَادُ قُمَانِيَّةَ وَفِي جَنُوبِهِ مُنْفَسِحًا إِلَى ٱلشَّمَالِ بِمَا ٱنْحَرَفَ هُوَ كَذٰلِكَ بَقِيَّةُ بِلَادِ ٱللَّانِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ آخِرَ جَنُوبِهِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مُتَّصِلٌ أَرْضُ ٱلْخَزَرِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بُلْغَارَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلَنْجَرَ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلِ سِيَاكُوهَ ٱلْمُنْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ ٱلْخَزَرِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ بَعْدَهُ وَيَذْهَبُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ مُغَرِّبًا فَيَجُوزُ فِي هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِجَبَلِ ٱلْأَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ نَاحِيَةُ بِلَادِ ٱلْخَزَرِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مَا جَازَهُ جَبَلُ سِيَاهَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بَحْرَ طَبَرِسْتَانَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ ٱلْخَزَرِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ غَرْبًا وَفِي شَرْقِهَا ٱلْقِطْعَةُ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ ٱلَّتِي يَجُوزُهَا هٰذَا ٱلْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا وَوَرَاءَ جَبَلِ سِيَاهَ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ أَرْضُ شَحْرَبَ وَيَخْنَاكَ وَهُمْ أُمَمُ ٱلتُّرْكِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ وَٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلِّهَا أَرْضُ ٱلْخُولَخِ مِنَ ٱلتُّرْكِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ غَرْبًا وَٱلْأَرْضُ ٱلْمُنْتِنَةُ وَشَرْقُ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَّبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ ٱلسَّدِّ وَفِي هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ مَبْدَأُ نَهْرِ ٱلْأَتْلِ مِنْ أَعْظَمِ أَنْهَارِ ٱلْعَالَمِ وَمَمَرُّهُ فِي بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَمَصَبُّهُ فِي بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ

ٱلْخَامِسِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ ٱلِانْعِطَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ ٱلْغَرْبِ إِلَى آخِرِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فَيَنْعَطِفُ شَمَالاً إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلسَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُغَرِّبًا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى ٱلْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدْوَلٌ يَذْهَبُ مُغَرِّبًا وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نِيطِشَ فِي ذٰلِكَ ٱلْجُزْءِ وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ ٱلشَّمَالِ وَٱلشَّرْقِ فِي بِلَادِ بُلْغَارَ فَيَخْرُجُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى ٱلْجَنُوبِ وَيَنْفُذُ فِي جَبَلِ سِيَاهَ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ ٱلْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ فِي ٱلْقِطْعَةِ ٱلَّتِي ٱنْكَشَفَتْ مِنَ ٱلْجُزْءِ عِنْدَ ٱلزَّاوِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلتَّاسِعُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَنْشَاخَ مِنَ ٱلتُّرْكِ وَهُمْ قَفْجَاقُ وَبِلَادُ ٱلتَّرْكَسِ مِنْهُمْ أَيْضًا وَفِي ٱلشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلُ قُوقِيَا ٱلْمُحِيطُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ يَبْدَأُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي شَرْقِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلشَّمَالِ وَيُفَارِقُهُ مُغَرِّبًا وَبِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى سَمْتِهِ ٱلْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَفِي وَسَطِهِ هٰهُنَا ٱلسَّدُّ ٱلَّذِي بَنَاهُ ٱلْإِسْكَنْدَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْهُ فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى ٱلْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَالِكَ مُغَرِّبًا إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي غَرْبِيِّهِ وَفِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ هُوَ ٱلسَّدُّ ٱلَّذِي بَنَاهُ ٱلْإِسْكَنْدَرُ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱلصَّحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ خَرْدَاذْبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي ٱلْجُغْرَافِيَا أَنَّ ٱلْوَاثِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ ٱلسَّدَّ ٱنْفَتَحَ فَٱنْتَبَهَ فَزِعًا وَبَعَثَ سَلَامًا ٱلتَّرْجُمَانَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبَرِهِ وَوَصْفِهِ فِي حِكَايَةٍ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هٰذَا وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ بِلَادُ مَأْجُوجَ مُتَّصِلَةً فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَالِكَ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةً فِي ٱلشَّمَالِ وَعَرِيضَةً بَعْضَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلشَّرْقِ

ألإقليمُ السابعُ * والبحرُ المحيطُ قد غمرَ عامّتهُ من جهةِ الشمالِ إلى وسطِ الجزءِ الخامسِ حيثُ يتّصلُ بجبلِ قوقيا المحيطِ بيأجوجَ ومأجوجَ . فالجزءُ الأوّلُ والثاني مغموران بالماءِ إلاّ ما انكشفَ من جزيرةِ انكلترّا التي معظمُها في الثاني وفي الأوّلِ منها طرفٌ انعطفَ بانحرافٍ إلى الشمالِ وبقيّتُها مع قطعةٍ من البحرِ مستديرةٍ عليهِ في الجزءِ الثاني من الإقليمِ السادسِ وهي مذكورةٌ هناك والمجازُ منها إلى البرّ في هذهِ القطعةِ سعةَ اثني عشرَ ميلاً ووراءَ هذهِ الجزيرةِ في شمالِ الجزءِ الثاني جزيرةُ رسلاندةَ مستطيلةً من الغربِ إلى الشرقِ . والجزءُ الثالثُ من هذا الإقليمِ مغمورٌ أكثرُهُ بالبحرِ إلاّ قطعةً مستطيلةً في جنوبهِ وتتّسعُ في شرقها وفيها هنالك متّصلُ أرضِ فلونيّةَ التي مرّ ذكرُها في الثالثِ من الإقليمِ السادسِ وأنّها في شمالهِ وفي القطعةِ من البحرِ التي تغمرُ هذا الجزءَ ثمّ في الجانبِ الغربيّ منها مستديرةً فسيحةً وتتّصلُ بالبرّ من بابٍ في جنوبها يفضي إلى بلادِ فلونيّةَ وفي شمالها جزيرةُ برغاقيةَ (وفي نسخة بوقاعة) مستطيلةً مع الشمالِ من المغربِ إلى المشرقِ . والجزءُ الرابعُ من هذا الإقليمِ شمالُهُ كلُّهُ مغمورٌ بالبحرِ المحيطِ من المغربِ إلى المشرقِ وجنوبُهُ منكشفٌ وفي غربهِ أرضُ قيمازكَ من التركِ وفي شرقها بلادُ طسْتَ ثمّ أرضُ رسلانَ إلى آخرِ الجزءِ شرقاً وهي دائمةُ الثلوجِ وعمرانُها قليلٌ ويتّصلُ ببلادِ الروسيّةِ في الإقليمِ السادسِ وفي الجزءِ الرابعِ والخامسِ منهُ وفي الجزءِ الخامسِ من هذا الإقليمِ في الناحيةِ الغربيّةِ منهُ بلادُ الروسيّةِ وينتهي في الشمالِ إلى قطعةٍ من البحرِ المحيطِ التي يتّصلُ بها جبلُ قوقيا كما ذكرناهُ من قبلُ وفي الناحيةِ الشرقيّةِ منهُ متّصلُ أرضِ القمانيّةِ التي على قطعةِ بحرِ نيطشَ من الجزءِ السادسِ من الإقليمِ السادسِ وينتهي إلى بحيرةِ طرمى من هذا الجزءِ وهي عذبةٌ تنجلبُ إليها أنهارٌ كثيرةٌ من الجبالِ عن الجنوبِ والشمالِ وفي شمالِ الناحيةِ الشرقيّةِ من هذا الجزءِ أرضُ التتاريّةِ من التركِ (وفي نسخة التركمان) إلى آخرهِ . وفي الجزءِ السادسِ من الناحيةِ الغربيّةِ الجنوبيّةِ متّصلُ بلادِ القمانيّةِ وفي وسطِ الناحيةِ بحيرةُ عثورَ عذبةً تنجلبُ إليها الأنهارُ من الجبالِ في النواحي الشرقيّةِ وهي جامدةٌ دائماً لشدّةِ البردِ إلاّ قليلاً في زمنِ الصيفِ وفي شرقِ بلادِ القمانيّةِ بلادُ

ٱلرُّوسِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَرَ ٱلَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْهُ وَفِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَرَ مُنْعَطَفُ نَهْرِ أَثَلَ ٱلْقِطْعَةُ ٱلاولى إِلَى ٱلْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ وَفِي آخِرِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلُ قُوقِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بَجْنَاكَ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ وَكَانَ مَبْدَأُهَا مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ قَبْلَهُ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحَرْتَ ثُمَّ بَقِيَّةُ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ جَبَلُ قُوقِيَا ٱلْمُحِيطُ مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلُ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ وَفِي شَرْقِهَا ٱلْأَرْضُ ٱلْمَحْفُورَةُ وَهِيَ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ خَرْقٌ عَظِيمٌ فِي ٱلْأَرْضِ بَعِيدُ ٱلْمَهْوَى فَسِيحُ ٱلْأَقْطَارِ مُمْتَنِعُ ٱلْوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى عُمْرَانِهِ بِٱلدُّخَانِ فِي ٱلنَّهَارِ وَٱلنِّيرَانِ فِي ٱللَّيْلِ تُضِيءُ وَتَخْفَى وَرُبَّمَا رُئِيَ فِيهَا نَهْرٌ يَشُقُّهَا مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلْبِلَادُ ٱلْخَرَابُ ٱلْمُتَاخِمَةُ لِلسَّدِّ وَفِي آخِرِ ٱلشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلُ قُوقِيَا مُتَّصِلًا مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخَ وَهُمْ قَفْجَاقُ يَحُوزُهَا جَبَلُ قُوقِيَا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شَمَالِهِ عِنْدَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسَطِهِ إِلَى ٱلْجَنُوبِ بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِيهِ وَفِي وَسَطِهِ هُنَالِكَ سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجَ وَرَاءَ جَبَلِ قُوقِيَا عَلَى ٱلْبَحْرِ قَلِيلَةُ ٱلْعَرْضِ مُسْتَطِيلَةٌ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ . وَٱلْجُزْءُ ٱلْعَاشِرُ غَمَرَ ٱلْبَحْرُ جَمِيعَهُ . هٰذَا آخِرُ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا ٱلسَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٌ لِلْعَالَمِينَ

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتاثير الهواء في الوان البشر والكثير في احوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ٱلْمَعْمُورَ مِنْ هٰذَا ٱلْمُنْكَشِفِ مِنَ ٱلْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ ٱلْحَرِّ فِي ٱلْجَنُوبِ مِنْهُ وَٱلْبَرْدِ فِي ٱلشَّمَالِ . وَلَمَّا كَانَ ٱلْجَانِبَانِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَٱلْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ ٱلْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى ٱلْوَسَطِ فَيَكُونَ مُعْتَدِلاً فَٱلْإِقْلِيمُ ٱلرَّابِعُ أَعْدَلُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلَّذِي حَافَاتُهُ مِنَ ٱلثَّالِثِ وَٱلْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْاعْتِدَالِ وَٱلَّذِي يَلِيهِمَا وَٱلثَّانِي وَٱلسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ ٱلْاعْتِدَالِ وَٱلْأَوَّلُ وَٱلسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ فَلِهٰذَا كَانَتِ ٱلْعُلُومُ وَٱلصَّنَائِعُ وَٱلْمَبَانِي وَٱلْمَلَابِسُ وَٱلْأَقْوَاتُ وَٱلْفَوَاكِهُ بَلْ وَٱلْحَيَوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتَكَوَّنُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِٱلْاعْتِدَالِ وَسُكَّانُهَا مِنَ ٱلْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَأَلْوَانًا وَأَخْلَاقًا وَأَدْيَانًا حَتَّى ٱلنُّبُوَّاتُ فَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي ٱلْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى خَبَرِ بَعْثَةٍ فِي ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ وَلَا ٱلشَّمَالِيَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَنْبِيَاءَ وَٱلرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ ٱلنَّوْعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَذٰلِكَ لِيَتِمَّ ٱلْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ ٱلْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَأَهْلُ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لِوُجُودِ ٱلْاعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةٍ مِنَ ٱلتَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِنِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَّخِذُونَ ٱلْبُيُوتَ ٱلْمُنَجَّدَةَ بِٱلْحِجَارَةِ ٱلْمُنَمَّقَةِ بِٱلصِّنَاعَةِ وَيَتَنَاغَوْنَ فِي ٱسْتِجَادَةِ ٱلْآلَاتِ وَٱلْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغَايَةِ وَتُوجَدُ لَدَيْهِمِ ٱلْمَعَادِنُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْحَدِيدِ وَٱلنُّحَاسِ وَٱلرَّصَاصِ وَٱلْقَصْدِيرِ وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ بِٱلنَّقْدَيْنِ ٱلْعَزِيزَيْنِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱلْانْحِرَافِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ وَهٰؤُلَاءِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلشَّامِ وَٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَنِ وَٱلْعِرَاقَيْنِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلسِّنْدِ وَٱلصِّينِ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قَرُبَ مِنْهَا مِنَ ٱلْفِرَنْجَةِ وَٱلْجَلَالِقَةِ وَٱلرُّومِ وَٱلْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ مَعَ هٰؤُلَاءِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُعْتَدِلَةِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْعِرَاقُ وَٱلشَّامُ أَعْدَلَ هٰذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ . وَأَمَّا ٱلْأَقَالِيمُ ٱلْبَعِيدَةُ مِنَ ٱلْاعْتِدَالِ مِثْلَ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي وَٱلسَّادِسِ وَٱلسَّابِعِ فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ ٱلْاعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فَبِنَاؤُهُمْ بِٱلطِّينِ

وَٱلْقَصَبِ وَأَقْوَاتُهُمْ مِنَ ٱلذُّرَةِ وَٱلْعُشْبِ وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْرَاقِ ٱلشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ
او ٱلْجُلُودِ وَأَكْثَرُهُمْ عَرَايَا مِنَ ٱللِّبَاسِ وَفَوَاكِهُ بِلَادِهِمْ وَأُدُمُهَا غَرِيبَةُ ٱلتَّكْوِينِ مَائِلَةٌ
إِلَى ٱلِانْحِرَافِ وَمُعَامَلَاتُهُمْ بِغَيْرِ ٱلْحَجَرَيْنِ ٱلشَّرِيفَيْنِ مِنْ نُحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُودٍ
يُقَدِّرُونَهَا لِلْمُعَامَلَاتِ وَأَخْلَاقُهُمْ مَعَ ذَٰلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خُلُقِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ حَتَّى لَيُنْقَلُ
عَنِ ٱلْكَثِيرِ مِنَ ٱلسُّودَانِ أَهْلِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ ٱلْكُهُوفَ وَٱلْغِيَاضَ
وَيَأْكُلُونَ ٱلْعُشْبَ وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِّشُونَ غَيْرُ مُسْتَأْنِسِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَكَذَا ٱلصَّقَالِبَةُ
وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلِاعْتِدَالِ يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْزِجَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ
عَرَضِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِمِقْدَارِ ذَٰلِكَ وَكَذَٰلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي
ٱلدِّيَانَةِ أَيْضًا فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةً وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةٍ إِلَّا مَنْ قَرُبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ
ٱلِاعْتِدَالِ وَهُوَ فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ مِثْلُ ٱلْحَبَشَةِ ٱلْمُجَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ ٱلدَّائِنِينَ بِٱلنَّصْرَانِيَّةِ
فِيمَا قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَٱلتَّكْرُورِ ٱلْمُجَاوِرِينَ
لِأَرْضِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلدَّائِنِينَ بِٱلْإِسْلَامِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ
وَمِثْلُ مَنْ دَانَ بِٱلنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَمِ ٱلصَّقَالِبَةِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلتُّرْكِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَمَنْ سِوَى
هٰؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَٱلدِّينُ مَجْهُولٌ عِنْدَهُمْ وَٱلْعِلْمُ مَفْقُودٌ
بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْأَنَاسِيِّ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْبَهَائِمِ وَيَخْلُقُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ. وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى هٰذَا ٱلْقَوْلِ بِوُجُودِ ٱلْيَمَنِ وَحَضْرَمَوْتَ وَٱلْأَحْقَافِ وَبِلَادِ
ٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَامَةِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي فَإِنَّ جَزِيرَةَ
ٱلْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا ٱلْبِحَارُ مِنَ ٱلْجِهَاتِ ٱلثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي
رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَنَقَصَ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْيُبْسِ وَٱلِانْحِرَافِ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ ٱلْحَرُّ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ
ٱلِاعْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ ٱلْبَحْرِ. وَقَدْ تَوَهَّمَ بَعْضُ ٱلنَّسَّابِينَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ
ٱلْكَائِنَاتِ أَنَّ ٱلسُّودَانَ هُمْ وُلْدُ حَامِ بْنِ نُوحٍ ٱخْتُصُّوا بِلَوْنِ ٱلسَّوَادِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ
مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلرِّقِّ فِي عَقِبِهِ وَيَنْقُلُونَ فِي ذَٰلِكَ حِكَايَةً
مِنْ خُرَافَاتِ ٱلْقُصَّاصِ وَدُعَاءُ نُوحٍ عَلَى ٱبْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ
ٱلسَّوَادِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وُلْدُهُ عَبِيدًا لِوُلْدِ إِخْوَتِهِ لَا غَيْرُ وَفِي ٱلْقَوْلِ بِنِسْبَةِ
ٱلسَّوَادِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ عَنْ طَبِيعَةِ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ وَأَثَرِهِمَا فِي ٱلْهَوَاءِ وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ

مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَذَٰلِكَ أَنَّ هَٰذَا ٱللَّوْنَ شَمَلَ أَهْلَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ لِلْحَرَارَةِ ٱلْمُتَضَاعِفَةِ بِٱلْجَنُوبِ فَإِنَّ ٱلشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَةٍ إِحْدَاهُمَا مِنَ ٱلْأُخْرَى فَتَطُولُ ٱلْمُسَامَتَةُ عَامَّةَ ٱلْفُصُولِ فَيَكْثُرُ ٱلضَّوْءُ لِأَجْلِهَا وَيَلِحُّ ٱلْقَيْظُ ٱلشَّدِيدُ عَلَيْهِمْ وَتَسْوَدُّ جُلُودُهُمْ لِإِفْرَاطِ ٱلْحَرِّ وَنَظِيرُ هَٰذَيْنِ ٱلْإِقْلِيمَيْنِ مِمَّا يُقَابِلُهُمَا مِنَ ٱلشَّمَالِ ٱلْإِقْلِيمُ ٱلسَّابِعُ وَٱلسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانَهُمَا أَيْضًا ٱلْبَيَاضُ مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ لِلْبَرْدِ ٱلْمُفْرِطِ بِٱلشَّمَالِ إِذِ ٱلشَّمْسُ لَا تَزَالُ بِأُفُقِهِمْ فِي دَائِرَةِ مَرْأَى ٱلْعَيْنِ أَوْ مَا قَرُبَ مِنْهَا وَلَا تَرْتَفِعُ إِلَى ٱلْمُسَامَتَةِ وَلَا مَا قَرُبَ مِنْهَا فَيَضْعُفُ ٱلْحَرُّ فِيهَا وَيَشْتَدُّ ٱلْبَرْدُ عَامَّةَ ٱلْفُصُولِ فَتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِي إِلَى ٱلزُّعُورَةِ وَيَتْبَعُ ذَٰلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ مِزَاجُ ٱلْبَرْدِ ٱلْمُفْرِطِ مِنْ زُرْقَةِ ٱلْعُيُونِ وَبَرَشِ ٱلْجُلُودِ وَصُهُوبَةِ ٱلشُّعُورِ وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا ٱلْأَقَالِيمُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْخَامِسُ وَٱلرَّابِعُ وَٱلثَّالِثُ فَكَانَ لَهَا فِي ٱلْاعْتِدَالِ ٱلَّذِي هُوَ مِزَاجُ ٱلْمُتَوَسِّطِ حَظٌّ وَافِرٌ وَٱلرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِي ٱلْاعْتِدَالِ غَايَةً لِنِهَايَتِهِ فِي ٱلتَّوَسُّطِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَكَانَ لِأَهْلِهِ مِنَ ٱلْاعْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ مَا ٱقْتَضَاهُ مِزَاجُ أَهْوِيَتِهِمْ وَتَبِعَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ ٱلثَّالِثُ وَٱلْخَامِسُ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغَا غَايَةَ ٱلتَّوَسُّطِ لِمَيْلِ هَٰذَا قَلِيلًا إِلَى ٱلْجَنُوبِ ٱلْحَارِّ وَهَٰذَا قَلِيلًا إِلَى ٱلشَّمَالِ ٱلْبَارِدِ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى ٱلْانْحِرَافِ وَكَانَتِ ٱلْأَقَالِيمُ ٱلْأَرْبَعَةُ مُنْحَرِفَةً وَأَهْلُهَا كَذَٰلِكَ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ فَٱلْأَوَّلُ وَٱلثَّانِي لِلْحَرِّ وَٱلسَّوَادِ وَٱلسَّابِعُ لِلْبَرْدِ وَٱلْبَيَاضِ وَيُسَمَّى سُكَّانُ ٱلْجَنُوبِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمَيْنِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي بِٱسْمِ ٱلْحَبَشَةِ وَٱلزَّنْجِ وَٱلسُّودَانِ أَسْمَاءٌ مُتَرَادِفَةٌ عَلَى ٱلْأُمَمِ ٱلْمُتَغَيِّرَةِ بِٱلسَّوَادِ وَإِنْ كَانَ ٱسْمُ ٱلْحَبَشَةِ مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِمَنْ تُجَاهَ مَكَّةَ وَٱلْيَمَنِ وَٱلزَّنْجِ بِمَنْ تُجَاهَ بَحْرِ ٱلْهِنْدِ وَلَيْسَتْ هَٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ ٱنْتِسَابِهِمْ إِلَى آدَمِيٍّ أَسْوَدَ لَا حَامٍ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ نَجِدُ مِنَ ٱلسُّودَانِ أَهْلَ ٱلْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ ٱلرَّبْعَ ٱلْمُعْتَدِلَ أَوِ ٱلسَّابِعَ ٱلْمُنْحَرِفَ إِلَى ٱلْبَيَاضِ فَتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ مَعَ ٱلْأَيَّامِ وَبِٱلْعَكْسِ فِيمَنْ يَسْكُنُ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّمَالِ أَوِ ٱلرَّابِعِ بِٱلْجَنُوبِ فَتَسْوَدُّ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ وَفِي ذَٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ٱللَّوْنَ تَابِعٌ لِمِزَاجِ ٱلْهَوَاءِ قَالَ ٱبْنُ سِينَا فِي أُرْجُوزَتِهِ فِي ٱلطِّبِّ

بِٱلزَّنْجِ حَرٌّ غَيَّرَ ٱلْأَجْسَادَا ... حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادَا
وَٱلصِّقْلَبُ ٱكْتَسَبَتِ ٱلْبَيَاضَا ... حَتَّى غَدَتْ جُلُودُهَا بِضَاضَا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لونا لأهل تلك اللغة الواضعة للأسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغر والخزر واللان والكثير من الإفرنجة ويأجوج ومأجوج أسماء متفرقة وأجيالا متعددة مسمين بأسماء متنوعة وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والملك فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبني إسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين. ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في ألوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وإن صادف الحق في انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد إنما هو إخبار عن الواقع لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود. وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط وليس كذلك فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب. ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الأب إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات وإن هذه كلها تتبدل في الأعقاب ولا يجب استمرارها سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بغيبه وأحكم وهو المولى المنعم الرؤوف الرحيم

المقدمة الرابعة

في اثر الهواء في اخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ ٱلسُّودَانِ عَلَى ٱلْعُمُومِ ٱلْخِفَّةَ وَٱلطَّيْشَ وَكَثْرَةَ ٱلطَّرَبِ فَتَجِدُهُمْ مُولَعِينَ بِٱلرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعٍ مَوْصُوفِينَ بِٱلْحُمْقِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَٱلسَّبَبُ ٱلصَّحِيحُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ هِيَ ٱنْتِشَارُ ٱلرُّوحِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَتَفَشِّيهِ وَطَبِيعَةَ ٱلْحُزْنِ بِٱلْعَكْسِ وَهُوَ ٱنْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ. وَتَقَرَّرَ أَنَّ ٱلْحَرَارَةَ مُفَشِّيَةٌ لِلْهَوَاءِ وَٱلْبُخَارِ مُخَلْخِلَةٌ لَهُ زَائِدَةٌ فِي كَمِّيَّتِهِ وَلِهٰذَا يَجِدُ ٱلْمُنْتَشِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ مَا لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ وَذٰلِكَ بِمَا يُدَاخِلُ بُخَارَ ٱلرُّوحِ فِي ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَرَارَةِ ٱلْغَرِيزِيَّةِ ٱلَّتِي تَبْعَثُهَا سَوْرَةُ ٱلْخَمْرِ فِي ٱلرُّوحِ مِنْ مِزَاجِهِ فَيَتَفَشَّى ٱلرُّوحُ وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ ٱلْفَرَحِ وَكَذٰلِكَ نَجِدُ ٱلْمُتَنَعِّمِينَ بِٱلْحَمَّامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَٱتَّصَلَتْ حَرَارَةُ ٱلْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذٰلِكَ حَدَثَ لَهُمْ فَرَحٌ وَرُبَّمَا ٱنْبَعَثَ ٱلْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِٱلْغِنَاءِ ٱلنَّاشِئِ عَنِ ٱلسُّرُورِ. وَلَمَّا كَانَ ٱلسُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْحَارِّ وَٱسْتَوْلَى ٱلْحَرُّ عَلَى أَمْزِجَتِهِمْ وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ ٱلْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ بِٱلْقِيَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفَشِّيًا فَتَكُونُ أَسْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرَ ٱنْبِسَاطًا وَيَجِيءُ ٱلطَّيْشُ عَلَى أَثَرِ هٰذِهِ وَكَذٰلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلًا أَهْلُ ٱلْبِلَادِ ٱلْبَحْرِيَّةِ لَمَّا كَانَ هَوَاؤُهَا مُتَضَاعِفَ ٱلْحَرَارَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِنْ أَضْوَاءِ بَسِيطِ ٱلْبَحْرِ وَأَشِعَّتِهِ كَانَتْ حِصَّتُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ ٱلْحَرَارَةِ فِي ٱلْفَرَحِ وَٱلْخِفَّةِ مَوْجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ ٱلتُّلُولِ وَٱلْجِبَالِ ٱلْبَارِدَةِ وَقَدْ نَجِدُ يَسِيرًا مِنْ ذٰلِكَ فِي أَهْلِ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَزِيرِيَّةِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ لِتَوَفُّرِ ٱلْحَرَارَةِ فِيهَا وَفِي هَوَائِهَا لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي ٱلْجَنُوبِ عَنِ ٱلْأَرْيَافِ وَٱلتُّلُولِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهَا مِثْلُ عَرْضِ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا كَيْفَ غَلَبَ ٱلْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَٱلْخِفَّةُ وَٱلْغَفْلَةُ عَنِ ٱلْعَوَاقِبِ حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَدَّخِرُونَ أَقْوَاتَ سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرِهِمْ وَعَامَّةُ مَأْكَلِهِمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ. وَلَمَّا كَانَتْ فَاسُ مِنْ بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ بِٱلْعَكْسِ مِنْهَا فِي ٱلتَّوَغُّلِ فِي ٱلتُّلُولِ ٱلْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرِقِينَ إِطْرَاقَ ٱلْحُزْنِ وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فِي نَظَرِ ٱلْعَوَاقِبِ حَتَّى إِنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدَّخِرُ قُوتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حُبُوبِ

ٱلْحِنْطَةِ وَيُبَاكِرُ ٱلْأَسْوَاقَ لِشَرَاءِ قُوتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةَ أَنْ يَرْزَأَ شَيْئًا مِنْ مُدَّخَرِهِ وَتَتَبَّعْ ذَلِكَ فِي ٱلْأَقَالِيمِ وَٱلْبُلْدَانِ تَجِدْ فِي ٱلْأَخْلَاقِ أَثَرًا مِنْ كَيْفِيَّاتِ ٱلْهَوَاءِ وَٱللهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ وَقَدْ تَعَرَّضَ ٱلْمَسْعُودِيُّ لِلْبَحْثِ عَنِ ٱلسَّبَبِ فِي خِفَّةِ ٱلسُّودَانِ وَطَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ ٱلطَّرَبِ فِيهِمْ وَحَاوَلَ تَعْلِيلَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ ٱلْكِنْدِيِّ أَنَّ ذَلِكَ لِضُعْفِ ادْمِغَتِهِمْ وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضُعْفِ عُقُولِهِمْ وَهٰذَا كَلَامٌ لَا مُحَصَّلَ لَهُ وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

المقدمة الخامسة

في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمَ ٱلْمُعْتَدِلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يُوجَدُ بِهَا ٱلْخِصْبُ وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَغَدٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ بَلْ فِيهَا مَا يُوجَدُ لِأَهْلِهِ خِصْبُ ٱلْعَيْشِ مِنَ ٱلْحُبُوبِ وَٱلْأُدُمِ وَٱلْحِنْطَةِ وَٱلْفَوَاكِهِ لِزَكَاءِ ٱلْمَنَابِتِ وَٱعْتِدَالِ ٱلطِّينَةِ وَوُفُورِ ٱلْعُمْرَانِ وَفِيهَا ٱلْأَرْضُ ٱلْحَرَّةُ ٱلَّتِي لَا تُنْبِتُ زَرْعًا وَلَا عُشْبًا بِٱلْجُمْلَةِ فَسُكَّانُهَا فِي شَظَفٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ مِثْلُ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ وَجَنُوبِ ٱلْيَمَنِ وَمِثْلُ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنْ صِنْهَاجَةَ ٱلسَّاكِنِينَ بِصَحْرَاءِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ ٱلرِّمَالِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْبَرْبَرِ وَٱلسُّودَانِ فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ يَفْقِدُونَ ٱلْحُبُوبَ وَٱلْأُدُمَ جُمْلَةً وَإِنَّمَا أَغْذِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمْ ٱلْأَلْبَانُ وَٱللُّحُومُ وَمِثْلُ ٱلْعَرَبِ أَيْضًا ٱلْجَائِلِينَ فِي ٱلْقِفَارِ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ ٱلْحُبُوبَ وَٱلْأُدُمَ مِنَ ٱلتُّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي ٱلْأَحَايِينِ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيَتِهَا وَعَلَى ٱلْإِقْلَالِ لِقِلَّةِ وَجْدِهِمْ فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ ٱلْخَلَّةِ أَوْ دُونَهَا فَضْلًا عَنِ ٱلرَّغَدِ وَٱلْخِصْبِ وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى ٱلْأَلْبَانِ وَتُعَوِّضُهُمْ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ أَحْسَنَ مَعَاضٍ وَتَجِدُ مَعَ ذَلِكَ هٰؤُلَاءِ ٱلْفَاقِدِينَ لِلْحُبُوبِ وَٱلْأُدُمِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقِفَارِ أَحْسَنَ حَالًا فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلتُّلُولِ ٱلْمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلْعَيْشِ فَأَلْوَانُهُمْ أَصْفَى وَأَبْدَانُهُمْ أَنْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ ٱلْانْحِرَافِ وَأَذْهَانُهُمْ أَثْقَبُ فِي ٱلْمَعَارِفِ وَٱلْإِدْرَاكَاتِ هٰذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ ٱلتَّجْرِبَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَرْبَرِ فِيمَا وَصَفْنَاهُ وَبَيْنَ ٱلْمُلَثَّمِينَ وَأَهْلِ ٱلتُّلُولِ يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ خَبَرَهُ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ كَثْرَةَ الْأَغْذِيَةِ وَكَثْرَةَ الْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ الْعَفِنَةِ وَرُطُوبَاتِهَا تُوَلِّدُ فِي الْجِسْمِ فَضَلَاتٍ رَدِيئَةً تَنْشَأُ عَنْهَا بَعْدَ إِفْطَارِهَا فِي غَيْرِ نِسْبَةٍ وَيَتْبَعُ ذَلِكَ انْكِسَافُ الْأَلْوَانِ وَقُبْحُ الْأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ كَمَا قُلْنَاهُ وَتُغَطِّي الرُّطُوبَاتُ عَلَى الْأَذْهَانِ وَالْأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إِلَى الدِّمَاغِ مِنْ أَبْخِرَتِهَا الرَّدِيئَةِ فَتَجِيءُ الْبَلَادَةُ وَالْغَفْلَةُ وَالْانْحِرَافُ عَنِ الْاعْتِدَالِ بِالْجُمْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي حَيَوَانِ الْقَفْرِ وَمَوَاطِنِ الْجَدْبِ مِنَ الْغَزَالِ وَالنَّعَامِ وَالْمَهَا وَالزَّرَافَةِ وَالْحُمُرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْبَقَرِ مَعَ أَمْثَالِهَا مِنْ حَيَوَانِ التُّلُولِ وَالْأَرْيَافِ وَالْمَرَاعِي الْخَصِبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْنًا بَعِيدًا فِي صَفَاءِ أَدِيمِهَا وَحُسْنِ رَوْنَقِهَا وَأَشْكَالِهَا وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهَا وَحِدَّةِ مَدَارِكِهَا فَالْغَزَالُ أَخُو الْمَعْزِ وَالزَّرَافَةُ أَخُو الْبَعِيرِ وَالْحِمَارُ وَالْبَقَرُ أَخُو الْحِمَارِ وَالْبَقَرِ وَالْبَوْنُ بَيْنَهَا مَا رَأَيْتَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَجْلِ أَنَّ الْخِصْبَ فِي التُّلُولِ فَعَلَ فِي أَبْدَانِ هَذِهِ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّدِيئَةِ وَالْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ وَالْجُوعُ لِحَيَوَانِ الْقَفْرِ حَسَّنَ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْآدَمِيِّينَ أَيْضًا فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ الْأَقَالِيمِ الْمُخْصِبَةِ الْعَيْشِ الْكَثِيرَةِ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ وَالْأُدْمِ وَالْفَوَاكِهِ يَتَّصِفُ أَهْلُهَا غَالِبًا بِالْبَلَادَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَالْخُشُونَةِ فِي أَجْسَامِهِمْ وَهَذَا شَأْنُ الْبَرْبَرِ الْمُنْغَمِسِينَ فِي الْأُدْمِ وَالْحِنْطَةِ مَعَ الْمُتَقَشِّفِينَ فِي عَيْشِهِمِ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى الشَّعِيرِ أَوِ الذُّرَةِ مِثْلَ الْمَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ غُمَارَةَ وَالسُّوسِ فَتَجِدُ هَؤُلَاءِ أَحْسَنَ حَالًا فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُنْغَمِسِينَ فِي الْأُدْمِ وَالْبُرِّ مَعَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الْمَفْقُودِ بِأَرْضِهِمِ السَّمْنُ جُمْلَةً وَغَالِبُ عَيْشِهِمِ الذُّرَةُ فَتَجِدُ لِأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ ذَكَاءِ الْعُقُولِ وَخِفَّةِ الْأَجْسَامِ وَقَبُولِ التَّعْلِيمِ مَا لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ الضَّوَاحِي مِنَ الْمَغْرِبِ بِالْجُمْلَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَضَرِ وَالْأَمْصَارِ فَإِنَّ الْأَمْصَارَ وَإِنْ كَانُوا مُكْثِرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ الْأُدْمِ وَمُخْصِبِينَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا أَنَّ اسْتِعْمَالَهُمْ إِيَّاهَا بَعْدَ الْعِلَاجِ بِالطَّبْخِ وَالتَّلْطِيفِ بِمَا يَخْلِطُونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِذَلِكَ غِلَظُهَا وَيَرِقُّ قِوَامُهَا وَعَامَّةُ مَآكِلِهِمْ لُحُومُ الضَّأْنِ وَالدَّجَاجِ وَلَا يَغْبِطُونَ السَّمْنَ مِنْ بَيْنِ الْأُدْمِ لِتَفَاهَتِهِ فَتَقِلُّ الرُّطُوبَاتُ لِذَلِكَ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَيَخِفُّ مَا تُؤَدِّيهِ إِلَى أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّدِيئَةِ فَلِذَلِكَ تَجِدُ جُسُومَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَلْطَفَ مِنْ جُسُومِ الْبَادِيَةِ الْمُخَشَّنِينَ فِي الْعَيْشِ وَكَذَلِكَ تَجِدُ الْمُعَوَّدِينَ بِالْجُوعِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لَا فَضَلَاتِ فِي جُسُومِهِمْ غَلِيظَةً وَلَا لَطِيفَةً وَاعْلَمْ

أَنَّ أَثَرَ هٰذَا ٱلْخِصْبِ فِي ٱلْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ يَظْهَرُ حَتَّى فِي حَالِ ٱلدِّينِ وَٱلْعِبَادَةِ فَنَجِدُ ٱلْمُتَقَشِّفِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ أَوِ ٱلْحَاضِرَةِ مِمَّنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِٱلْجُوعِ وَٱلتَّجَافِي عَنِ ٱلْمَلَاذِّ أَحْسَنَ دِينًا وَإِقْبَالًا عَلَى ٱلْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْخِصْبِ بَلْ نَجِدُ أَهْلَ ٱلدِّينِ قَلِيلِينَ فِي ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ لِمَا يَعُمُّهَا مِنَ ٱلْقَسَاوَةِ وَٱلْغَفْلَةِ ٱلْمُتَّصِلَةِ بِٱلْإِكْثَارِ مِنَ ٱللُّحْمَانِ وَٱلْأُدْمِ وَلُبَابِ ٱلْبُرِّ وَيَخْتَصُّ وُجُودُ ٱلْعُبَّادِ وَٱلزُّهَّادِ لِذٰلِكَ بِٱلْمُتَقَشِّفِينَ فِي غِذَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَوَادِي وَكَذٰلِكَ نَجِدُ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُخْصِبِينَ فِي ٱلْعَيْشِ ٱلْمُنْغَمِسِينَ فِي طَيِّبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْحَوَاضِرِ وَٱلْأَمْصَارِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمِ ٱلسِّنُونَ وَأَخَذَتْهُمُ ٱلْمَجَاعَاتُ يُسْرِعُ إِلَيْهِمِ ٱلْهَلَاكُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِثْلَ بَرَابِرَةِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ فَاسَ وَمِصْرَ فِيمَا يَبْلُغُنَا لَا مِثْلَ ٱلْعَرَبِ أَهْلِ ٱلْقَفْرِ وَٱلصَّحْرَاءِ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ بِلَادِ ٱلنَّخْلِ ٱلَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمِ ٱلتَّمْرُ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمِ ٱلشَّعِيرُ وَٱلزَّيْتُ وَأَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمِ ٱلذُّرَةُ وَٱلزَّيْتُ فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمُ ٱلسِّنُونَ وَٱلْمَجَاعَاتُ فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أُولٰئِكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمِ ٱلْهَلَاكُ بِٱلْجُوعِ بَلْ وَلَا يَنْدُرُ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلْخِصْبِ ٱلْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأُدْمِ وَٱلسَّمْنِ خُصُوصًا تَكْتَسِبُ مِنْ ذٰلِكَ أَمْعَاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهَا ٱلْأَصْلِيَّةِ ٱلْمِزَاجِيَّةِ حَتَّى تُجَاوِزَ حَدَّهَا فَإِذَا خُولِفَ بِهَا ٱلْعَادَةُ بِقِلَّةِ ٱلْأَقْوَاتِ وَفِقْدَانِ ٱلْأُدْمِ وَٱسْتِعْمَالِ ٱلْخَشِنِ غَيْرِ ٱلْمَأْلُوفِ مِنَ ٱلْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى ٱلْمِعَا ٱلْيُبْسُ وَٱلِٱنْكِمَاشُ وَهُوَ ضَعِيفٌ فِي ٱلْغَايَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ ٱلْمَرَضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْمَقَاتِلِ فَٱلْهَالِكُونَ فِي ٱلْمَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ ٱلشِّبَعُ ٱلْمُعْتَادُ ٱلسَّابِقُ لَا ٱلْجُوعُ ٱلْحَادِثُ ٱللَّاحِقُ. وَأَمَّا ٱلْمُتَعَوِّدُ دُونَ لِقِلَّةِ ٱلْأُدْمِ وَٱلسَّمْنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ ٱلْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْأَغْذِيَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَلَا يَقَعُ فِي مِعَاهُمْ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَغْذِيَةِ يُبْسٌ وَلَا ٱنْحِرَافٌ فَيَسْلَمُونَ فِي ٱلْغَالِبِ مِنَ ٱلْهَلَاكِ ٱلَّذِي يَعْرِضُ لِغَيْرِهِمْ بِٱلْخِصْبِ وَكَثْرَةِ ٱلْأُدْمِ فِي ٱلْمَآكِلِ وَأَصْلُ هٰذَا كُلِّهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱلْأَغْذِيَةَ وَٱئْتِلَافَهَا أَوْ تَرْكَهَا إِنَّمَا هُوَ بِٱلْعَادَةِ فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِذَاءً وَلَاءَمَهُ تَنَاوُلُهُ كَانَ لَهُ مَأْلُوفًا وَصَارَ ٱلْخُرُوجُ عَنْهُ وَٱلتَّبَدُّلُ بِهِ دَاءً مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ ٱلْغِذَاءِ بِٱلْجُمْلَةِ كَٱلسُّمُومِ وَٱلْيَتُوعِ (١) وَمَا أَفْرَطَ فِي ٱلِٱنْحِرَافِ

(١) قال في القاموس اليتوع كصبور او تنور نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه سبعة

فأما ما وجد فيه التغذي والملاءمة فيصير غذاء مألوفاً بالعادة فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضاً عن الحنطة حتى صار له ديدناً فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضيات فإنا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ ينحسم المعاء ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك وأما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضة بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعله المتصوفة فهو بمعزل عن الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك وإنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصالاً وأكثر. وحضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند الإفطار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك. واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الإقلال منها وإن له أثراً في الأجسام والعقول في صفائها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشأ أجيالهم كذلك وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون بألبان الإبل ولحومها أيضاً مع ما يؤثر في

الشبرم واللاعية والعرطنشيا والماهودانة والمازريون والفلجلشت والعشر وكل اليتوعات اذا استعملت في غير وجهها هلكت ١ه

أَخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل وتنشأ أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الإبل في الصحة والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا ينالها من مدار الأغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل طبخه والدرياس والقربيون ولا ينال أمعاءهم منها ضرر وهي لو تناولها أهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الأغذية لكان الهلاك أسرع إليهم من طرفة العين لما فيها من السمية ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الإبل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجيء دجاجها في غاية العظم وأمثال ذلك كثيرة فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان فلا شك أن للجوع أيضاً آثاراً في الأبدان لأن الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثراً في وجود ذلك الجسم. والله محيط بعلمه.

المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالفطرة او الرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا.

إعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم قال صلى الله عليه وسلم ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني الله واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف

مِنَ ٱلْبَشَرِ أَنْ تُوجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ ٱلْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ ٱلْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيطٍ كَأَنَّهَا غَشْيٌ أَوْ إِغْمَاءٌ فِي رَأْيِ ٱلْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱسْتِغْرَاقٌ فِي لِقَاءِ ٱلْمَلَكِ ٱلرُّوحَانِيِّ بِإِدْرَاكِهِمِ ٱلْمُنَاسِبِ لَهُمُ ٱلْخَارِجِ عَنْ مَدَارِكِ ٱلْبَشَرِ بِٱلْكُلِّيَّةِ ثُمَّ يَتَنَزَّلُ إِلَى ٱلْمَدَارِكِ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيٍّ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ صُورَةُ شَخْصٍ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ ٱلْحَالُ وَقَدْ وَعَى مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ ٱلْوَحْيِ أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ ٱلْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ ٱلْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ وَيُدْرِكُهُ أَثْنَاءَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلشِّدَّةِ وَٱلْغَطِّ مَا لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فَفِي ٱلْحَدِيثِ كَانَ مِمَّا يُعَالِجُ مِنَ ٱلتَّنْزِيلِ شِدَّةً وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ ٱلْوَحْيُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلشَّدِيدِ ٱلْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا وَقَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا وَلِأَجْلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ فِي تَنَزُّلِ ٱلْوَحْيِ كَانَ ٱلْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِٱلْجُنُونِ وَيَقُولُونَ لَهُ رَئِيٌّ أَوْ تَابِعٌ مِنَ ٱلْجِنِّ وَإِنَّمَا لُبِّسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ ٱلْوَحْيِ خُلُقُ ٱلْخَيْرِ وَٱلزَّكَاءِ وَمُجَانَبَةُ ٱلْمَذْمُومَاتِ وَٱلرِّجْسِ أَجْمَعَ وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى ٱلْعِصْمَةِ وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى ٱلتَّنَزُّهِ عَنِ ٱلْمَذْمُومَاتِ وَٱلْمُنَافَرَةِ لَهَا وَكَأَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِجِبِلَّتِهِ وَفِي ٱلصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ ٱلْحِجَارَةَ وَهُوَ غُلَامٌ مَعَ عَمِّهِ ٱلْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ ٱلْكَعْبَةِ فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَٱنْكَشَفَ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ حَتَّى ٱسْتَتَرَ بِإِزَارِهِ وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعِ وَلِيمَةٍ فِيهَا عُرْسٌ وَلَعِبٌ فَأَصَابَهُ غَشْيُ ٱلنَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَلَمْ يَحْضُرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ نَزَّهَهُ ٱللّٰهُ عَنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ بِجِبِلَّتِهِ يَتَنَزَّهُ عَنِ ٱلْمَطْعُومَاتِ ٱلْمُسْتَكْرَهَةِ فَقَدْ كَانَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقْرَبُ ٱلْبَصَلَ وَٱلثُّومَ فَقِيلَ لَهُ فِي ذٰلِكَ فَقَالَ إِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجُونَ وَٱنْظُرْ لِمَا أَخْبَرَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهَا بِحَالِ ٱلْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَهُ وَأَرَادَتِ ٱخْتِبَارَهُ فَقَالَتِ ٱجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ فَلَمَّا فَعَلَ ذٰلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرَبُ ٱلنِّسَاءَ وَكَذٰلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ ٱلثِّيَابِ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا فَقَالَ ٱلْبَيَاضُ وَٱلْخُضْرَةُ فَقَالَتْ إِنَّهُ ٱلْمَلَكُ يَعْنِي أَنَّ ٱلْبَيَاضَ وَٱلْخُضْرَةَ مِنْ أَلْوَانِ ٱلْخَيْرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلسَّوَادُ مِنْ أَلْوَانِ ٱلشَّرِّ وَٱلشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا دُعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعِفَافِ وَقَدِ اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلَى صِدْقِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَحْتَاجَا فِي أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَحْضَرَ مَنْ وَجَدَ بِبَلَدِهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَفِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْ حَالِهِ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ بِمَ يَأْمُرُكُمْ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْعِفَافِ إِلَى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَالْعِفَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرَقْلُ(١) هُوَ الْعِصْمَةُ فَانْظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى مُعْجِزَةٍ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ اسْتَدْرَكَهُ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ وَفِي مَسْئَلَةِ هِرَقْلَ لِأَبِي سُفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ فَقَالَ هِرَقْلُ وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عَصَبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ عَنْ أَذَى الْكُفَّارِ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيَتِمَّ مُرَادُ اللهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا وُقُوعُ الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَفْعَالٌ يَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنْ مِثْلِهَا فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ مُعْجِزَةً وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ مَحَلِّ قُدْرَتِهِمْ وَلِلنَّاسِ فِي كَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافٌ فَالْمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ لَا بِفِعْلِ النَّبِيِّ وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْمُعْجِزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَفْعَالِهِمْ وَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحَدِّي بِهَا بِإِذْنِ اللهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وُقُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مُدَّعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ مِنَ اللهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلَى الصِّدْقِ قَطْعِيَّةً فَالْمُعْجِزَةُ الدَّالَّةُ بِمَجْمُوعِ الْخَارِقِ وَالتَّحَدِّي وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحَدِّي جُزْءًا مِنْهَا وَعِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ صِفَةُ نَفْسِهَا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى الذَّاتِيِّ عِنْدَهُمْ وَالتَّحَدِّي هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكَرَامَةِ

(١) قوله الذي اشار اليه هرقل الظاهر ابو سفيان

ٱلسِّحْرِ إِذْ لَا حَاجَةَ فِيهِمَا إِلَى ٱلتَّصْدِيقِ فَلَا وُجُودَ لِلتَّحَدِّي إِلَّا إِنْ وُجِدَ ٱتِّفَاقًا وَإِنْ وَقَعَ ٱلتَّحَدِّي فِي ٱلْكَرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُجِيزُهَا وَكَانَتْ لَهَا دِلَالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى ٱلْوِلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَمِنْ هُنَا مَنَعَ ٱلْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَٰقَ وَغَيْرُهُ وُقُوعَ ٱلْخَوَارِقِ كَرَامَةً فِرَارًا مِنَ ٱلِٱلْتِبَاسِ بِٱلنُّبُوَّةِ عِنْدَ ٱلتَّحَدِّي بِٱلْوِلَايَةِ وَقَدْ أَرَيْنَاكَ ٱلْمُغَايَرَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنَّهُ يَتَحَدَّى بِغَيْرِ مَا يَتَحَدَّى بِهِ ٱلنَّبِيُّ فَلَا لَبْسَ عَلَى أَنَّ ٱلنَّقْلَ عَنِ ٱلْأُسْتَاذِ فِي ذَٰلِكَ لَيْسَ صَرِيحًا وَرُبَّمَا حُمِلَ عَلَى إِنْكَارِ لِأَنْ تَقَعَ خَوَارِقُ ٱلْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ بِنَاءً عَلَى ٱخْتِصَاصِ كُلٍّ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ. وَأَمَّا ٱلْمُعْتَزِلَةُ فَٱلْمَانِعُ مِنْ وُقُوعِ ٱلْكَرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ ٱلْخَوَارِقَ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْعِبَادِ وَأَفْعَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ فَلَا فَرْقَ وَأَمَّا وُقُوعُهَا عَلَى يَدِ ٱلْكَاذِبِ تَلْبِيسًا فَهُوَ مُحَالٌ أَمَّا عِنْدَ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ فَلِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ ٱلْمُعْجِزَةِ ٱلتَّصْدِيقُ وَٱلْهِدَايَةُ فَلَوْ وَقَعَتْ بِخِلَافِ ذَٰلِكَ ٱنْقَلَبَ ٱلدَّلِيلُ شُبْهَةً وَٱلْهِدَايَةُ ضَلَالَةً وَٱلتَّصْدِيقُ كَذِبًا وَٱسْتَحَالَتِ ٱلْحَقَائِقُ وَٱنْقَلَبَتْ صِفَاتُ ٱلنَّفْسِ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ فَرْضِ وُقُوعِهِ ٱلْمُحَالُ لَا يَكُونُ مُمْكِنًا وَأَمَّا عِنْدَ ٱلْمُعْتَزِلَةِ فَلِأَنَّ وُقُوعَ ٱلدَّلِيلِ شُبْهَةً وَٱلْهِدَايَةِ ضَلَالَةً قَبِيحٌ فَلَا يَقَعُ مِنَ ٱللّٰهِ. وَأَمَّا ٱلْحُكَمَاءُ فَٱلْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ ٱلنَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَحَلِّ ٱلْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي ٱلْإِيجَابِ ٱلذَّاتِيِّ وَوُقُوعُ ٱلْحَوَادِثِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقِّفٌ عَلَى ٱلْأَسْبَابِ وَٱلشُّرُوطِ ٱلْحَادِثَةِ مُسْتَنِدَةً أَخِيرًا إِلَى ٱلْوَاجِبِ ٱلْفَاعِلِ بِٱلذَّاتِ لَا بِٱلِٱخْتِيَارِ وَإِنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّبَوِيَّةَ عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصٌّ ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هٰذِهِ ٱلْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةِ ٱلْعَنَاصِرِ لَهُ فِي ٱلتَّكْوِينِ وَٱلنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ مَجْبُولٌ عَلَى ٱلتَّصْرِيفِ فِي ٱلْأَكْوَانِ مَهْمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَٱسْتَجْمَعَ لَهَا بِمَا جَعَلَ ٱللّٰهُ لَهُ مِنْ ذَٰلِكَ وَٱلْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سَوَاءٌ كَانَ لِلتَّحَدِّي أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ شَاهِدٌ بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دِلَالَتِهِ عَلَى تَصَرُّفِ ٱلنَّبِيِّ فِي ٱلْأَكْوَانِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّبَوِيَّةِ لَا بِأَنَّهُ يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْقَوْلِ ٱلصَّرِيحِ بِٱلتَّصْدِيقِ فَلِذَٰلِكَ لَا تَكُونُ دِلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ قَطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ وَلَا يَكُونُ ٱلتَّحَدِّي جُزْءًا مِنَ ٱلْمُعْجِزَةِ وَلَمْ يَصِحَّ فَارِقًا لَهَا عَنِ ٱلسِّحْرِ وَٱلْكَرَامَةِ وَفَارِقُهَا عِنْدَهُمْ عَنِ ٱلسِّحْرِ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ مَجْبُولٌ عَلَى أَفْعَالِ ٱلْخَيْرِ مَصْرُوفٌ عَنْ أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ فَلَا يُلِمُّ ٱلشَّرُّ بِخَوَارِقِهِ وَٱلسَّاحِرُ عَلَى ٱلضِّدِّ فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ ٱلشَّرِّ وَفَارِقُهَا عَنِ ٱلْكَرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ ٱلنَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ كَٱلصُّعُودِ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَٱلنُّفُوذِ فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلْكَثِيفَةِ وَإِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلطَّيَرَانِ

فِي ٱلْهَوَاءِ وَخَوَارِقُ ٱلْوَلِيِّ دُونَ ذَٰلِكَ كَتَكْثِيرِ ٱلْقَلِيلِ وَٱلْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُسْتَقْبَلِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَصْرِيفِ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَيَأْتِي ٱلنَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَٰلِكَ ٱلْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَلَقَّنُوهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُمْ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ ٱلْمُعْجِزَاتِ وَأَشْرَفَهَا وَأَوْضَحَهَا دِلَالَةً ٱلْقُرْآنُ ٱلْكَرِيمُ ٱلْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ ٱلْخَوَارِقَ فِي ٱلْغَالِبِ تَقَعُ مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ ٱلَّذِي يَتَلَقَّاهُ ٱلنَّبِيُّ وَيَأْتِي بِٱلْمُعْجِزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ وَٱلْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ ٱلْوَحْيُ ٱلْمُدَّعَى وَهُوَ ٱلْخَارِقُ ٱلْمُعْجِزُ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ كَسَائِرِ ٱلْمُعْجِزَاتِ مَعَ ٱلْوَحْيِ فَهُوَ أَوْضَحُ دِلَالَةً لِٱتِّحَادِ ٱلدَّلِيلِ وَٱلْمَدْلُولِ فِيهِ وَهَٰذَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَأُوتِيَ مِنَ ٱلْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ ٱلْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ ٱلَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أُوحِيَ إِلَيَّ فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ ٱلْمُعْجِزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهَٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ فِي ٱلْوُضُوحِ وَقُوَّةِ ٱلدِّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ ٱلْوَحْيِ كَانَ ٱلصِّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لِوُضُوحِهَا فَكَثُرَ ٱلْمُصَدِّقُ ٱلْمُؤْمِنُ وَهُوَ ٱلتَّابِعُ وَٱلْأُمَّةُ

ولنذكر الان تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شان العرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

إِعْلَمْ أَرْشَدَنَا ٱللّٰهُ وَإِيَّاكَ أَنَّا نُشَاهِدُ هَٰذَا ٱلْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ مِنَ ٱلتَّرْتِيبِ وَٱلْإِحْكَامِ وَرَبْطِ ٱلْأَسْبَابِ بِٱلْمُسَبَّبَاتِ وَٱتِّصَالِ ٱلْأَكْوَانِ بِٱلْأَكْوَانِ وَٱسْتِحَالَةِ بَعْضِ ٱلْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَٰلِكَ وَلَا تَنْتَهِي غَايَاتُهُ وَأَبْدَأُ مِنْ ذَٰلِكَ بِٱلْعَالَمِ ٱلْمَحْسُوسِ ٱلْجُثْمَانِيِّ وَأَوَّلًا عَالَمُ ٱلْعَنَاصِرِ ٱلْمُشَاهَدَةِ كَيْفَ تَدَرَّجَ صَاعِدًا مِنَ ٱلْأَرْضِ إِلَى ٱلْمَاءِ ثُمَّ إِلَى ٱلْهَوَاءِ ثُمَّ إِلَى ٱلنَّارِ مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَابِطًا وَيَسْتَحِيلُ بَعْضَ ٱلْأَوْقَاتِ وَٱلصَّاعِدُ مِنْهَا أَلْطَفُ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ ٱلْأَفْلَاكِ وَهُوَ أَلْطَفُ مِنَ ٱلْكُلِّ عَلَى طَبَقَاتٍ ٱتَّصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يُدْرِكُ ٱلْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا ٱلْحَرَكَاتِ فَقَطْ وَبِهَا

يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثرا مباينا للأجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها ولذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضا ويكون ذاته إدراكا صرفا وتعقلا محضا وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل وهي متصلة بالبدن من أسفل منها وتكتسب به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها أما الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية

بِٱلْبَدَنِ مُتَدَافِعاً وَأَمَّا ٱلْمُدْرِكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى ٱلإِدْرَاكِ مُرَتَّبَةً وَمُرْتَقِيَةً إِلَى ٱلْقُوَّةِ ٱلْعُلْيَا مِنْهَا وَمِنَ ٱلْمُفَكِّرَةِ ٱلَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِٱلنَّاطِقَةِ فَقُوَى ٱلْحِسِّ ٱلظَّاهِرَةُ بِآلَاتِهِ مِنَ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ وَسَائِرُهَا يَرْتَقِي إِلَى ٱلْبَاطِنِ وَأَوَّلُهُ ٱلْحِسُّ ٱلْمُشْتَرَكُ وَهُوَ قُوَّةٌ تُدْرِكُ ٱلْمَحْسُوسَاتِ مُبْصَرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةَ ٱلْحِسِّ ٱلظَّاهِرِ لِأَنَّ ٱلْمَحْسُوسَاتِ لَا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي ٱلْوَقْتِ ٱلْوَاحِدِ ثُمَّ يُؤَدِّيهِ ٱلْحِسُّ ٱلْمُشْتَرَكُ إِلَى ٱلْخَيَالِ وَهِيَ قُوَّةٌ تُمَثِّلُ ٱلشَّيْءَ ٱلْمَحْسُوسَ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ ٱلْمَوَادِّ ٱلْخَارِجَةِ فَقَطْ وَآلَةُ هَاتَيْنِ ٱلْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا ٱلْبَطْنُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلدِّمَاغِ مُقَدَّمُهُ لِلْأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَرْتَقِي ٱلْخَيَالُ إِلَى ٱلْوَاهِمَةِ وَٱلْحَافِظَةِ فَٱلْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَعَلِّقَةِ بِٱلشَّخْصِيَّاتِ كَعَدَاوَةِ زَيْدٍ وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ ٱلْأَبِ وَٱفْتِرَاسِ ٱلذِّئْبِ وَٱلْحَافِظَةُ لِإِيدَاعِ ٱلْمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا مُتَخَيَّلَةً وَهِيَ لَهَا كَٱلْخِزَانَةِ تَحْفَظُهَا لِوَقْتِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَآلَةُ هَاتَيْنِ ٱلْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا ٱلْبَطْنُ ٱلْمُؤَخَّرُ مِنَ ٱلدِّمَاغِ أَوَّلُهُ لِلْأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلْأُخْرَى ثُمَّ تَرْتَقِي جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ ٱلْفِكْرِ وَآلَتُهُ ٱلْبَطْنُ ٱلْأَوْسَطُ مِنَ ٱلدِّمَاغِ وَهِيَ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا حَرَكَةُ ٱلرُّؤْيَةِ وَٱلتَّوَجُّهُ نَحْوَ ٱلتَّعَقُّلِ فَتُحَرِّكُ ٱلنَّفْسُ بِهَا دَائِماً لِمَا رُكِّبَ فِيهَا مِنَ ٱلنُّزُوعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَرَكِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلِٱسْتِعْدَادِ ٱلَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ وَتَخْرُجُ إِلَى ٱلْفِعْلِ فِي تَعَقُّلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى ٱلرُّوحَانِيِّ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ فِي إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ ٱلْآلَاتِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ فَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِماً وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ تَنْسَلِخُ بِٱلْكُلِّيَّةِ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى ٱلْمَلَكِيَّةِ مِنَ ٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ ٱكْتِسَابٍ بَلْ بِمَا جَعَلَ ٱللهُ فِيهَا مِنَ ٱلْجِبِلَّةِ وَٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى فِي ذَلِكَ وَٱلنُّفُوسُ ٱلْبَشَرِيَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ صِنْفٌ عَاجِزٌ بِٱلطَّبْعِ عَنِ ٱلْوُصُولِ فَيَنْقَطِعُ بِٱلْحَرَكَةِ إِلَى ٱلْجِهَةِ ٱلسُّفْلَى نَحْوَ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْحِسِّيَّةِ وَٱلْخَيَالِيَّةِ وَتَرْكِيبِ ٱلْمَعَانِي مِنَ ٱلْحَافِظَةِ وَٱلْوَاهِمَةِ عَلَى قَوَانِينَ مَحْصُورَةٍ وَتَرْتِيبٍ خَاصٍّ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ ٱلْعُلُومَ ٱلتَّصَوُّرِيَّةَ وَٱلتَّصْدِيقِيَّةَ ٱلَّتِي لِلْفِكْرِ فِي ٱلْبَدَنِ وَكُلُّهَا خَيَالِيٌّ مُنْحَصِرٌ نِطَاقُهُ إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةِ مَبْدَإِهِ يَنْتَهِي إِلَى ٱلْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا وَهَذَا هُوَ فِي ٱلْأَغْلَبِ نِطَاقُ ٱلْإِدْرَاكِ ٱلْبَشَرِيِّ ٱلْجُسْمَانِيِّ وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي مَدَارِكُ ٱلْعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرْسَخُ أَقْدَامُهُمْ وَصِنْفٌ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ ٱلْحَرَكَةِ ٱلْفِكْرِيَّةِ نَحْوَ ٱلْعَقْلِ ٱلرُّوحَانِيِّ وَٱلْإِدْرَاكِ ٱلَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى ٱلْآلَاتِ ٱلْبَدَنِيَّةِ بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ ٱلِٱسْتِعْدَادِ

لذلك فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها نطاق لها من مبدإها ولا من منتهاها وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم الدينية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملإ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجبلة صورهم فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملإ الأعلى ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها لحكمة التبليغ للعباد فتارة يسمع أحدهم دويا كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقي إليه فلا ينقضي الدوي إلا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي إليه رجلا فيكلمه ويعي ما يقوله والتلقي من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقي عليه كله كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر لأنه ليس في زمان بل كلها تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحيا لأن الوحي في اللغة الإسراع واعلم أن الأولى وهي حالة الدوي هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ولذلك كانت أكمل من الأولى وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله الحارث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحي فقال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول وإنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل

فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه وعند ما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل ذلك الاتصال فعند ما يعرج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها وهو إدراك البصر وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي فمثل الحالة الأولى بالدوي الذي هو في المتعارف غير كلام وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعي فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدد. واعلم أن في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة قد أشار إليها القرآن قال تعالى إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً وقالت عائشة كان مما يعاني من التنزيل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً. ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف وسبب ذلك أن الوحي كما قررنا مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقي كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر وهذا هو معنى الغط الذي عبر به في مبدإ الوحي في قوله فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث وقد يفضي الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة وانظر إلى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكي والمدني من السور والآيات والله المرشد إلى الصواب. هذا محصل أمر النبوة وأما الكهانة فهي أيضاً

مِنْ خَوَاصِّ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ لِلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱسْتِعْدَادًا لِلِٱنْسِلَاخِ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِلَى ٱلرُّوحَانِيَّةِ ٱلَّتِي فَوْقَهَا وَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ ذٰلِكَ لَمْحَةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ ٱلْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ ٱكْتِسَابٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ وَلَا مِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْبَدَنِيَّةِ كَلَامًا أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ ٱنْسِلَاخٌ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِلَى ٱلْمَلَكِيَّةِ بِٱلْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَمْحِ ٱلْبَصَرِ وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلِٱسْتِعْدَادُ مَوْجُودًا فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطِي ٱلتَّقْسِيمُ ٱلْعَقْلِيُّ وَإِنَّ هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ ٱلْبَشَرِ نَاقِصًا عَنْ رُتْبَةِ ٱلصِّنْفِ ٱلْأَوَّلِ نُقْصَانَ ٱلضِّدِّ عَنْ ضِدِّهِ ٱلْكَامِلِ لِأَنَّ عَدَمَ ٱلِٱسْتِعَانَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْإِدْرَاكِ ضِدُّ ٱلِٱسْتِعَانَةِ فِيهِ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ ٱلْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ ٱلْبَشَرِ مَفْطُورًا عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ ٱلْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا ٱلْفِكْرِيَّةَ بِٱلْإِرَادَةِ عِنْدَمَا يَبْعَثُهَا ٱلنُّزُوعُ لِذٰلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِٱلْجِبِلَّةِ عِنْدَمَا يَعُوقُهَا ٱلْعَجْزُ عَنْ ذٰلِكَ تَتَشَبَّثُ بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيَّلَةٍ كَٱلْأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ وَعِظَامِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَسَجْعِ ٱلْكَلَامِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ فَيَسْتَدِيمُ ذٰلِكَ ٱلْإِحْسَاسُ أَوِ ٱلتَّخَيُّلُ مُسْتَعِينًا بِهِ فِي ذٰلِكَ ٱلِٱنْسِلَاخِ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ وَيَكُونُ كَٱلْمُشَيِّعِ لَهُ وَهٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأٌ لِذٰلِكَ ٱلْإِدْرَاكِ هِيَ ٱلْكَهَانَةُ وَلِكَوْنِ هٰذِهِ ٱلنُّفُوسِ مَفْطُورَةً عَلَى ٱلنَّقْصِ وَٱلْقُصُورِ عَنِ ٱلْكَمَالِ كَانَ إِدْرَاكُهَا فِي ٱلْجُزْئِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْكُلِّيَّاتِ وَلِذٰلِكَ تَكُونُ ٱلْمُخَيِّلَةُ فِيهِمْ فِي غَايَةِ ٱلْقُوَّةِ لِأَنَّهَا آلَةُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَتَنْفُذُ فِيهَا نُفُوذًا تَامًّا فِي نَوْمٍ أَوْ يَقَظَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا حَاضِرَةً عَتِيدَةً تُحْضِرُهَا ٱلْمُخَيِّلَةُ وَتَكُونُ لَهَا كَٱلْمِرْآةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا وَلَا يَقْوَى ٱلْكَاهِنُ عَلَى ٱلْكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ ٱلْمَعْقُولَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ ٱلشَّيْطَانِ وَأَرْفَعُ أَحْوَالِ هٰذَا ٱلصِّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلسَّجْعُ وَٱلْمُوَازَنَةُ لِيَشْتَغِلَ بِهِ عَنِ ٱلْحَوَاسِّ وَيَقْوَى بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلِٱتِّصَالِ ٱلنَّاقِصِ فَيَهْجِسُ فِي قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ ٱلْحَرَكَةِ وَٱلَّذِي يُشَيِّعُهَا مِنْ ذٰلِكَ ٱلْأَجْنَبِيِّ مَا يَقْذِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ ٱلْحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ لِأَنَّهُ يُتَمِّمُ نَقْصَهُ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْ ذَاتِهِ ٱلْمُدْرِكَةِ وَمُبَايِنٍ لَهَا غَيْرِ مُلَائِمٍ فَيَعْرِضُ لَهُ ٱلصِّدْقُ وَٱلْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مَوْثُوقًا بِهِ وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إِلَى ٱلظُّنُونِ وَٱلتَّخْمِينَاتِ حِرْصًا عَلَى ٱلظَّفَرِ بِٱلْإِدْرَاكِ بِزَعْمِهِ وَتَمْوِيهًا عَلَى ٱلسَّائِلِينَ وَأَصْحَابُ هٰذَا ٱلسَّجْعِ هُمُ

ٱلْمَخْصُوصُونَ بِٱسْمِ ٱلْكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فِي مِثْلِهِ هٰذَا مِنْ سَجْعِ ٱلْكُهَّانِ فَجَعَلَ ٱلسَّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى ٱلْإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِابْنِ
صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِٱلْأَخْبَارِ كَيْفَ يَأْتِيكَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ قَالَ يَأْتِينِي صَادِقًا
وَكَاذِبًا فَقَالَ خُلِطَ عَلَيْكَ ٱلْأَمْرُ يَعْنِي أَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ خَاصَّتُهَا ٱلصِّدْقُ فَلَا يَعْتَرِيهَا ٱلْكَذِبُ
بِحَالٍ لِأَنَّهَا ٱتِّصَالٌ مِنْ ذَاتِ ٱلنَّبِيِّ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشَيِّعٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ بِأَجْنَبِيٍّ
وَٱلْكِهَانَةُ لَمَّا ٱحْتَاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ كَانَتْ
دَاخِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ وَٱلْتَبَسَتْ بِٱلْإِدْرَاكِ ٱلَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا وَطَرَقَهُ
ٱلْكَذِبُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ فَٱمْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوَّةً وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ ٱلْكِهَانَةِ
حَالَةُ ٱلسَّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى ٱلسَّجْعِ أَخَفُّ مِنْ سَائِرِ ٱلْمُغَيَّبَاتِ مِنَ ٱلْمَرْئِيَّاتِ وَٱلْمَسْمُوعَاتِ
وَتَدُلُّ خِفَّةُ ٱلْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذٰلِكَ ٱلِٱتِّصَالِ وَٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْبُعْدِ فِيهِ عَنِ ٱلْعَجْزِ بَعْضَ
ٱلشَّيْءِ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْكِهَانَةَ قَدِ ٱنْقَطَعَتْ مُنْذُ زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ بِمَا وَقَعَ
مِنْ شَأْنِ رَجْمِ ٱلشَّيَاطِينِ بِٱلشُّهُبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْبِعْثَةِ وَأَنَّ ذٰلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَبَرِ
ٱلسَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱلْكُهَّانُ إِنَّمَا يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ ٱلسَّمَاءِ مِنَ ٱلشَّيَاطِينِ فَبَطَلَتِ
ٱلْكِهَانَةُ مِنْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَقُومُ مِنْ ذٰلِكَ دَلِيلٌ لِأَنَّ عُلُومَ ٱلْكُهَّانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ ٱلشَّيَاطِينِ
تَكُونُ مِنْ نُفُوسِهِمْ أَيْضًا كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَأَيْضًا فَٱلْآيَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنْعِ ٱلشَّيَاطِينِ مِنْ
نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ ٱلسَّمَاءِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ ٱلْبِعْثَةِ وَلَمْ يُمْنَعُوا مِمَّا سِوَى ذٰلِكَ وَأَيْضًا
فَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلِٱنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنُّبُوَّةِ فَقَطْ وَلَعَلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ
عَلَيْهِ وَهٰذَا هُوَ ٱلظَّاهِرُ لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْمَدَارِكَ كُلَّهَا تَخْمُدُ فِي زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ كَمَا تَخْمُدُ
ٱلْكَوَاكِبُ وَٱلسُّرُجُ عِنْدَ وُجُودِ ٱلشَّمْسِ لِأَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ هِيَ ٱلنُّورُ ٱلْأَعْظَمُ ٱلَّذِي يَخْفَى مَعَهُ
كُلُّ نُورٍ وَيَذْهَبُ. وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنُّبُوَّةِ ثُمَّ تَنْقَطِعُ
وَهٰكَذَا كُلُّ نُبُوَّةٍ وَقَعَتْ لِأَنَّ وُجُودَ ٱلنُّبُوَّةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَضْعٍ فَلَكِيٍّ يَقْتَضِيهِ وَفِي تَمَامِ
ذٰلِكَ ٱلْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ ٱلنُّبُوَّةِ ٱلَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَنَقْصُ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعِ عَنِ ٱلتَّمَامِ يَقْتَضِي
وُجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةً وَهُوَ مَعْنَى ٱلْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ
فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ ٱلْكَامِلُ يَقَعُ ٱلْوَضْعُ ٱلنَّاقِصُ وَيَقْتَضِي وُجُودَ ٱلْكَاهِنِ إِمَّا
وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا فَإِذَا تَمَّ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ تَمَّ وُجُودُ ٱلنَّبِيِّ بِكَمَالِهِ وَٱنْقَضَتِ ٱلْأَوْضَاعُ

ٱلدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ ٱلطَّبِيعَةِ فَلَا يُوجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدُ وَهٰذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ بَعْضَ ٱلْوَضْعِ ٱلْفَلَكِيِّ يَقْتَضِي بَعْضَ أَثَرِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ فَلَعَلَّ ٱلْوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذٰلِكَ ٱلْأَثَرَ بِهَيْئَتِهِ ٱلْخَالِصَةِ وَلَوْ نَقَصَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا فَلَا يَقْتَضِي شَيْئًا لَا إِنَّهُ يَقْتَضِي ذٰلِكَ ٱلْأَثَرَ نَاقِصًا كَمَا قَالُوهُ ثُمَّ إِنَّ هٰؤُلَاءِ ٱلْكُهَّانَ إِذَا عَاصَرُوا زَمَنَ ٱلنُّبُوَّةِ فَإِنَّهُمْ عَارِفُونَ بِصِدْقِ ٱلنَّبِيِّ وَدَلَالَةِ مُعْجِزَتِهِ لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ ٱلْوِجْدَانِ مِنْ أَمْرِ ٱلنُّبُوَّةِ كَمَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ ٱلْيَوْمِ وَمَعْقُولِيَّةُ تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ مَوْجُودَةٌ لِلْكَاهِنِ بِأَشَدَّ مِمَّا لِلنَّائِمِ وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذٰلِكَ وَيُوقِعُهُمْ فِي ٱلتَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةُ ٱلْمَطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ لَهُمْ فَيَقَعُونَ فِي ٱلْعِنَادِ كَمَا وَقَعَ لِأُمَيَّةَ بْنِ أَبِي ٱلصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَنَبَّأَ وَكَذَا وَقَعَ لِٱبْنِ صَيَّادٍ وَلِمُسَيْلِمَةَ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا غَلَبَ ٱلْإِيمَانُ وَٱنْقَطَعَتْ تِلْكَ ٱلْأَمَانِيُّ آمَنُوا أَحْسَنَ إِيمَانٍ كَمَا وَقَعَ لِطُلَيْحَةَ ٱلْأَسَدِيِّ وَسَوَادِ بْنِ قَارِبٍ وَكَانَ لَهُمَا فِي ٱلْفُتُوحَاتِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلشَّاهِدَةِ بِحُسْنِ ٱلْإِيمَانِ. وَأَمَّا ٱلرُّؤْيَا فَحَقِيقَتُهَا مُطَالَعَةُ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ فِي ذَاتِهَا ٱلرُّوحَانِيَّةِ لَمْحَةً مِنْ صُوَرِ ٱلْوَاقِعَاتِ فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً تَكُونُ صُوَرُ ٱلْوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةً بِٱلْفِعْلِ كَمَا هُوَ شَأْنُ ٱلذَّوَاتِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بِأَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ ٱلْمَوَادِّ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَٱلْمَدَارِكِ ٱلْبَدَنِيَّةِ وَقَدْ يَقَعُ لَهَا ذٰلِكَ لَمْحَةً بِسَبَبِ ٱلنَّوْمِ كَمَا نَذْكُرُ فَتَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمَ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَدَارِكِهَا فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلِٱقْتِبَاسُ ضَعِيفًا وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِٱلْمُحَاكَاةِ وَٱلْمِثَالِ فِي ٱلْخَيَالِ لِتَخَلُّصِهِ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةِ إِلَى ٱلتَّعْبِيرِ وَقَدْ يَكُونُ ٱلِٱقْتِبَاسُ قَوِيًّا يُسْتَغْنَى فِيهِ عَنِ ٱلْمُحَاكَاةِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ لِخُلُوصِهِ مِنَ ٱلْمِثَالِ وَٱلْخَيَالِ وَٱلسَّبَبُ فِي وُقُوعِ هٰذِهِ ٱللَّمْحَةِ لِلنَّفْسِ أَنَّهَا ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ بِٱلْقُوَّةِ مُسْتَكْمِلَةٌ بِٱلْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ حَتَّى تَصِيرَ ذَاتُهَا تَعَقُّلًا مَحْضًا وَيَكْمُلَ وُجُودُهَا بِٱلْفِعْلِ فَتَكُونَ حِينَئِذٍ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً مُدْرِكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْآلَاتِ ٱلْبَدَنِيَّةِ إِلَّا أَنَّ نَوْعَهَا فِي ٱلرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ ٱلْمَلَائِكَةِ أَهْلِ ٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا ذَوَاتِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ مَدَارِكِ ٱلْبَدَنِ وَلَا غَيْرِهِ فَهٰذَا ٱلِٱسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمِنْهُ خَاصٌّ كَٱلَّذِي لِلْأَوْلِيَاءِ وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَهُوَ أَمْرُ ٱلرُّؤْيَا. وَأَمَّا ٱلَّذِي لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ ٱسْتِعْدَادٌ بِٱلِٱنْسِلَاخِ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِلَى ٱلْمَلَكِيَّةِ ٱلْمَحْضَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْلَى ٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَيَخْرُجُ هٰذَا ٱلِٱسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّرًا فِي حَالَاتِ ٱلْوَحْيِ وَهُوَ عِنْدَمَا

يُعرِّجُ عَلَى ٱلْمَدَارِكِ ٱلْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ ٱلْإِدْرَاكِ شَبِيهًا بِحَالِ ٱلنَّوْمِ شَبَهًا بَيِّنًا وَإِنْ كَانَ حَالُ ٱلنَّوْمِ أَدْوَنَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فَلِأَجْلِ هٰذَا ٱلشَّبَهِ عَبَّرَ ٱلشَّارِعُ عَنِ ٱلرُّؤْيَا بِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ وَفِي رِوَايَةٍ ثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعِينَ وَفِي رِوَايَةٍ سَبْعِينَ وَلَيْسَ ٱلْعَدَدُ فِي جَمِيعِهَا مَقْصُودًا بِٱلذَّاتِ وَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ ٱلْكَثْرَةُ فِي تَفَاوُتِ هٰذِهِ ٱلْمَرَاتِبِ بِدَلِيلِ ذِكْرِ ٱلسَّبْعِينَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فِي رِوَايَةِ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ ٱلْوَحْيَ كَانَ فِي مَبْدَإِهِ بِٱلرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهِيَ نِصْفُ سَنَةٍ وَمُدَّةُ ٱلنُّبُوَّةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَٱلْمَدِينَةِ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً فَنِصْفُ ٱلسَّنَةِ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ فَكَلَامٌ بَعِيدٌ مِنَ ٱلتَّحْقِيقِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذٰلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ أَيْنَ لَنَا أَنَّ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةَ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يُعْطِي نِسْبَةَ زَمَنِ ٱلرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ وَلَا يُعْطِي حَقِيقَتَهَا مِنْ حَقِيقَةِ ٱلنُّبُوَّةِ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هٰذَا مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ نِسْبَةُ ٱلِٱسْتِعْدَادِ ٱلْأَوَّلِ ٱلشَّامِلِ لِلْبَشَرِ إِلَى ٱلِٱسْتِعْدَادِ ٱلْقَرِيبِ ٱلْخَاصِّ بِصِنْفِ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلْفِطْرِيِّ لَهُمْ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِمْ إِذْ هُوَ ٱلِٱسْتِعْدَادُ ٱلْبَعِيدُ وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي ٱلْبَشَرِ وَمَعَهُ عَوَائِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ حُصُولِهِ بِٱلْفِعْلِ وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ ٱلْمَوَانِعِ ٱلْحَوَاسُّ ٱلظَّاهِرَةُ فَفَطَرَ ٱللّٰهُ ٱلْبَشَرَ عَلَى ٱرْتِفَاعِ حِجَابِ ٱلْحَوَاسِّ بِٱلنَّوْمِ ٱلَّذِي هُوَ جِبِلِّيٌّ لَهُمْ فَتَتَعَرَّضُ ٱلنَّفْسُ عِنْدَ ٱرْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ ٱلْحَقِّ فَتُدْرِكُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ مِنْهُ لَمْحَةً يَكُونُ فِيهَا ٱلظَّفَرُ بِٱلْمَطْلُوبِ وَلِذٰلِكَ جَعَلَهَا ٱلشَّارِعُ مِنَ ٱلْمُبَشِّرَاتِ فَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ إِلَّا ٱلْمُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا ٱلْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ ٱللّٰهِ قَالَ ٱلرُّؤْيَا ٱلصَّالِحَةُ يَرَاهَا ٱلرَّجُلُ ٱلصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ وَأَمَّا سَبَبُ ٱرْتِفَاعِ حِجَابِ ٱلْحَوَاسِّ بِٱلنَّوْمِ فَعَلَى مَا أَصِفُهُ لَكَ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ إِنَّمَا إِدْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِٱلرُّوحِ ٱلْحَيَوَانِيِّ ٱلْجِسْمَانِيِّ وَهُوَ بُخَارٌ لَطِيفٌ مَرْكَزُهُ بِٱلتَّجْوِيفِ ٱلْأَيْسَرِ مِنَ ٱلْقَلْبِ عَلَى مَا فِي كُتُبِ ٱلتَّشْرِيحِ لِجَالِينُوسَ وَغَيْرِهِ وَيَنْبَعِثُ مَعَ ٱلدَّمِ فِي ٱلشِّرْيَانَاتِ وَٱلْعُرُوقِ فَيُعْطِي ٱلْحِسَّ وَٱلْحَرَكَةَ وَسَائِرَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْبَدَنِيَّةِ وَيَرْتَفِعُ لَطِيفُهُ إِلَى ٱلدِّمَاغِ فَيَعْتَدِلُ مِنْ بَرْدِهِ وَتَتِمُّ أَفْعَالُ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي فِي بُطُونِهِ فَٱلنَّفْسُ ٱلنَّاطِقَةُ إِنَّمَا تُدْرِكُ وَتَعْقِلُ بِهٰذَا ٱلرُّوحِ ٱلْبُخَارِيِّ وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِمَا ٱقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ ٱلتَّكْوِينِ فِي أَنَّ ٱللَّطِيفَ لَا يُؤَثِّرُ فِي ٱلْكَثِيفِ وَلَمَّا لَطُفَ هٰذَا ٱلرُّوحُ ٱلْحَيَوَانِيُّ مِنْ بَيْنِ ٱلْمَوَادِّ ٱلْبَدَنِيَّةِ

صار محلاً لآثار الذات المباينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين إدراك بالظاهر وهو الحواس الخمس وإدراك بالباطن وهو القوى الدماغية وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتغشى الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه إلى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشيعة مركبها وهو الروح الحيواني إلى الباطن ولذلك كان النوم للبشر في الغالب إنما هو بالليل فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية تدرك بإدراكها الروحاني لأنها مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلي من الله والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواص للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الإنساني رأى في نومه ما صدر

لَهُ فِي يَقظَتِهِ مِرَارًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ وَحَصَلَ لَهُ عَلَى ٱلْقَطْعِ أَنَّ ٱلنَّفْسَ مُدْرِكَةٌ لِلْغَيْبِ فِي ٱلنَّوْمِ وَلَا بُدَّ وَإِذَا جَازَ ذٰلِكَ فِي عَالَمِ ٱلنَّوْمِ فَلَا يَمْتَنِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ ٱلذَّاتَ ٱلْمُدْرِكَةَ وَاحِدَةٌ وَخَوَاصُّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ حَالٍ وَٱللّٰهُ ٱلْهَادِي إِلَى ٱلْحَقِّ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

فَصْلٌ * وَوُقُوعُ مَا يَقَعُ لِلْبَشَرِ مِنْ ذٰلِكَ غَالِبًا إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا قُدْرَةٍ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا تَكُونُ ٱلنَّفْسُ مُتَشَوِّفَةً لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فَيَقَعُ لَهَا بِتِلْكَ ٱللَّمْحَةِ فِي ٱلنَّوْمِ لِأَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَى ذٰلِكَ فَتَرَاهُ وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ ٱلْغَايَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ ذِكْرُ أَسْمَاءٍ تُذْكَرُ عِنْدَ ٱلنَّوْمِ فَتَكُونُ عَنْهَا ٱلرُّؤْيَا فِيمَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَيُسَمُّونَهَا ٱلْحَالُومِيَّةَ وَذَكَرَ مِنْهَا مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ ٱلْغَايَةِ حَالُومَةً سَمَّاهَا حَالُومَةَ ٱلطِّبَاعِ ٱلتَّامِّ وَهُوَ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ ٱلنَّوْمِ بَعْدَ فَرَاغِ ٱلسِّرِّ وَصِحَّةِ ٱلتَّوَجُّهِ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتُ ٱلْأَعْجَمِيَّةُ وَهِيَ تماغس بعد ان يسواد وغداس نوفنا غادس وَيَذْكُرُ حَاجَتَهُ فَإِنَّهُ يَرَى ٱلْكَشْفَ عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ فِي ٱلنَّوْمِ * وَحُكِيَ إِنَّ رَجُلًا فَعَلَ ذٰلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةِ لَيَالٍ فِي مَأْكَلِهِ وَذِكْرِهِ فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طِبَاعُكَ ٱلتَّامُّ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَقَدْ وَقَعَ لِي أَنَا بِهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءِ مَرَاءٍ عَجِيبَةٌ وَٱطَّلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ عَلَيْهَا مِنْ أَحْوَالِي وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ ٱلْقَصْدَ لِلرُّؤْيَا يُحْدِثُهَا وَإِنَّمَا هٰذِهِ ٱلْحَالُومَاتُ تُحْدِثُ ٱسْتِعْدَادًا فِي ٱلنَّفْسِ لِوُقُوعِ ٱلرُّؤْيَا فَإِذَا قَوِيَ ٱلِاسْتِعْدَادُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى حُصُولِ مَا يُسْتَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ مِنَ ٱلِاسْتِعْدَادِ مَا أَحَبَّ وَلَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى إِيقَاعِ ٱلْمُسْتَعَدِّ لَهُ فَٱلْقُدْرَةُ عَلَى ٱلِاسْتِعْدَادِ غَيْرُ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلشَّيْءِ فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَتَدَبَّرْهُ فِيمَا تَجِدُ مِنْ أَمْثَالِهِ وَٱللّٰهُ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ

فصل * ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ أَشْخَاصًا يُخْبِرُونَ بِٱلْكَائِنَاتِ قَبْلَ وُقُوعِهَا بِطَبِيعَةٍ فِيهِمْ يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ وَلَا يَرْجِعُونَ فِي ذٰلِكَ إِلَى صِنَاعَةٍ وَلَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَثَرٍ مِنَ ٱلنُّجُومِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إِنَّمَا نَجِدُ مَدَارِكَهُمْ فِي ذٰلِكَ بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمِ ٱلَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا وَذٰلِكَ مِثْلُ ٱلْعَرَّافِينَ وَٱلنَّاظِرِينَ فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ كَٱلْمَرَايَا وَطِسَاسِ ٱلْمَاءِ وَٱلنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ ٱلزَّجْرِ فِي ٱلطَّيْرِ وَٱلسِّبَاعِ وَأَهْلِ ٱلطَّرْقِ بِٱلْحَصَى وَٱلْحُبُوبِ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ وَٱلنَّوَى وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي عَالَمِ ٱلْإِنْسَانِ لَا يَسَعُ أَحَدًا جَحْدُهَا وَلَا إِنْكَارُهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْمَجَانِينُ يُلْقَى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ

كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة . ونحن الآن نتكلم عن هذه الإدراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة إلى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة . وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهي توجد أولا بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركاتها المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما وذلك ان صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم تتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبدا جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الإدراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملا لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما قررنا قبل وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوما وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت إما مجردا أو في

قَوَالِبِهِ فَتُخْبِرُ بِهِ . هٰذَا هُوَ شَرْحُ ٱسْتِعْدَادِ ٱلنَّفْسِ لِهٰذَا ٱلإِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِيِّ . وَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ . فَأَمَّا ٱلنَّاظِرُونَ فِي ٱلأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ مِنَ ٱلْمَرَايَا وَطِسَاسِ ٱلْمِيَاهِ وَقُلُوبِ ٱلْحَيَوَانِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ ٱلطَّرْقِ بِٱلْحَصَى وَٱلنَّوَى فَكُلُّهُمْ مِنْ قَبِيلِ ٱلْكُهَّانِ إِلاَّ أَنَّهُمْ أَضْعَفُ رُتْبَةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ لِأَنَّ ٱلْكَاهِنَ لاَ يَحْتَاجُ فِي رَفْعِ حِجَابِ ٱلْحِسِّ إِلَى كَثِيرِ مُعَانَاةٍ وَهٰؤُلاَءِ يُعَانُونَهُ بِٱنْحِصَارِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْحِسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَأَشْرَفُهَا ٱلْبَصَرُ فَيَعْكِفُ عَلَى ٱلْمَرْئِيِّ ٱلْبَسِيطِ حَتَّى يَبْدُوَ لَهُ مُدْرَكُهُ ٱلَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ مُشَاهَدَةَ هٰؤُلاَءِ لِمَا يَرَوْنَهُ هُوَ فِي سَطْحِ ٱلْمِرْآةِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلْ لاَ يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ ٱلْمِرْآةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ عَنِ ٱلْبَصَرِ وَيَبْدُوَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَطْحِ ٱلْمِرْآةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ يَتَمَثَّلُ فِيهِ صُوَرٌ هِيَ مَدَارِكُهُمْ فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَقْصُودِ لِمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ فَيُخْبِرُونَ بِذٰلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَدْرَكُوهُ وَأَمَّا ٱلْمِرْآةُ وَمَا يُدْرَكُ فِيهَا مِنَ ٱلصُّوَرِ فَلاَ يُدْرِكُونَهُ فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلآخَرُ مِنَ ٱلإِدْرَاكِ وَهُوَ نَفْسَانِيٌّ لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ ٱلْبَصَرِ بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ ٱلْمُدْرَكُ ٱلنَّفْسَانِيُّ لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمِثْلُ ذٰلِكَ مَا يَعْرِضُ لِلنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَلِلنَّاظِرِينَ فِي ٱلْمَاءِ وَٱلطِّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ هٰؤُلاَءِ مَنْ يُشْغِلُ ٱلْحِسَّ بِٱلْبَخُورِ فَقَطْ ثُمَّ بِٱلْعَزَائِمِ لِلاِسْتِعْدَادِ ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا أَدْرَكَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ ٱلصُّوَرَ مُتَشَخِّصَةً فِي ٱلْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِدْرَاكِهِ بِٱلْمِثَالِ وَٱلإِشَارَةِ وَغَيْبَةُ هٰؤُلاَءِ عَنِ ٱلْحِسِّ أَخَفُّ مِنَ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلْعَالَمُ أَبُو ٱلْغَرَائِبِ . وَأَمَّا ٱلزَّجْرُ وَهُوَ مَا يَحْدُثُ مِنْ بَعْضِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلتَّكَلُّمِ بِٱلْغَيْبِ عِنْدَ سُنُوحِ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ وَٱلْفِكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَغِيبِهِ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي ٱلنَّفْسِ تَبْعَثُ عَلَى ٱلْحَرْصِ وَٱلْفِكْرِ فِيمَا زُجِرَ فِيهِ مِنْ مَرْئِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ وَتَكُونُ قُوَّتُهُ ٱلْمُخَيِّلَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَوِيَّةً فَيَبْعَثُهَا فِي ٱلْبَحْثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَآهُ أَوْ سَمِعَهُ فَيُؤَدِّيهِ ذٰلِكَ إِلَى إِدْرَاكٍ مَا كَمَا تَفْعَلُهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْمُتَخَيِّلَةُ فِي ٱلنَّوْمِ وَعِنْدَ رُكُودِ ٱلْحَوَاسِّ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ ٱلْمَحْسُوسِ ٱلْمَرْئِيِّ فِي يَقْظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ مَعَ مَا عَقَلَتْهُ فَيَكُونُ عَنْهَا ٱلرُّؤْيَا . وَأَمَّا ٱلْمَجَانِينُ فَنُفُوسُهُمُ ٱلنَّاطِقَةُ ضَعِيفَةُ ٱلتَّعَلُّقِ بِٱلْبَدَنِ لِفَسَادِ أَمْزِجَتِهِمْ غَالِبًا وَضَعْفِ ٱلرُّوحِ ٱلْحَيَوَانِيِّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَغْرِقَةٍ فِي ٱلْحَوَاسِّ وَلاَ مُنْغَمِسَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ ٱلنَّقْصِ وَمَرَضِهِ وَرُبَّمَا زَاحَمَهَا عَلَى

التعلّق به روحانية أخرى شيطانية تتشبّث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبّط فإذا أصابه ذلك التخبّط إمّا لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلّقه غاب عن حسّه جملة فأدرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرّفها الخيال وربّما نطق عن لسانه في تلك الحال من غير إرادة النطق وإدراك هؤلاء كلّهم مشوب فيه الحقّ بالباطل لأنّه لا يحصل لهم الاتّصال وإن فقدوا الحسّ إلّا بعد الاستعانة بالتصوّرات الأجنبية كما قرّرناه ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك وأمّا العرّافون فهم المتعلّقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتّصال فيسلّطون الفكر على الأمر الذي يتوجّهون إليه ويأخذون فيه بالظنّ والتخمين بناء على ما يتوهّمونه من مبادئ ذلك الاتّصال والإدراك ويدّعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة هذا تحصيل هذه الأمور وقد تكلّم عليها المسعودي في مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابة ويظهر من كلام الرجل أنّه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الإدراكات التي ذكرناها موجودة كلّها في نوع البشر فقد كان العرب يفزعون إلى الكهّان في تعرّف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرّفوهم بالحقّ فيها من إدراك غيبهم وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شقّ بن أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسّان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلّا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبراه به ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوّة المحمّدية في قريش ورؤيا الموبذان التي أوّلها سطيح لمّا بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوّة وخراب ملك فارس وهذه كلّها مشهورة وكذلك العرّافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال

فقلت لعرّاف اليمامة داوني ... فإنّك إن داويتني لطبيب

وقال الآخر

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه ... وعرّاف نجد إن هما شفياني

فقالا شفاك الله والله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

وعرّاف اليمامة هو رباح بن عجلة وعرّاف نجد الأبلق الأسدي. ومن هذه المدارك الغيبية ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوّف إليه بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد ولا يقع ذلك إلا في مبادىء النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم كأنه مجبول على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤوسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك. ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستشنع. وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوماً يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق وشؤون رأسه فيخرج من ذلك الدهن فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسأل عنه من عواقب الأمور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الإنساني ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتاً صناعياً بإماتة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع أنه إذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على المغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً خصوصاً بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والأخبار عنهم في ذلك غريبة. وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية عن هذه المقاصد المذمومة وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول

الأمر لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وإنما هي القصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفقة فإنها في الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا لشيء سواه وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به وإنما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفاً وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحق الإسفرايني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن فيكم محدثين وإن منهم عمر وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه يا سارية الجبل وهو سارية بن زنيم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك وهم بالانهزام وكان بقربه جبل يتحيز إليه فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته ثم نبهها على جذاذه لتحوزه عن الورثة فقال في سياق كلامه وإنما هما أخواك وأختاك فقالت إنما هي أسماء فمن الأخرى فقال إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية فكانت جارية وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل في زمن النبوة إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى إنهم يقولون إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق

ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من

أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكاليف عنهم والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وإنما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر في قبول التكاليف لإصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش ولا استحالة في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكاليف وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهائم ولك في تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهاليل لا تجد لهم وجهة أصلاً ومنها أنهم يخلقون على البله من أول نشأتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام إليه والله المرشد للصواب

وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس فمنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك في محله

إِنْ شَاءَ ٱللهُ وَهُوَ لَوْ ثَبَتَ فَغَايَتُهُ حَدْسٌ وَتَخْمِينٌ وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ ٠ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ ٱلْعَامَّةِ ٱسْتَنْبَطُوا لِٱسْتِخْرَاجِ ٱلْغَيْبِ وَتَعَرُّفِ ٱلْكَائِنَاتِ صِنَاعَةً سَمَّوْهَا خَطَّ ٱلرَّمْلِ نِسْبَةً إِلَى ٱلْمَادَّةِ ٱلَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا عَمَلَهُمْ وَمَحْصُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّهُمْ صَيَّرُوا مِنَ ٱلنُّقَطِ أَشْكَالاً ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبَ تَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي ٱلزَّوْجِيَّةِ وَٱلْفَرْدِيَّةِ وَٱسْتِوَائِهَا فِيهِمَا فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلاً لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ أَزْوَاجًا كُلَّهَا أَوْ أَفْرَادًا كُلَّهَا فَشَكْلَانِ وَإِنْ كَانَ ٱلْفَرْدُ فِيهِمَا فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ وَإِنْ كَانَ ٱلْفَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فَسِتَّةُ أَشْكَالٍ وَإِنْ كَانَ فِي ثَلَاثِ مَرَاتِبَ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلاً مَيَّزُوهَا كُلَّهَا بِأَسْمَائِهَا وَأَنْوَاعِهَا إِلَى سُعُودٍ وَنُحُوسٍ شَأْنَ ٱلْكَوَاكِبِ وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتًا طَبِيعِيَّةً بِزَعْمِهِمْ وَكَأَنَّهَا ٱلْبُرُوجُ ٱلِٱثْنَا عَشَرَ ٱلَّتِي لِلْفَلَكِ وَٱلْأَوْتَادُ ٱلْأَرْبَعَةُ وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكْلٍ مِنْهَا بَيْتًا وَخُطُوطًا وَدَلَالَةً عَلَى صِنْفٍ مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ ٱلْعَنَاصِرِ يَخْتَصُّ بِهِ وَٱسْتَنْبَطُوا مِنْ ذٰلِكَ فَنًّا حَاذَوْا بِهِ فَنَّ ٱلنِّجَامَةِ وَنَوْعَ قَضَائِهِ إِلَّا أَنَّ أَحْكَامَ ٱلنِّجَامَةِ مُسْتَنِدَةٌ إِلَى أَوْضَاعٍ طَبِيعِيَّةٍ كَمَا يَزْعُمُ بَطْلِيمُوسُ وَهٰذِهِ إِنَّمَا مُسْتَنَدُهَا أَوْضَاعٌ تَحْكِيمِيَّةٌ وَأَهْوَاءٌ ٱتِّفَاقِيَّةٌ وَلَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَصْلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنُّبُوَّاتِ ٱلْقَدِيمَةِ فِي ٱلْعَالَمِ وَرُبَّمَا نَسَبُوهَا إِلَى دَانْيَالَ أَوْ إِلَى إِدْرِيسَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِمَا شَأْنَ ٱلصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَرُبَّمَا يَدَّعُونَ مَشْرُوعِيَّتَهَا وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَبِيٌّ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ وَلَيْسَ فِي ٱلْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ خَطِّ ٱلرَّمْلِ كَمَا يَزْعُمُهُ بَعْضُ مَنْ لَا تَحْصِيلَ لَدَيْهِ لِأَنَّ مَعْنَى ٱلْحَدِيثِ كَانَ نَبِيٌّ يَخُطُّ فَيَأْتِيهِ ٱلْوَحْيُ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْخَطِّ وَلَا ٱسْتِحَالَةَ فِي أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ عَادَةً لِبَعْضِ ٱلْأَنْبِيَاءِ فَمَنْ وَافَقَ خَطُّهُ ذٰلِكَ ٱلنَّبِيَّ فَهُوَ ذَاكَ أَيْ فَهُوَ صَحِيحٌ مِنْ بَيْنِ ٱلْخَطِّ بِمَا عَضَدَهُ مِنَ ٱلْوَحْيِ لِذٰلِكَ ٱلنَّبِيِّ ٱلَّذِي كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَأْتِيَهُ ٱلْوَحْيُ عِنْدَ ٱلْخَطِّ وَأَمَّا إِذَا أَخَذَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْخَطِّ مُجَرَّدًا مِنْ غَيْرِ مُوَافَقَةِ وَحْيٍ فَلَا وَهٰذَا مَعْنَى ٱلْحَدِيثِ وَٱللهُ أَعْلَمُ ٠ فَإِذَا أَرَادُوا ٱسْتِخْرَاجَ مُغَيَّبٍ بِزَعْمِهِمْ عَمَدُوا إِلَى قِرْطَاسٍ أَوْ رَمْلٍ أَوْ دَقِيقٍ فَوَضَعُوا ٱلنُّقَطَ سُطُورًا عَلَى عَدَدِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْأَرْبَعِ ثُمَّ كَرَّرُوا ذٰلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَتَجِيءُ سِتَّةَ عَشَرَ سَطْرًا ثُمَّ يَطْرَحُونَ ٱلنُّقَطَ أَزْوَاجًا وَيَضَعُونَ مَا بَقِيَ مِنْ كُلِّ سَطْرٍ زَوْجًا كَانَ أَوْ فَرْدًا فِي مَرْتَبَتِهِ عَلَى ٱلتَّرْتِيبِ فَتَجِيءُ أَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ يَضَعُونَهَا فِي سَطْرٍ مُتَتَالِيَةً ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنْهَا

أَرْبَعَةَ أَشْكَالٍ أُخْرَى مِنْ جَانِبِ ٱلْعَرْضِ بِٱعْتِبَارِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَمَا قَابَلَهَا مِنَ ٱلشَّكْلِ ٱلَّذِي بِإِزَائِهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةً فِي سَطْرٍ ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلاً تَحْتَهُمَا بِٱعْتِبَارِ مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ ٱلشَّكْلَيْنِ أَيْضاً مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةً أُخْرَى تَحْتَهَا ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنَ ٱلْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذَلِكَ تَحْتَهَا مِنَ ٱلشَّكْلَيْنِ شَكْلاً كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا ثُمَّ مِنْ هٰذَا ٱلشَّكْلِ ٱلْخَامِسَ عَشَرَ مَعَ ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ شَكْلاً يَكُونُ آخِرَ ٱلسِّتَّةَ عَشَرَ ثُمَّ يَحْكُمُونَ عَلَى ٱلْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا ٱقْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ مِنَ ٱلسُّعُودَةِ وَٱلنُّحُوسَةِ بِٱلذَّاتِ وَٱلنَّظَرِ وَٱلْحُلُولِ وَٱلِٱمْتِزَاجِ وَٱلدَّلَالَةِ عَلَى أَصْنَافِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذَلِكَ تَحَكُّماً غَرِيباً وَكَثُرَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَوُضِعَتْ فِيهَا ٱلتَّآلِيفُ وَٱشْتَهَرَ فِيهَا ٱلْأَعْلَامُ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ تَحَكُّمٌ وَهَوًى وَٱلتَّحْقِيقُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نُصْبَ فِكْرِكَ أَنَّ ٱلْغُيُوبَ لَا تُدْرَكُ بِصِنَاعَةٍ ٱلْبَتَّةَ وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعَرُّفِهَا إِلَّا لِلْخَوَاصِّ مِنَ ٱلْبَشَرِ ٱلْمَفْطُورِينَ عَلَى ٱلرُّجُوعِ مِنْ عَالَمِ ٱلْحِسِّ إِلَى عَالَمِ ٱلرُّوحِ وَلِذَلِكَ يُسَمِّي ٱلْمُنَجِّمُونَ هٰذَا ٱلصِّنْفَ كُلَّهُمْ بِٱلزُّهَرِيِّينَ نِسْبَةً إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ دَلَالَةُ ٱلزُّهَرَةِ بِزَعْمِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ عَلَى إِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِ فَٱلْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هٰذِهِ إِنْ كَانَ ٱلنَّاظِرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْخَاصِّيَّةِ وَقَصَدَ بِهٰذِهِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا مِنَ ٱلنُّقَطِ أَوِ ٱلْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ ٱلْحِسِّ لِتَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ إِلَى عَالَمِ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ لَحْظَةً مَا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلطَّرْقِ بِٱلْحَصَى وَٱلنَّظَرِ فِي قُلُوبِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْمَرَايَا ٱلشَّفَّافَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا قَصَدَ مَعْرِفَةَ ٱلْغَيْبِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَأَنَّهَا تُفِيدُهُ ذَلِكَ فَهَذَرٌ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَٱلْعَمَلِ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ٠ وَٱلْعَلَامَةُ لِهٰذِهِ ٱلْفِطْرَةِ ٱلَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هٰذَا ٱلْإِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى تَعَرُّفِ ٱلْكَائِنَاتِ يَعْتَرِيهِمْ خُرُوجٌ عَنْ حَالَتِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ كَٱلتَّثَاؤُبِ وَٱلتَّمَطُّطِ وَمَبَادِئِ ٱلْغَيْبَةِ عَنِ ٱلْحِسِّ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ وُجُودِهَا فِيهِمْ فَمَنْ لَمْ تُوجَدْ لَهُ هٰذِهِ ٱلْعَلَامَةُ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فِي تَنْفِيقِ كَذِبِهِ

وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ يَضَعُونَ قَوَانِينَ لِٱسْتِخْرَاجِ ٱلْغَيْبِ لَيْسَتْ مِنَ ٱلطَّوْرِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ مَدَارِكِ ٱلنَّفْسِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ ٱلْحَدْسِ ٱلْمَبْنِيِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ ٱلنُّجُومِ كَمَا

زَعْمَةُ بَطْلِيمُوسُ وَلاَ مِنَ الظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ الَّذِي يُحَاوِلُ عَلَيْهِ الْعَرَّافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَغَالِطُ يَجْعَلُونَهَا كَالْمَصَائِدِ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْمُسْتَضْعَفَةِ وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُونَ وَوَلِعَ بِهِ الْخَوَاصُّ فَمِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْحِسَابُ الَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ النِّيمِ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ السِّيَاسَةِ الْمَنْسُوبِ لِأَرِسْطُو يُعْرَفُ بِهِ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ فِي الْمُتَحَارِبِينَ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ أَنْ تُحْسَبَ الْحُرُوفُ الَّتِي فِي اسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ الْجُمَّلِ الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أَبْجَدَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْأَلْفِ آحَادًا وَعَشَرَاتٍ وَمِئِينَ وَأُلُوفًا فَإِذَا حَسَبْتَ الِاسْمَ وَتَحَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَاحْسِبِ اسْمَ الْآخَرِ كَذَلِكَ ثُمَّ اطْرَحْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً تِسْعَةً وَاحْفَظْ بَقِيَّةَ هَذَا وَبَقِيَّةَ هَذَا ثُمَّ انْظُرْ بَيْنَ الْعَدَدَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ مِنْ حِسَابِ الِاسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ الْعَدَدَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الْكَمِّيَّةِ وَكَانَا مَعًا زَوْجَيْنِ أَوْ فَرْدَيْنِ مَعًا فَصَاحِبُ الْأَقَلِّ مِنْهُمَا هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجًا وَالْآخَرُ فَرْدًا فَصَاحِبُ الْأَكْثَرِ هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي الْكَمِّيَّةِ وَهُمَا مَعًا زَوْجَانِ فَالْمَطْلُوبُ هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانَا مَعًا فَرْدَيْنِ فَالطَّالِبُ هُوَ الْغَالِبُ وَيُقَالُ هُنَالِكَ بَيْتَانِ فِي هَذَا الْعَمَلِ اشْتَهَرَا بَيْنَ النَّاسِ وَهُمَا

أَرَى الزَّوْجَ وَالْأَفْرَادَ يَسْمُو أَقَلُّهَا ... وَأَكْثَرُهَا عِنْدَ التَّخَالُفِ غَالِبُ

وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِي ... وَعِنْدَ اسْتِوَاءِ الْفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبُ

ثُمَّ وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ طَرْحِهَا بِتِسْعَةٍ قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِي طَرْحِ تِسْعَةٍ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْحُرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ وَهِيَ (ا) الدَّالَّةُ عَلَى الْوَاحِدِ و (ي) الدَّالَّةُ عَلَى الْعَشَرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشَرَاتِ و (ق) الدَّالَّةُ عَلَى الْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْمِئِينَ و (ش) الدَّالَّةُ عَلَى الْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْآلَافِ وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَلْفِ عَدَدٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالْحُرُوفِ لِأَنَّ الشِّينَ هِيَ آخِرُ حُرُوفِ أَبْجَدْ ثُمَّ رَتَّبُوا هَذِهِ الْأَحْرُفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (ايقش) ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ الْآلَافِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أَبْجَدْ فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ الِاثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ (ب) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْآحَادِ و (ك) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْعَشَرَاتِ وَهِيَ عِشْرُونَ و (ر) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمِئِينَ

وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك إلى آخر حروف أبجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي ايقش بكر جلس دمت هنث وصخ زعد حنظ طضغ مرتبة على توالي الأعداد ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته فالواحد لكلمة ايقش والاثنان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة جلس وكذلك إلى التاسعة التي هي طضغ فتكون لها التسعة فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلاً من حروف الاسم فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها وإلا أخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه والسر في هذا بين وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد بطرح تسعة إنما هو واحد فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلاثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الأعداد على التوالي دالة على أعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف(1) وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء وهي هذه ارب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خع ثضظ تسع كلمات على توالي العدد ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته فيها الثلاثي والرباعي والثنائي وليست جارية على أصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيمياء وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس بن البناء ويقولون عنه أن العمل بهذه

(1) قوله والالوف فيه نظر لان الحروف ليس فيها ما يزيد عن الالف كما سبق في كلامه

ٱلْكَلِمَاتِ فِي طَرْحِ حِسَابِ ٱلنِّيمِ أَبَحُّ مِنَ ٱلْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ ايقش وَٱللَّهُ يَعْلَمُ كَيْفَ ذَٰلِكَ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَدَارِكُ لِلْغَيْبِ غَيْرُ مَعْزُوٍّ إِلَى أَرِسْطُو عِنْدَ ٱلْمُحَقِّقِينَ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْآرَاءِ ٱلْبَعِيدَةِ عَنِ ٱلتَّحْقِيقِ وَٱلْبُرْهَانُ يَشْهَدُ لَكَ بِذَٰلِكَ تَصَفَّحْهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلرُّسُوخِ اهـ • وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ لِٱسْتِخْرَاجِ ٱلْغُيُوبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ ٱلزَّايِرْجَةُ ٱلْمُسَمَّاةُ بِزَايِرْجَةِ ٱلْعَالَمِ ٱلْمَعْزُوَّةِ إِلَى أَبِي ٱلْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ ٱلسَّبْتِيِّ مِنْ أَعْلَامِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ بِٱلْمَغْرِبِ كَانَ فِي آخِرِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّادِسَةِ بِمَرَّاكُشَ وَلِعَهْدِ أَبِي يَعْقُوبَ ٱلْمَنْصُورِ مِنْ مُلُوكِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَهِيَ غَرِيبَةُ ٱلْعَمَلِ صِنَاعَةً وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ يُولَعُونَ بِإِفَادَةِ ٱلْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا ٱلْمَعْرُوفِ ٱلْمَلْغُوزِ فَيُحَرِّضُونَ بِذَٰلِكَ عَلَى حَلِّ رَمْزِهِ وَكَشْفِ غَامِضِهِ وَصُورَتُهَا ٱلَّتِي يَقَعُ ٱلْعَمَلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرُ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاكِ وَٱلْعَنَاصِرِ وَٱلْمُكَوَّنَاتِ وَٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِ ٱلْكَائِنَاتِ وَٱلْعُلُومِ وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِأَقْسَامِ فَلَكِهَا إِمَّا ٱلْبُرُوجُ وَإِمَّا ٱلْعَنَاصِرُ أَوْ غَيْرُهُمَا وَخُطُوطُ كُلِّ قِسْمٍ مَارَّةٌ إِلَى ٱلْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا ٱلْأَوْتَارَ وَعَلَى كُلِّ وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَتَابِعَةٌ مَوْضُوعَةٌ فَمِنْهَا بِرُشُومِ (١) ٱلزِّمَامِ ٱلَّتِي هِيَ أَشْكَالُ ٱلْأَعْدَادِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلدَّوَاوِينِ وَٱلْحُسَّابِ بِٱلْمَغْرِبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَمِنْهَا بِرُشُومِ ٱلْغُبَارِ ٱلْمُتَعَارَفَةِ فِي دَاخِلِ ٱلزَّايِرْجَةِ وَبَيْنَ ٱلدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ ٱلْعُلُومِ وَمَوَاضِعُ ٱلْأَكْوَانِ وَعَلَى ظَاهِرِ ٱلدَّوَائِرِ جَدْوَلٌ مُتَكَثِّرُ ٱلْبُيُوتِ ٱلْمُتَقَاطِعَةِ طُولًا وَعَرْضًا يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةٍ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي ٱلْعَرْضِ وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي ٱلطُّولِ جَوَانِبُ مِنْهُ مَعْمُورَةُ ٱلْبُيُوتِ تَارَةً بِٱلْعَدَدِ وَأُخْرَى بِٱلْحُرُوفِ وَجَوَانِبُ خَالِيَةُ ٱلْبُيُوتِ وَلَا تُعْلَمُ نِسْبَةُ تِلْكَ ٱلْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا ٱلْقِسْمَةُ ٱلَّتِي عَيَّنَتِ ٱلْبُيُوتَ ٱلْعَامِرَةَ مِنَ ٱلْخَالِيَةِ وَحَافَاتُ ٱلزَّايِرْجَةِ أَبْيَاتٌ مِنْ عَرُوضِ ٱلطَّوِيلِ عَلَى رَوِيِّ ٱللَّامِ ٱلْمَنْصُوبَةِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ ٱلزَّايِرْجَةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ ٱلْأَلْغَازِ فِي عَدَمِ ٱلْوُضُوحِ وَٱلْجَلَاءِ وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ ٱلزَّايِرْجَةِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكَابِرِ أَهْلِ ٱلْحَدَثَانِ بِٱلْمَغْرِبِ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وُهَيْبٍ مِنْ عُلَمَاءِ إِشْبِيلِيَةَ كَانَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱللَّمْتُونِيَّةِ وَنَصُّ ٱلْبَيْتِ

سُؤَالٌ عَظِيمُ ٱلْخَلْقِ حُزْتَ فَصُنْ إِذَنْ غَرَائِبَ شَكٍّ ضَبْطُهُ ٱلْجِدُّ مَثَّلَا

وَهُوَ ٱلْبَيْتُ ٱلْمُتَدَاوَلُ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعَمَلِ لِٱسْتِخْرَاجِ ٱلْجَوَابِ مِنَ ٱلسُّؤَالِ فِي هٰذِهِ ٱلزَّايِرْجَةِ

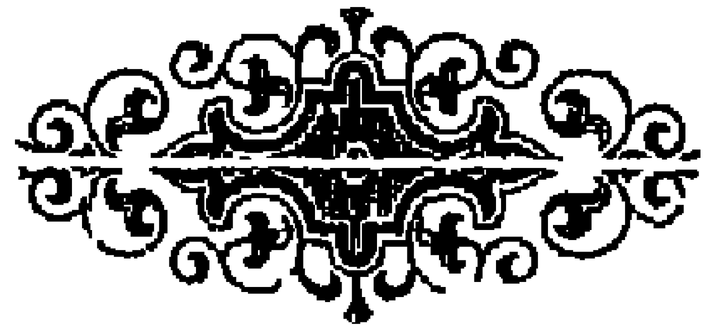
---

(١) قوله برشوم اي موضوعة بضم راء جمع رشم بالشين المعجمة اهـ

وَغَيْرِهَا فَإِذَا أَرَادُوا ٱسْتِخْرَاجَ ٱلْجَوَابِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنَ ٱلْمَسَائِلِ كَتَبُوا ذٰلِكَ ٱلسُّؤَالَ وَقَطَّعُوهُ حُرُوفًا ثُمَّ أَخَذُوا ٱلطَّالِعَ لِذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ مِنْ بُرُوجِ ٱلْفَلَكِ وَدَرَجِهَا وَعَمَدُوا إِلَى ٱلزَّايِرْجَةِ ثُمَّ إِلَى ٱلْوَتَرِ ٱلْمُكْتَنَفِ فِيهَا بِٱلْبُرْجِ ٱلطَّالِعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَارًّا إِلَى ٱلْمَرْكَزِ ثُمَّ إِلَى مُحِيطِ ٱلدَّائِرَةِ قُبَالَةَ ٱلطَّالِعِ فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَٱلْأَعْدَادَ ٱلْمَرْسُومَةَ بَيْنَهُمَا وَيُصَيِّرُونَهَا حُرُوفًا بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ وَقَدْ يَنْقُلُونَ آحَادَهَا إِلَى ٱلْعَشَرَاتِ وَعَشَرَاتِهَا إِلَى ٱلْمِئِينَ وَبِٱلْعَكْسِ فِيهِمَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ ٱلْعَمَلِ عِنْدَهُمْ وَيَضَعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ ٱلسُّؤَالِ وَيُضِيفُونَ إِلَى ذٰلِكَ جَمِيعَ مَا عَلَى ٱلْوَتَرِ ٱلْمُكْتَنَفِ بِٱلْبُرْجِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلطَّالِعِ مِنَ ٱلْحُرُوفِ وَٱلْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى ٱلْمَرْكَزِ فَقَطْ لَا يَتَجَاوَزُونَهُ إِلَى ٱلْمُحِيطِ وَيَفْعَلُونَ بِٱلْأَعْدَادِ مَا فَعَلُوهُ بِٱلْأَوَّلِ وَيُضِيفُونَهَا إِلَى ٱلْحُرُوفِ ٱلْأُخْرَى ثُمَّ يُقَطِّعُونَ حُرُوفَ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عِنْدَهُمْ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ بْنِ وُهَيْبٍ ٱلْمُتَقَدِّمُ وَيَضَعُونَهَا نَاحِيَةً ثُمَّ يَضْرِبُونَ عَدَدَ دَرَجِ ٱلطَّالِعِ فِي أُسِّ ٱلْبُرْجِ وَأُسُّهُ عِنْدَهُمْ هُوَ بُعْدُ ٱلْبُرْجِ عَنْ آخِرِ ٱلْمَرَاتِبِ عَكْسَ مَا عَلَيْهِ ٱلْأُسُّ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ فَإِنَّهُ عِنْدَهُمُ ٱلْبُعْدُ عَنْ أَوَّلِ ٱلْمَرَاتِبِ ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ فِي عَدَدٍ آخَرَ يُسَمُّونَهُ ٱلْأُسَّ ٱلْأَكْبَرَ وَٱلدَّوْرَ ٱلْأَصْلِيَّ وَيُدْخِلُونَ بِمَا تَجَمَّعَ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ فِي بُيُوتِ ٱلْجَدْوَلِ عَلَى قَوَانِينَ مَعْرُوفَةٍ وَأَعْمَالٍ مَذْكُورَةٍ وَأَدْوَارٍ مَعْدُودَةٍ وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حُرُوفًا وَيُسْقِطُونَ أُخْرَى وَيُقَابِلُونَ بِمَا مَعَهُمْ فِي حُرُوفِ ٱلْبَيْتِ وَيَنْقُلُونَ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَ إِلَى حُرُوفِ ٱلسُّؤَالِ وَمَا مَعَهَا ثُمَّ يَطْرَحُونَ تِلْكَ ٱلْحُرُوفَ بِأَعْدَادٍ مَعْلُومَةٍ يُسَمُّونَهَا ٱلْأَدْوَارَ وَيُخْرِجُونَ فِي كُلِّ دَوْرٍ ٱلْحَرْفَ ٱلَّذِي يَنْتَهِي عِنْدَهُ ٱلدَّوْرُ وَيُعَاوِدُونَ ذٰلِكَ بِعَدَدِ ٱلْأَدْوَارِ ٱلْمُعَيَّنَةِ عِنْدَهُمْ لِذٰلِكَ فَيَخْرُجُ آخِرَهَا حُرُوفٌ مُتَقَطِّعَةٌ وَتُؤَلَّفُ عَلَى ٱلتَّوَالِي فَتَصِيرُ كَلِمَاتٍ مَنْظُومَةً فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ عَلَى وَزْنِ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يُقَابَلُ بِهِ ٱلْعَمَلُ وَرَوِيِّهِ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ ٱبْنِ وُهَيْبٍ ٱلْمُتَقَدِّمُ حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي فَصْلِ ٱلْعُلُومِ عِنْدَ كَيْفِيَّةِ ٱلْعَمَلِ بِهٰذِهِ ٱلزَّايِرْجَةِ وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْخَوَاصِّ يَتَهَافَتُونَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْغَيْبِ مِنْهَا بِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْجَوَابِ لِلسُّؤَالِ فِي تَوَافُقِ ٱلْخِطَابِ دَلِيلٌ عَلَى مُطَابَقَةِ ٱلْوَاقِعِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ ٱلْغَيْبَ لَا يُدْرَكُ بِأَمْرٍ صِنَاعِيٍّ ٱلْبَتَّةَ وَإِنَّمَا ٱلْمُطَابَقَةُ ٱلَّتِي فِيهَا بَيْنَ ٱلْجَوَابِ وَٱلسُّؤَالِ مِنْ حَيْثُ ٱلْإِفْهَامُ وَٱلتَّوَافُقُ فِي ٱلْخِطَابِ حَتَّى يَكُونَ

ٱلْجَوَابُ مُسْتَقِيماً أَوْ مُوَافِقاً لِلسُّؤَالِ وَوُقُوعُ ذٰلِكَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي تَكْسِيرِ ٱلْحُرُوفِ ٱلْمُجْتَمِعَةِ مِنَ ٱلسُّؤَالِ وَٱلْأَوْتَارِ وَٱلدُّخُولُ فِي ٱلْجَدْوَلِ بِٱلْأَعْدَادِ ٱلْمُجْتَمِعَةِ مِنْ ضَرْبِ ٱلْأَعْدَادِ ٱلْمَفْرُوضَةِ وَٱسْتِخْرَاجُ ٱلْحُرُوفِ مِنَ ٱلْجَدْوَلِ بِذٰلِكَ وَطَرْحُ أُخْرَى وَمُعَاوَدَةُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَدْوَارِ ٱلْمَعْدُودَةِ وَمُقَابَلَةُ ذٰلِكَ كُلِّهِ بِحُرُوفِ ٱلْبَيْتِ عَلَى ٱلتَّوَالِي غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ وَقَدْ يَقَعُ ٱلِاطِّلَاعُ مِنْ بَعْضِ ٱلْأَذْكِيَاءِ عَلَى تَنَاسُبٍ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ مَعْرِفَةُ ٱلْمَجْهُولِ فَٱلتَّنَاسُبُ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ هُوَ سَبَبُ ٱلْحُصُولِ عَلَى ٱلْمَجْهُولِ مِنَ ٱلْمَعْلُومِ ٱلْحَاصِلِ لِلنَّفْسِ وَطَرِيقٌ لِحُصُولِهِ سِيَّمَا مِنْ أَهْلِ ٱلرِّيَاضَةِ فَإِنَّهَا تُفِيدُ ٱلْعَقْلَ قُوَّةً عَلَى ٱلْقِيَاسِ وَزِيَادَةً فِي ٱلْفِكْرِ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ ذٰلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَمِنْ أَجْلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى يَنْسِبُونَ هٰذِهِ ٱلزَّايِرْجَةَ فِي ٱلْغَالِبِ لِأَهْلِ ٱلرِّيَاضَةِ فَهِيَ مَنْسُوبَةٌ لِلسَّبْتِيِّ وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى أُخْرَى مَنْسُوبَةٍ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ وَلَعَمْرِي إِنَّهَا مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْغَرِيبَةِ وَٱلْمُعَانَاةِ ٱلْعَجِيبَةِ وَٱلْجَوَابُ ٱلَّذِي يَخْرُجُ مِنْهَا فَٱلسِّرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُوماً يَظْهَرُ لِي إِنَّمَا هُوَ ٱلْمُقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذٰلِكَ ٱلْبَيْتِ وَلِهٰذَا يَكُونُ ٱلنَّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيِّهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّا وَجَدْنَا أَعْمَالاً أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ أَسْقَطُوا فِيهَا ٱلْمُقَابَلَةَ بِٱلْبَيْتِ فَلَمْ يَخْرُجِ ٱلْجَوَابُ مَنْظُوماً كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ذٰلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ تَضِيقُ مَدَارِكُهُمْ عَنِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهٰذَا ٱلْعَمَلِ وَنُفُوذِهِ إِلَى ٱلْمَطْلُوبِ فَيُنْكِرُ صِحَّتَهَا وَيَحْسَبُ أَنَّهَا مِنَ ٱلتَّخَيُّلَاتِ وَٱلْإِيهَامَاتِ وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْعَمَلِ بِهَا يُثْبِتُ حُرُوفَ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يَنْظِمُهُ كَمَا يُرِيدُ بَيْنَ أَثْنَاءِ حُرُوفِ ٱلسُّؤَالِ وَٱلْأَوْتَارِ وَيَفْعَلُ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونٍ ثُمَّ يَجِيءُ بِٱلْبَيْتِ وَيُوهِمُ أَنَّ ٱلْعَمَلَ جَاءَ عَلَى طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ وَهٰذَا ٱلْحُسْبَانُ تَوَهُّمٌ فَاسِدٌ حَمَلَ عَلَيْهِ ٱلْقُصُورُ عَنْ فَهْمِ ٱلتَّنَاسُبِ بَيْنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱلْمَعْدُومَاتِ وَٱلتَّفَاوُتُ بَيْنَ ٱلْمَدَارِكِ وَٱلْعُقُولِ وَلٰكِنْ مِنْ شَأْنِ كُلِّ مُدْرِكٍ إِنْكَارُ مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِدْرَاكُهُ وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذٰلِكَ مُشَاهَدَةُ ٱلْعَمَلِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْحَدْسُ ٱلْقَطْعِيُّ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَّرِدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مِرْيَةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ يُبَاشِرُ ذٰلِكَ مِمَّنْ لَهُ ذَكَاءٌ وَحَدْسٌ وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُعَايَاةِ فِي ٱلْعَدَدِ ٱلَّذِي هُوَ أَوْضَحُ ٱلْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى ٱلْفَهْمِ إِدْرَاكُهُ لِبُعْدِ ٱلنِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَائِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِمِثْلِ هٰذَا مَعَ خَفَاءِ ٱلنِّسْبَةِ فِيهِ وَغَرَابَتِهَا فَلْنَذْكُرْ مَسْئَلَةً مِنَ ٱلْمُعَايَاةِ يَتَّضِحُ لَكَ بِهَا شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْنَا مِثَالُهُ لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَداً مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ وَٱجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنَ

الفلوس ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائرا ثم اشتر بالدراهم كلها طيورا بسعر ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة بالدراهم فجوابه أن تقول هي تسعة لأنك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة ثمنها وأن عدة أثمان الواحد ثمانية فإذا جمعت الثمن من الدراهم إلى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائرا آخر وهو المشترى بالفلوس المأخوذة أولا وعلى سعره اشتريت بالدراهم فتكون تسعة فأنت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسر التناسب الذي بين أعداد المسئلة والوهم أول ما يلقي إليك هذه وأمثالها إنما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب بين الأمور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا إنما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته وإذا تبين لك ذلك فالأعمال الواقعة في الزايرجة كلها إنما هي في استخراج الجواب من ألفاظ السؤال لأنها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك إنما هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع ألفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو إثبات وليس هذا من المقام الأول بل إنما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل إلى معرفة ذلك من هذه الأعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله يعلم وأنتم لا تعلمون



الفصل الثاني

في العمران البدويّ والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الاول

في ان احيال البدو والحضر طبيعية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱخْتِلَافَ ٱلْأَجْيَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِٱخْتِلَافِ نِحْلَتِهِمْ مِنَ ٱلْمَعَاشِ فَإِنَّ ٱجْتِمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوُنِ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَٱلِٱبْتِدَاءِ بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنْهُ وَنَشِيطٌ قَبْلَ ٱلْحَاجِيِّ وَٱلْكَمَالِيِّ فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ ٱلْفَلْحَ مِنَ ٱلْغِرَاسَةِ وَٱلزِّرَاعَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ ٱلْقِيَامَ عَلَى ٱلْحَيَوَانِ مِنَ ٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ وَٱلْمَعَزِ وَٱلنَّحْلِ وَٱلدُّودِ لِنِتَاجِهَا وَٱسْتِخْرَاجِ فَضَلَاتِهَا وَهٰؤُلَاءِ ٱلْقَائِمُونَ عَلَى ٱلْفَلْحِ وَٱلْحَيَوَانِ تَدْعُوهُمُ ٱلضَّرُورَةُ وَلَا بُدَّ إِلَى ٱلْبَدْوِ لِأَنَّهُ مُتَّسِعٌ لِمَا لَا يَتَّسِعُ لَهُ ٱلْحَوَاضِرُ مِنَ ٱلْمَزَارِعِ وَٱلْفُدُنِ وَٱلْمَسَارِحِ لِلْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَكَانَ ٱخْتِصَاصُ هٰؤُلَاءِ بِٱلْبَدْوِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لَهُمْ وَكَانَ حِينَئِذٍ ٱجْتِمَاعُهُمْ وَتَعَاوُنُهُمْ فِي حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعُمْرَانِهِمْ مِنَ ٱلْقُوتِ وَٱلْكِنِّ وَٱلدِّفْءِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْمِقْدَارِ ٱلَّذِي يَحْفَظُ ٱلْحَيَاةَ وَيُحَصِّلُ بُلْغَةَ ٱلْعَيْشِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ لِلْعَجْزِ عَمَّا وَرَاءَ ذٰلِكَ ثُمَّ إِذَا ٱتَّسَعَتْ أَحْوَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِلْمَعَاشِ وَحَصَلَ لَهُمْ مَا فَوْقَ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْغِنَى وَٱلرَّفَهِ دَعَاهُمْ ذٰلِكَ إِلَى ٱلسُّكُونِ وَٱلدَّعَةِ وَتَعَاوَنُوا فِي ٱلزَّائِدِ عَلَى ٱلضَّرُورَةِ وَٱسْتَكْثَرُوا مِنَ ٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلتَّأَنُّقِ فِيهَا وَتَوْسِعَةِ ٱلْبُيُوتِ وَٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ لِلتَّحَضُّرِ ثُمَّ تَزِيدُ أَحْوَالُ ٱلرَّفَهِ وَٱلدَّعَةِ فَتَجِيءُ عَوَائِدُ ٱلتَّرَفِ ٱلْبَالِغَةُ مَبَالِغَهَا فِي ٱلتَّأَنُّقِ فِي عِلَاجِ ٱلْقُوتِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلْمَطَابِخِ وَٱنْتِقَاءِ ٱلْمَلَابِسِ ٱلْفَاخِرَةِ فِي أَنْوَاعِهَا مِنَ ٱلْحَرِيرِ وَٱلدِّيبَاجِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَمُعَالَاةِ ٱلْبُيُوتِ وَٱلصُّرُوحِ وَإِحْكَامِ وَضْعِهَا فِي تَنْجِيدِهَا وَٱلِٱنْتِهَاءِ فِي ٱلصَّنَائِعِ فِي ٱلْخُرُوجِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ إِلَى غَايَتِهَا فَيَتَّخِذُونَ ٱلْقُصُورَ وَٱلْمَنَازِلَ وَيُجْرُونَ فِيهَا ٱلْمِيَاهَ وَيُعَالُونَ فِي صَرْحِهَا وَيُبَالِغُونَ فِي تَنْجِيدِهَا وَيَخْتَلِفُونَ فِي ٱسْتِجَادَةِ مَا يَتَّخِذُونَهُ لِمَعَاشِهِمْ مِنْ مَلْبُوسٍ أَوْ فِرَاشٍ أَوْ آنِيَةٍ أَوْ مَاعُونٍ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْحَضَرُ وَمَعْنَاهُ ٱلْحَاضِرُونَ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْبُلْدَانِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يَنْتَحِلُ فِي مَعَاشِهِ ٱلصَّنَائِعَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ ٱلتِّجَارَةَ

وَتَكُونُ مَكَاسِبُهُمْ أَنْمَى وَأَرْفَهَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَمَعَاشَهُمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَاهُ

الفصل الثاني

في ان جيل العرب في الخلقة طبيعيّ

قَدْ قَدَّمْنَا فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ هُمُ ٱلْمُنْتَحِلُونَ لِلْمَعَاشِ ٱلطَّبِيعِيِّ مِنَ ٱلْفَلْحِ وَٱلْقِيَامِ عَلَى ٱلْأَنْعَامِ وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ مِنَ ٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَسَاكِنِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْعَوَائِدِ وَمُقَصِّرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذٰلِكَ مِنْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ يَتَّخِذُونَ ٱلْبُيُوتَ مِنَ ٱلشَّعَرِ وَٱلْوَبَرِ أَوِ ٱلشَّجَرِ أَوْ مِنَ ٱلطِّينِ وَٱلْحِجَارَةِ غَيْرَ مُنَجَّدَةٍ إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ ٱلِٱسْتِظْلَالِ وَٱلْكِنِّ لَا مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى ٱلْغِيرَانِ وَٱلْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيرًا بِعِلَاجٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجٍ ٱلْبَتَّةَ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ ٱلنَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ فِي ٱلزِّرَاعَةِ وَٱلْقِيَامِ بِٱلْفَلْحِ كَانَ ٱلْمُقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ ٱلظَّعْنِ وَهٰؤُلَاءِ سُكَّانُ ٱلْمَدَرِ وَٱلْقُرَى وَٱلْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ ٱلْبَرْبَرِ وَٱلْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي ٱلسَّائِمَةِ مِثْلِ ٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ فَهُمْ ظُعَّنٌ فِي ٱلْأَغْلَبِ لِٱرْتِيَادِ ٱلْمَسَارِحِ وَٱلْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ فَٱلتَّقَلُّبُ فِي ٱلْأَرْضِ أَصْلَحُ بِهِمْ وَيُسَمَّوْنَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ ٱلْقَائِمُونَ عَلَى ٱلشَّاءِ وَٱلْبَقَرِ وَلَا يُبْعِدُونَ فِي ٱلْقَفْرِ لِفِقْدَانِ ٱلْمَسَارِحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ ٱلْبَرْبَرِ وَٱلتُّرْكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ ٱلتُّرْكُمَانِ وَٱلصَّقَالِبَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي ٱلْإِبِلِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظَعْنًا وَأَبْعَدُ فِي ٱلْقَفْرِ مَجَالًا لِأَنَّ مَسَارِحَ ٱلتُّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَغْنِي بِهَا ٱلْإِبِلُ فِي قِوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي ٱلشَّجَرِ بِٱلْقَفْرِ وَوُرُودِ مِيَاهِهِ ٱلْمِلْحَةِ وَٱلتَّقَلُّبِ فَصْلَ ٱلشِّتَاءِ فِي نَوَاحِيهِ فِرَارًا مِنْ أَذَى ٱلْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ هَوَائِهِ وَطَلَبًا لِمَاخِضِ ٱلنِّتَاجِ فِي رِمَالِهِ إِذِ ٱلْإِبِلُ أَصْعَبُ ٱلْحَيَوَانِ فِصَالًا وَمَخَاضًا وَأَحْوَجُهَا فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلدِّفْءِ فَٱضْطُرُّوا إِلَى إِبْعَادِ ٱلنُّجْعَةِ وَرُبَّمَا زَادَتْهُمُ ٱلْحَامِيَةُ عَنِ ٱلتُّلُولِ أَيْضًا فَأَوْغَلُوا فِي ٱلْقِفَارِ نَفْرَةً عَنِ ٱلضَّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذٰلِكَ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ تَوَحُّشًا وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ ٱلْوَحْشِ غَيْرِ ٱلْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَٱلْمُفْتَرِسِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْعُجْمِ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ ظُعُونُ ٱلْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَكْرَادِ وَٱلتُّرْكُمَانِ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ ٱلْعَرَبَ أَبْعَدُ نُجْعَةً وَأَشَدُّ بَدَاوَةً لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِٱلْقِيَامِ عَلَى

ٱلْإِبِلِ فَقَطْ وَهٰؤُلَاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى ٱلشِّيَاهِ وَٱلْبَقَرِ مَعًا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ ٱلْعَرَبِ طَبِيعِيٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث

في ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدد لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ ٱلْبَدْوَ هُمُ ٱلْمُقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمِ ٱلْعَاجِزُونَ عَمَّا فَوْقَهُ وَأَنَّ ٱلْحَضَرَ ٱلْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ ٱلضَّرُورِيَّ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْحَاجِيِّ وَٱلْكَمَالِيِّ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ ٱلضَّرُورِيَّ أَصْلٌ وَٱلْكَمَالِيَّ فَرْعٌ نَاشِئٌ عَنْهُ فَٱلْبَدْوُ أَصْلٌ لِلْمُدُنِ وَٱلْحَضَرِ وَسَابِقٌ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ مَطَالِبِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلضَّرُورِيُّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى ٱلْكَمَالِ وَٱلتَّرَفِ إِلَّا إِذَا كَانَ ٱلضَّرُورِيُّ حَاصِلًا فَخُشُونَةُ ٱلْبَدَاوَةِ قَبْلَ رِقَّةِ ٱلْحَضَارَةِ وَلِهٰذَا نَجِدُ ٱلتَّمَدُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يَجْرِي إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرَحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى ٱلرِّيَاشِ ٱلَّذِي يَحْصُلُ لَهُ بِهِ أَحْوَالُ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلَى ٱلدَّعَةِ وَأَمْكَنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ ٱلْمَدِينَةِ وَهٰكَذَا شَأْنُ ٱلْقَبَائِلِ ٱلْمُتَبَدِّيَةِ كُلِّهِمْ وَٱلْحَضَرِيُّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ ٱلْبَادِيَةِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَيْهَا أَوْ لِتَقْصِيرٍ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ ٱلْبَدْوَ أَصْلٌ لِلْحَضَرِ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ أَنَّا إِذَا فَتَّشْنَا أَهْلَ مِصْرٍ مِنَ ٱلْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوَّلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ ٱلَّذِينَ بِنَاحِيَةِ ذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ وَعَدَلُوا إِلَى ٱلدَّعَةِ وَٱلتَّرَفِ ٱلَّذِي فِي ٱلْحَضَرِ وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحْوَالَ ٱلْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ ٱلْبَدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلٌ لَهَا فَتَفَهَّمْهُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ مُتَفَاوِتُ ٱلْأَحْوَالِ مِنْ جِنْسِهِ فَرُبَّ حَيٍّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقَبِيلَةٍ أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِصْرٍ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٍ أَكْثَرُ عُمْرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُجُودَ ٱلْبَدْوِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ وَأَصْلٌ لَهَا بِمَا أَنَّ وُجُودَ ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلدَّعَةِ ٱلَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ ٱلضَّرُورَةِ ٱلْمَعَاشِيَّةِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وَسَبَبُهُ أَنَّ ٱلنَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ ٱلْخُلُقَيْنِ تَبْعُدُ عَنِ ٱلْآخَرِ وَيَصْعُبُ عَلَيْهَا ٱكْتِسَابُهُ فَصَاحِبُ ٱلْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ ٱلْخَيْرِ وَحَصَلَتْ لَهَا مَلَكَتُهُ بَعُدَ عَنِ ٱلشَّرِّ وَصَعُبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَكَذَا صَاحِبُ ٱلشَّرِّ إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضًا عَوَائِدُهُ وَأَهْلُ ٱلْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ فُنُونِ ٱلْمَلَاذِّ وَعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْإِقْبَالِ عَلَى ٱلدُّنْيَا وَٱلْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا وَقَدْ تَلَوَّثَتْ أَنْفُسُهُمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ ٱلْخُلُقِ وَٱلشَّرِّ وَبَعُدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ ٱلْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ ٱلْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ فَتَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهُمْ يَقْذَعُونَ فِي أَقْوَالِ ٱلْفَحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَبَيْنَ كُبَرَائِهِمْ وَأَهْلِ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَازِعُ ٱلْحِشْمَةِ لِمَا أَخَذَتْهُمْ بِهِ عَوَائِدُ ٱلسُّوءِ فِي ٱلتَّظَاهُرِ بِٱلْفَوَاحِشِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَأَهْلُ ٱلْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى ٱلدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱلْمِقْدَارِ ٱلضَّرُورِيِّ لَا فِي ٱلتَّرَفِ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱللَّذَّاتِ وَدَوَاعِيهَا فَعَوَائِدُهُمْ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا وَمَا يَحْصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلسُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ ٱلْخُلُقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْحَضَرِ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ سُوءِ ٱلْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ ٱلْعَوَائِدِ ٱلْمَذْمُومَةِ وَقُبْحِهَا فَيَسْهُلُ عِلَاجُهُمْ عَنْ عِلَاجِ ٱلْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَدْ يَتَوَضَّحُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ ٱلْحِضَارَةَ هِيَ نِهَايَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَخُرُوجِهِ إِلَى ٱلْفَسَادِ وَنِهَايَةُ ٱلشَّرِّ وَٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلْخَيْرِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَضَرِ وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى ذٰلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ ٱلْبُخَارِيِّ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بْنِ ٱلْأَكْوَعِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى ٱلْبَادِيَةِ فَقَالَ لَهُ ٱرْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ فَقَالَ لَا وَلٰكِنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِي فِي ٱلْبَدْوِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْهِجْرَةَ ٱفْتُرِضَتْ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ ٱلْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْرُسُونَهُ وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى ٱلْأَعْرَابِ

اهل البادية لأن أهل مكة يمسهم من عصبية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدأوا بها وهو من باب الرجوع على العقب في السعي إلى وجه من الوجوه وقيل أن ذلك كان خاصاً بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلة المسلمين وأما بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط إنشاؤها عمن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمن أسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة لأن الصحابة افترقوا من يومئذ في الآفاق وانتشروا ولم يبق إلا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك تعربت نعى عليه في ترك السكنى بالمدينة بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو قوله لا تردهم على أعقابهم وقوله تعربت إشارة إلى أنه صار من الأعراب الذين لا يهاجرون وأجاب سلمة بإنكار ما ألزمه من الأمرين وان النبي صلى الله عليه وسلم أذن له في البدو ويكون ذلك خاصاً به كشهادة خزيمة وعناق أبي بردة أو يكون الحجاج إنما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة وإجابة سلمة بأن اغتنامه لإذن النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأفضل فما آثره به واختصه إلا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلاً على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لأن مشروعية الهجرة إنما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمة البدو فليس في النعي على ترك هذا الواجب دليل على مذمة التعرب والله سبحانه أعلم وبه التوفيق

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ أَهْلَ ٱلْحَضَرِ أَلْقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مِهَادِ ٱلرَّاحَةِ وَٱلدَّعَةِ وَٱنْغَمَسُوا فِي ٱلنَّعِيمِ وَٱلتَّرَفِ وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي ٱلْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ وَٱلْحَاكِمِ ٱلَّذِي يَسُوسُهُمْ وَٱلْحَامِيَةِ ٱلَّتِي تَوَلَّتْ حِرَاسَتَهُمْ وَٱسْتَنَامُوا إِلَى ٱلْأَسْوَارِ ٱلَّتِي تَحُوطُهُمْ وَٱلْحِرْزِ ٱلَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَهِيجُهُمْ هَيْعَةٌ وَلَا يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ فَهُمْ غَارُّونَ آمِنُونَ قَدْ أَلْقَوُا ٱلسِّلَاحَ وَتَوَالَتْ عَلَى ذٰلِكَ مِنْهُمُ ٱلْأَجْيَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى أَبِي مَثْوَاهُمْ حَتَّى صَارَ ذٰلِكَ خُلُقًا يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلطَّبِيعَةِ وَأَهْلُ ٱلْبَدْوِ لِتَفَرُّدِهِمْ عَنِ ٱلْمُجْتَمَعِ وَتَوَحُّشِهِمْ فِي ٱلضَّوَاحِي وَبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلْحَامِيَةِ وَٱنْتِبَاذِهِمْ عَنِ ٱلْأَسْوَارِ وَٱلْأَبْوَابِ قَائِمُونَ بِٱلْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا يَكِلُونَهَا إِلَى سِوَاهُمْ وَلَا يَثِقُونَ فِيهَا بِغَيْرِهِمْ فَهُمْ دَائِمًا يَحْمِلُونَ ٱلسِّلَاحَ وَيَتَلَفَّتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي ٱلطُّرُقِ وَيَتَجَافَوْنَ عَنِ ٱلْهُجُوعِ إِلَّا غِرَارًا فِي ٱلْمَجَالِسِ وَعَلَى ٱلرِّحَالِ وَفَوْقَ ٱلْأَقْتَابِ وَيَتَوَجَّسُونَ لِلنَّبَآتِ وَٱلْهَيْعَاتِ وَيَتَفَرَّدُونَ فِي ٱلْقَفْرِ وَٱلْبَيْدَاءِ مُدِلِّينَ بِبَأْسِهِمْ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ صَارَ لَهُمُ ٱلْبَأْسُ خُلُقًا وَٱلشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوِ ٱسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ وَأَهْلُ ٱلْحَضَرِ مَهْمَا خَالَطُوهُمْ فِي ٱلْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي ٱلسَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهِمْ وَذٰلِكَ مُشَاهَدٌ بِٱلْعِيَانِ حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ ٱلنَّوَاحِي وَٱلْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ ٱلْمِيَاهِ وَمَشَارِعِ ٱلسُّبُلِ وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ وَأَصْلُهُ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱبْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ لَا ٱبْنُ طَبِيعَتِهِ وَمِزَاجِهِ فَٱلَّذِي أَلِفَهُ فِي ٱلْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقًا وَمَلَكَةً وَعَادَةً تَنَزَّلَ مَنْزِلَةَ ٱلطَّبِيعَةِ وَٱلْجِبِلَّةِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ تَجِدْهُ كَثِيرًا صَحِيحًا وَٱللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل السادس

في ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مَالِكَ أَمْرِ نَفْسِهِ إِذِ ٱلرُّؤَسَاءُ وَٱلْأُمَرَاءُ ٱلْمَالِكُونَ لِأَمْرِ ٱلنَّاسِ قَلِيلٌ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ فَمِنَ ٱلْغَالِبِ أَنْ يَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ فِي مَلَكَةِ غَيْرِهِ وَلَا بُدَّ فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَلَكَةُ رَفِيقَةً وَعَادِلَةً لَا يُعَانَى مِنْهَا حُكْمٌ وَلَا مَنْعٌ وَصَدٌّ كَانَ ٱلنَّاسُ مِنْ تَحْتِ

يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الإدلال جبلة لا يعرفون سواها وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعدا رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوبة سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفا من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في اتباعه إذني وكتب إلى عمر يستأذنه فكتب إليه عمر تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه وأمضى له عمر سلبه وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلا ببأسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأسا ممن تأخذه الأحكام ونجد أيضا الذين يعانون الأحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرا ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأيمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة فيهم هذه الأحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأسا لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلا يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم قال عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصا على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقينا بأن الشارع أعلم بمصالح العباد

وَلَمَّا تَنَاقَصَ ٱلدِّينُ فِي ٱلنَّاسِ وَأُخِذُوا بِٱلْأَحْكَامِ ٱلْوَازِعَةِ ثُمَّ صَارَ ٱلشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً يُؤْخَذُ بِٱلتَّعْلِيمِ وَٱلتَّأْدِيبِ وَرَجَعَ ٱلنَّاسُ إِلَى ٱلْحَضَارَةِ وَخُلُقِ ٱلِٱنْقِيَادِ إِلَى ٱلْأَحْكَامِ نَقَصَتْ بِذٰلِكَ سَوْرَةُ ٱلْبَأْسِ فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلْأَحْكَامَ ٱلسُّلْطَانِيَّةَ وَٱلتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلْبَأْسِ لِأَنَّ ٱلْوَازِعَ فِيهَا ذَاتِيٌّ وَلِهٰذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَحْكَامُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ وَٱلتَّعْلِيمِيَّةُ مِمَّا تُؤَثِّرُ فِي أَهْلِ ٱلْحَوَاضِرِ فِي ضَعْفِ نُفُوسِهِمْ وَخَضْدِ ٱلشَّوْكَةِ مِنْهُمْ بِمُعَانَاتِهِمْ فِي وَلِيدِهِمْ وَكُهُولِهِمْ وَٱلْبَدْوُ بِمَعْزِلٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ أَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلتَّعْلِيمِ وَٱلْآدَابِ وَلِهٰذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ ٱلْمُعَلِّمِينَ وَٱلْمُتَعَلِّمِينَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤَدِّبِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ ٱلصِّبْيَانِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ نَقَلَهُ عَنْ شُرَيْحٍ ٱلْقَاضِي وَٱحْتَجَّ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدْءِ ٱلْوَحْيِ مِنْ شَأْنِ ٱلْغَطِّ وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنُ ٱلْغَطِّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذٰلِكَ لِبُعْدِهِ عَنِ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْمُتَعَارَفِ وَٱللهُ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ

الفصل السابع

في ان سكنى البدو لا تكون الا للقبائل اهل العصبية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ ٱلْبَشَرِ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ وَقَالَ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا وَٱلشَّرُّ أَقْرَبُ ٱلْخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أُهْمِلَ فِي مَرْعَى عَوَائِدِهِ وَلَمْ يُهَذِّبْهُ ٱلِٱقْتِدَاءُ بِٱلدِّينِ وَعَلَى ذٰلِكَ ٱلْجَمُّ ٱلْغَفِيرُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ ٱللهُ وَمِنْ أَخْلَاقِ ٱلْبَشَرِ فِيهِمِ ٱلظُّلْمُ وَٱلْعُدْوَانُ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَمَنِ ٱمْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَتَاعِ أَخِيهِ فَقَدِ ٱمْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخْذِهِ إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَازِعٌ كَمَا قَالَ

وَٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

فَأَمَّا ٱلْمُدُنُ وَٱلْأَمْصَارُ فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ ٱلْحُكَّامُ وَٱلدَّوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ ٱلْكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَعْدُوَ عَلَيْهِ فَهُمْ مَكْبُوحُونَ بِحَكَمَةِ ٱلْقَهْرِ وَٱلسُّلْطَانِ عَنِ ٱلتَّظَالُمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ ٱلْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ وَأَمَّا ٱلْعُدْوَانُ ٱلَّذِي مِنْ خَارِجِ ٱلْمَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاجُ ٱلْأَسْوَارِ عِنْدَ ٱلْغَفْلَةِ أَوِ ٱلْغِرَّةِ لَيْلًا أَوِ ٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلْمُقَاوَمَةِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ ٱزْدِيَادُ ٱلْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ ٱلدَّوْلَةِ عِنْدَ ٱلِٱسْتِعْدَادِ وَٱلْمُقَاوَمَةِ وَأَمَّا أَحْيَاءُ ٱلْبَدْوِ فَيَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَائِخُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَقَرَ فِي

نُفُوسِ ٱلْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلتَّجِلَّةِ وَأَمَّا حِلَلُهُمْ فَإِنَّمَا يَذُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجٍ حَامِيَةُ ٱلْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفِتْيَانِهِمِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِٱلشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُقُ دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصَبِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُمْ بِذٰلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيُخْشَى جَانِبُهُمْ إِذْ نُعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهَمُّ وَمَا جَعَلَ ٱللّٰهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ ٱلشَّفَقَةِ وَٱلنُّعْرَةِ (١) عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةً فِي ٱلطَّبَائِعِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ ٱلتَّعَاضُدُ وَٱلتَّنَاصُرُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ ٱلْعَدُوِّ لَهُمْ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِيمَا حَكَاهُ ٱلْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَبِيهِ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ وَٱلْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُتَوَهَّمُ ٱلْعُدْوَانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ ٱلْعُصْبَةِ لَهُ وَأَمَّا ٱلْمُتَفَرِّدُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ ٱلْجَوُّ بِٱلشَّرِّ يَوْمَ ٱلْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَبْغِي ٱلنَّجَاةَ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَٱسْتِيحَاشًا مِنَ ٱلتَّخَاذُلِ فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ عَلَى سُكْنَى ٱلْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهِمُهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِي ٱلسُّكْنَى ٱلَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَٱلْحِمَايَةِ فَبِمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْمِلُ ٱلنَّاسَ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مُلْكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ بُلُوغُ ٱلْغَرَضِ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِٱلْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلِٱسْتِعْصَاءِ وَلَا بُدَّ فِي ٱلْقِتَالِ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا فَٱتَّخِذْهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ بَعْدُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن

في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وَذٰلِكَ أَنَّ صِلَةَ ٱلرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلْبَشَرِ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَمِنْ صِلَتِهَا ٱلنُّعْرَةُ عَلَى ذَوِي ٱلْقُرْبَى وَأَهْلِ ٱلْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ ٱلْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً مِنْ ظُلْمِ قَرِيبِهِ أَوِ ٱلْعِدَاءِ عَلَيْهِ وَيَوَدُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ ٱلْمَعَاطِبِ وَٱلْمَهَالِكِ نَزْعَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِي ٱلْبَشَرِ مُذْ كَانُوا فَإِذَا كَانَ ٱلنَّسَبُ ٱلْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ ٱلْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيبًا جِدًّا بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ ٱلِٱتِّحَادُ وَٱلِٱلْتِحَامُ كَانَتِ ٱلْوُصْلَةُ ظَاهِرَةً فَٱسْتَدْعَتْ ذٰلِكَ بِمُجَرَّدِهَا وَوُضُوحِهَا وَإِذَا بَعُدَ ٱلنَّسَبُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ فَرُبَّمَا تُنُوسِيَ بَعْضُهَا وَيَبْقَى مِنْهَا شُهْرَةٌ

(١) النعرة والنعار بالضم فيهما والنعير الصراخ والصياح في حرب او شر كما في القاموس

فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريبا منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام فإذا كان ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضعفت فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجانا ومن أعمال اللهو المنهي عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم

الفصل التاسع

في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من شجره ونتاجها في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم إلفا وعادة وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقا وجبلة فلا ينزع إليهم أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم ولا يأنس بهم أحد من الأجيال بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع

وَلاَ ضَرْعٍ وَبَعُدُوا مِنْ أَرْيَافِ ٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ ٱلْأُدْمِ وَٱلْحُبُوبِ كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةً مَحْفُوظَةً لَمْ يَدْخُلْهَا ٱخْتِلاَطٌ وَلاَ عُرِفَ فِيهَا شَوْبٌ ۰ وَأَمَّا ٱلْعَرَبُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِٱلتُّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ ٱلْخِصْبِ لِلْمَرَاعِي وَٱلْعَيْشِ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلاَنَ مِثْلَ لَخْمٍ وَجُذَامَ وَغَسَّانَ وَطَيٍّ وَقُضَاعَةَ وَإِيَادَ فَٱخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ مِنَ ٱلْخِلاَفِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَا تَعْرِفُ وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذٰلِكَ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَجَمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَهُمْ لاَ يَعْتَبِرُونَ ٱلْمُحَافَظَةَ عَلَى ٱلنَّسَبِ فِي بُيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هٰذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ ۰ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللّٰهُ تَعَالَى عَنْهُ تَعَلَّمُوا ٱلنَّسَبَ وَلاَ تَكُونُوا كَنَبَطِ ٱلسَّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْيَةِ كَذَا هٰذَا أَيْ مَا لَحِقَ هٰؤُلاَءِ ٱلْعَرَبَ أَهْلَ ٱلْأَرْيَافِ مِنَ ٱلْاِزْدِحَامِ مَعَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱلْبَلَدِ ٱلطَّيِّبِ وَٱلْمَرَاعِي ٱلْخَصِيبَةِ فَكَثُرَ ٱلْاِخْتِلاَطُ وَتَدَاخَلَتِ ٱلْأَنْسَابُ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ ٱلْإِسْلاَمِ ٱلْاِنْتِمَاءُ إِلَى ٱلْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدُ قِنَّسْرِينَ جُنْدُ دِمَشْقَ جُنْدُ ٱلْعَوَاصِمِ وَٱنْتَقَلَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لِاطِّرَاحِ ٱلْعَرَبِ أَمْرَ ٱلنَّسَبِ وَإِنَّمَا كَانَ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِٱلْمَوَاطِنِ بَعْدَ ٱلْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلاَمَةً زَائِدَةً عَلَى ٱلنَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أُمَرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ ٱلْاِخْتِلاَطُ فِي ٱلْحَوَاضِرِ مَعَ ٱلْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ وَفَسَدَتِ ٱلْأَنْسَابُ بِٱلْجُمْلَةِ وَفُقِدَتْ ثَمَرَتُهَا مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَٱطُّرِحَتْ ثُمَّ تَلاَشَتِ ٱلْقَبَائِلُ وَدُثِرَتْ فَدُثِرَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ بِدُثُورِهَا وَبَقِيَ ذٰلِكَ فِي ٱلْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل العاشر

في اختلاط الانساب كيف يقع

إِعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةٍ إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وَلاَءٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجِنَايَةٍ أَصَابَهَا فَيَدَّعِي بِنَسَبِ هٰؤُلاَءِ وَيُعَدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ ٱلنُّعْرَةِ وَٱلْقَوَدِ وَحَمْلِ ٱلدِّيَاتِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ ٱلنَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وُجِدَ لِأَنَّهُ لاَ مَعْنَى لِكَوْنِهِ مِنْ هٰؤُلاَءِ وَمِنْ هٰؤُلاَءِ إِلاَّ جَرَيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ ٱلْتَحَمَ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى ٱلنَّسَبُ ٱلْأَوَّلُ بِطُولِ ٱلزَّمَانِ وَيَذْهَبُ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى ٱلْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتِ ٱلْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلاَمِ وَٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ ۰ وَٱنْظُرْ خِلاَفَ ٱلنَّاسِ فِي نَسَبِ

آلِ ٱلْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنْ لكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ وَمِنْهُ شَأْنُ بُجيلَةَ فِي عَرْفَجَةَ بْن هَرْثَمَةَ لَمَّا وَلاَّهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ ٱلْإِعْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا لَزِيقٌ أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيقٌ وَطَلَبُوا أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ جَرِيرًا فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ عَرْفَجَةُ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنَا رَجُلٌ مِنَ ٱلْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِي قَوْمِي وَلَحِقْتُ بِهِمْ وَٱنْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ ٱخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَجِيلَةَ وَلَبِسَ جِلْدَتَهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى تَرَشَّحَ لِلرِّئَاسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلاَ عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِجِهِ وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذٰلِكَ وَٱمْتَدَّ ٱلزَّمَنُ لَتُنُوسِيَ بِٱلْجُمْلَةِ وَعُدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ وَمَذْهَبٍ فَٱفْهَمْهُ وَٱعْتَبِرْ سِرَّ ٱللهِ فِي خَلِيقَتِهِ وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْعُهُودِ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي عشر (١)

في ان الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية

إِعْلَمْ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عِصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمِ ٱلْعَامِّ فَفِيهِمْ أَيْضًا عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ هِيَ أَشَدُّ ٱلْتِحَامًا مِنَ ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ لَهُمْ مِثْلَ عَشِيرٍ وَاحِدٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْوَةٍ بَنِي أَبٍ وَاحِدٍ لاَ مِثْلَ بَنِي ٱلْعَمِّ ٱلْأَقْرَبِينَ أَوِ ٱلْأَبْعَدِينَ فَهٰؤُلاَءِ أَقْعَدُ بِنَسَبِهِمِ ٱلْمَخْصُوصِ وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْعَصَائِبِ فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ وَٱلنُّعْرَةُ تَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمِ ٱلْمَخْصُوصِ وَمِنْ أَهْلِ ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ إِلاَّ أَنَّهَا فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْخَاصِّ أَشَدُّ لِقُرْبِ ٱللُّحْمَةِ وَٱلرِّئَاسَةُ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلاَ تَكُونُ فِي ٱلْكُلِّ وَلَمَّا كَانَتِ ٱلرِّئَاسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْغَلَبِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةُ ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ ٱلْعَصَائِبِ لِيَقَعَ ٱلْغَلَبُ بِهَا وَتَتِمَّ ٱلرِّئَاسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجَبَ ذٰلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ عَلَيْهِمْ لاَ تَزَالُ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِأَهْلِ ٱلْغَلَبِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي ٱلْعَصَائِبِ ٱلْأُخْرَى ٱلنَّازِلَةِ عَنْ عِصَابَتِهِمْ فِي ٱلْغَلَبِ لَمَا تَمَّتْ لَهُمُ ٱلرِّئَاسَةُ فَلاَ تَزَالُ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى فَرْعٍ وَلاَ تَنْتَقِلُ إِلاَّ إِلَى ٱلْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لِمَا قُلْنَاهُ مِنْ سِرِّ ٱلْغَلَبِ لِأَنَّ ٱلْاِجْتِمَاعَ وَٱلْعَصَبِيَّةَ بِمَثَابَةِ ٱلْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ وَٱلْمِزَاجُ فِي ٱلْمُتَكَوِّنِ لاَ يَصْلُحُ إِذَا تَكَافَأَتِ

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة التونسية واثباته اولى ليطابق كلام اول الفصل ١٢ اه قاله نصر الهوريني

ٱلْعَنَاصِرُ فَلَا بُدَّ مِنْ غَلَبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ ٱلتَّكْوِينُ فَهٰذَا هُوَ سِرُّ ٱشْتِرَاطِ ٱلْغَلَبِ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ ٱسْتِمْرَارُ ٱلرِّئَاسَةِ فِي ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْغَلَبِ وَٱلْغَلَبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَا بُدَّ فِي ٱلرِّئَاسَةِ عَلَى ٱلْقَوْمِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عَصَبِيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصَبِيَّاتِهِمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا أَحَسَّتْ بِغَلَبِ عَصَبِيَّةِ ٱلرَّئِيسِ لَهُمْ أَقَرُّوا بِٱلْإِذْعَانِ وَٱلِٱتِّبَاعِ وَٱلسَّاقِطُ فِي نَسَبِهِمْ بِٱلْجُمْلَةِ لَا تَكُونُ لَهُ عَصَبِيَّةٌ فِيهِمْ بِٱلنَّسَبِ إِنَّمَا هُوَ مُلْصَقٌ لَزِيقٌ وَغَايَةُ ٱلتَّعَصُّبِ لَهُ بِٱلْوَلَاءِ وَٱلْحِلْفِ وَذٰلِكَ لَا يُوجِبُ لَهُ غَلَبًا عَلَيْهِمِ ٱلْبَتَّةَ وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ قَدِ ٱلْتَحَمَ بِهِمْ وَٱخْتَلَطَ وَتُنُوسِيَ عَهْدُهُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلِٱلْتِصَاقِ وَلَبِسَ جِلْدَتَهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ فَكَيْفَ لَهُ ٱلرِّئَاسَةُ قَبْلَ هٰذَا ٱلِٱلْتِحَامِ أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ وَٱلرِّئَاسَةُ عَلَى ٱلْقَوْمِ إِنَّمَا تَكُونُ مُتَنَاقَلَةً فِي مَنْبِتٍ وَاحِدٍ تَعَيَّنَ لَهُ ٱلْغَلَبُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَٱلْأَوَّلِيَّةُ ٱلَّتِي كَانَتْ لِهٰذَا ٱلْمُلْصَقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا ٱلْتِصَاقُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَمَنَعَهُ ذٰلِكَ ٱلِٱلْتِصَاقُ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ حِينَئِذٍ فَكَيْفَ تُنُوقِلَتْ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى حَالِ ٱلْإِلْصَاقِ وَٱلرِّئَاسَةُ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَوْرُوثَةً عَنْ مُسْتَحِقِّهَا لِمَا قُلْنَاهُ مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَقَدْ يَتَشَوَّفُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ عَلَى ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَائِبِ إِلَى أَنْسَابٍ يَلْهَجُونَ بِهَا إِمَّا لِخُصُوصِيَّةِ فَضِيلَةٍ كَانَتْ فِي أَهْلِ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ كَرَمٍ أَوْ ذِكْرٍ كَيْفَ ٱتَّفَقَ فَيَنْزِعُونَ إِلَى ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَيَتَوَرَّطُونَ بِٱلدَّعْوَى فِي شُعُوبِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا يُوقِعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ ٱلْقَدْحِ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَٱلطَّعْنِ فِي شَرَفِهِمْ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي ٱلنَّاسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَدَّعِيهِ زَنَاتَةُ جُمْلَةً أَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ ٱدِّعَاءُ أَوْلَادِ رَبَّابَ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِٱلْحِجَازِيِّينَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَحَدِ شُعُوبِ زُغْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ثُمَّ مِنَ ٱلشَّرِيدِ مِنْهُمْ لَحِقَ جَدُّهُمْ بِبَنِي عَامِرٍ نَجَّارًا يَصْنَعُ ٱلْحَرْجَانَ (١) وَٱخْتَلَطَ بِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْحِجَازِيَّ ۔ وَمِنْ ذٰلِكَ ٱدِّعَاءُ بَنِي عَبْدِ ٱلْقَوِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ تُوجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هٰذَا ٱلنَّسَبِ ٱلشَّرِيفِ وَغَلَطًا بِٱسْمِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةَ أَبِي عَبْدِ ٱلْقَوِيِّ وَلَمْ يُعْلَمْ دُخُولُ أَحَدٍ

(١) قولهُ الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتحتين نعش الموتى ·اه

مِنَ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ ٱلْعَلَوِيِّينَ أَعْدَائِهِمْ مِنَ ٱلْأَدَارِسَةِ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْطِ ٱلْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شِيعَةِ ٱلْعَلَوِيِّينَ. وَكَذَٰلِكَ مَا يَدَّعِيهِ أَبْنَاءُ زَيَّانَ مُلُوكُ تِلِمْسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلْقَاسِمِ بْنِ أَدْرِيسَ ذَهَابًا إِلَى مَا ٱشْتَهَرَ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلْقَاسِمِ فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمِ ٱلزَّنَاتِيِّ أَنْتَ ٱلْقَاسِمُ أَيْ بَنُو ٱلْقَاسِمِ ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ ٱلْقَاسِمَ هٰذَا هُوَ ٱلْقَاسِمُ بْنُ أَدْرِيسَ أَوِ ٱلْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ صَحِيحًا فَغَايَةُ ٱلْقَاسِمِ هٰذَا أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيرًا بِهِمْ فَكَيْفَ تَتِمُّ لَهُ ٱلرِّئَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ قِبَلِ ٱسْمِ ٱلْقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلْأَدَارِسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَهُمْ غَيْرُ مُحْتَاجِينَ لِذٰلِكَ فَإِنَّ مَنَالَهُمْ لِلْمُلْكِ وَٱلْعِزَّةِ إِنَّمَا كَانَ بِعَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بِٱدِّعَاءِ عَلَوِيَّةٍ وَلَا عَبَّاسِيَّةٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ ٱلْأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى هٰذَا ٱلْمُتَقَرِّبُونَ إِلَى ٱلْمُلُوكِ بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَيَشْتَهِرُ حَتَّى يَبْعُدَ عَنِ ٱلرَّدِّ وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ يَغْمُرَاسِنَ بْنِ زَيَّانَ مُؤَثِّلِ سُلْطَانِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذٰلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ بِلُغَتِهِ ٱلزَّنَاتِيَّةِ مَا مَعْنَاهُ أَمَّا ٱلدُّنْيَا وَٱلْمُلْكُ فَنِلْنَاهُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهٰذَا ٱلنَّسَبِ وَأَمَّا نَفْعُهُمَا فِي ٱلْآخِرَةِ فَمَرْدُودٌ إِلَى ٱللهِ وَأَعْرَضَ عَنِ ٱلتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِذٰلِكَ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مَا يَدَّعِيهِ بَنُو سَعْدٍ شُيُوخُ بَنِي يَزِيدَ مِنْ زُغْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ أَبِي بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شُيُوخُ بَنِي يَدَلَّتَنَ مِنْ تُوجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ وَٱلزَّوَاوِدَةُ شُيُوخُ رِيَاحٍ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِ ٱلْبَرَامِكَةِ وَكَذَا بَنُو مُهَنَّا أُمَرَاءُ طَيِّءٍ بِٱلْمَشْرِقِ يَدَّعُونَ فِيمَا بَلَغَنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِهِمْ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ وَرِئَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ مَانِعَةٌ مِنِ ٱدِّعَاءِ هٰذِهِ ٱلْأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَلْ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ صَرِيحِ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَأَقْوَى عَصَبِيَّاتِهِ فَٱعْتَبِرْهُ وَٱجْتَنِبِ ٱلْمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلْ مِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ إِلْحَاقَ مَهْدِيِّ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِنَسَبِ ٱلْعَلَوِيَّةِ فَإِنَّ ٱلْمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنْبِتِ ٱلرِّئَاسَةِ فِي هَرْثَمَةَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا رَأَسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ٱشْتِهَارِهِ بِٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ وَدُخُولِ قَبَائِلِ ٱلْمَصَامِدَةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَنَابِتِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ وَٱللهُ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ

الفصل الثالث عشر
في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّرَفَ وَٱلْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْخِلَالِ وَمَعْنَى ٱلْبَيْتِ أَنْ يَعُدَّ ٱلرَّجُلُ فِي آبَائِهِ أَشْرَافًا مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بِوِلَادَتِهِمْ إِيَّاهُ وَٱلِٱنْتِسَابِ إِلَيْهِمْ تَجِلَّةٌ فِي أَهْلِ جِلْدَتِهِ لِمَا وَقَرَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ تَجِلَّةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمْ وَٱلنَّاسُ فِي نَشْأَتِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادِنُ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلنَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي ٱلْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا فَمَعْنَى ٱلْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى ٱلْأَنْسَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ ٱلْأَنْسَابِ وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ لِلنُّعْرَةِ وَٱلتَّنَاصُرِ فَحَيْثُ تَكُونُ ٱلْعَصَبِيَّةُ مَرْهُوبَةً وَٱلْمَنْبِتُ فِيهَا زَكِيٌّ مَحْمِيٌّ تَكُونُ فَائِدَةُ ٱلنَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى وَتَعْدِيدُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا فَيَكُونُ ٱلْحَسَبُ وَٱلشَّرَفُ أَصْلِيَّيْنِ فِي أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِوُجُودِ ثَمَرَةِ ٱلنَّسَبِ وَتَفَاوُتُ ٱلْبُيُوتِ فِي هٰذَا ٱلشَّرَفِ بِتَفَاوُتِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِأَنَّهُ سِرُّهَا وَلَا يَكُونُ لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِٱلْمَجَازِ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فَزُخْرُفٌ مِنَ ٱلدَّعَاوَى وَإِذَا ٱعْتَبَرْتَ ٱلْحَسَبَ فِي أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ يَعُدُّ سَلَفًا فِي خِلَالِ ٱلْخَيْرِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ ٱلرُّكُونِ إِلَى ٱلْعَافِيَةِ مَا ٱسْتَطَاعَ وَهٰذَا مُغَايِرٌ لِسِرِّ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ ٱلنَّسَبِ وَتَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ لٰكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ بِٱلْمَجَازِ لِعَلَاقَةِ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ ٱلْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ وَلَيْسَ حَسَبًا بِٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ ٱلْمُشَكِّكِ ٱلَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوْلَى وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَيْتِ شَرَفٌ أَوَّلٌ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلْخِلَالِ ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ مِنْهُ لِذَهَابِهَا بِٱلْحَضَارَةِ كَمَا تَقَدَّمَ وَيَخْتَلِطُونَ بِٱلْغِمَارِ وَيَبْقَى فِي نُفُوسِهِمْ وَسْوَاسُ ذٰلِكَ ٱلْحَسَبِ يَعُدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَشْرَافِ ٱلْبُيُوتَاتِ أَهْلِ ٱلْعَصَائِبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِذَهَابِ ٱلْعَصَبِيَّةِ جُمْلَةً وَكَثِيرٌ مِنْ اهْلِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلنَّاشِئِينَ فِي بُيُوتِ ٱلْعَرَبِ أَوِ ٱلْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مُوَسْوَسُونَ بِذٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ ٱلْوَسْوَاسُ فِي ذٰلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَعْظَمِ بُيُوتِ ٱلْعَالَمِ بِٱلْمَنْبِتِ أَوَّلًا لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلرُّسُلِ مِنْ لَدُنْ إِبْرٰهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ ثُمَّ بِٱلْعَصَبِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا

آتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء في الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافا من السنين وما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون هذا هاروني هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة وكثير من أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان . وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الأول والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة إن لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه فكأنه أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع أن الخطابة إنما هي استمالة من تؤثر استمالته وهم أهل الحل والعقد وأما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت إليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو وأهل الأمصار من الحضر بهذه المثابة إلا ان ابن رشد ربا في جبل وبلد ولم يمارسوا العصبية ولا أنسوا أحوالها فبقي في أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها في الخليقة والله بكل شيء عليم

الفصل الرابع عشر

في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم

وذلك أنا قدمنا أن الشرف بالأصالة والحقيقة إنما هو لأهل العصبية فإذا اصطنع أهل العصبية قوما من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا به كما قلناه ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحلف وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية إذ هي مباينة لذلك النسب وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم

شَرَفٌ وَبَيْتٌ عَلَى نِسْبَتِهِ فِي وِلاَئِهِمْ وَٱصْطِنَاعِهِمْ لاَ يَتَجَاوَزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ بَلْ يَكُونُ أَدْوَنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمَوَالِي فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلْخَدَمَةِ كُلِّهِمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْرُفُونَ بِٱلرُّسُوخِ فِي وَلاَءِ ٱلدَّوْلَةِ وَخِدْمَتِهَا وَتَعَدُّدِ ٱلآبَاءِ فِي وِلاَيَتِهَا أَلاَ تَرَى إِلَى مَوَالِي ٱلأَتْرَاكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَإِلَى بَنِي بَرْمَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَنِي نُوبَخْتَ كَيْفَ أَدْرَكُوا ٱلْبَيْتَ وَٱلشَّرَفَ وَبَنَوُا ٱلْمَجْدَ وَٱلأَصَالَةَ بِٱلرُّسُوخِ فِي وَلاَءِ ٱلدَّوْلَةِ فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مِنْ أَعْظَمِ ٱلنَّاسِ بَيْتاً وَشَرَفاً بِٱلاِنْتِسَابِ إِلَى وَلاَءِ ٱلرَّشِيدِ وَقَوْمِهِ لاَ بِٱلاِنْتِسَابِ فِي ٱلْفُرْسِ وَكَذَا مَوَالِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَخَدَمُهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ ٱلْبَيْتُ وَٱلْحَسَبُ بِٱلرُّسُوخِ فِي وَلاَئِهَا وَٱلأَصَالَةِ فِي ٱصْطِنَاعِهَا وَيَضْمَحِلُّ نَسَبُهُ ٱلأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُلْغًى لاَ عِبْرَةَ بِهِ فِي أَصَالَتِهِ وَمَجْدِهِ وَإِنَّمَا ٱلْمُعْتَبَرُ نِسْبَةُ وَلاَئِهِ وَٱصْطِنَاعِهِ إِذْ فِيهِ سِرُّ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا ٱلْبَيْتُ وَٱلشَّرَفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقّاً مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعْهُ نَسَبُ وِلاَدَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ ٱلْوَلاَءِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَلُحْمَةُ ٱلاِصْطِنَاعِ فِيهَا وَٱلتَّرْبِيَةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ ٱلأَوَّلُ فِي لُحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلاَؤُهُ وَٱصْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعْهُ ٱلأُولَى لِذَهَابِ عَصَبِيَّتِهَا وَٱنْتَفَعَ بِٱلثَّانِيَةِ لِوُجُودِهَا وَهٰذَا حَالُ بَنِي بَرْمَكَ إِذِ ٱلْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي ٱلْفُرْسِ مِنْ سَدَنَةِ بُيُوتِ ٱلنَّارِ عِنْدَهُمْ وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وَلاَءِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِٱلأَوَّلِ ٱعْتِبَارٌ وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ وِلاَيَتِهِمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَٱصْطِنَاعِهِمْ وَمَا سِوَى هٰذَا فَوَهْمٌ تُوَسْوِسُ بِهِ ٱلنُّفُوسُ ٱلْجَانِحَةُ وَلاَ حَقِيقَةَ لَهُ وَٱلْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَاهُ وَإِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ وَٱللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة اباء

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَالَمَ ٱلْعُنْصُرِيَّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ لاَ مِنْ ذَوَاتِهِ وَلاَ مِنْ أَحْوَالِهِ فَٱلْمُكَوَّنَاتُ مِنَ ٱلْمَعْدِنِ وَٱلنَّبَاتِ وَجَمِيعِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ بِٱلْمُعَايَنَةِ وَكَذٰلِكَ مَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ ٱلأَحْوَالِ وَخُصُوصاً ٱلإِنْسَانِيَّةَ فَٱلْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ تَدْرُسُ وَكَذَا ٱلصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا وَٱلْحَسَبُ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلآدَمِيِّينَ فَهُوَ كَائِنٌ فَاسِدٌ لاَ مَحَالَةَ وَلَيْسَ يُوجَدُ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَيْهِ إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ ذٰلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرَامَةً بِهِ وَحِيَاطَةً عَلَى ٱلسِّرِّ فِيهِ

وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ وَهِيَ ٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلشَّرَفِ إِلَى ٱلضَّعَةِ وَٱلِٱبْتِذَالِ وَعَدَمِ ٱلْحَسَبِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ فَعَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ شَأْنَ كُلِّ مُحْدَثٍ ثُمَّ إِنَّ نِهَايَتَهُ فِي أَرْبَعَةِ آبَاءٍ وَذَٰلِكَ أَنَّ بَانِيَ ٱلْمَجْدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَاهُ فِي بِنَائِهِ وَمُحَافِظٌ عَلَى ٱلْخِلَالِ ٱلَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ وَٱبْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ لِأَبِيهِ فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَٰلِكَ وَأَخَذَهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي ذَٰلِكَ تَقْصِيرَ ٱلسَّامِعِ بِٱلشَّيْءِ عَنِ ٱلْمُعَانِي لَهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَ ٱلثَّالِثُ كَانَ حَظُّهُ ٱلِٱقْتِفَاءَ وَٱلتَّقْلِيدَ خَاصَّةً فَقَصَّرَ عَنِ ٱلثَّانِي تَقْصِيرَ ٱلْمُقَلِّدِ عَنِ ٱلْمُجْتَهِدِ ثُمَّ إِذَا جَاءَ ٱلرَّابِعُ قَصَّرَ عَنْ طَرِيقَتِهِمْ جُمْلَةً وَأَضَاعَ ٱلْخِلَالَ ٱلْحَافِظَةَ لِبِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَٱحْتَقَرَهَا وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَٰلِكَ ٱلْبُنْيَانَ لَمْ يَكُنْ بِمُعَانَاةٍ وَلَا تَكَلُّفٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجَبَ لَهُمْ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلنَّشْأَةِ بِمُجَرَّدِ ٱنْتِسَابِهِمْ وَلَيْسَ بِعِصَابَةٍ وَلَا بِخِلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ ٱلتَّجِلَّةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ حُدُوثُهَا وَلَا سَبَبُهَا وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ ٱلنَّسَبُ فَقَطْ فَيَرْبَأُ بِنَفْسِهِ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَيَرَى ٱلْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ وُثُوقًا بِمَا رُبِّيَ فِيهِ مِنِ ٱسْتِتْبَاعِهِمْ وَجَهْلًا بِمَا أَوْجَبَ ذَٰلِكَ ٱلِٱسْتِتْبَاعَ مِنَ ٱلْخِلَالِ ٱلَّتِي مِنْهَا ٱلتَّوَاضُعُ لَهُمْ وَٱلْأَخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَيَحْتَقِرُهُمْ بِذَٰلِكَ فَيَنْغَصُونَ عَلَيْهِ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيُدِيلُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَٰلِكَ ٱلْمَنْبِتِ وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَٰلِكَ ٱلْعَقِبِ لِلْإِذْعَانِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ بَعْدَ ٱلْوُثُوقِ بِمَا يَرْضَوْنَهُ مِنْ خِلَالِهِ فَتَنْمُو فُرُوعُ هٰذَا وَتَذْوِي فُرُوعُ ٱلْأَوَّلِ وَيَنْهَدِمُ بِنَاءُ بَيْتِهِ هٰذَا فِي ٱلْمُلُوكِ وَهٰكَذَا فِي بُيُوتِ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْأُمَرَاءِ وَأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ أَجْمَعَ ثُمَّ فِي بُيُوتِ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ إِذَا ٱنْحَطَّتْ بُيُوتٌ نَشَأَتْ بُيُوتٌ أُخْرَى مِنْ ذَٰلِكَ ٱلنَّسَبِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ بِعَزِيزٍ وَٱشْتِرَاطُ ٱلْأَرْبَعَةِ فِي ٱلْأَحْسَابِ إِنَّمَا هُوَ فِي ٱلْغَالِبِ وَإِلَّا فَقَدْ يَدْثُرُ ٱلْبَيْتُ مِنْ دُونِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَيَتَلَاشَى وَيَنْهَدِمُ وَقَدْ يَتَّصِلُ أَمْرُهَا إِلَى ٱلْخَامِسِ وَٱلسَّادِسِ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱنْحِطَاطٍ وَذَهَابٍ وَٱعْتِبَارُ ٱلْأَرْبَعَةِ مِنْ قِبَلِ ٱلْأَجْيَالِ ٱلْأَرْبَعَةِ بَانٍ وَمُبَاشِرٌ لَهُ وَمُقَلِّدٌ وَهَادِمٌ وَهُوَ أَقَلُّ مَا يُمْكِنُ وَقَدِ ٱعْتُبِرَتِ ٱلْأَرْبَعَةُ فِي نِهَايَةِ ٱلْحَسَبِ فِي بَابِ ٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا ٱلْكَرِيمُ ٱبْنُ ٱلْكَرِيمِ ٱبْنِ ٱلْكَرِيمِ ٱبْنِ ٱلْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلْمَجْدِ وَفِي ٱلتَّوْرَاةِ مَا مَعْنَاهُ إِنَّ ٱللهَ رَبَّكَ طَائِقٌ غَيُورٌ مُطَالِبٌ بِذُنُوبِ ٱلْآبَاءِ لِلْبَنِينَ عَلَى ٱلثَّوَالِثِ وَٱلرَّوَابِعِ وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأَرْبَعَةَ ٱلْأَعْقَابِ غَايَةٌ

فِي ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ ٱلْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ ٱلْغَوَانِي أَنَّ كِسْرَى قَالَ لِلنُّعْمَانِ هَلْ فِي ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ تَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةٌ رُؤَسَاءُ ثُمَّ ٱتَّصَلَ ذٰلِكَ بِكَمَالِ ٱلرَّابِعِ فَٱلْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ ٱلْفَزَارِيِّ وَهُمْ بَيْتُ قَيْسٍ وَآلِ ذِي ٱلْجَدَّيْنِ بَيْتُ شَيْبَانَ وَآلِ ٱلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كِنْدَةَ وَآلِ حَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَآلِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَجَمَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلرَّهْطَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمُ ٱلْحُكَّامَ وَٱلْعُدُولَ فَقَامَ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ ثُمَّ ٱلْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَابَتِهِ مِنَ ٱلنُّعْمَانِ ثُمَّ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ وَخَطَبُوا وَنَثَرُوا فَقَالَ كِسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْبُيُوتَاتُ هِيَ ٱلْمَذْكُورَةَ فِي ٱلْعَرَبِ بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي ٱلذُّبْيَانِ مِنْ بَنِي ٱلْحَرِثِ بْنِ كَعْبٍ ٱلْيَمَنِيِّ وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأَرْبَعَةَ ٱلْآبَاءَ نِهَايَةٌ فِي ٱلْحَسَبِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل السادس عشر

في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب ممن سواها

إِعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْبَدَاوَةُ سَبَبًا فِي ٱلشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱلْمُقَدَّمَةِ ٱلثَّالِثَةِ لَا جَرَمَ كَانَ هٰذَا ٱلْجِيلُ ٱلْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ ٱلْجِيلِ ٱلْآخَرِ فَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱنْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ بَلِ ٱلْجِيلُ ٱلْوَاحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَعْصَارِ فَكُلَّمَا نَزَلُوا ٱلْأَرْيَافَ وَتَفَنَّقُوا ٱلنَّعِيمَ وَأَلِفُوا عَوَائِدَ ٱلْخِصْبِ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلنَّعِيمِ نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوَحُّشِهِمْ وَبَدَاوَتِهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ بِدَوَاجِنِ ٱلظِّبَاءِ وَٱلْبَقَرِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَٱلْحُمُرِ إِذَا زَالَ تَوَحُّشُهَا بِمُخَالَطَةِ ٱلْآدَمِيِّينَ وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَخْتَلِفُ حَالُهَا فِي ٱلْٱنْتِهَاضِ وَٱلشِّدَّةِ حَتَّى فِي مِشْيَتِهَا وَحُسْنِ أَدِيمِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْآدَمِيُّ ٱلْمُتَوَحِّشُ إِذَا أَنِسَ وَأَلِفَ وَسَبَبُهُ أَنَّ تَكَوُّنَ ٱلسَّجَايَا وَٱلطَّبَائِعِ إِنَّمَا هُوَ عَنِ ٱلْمَأْلُوفَاتِ وَٱلْعَوَائِدِ وَإِذَا كَانَ ٱلْغَلَبُ لِلْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْإِقْدَامِ وَٱلْبَسَالَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْيَالِ أَعْرَقَ فِي ٱلْبَدَاوَةِ وَأَكْثَرَ تَوَحُّشًا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى سِوَاهُ إِذَا تَقَارَبَا فِي ٱلْعَدَدِ وَتَكَافَآ فِي ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱنْظُرْ فِي ذٰلِكَ شَأْنَ مُضَرَ مَعَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلَانَ ٱلسَّابِقِينَ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَٱلنَّعِيمِ وَمَعَ

رَبيعَةَ ٱلْمُتَوَطِّنِينَ أَرْيَافَ ٱلْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ لَمَّا بَقِيَ مُضَرُ فِي بِدَاوَتِهِمْ وَتَقَدَّمَهُمُ ٱلْآخَرُونَ إِلَى خِصْبِ ٱلْعَيْشِ وَغَضَارَةِ ٱلنَّعِيمِ كَيْفَ أَرْهَفَتِ ٱلْبِدَاوَةُ حَدَّهُمْ فِي ٱلتَّغَلُّبِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَهٰذَا حَالُ بَنِي طَيِّءٍ وَبَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ وَبَنِي سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ لَمَّا تَأَخَّرُوا فِي بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضَرَ وَٱلْيَمَنِ وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ ٱلْبِدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ تُخْلِفْهَا مَذَاهِبُ ٱلتَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَلِي نَعِيماً وَعَيْشاً خِصْباً دُونَ ٱلْحَيِّ ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلْحَيَّ ٱلْمُبْتَدِيءَ يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَآ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلْعَدَدِ سُنَّةَ ٱللّٰهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك

وَذٰلِكَ لِأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلْعَصَبِيَّةَ بِهَا تَكُونُ ٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُدَافَعَةُ وَٱلْمُطَالَبَةُ وَكُلُّ أَمْرٍ يُجْتَمَعُ عَلَيْهِ وَقَدَّمْنَا أَنَّ ٱلْآدَمِيِّينَ بِٱلطَّبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ يَحْتَاجُونَ فِي كُلِّ ٱجْتِمَاعٍ إِلَى وَازِعٍ وَحَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّباً عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَإِلَّا لَمْ تَتِمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلتَّغَلُّبُ هُوَ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى ٱلرِّئَاسَةِ لِأَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُؤْدُدٌ وَصَاحِبُهَا مَتْبُوعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا ٱلْمُلْكُ فَهُوَ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْحُكْمُ بِٱلْقَهْرِ وَصَاحِبُهَا مَتْبُوعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا ٱلْمُلْكُ فَهُوَ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْحُكْمُ بِٱلْقَهْرِ وَصَاحِبُ ٱلْعَصَبِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتْبَةٍ طَلَبَ مَا فَوْقَهَا فَإِذَا بَلَغَ رُتْبَةَ ٱلسُّؤْدُدِ وَٱلْأَتْبَاعِ وَوَجَدَ ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْقَهْرِ لَا يَتْرُكُهُ لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ وَلَا يَتِمُّ ٱقْتِدَارُهَا عَلَيْهِ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا مَتْبُوعاً فَٱلتَّغَلُّبُ ٱلْمُلْكِيُّ غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَ ثُمَّ إِنَّ ٱلْقَبِيلَ ٱلْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ بُيُوتَاتٌ مُفْتَرِقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتْبِعُهَا وَتَلْتَحِمُ جَمِيعُ ٱلْعَصَبِيَّاتِ فِيهَا وَتَصِيرُ كَأَنَّهَا عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كُبْرَى وَإِلَّا وَقَعَ ٱلِٱفْتِرَاقُ ٱلْمُفْضِي إِلَى ٱلِٱخْتِلَافِ وَٱلتَّنَازُعِ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللّٰهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ ٱلتَّغَلُّبُ بِتِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ عَلَى قَوْمِهَا طَلَبَتْ بِطَبْعِهَا ٱلتَّغَلُّبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا فَإِنْ كَافَأَتْهَا أَوْ مَانَعَتْهَا كَانُوا أَقْتَالاً وَأَنْظَاراً وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ٱلتَّغَلُّبُ عَلَى حَوْزَتِهَا

وَقَوْمِهَا شَأْنَ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْأُمَمِ ٱلْمُفْتَرِقَةِ فِي ٱلْعَالَمِ وَإِنْ غَلَبَتْهَا وَٱسْتَتْبَعَتْهَا ٱلْتَحَمَتْ بِهَا أَيْضًا وَزَادَتْ قُوَّةً فِي ٱلتَّغَلُّبِ إِلَى قُوَّتِهَا وَطَلَبَتْ غَايَةً مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلتَّحَكُّمِ أَعْلَى مِنَ ٱلْغَايَةِ ٱلْأُولَى وَأَبْعَدَ وَهٰكَذَا دَائِمًا حَتَّى تُكَافِئَ بِقُوَّتِهَا قُوَّةَ ٱلدَّوْلَةِ فِي هَرَمِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مُمَانِعٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ ٱلدَّوْلَةِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا وَٱنْتَزَعَتِ ٱلْأَمْرَ مِنْ يَدِهَا وَصَارَ ٱلْمُلْكُ أَجْمَعُ لَهَا وَإِنِ ٱنْتَهَتْ قُوَّتُهَا وَلَمْ يُقَارِنْ ذٰلِكَ هَرَمُ ٱلدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا قَارَنَ حَاجَتَهَا إِلَى ٱلِٱسْتِظْهَارِ بِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ ٱنْتَظَمَتْهَا ٱلدَّوْلَةُ فِي أَوْلِيَائِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَا يَعِنُّ مِنْ مَقَاصِدِهَا وَذٰلِكَ مُلْكٌ آخَرُ دُونَ ٱلْمُلْكِ ٱلْمُسْتَبِدِّ وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلتُّرْكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَلِصِنْهَاجَةَ وَزَنَاتَةَ مَعَ كُتَامَةَ وَلِبَنِي حَمْدَانَ مَعَ مُلُوكِ ٱلشِّيعَةِ مِنَ ٱلْعَلَوِيَّةِ وَٱلْعَبَّاسِيَّةِ فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ هُوَ غَايَةُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ ٱلْمُلْكُ إِمَّا بِٱلِٱسْتِبْدَادِ أَوْ بِٱلْمُظَاهَرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسَعُهُ ٱلْوَقْتُ ٱلْمُقَارِنُ لِذٰلِكَ وَإِنْ عَاقَهَا عَنْ بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَوَائِقُ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَفَتْ فِي مَقَامِهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ ٱللّٰهُ بِأَمْرِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بِعَصَبِيَّتِهَا بَعْضَ ٱلْغَلَبِ ٱسْتَوْلَتْ عَلَى ٱلنِّعْمَةِ بِمِقْدَارِهِ وَشَارَكَتْ أَهْلَ ٱلنِّعَمِ وَٱلْخِصْبِ فِي نِعْمَتِهِمْ وَخِصْبِهِمْ وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ فِي ذٰلِكَ بِسَهْمٍ وَحِصَّةٍ بِمِقْدَارِ غَلَبِهَا وَٱسْتِظْهَارِ ٱلدَّوْلَةِ بِهَا فَإِنْ كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي ٱنْتِزَاعِ أَمْرِهَا وَلَا مُشَارَكَتِهَا فِيهِ أَذْعَنَ ذٰلِكَ ٱلْقَبِيلُ لِوِلَايَتِهَا وَٱلْقُنُوعِ بِمَا يُسَوِّغُونَ مِنْ نِعْمَتِهَا وَيُشْرِكُونَ فِيهِ مِنْ جِبَايَتِهَا وَلَمْ تَسْمُ آمَالُهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ وَلَا أَسْبَابِهِ إِنَّمَا هِمَّتُهُمُ ٱلنَّعِيمُ وَٱلْكَسْبُ وَخِصْبُ ٱلْعَيْشِ وَٱلسُّكُونُ فِي ظِلِّ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى ٱلدَّعَةِ وَٱلرَّاحَةِ وَٱلْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلْمَبَانِي وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلتَّأَنُّقِ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ ٱلرِّيَاشِ وَٱلتَّرَفِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذٰلِكَ فَتَذْهَبُ خُشُونَةُ ٱلْبَدَاوَةِ وَتَضْعُفُ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَٱلْبَسَالَةُ وَيَتَنَعَّمُونَ فِيمَا أَتَاهُمُ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلْبَسْطَةِ وَتَنْشَأُ بَنُوهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّرَفُّعِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ وَيَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سَائِرِ ٱلْأُمُورِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذٰلِكَ خُلُقًا لَهُمْ وَسَجِيَّةً فَتَنْقُصُ عَصَبِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِي ٱلْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ يَتَعَاقَبُهَا إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ ٱلْعَصَبِيَّةُ

فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلاً عن الملك فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة والتهمتهم الأمم سواهم فقد تبين أن الترف من عوائق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء

الفصل التاسع عشر

في ان من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك إلا لما آنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذل للقبط أحقاباً حتى ذهبت العصبية منهم جملة مع أنهم لم يؤمنوا حق الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحا فريستهم بحكم من الله قدره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلاً على ما في أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو أنهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها العمران ولا نزلوا مصراً ولا خالطوا بشراً كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة فنشأت بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها

عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلتَّغَلُّبِ وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ جِيلٍ وَنَشْأَةُ جِيلٍ آخَرَ سُبْحَانَ ٱلْحَكِيمِ ٱلْعَلِيمِ وَفِي هٰذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى شَأْنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْمُدَافَعَةُ وَٱلْمُقَاوَمَةُ وَٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُطَالَبَةُ وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ عَنْ جَمِيعِ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَيُلْحَقُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ ٱلْمَذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ ٱلْمَغَارِمِ وَٱلضَّرَائِبِ فَإِنَّ ٱلْقَبِيلَ ٱلْغَارِمِينَ مَا أَعْطَوُا ٱلْيَدَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى رَضُوا بِٱلْمَذَلَّةِ فِيهِ لِأَنَّ فِي ٱلْمَغَارِمِ وَٱلضَّرَائِبِ ضَيْماً وَمَذَلَّةً لَا تَحْتَمِلُهَا ٱلنُّفُوسُ ٱلْأَبِيَّةُ إِلَّا إِذَا ٱسْتَهْوَنَتْهُ عَنِ ٱلْقَتْلِ وَٱلتَّلَفِ وَأَنَّ عَصَبِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَصَبِيَّتُهُ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ ٱلضَّيْمَ فَكَيْفَ لَهُ بِٱلْمُقَاوَمَةِ وَٱلْمُطَالَبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ ٱلْاِنْقِيَادُ لِلذُّلِّ وَٱلْمَذَلَّةُ عَائِقَةٌ كَمَا قَدَّمْنَاهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنُ ٱلْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ ٱلْمِحْرَاثِ فِي بَعْضِ دُورِ ٱلْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هٰذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ ٱلذُّلُّ فَهُوَ دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ ٱلْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذِّلَّةِ هٰذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذُلَّ ٱلْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ ٱلْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْقَبِيلَ بِٱلْمَغَارِمِ فِي رِبْقَةٍ مِنَ ٱلذُّلِّ فَلَا تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخِرَ ٱلدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ ٱلْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَهُوَ غَلَطٌ فَاحِشٌ كَمَا رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذٰلِكَ لَمَا ٱسْتَتَبَّ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَٱنْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرَبَرَازُ مَلِكُ ٱلْبَابِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطَلَّ عَلَيْهِ وَسَأَلَ شَهْرَبَرَازُ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا ٱلْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعَرِي مَعَكُمْ فَمَرْحَباً بِكُمْ وَبَارَكَ ٱللّٰهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجِزْيَتُنَا إِلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ لَكُمْ وَٱلْقِيَامُ بِمَا تُحِبُّونَ وَلَا تُذِلُّونَا بِٱلْجِزْيَةِ فَتُوهِنُونَا لِعَدُوِّكُمْ فَٱعْتَبِرْ هٰذَا فِيمَا قُلْنَاهُ فَإِنَّهُ كَافٍ

الفصل العشرون

في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ ٱلْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلْاِجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَاهُ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ ٱلْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ ٱلشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ ٱلنَّاطِقَةِ ٱلْعَاقِلَةِ لِأَنَّ ٱلشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ وَٱلْمُلْكُ وَٱلسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا

للإنسان خاصة لا للحيوان فإذا خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك إذ
الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا أن المجد له أصل يبنى عليه وتتحقق به
حقيقته وهو العصبية والعشير وفرع يتمم وجوده ويكمله وهو الخلال وإذا كان
الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهي الخلال لأن وجوده دون متمماته
كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره عريانا بين الناس وإذا كان وجود العصبية
فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصا في أهل البيوت والأحساب فما ظنك
بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضا فالسياسة والملك
هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه
وعباده إنما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع وأحكام البشر إنما
هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فإنه فاعل للخير والشر معا
ومقدرهما إذ لا فاعل سواه فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة وأونست منه
خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة
الخلق ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان أوثق من الأول وأصح مبنى فقد
تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية فإذا نظرنا في
أهل العصبية ومن حصل لهم من الغلب على كثير من النواحي والأمم فوجدناهم
يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر
والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد
وبذل الأموال في صون الأعراض وتعظيم الشريعة وإجلال العلماء الحاملين لها
والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم واعتقاد أهل الدين
والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم
والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه وإنصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل في
أحوالهم والانقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين
بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة
ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها
أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى إليهم

مناسبٌ لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدًى فيهم ولا وُجد عبثًا منهم والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيًا عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقرئ ذلك وتتبعه في الأمم السابقة تجد كثيرًا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار واعلم أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم وذلك أن إكرام القبائل وأهل العصبيات والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه أمرٌ طبيعي يحمل عليه في الأكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرَم أو التماس مثلها منه وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد وانتحال الكمال في الخلال والإقبال على السياسة بالكلية لأن إكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه وإكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجاءي إليهم في إقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الأخلاق وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبيته انتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من الخلق فإذا رأيته قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له والله تعالى أعلم

الفصل الحادي والعشرون

في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلِٱسْتِبْدَادِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱسْتِعْبَادِ ٱلطَّوَائِفِ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَلِأَنَّهُمْ يَتَنَزَّلُونَ مِنَ ٱلْأَهْلِينَ مَنْزِلَةَ ٱلْمُفْتَرِسِ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ ٱلْعَرَبِ وَزَنَاتَةَ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ ٱلْأَكْرَادِ وَٱلتُّرْكُمَانِ وَأَهْلِ ٱللِّثَامِ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَأَيْضًا فَهٰؤُلَاءِ ٱلْمُتَوَحِّشُونَ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ يَرْتَافُونَ مِنْهُ وَلَا بَلَدٌ يَجْنَحُونَ إِلَيْهِ فَنِسْبَةُ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْمَوَاطِنِ إِلَيْهِمْ عَلَى ٱلسَّوَاءِ فَلِهٰذَا لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَلَكَةِ قُطْرِهِمْ وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنَ ٱلْبِلَادِ وَلَا يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ أُفْقِهِمْ بَلْ يَطْفِرُونَ إِلَى ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْبَعِيدَةِ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى ٱلْأُمَمِ ٱلنَّائِيَةِ وَٱنْظُرْ مَا يُحْكَى فِي ذٰلِكَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ لَمَّا بُويِعَ وَقَامَ يُحَرِّضُ ٱلنَّاسَ عَلَى ٱلْعِرَاقِ فَقَالَ إِنَّ ٱلْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلَّا عَلَى ٱلنُّجْعَةِ وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذٰلِكَ أَيْنَ ٱلْقُرَّاءُ ٱلْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ ٱللّٰهِ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي وَعَدَكُمُ ٱللّٰهُ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا فَقَالَ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ أَيْضًا بِحَالِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّالِفَةِ مِنْ قَبْلُ مِثْلَ ٱلتَّبَابِعَةِ وَحِمْيَرَ كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ مِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ مَرَّةً وَإِلَى ٱلْعِرَاقِ وَٱلْهِنْدِ أُخْرَى وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ لِغَيْرِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْأُمَمِ وَكَذَا حَالُ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ لَمَّا نَزَعُوا إِلَى ٱلْمُلْكِ طَفِرُوا مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَمَجَالَاتِهِمْ مِنْهُ فِي جِوَارِ ٱلسُّودَانِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ فِي مَمَالِكِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهٰذَا شَأْنُ هٰذِهِ ٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ فَلِذٰلِكَ تَكُونُ دَوْلَتُهُمْ أَوْسَعَ نِطَاقًا وَأَبْعَدَ مِنْ مَرَاكِزِهَا نِهَايَةً وَٱللّٰهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ لَا شَرِيكَ لَهُ

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ سَوْرَةِ ٱلْغَلَبِ وَٱلْإِذْعَانِ لَهُمْ مِنْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ فَيَتَعَيَّنُ مِنْهُمُ ٱلْمُبَاشِرُونَ لِلْأَمْرِ ٱلْحَامِلُونَ سَرِيرَ ٱلْمُلْكِ وَلَا يَكُونُ

ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المزاحمة والغيرة التي تجدع أنوف كثير من المتطاولين للرتبة فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا إخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها وبقي الذين بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فإذا استولت على الأولين الأيام وأباد غضراءهم الهرم فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرهف النعيم من حدهم واستقت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الإنساني والتغلب السياسي (شعر)

كدود القز ينسج ثم يفنى بمركز نسجه في الانعكاس

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارتهم في الغلب معلومة فتسمو آمالهم إلى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الأمر ويصير إليهم وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضا منتبذا عنه من عشائر أمتهم فلا يزال الملك ملجأ في الأمة إلى أن تنكسر سورة العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها سنة الله في الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم إخوانهم من ثمود ومن بعدهم إخوانهم العمالقة ومن بعدهم إخوانهم من حمير أيضا ومن بعدهم إخوانهم التبابعة من حمير أيضا ومن بعدهم الأذواء كذلك ثم جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالإسلام وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة الملوك الأول منهم رجع إلى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا سنة الله في عباده وخلقه وأصل هذا كله إنما يكون بالعصبية وهي متفاوتة في الأجيال والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره بعد فإذا انقرضت دولة فإنما يتناول الأمر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم والانقياد وأونس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك إنما يوجد

في ٱلنَّسَبِ ٱلْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ تَفَاوُتَ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرُبَ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلنَّسَبِ ٱلَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعُدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمْرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ ٱللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَحِينَئِذٍ يَخْرُجُ عَنْ ذَٰلِكَ ٱلْجِيلِ إِلَى ٱلْجِيلِ ٱلَّذِي يَأْذَنُ ٱللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَٰلِكَ ٱلتَّبْدِيلِ كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ وَأَخَذُوا ٱلْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ ٱلْعَالَمِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَابًا

الفصل الثالث والعشرون

في ان المغلوب مولع ابدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ أَبَدًا تَعْتَقِدُ ٱلْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا وَٱنْقَادَتْ إِلَيْهِ إِمَّا لِنَظَرِهِ بِٱلْكَمَالِ بِمَا وَقَرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ أَوْ لِمَا تُغَالِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ ٱنْقِيَادَهَا لَيْسَ لِغَلَبٍ طَبِيعِيٍّ إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ ٱلْغَالِبِ فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَٰلِكَ وَٱتَّصَلَ لَهَا ٱعْتِقَادًا فَٱنْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ ٱلْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلِٱقْتِدَاءُ أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ أَنَّ غَلَبَ ٱلْغَالِبِ لَهَا لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةِ بَأْسٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا ٱنْتَحَلَتْهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْمَذَاهِبِ تُغَالِطُ أَيْضًا بِذَٰلِكَ عَنِ ٱلْغَلَبِ وَهٰذَا رَاجِعٌ لِلْأَوَّلِ وَلِذَٰلِكَ تَرَى ٱلْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَدًا بِٱلْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي ٱتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا بَلْ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ وَٱنْظُرْ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَبْنَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِمًا وَمَا ذَٰلِكَ إِلَّا لِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْكَمَالَ فِيهِمْ وَٱنْظُرْ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيُّ ٱلْحَامِيَةِ وَجُنْدُ ٱلسُّلْطَانِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّهُمُ ٱلْغَالِبُونَ لَهُمْ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تُجَاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا ٱلْغَلَبُ عَلَيْهَا فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ مِنْ هٰذَا ٱلتَّشَبُّهِ وَٱلِٱقْتِدَاءِ حَظٌّ كَبِيرٌ كَمَا هُوَ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَعَ أُمَمِ ٱلْجَلَالِقَةِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ وَٱلْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ حَتَّى فِي رَسْمِ ٱلتَّمَاثِيلِ فِي ٱلْجُدْرَانِ وَٱلْمَصَانِعِ وَٱلْبُيُوتِ حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ بِعَيْنِ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ ٱلِٱسْتِيلَاءِ وَٱلْأَمْرُ لِلَّهِ. وَتَأَمَّلْ فِي هٰذَا سِرَّ قَوْلِهِمِ ٱلْعَامَّةُ عَلَى دِينِ ٱلْمَلِكِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ إِذِ ٱلْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ وَٱلرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لِٱعْتِقَادِ ٱلْكَمَالِ فِيهِ ٱعْتِقَادَ ٱلْأَبْنَاءِ بِآبَائِهِمْ وَٱلْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهِمْ وَٱللَّهُ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الرابع والعشرون

في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ مَا يَحْصُلُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلتَّكَاسُلِ إِذَا مُلِكَ أَمْرُهَا عَلَيْهَا وَصَارَتْ بِٱلِٱسْتِعْبَادِ آلَةً لِسِوَاهَا وَعَالَةً عَلَيْهِمْ فَيَقْصُرُ ٱلْأَمَلُ وَيَضْعُفُ ٱلتَّنَاسُلُ وَٱلِٱعْتِمَارُ إِنَّمَا هُوَ عَنْ جِدَّةِ ٱلْأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ ٱلنَّشَاطِ فِي ٱلْقُوَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْأَمَلُ بِٱلتَّكَاسُلِ وَذَهَبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَكَانَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ ذَاهِبَةً بِٱلْغَلَبِ ٱلْحَاصِلِ عَلَيْهِمْ تَنَاقَصَ عُمْرَانُهُمْ وَتَلَاشَتْ مَكَاسِبُهُمْ وَمَسَاعِيهِمْ وَعَجَزُوا عَنِ ٱلْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا خَضَدَ ٱلْغَلَبُ مِنْ شَوْكَتِهِمْ فَأَصْبَحُوا مُغَلَّبِينَ لِكُلِّ مُتَغَلِّبٍ وَطُعْمَةً لِكُلِّ آكِلٍ وَسَوَاءٌ كَانُوا حَصَلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ ٱلْمُلْكِ أَمْ لَمْ يَحْصُلُوا. وَفِيهِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ سِرٌّ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ رَئِيسٌ بِطَبْعِهِ بِمُقْتَضَى ٱلِٱسْتِخْلَافِ ٱلَّذِي خُلِقَ لَهُ وَٱلرَّئِيسُ إِذَا غُلِبَ عَلَى رِئَاسَتِهِ وَكُبِحَ عَنْ غَايَةِ عِزِّهِ تَكَاسَلَ حَتَّى عَنْ شِبَعِ بَطْنِهِ وَرِيِّ كَبِدِهِ وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَخْلَاقِ ٱلْأَنَاسِيِّ. وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْمُفْتَرِسَةِ وَإِنَّهَا لَا تَسَافَدُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِي مَلَكَةِ ٱلْآدَمِيِّينَ فَلَا يَزَالُ هٰذَا ٱلْقَبِيلُ ٱلْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَاقُصٍ وَٱضْمِحْلَالٍ إِلَى أَنْ يَأْخُذَهُمُ ٱلْفَنَاءُ وَٱلْبَقَاءُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ فِي أُمَّةِ ٱلْفُرْسِ كَيْفَ كَانَتْ قَدْ مَلَأَتِ ٱلْعَالَمَ كَثْرَةً وَلَمَّا فَنِيَتْ حَامِيَتُهُمْ فِي أَيَّامِ ٱلْعَرَبِ بَقِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَأَكْثَرُ مِنَ ٱلْكَثِيرِ يُقَالُ إِنَّ سَعْدًا أَحْصَى مَا وَرَاءَ ٱلْمَدَائِنِ فَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَسَبْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا رَبُّ بَيْتٍ وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَةِ ٱلْعَرَبِ وَقَبْضَةِ ٱلْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ بَقَاؤُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا وَدَثَرُوا كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ ذَٰلِكَ لِظُلْمٍ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عُدْوَانٍ شَمِلَهُمْ فَمَلَكَةُ ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْعَدْلِ مَا عَلِمْتَ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةٌ فِي ٱلْإِنْسَانِ إِذَا غُلِبَ عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ آلَةً لِغَيْرِهِ وَلِهٰذَا إِنَّمَا تُذْعِنُ لِلرِّقِّ فِي ٱلْغَالِبِ أُمَمُ ٱلسُّودَانِ لِنَقْصِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ عَرَضِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ كَمَا قُلْنَاهُ أَوْ مَنْ يَرْجُو بِٱنْتِظَامِهِ فِي رِبْقَةِ ٱلرِّقِّ حُصُولَ رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةَ مَالٍ أَوْ عِزٍّ كَمَا يَقَعُ لِمَمَالِكِ ٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْعُلُوجِ مِنَ ٱلْجَلَالِقَةِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّ ٱلْعَادَةَ جَارِيَةٌ بِٱسْتِخْلَاصِ ٱلدَّوْلَةِ لَهُمْ فَلَا يَأْنَفُونَ مِنَ ٱلرِّقِّ لِمَا يَأْمُلُونَهُ مِنَ ٱلْجَاهِ وَٱلرُّتْبَةِ بِٱصْطِفَاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط

وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ ٱنْتِهَابٍ وَعَيْثٍ يَنْتَهِبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُغَالَبَةٍ وَلَا رُكُوبِ خَطَرٍ وَيَفِرُّونَ إِلَى مُنْتَجَعِهِمْ بِٱلْقَفْرِ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى ٱلْمُزَاحَفَةِ وَٱلْمُحَارَبَةِ إِلَّا إِذَا دَفَعُوا بِذٰلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَعْقِلٍ أَوْ مُسْتَصْعَبٍ عَلَيْهِمْ فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلَا يَعْرِضُونَ لَهُ وَٱلْقَبَائِلُ ٱلْمُمْتَنِعَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ ٱلْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْثِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَسَنَّمُونَ إِلَيْهِمِ ٱلْهِضَابَ وَلَا يَرْكَبُونَ ٱلصِّعَابَ وَلَا يُحَاوِلُونَ ٱلْخَطَرَ وَأَمَّا ٱلْبَسَائِطُ فَمَتَى ٱقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفِقْدَانِ ٱلْحَامِيَةِ وَضَعْفِ ٱلدَّوْلَةِ فَهِيَ نَهْبٌ لَهُمْ وَطُعْمَةٌ لِآكِلِهِمْ يُرَدِّدُونَ عَلَيْهَا ٱلْغَارَةَ وَٱلنَّهْبَ وَٱلزَّحْفَ لِسُهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا مُغَلَّبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَيْدِي وَٱنْحِرَافِ ٱلسِّيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمْرَانُهُمْ وَٱللهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بِٱسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ ٱلتَّوَحُّشِ وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ فَصَارَ لَهُمْ خُلُقًا وَجِبِلَّةً وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلْذُوذًا لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ ٱلْحُكْمِ وَعَدَمِ ٱلِٱنْقِيَادِ لِلسِّيَاسَةِ وَهٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمْرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ فَغَايَةُ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْعَادِيَّةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ ٱلرِّحْلَةُ وَٱلتَّغَلُّبُ وَذٰلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ ٱلَّذِي بِهِ ٱلْعُمْرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ فَٱلْحَجَرُ مَثَلًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَثَافِيَّ ٱلْقِدْرِ فَيَنْقُلُونَهُ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَيُخَرِّبُونَهَا عَلَيْهِ وَيُعِدُّونَهُ لِذٰلِكَ وَٱلْخَشَبُ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيُعَمِّرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا ٱلْأَوْتَادَ مِنْهُ لِبُيُوتِهِمْ فَيُخَرِّبُونَ ٱلسَّقْفَ عَلَيْهِ لِذٰلِكَ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ وُجُودِهِمْ مُنَافِيَةً لِلْبِنَاءِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْعُمْرَانِ هٰذَا فِي حَالِهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَأَيْضًا فَطَبِيعَتُهُمُ ٱنْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ وَأَنَّ رِزْقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ حَدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كُلَّمَا ٱمْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ ٱنْتَهَبُوهُ فَإِذَا تَمَّ ٱقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذٰلِكَ بِٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْمُلْكِ بَطَلَتِ ٱلسِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَخَرِبَ ٱلْعُمْرَانُ وَأَيْضًا فَلِأَنَّهُمْ

يُكَلِّفُونَ عَلَى أَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيمَةً وَلَا قِسْطًا مِنَ ٱلْأَجْرِ وَٱلثَّمَنِ وَٱلْأَعْمَالُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ هِيَ أَصْلُ ٱلْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا وَإِذَا فَسَدَتِ ٱلْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَّانًا ضَعُفَتِ ٱلْآمَالُ فِي ٱلْمَكَاسِبِ وَٱنْقَبَضَتِ ٱلْأَيْدِي عَنِ ٱلْعَمَلِ وَٱبْذَعَرَّ ٱلسَّاكِنُ وَفَسَدَ ٱلْعُمْرَانُ وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِٱلْأَحْكَامِ وَزَجْرِ ٱلنَّاسِ عَنِ ٱلْمَفَاسِدِ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ إِنَّمَا هَمُّهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَٰلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهْرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ ٱلْمَفَاسِدِ وَرُبَّمَا فَرَضُوا ٱلْعُقُوبَاتِ فِي ٱلْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ ٱلْفَائِدَةِ وَٱلْجِبَايَةِ وَٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْهَا كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذَٰلِكَ لَيْسَ بِمُغْنٍ فِي دَفْعِ ٱلْمَفَاسِدِ وَزَجْرِ ٱلْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ ذَٰلِكَ زَائِدًا فِيهَا لِٱسْتِسْهَالِ ٱلْغُرْمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ ٱلْغَرَضِ فَتَبْقَى ٱلرَّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى(١) دُونَ حُكْمٍ وَٱلْفَوْضَى مُهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمْرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ وُجُودَ ٱلْمُلْكِ خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَٱجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا وَتَقَدَّمَ ذَٰلِكَ أَوَّلَ ٱلْفَصْلِ وَأَيْضًا فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي ٱلرِّئَاسَةِ وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمُ ٱلْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَعَلَى كُرْهٍ مِنْ أَجْلِ ٱلْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ ٱلْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَٱلْأُمَرَاءُ وَتَخْتَلِفُ ٱلْأَيْدِي عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ فِي ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْأَحْكَامِ فَيَفْسُدُ ٱلْعُمْرَانُ وَيَنْتَقِضُ قَالَ ٱلْأَعْرَابِيُّ ٱلْوَافِدُ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ ٱلْحَجَّاجِ وَأَرَادَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ ٱلسِّيَاسَةِ وَٱلْعُمْرَانِ فَقَالَ تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحْدَهُ وَٱنْظُرْ إِلَى مَا مَلَكُوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَوَّضَ عُمْرَانُهُ وَأَقْفَرَ سَاكِنُهُ وَبُدِّلَتِ ٱلْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ فَٱلْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ ٱلْأَمْصَارِ وَعِرَاقُ ٱلْعَرَبِ كَذَٰلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمْرَانُهُ ٱلَّذِي كَانَ لِلْفُرْسِ أَجْمَعَ وَٱلشَّامُ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ كَذَٰلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةُ وَٱلْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لِثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ ٱلسِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ بَسَائِطُهُ خَرَابًا كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ ٱلسُّودَانِ وَٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ كُلُّهُ عُمْرَانًا تَشْهَدُ بِذَٰلِكَ آثَارُ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ مِنَ ٱلْمَعَالِمِ وَتَمَاثِيلِ ٱلْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ ٱلْقُرَى وَٱلْمَدَرِ وَٱللَّهُ

(١) ومما يعزى الى سيدنا علي: لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

يَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل السابع والعشرون

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ لِخُلُقِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلَّذِي فِيهِمْ أَصْعَبُ ٱلْأُمَمِ ٱنْقِيَادًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِلْغِلْظَةِ وَٱلْأَنَفَةِ وَبُعْدِ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْمُنَافَسَةِ فِي ٱلرِّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا كَانَ ٱلدِّينُ بِٱلنُّبُوَّةِ أَوِ ٱلْوِلَايَةِ كَانَ ٱلْوَازِعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْمُنَافَسَةِ مِنْهُمْ فَسَهُلَ ٱنْقِيَادُهُمْ وَٱجْتِمَاعُهُمْ وَذَٰلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ ٱلْمُذْهِبِ لِلْغِلْظَةِ وَٱلْأَنَفَةِ ٱلْوَازِعِ عَنِ ٱلتَّحَاسُدِ وَٱلتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمِ ٱلنَّبِيُّ أَوِ ٱلْوَلِيُّ ٱلَّذِي يَبْعَثُهُمْ عَلَى ٱلْقِيَامِ بِأَمْرِ ٱللهِ يُذْهِبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ ٱلْأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ ٱلْحَقِّ تَمَّ ٱجْتِمَاعُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْمُلْكُ وَهُمْ مَعَ ذَٰلِكَ أَسْرَعُ ٱلنَّاسِ قَبُولًا لِلْحَقِّ وَٱلْهُدَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عِوَجِ ٱلْمَلَكَاتِ وَبَرَاءَتِهَا مِنْ ذَمِيمِ ٱلْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلْقَرِيبِ ٱلْمُعَانَاةِ ٱلْمُتَهَيِّءِ لِقَبُولِ ٱلْخَيْرِ بِبَقَائِهِ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ ٱلْعَوَائِدِ وَسُوءِ ٱلْمَلَكَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ

الفصل الثامن والعشرون

في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بَدَاوَةً مِنْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا فِي ٱلْقَفْرِ وَأَغْنَى عَنْ حَاجَاتِ ٱلتُّلُولِ وَحُبُوبِهَا لِٱعْتِيَادِهِمِ ٱلشَّظَفَ وَخُشُونَةَ ٱلْعَيْشِ فَٱسْتَغْنَوْا عَنْ غَيْرِهِمْ فَصَعُبَ ٱنْقِيَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لِإِيلَافِهِمْ ذَٰلِكَ وَلِلتَّوَحُّشِ وَرَئِيسُهُمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ غَالِبًا لِلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا ٱلْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَرًّا إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاغَمَتِهِمْ لِئَلَّا يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصَبِيَّتِهِ فَيَكُونَ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ وَسِيَاسَةُ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ٱلسَّائِسُ وَازِعًا بِٱلْقَهْرِ وَإِلَّا لَمْ تَسْتَقِمْ سِيَاسَتُهُ وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَخْذَ مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ خَاصَّةً وَٱلتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذَٰلِكَ مِنَ

ٱلْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَإِذَا مَلَكُوا أُمَّةً مِنَ ٱلْأُمَمِ جَعَلُوا غَايَةَ مُلْكِهِمِ ٱلِٱنْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَتَرَكُوا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَرُبَّمَا جَعَلُوا ٱلْعُقُوبَاتِ عَلَى ٱلْمَفَاسِدِ فِي ٱلْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَكْثِيرِ ٱلْجِبَايَاتِ وَتَحْصِيلِ ٱلْفَوَائِدِ فَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ وَازِعًا وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعِثًا بِحَسَبِ ٱلْأَغْرَاضِ ٱلْبَاعِثَةِ عَلَى ٱلْمَفَاسِدِ وَٱسْتِهَانَةِ مَا يُعْطِي مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرَضِهِ فَتَنْمُو ٱلْمَفَاسِدُ بِذٰلِكَ وَيَقَعُ تَخْرِيبُ ٱلْعُمْرَانِ فَتَبْقَى تِلْكَ ٱلْأُمَّةُ كَأَنَّهَا فَوْضَى مُسْتَطِيلَةً أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلَا يَسْتَقِيمُ لَهَا عُمْرَانٌ وَتَخْرَبُ سَرِيعًا شَأْنَ ٱلْفَوْضَى كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَبَعُدَتْ طِبَاعُ ٱلْعَرَبِ لِذٰلِكَ كُلِّهِ عَنْ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ ٱنْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِبْغَةٍ دِينِيَّةٍ تَمْحُو ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَتَجْعَلُ ٱلْوَازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دِفَاعِ ٱلنَّاسِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي ٱلْمِلَّةِ لَمَّا شَيَّدَ لَهُمُ ٱلدِّينُ أَمْرَ ٱلسِّيَاسَةِ بِٱلشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا ٱلْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ ٱلْعُمْرَانِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَتَتَابَعَ فِيهَا ٱلْخُلَفَاءُ عَظُمَ حِينَئِذٍ مُلْكُهُمْ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُمْ كَانَ رُسْتُمُ إِذَا رَأَى ٱلْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ أَكَلَ عُمَرُ كَبِدِي يُعَلِّمُ ٱلْكِلَابَ ٱلْآدَابَ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ ٱلدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا ٱلدِّينَ فَنَسُوا ٱلسِّيَاسَةَ وَرَجَعُوا إِلَى قَفْرِهِمْ وَجَهِلُوا شَأْنَ عَصَبِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ بِبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلِٱنْقِيَادِ وَإِعْطَاءِ ٱلنَّصَفَةِ فَتَوَحَّشُوا كَمَا كَانُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْمُلْكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ ٱلْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ وَلَمَّا ذَهَبَ أَمْرُ ٱلْخِلَافَةِ وَٱمَّحَى رَسْمُهَا ٱنْقَطَعَ ٱلْأَمْرُ جُمْلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ وَغَلَبَ عَلَيْهِمِ ٱلْعَجَمُ دُونَهُمْ وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قِفَارِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ ٱلْمُلْكَ وَلَا سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ ٱلْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي ٱلْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي ٱلْقَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي ٱلْخَلِيقَةِ مَا كَانَ لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَدُوَلُ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ وَحِمْيَرَ وَٱلتَّبَابِعَةِ شَاهِدَةٌ بِذٰلِكَ ثُمَّ دَوْلَةُ مُضَرَ فِي ٱلْإِسْلَامِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي ٱلْعَبَّاسِ لٰكِنْ بَعُدَ عَهْدُهُمْ بِٱلسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا ٱلدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ غَلَبٌ عَلَى ٱلدُّوَلِ ٱلْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي ٱلْمَغْرِبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَلَا يَكُونُ مَآلُهُ وَغَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِيبَ مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعُمْرَانِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَٱللّٰهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع والعشرون

في ان البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار

قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُمْرَانَ ٱلْبَادِيَةِ نَاقِصٌ عَنْ عُمْرَانِ ٱلْحَوَاضِرِ وَٱلْأَمْصَارِ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلضَّرُورِيَّةَ فِي ٱلْعُمْرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لِأَهْلِ ٱلْبَدْوِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ لَدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ أُمُورُ ٱلْفَلْحِ وَمَوَادُّهَا مَعْدُومَةٌ وَمُعْظَمُهَا ٱلصَّنَائِعُ فَلَا تُوجَدُ لَدَيْهِمْ فِي ٱلْكُلِّيَّةِ مِنْ نَجَّارٍ وَخَيَّاطٍ وَحَدَّادٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ مِمَّا يُقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فِي ٱلْفَلْحِ وَغَيْرِهِ وَكَذَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مُغَلِّ ٱلزِّرَاعَةِ وَأَعْيَانِ ٱلْحَيَوَانِ أَوْ فَضَلَاتِهِ أَلْبَانًا وَأَوْبَارًا وَأَشْعَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ فَيُعَوِّضُونَهُمْ عَنْهُ بِٱلدَّنَانِيرِ وَٱلدَّرَاهِمِ إِلَّا أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ فِي ٱلضَّرُورِيِّ وَحَاجَةُ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي ٱلْحَاجِيِّ وَٱلْكَمَالِيِّ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وُجُودِهِمْ فَمَا دَامُوا فِي ٱلْبَادِيَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا ٱسْتِيلَاءٌ عَلَى ٱلْأَمْصَارِ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى أَهْلِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذٰلِكَ وَطَالَبُوهُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلْمِصْرِ مَلِكٌ كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِغَلَبِ ٱلْمَلِكِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْمِصْرِ مَلِكٌ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِئَاسَةٍ وَنَوْعِ ٱسْتِبْدَادٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى ٱلْبَاقِينَ وَإِلَّا ٱنْتَقَضَ عُمْرَانُهُ وَذٰلِكَ ٱلرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَٱلسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ إِمَّا طَوْعًا بِبَذْلِ ٱلْمَالِ لَهُمْ ثُمَّ يُبْدِي لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلضَّرُورِيَّاتِ فِي مِصْرِهِ فَيَسْتَقِيمُ عُمْرَانُهُمْ وَإِمَّا كُرْهًا إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذٰلِكَ وَلَوْ بِٱلتَّغْرِيبِ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يُغَالِبُ بِهِ ٱلْبَاقِينَ فَيَضْطَرُّ ٱلْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ لِذٰلِكَ مِنْ فَسَادِ عُمْرَانِهِمْ وَرُبَّمَا لَا يَسَعُهُمْ مُفَارَقَةُ تِلْكَ ٱلنَّوَاحِي إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى لِأَنَّ كُلَّ ٱلْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِٱلْبَدْوِ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيْهَا وَمَنَعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا فَلَا يَجِدُ هٰؤُلَاءِ مَلْجَأً إِلَّا طَاعَةَ ٱلْمِصْرِ فَهُمْ بِٱلضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ لِأَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱللّٰهُ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْأَحَدُ ٱلْقَهَّارُ

الفصل الثالث من الكتاب الاول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات

الفصل الاول

في ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبية

وَذٰلِكَ أَنَّا قَرَّرْنَا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّ ٱلْمُغَالَبَةَ وَٱلْمُمَانَعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ لِمَا فِيهَا مِنَ ٱلنُّعْرَةِ وَٱلتَّذَامُرِ وَٱسْتِمَاتَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ صَاحِبِهِ ۰ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُلْكَ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ مَلْذُوذٌ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلْبَدَنِيَّةِ وَٱلْمَلَاذِّ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ فَيَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَافُسُ غَالِبًا وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَهُ أَحَدٌ لِصَاحِبِهِ إِلَّا إِذَا غُلِبَ عَلَيْهِ فَتَقَعُ ٱلْمُنَازَعَةُ وَتُفْضِي إِلَى ٱلْحَرْبِ وَٱلْقِتَالِ وَٱلْمُغَالَبَةِ وَشَيْءٌ مِنْهَا لَا يَقَعُ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ بَعِيدٌ عَنْ أَفْهَامِ ٱلْجُمْهُورِ بِٱلْجُمْلَةِ وَمُتَنَاسُونَ لَهُ لِأَنَّهُمْ نَسُوا عَهْدَ تَمْهِيدِ ٱلدَّوْلَةِ مُنْذُ أَوَّلِهَا وَطَالَ أَمَدُ مَرْبَاهُمْ فِي ٱلْحَضَارَةِ وَتَعَاقُبِهِمْ فِيهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ فَلَا يَعْرِفُونَ مَا فَعَلَ ٱللّٰهُ أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ إِنَّمَا يُدْرِكُونَ أَصْحَابَ ٱلدَّوْلَةِ وَقَدِ ٱسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهُمْ وَوَقَعَ ٱلتَّسْلِيمُ لَهُمْ وَٱلِٱسْتِغْنَاءُ عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ مِنْ أَوَّلِهِ وَمَا لَقِيَ أَوَّلُهُمْ مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ دُونَهُ وَخُصُوصًا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي نِسْيَانِ هٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَثَرِهَا لِطُولِ ٱلْأَمَدِ وَٱسْتِغْنَائِهِمْ فِي ٱلْغَالِبِ عَنْ قُوَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِمَا تَلَاشَى وَطَنُهُمْ وَخَلَا مِنَ ٱلْعَصَائِبِ وَٱللّٰهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

الفصل الثاني

في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّوَلَ ٱلْعَامَّةَ فِي أَوَّلِهَا يَصْعُبُ عَلَى ٱلنُّفُوسِ ٱلِٱنْقِيَادُ لَهَا إِلَّا بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ ٱلْغَلَبِ لِلْغَرَابَةِ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ لَمْ يَأْلَفُوا مُلْكَهَا وَلَا ٱعْتَادُوهُ فَإِذَا ٱسْتَقَرَّتِ ٱلرِّئَاسَةُ فِي أَهْلِ ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِٱلْمُلْكِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَتَوَارَثُوهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ فِي أَعْقَابٍ كَثِيرِينَ وَدُوَلٍ مُتَعَاقِبَةٍ نَسِيَتِ ٱلنُّفُوسُ شَأْنَ ٱلْأَوَّلِيَّةِ وَٱسْتَحْكَمَتْ لِأَهْلِ ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ صِبْغَةُ ٱلرِّئَاسَةِ وَرَسَخَ فِي ٱلْعَقَائِدِ دِينُ ٱلِٱنْقِيَادِ لَهُمْ وَٱلتَّسْلِيمِ وَقَاتَلَ ٱلنَّاسُ مَعَهُمْ

عَلَى أَمْرِهِمْ قِتَالَهُمْ عَلَى ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ فَلَمْ يَحْتَاجُوا حِينَئِذٍ فِي أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرِ عِصَابَةٍ بَلْ كَأَنَّ طَاعَتَهَا كِتَابٌ مِنَ ٱللهِ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُعْلَمُ خِلَافُهُ وَلِأَمْرٍ مَا يُوضَعُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْإِمَامَةِ آخِرَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِهَا وَيَكُونُ ٱسْتِظْهَارُهُمْ حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمِ ٱلْمَخْصُوصَةِ إِمَّا بِٱلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعِينَ ٱلَّذِينَ نَشَأُوا فِي ظِلِّ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِمَّا بِٱلْعَصَائِبِ ٱلْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا ٱلدَّاخِلِينَ فِي وِلَايَتِهَا وَمِثْلُ هٰذَا وَقَعَ لِبَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ ٱلْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ ٱلْمُعْتَصِمِ وَٱبْنِهِ ٱلْوَاثِقِ وَٱسْتِظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِٱلْمَوَالِي مِنَ ٱلْعَجَمِ وَٱلتُّرْكِ وَٱلدَّيْلَمِ وَٱلسَّلْجُوقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ثُمَّ تَغَلَّبَ ٱلْعَجَمُ ٱلْأَوْلِيَاءُ عَلَى ٱلنَّوَاحِي وَتَقَلَّصَ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالَ بَغْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا ٱلدَّيْلَمُ وَمَلَكُوهَا وَصَارَ ٱلْخَلَائِقُ فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ ٱنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَمَلَكَ ٱلسَّلْجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ ٱنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَزَحَفَ آخِرَ ٱلتَّتَارِ فَقَتَلُوا ٱلْخَلِيفَةَ وَمَحَوْا رَسْمَ ٱلدَّوْلَةِ وَكَذَا صَنْهَاجَةُ بِٱلْمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ مُنْذُ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَٱسْتَمَرَّتْ لَهُمُ ٱلدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةَ ٱلظِّلِّ بِٱلْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةَ وَٱلْقَلْعَةِ وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيقِيَّةَ وَرُبَّمَا ٱنْتَزَى بِتِلْكَ ٱلثُّغُورِ مَنْ نَازَعَهُمُ ٱلْمُلْكَ وَٱعْتَصَمَ فِيهَا وَٱلسُّلْطَانُ وَٱلْمُلْكُ مَعَ ذٰلِكَ مُسَلَّمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأَذَّنَ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ وَجَاءَ ٱلْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي ٱلْمَصَامِدَةِ فَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَكَذَا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهَا مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱسْتَوْلَى مُلُوكُ ٱلطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا وَٱقْتَسَمُوا خِطَّتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱنْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وِلَايَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ ٱلْعَجَمِ مَعَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِأَلْقَابِ ٱلْمُلْكِ وَلَبِسُوا شَارَتَهُ وَأَمِنُوا مِمَّنْ يَنْقُضُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لِأَنَّ ٱلْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبَ وَلَا قَبَائِلَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَٱسْتَمَرَّ لَهُمْ ذٰلِكَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ شَرَفٍ

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ | أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا | كَٱلْهِرِّ يَحْكِي ٱنْتِفَاخًا صُورَةَ ٱلْأَسَدِ

فَٱسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِٱلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعِينَ وَٱلطُّرَّاءِ عَلَى ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُدْوَةِ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ وَغَيْرِهِمْ ٱقْتِدَاءً بِٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي ٱلِٱسْتِظْهَارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلْعَرَبِ وَٱسْتَبَدَّ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دُوَلٌ عَظِيمَةٌ

أَسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَحَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ ٱلْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي ٱقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذٰلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمِ ٱلْبَحْرَ ٱلْمُرَابِطُونَ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةَ فَٱسْتَبْدَلُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَرَاكِزِهِمْ وَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِفِقْدَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَبِهٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ يَكُونُ تَمْهِيدُ ٱلدَّوْلَةِ وَحِمَايَتُهَا مِنْ أَوَّلِهَا وَقَدْ ظَنَّ ٱلطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ ٱلدُّوَلِ بِإِطْلَاقٍ هُمُ ٱلْجُنْدُ أَهْلُ ٱلْعَطَاءِ ٱلْمَفْرُوضِ مَعَ ٱلْأَهِلَّةِ ذَكَرَ ذٰلِكَ فِي كِتَابِهِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ سِرَاجَ ٱلْمُلُوكِ وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ ٱلدُّوَلِ ٱلْعَامَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِٱلدُّوَلِ ٱلْأَخِيرَةِ بَعْدَ ٱلتَّمْهِيدِ وَٱسْتِقْرَارِ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلنِّصَابِ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلصِّبْغَةِ لِأَهْلِهِ فَٱلرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ ٱلدَّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا وَخَلَقِ جِدَّتِهَا وَرُجُوعِهَا إِلَى ٱلِٱسْتِظْهَارِ بِٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ ثُمَّ إِلَى ٱلْمُسْتَخْدَمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ بِٱلْأَجْرِ عَلَى ٱلْمُدَافَعَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دُوَلَ ٱلطَّوَائِفِ وَذٰلِكَ عِنْدَ ٱخْتِلَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱنْقِرَاضِ عَصَبِيَّتِهَا مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱسْتِبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ بِقُطْرِهِ وَكَانَ فِي إِيَالَةِ ٱلْمُسْتَعِينِ بْنِ هُودٍ وَٱبْنِهِ ٱلْمُظَفَّرِ أَهْلِ سَرَقُسْطَةَ وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ ٱلْعَصَبِيَّةِ شَيْءٌ لِٱسْتِيلَاءِ ٱلتَّرَفِ عَلَى ٱلْعَرَبِ مُنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ وَهَلَاكِهِمْ وَلَمْ يَرَ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبِدًّا بِٱلْمُلْكِ عَنْ عَشَائِرِهِ قَدِ ٱسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ ٱلِٱسْتِبْدَادِ مُنْذُ عَهْدِ ٱلدَّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ لِذٰلِكَ لَا يُنَازَعُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِٱلْأُجَرَاءِ مِنَ ٱلْمُرْتَزِقَةِ فَأَطْلَقَ ٱلطَّرْطُوشِيُّ ٱلْقَوْلَ فِي ذٰلِكَ وَلَمْ يَتَفَطَّنْ لِكَيْفِيَّةِ ٱلْأَمْرِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَتَفَطَّنْ أَنْتَ لَهُ وَٱفْهَمْ سِرَّ ٱللهِ فِيهِ وَٱللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثالث

في انه قد يحدث لبعض اهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِعَصَبِيَّةٍ غَلَبٌ كَثِيرٌ عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ وَفِي نُفُوسِ ٱلْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقَاصِيَةِ إِذْعَانٌ لَهُمْ وَٱنْقِيَادٌ فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هٰذَا ٱلْخَارِجُ وَٱنْتَبَذَ عَنْ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَمَنْبِتِ عِزِّهِ ٱشْتَمَلُوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَأْنِهِ وَعُنُوا بِتَمْهِيدِ دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ ٱسْتِقْرَارَهُ فِي نِصَابِهِ وَتَنَاوُلَهُ ٱلْأَمْرَ مِنْ يَدِ أَعْيَاصِهِ وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مُظَاهَرَتِهِ بِٱصْطِفَائِهِمْ لِرُتَبِ ٱلْمُلْكِ وَخِطَطِهِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وِلَايَةِ ثَغْرٍ وَلَا يَطْمَعُونَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيمًا لِعَصَبِيَّتِهِ وَٱنْقِيَادًا لِمَا ٱسْتَحْكَمَ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنْ

صِبْغَةِ ٱلْغَلْبِ فِي ٱلْعَالَمِ وَعَقِيدَةٍ إِيمَانِيَّةٍ ٱسْتَقَرَّتْ فِي ٱلْإِذْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ دُونَهُ لَزُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَهٰذَا كَمَا وَقَعَ لِلْأَدَارِسَةِ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ لَمَّا ٱنْتَبَذَ ٱلطَّالِبِيُّونَ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ إِلَى ٱلْقَاصِيَةِ وَٱبْتَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ ٱلْخِلَافَةِ وَسَمَوْا إِلَى طَلَبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي ٱلْعَبَّاسِ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلصِّبْغَةُ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلاً ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ فَخَرَجُوا بِٱلْقَاصِيَةِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَدَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمُ ٱلْبَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَأَوْرَبَةُ وَمَغِيلَةُ لِلْأَدَارِسَةِ وَكُتَامَةُ وَصَنْهَاجَةُ وَهَوَّارَةُ لِلْعُبَيْدِيِّينَ فَشَيَّدُوا دَوْلَتَهُمْ وَمَهَّدُوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَٱقْتَطَعُوا مِنْ مَمَالِكِ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ ٱلْمَغْرِبَ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةَ وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ وَظِلُّ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ مَلَكُوا مِصْرَ وَٱلشَّامَ وَٱلْحِجَازَ وَقَاسَمُوهُمْ فِي ٱلْمَمَالِكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ شِقَّ ٱلْأُبْلُمَةِ وَهٰؤُلَاءِ ٱلْبَرَابِرَةُ ٱلْقَائِمُونَ بِٱلدَّوْلَةِ مَعَ ذٰلِكَ كُلُّهُمْ مُسَلِّمُونَ لِلْعُبَيْدِيِّينَ أَمْرَهُمْ مُذْعِنُونَ لِمُلْكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي ٱلرُّتْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيماً لِمَا حَصَلَ مِنْ صِبْغَةِ ٱلْمُلْكِ لِبَنِي هَاشِمٍ وَلِمَا ٱسْتَحْكَمَ مِنَ ٱلْغَلْبِ لِقُرَيْشٍ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ ٱلْأُمَمِ فَلَمْ يَزَلِ ٱلْمُلْكُ فِي أَعْقَابِهِمْ إِلَى أَنِ ٱنْقَرَضَتْ دَوْلَةُ ٱلْعَرَبِ بِأَسْرِهَا وَٱللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الرابع

في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حق

وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِٱلتَّغَلُّبِ وَٱلتَّغَلُّبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱتِّفَاقِ ٱلْأَهْوَاءِ عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ وَجَمْعُ ٱلْقُلُوبِ وَتَأْلِيفُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةٍ مِنَ ٱللهِ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ قَالَ تَعَالَى لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَسِرُّهُ أَنَّ ٱلْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ ٱلْبَاطِلِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى ٱلدُّنْيَا حَصَلَ ٱلتَّنَافُسُ وَفَشَا ٱلْخِلَافُ وَإِذَا ٱنْصَرَفَتْ إِلَى ٱلْحَقِّ وَرَفَضَتِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى ٱللهِ ٱتَّحَدَتْ وِجْهَتُهَا فَذَهَبَ ٱلتَّنَافُسُ وَقَلَّ ٱلْخِلَافُ وَحَسُنَ ٱلتَّعَاوُنُ وَٱلتَّعَاضُدُ وَٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلْكَلِمَةِ لِذٰلِكَ فَعَظُمَتِ ٱلدَّوْلَةُ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس

في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ ٱلدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِٱلتَّنَافُسِ وَٱلتَّحَاسُدِ ٱلَّذِي فِي أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَتُفْرِدُ ٱلْوِجْهَةَ إِلَى ٱلْحَقِّ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلِٱسْتِبْصَارُ فِي أَمْرِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لِأَنَّ ٱلْوِجْهَةَ وَاحِدَةٌ وَٱلْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمِيتُونَ عَلَيْهِ وَأَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ فَأَغْرَاضُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِٱلْبَاطِلِ وَتَخَاذُلُهُمْ لِتَقِيَّةِ ٱلْمَوْتِ حَاصِلٌ فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيُعَاجِلُهُمُ ٱلْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَٱلذُّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهٰذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْفُتُوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْقَادِسِيَّةِ وَٱلْيَرْمُوكِ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا فِي كُلِّ مُعَسْكَرٍ وَجُمُوعُ فَارِسَ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِٱلْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ هِرَقْلَ عَلَى مَا قَالَهُ ٱلْوَاقِدِيُّ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ وَهَزَمُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ أَيْضًا فِي دَوْلَةِ لِمْتُونَةَ وَدَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ كَانَ فَقَدْ بِٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُقَاوِمُهُمْ فِي ٱلْعَدَدِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَشِفُّ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّ ٱلِٱجْتِمَاعَ ٱلدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِٱلِٱسْتِبْصَارِ وَٱلِٱسْتِمَاتَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ ٱلدِّينِ وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْتَقِضُ ٱلْأَمْرُ وَيَصِيرُ ٱلْغَلَبُ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَحْدَهَا دُونَ زِيَادَةِ ٱلدِّينِ فَتَغْلِبُ ٱلدَّوْلَةَ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ ٱلْعَصَائِبِ ٱلْمُكَافِئَةِ لَهَا أَوِ ٱلزَّائِدَةِ ٱلْقُوَّةِ عَلَيْهَا ٱلَّذِينَ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ ٱلدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بَدَاوَةً وَٱعْتَبِرْ هٰذَا فِي ٱلْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَتْ زَنَاتَةُ أَبْدَى مِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشًا وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ ٱلدَّعْوَةُ ٱلدِّينِيَّةُ بِٱتِّبَاعِ ٱلْمَهْدِيِّ فَلَبِسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتَةَ أَوَّلًا وَٱسْتَتْبَعُوهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَٱلْبَدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ ٱلصِّبْغَةِ ٱلدِّينِيَّةِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى ٱلْأَمْرِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَٱللّٰهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل السادس

في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وَهٰذَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ تُحْمَلُ عَلَيْهِ ٱلْكَافَّةُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلصَّحِيحِ كَمَا مَرَّ مَا بَعَثَ ٱللّٰهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَإِذَا كَانَ هٰذَا فِي ٱلْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِخَرْقِ ٱلْعَوَائِدِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِمْ أَنْ لَا تُخْرَقَ لَهُ ٱلْعَادَةُ فِي ٱلْغَلَبِ بِغَيْرِ عَصَبِيَّةٍ وَقَدْ وَقَعَ هٰذَا لِٱبْنِ قَسِيٍّ شَيْخِ ٱلصُّوفِيَّةِ وَصَاحِبِ كِتَابِ خَلْعِ ٱلنَّعْلَيْنِ فِي ٱلتَّصَوُّفِ ثَارَ بِٱلْأَنْدَلُسِ دَاعِيًا إِلَى ٱلْحَقِّ وَسُمِّيَ أَصْحَابُهُ بِٱلْمُرَابِطِينَ قُبَيْلَ دَعْوَةِ ٱلْمَهْدِيِّ فَٱسْتَتَبَّ لَهُ ٱلْأَمْرُ قَلِيلًا لِشُغْلِ لَمْتُونَةَ بِمَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبُ وَلَا قَبَائِلُ يَدْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ فَلَمْ يَلْبَثْ حِينَ ٱسْتَوْلَى ٱلْمُوَحِّدُونَ عَلَى ٱلْمَغْرِبِ أَنْ أَذْعَنَ لَهُمْ وَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِمْ وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَعْقِلِهِ بِحِصْنِ أَرْكَشَ وَأَمْكَنَهُمْ مِنْ ثَغْرِهِ وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تُسَمَّى ثَوْرَةَ ٱلْمُرَابِطِينَ وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ أَحْوَالُ ٱلثُّوَّارِ ٱلْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ مِنَ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْفُقَهَاءِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طُرُقِ ٱلدِّينِ يَذْهَبُونَ إِلَى ٱلْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلنَّهْيِ عَنْهُ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِي ٱلثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ ٱللّٰهِ فَيَكْثُرُ أَتْبَاعُهُمْ وَٱلْمُتَلَثِّلُونَ بِهِمْ مِنَ ٱلْغَوْغَاءِ وَٱلدَّهْمَاءِ وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذٰلِكَ لِلْمَهَالِكِ وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي هٰذَا ٱلسَّبِيلِ مَأْزُورِينَ غَيْرَ مَأْجُورِينَ لِأَنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ ٱلْقُدْرَةُ عَلَيْهِ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَأَحْوَالُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلدُّوَلِ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لَا يُزَحْزِحُهَا وَيَهْدِمُ بِنَاءَهَا إِلَّا ٱلْمُطَالَبَةُ ٱلْقَوِيَّةُ ٱلَّتِي مِنْ وَرَائِهَا عَصَبِيَّةُ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَشَائِرِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهٰكَذَا كَانَ حَالُ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى ٱللّٰهِ بِٱلْعَشَائِرِ وَٱلْعَصَائِبِ وَهُمُ ٱلْمُؤَيَّدُونَ مِنَ ٱللّٰهِ بِٱلْكَوْنِ كُلِّهِ لَوْ شَاءَ لٰكِنَّهُ إِنَّمَا أَجْرَى ٱلْأُمُورَ عَلَى مُسْتَقَرِّ ٱلْعَادَةِ وَٱللّٰهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبَ وَكَانَ فِيهِ مُحِقًّا قَصَّرَ بِهِ ٱلِٱنْفِرَادُ عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَطَاحَ فِي هُوَّةِ ٱلْهَلَاكِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُتَلَبِّسِينَ بِذٰلِكَ فِي

طَلَبِ ٱلرِّئَاسَةِ فَأَجْدَرُ أَنْ تَعُوقَهُ ٱلْعَوَائِقُ وَتَنْقَطِعُ بِهِ ٱلْمَهَالِكُ لِأَنَّهُ أَمْرُ ٱللهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِرِضَاهُ وَإِعَانَتِهِ وَٱلْإِخْلَاصِ لَهُ وَٱلنَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يَشُكُّ فِي ذَٰلِكَ مُسْلِمٌ وَلَا يَرْتَابُ فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوَّلُ ٱبْتِدَاءِ هَٰذِهِ ٱلنَّزْعَةِ فِي ٱلْمِلَّةِ بِبَغْدَادَ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ وَقَتْلَ ٱلْأَمِينِ وَأَبْطَأَ ٱلْمَأْمُونُ بِخُرَاسَانَ عَنْ مَقْدَمِ ٱلْعِرَاقِ ثُمَّ عَهِدَ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى ٱلرِّضَى مِنْ آلِ ٱلْحُسَيْنِ فَكَشَفَ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ عَنْ وَجْهِ ٱلنَّكِيرِ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ وَخَلْعِ طَاعَةِ ٱلْمَأْمُونِ وَٱلِٱسْتِبْدَالِ مِنْهُ وَبُويِعَ إِبْرٰهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ فَوَقَعَ ٱلْهَرْجُ بِبَغْدَادَ وَٱنْطَلَقَتْ أَيْدِي ٱلزَّعَرَةِ بِهَا مِنَ ٱلشُّطَّارِ وَٱلْحَرْبِيَّةِ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَافِيَةِ وَٱلصَّوْنِ وَقَطَعُوا ٱلسَّبِيلَ وَٱمْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ نِهَابِ ٱلنَّاسِ وَبَاعُوهَا عَلَانِيَةً فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَٱسْتَعْدَى أَهْلُهَا ٱلْحُكَّامَ فَلَمْ يُعْدُوهُمْ فَتَوَافَرَ أَهْلُ ٱلدِّينِ وَٱلصَّلَاحِ عَلَى مَنْعِ ٱلْفُسَّاقِ وَكَفِّ عَادِيَتِهِمْ وَقَامَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدٍ ٱلدُّرْيُوسِ وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى ٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ فَأَجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ ٱلزَّعَارَةِ فَغَلَبَهُمْ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ بِٱلضَّرْبِ وَٱلتَّنْكِيلِ ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ يُعْرَفُ بِسَهْلِ ٱبْنِ سَلَامَةَ ٱلْأَنْصَارِيِّ وَيُكَنَّى أَبَا حَاتِمٍ وَعَلَّقَ مُصْحَفًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى ٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلْعَمَلِ بِكِتَابِ ٱللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَٱتَّبَعَهُ ٱلنَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَمَنْ دُونَهُمْ وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ وَٱتَّخَذَ ٱلدِّيوَانَ وَطَافَ بِبَغْدَادَ وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ ٱلْمَارَّةَ وَمَنَعَ ٱلْخِفَارَةَ لِأُولَئِكَ ٱلشُّطَّارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدٌ ٱلدُّرْيُوسُ أَنَا لَا أَعِيبُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ لَكِنِّي أُقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ ٱلْكِتَابَ وَٱلسُّنَّةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَذَٰلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرٰهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ ٱلْعَسَاكِرَ فَغَلَبَهُ وَأَسَرَهُ وَٱنْحَلَّ أَمْرُهُ سَرِيعًا وَذَهَبَ وَنَجَا بِنَفْسِهِ ثُمَّ ٱقْتَدَى بِهَٰذَا ٱلْعَمَلِ بَعْدُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُوَسْوَسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ ٱلْحَقِّ وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِغِبَّةِ أَمْرِهِمْ وَمَآلِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هٰؤُلَاءِ إِمَّا ٱلْمُدَاوَاةُ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْجُنُونِ وَإِمَّا ٱلتَّنْكِيلُ بِٱلْقَتْلِ أَوِ ٱلضَّرْبِ إِنْ أَحْدَثُوا هَرْجًا وَإِمَّا إِذَاعَةُ ٱلسُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَعَدُّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّفَّاعِينَ وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى ٱلْفَاطِمِيِّ ٱلْمُنْتَظَرِ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ لَهُ وَلَيْسَ مَعَ ذَٰلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ ٱلْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ وَأَكْثَرُ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِمِثْلِ هَٰذَا

تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التوبذري عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هناك وزعم أنه الفاطمي المنتظر تلبيسا على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وأن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدس إليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوي من قتله في فراشه وكذلك خرج في غماره أيضا لأول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الأرذلون من سفهاء تلك القبائل وأغمارهم وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لأربعين يوما من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الأولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما إن كان التلبيس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن يبوء بإثمه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه

الفصل السابع

في ان كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التي تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فإذا توزعت العصائب كلها على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددها وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغرا للدولة وتخما لوطنها ونطاقا لمركز ملكها فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعا لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة

وَمَا كَانَتِ ٱلْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفَدْ عَدَدُهَا فِي تَوْزِيعِ ٱلْحِصَصِ عَلَى ٱلثُّغُورِ وَٱلنَّوَاحِي بَقِيَ فِي ٱلدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ ٱلْغَايَةِ حَتَّى يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ وَٱلْعِلَّةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ فِي ذٰلِكَ هِيَ قُوَّةُ ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنْ سَائِرِ ٱلْقُوَى ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ فَشَأْنُهَا ذٰلِكَ فِي فِعْلِهَا وَٱلدَّوْلَةُ فِي مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي ٱلطَّرَفِ وَٱلنِّطَاقِ وَإِذَا ٱنْتَهَتْ إِلَى ٱلنِّطَاقِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ عَجَزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنَ ٱلْأَشِعَّةِ وَٱلْأَنْوَارِ إِذَا ٱنْبَعَثَتْ مِنَ ٱلْمَرَاكِزِ وَٱلدَّوَائِرِ ٱلْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ ٱلْمَاءِ مِنَ ٱلنَّقْرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا ٱلْهَرَمُ وَٱلضَّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي ٱلتَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأَطْرَافِ وَلَا يَزَالُ ٱلْمَرْكَزُ مَحْفُوظًا إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِ ٱلْأَمْرِ جُمْلَةً فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱنْقِرَاضُ ٱلْمَرْكَزِ وَإِذَا غُلِبَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلَا يَنْفَعُهَا بَقَاءُ ٱلْأَطْرَافِ وَٱلنِّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُّ لِوَقْتِهَا فَإِنَّ ٱلْمَرْكَزَ كَٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي تَنْبَعِثُ مِنْهُ ٱلرُّوحُ فَإِذَا غُلِبَ عَلَى ٱلْقَلْبِ وَمُلِكَ ٱنْهَزَمَ جَمِيعُ ٱلْأَطْرَافِ وَٱنْظُرْ هٰذَا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْفَارِسِيَّةِ كَانَ مَرْكَزُهَا ٱلْمَدَائِنَ فَلَمَّا غَلَبَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَلَى ٱلْمَدَائِنِ ٱنْقَرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمَعَ وَلَمْ يَنْفَعْ يَزْدَجِرْدَ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْ أَطْرَافِ مَمَالِكِهِ وَبِٱلْعَكْسِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلدَّوْلَةُ ٱلرُّومِيَّةُ بِٱلشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكَزُهَا ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَغَلَبَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ بِٱلشَّامِ تَحَيَّزُوا إِلَى مَرْكَزِهِمْ بِٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَضُرَّهُمُ ٱنْتِزَاعُ ٱلشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَلَمْ يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَّصِلًا بِهَا إِلَى أَنْ تَأَذَّنَ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِهِ وَٱنْظُرْ أَيْضًا شَأْنَ ٱلْعَرَبِ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصَائِبُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ ٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَمِصْرَ لِأَسْرَعِ وَقْتٍ ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذٰلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ ٱلسِّنْدِ وَٱلْحَبَشَةِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصًا عَلَى ٱلْمَمَالِكِ وَٱلثُّغُورِ وَنَزَلُوهَا حَامِيَةً وَنَفِدَ عَدَدُهُمْ فِي تِلْكَ ٱلتَّوْزِيعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ ٱلْفُتُوحَاتِ بَعْدُ وَٱنْتَهَى أَمْرُ ٱلْإِسْلَامِ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تِلْكَ ٱلْحُدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ ٱلدَّوْلَةُ حَتَّى تَأَذَّنَ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِهَا وَكَذَا كَانَ حَالُ ٱلدُّوَلِ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ كُلُّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا فِي ٱلْقِلَّةِ وَٱلْكَثْرَةِ وَعِنْدَ نَفَادِ عَدَدِهِمْ بِٱلتَّوْزِيعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ ٱلْفَتْحُ وَٱلْاِسْتِيلَاءُ سُنَّةَ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الثامن

في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ هُمُ ٱلْحَامِيَةُ ٱلَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَامَّةِ قَبِيلُهَا وَأَهْلُ عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكَ وَأَوْطَانًا وَكَانَ مُلْكُهَا أَوْسَعَ لِذَٰلِكَ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا أَلَّفَ ٱللهُ كَلِمَةَ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ وَكَانَ عَدَدُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرِ غَزَوَاتِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ أَلْفٍ وَعَشْرَةَ آلَافٍ مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ إِلَى ٱلْوَفَاةِ فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لِطَلَبِ مَا فِي أَيْدِي ٱلْأُمَمِ مِنَ ٱلْمُلْكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ حِمًى وَلَا وَزَرٌ فَٱسْتُبِيحَ حِمَى فَارِسَ وَٱلرُّومِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ ٱلْعَظِيمَتَيْنِ فِي ٱلْعَالَمِ لِعَهْدِهِمْ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْقُوطِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَخَطَوْا مِنَ ٱلْحِجَازِ إِلَى ٱلسُّوسِ ٱلْأَقْصَى وَمِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلتُّرْكِ بِأَقْصَى ٱلشَّمَالِ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ ثُمَّ ٱنْظُرْ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَوْلَةَ صَنْهَاجَةَ وَٱلْمُوَحِّدِينَ مَعَ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ قَبْلَهُمْ لَمَّا كَانَ كُتَامَةُ ٱلْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ أَكْثَرَ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَمِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ فَمَلَكُوا أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبَ وَٱلشَّامَ وَمِصْرَ وَٱلْحِجَازَ ثُمَّ ٱنْظُرْ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَوْلَةَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَ عَدَدُهُمْ أَقَلَّ مِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ قَصَّرَ مُلْكُهُمْ عَنْ مُلْكِ ٱلْمُوَحِّدِينَ لِقُصُورِ عَدَدِهِمْ عَنْ عَدَدِ ٱلْمَصَامِدَةِ مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ثُمَّ ٱعْتَبِرْ بَعْدَ ذَٰلِكَ حَالَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ لِزَنَاتَةَ بَنِي مَرِينَ وَبَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعَ نِطَاقًا وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمِ ٱلْغَلَبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مَرِينَ لِأَوَّلِ مُلْكِهِمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ كَانُوا أَلْفًا إِلَّا أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ بِٱلرَّفْهِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّابِعِ كَثَّرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ وَعَلَى هَٰذِهِ ٱلنِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ ٱلْمُتَغَلِّبِينَ لِأَوَّلِ ٱلْمُلْكِ يَكُونُ ٱتِّسَاعُ ٱلدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا وَأَمَّا طُولُ أَمَدِهَا أَيْضًا فَعَلَى تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ لِأَنَّ عُمْرَ ٱلْحَادِثِ مِنْ قُوَّةِ مِزَاجِهِ وَمِزَاجُ ٱلدُّوَلِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ قَوِيَّةً كَانَ ٱلْمِزَاجُ تَابِعًا لَهَا وَكَانَ أَمَدُ ٱلْعُمْرِ طَوِيلًا وَٱلْعَصَبِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ ٱلْعَدَدِ وَوُفُورِهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱلسَّبَبُ ٱلصَّحِيحُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي ٱلدَّوْلَةِ مِنَ

ٱلْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ نَقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ فَتَكْثُرُ أَزْمَانُ ٱلنَّقْصِ لِكَثْرَةِ ٱلْمَمَالِكِ وَٱخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمَدُهَا أَطْوَلَ ٱلدُّوَلِ لَا بَنُو ٱلْعَبَّاسِ أَهْلُ ٱلْمَرْكَزِ وَلَا بَنُو أُمَيَّةَ ٱلْمُسْتَبِدُّونَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ ٱلْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ وَدَوْلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ كَانَ أَمَدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صَنْهَاجَةَ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ أَمْرَ أَفْرِيقِيَةَ لِبُلُكِّينَ بْنِ زِيرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى حِينِ ٱسْتِيلَاءِ ٱلْمُوَحِّدِينَ عَلَى ٱلْقَلْعَةِ وَبِجَايَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَدَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ تُنَاهِزُ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَهٰكَذَا نِسَبُ ٱلدُّوَلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا سُنَّةَ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ ٱخْتِلَافُ ٱلْآرَاءِ وَٱلْأَهْوَاءِ وَأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهَوًى عَصَبِيَّةً تُمَانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ ٱلِٱنْتِقَاضُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصَبِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَظُنُّ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً وَٱنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذٰلِكَ بِأَفْرِيقِيَةَ وَٱلْمَغْرِبِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلْإِسْلَامِ وَلِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَإِنَّ سَاكِنَ هٰذِهِ ٱلْأَوْطَانِ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ أَهْلُ قَبَائِلَ وَعَصَبِيَّاتٍ فَلَمْ يُغْنِ فِيهِمِ ٱلْغَلَبُ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي كَانَ لِٱبْنِ أَبِي سَرْحٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى ٱلْإِفْرَنْجَةِ شَيْئًا وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلثَّوْرَةَ وَٱلرِّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَعَظُمَ ٱلْإِثْخَانُ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ وَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ ٱلدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى ٱلثَّوْرَةِ وَٱلْخُرُوجِ وَٱلْأَخْذِ بِدِينِ ٱلْخَوَارِجِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً قَالَ ٱبْنُ أَبِي زَيْدٍ ٱرْتَدَّتِ ٱلْبَرَابِرَةُ بِٱلْمَغْرِبِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ ٱلْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا لِعَهْدِ وِلَايَةِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ فَمَا بَعْدَهُ وَهٰذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ أَنَّ أَفْرِيقِيَةَ مُفَرِّقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا إِشَارَةً إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ ٱلْعَصَائِبِ وَٱلْقَبَائِلِ ٱلْحَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ ٱلْإِذْعَانِ وَٱلِٱنْقِيَادِ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِرَاقُ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بِتِلْكَ ٱلصِّفَةِ وَلَا ٱلشَّامُ إِنَّمَا كَانَتْ حَامِيَتُهَا مِنْ فَارِسَ وَٱلرُّومِ وَٱلْكَافَّةُ دَهْمَاءُ أَهْلُ مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلَبَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ عَلَى ٱلْأَمْرِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مُمَانِعٌ وَلَا مُشَاقٌّ وَٱلْبَرْبَرُ قَبَائِلُهُمْ بِٱلْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ

تُحصى وكلّهم بادية وأهل عصائب وعشائر وكلّما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والرّدّة فطال أمر العرب في تمهيد الدّولة بوطن أفريقيّة والمغرب وكذلك كان الأمر بالشّام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والرّوم واليونان والعمالقة وأكريكش والنّبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوّعاً في العصبيّة فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرّة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطّد سائر أيّامهم إلى أن غلبهم الفرس ثمّ يونان ثمّ الرّوم آخر أمرهم عند الجلاء والله غالب على أمره وبعكس هذا أيضاً الأوطان الخالية من العصبيّات يسهل تمهيد الدّولة فيها ويكون سلطانها وازعاً لقلّة الهرج والانتقاض ولا تحتاج الدّولة فيها إلى كثير من العصبيّة كما هو الشّأن في مصر والشّام لهذا العهد إذ هي خلوّ من القبائل والعصبيّات كأن لم يكن الشّام معدناً لهم كما قلناه فملك مصر في غاية الدّعة والرّسوخ لقلّة الخوارج وأهل العصائب إنّما هو سلطان ورعيّة ودولتها قائمة بملوك التّرك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت والخلافة مسمّاة للعبّاسيّ من أعقاب الخلفاء ببغداد وكذا شأن الأندلس لهذا العهد فإنّ عصبيّة ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأوّل دولتهم بقويّة ولا كانت كرّات إنّما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدّولة الأمويّة بقوا من ذلك القلّة وذلك أنّ أهل الأندلس لمّا انقرضت الدّولة العربيّة منهم وملكهم البربر من لمتونة والموحّدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضاءهم وأمكن الموحّدون والسّادة في آخر الدّولة كثيراً من الحصون للطّاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملّك الحضرة مراكش فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبيّة القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشّيء ورسخوا في العصبيّة مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العبّاسيّة بالمشرق وحمل النّاس على الخروج على الموحّدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم واستقلّ ابن هود بالأمر في الأندلس ثمّ سما ابن

الأحمر للأمر وخالف ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب أفريقية من الموحدين وقام بالأمر وتناوله بعصابة قريبة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلة العصائب بالأندلس وإنها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز إليه البحر من أعياص زناتة فصاروا معه عصبة على المثاغرة والرباط ثم سما لصاحب من ملوك زناتة أمل في الاستيلاء على الأندلس فصار أولئك الأعياص عصابة ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأثل أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابه لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبداه بعصابة إلا أنها قليلة وعلى قدر الحاجة فإن قطر الأندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم والله غني عن العالمين

الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبية والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون والمزاج إنما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلاً بل لا بد من أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي موجودة في ضمنها وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورئاسة فيهم ولا بد من أن يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم فيتعين رئيساً للعصبيات كلها لغلب منبته لجميعها وإذا تعين له ذلك فمن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم ويجيء خلق التأله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فتجدع حينئذ أنوف العصبيات وتفلج شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم

وَتَقْرَعُ عَصَبِيَّتَهُمْ عَنْ ذَٰلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا ٱسْتَطَاعَ حَتَّىٰ لَا يَتْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ لَا نَاقَةً وَلَا جَمَلًا فَيَنْفَرِدُ بِذَٰلِكَ ٱلْمَجْدُ بِكُلِّيَّتِهِ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَٰلِكَ لِلْأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ ٱلدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَٱلثَّالِثِ عَلَى قَدْرِ مُمَانَعَةِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي ٱلدُّوَلِ سُنَّةُ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ ٱلْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيَاشُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ ضَرُورَاتِ ٱلْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى ٱتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لِتِلْكَ ٱلنَّوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذَٰلِكَ إِلَى رِقَّةِ ٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْمَطَاعِمِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْفُرُشِ وَٱلْآنِيَةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَٰلِكَ وَيُفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرَهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَكْلِ ٱلطَّيِّبِ وَلُبْسِ ٱلْأَنِيقِ وَرُكُوبِ ٱلْفَارِهِ وَيُنَاغِي خَلَفُهُمْ فِي ذَٰلِكَ سَلَفَهُمْ إِلَى آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدْرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَٰلِكَ وَتَرَفُهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا سُنَّةُ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا ٱلْمُلْكُ إِلَّا بِٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلْمُطَالَبَةُ غَايَتُهَا ٱلْغَلَبُ وَٱلْمُلْكُ وَإِذَا حَصَلَتِ ٱلْغَايَةُ ٱنْقَضَى ٱلسَّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)

عَجِبْتُ لِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا   فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ ٱلدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ ٱلْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ ٱلْمَتَاعِبِ ٱلَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَآثَرُوا ٱلرَّاحَةَ وَٱلسُّكُونَ وَٱلدَّعَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَٱلْمَسَاكِنِ وَٱلْمَلَابِسِ فَيَبْنُونَ ٱلْقُصُورَ وَيُجْرُونَ ٱلْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ ٱلرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَحْوَالِ ٱلدُّنْيَا وَيُؤْثِرُونَ ٱلرَّاحَةَ عَلَى ٱلْمَتَاعِبِ وَيَتَأَنَّقُونَ فِي أَحْوَالِ ٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَطَاعِمِ وَٱلْآنِيَةِ وَٱلْفُرُشِ مَا ٱسْتَطَاعُوا وَيَأْلَفُونَ ذَٰلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَٰلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ

إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث عشر

في انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ . ٱلْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِي ٱلْإِنْفِرَادَ بِٱلْمَجْدِ كَمَا قُلْنَاهُ وَمَهْمَا كَانَ ٱلْمَجْدُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ ٱلْعِصَابَةِ وَكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ هِمَمُهُمْ فِي ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى ٱلْغَيْرِ وَٱلذَّبِّ عَنِ ٱلْحَوْزَةِ أُسْوَةً فِي طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَائِمِهَا وَمَرْمَاهُمْ إِلَى ٱلْعِزِّ جَمِيعًا يَسْتَطِيبُونَ ٱلْمَوْتَ فِي بِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَيُؤْثِرُونَ ٱلْهَلَكَةَ عَلَى فَسَادِهِ وَإِذَا ٱنْفَرَدَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِٱلْمَجْدِ قَرَعَ عَصَبِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَٱسْتَأْثَرَ بِٱلْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ ٱلْغَزْوِ وَفَشِلَ رِيحُهُمْ وَرَئِمُوا ٱلْمَذَلَّةَ وَٱلْإِسْتِعْبَادَ ثُمَّ رُبِّيَ ٱلْجِيلُ ٱلثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَحْسَبُونَ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ ٱلْعَطَاءِ أَجْرًا مِنَ ٱلسُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ ٱلْحِمَايَةِ وَٱلْمَعُونَةِ لَا يَجْرِي فِي عُقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقَلَّ أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْمَوْتِ فَيَصِيرُ ذَلِكَ وَهْنًا فِي ٱلدَّوْلَةِ وَخَضْدًا مِنَ ٱلشَّوْكَةِ وَتُقْبِلُ بِهِ عَلَى مَنَاحِي ٱلضَّعْفِ وَٱلْهَرَمِ لِفَسَادِ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِذَهَابِ ٱلْبَأْسِ مِنْ أَهْلِهَا . وَٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ ٱلْمُلْكِ تَقْتَضِي ٱلتَّرَفَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أَعْطِيَاتِهِمْ وَلَا يَفِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ فَٱلْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَٱلْمُتْرَفُ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرَفِهِ ثُمَّ يَزْدَادُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمِ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ الى أَنْ يَقْصُرَ ٱلْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَتَمَسَّهُمُ ٱلْحَاجَةُ وَتُطَالِبُهُمْ مُلُوكُهُمْ بِحَصْرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي ٱلْغَزْوِ وَٱلْحُرُوبِ فَلَا يَجِدُونَ وَلِيجَةً عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمِ ٱلْعُقُوبَاتِ وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِي أَيْدِي ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيُضْعِفُونَهُمْ لِذَلِكَ عَنْ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ وَيَضْعُفُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِضَعْفِهِمْ وَأَيْضًا إِذَا كَثُرَ ٱلتَّرَفُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ مُقَصِّرًا عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمِ ٱحْتَاجَ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ٱلزِّيَادَةِ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلَلَهُمْ وَيُزِيحَ عِلَلَهُمْ وَٱلْجِبَايَةُ مِقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ وَإِنْ زَادَتْ بِمَا يُسْتَحْدَثُ مِنَ ٱلْمُكُوسِ فَيَصِيرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ ٱلزِّيَادَةِ مَحْدُودًا فَإِذَا وُزِّعَتِ ٱلْجِبَايَةُ عَلَى ٱلْأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَثَتْ فِيهَا ٱلزِّيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَثَ مِنْ تَرَفِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ نَقَصَ عَدَدُ ٱلْحَامِيَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ ٱلْأَعْطِيَاتِ ثُمَّ

يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا ورابعا إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته وأيضا فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها. الوجه الثالث أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئا فشيئا وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية أخرى إن كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غير ريبة وربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارا وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جندا يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق فإن غالب جندها الموالي من الترك فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرسانا وجندا فيكونون أجرأ على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء المماليك الذين

كَانُوا قَبْلَهُمْ وَرَبُوا فِي مَاءِ ٱلنَّعِيمِ وَٱلسُّلْطَانِ وَظِلِّهِ وَكَذٰلِكَ فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كَثِيرًا مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ زَنَاتَةَ وَٱلْعَرَبِ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُمْ وَيَتْرُكُ أَهْلَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ فَتَسْتَجِدُّ ٱلدَّوْلَةُ بِذٰلِكَ عُمْرًا آخَرَ سَالِمًا مِنَ ٱلْهَرَمِ وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل الرابع عشر

في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعُمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ ٱلْأَطِبَّاءُ وَٱلْمُنَجِّمُونَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً وَهِيَ سِنُو ٱلْقَمَرِ ٱلْكُبْرَى عِنْدَ ٱلْمُنَجِّمِينَ وَيَخْتَلِفُ ٱلْعُمْرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ ٱلْقِرَانَاتِ فَيَزِيدُ عَنْ هٰذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ ٱلْقِرَانَاتِ مِائَةً تَامَّةً وَبَعْضِهِمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ أَدِلَّةُ ٱلْقِرَانَاتِ عِنْدَ ٱلنَّاظِرِينَ فِيهَا وَأَعْمَارُ هٰذِهِ ٱلْمِلَّةِ مَا بَيْنَ ٱلسِّتِّينَ إِلَى ٱلسَّبْعِينَ كَمَا فِي ٱلْحَدِيثِ وَلَا يَزِيدُ عَلَى ٱلْعُمْرِ ٱلطَّبِيعِيِّ ٱلَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي ٱلصُّوَرِ ٱلنَّادِرَةِ وَعَلَى ٱلْأَوْضَاعِ ٱلْغَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَلَكِ كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَقَلِيلٍ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَأَمَّا أَعْمَارُ ٱلدُّوَلِ أَيْضًا وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ ٱلْقِرَانَاتِ إِلَّا أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي ٱلْغَالِبِ لَا تَعْدُو أَعْمَارَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ وَٱلْجِيلُ هُوَ عُمْرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ ٱلْوَسَطِ فَيَكُونُ أَرْبَعِينَ ٱلَّذِي هُوَ ٱنْتِهَاءُ ٱلنُّمُوِّ وَٱلنُّشُوءِ إِلَى غَايَتِهِ قَالَ تَعَالَى حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلِهٰذَا قُلْنَا إِنَّ عُمْرَ ٱلشَّخْصِ ٱلْوَاحِدِ هُوَ عُمْرُ ٱلْجِيلِ وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حِكْمَةِ ٱلتِّيهِ ٱلَّذِي وَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِٱلْأَرْبَعِينَ فِيهِ فَنَاءُ ٱلْجِيلِ ٱلْأَحْيَاءِ وَنَشْأَةُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَعْهَدُوا ٱلذُّلَّ وَلَا عَرَفُوهُ فَدَلَّ عَلَى ٱعْتِبَارِ ٱلْأَرْبَعِينَ فِي عُمْرِ ٱلْجِيلِ ٱلَّذِي هُوَ عُمْرُ ٱلشَّخْصِ ٱلْوَاحِدِ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمْرَ ٱلدَّوْلَةِ لَا يَعْدُو فِي ٱلْغَالِبِ ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ لِأَنَّ ٱلْجِيلَ ٱلْأَوَّلَ لَمْ يَزَالُوا عَلَى خُلُقِ ٱلْبَدَاوَةِ وَخُشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ شَظَفِ ٱلْعَيْشِ وَٱلْبَسَالَةِ وَٱلِٱفْتِرَاسِ وَٱلِٱشْتِرَاكِ فِي ٱلْمَجْدِ فَلَا تَزَالُ بِذٰلِكَ سَوْرَةُ ٱلْعَصَبِيَّةِ مَحْفُوظَةً فِيهِمْ فَحَدُّهُمْ مُرْهَفٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ وَٱلنَّاسُ لَهُمْ مَغْلُوبُونَ وَٱلْجِيلُ ٱلثَّانِي تَحَوَّلَ حَالُهُمْ بِٱلْمُلْكِ وَٱلتَّرَفُّهِ مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ إِلَى ٱلْحَضَارَةِ وَمِنَ ٱلشَّظَفِ إِلَى ٱلتَّرَفِ وَٱلْخِصْبِ وَمِنَ ٱلِٱشْتِرَاكِ فِي ٱلْمَجْدِ إِلَى ٱنْفِرَادِ ٱلْوَاحِدِ بِهِ وَكَسَلِ ٱلْبَاقِينَ عَنِ

ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَمِنْ عِزِّ ٱلِاسْتِطَالَةِ إِلَى ذُلِّ ٱلِاسْتِكَانَةِ فَتَنْكَسِرُ سَوْرَةُ ٱلْعَصَبِيَّةِ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ وَتُؤْنَسُ مِنْهُمُ ٱلْمَهَانَةُ وَٱلْخُضُوعُ وَيَبْقَى لَهُمُ ٱلْكَثِيرُ مِنْ ذٰلِكَ بِمَا أَدْرَكُوا ٱلْجِيلَ ٱلْأَوَّلَ وَبَاشَرُوا أَحْوَالَهُمْ وَشَاهَدُوا ٱعْتِزَازَهُمْ وَسَعْيَهُمْ إِلَى ٱلْمَجْدِ وَمَرَامِيَهُمْ فِي ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْحِمَايَةِ فَلَا يَسَعُهُمْ تَرْكُ ذٰلِكَ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ مَا ذَهَبَ وَيَكُونُونَ عَلَى رَجَاءٍ مِنْ مُرَاجَعَةِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلَّتِي كَانَتْ لِلْجِيلِ ٱلْأَوَّلِ أَوْ عَلَى ظَنٍّ مِنْ وُجُودِهَا فِيهِمْ وَأَمَّا ٱلْجِيلُ ٱلثَّالِثُ فَيَنْسَوْنَ عَهْدَ ٱلْبَدَاوَةِ وَٱلْخُشُونَةِ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَيَفْقِدُونَ حَلَاوَةَ ٱلْعِزِّ وَٱلْعَصَبِيَّةِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكَةِ ٱلْقَهْرِ وَيَبْلُغُ فِيهِمُ ٱلتَّرَفُ غَايَتَهُ بِمَا تَبَنَّقُوهُ مِنَ ٱلنَّعِيمِ وَغَضَارَةِ ٱلْعَيْشِ فَيَصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَمِنْ جُمْلَةِ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلْمُحْتَاجِينَ لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَتَسْقُطُ ٱلْعَصَبِيَّةُ بِٱلْجُمْلَةِ وَيَنْسَوْنَ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْمُدَافَعَةَ وَٱلْمُطَالَبَةَ وَيُلَبِّسُونَ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلشَّارَةِ وَٱلزِّيِّ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَحُسْنِ ٱلثَّقَافَةِ يُمَوِّهُونَ بِهَا وَهُمْ فِي ٱلْأَكْثَرِ أَجْبَنُ مِنَ ٱلنِّسْوَانِ عَلَى ظُهُورِهَا فَإِذَا جَاءَ ٱلْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يُقَاوِمُوا مُدَافَعَتَهُ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلِاسْتِظْهَارِ بِسِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلنَّجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ بِٱلْمَوَالِي وَيَصْطَنِعُ مَنْ يُغْنِي عَنِ ٱلدَّوْلَةِ بَعْضَ ٱلْغَنَاءِ حَتَّى يَتَأَذَّنَ ٱللّٰهُ بِٱنْقِرَاضِهَا فَتَذْهَبَ ٱلدَّوْلَةُ بِمَا حَمَلَتْ فَهٰذِهِ كَمَا تَرَاهُ ثَلَاثَةُ أَجْيَالٍ فِيهَا يَكُونُ هَرَمُ ٱلدَّوْلَةِ وَتَخَلُّفُهَا وَلِهٰذَا كَانَ ٱنْقِرَاضُ ٱلْحَسَبِ فِي ٱلْجِيلِ ٱلرَّابِعِ كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ ٱلْمَجْدَ وَٱلْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ وَقَدْ أَتَيْنَاكَ فِيهِ بِبُرْهَانٍ طَبِيعِيٍّ كَافٍ ظَاهِرٍ مَبْنِيٍّ عَلَى مَا مَهَّدْنَاهُ قَبْلُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ فَتَأَمَّلْهُ فَلَنْ تَعْدُوَ وَجْهَ ٱلْحَقِّ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلْإِنْصَافِ وَهٰذِهِ ٱلْأَجْيَالُ ٱلثَّلَاثَةُ عُمْرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَلَى مَا مَرَّ وَلَا تَعْدُو ٱلدُّوَلُ فِي ٱلْغَالِبِ هٰذَا ٱلْعُمْرَ بِتَقْرِيبٍ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ إِلَّا إِنْ عَرَضَ لَهَا عَارِضٌ آخَرُ مِنْ فِقْدَانِ ٱلْمُطَالِبِ فَيَكُونُ ٱلْهَرَمُ حَاصِلًا مُسْتَوْلِيًا وَٱلطَّالِبُ لَمْ يَحْضُرْهَا وَلَوْ قَدْ جَاءَ ٱلطَّالِبُ لَمَا وَجَدَ مُدَافِعًا فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ فَهٰذَا ٱلْعُمْرُ لِلدَّوْلَةِ بِمَثَابَةِ عُمْرِ ٱلشَّخْصِ مِنَ ٱلتَّزَيُّدِ إِلَى سِنِّ ٱلْوُقُوفِ ثُمَّ إِلَى سِنِّ ٱلرُّجُوعِ وَلِهٰذَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْمَشْهُورِ أَنَّ عُمْرَ ٱلدَّوْلَةِ مِائَةُ سَنَةٍ وَهٰذَا مَعْنَاهُ فَٱعْتَبِرْهُ وَٱتَّخِذْ مِنْهُ قَانُونًا يُصَحِّحُ لَكَ عَدَدَ ٱلْآبَاءِ فِي عَمُودِ ٱلنَّسَبِ ٱلَّذِي تُرِيدُهُ مِنْ قِبَلِ مَعْرِفَةِ ٱلسِّنِينَ ٱلْمَاضِيَةِ إِذَا كُنْتَ قَدِ ٱسْتَرَبْتَ فِي عَدَدِهِمْ وَكَانَتِ ٱلسِّنُونَ ٱلْمَاضِيَةُ مُنْذُ أَوَّلِهِمْ مُحَصَّلَةً لَدَيْكَ فَعُدَّ لِكُلِّ مِائَةٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ

ثلاثة من الآباء فإن نفدت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح وإن نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب وإن زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم إذا كان محصلاً لديك فتأمله تجده في الغالب صحيحاً والله يقدر الليل والنهار

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

إعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول فإن الغلب الذي يكون به الملك إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس ولا يكون ذلك غالباً إلا مع البداوة فطور الدولة من أولها بداوة ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الأحوال والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك وأهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً ومثال ذلك كثير فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية وانظر

مَا نَقَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ وَٱلطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي أَعْرَاسِ ٱلْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتِ ٱلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَمَا بَذَلَ أَبُوهَا لِحَاشِيَةِ ٱلْمَأْمُونِ حِينَ وَافَاهُ فِي خِطْبَتِهَا إِلَى دَارِهِ بِفَمِ ٱلصُّلْحِ وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي ٱلسُّفُنِ وَمَا أَنْفَقَ فِي أَمْلَاكِهَا وَمَا نَحَلَهَا ٱلْمَأْمُونُ وَأَنْفَقَ فِي عُرْسِهَا تَقِفْ مِنْ ذٰلِكَ عَلَى ٱلْعَجَبِ فَمِنْهُ أَنَّ ٱلْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ نَثَرَ يَوْمَ ٱلْإِمْلَاكِ فِي ٱلصَّنِيعِ ٱلَّذِي حَضَرَهُ حَاشِيَةُ ٱلْمَأْمُونِ فَنَثَرَ عَلَى ٱلطَّبَقَةِ ٱلْأُولَى مِنْهُمْ بَنَادِقَ ٱلْمِسْكِ مَلْثُوثَةً عَلَى ٱلرِّقَاعِ بِٱلضِّيَاعِ وَٱلْعَقَارِ مُسَوَّغَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ يَقَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ ٱلِٱتِّفَاقُ وَٱلْبَخْتُ وَفَرَّقَ عَلَى ٱلطَّبَقَةِ ٱلثَّانِيَةِ بِدَرَ ٱلدَّنَانِيرِ فِي كُلِّ بَدْرَةٍ عَشَرَةُ آلَافٍ وَفَرَّقَ عَلَى ٱلطَّبَقَةِ ٱلثَّالِثَةِ بِدَرَ ٱلدَّرَاهِمِ كَذٰلِكَ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقَ عَلَى مُقَامَةِ ٱلْمَأْمُونِ بِدَارِهِ أَضْعَافَ ذٰلِكَ وَمِنْهُ أَنَّ ٱلْمَأْمُونَ أَعْطَاهَا فِي مَهْرِهَا لَيْلَةَ زِفَافِهَا أَلْفَ حَصَاةٍ مِنَ ٱلْيَاقُوتِ وَأَوْقَدَ شُمُوعَ ٱلْعَنْبَرِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةُ مَنٍّ وَهُوَ رِطْلٌ وَثُلُثَانِ (١) وَبَسَطَ لَهَا فُرُشًا كَانَ ٱلْحَصِيرُ مِنْهَا مَنْسُوجًا بِٱلذَّهَبِ مُكَلَّلًا بِٱلدُّرِّ وَٱلْيَاقُوتِ وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ حِينَ رَآهُ قَاتَلَ ٱللّٰهُ أَبَا نُوَاسٍ كَأَنَّهُ أَبْصَرَ هٰذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صِفَةِ ٱلْخَمْرِ

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا   حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ

وَأَعَدَّ بِدَارِ ٱلطَّبْخِ مِنَ ٱلْحَطَبِ لِلَيْلَةِ ٱلْوَلِيمَةِ نَقْلَ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ بَغْلًا مُدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَفَنِيَ ٱلْحَطَبُ لِلَيْلَتَيْنِ وَأَوْقَدُوا ٱلْجَرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ ٱلزَّيْتَ وَأَوْعَزَ إِلَى ٱلنَّوَاتِيَةِ بِإِحْضَارِ ٱلسُّفُنِ لِإِجَازَةِ ٱلْخَوَاصِّ مِنَ ٱلنَّاسِ بِدِجْلَةَ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى قُصُورِ ٱلْمُلْكِ بِمَدِينَةِ ٱلْمَأْمُونِ لِحُضُورِ ٱلْوَلِيمَةِ فَكَانَتِ ٱلْحَرَّاقَاتُ (٢) ٱلْمُعَدَّةُ لِذٰلِكَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا أَجَازُوا ٱلنَّاسَ فِيهَا أُخْرَيَاتِ نَهَارِهِمْ وَكَثِيرٌ مِنْ هٰذَا وَأَمْثَالِهِ وَكَذٰلِكَ عُرْسُ ٱلْمَأْمُونِ بْنِ ذِي ٱلنُّونِ بِطُلَيْطِلَةَ نَقَلَهُ ٱبْنُ بَسَّامٍ فِي كِتَابِ ٱلذَّخِيرَةِ وَٱبْنُ حَيَّانَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا كُلُّهُمْ فِي ٱلطَّوْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنْ ذٰلِكَ جُمْلَةً لِفِقْدَانِ أَسْبَابِهِ وَٱلْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ فِي غَضَاضَتِهِمْ وَسَذَاجَتِهِمْ يُذْكَرُ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ أَوْلَمَ فِي ٱخْتِتَانِ بَعْضِ وَلَدِهِ فَٱسْتَحْضَرَ بَعْضَ ٱلدَّهَاقِينِ يَسْأَلُهُ عَنْ وَلَائِمِ ٱلْفُرْسِ وَقَالَ أَخْبِرْنِي بِأَعْظَمِ صَنِيعٍ شَهِدْتَهُ فَقَالَ لَهُ نَعَمْ أَيُّهَا ٱلْأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَازِبَةِ كِسْرَى وَقَدْ صَنَعَ لِأَهْلِ

---

(١) قوله وثلثان الذي كتب في اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية ثلثان

(٢) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو اه مختار

فَارِسَ صَنِيعاً أَحْضَرَ فِيهِ صِحَافَ ٱلذَّهَبِ عَلَى أَخْوِنَةِ ٱلْفِضَّةِ أَرْبَعاً عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَتَحْمِلُهُ أَرْبَعُ وَصَائِفَ وَيَجْلِسُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِذَا طَعِمُوا أُتْبِعُوا أَرْبَعَتُهُمُ ٱلْمَائِدَةَ بِصِحَافِهَا وَوُصَفَائِهَا فَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ يَا غُلَامُ ٱنْحَرِ ٱلْجُزُرَ وَأَطْعِمِ ٱلنَّاسَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِهٰذِهِ ٱلْأُبَّهَةِ وَكَذٰلِكَ كَانَتْ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ أَعْطِيَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَوَائِزُهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُهَا ٱلْإِبِلَ أَخْذًا بِمَذَاهِبِ ٱلْعَرَبِ وَبَدَاوَتِهِمْ ثُمَّ كَانَتِ ٱلْجَوَائِزُ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَحْمَالِ ٱلْمَالِ وَتُخُوتِ ٱلثِّيَابِ وَإِعْدَادِ ٱلْخَيْلِ بِمَرَاكِبِهَا وَهٰكَذَا كَانَ شَأْنُ كُتَامَةَ مَعَ ٱلْأَغَالِبَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَكَذَا بَنِي طُغْجٍ بِمِصْرَ وَشَأْنُ لِمْتُونَةَ مَعَ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمُوَحِّدِينَ كَذٰلِكَ وَشَأْنُ زَنَاتَةَ مَعَ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَهَلُمَّ جَرًّا تَنْتَقِلُ ٱلْحَضَارَةُ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلسَّالِفَةِ إِلَى ٱلدُّوَلِ ٱلْخَالِفَةِ فَٱنْتَقَلَتْ حَضَارَةُ ٱلْفُرْسِ لِلْعَرَبِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَٱنْتَقَلَتْ حَضَارَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى مُلُوكِ ٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَزَنَاتَةَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَٱنْتَقَلَتْ حَضَارَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ إِلَى ٱلدَّيْلَمِ ثُمَّ إِلَى ٱلتُّرْكِ ثُمَّ إِلَى ٱلسَّلْجُوقِيَّةِ ثُمَّ إِلَى ٱلتُّرْكِ ٱلْمَمَالِيكِ بِمِصْرَ وَٱلتَّتَرِ بِٱلْعِرَاقَيْنِ وَعَلَى قَدْرِ عِظَمِ ٱلدَّوْلَةِ يَكُونُ شَأْنُهَا فِي ٱلْحَضَارَةِ إِذْ أُمُورُ ٱلْحَضَارَةِ مِنْ تَوَابِعِ ٱلتَّرَفِ وَٱلتَّرَفُ مِنْ تَوَابِعِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلنِّعْمَةِ وَٱلثَّرْوَةُ وَٱلنِّعْمَةُ مِنْ تَوَابِعِ ٱلْمُلْكِ وَمِقْدَارِ مَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ فَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْمُلْكِ يَكُونُ ذٰلِكَ كُلُّهُ فَٱعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْهُ وَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ صَحِيحًا فِي ٱلْعُمْرَانِ وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل السادس عشر

في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقَبِيلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلْمُلْكُ وَٱلتَّرَفُ كَثُرَ ٱلتَّنَاسُلُ وَٱلْوُلْدُ وَٱلْعُمُومِيَّةُ فَكَثُرَتِ ٱلْعِصَابَةُ وَٱسْتَكْثَرُوا أَيْضًا مِنَ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ وَرُبِّيَتْ أَجْيَالُهُمْ فِي جَوِّ ذٰلِكَ ٱلنَّعِيمِ وَٱلرَّفَهِ فَٱزْدَادُوا بِهِ عَدَدًا إِلَى عَدَدِهِمْ وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ كَثْرَةِ ٱلْعَصَائِبِ حِينَئِذٍ بِكَثْرَةِ ٱلْعَدَدِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْجِيلُ ٱلْأَوَّلُ وَٱلثَّانِي وَأَخَذَتِ ٱلدَّوْلَةُ فِي ٱلْهَرَمِ لَمْ تَسْتَقِلَّ أُولٰئِكَ ٱلصَّنَائِعُ وَٱلْمَوَالِي بِأَنْفُسِهِمْ فِي تَأْسِيسِ ٱلدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ مُلْكِهَا لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ إِنَّمَا كَانُوا عِيَالًا عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلَّ ٱلْفَرْعُ بِٱلرُّسُوخِ فَيَذْهَبُ وَيَتَلَاشَى وَلَا تَبْقَى ٱلدَّوْلَةُ عَلَى حَالِهَا

مِنَ ٱلْقُوَّةِ وَٱعْتَبِرْ هٰذَا بِمَا وَقَعَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي ٱلْإِسْلَامِ كَانَ عَدَدُ ٱلْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا لِعَهْدِ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ وَلَمَّا بَلَغَ ٱلتَّرَفُ مُبَالَغَهُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نُمُوُّهُمْ بِتَوَفُّرِ ٱلنِّعْمَةِ وَٱسْتَكْثَرَ ٱلْخُلَفَاءُ مِنَ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ بَلَغَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدُ إِلَى أَضْعَافِهِ يُقَالُ إِنَّ ٱلْمُعْتَصِمَ نَازَلَ عَمُّورِيَّةَ لَمَّا ٱفْتَتَحَهَا فِي تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هٰذَا ٱلْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا إِذَا ٱعْتَبَرْتَ حَامِيَتَهُمْ فِي ٱلثُّغُورِ ٱلدَّانِيَةِ وَٱلْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا إِلَى ٱلْجُنْدِ ٱلْحَامِلِينَ سَرِيرَ ٱلْمُلْكِ وَٱلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعِينَ وَقَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ ٱلْمَأْمُونِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا بَيْنَ ذُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ فَٱنْظُرْ مَبَالِغَ هٰذَا ٱلْعَدَدِ لِأَقَلَّ مِنْ مِائَتَيْ سَنَةٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ ٱلرَّفَهُ وَٱلنَّعِيمُ ٱلَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبِيَ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ وَإِلَّا فَعَدَدُ ٱلْعَرَبِ لِأَوَّلِ ٱلْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هٰذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَٱللهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ

الفصل السابع عشر

في اطوار الدولة واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ تَنْتَقِلُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ وَيَكْتَسِبُ ٱلْقَائِمُونَ بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذٰلِكَ ٱلطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي ٱلطَّوْرِ ٱلْآخَرِ لِأَنَّ ٱلْخُلُقَ تَابِعٌ بِٱلطَّبْعِ لِمِزَاجِ ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالَاتُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فِي ٱلْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ ٠ أَلطَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ طَوْرُ ٱلظَّفَرِ بِٱلْبُغْيَةِ وَغَلْبِ ٱلْمُدَافِعِ وَٱلْمُمَانِعِ وَٱلِٱسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلْمُلْكِ وَٱنْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ أُسْوَةَ قَوْمِهِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْمَجْدِ وَجِبَايَةِ ٱلْمَالِ وَٱلْمُدَافَعَةِ عَنِ ٱلْحَوْزَةِ وَٱلْحِمَايَةِ لَا يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ لِأَنَّ ذٰلِكَ هُوَ مُقْتَضَى ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي وَقَعَ بِهَا ٱلْغَلَبُ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِحَالِهَا ٠ أَلطَّوْرُ ٱلثَّانِي طَوْرُ ٱلِٱسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ وَٱلِٱنْفِرَادِ دُونَهُمْ بِٱلْمُلْكِ وَكَبْحِهِمْ عَنِ ٱلتَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَٱلْمُشَارَكَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ مَعْنِيًّا بِٱصْطِنَاعِ ٱلرِّجَالِ وَٱتِّخَاذِ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْ ذٰلِكَ لِجَدْعِ أُنُوفِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ٱلْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي نِسْبَةِ ٱلضَّارِبِينَ فِي ٱلْمُلْكِ بِمِثْلِ سَهْمِهِ فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ ٱلْأَمْرِ وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ وَيَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يَخْلُصُوا إِلَيْهِ حَتَّى يُقِرَّ ٱلْأَمْرَ فِي نِصَابِهِ وَيُفْرِدَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ مَجْدِهِ فَيُعَانِي مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ ٱلْأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ

ٱلْأَمْرِ أَوْ أَشَدَّ لِأَنَّ ٱلْأَوَّلِينَ دَافَعُوا ٱلْأَجَانِبَ فَكَانَ ظُهَرَاؤُهُمْ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أَهْلَ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَهٰذَا يُدَافِعُ ٱلْأَقَارِبَ لَا يُظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ إِلَّا ٱلْأَقَلُّ مِنَ ٱلْأَبَاعِدِ فَيَرْكَبُ صَعْبًا مِنَ ٱلْأَمْرِ. ٱلطَّوْرُ ٱلثَّالِثُ طَوْرُ ٱلْفَرَاغِ وَٱلدَّعَةِ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ ٱلْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طِبَاعُ ٱلْبَشَرِ إِلَيْهِ مِنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَالِ وَتَخْلِيدِ ٱلْآثَارِ وَبُعْدِ ٱلصِّيتِ فَيَسْتَفْرِغُ وُسْعَهُ فِي ٱلْجِبَايَةِ وَضَبْطِ ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَإِحْصَاءِ ٱلنَّفَقَاتِ وَٱلْقَصْدِ فِيهَا وَتَشْيِيدِ ٱلْمَبَانِي ٱلْحَافِلَةِ وَٱلْمَصَانِعِ ٱلْعَظِيمَةِ وَٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُتَّسِعَةِ وَٱلْهَيَاكِلِ ٱلْمُرْتَفِعَةِ وَإِجَازَةِ ٱلْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ ٱلْأُمَمِ وَوُجُوهِ ٱلْقَبَائِلِ وَبَثِّ ٱلْمَعْرُوفِ فِي أَهْلِهِ هٰذَا مَعَ ٱلتَّوْسِعَةِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ وَٱعْتِرَاضِ جُنُودِهِ وَإِدْرَارِ أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ لِكُلِّ هِلَالٍ حَتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشِكَّتِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ ٱلزِّينَةِ فَيُبَاهِي بِهِمِ ٱلدُّوَلَ ٱلْمُسَالِمَةَ وَيُرْهِبُ ٱلدُّوَلَ ٱلْمُحَارِبَةَ وَهٰذَا ٱلطَّوْرُ آخِرُ أَطْوَارِ ٱلِٱسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ ٱلدَّوْلَةِ لِأَنَّهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْأَطْوَارِ كُلِّهَا مُسْتَقِلُّونَ بِآرَائِهِمْ بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوضِحُونَ ٱلطُّرُقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ. ٱلطَّوْرُ ٱلرَّابِعُ طَوْرُ ٱلْقُنُوعِ وَٱلْمُسَالَمَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا قَانِعًا بِمَا بَنَى أَوَّلُوهُ سِلْمًا لِأَنْظَارِهِ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ مُقَلِّدًا لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلَفِهِ فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ ٱلنَّعْلِ بِٱلنَّعْلِ وَيَقْتَفِي طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاهِجِ ٱلِٱقْتِدَاءِ وَيَرَى أَنَّ فِي ٱلْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فَسَادَ أَمْرِهِ وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُ بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ. ٱلطَّوْرُ ٱلْخَامِسُ طَوْرُ ٱلْإِسْرَافِ وَٱلتَّبْذِيرِ وَيَكُونُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ مُتْلِفًا لِمَا جَمَعَ أَوَّلُوهُ فِي سَبِيلِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمَلَاذِّ وَٱلْكَرَمِ عَلَى بِطَانَتِهِ وَفِي مَجَالِسِهِ وَٱصْطِنَاعِ أَخْدَانِ ٱلسُّوءِ وَخَضْرَاءِ ٱلدِّمَنِ وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي لَا يَسْتَقِلُّونَ بِحَمْلِهَا وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا مُسْتَفْسِدًا لِلْكِبَارِ ٱلْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَائِعِ سَلَفِهِ حَتَّى يَضْطَغِنُوا عَلَيْهِ وَيَتَخَاذَلُوا عَنْ نُصْرَتِهِ مُضَيِّعًا مِنْ جُنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ مِنْ أَعْطِيَاتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مُبَاشَرَتِهِ وَتَفَقُّدِهِ فَيَكُونُ مُخَرِّبًا لِمَا كَانَ سَلَفُهُ يُؤَسِّسُونَ وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ وَفِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ تَحْصُلُ فِي ٱلدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ ٱلْهَرَمِ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا ٱلْمَرَضُ ٱلْمُزْمِنُ ٱلَّذِي لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ بُرْءٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي ٱلْأَحْوَالِ ٱلَّتِي نَسْرُدُهَا وَٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثامن عشر

في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلآثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلاً وَعَلَى قَدَرِهَا يَكُونُ ٱلأَثَرُ فَمِنْ ذٰلِكَ مَبَانِي ٱلدَّوْلَةِ وَهَيَاكِلُهَا ٱلْعَظِيمَةُ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ ٱلدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ ٱلْفَعَلَةِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلأَيْدِي عَلَى ٱلْعَمَلِ بِٱلتَّعَاوُنِ فِيهِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةَ ٱلْجَوَانِبِ كَثِيرَةَ ٱلْمَمَالِكِ وَٱلرَّعَايَا كَانَ ٱلْفَعَلَةُ كَثِيرِينَ جِدًّا وَحُشِرُوا مِنْ آفَاقِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا فَتَمَّ ٱلْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ هَيَاكِلِهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَا قَصَّهُ ٱلْقُرْآنُ عَنْهُمَا وَٱنْظُرْ بِٱلْمُشَاهَدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى وَمَا ٱقْتَدَرَ فِيهِ ٱلْفُرْسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ ٱلرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخْرِيبِهِ فَتَكَاءَدَ عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ثُمَّ أَدْرَكَهُ ٱلْعَجْزُ وَقِصَّةُ ٱسْتِشَارَتِهِ لِيَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ فَٱنْظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لَا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى عَلَى هَدْمِهِ مَعَ بَوْنِ مَا بَيْنَ ٱلْهَدْمِ وَٱلْبِنَاءِ فِي ٱلسُّهُولَةِ تَعْرِفْ مِنْ ذٰلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ وَٱنْظُرْ إِلَى بَلَاطِ ٱلْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ بِقُرْطُبَةَ وَٱلْقَنْطَرَةِ ٱلَّتِي عَلَى وَادِيهَا وَكَذٰلِكَ بِنَاءِ ٱلْحَنَايَا لِجَلْبِ ٱلْمَاءِ إِلَى قَرْطَاجَنَّةَ فِي ٱلْقَنَاةِ ٱلرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا وَآثَارِ شَرْشَالَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلأَهْرَامِ بِمِصْرَ وَكَثِيرٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلآثَارِ ٱلْمَاثِلَةِ لِلْعِيَانِ يُعْلَمُ مِنْهُ ٱخْتِلَافُ ٱلدُّوَلِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلضُّعْفِ وَٱعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ ٱلأَفْعَالَ لِلأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِٱلْهِنْدَامِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلْفَعَلَةِ وَكَثْرَةِ ٱلأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذٰلِكَ شُيِّدَتْ تِلْكَ ٱلْهَيَاكِلُ وَٱلْمَصَانِعُ وَلَا تَتَوَهَّمْ مَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلْعَامَّةُ أَنَّ ذٰلِكَ لِعِظَمِ أَجْسَامِ ٱلأَقْدَمِينَ عَنْ أَجْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ ٱلْبَشَرِ فِي ذٰلِكَ كَبِيرُ بَوْنٍ كَمَا نَجِدُ بَيْنَ ٱلْهَيَاكِلِ وَٱلآثَارِ وَلَقَدْ وَلِعَ ٱلْقُصَّاصُ بِذٰلِكَ وَتَغَالَوْا فِيهِ وَسَطَّرُوا عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ فِي ذٰلِكَ أَخْبَارًا عَرِيقَةً فِي ٱلْكَذِبِ مِنْ أَغْرَبِهَا مَا يَحْكُونَ عَنْ عُوجِ بْنِ عَنَاقٍ[1] رَجُلٍ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ ٱلَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي ٱلشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لِطُولِهِ يَتَنَاوَلُ ٱلسَّمَكَ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَيَشْوِيهِ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَيَزِيدُونَ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ ٱلْبَشَرِ ٱلْجَهْلَ بِأَحْوَالِ ٱلْكَوَاكِبِ لِمَا ٱعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس عنق بالنون قاله نصر الهوريني

انّ الحرّ هو الضوء وأنّ الضوء فيما قرب من الأرض أكثر لانعكاس الأشعة من سطح الأرض بمقابلة الأضواء فتتضاعف الحرارة هنا لأجل ذلك وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة فلا حرّ هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحاب وأنّ الشمس في نفسها لا حارّة ولا باردة وإنّما هي جسم بسيط مضيء لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العمالقة أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني إسرائيل عند فتحهم الشام وأطوال بني إسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من هياكلنا يشهد لذلك أبواب بيت المقدس فإنّها وإن خربت وجدّدت لم تزل المحافظة على أشكالها ومقادير أبوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار وإنّما مثار غلطهم في هذا أنّهم استعظموا آثار الأمم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوه إلى قوّة الأجسام وشدّتها بعظم هياكلها وليس الأمر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعمًا لا مستند له إلّا التحكّم وهو أنّ الطبيعة التي هي جبلّة للأجسام لمّا برأ الله الخلق كانت في تمام الكرة ونهاية القوّة والكمال وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة فإنّ طروء الموت إنّما هو بانحلال القوى الطبيعية فإذا كانت قويّة كانت الأعمار أزيد فكان العالم في أوّليّة نشأته تامّ الأعمار كامل الأجسام ثمّ لم يزل يتناقص لنقصان المادّة إلى أن بلغ إلى هذه الحال التي هو عليها ثمّ لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأي لا وجه له إلّا التحكّم كما تراه وليس له علّة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الأوّلين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيوتًا صغارًا وأبوابها ضيّقة وقد أشار صلّى الله عليه وسلّم إلى أنّها ديارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهرق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلّا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض شرقًا وغربًا والحقّ ما قرّرناه ومن آثار الدول أيضًا حالها في الأعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجّاج وابن ذي النون وقد مرّ

ذٰلِكَ كُلُّهُ وَمِنْ آثَارِهَا أَيْضًا عَطَايَا ٱلدُّوَلِ وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَيَظْهَرُ ذٰلِكَ فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى ٱلْهَرَمِ فَإِنَّ ٱلْهِمَمَ ٱلَّتِي لِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ وَغَلَبِهِمْ لِلنَّاسِ وَٱلْهِمَمُ لَا تَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى ٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِجَوَائِزِ ٱبْنِ ذِي يَزَنٍ لِوَفْدِ قُرَيْشٍ كَيْفَ أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْأَعْبُدِ وَٱلْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا وَمِنْ كَرِشِ ٱلْعَنْبَرِ وَاحِدَةً وَأَضْعَفَ ذٰلِكَ بِعَشَرَةِ أَمْثَالِهِ لِعَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرَارَةُ ٱلْيَمَنِ خَاصَّةً تَحْتَ ٱسْتِبْدَادِ فَارِسَ وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذٰلِكَ هِمَّةُ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ ٱلتَّبَابِعَةِ مِنَ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْغَلَبِ عَلَى ٱلْأُمَمِ فِي ٱلْعِرَاقَيْنِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلْمَغْرِبِ وَكَانَ ٱلصَّنْهَاجِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةَ أَيْضًا إِذَا أَجَازُوا ٱلْوَفْدَ مِنْ أُمَرَاءِ زَنَاتَةَ ٱلْوَافِدِينَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا يُعْطُونَهُمُ ٱلْمَالَ أَحْمَالًا وَٱلْكِسَاءَ تُخُوتًا مَمْلُوءَةً وَٱلْحُمْلَانَ جَنَائِبَ عَدِيدَةً وَفِي تَارِيخِ ٱبْنِ ٱلرَّقِيقِ مِنْ ذٰلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ كَانَ عَطَاءُ ٱلْبَرَامِكَةِ وَجَوَائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعْدِمًا فَإِنَّمَا هُوَ ٱلْوِلَايَةُ وَٱلنِّعْمَةُ آخِرَ ٱلدَّهْرِ لَا ٱلْعَطَاءُ ٱلَّذِي يَسْتَنْفِدُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ مَسْطُورَةٌ وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نِسْبَةِ ٱلدُّوَلِ جَارِيَةٌ هٰذَا جَوْهَرٌ ٱلصِّقِلِّيُّ ٱلْكَاتِبُ قَائِدُ جَيْشِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا ٱرْتَحَلَ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ ٱسْتَعَدَّ مِنَ ٱلْقَيْرَوَانِ بِأَلْفِ حِمْلٍ مِنَ ٱلْمَالِ وَلَا تَنْتَهِي ٱلْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هٰذَا وَكَذٰلِكَ وُجِدَ بِخَطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يُحْمَلُ إِلَى بَيْتِ ٱلْمَالِ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ ٱلْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّوَاحِي نَقَلْتُهُ مِنْ جِرَابِ ٱلدَّوْلَةِ (غلات السواد) سَبْعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ ٱلْحُلَلِ ٱلنَّجْرَانِيَّةِ مِائَتَا حُلَّةٍ وَمِنْ طِينِ ٱلْخَتْمِ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ رِطْلًا (كنكر) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسِتُّمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (كور دجلة) عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَةُ دَرَاهِمَ (حلوان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (الاهواز) خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً وَمِنَ ٱلسُّكَّرِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (فارس) سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنْ مَاءِ ٱلْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَارُورَةٍ وَمِنَ ٱلزَّيْتِ ٱلْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (كرمان) أَرْبَعَةُ ٱلْآفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتَا أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ ٱلْمَتَاعِ ٱلْيَمَانِيِّ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلتَّمْرِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (مكران) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّةً (السند وما يليه) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ

أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ ٱلْعُودِ ٱلْهِنْدِيِّ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رِطْلاً (سجستان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلثِّيَابِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ثَلْثُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْفَانِيذِ عِشْرُونَ رِطْلاً (خراسان) ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَمِنْ نُقَرِ ٱلْفِضَّةِ أَلْفَا نُقْرَةٍ وَمِنَ ٱلْبَرَاذِينِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنَ ٱلْمَتَاعِ عِشْرُونَ أَلْفَ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْإِهْلِيلَجِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (جرجان) ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْإِبْرِيسَمِ أَلْفُ شُقَّةٍ (قومس) أَلْفُ أَلْفٍ مِرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةٍ مِنْ نُقَرِ ٱلْفِضَّةِ (طبرستان والرويان ونهاوند) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفٍ مِرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَمِنَ ٱلْفُرُشِ ٱلطَّبَرِيِّ سِتُّمِائَةِ قِطْعَةٍ وَمِنَ ٱلْأَكْسِيَةِ مِائَتَانِ وَمِنَ ٱلثِّيَابِ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْمَنَادِيلِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَمِنَ ٱلْجَامَاتِ ثَلَاثُمِائَةٍ (الري) ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (همذان) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَمِنْ رُبِّ ٱلرُّمَّانِ أَلْفُ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ (ما بين البصرة والكوفة) عَشَرَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (ماسبذان والدينار[1]) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ (شهرزور) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (الموصل وما يليها) أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ ٱلْأَبْيَضِ عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ رِطْلٍ (اذربيجان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ (الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات) أَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ زِقٍّ وَمِنَ ٱلْبُزَاةِ[2] عَشَرَةٌ وَمِنَ ٱلْأَكْسِيَةِ عِشْرُونَ (ارمينية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مِرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْبُسُطِ[3] ٱلْمَحْفُورِ عِشْرُونَ وَمِنَ ٱلرَّقْمِ خَمْسُمِائَةٍ وَثَلَاثُونَ رِطْلاً وَمِنَ ٱلْمَسَايِحِ ٱلسُّورِ مَاهِيَ عَشَرَةُ آلَافِ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلصُّونَجِ عَشَرَةُ آلَافِ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلْبِغَالِ مِائَتَانِ وَمِنَ ٱلْمُهْرَةِ ثَلَاثُونَ (قنسرين) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِنَ ٱلزَّيْتِ أَلْفُ حِمْلٍ (دمشق) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (الاردن) سَبْعَةٌ وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (فلسطين) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ وَمِنَ

---

(١) قوله والدينار والظاهر انها الدينور وفي الترجمة التركية ماسندان ورندان اه (٢) قوله ومن البزاة في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه . (٣) وفي نسخة القسط

الزيت ثلاثمائة ألف رطل (مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار (برقة) ألف ألف درهم مرتين (افريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون (اليمن) ثلاثمائة الف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع (الحجاز) ثلاثمائة الف دينار انتهى . وأما الأندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة الآف ألف الف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار . ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة الآف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار وليس ذلك من الصواب فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين وناسبنا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة إليها وجدنا بينها بونا وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها فالآثار كلها جارية على نسبة الأصل في القوة كما قدمناه ولا يسعنا إنكار ذلك عنها إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستظرفة وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة[1] كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب إلى المغرب

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهاؤها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرها ٧ كراريس اه

وَٱتَّصل بِٱلسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رِحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنَ ٱلْعَجَائِبِ بِمَمَالِكِ ٱلْأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ ٱلْهِنْدِ وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ بِمَا يَسْتَغْرِبُهُ ٱلسَّامِعُونَ مِثْلَ أَنَّ مَلِكَ ٱلْهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى ٱلسَّفَرِ أَحْصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ وَأَنَّهُ عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ ٱلنَّاسُ كَافَّةً إِلَى صَحْرَاءِ ٱلْبَلَدِ وَيَطُوفُونَ بِهِ وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْحَفْلِ مَنْجَنِيقَاتٌ عَلَى ٱلظَّهْرِ تُرْمَى بِهَا شَكَائِرُ ٱلدَّرَاهِمِ وَٱلدَّنَانِيرِ عَلَى ٱلنَّاسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ إِيوَانَهُ وَأَمْثَالُ هَٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ فَتَنَاجَى ٱلنَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ وَلَقِيتُ أَيَّامَئِذٍ وَزِيرَ ٱلسُّلْطَانِ فَارِسَ بْنَ وَرْدَارَ ٱلْبَعِيدَ ٱلصِّيتِ فَفَاوَضْتُهُ فِي هَٰذَا ٱلشَّأْنِ وَأَرَيْتُهُ إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذَٰلِكَ ٱلرَّجُلِ لِمَا ٱسْتَفَاضَ فِي ٱلنَّاسِ مِنْ تَكْذِيبِهِ فَقَالَ لِي ٱلْوَزِيرُ فَارِسٌ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنْكِرَ مِثْلَ هَٰذَا مِنْ أَحْوَالِ ٱلدُّوَلِ بِمَا أَنَّكَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونَ كَٱبْنِ ٱلْوَزِيرِ ٱلنَّاشِئِ فِي ٱلسِّجْنِ وَذَٰلِكَ أَنَّ وَزِيرًا ٱعْتَقَلَهُ سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ فِي ٱلسِّجْنِ سِنِينَ رَبِيَ فِيهَا ٱبْنُهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْمَحْبِسِ فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ سَأَلَ عَنِ ٱللُّحْمَانِ ٱلَّتِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَٰذَا لَحْمُ ٱلْغَنَمِ فَقَالَ وَمَا ٱلْغَنَمُ فَيَصِفُهَا لَهُ أَبُوهُ بِشِيَاتِهَا وَنُعُوتِهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ ٱلْفَارِ فَيُنْكِرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ ٱلْغَنَمُ مِنَ ٱلْفَارِ وَكَذَا فِي لَحْمِ ٱلْإِبِلِ وَٱلْبَقَرِ إِذْ لَمْ يُعَايِنْ فِي مَحْبِسِهِ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ إِلَّا ٱلْفَارَ فَيَحْسَبُهَا كُلَّهَا أَبْنَاءَ جِنْسِ ٱلْفَارِ وَلِهَٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْتَرِي ٱلنَّاسَ فِي ٱلْأَخْبَارِ كَمَا يَعْتَرِيهِمُ ٱلْوَسْوَاسُ فِي ٱلزِّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ ٱلْإِغْرَابِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلَ ٱلْكِتَابِ فَلْيَرْجِعِ ٱلْإِنْسَانُ إِلَى أُصُولِهِ وَلْيَكُنْ مُهَيْمِنًا عَلَى نَفْسِهِ وَمُمَيِّزًا بَيْنَ طَبِيعَةِ ٱلْمُمْكِنِ وَٱلْمُمْتَنِعِ بِصَرِيحِ عَقْلِهِ وَمُسْتَقِيمِ فِطْرَتِهِ فَمَا دَخَلَ فِي نِطَاقِ ٱلْإِمْكَانِ قَبِلَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفَضَهُ وَلَيْسَ مُرَادُنَا ٱلْإِمْكَانَ ٱلْعَقْلِيَّ ٱلْمُطْلَقَ فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ فَلَا يُفْرَضُ حَدًّا بَيْنَ ٱلْوَاقِعَاتِ وَإِنَّمَا مُرَادُنَا ٱلْإِمْكَانُ بِحَسَبِ ٱلْمَادَّةِ ٱلَّتِي لِلشَّيْءِ فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ ٱلشَّيْءِ وَجِنْسَهُ وَصِنْفَهُ وَمِقْدَارَ عِظَمِهِ وَقُوَّتِهِ أَجْرَيْنَا ٱلْحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَٰلِكَ عَلَى أَحْوَالِهِ وَحَكَمْنَا بِٱلِٱمْتِنَاعِ عَلَى مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبيته بالموالي والمصطنعين

إعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُهُ كَمَا قُلْنَاهُ بِقَوْمِهِ فَهُمْ عِصَابَتُهُ وَظُهَرَاؤُهُ عَلَى شَأْنِهِ وَبِهِمْ يُقَارِعُ الْخَوَارِجَ عَلَى دَوْلَتِهِ وَمِنْهُمْ يُقَلِّدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِهِ وَوِزَارَةَ دَوْلَتِهِ وَجِبَايَةَ أَمْوَالِهِ لِأَنَّهُمْ أَعْوَانُهُ عَلَى الْغَلَبِ وَشُرَكَاؤُهُ فِي الْأَمْرِ وَمُسَاهِمُوهُ فِي سَائِرِ مُهِمَّاتِهِ هٰذَا مَا دَامَ الطَّوْرُ الْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَإِذَا جَاءَ الطَّوْرُ الثَّانِي وَظَهَرَ الِاسْتِبْدَادُ عَنْهُمْ وَالِانْفِرَادُ بِالْمَجْدِ وَدَافَعَهُمْ عَنْهُ بِالْمِرَاحِ صَارُوا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَاحْتَاجَ فِي مُدَافَعَتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ وَصَدِّهِمْ عَنِ الْمُشَارَكَةِ إِلَى أَوْلِيَاءَ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ وَأَخَصَّ بِهِ قُرْبًا وَاصْطِنَاعًا وَأَوْلَى إِيثَارًا وَجَاهًا لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مُدَافَعَةِ قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَالرُّتْبَةِ الَّتِي أَلِفُوهَا فِي مُشَارَكَتِهِمْ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَخُصُّهُمْ بِمَزِيدِ التَّكْرِمَةِ وَالْإِيثَارِ وَيَقْسِمُ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ وَيُقَلِّدُهُمْ جَلِيلَ الْأَعْمَالِ وَالْوِلَايَاتِ مِنَ الْوِزَارَةِ وَالْقِيَادَةِ وَالْجِبَايَةِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ لِنَفْسِهِ وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنْ أَلْقَابِ الْمَمْلَكَةِ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِيَاؤُهُ الْأَقْرَبُونَ وَنُصَحَاؤُهُ الْمُخْلِصُونَ وَذٰلِكَ حِينَئِذٍ مُؤْذِنٌ بِاهْتِضَامِ الدَّوْلَةِ وَعَلَامَةٌ عَلَى الْمَرَضِ الْمُزْمِنِ فِيهَا لِفَسَادِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي كَانَ بِنَاءُ الْغَلَبِ عَلَيْهَا وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ الِامْتِهَانِ وَعَدَاوَةِ السُّلْطَانِ فَيَضْطَغِنُونَ عَلَيْهِ وَيَتَرَبَّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ وَيَعُودُ وَبَالُ ذٰلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ وَلَا يُطْمَعُ فِي بُرْئِهَا مِنْ هٰذَا الدَّاءِ لِأَنَّهُ مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فِي الْأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يَذْهَبَ رَسْمُهَا وَاعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ كَيْفَ كَانُوا إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَوِلَايَةِ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ الْعَرَبِ مِثْلِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُبَيْدِ اللّٰهِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَالْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ وَالْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ وَخَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللّٰهِ الْقَسْرِيِّ وَابْنِ هُبَيْرَةَ وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَبِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَنَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ رِجَالَاتِ الْعَرَبِ وَكَذَا صَدْرٌ مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ كَانَ الِاسْتِظْهَارُ فِيهَا أَيْضًا بِرِجَالَاتِ الْعَرَبِ فَلَمَّا صَارَتِ الدَّوْلَةُ لِلِانْفِرَادِ بِالْمَجْدِ وَكُبِحَ الْعَرَبُ عَنِ التَّطَاوُلِ لِلْوِلَايَاتِ صَارَتِ الْوِزَارَةُ لِلْعَجَمِ وَالصَّنَائِعِ مِنَ الْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَبَنِي

طاهر ثم بني بويه ثم موالي الترك مثل بغا ووصيف وأتمش وباكباك وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالي العجم فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله في عباده والله تعالى أعلم

الفصل العشرون

في احوال الموالي والمصطنعين في الدول

إعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة إنما يتم بالنسب لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقربى والتخاذل في الأجانب والبعداء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تتنزل منزلة ذلك لأن أمر النسب وإن كان طبيعياً فإنما هو وهمي والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر مثله في الاصطناع فإنه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تتنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة وإن لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة فإذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها أوشج وعقائدها أصح ونسبها أصرح لوجهين أحدهما أنهم قبل الملك أسوة في حالهم فلا يتميز النسب عن الولاية إلا عند الأقل منهم فيتنزلون منهم منزلة ذوي قرابتهم وأهل أرحامهم وإذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى ولأهل القرابة عن اهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه أحوال الرئاسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتتميز حالتهم ويتنزلون منزلة الأجانب ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد وذلك أنقص من الاصطناع قبل الملك . الوجه الثاني أن الاصطناع قبل الملك يبعد عهده عن أهل الدولة بطول الزمان ويخفي شأن تلك اللحمة ويظن بها في الأكثر النسب فيقوى حال العصبية وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته الأكثر فتتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة إلى الولاية التي كانت قبل

ٱلدَّوْلَةِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلرِّئَاسَاتِ تَجِدْهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ ٱصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ ٱلْتِحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةَ أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ ٱصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ ٱلْمُلْكِ وَٱلرِّئَاسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ ٱلْقَرَابَةِ وَٱللُّحْمَةِ مَا لِلْأَوَّلِينَ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ بِٱلْعِيَانِ حَتَّى إِنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَجَانِبِ وَٱصْطِنَاعِهِمْ وَلَا يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ ٱلْمُصْطَنِعُونَ قَبْلَ ٱلدَّوْلَةِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوَّلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱلِٱنْقِرَاضِ فَيَكُونُونَ مُنْحَطِّينَ فِي مَهَاوِي ٱلضَّعَةِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبَ ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱصْطِنَاعِهِمْ وَٱلْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهَا ٱلْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا ٱلْأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ وَقِلَّةِ ٱلْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأَكُّدِ ٱللُّحْمَةِ مُنْذُ ٱلْعُصُورِ ٱلْمُتَطَاوِلَةِ بِٱلْمَرْبَى وَٱلِٱتِّصَالِ بِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَٱلِٱنْتِظَامِ مَعَ كُبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذٰلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَٱعْتِزَازٌ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى ٱسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدُ ٱسْتِخْلَاصِهِمْ وَٱصْطِنَاعِهِمْ قَرِيبًا فَلَا يَبْلُغُونَ رُتَبَ ٱلْمَجْدِ وَيَبْقَوْنَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ ٱلْخَارِجِيَّةِ وَهٰكَذَا شَأْنُ ٱلدُّوَلِ فِي أَوَاخِرِهَا وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ ٱسْمُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ عَلَى ٱلْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هٰؤُلَاءِ ٱلْمُحْدَثُونَ فَخَدَمٌ وَأَعْوَانٌ وَٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إِذَا ٱسْتَقَرَّ ٱلْمُلْكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْبِتٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْقَبِيلِ ٱلْقَائِمِينَ بِٱلدَّوْلَةِ وَٱنْفَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ ٱلْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ ٱلتَّرْشِيحِ فَرُبَّمَا حَدَثَ ٱلتَّغَلُّبُ عَلَى ٱلْمَنْصِبِ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبُهُ فِي ٱلْأَكْثَرِ وِلَايَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَنْبِتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلَايَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ وَيُؤْنَسُ مِنْهُ ٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِٱلْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وُزَرَاءِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُوَرِّي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْنَسَ مِنْهُ ٱلِٱسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذٰلِكَ ذَرِيعَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبَ ٱلصَّبِيَّ عَنِ ٱلنَّاسِ وَيُعَوِّدَهُ إِلَيْهَا تَرَفُ أَحْوَالِهِ وَيُسِيمَهُ فِي مَرَاعِيهَا مَتَى أَمْكَنَهُ وَيُنْسِيَهُ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ

أَنَّ حظَّ ٱلسُّلْطَانِ مِنَ ٱلْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ ٱلسَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ ٱلصَّفْقَةِ وَخِطَابُ ٱلتَّهْوِيلِ وَٱلْقُعُودُ مَعَ ٱلنِّسَاءِ خَلْفَ ٱلْحِجَابِ وَأَنَّ ٱلْحَلَّ وَٱلرَّبْطَ وَٱلْأَمْرَ وَٱلنَّهْيَ وَمُبَاشَرَةَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَتَفَقُّدَهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْجَيْشِ وَٱلْمَالِ وَٱلثُّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي ذٰلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةُ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلِٱسْتِبْدَادِ وَيَتَحَوَّلَ ٱلْمُلْكُ إِلَيْهِ وَيُؤْثِرَ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُوَيْهِ وَٱلتُّرْكِ وَكَافُورٍ ٱلْإِخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ بِٱلْمَشْرِقِ وَلِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَقَدْ يَتَفَطَّنُ ذٰلِكَ ٱلْمَحْجُورُ ٱلْمُغَلَّبُ لِشَأْنِهِ فَيُحَاوِلُ عَلَى ٱلْخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ ٱلْحَجْرِ وَٱلِٱسْتِبْدَادِ وَيُرْجِعُ ٱلْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي ٱلْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا بِقَتْلٍ أَوْ بِرَفْعٍ عَنِ ٱلرُّتْبَةِ فَقَطْ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّادِرِ ٱلْأَقَلِّ لِأَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغَلُّبِ ٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ ٱسْتَمَرَّ لَهَا ذٰلِكَ وَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَنَشْأَةِ أَبْنَاءِ ٱلْمُلْكِ مُنْغَمِسِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوا عَهْدَ ٱلرُّجُولَةِ وَأَلِفُوا أَخْلَاقَ ٱلدَّايَاتِ وَٱلْأَظْآرِ وَرَبَوْا عَلَيْهَا فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةٍ وَلَا يَعْرِفُونَ ٱسْتِبْدَادًا مِنْ تَغَلُّبٍ إِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي ٱلْقُنُوعِ بِٱلْأُبَّهَةِ وَٱلتَّنَفُّسِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَأَنْوَاعِ ٱلتَّرَفِ وَهٰذَا ٱلتَّغَلُّبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعِينَ عِنْدَ ٱسْتِبْدَادِ عَشِيرِ ٱلْمُلْكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَٱنْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهٰذَانِ مَرَضَانِ لَا بُرْءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَٱللّٰهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

الفصل الثاني والعشرون

في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ وَٱلسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِيهِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ بِعَصَبِيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَتْبَعَتْهُمْ حَتَّى ٱسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةُ ٱلْمُلْكِ وَٱلْغَلَبِ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً وَبِهَا ٱنْحَفَظَ رَسْمُ ٱلدَّوْلَةِ وَبَقَاؤُهَا وَهٰذَا ٱلْمُتَغَلِّبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ ٱلْمُلْكِ أَوِ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ فَعَصَبِيَّتُهُ مُنْدَرِجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ ٱلْمُلْكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَهُوَ لَا يُحَاوِلُ فِي ٱسْتِبْدَادِهِ ٱنْتِزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ وَٱلْإِبْرَامِ وَٱلنَّقْضِ يُوهِمُ فِيهَا أَهْلَ ٱلدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ مُنَفِّذٌ فِي ذٰلِكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ ٱلْمُلْكِ وَشَارَاتِهِ

وَأَلْقَابِهِ جُنْدَهُ وَيُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنِ ٱلتُّهْمَةِ بِذٰلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ ٱلِاسْتِبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ فِي ٱسْتِبْدَادِهِ ذٰلِكَ بِٱلْحِجَابِ ٱلَّذِي ضَرَبَهُ ٱلسُّلْطَانُ وَأَوَّلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ ٱلْقَبِيلِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمُغَالِطٌ عَنْهُ بِٱلنِّيَابَةِ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ لَنَفِسَهُ(١) عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَقَبِيلُ ٱلْمَلِكِ وَحَاوَلُوا ٱلِاسْتِئْثَارَ بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لَهُ فِي ذٰلِكَ صِبْغَةٌ تَحْمِلُهُمْ عَلَى ٱلتَّسْلِيمِ لَهُ وَٱلِانْقِيَادِ فَيَهْلِكُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ ٱلنَّاصِرِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ ٱلْخِلَافَةِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا قَنِعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ ٱلِاسْتِبْدَادِ بِٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ وَٱلْمَرَاسِمِ ٱلْمُتَتَابِعَةِ فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ يَعْهَدَ لَهُ بِٱلْخِلَافَةِ فَنَفِسَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ بَنُو مَرْوَانَ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ وَبَايَعُوا لِٱبْنِ عَمِّ ٱلْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ بْنِ ٱلنَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذٰلِكَ خَرَابُ دَوْلَةِ ٱلْعَامِرِيِّينَ وَهَلَاكُ ٱلْمُؤَيَّدِ خَلِيفَتِهِمْ وَٱسْتُبْدِلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصِ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى آخِرِهَا وَٱخْتَلَّتْ مَرَاسِمُ مُلْكِهِمْ وَٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك واصنافه

أَلْمُلْكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ٱلْبَشَرَ لَا يُمْكِنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِٱجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوتِهِمْ وَضَرُورِيَّاتِهِمْ وَإِذَا ٱجْتَمَعُوا دَعَتِ ٱلضَّرُورَةُ إِلَى ٱلْمُعَامَلَةِ وَٱقْتِضَاءِ ٱلْحَاجَاتِ وَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ يَأْخُذُهَا مِنْ صَاحِبِهِ لِمَا فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ ٱلظُّلْمِ وَٱلْعُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَيُمَانِعُهُ ٱلْآخَرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى ٱلْغَضَبِ وَٱلْأَنَفَةِ وَمُقْتَضَى ٱلْقُوَّةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ فَيَقَعُ ٱلتَّنَازُعُ ٱلْمُفْضِي إِلَى ٱلْمُقَاتَلَةِ وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى ٱلْهَرْجِ وَسَفْكِ ٱلدِّمَاءِ وَإِذْهَابِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْمُفْضِي ذٰلِكَ إِلَى ٱنْقِطَاعِ ٱلنَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ ٱلْبَارِي سُبْحَانَهُ بِٱلْمُحَافَظَةِ فَٱسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوْضَى دُونَ حَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَٱحْتَاجُوا مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْوَازِعِ وَهُوَ ٱلْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱلْمَلِكُ ٱلْقَاهِرُ ٱلْمُتَحَكِّمُ وَلَا بُدَّ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلْمُطَالَبَاتِ كُلَّهَا وَٱلْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ ٱلْمُطَالَبَاتُ وَيَحْتَاجُ إِلَى ٱلْمُدَافَعَاتِ وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ

(١) قوله لنفسة بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح لم يره اهلا له كما في القاموس

مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ وَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغَلُّبٌ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرِهَا وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِكُلِّ عَصَبِيَّةٍ وَإِنَّمَا الْمُلْكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ الرَّعِيَّةَ وَيَجْبِي الْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْمِي الثُّغُورَ وَلاَ تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهَذَا مَعْنَى الْمُلْكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصَّرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلِ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جِبَايَةِ الْأَمْوَالِ أَوْ بَعْثِ الْبُعُوثِ فَهُوَ مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرْبَرِ فِي دَوْلَةِ الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدْرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَمَنْ قَصَّرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ أَيْضًا عَنِ الْاسْتِعْلاَءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمُ غَيْرِهِ فَهُوَ أَيْضًا مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ وَهَؤُلاَءِ مِثْلُ أُمَرَاءِ النَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْمُتَّسِعَةِ النِّطَاقِ أَعْنِي تُوجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي النَّوَاحِي الْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ مِثْلَ صَنْهَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْدِيِّينَ وَزَنَاتَةَ مَعَ الْأُمَوِيِّينَ تَارَةً وَالْعُبَيْدِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلِ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمِثْلِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ مِنَ الْفُرْسِ مَعَ الْإِسْكَنْدَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلاَءِ فَاعْتَبِرْهُ تَجِدْهُ وَاللهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

الفصل الرابع والعشرون

في ان ارهاف الحد مضرٌّ بالملك ومفسد له في الاكثر

إِعْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ الرَّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجِسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلاَحَةِ وَجْهِهِ أَوْ عِظَمِ جُثْمَانِهِ أَوِ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جَوْدَةِ خَطِّهِ أَوْ ثُقُوبِ ذِهْنِهِ وَإِنَّمَا مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبَيْنِ فَحَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرَّعِيَّةِ الْقَائِمُ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالسُّلْطَانُ مَنْ لَهُ رَعِيَّةٌ وَالرَّعِيَّةُ مَنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَلَكَةَ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الْجَوْدَةِ بِمَكَانٍ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ وَإِلاَّ كَالُهُمْ وَيَعُودُ حُسْنُ الْمَلَكَةِ إِلَى الرِّفْقِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا بِالْعُقُوبَاتِ مُنَقِّبًا عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ شَمَلَهُمُ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ وَلاَذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ

وَالْخَدِيعَةِ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْمُدَافَعَاتِ فَفَسَدَتِ الْحِمَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ وَرُبَّمَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِذَلِكَ فَتَفْسُدُ الدَّوْلَةُ وَيَخْرَبُ السِّيَاجُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهْرُهُ فَسَدَتِ الْعَصَبِيَّةُ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلاً وَفَسَدَ السِّيَاجُ مِنْ أَصْلِهِ بِالْعَجْزِ عَنِ الْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقاً بِهِمْ مُتَجَاوِزاً عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ وَلَاذُوا بِهِ وَأُشْرِبُوا مَحَبَّتَهُ وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَلَكَةِ فَهِيَ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ فَالْمُدَافَعَةُ بِهَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ وَأَمَّا النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جُمْلَةِ الرِّفْقِ بِهِمْ وَالنَّظَرِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَصْلٌ كَبِيرٌ مِنَ التَّحَبُّبِ إِلَى الرَّعِيَّةِ وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلَّمَا تَكُونُ مَلَكَةُ الرِّفْقِ فِي مَنْ يَكُونُ يَقِظاً شَدِيدَ الذَّكَاءِ مِنَ النَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الرِّفْقُ فِي الْغُفَّلِ وَالْمُتَغَفِّلِ وَأَقَلُّ مَا يَكُونُ فِي الْيَقِظِ لِأَنَّهُ يُكَلِّفُ الرَّعِيَّةَ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنُفُوذِ نَظَرِهِ فِيمَا وَرَاءَ مَدَارِكِهِمْ وَاطِّلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فِي مَبَادِئِهَا بِأَلْمَعِيَّتِهِ فَيَهْلِكُونَ لِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِيرُوا عَلَى سَيْرِ أَضْعَفِكُمْ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ فِي الْحَاكِمِ قِلَّةَ الْإِفْرَاطِ فِي الذَّكَاءِ وَمَأْخَذُهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ عُمَرُ عَنِ الْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلِعَجْزٍ أَمْ لِخِيَانَةٍ فَقَالَ عُمَرُ لَمْ أَعْزِلْكَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَحْمِلَ فَضْلَ عَقْلِكَ عَلَى النَّاسِ فَأُخِذَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مُفْرِطَ الذَّكَاءِ وَالْكَيْسِ مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ لِمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ التَّعَسُّفِ وَسُوءِ الْمَلَكَةِ وَحَمْلِ الْوُجُودِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَبْعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْكِتَابِ وَاللهُ خَيْرُ الْمَالِكِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَيْسَ وَالذَّكَاءَ عَيْبٌ فِي صَاحِبِ السِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي الْفِكْرِ كَمَا أَنَّ الْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي الْجُمُودِ وَالطَّرَفَانِ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ وَالْمَحْمُودُ هُوَ التَّوَسُّطُ كَمَا فِي الْكَرَمِ مَعَ التَّبْذِيرِ وَالْبُخْلِ وَكَمَا فِي الشَّجَاعَةِ مَعَ الْهَوَجِ وَالْجُبْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَذَا يُوصَفُ الشَّدِيدُ الْكَيْسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ فَيُقَالُ شَيْطَانٌ وَمُتَشَيْطِنٌ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَاللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحمله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة ينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل. فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء والله يقول أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لأنه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك او غيره قال صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ترد عليكم وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من حياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة

عَلَى ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ وَكَانَ هٰذَا ٱلْحُكْمُ لِأَهْلِ ٱلشَّرِيعَةِ وَهُمُ ٱلْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ قَامَ فِيهِ مَقَامَهُمْ وَهُمُ ٱلْخُلَفَاءُ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ مَعْنَى ٱلْخِلَافَةِ وَأَنَّ ٱلْمُلْكَ ٱلطَّبِيعِيَّ هُوَ حَمْلُ ٱلْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْغَرَضِ وَٱلشَّهْوَةِ وَٱلسِّيَاسِيَّ هُوَ حَمْلُ ٱلْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلنَّظَرِ ٱلْعَقْلِيِّ فِي جَلْبِ ٱلْمَصَالِحِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَدَفْعِ ٱلْمَضَارِّ وَٱلْخِلَافَةُ هِيَ حَمْلُ ٱلْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلنَّظَرِ ٱلشَّرْعِيِّ فِي مَصَالِحِهِمِ ٱلْأُخْرَوِيَّةِ وَٱلدُّنْيَوِيَّةِ ٱلرَّاجِعَةِ إِلَيْهَا إِذْ أَحْوَالُ ٱلدُّنْيَا تَرْجِعُ كُلُّهَا عِنْدَ ٱلشَّارِعِ إِلَى ٱعْتِبَارِهَا بِمَصَالِحِ ٱلْآخِرَةِ فَهِيَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ خِلَافَةٌ عَنْ صَاحِبِ ٱلشَّرْعِ فِي حِرَاسَةِ ٱلدِّينِ وَسِيَاسَةِ ٱلدُّنْيَا بِهِ فَٱفْهَمْ ذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْهُ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدُ وَٱللهُ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه

وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هٰذَا ٱلْمَنْصِبِ وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ ٱلشَّرِيعَةِ فِي حِفْظِ ٱلدِّينِ وَسِيَاسَةِ ٱلدُّنْيَا بِهِ تُسَمَّى خِلَافَةً وَإِمَامَةً وَٱلْقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةً وَإِمَامًا فَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ إِمَامًا فَتَشْبِيهًا بِإِمَامِ ٱلصَّلَاةِ فِي ٱتِّبَاعِهِ وَٱلِٱقْتِدَاءِ بِهِ وَلِهٰذَا يُقَالُ ٱلْإِمَامَةُ ٱلْكُبْرَى وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكَوْنِهِ يَخْلُفُ ٱلنَّبِيَّ فِي أُمَّتِهِ فَيُقَالُ خَلِيفَةٌ بِإِطْلَاقٍ وَخَلِيفَةُ رَسُولِ ٱللهِ وَٱخْتُلِفَ فِي تَسْمِيَتِهِ خَلِيفَةَ ٱللهِ فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمُ ٱقْتِبَاسًا مِنَ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْعَامَّةِ ٱلَّتِي لِلْآدَمِيِّينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً وَقَوْلِهِ جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ وَمَنَعَ ٱلْجُمْهُورُ مِنْهُ لِأَنَّ مَعْنَى ٱلْآيَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دُعِيَ بِهِ وَقَالَ لَسْتُ خَلِيفَةَ ٱللهِ وَلٰكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأَنَّ ٱلِٱسْتِخْلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ ٱلْغَائِبِ وَأَمَّا ٱلْحَاضِرُ فَلَا ثُمَّ إِنَّ نَصْبَ ٱلْإِمَامِ وَاجِبٌ قَدْ عُرِفَ وُجُوبُهُ فِي ٱلشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَتَسْلِيمِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ وَكَذَا فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَلَمْ تُتْرَكِ ٱلنَّاسُ فَوْضَى فِي عَصْرٍ مِنَ ٱلْأَعْصَارِ وَٱسْتَقَرَّ ذٰلِكَ إِجْمَاعًا دَالًّا عَلَى وُجُوبِ نَصْبِ ٱلْإِمَامِ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ إِلَى أَنَّ مُدْرَكَ وُجُوبِهِ ٱلْعَقْلُ وَأَنَّ ٱلْإِجْمَاعَ ٱلَّذِي وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ قَضَاءٌ بِحُكْمِ ٱلْعَقْلِ فِيهِ قَالُوا وَإِنَّمَا وَجَبَ بِٱلْعَقْلِ لِضَرُورَةِ ٱلِٱجْتِمَاعِ لِلْبَشَرِ وَٱسْتِحَالَةِ حَيَاتِهِمْ وَوُجُودِهِمْ مُنْفَرِدِينَ وَمِنْ ضَرُورَةِ

الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فساده وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاؤهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء الحكم الشرع فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالإجماع والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعي على أهله ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وإنما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك أن في هذه مفاسد محظورة وهي من توابعه كما أثنى على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك فإذاً إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليها وأما المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده

ثُمَّ نَقُولُ لَهُم إِنَّ هٰذَا ٱلْفِرَارَ عَنِ ٱلْمُلْكِ بِعَدَمِ وُجُوبِ هٰذَا ٱلنَّصْبِ لَا يُغْنِيكُمْ شَيْئًا لِأَنَّكُمْ مُوَافِقُونَ عَلَى وُجُوبِ إِقَامَةِ أَحْكَامِ ٱلشَّرِيعَةِ وَذٰلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلشَّوْكَةِ وَٱلْعَصَبِيَّةُ مُقْتَضِيَةٌ بِطَبْعِهَا لِلْمُلْكِ فَيَحْصُلُ ٱلْمُلْكُ وَإِنْ لَمْ يُنْصَبْ إِمَامٌ وَهُوَ عَيْنُ مَا فَرَرْتُمْ عَنْهُ وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ هٰذَا ٱلنَّصْبَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعٍ فَهُوَ مِنْ فُرُوضِ ٱلْكِفَايَةِ وَرَاجِعٌ إِلَى ٱخْتِيَارِ أَهْلِ ٱلْعَقْدِ وَٱلْحَلِّ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ نَصْبُهُ وَيَجِبُ عَلَى ٱلْخَلْقِ جَمِيعًا طَاعَتُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى أَطِيعُوا ٱللّٰهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ وَأَمَّا شُرُوطُ هٰذَا ٱلْمَنْصِبِ فَهِيَ أَرْبَعَةٌ ٱلْعِلْمُ وَٱلْعَدَالَةُ وَٱلْكِفَايَةُ وَسَلَامَةُ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلْأَعْضَاءِ مِمَّا يُؤَثِّرُ فِي ٱلرَّأْيِ وَٱلْعَمَلِ وَٱخْتُلِفَ فِي شَرْطٍ خَامِسٍ وَهُوَ ٱلنَّسَبُ ٱلْقُرَشِيُّ فَأَمَّا ٱشْتِرَاطُ ٱلْعِلْمِ فَظَاهِرٌ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مُنَفِّذًا لِأَحْكَامِ ٱللّٰهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ عَالِمًا بِهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُهُ لَهَا وَلَا يَكْفِي مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا لِأَنَّ ٱلتَّقْلِيدَ نَقْصٌ وَٱلْإِمَامَةَ تَسْتَدْعِي ٱلْكَمَالَ فِي ٱلْأَوْصَافِ وَٱلْأَحْوَالِ وَأَمَّا ٱلْعَدَالَةُ فَلِأَنَّهُ مَنْصِبٌ دِينِيٌّ يَنْظُرُ فِي سَائِرِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِيهَا فَكَانَ أَوْلَى بِٱشْتِرَاطِهَا فِيهِ وَلَا خِلَافَ فِي ٱنْتِفَاءِ ٱلْعَدَالَةِ فِيهِ بِفِسْقِ ٱلْجَوَارِحِ مِنِ ٱرْتِكَابِ ٱلْمَحْظُورَاتِ وَأَمْثَالِهَا وَفِي ٱنْتِفَائِهَا بِٱلْبِدَعِ ٱلْاعْتِقَادِيَّةِ خِلَافٌ وَأَمَّا ٱلْكِفَايَةُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ جَرِيئًا عَلَى إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱقْتِحَامِ ٱلْحُرُوبِ بَصِيرًا بِهَا كَفِيلًا بِحَمْلِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهَا عَارِفًا بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَحْوَالِ ٱلدَّهَاءِ قَوِيًّا عَلَى مُعَانَاةِ ٱلسِّيَاسَةِ لِيَصِحَّ لَهُ بِذٰلِكَ مَا جُعِلَ إِلَيْهِ مِنْ حِمَايَةِ ٱلدِّينِ وَجِهَادِ ٱلْعَدُوِّ وَإِقَامَةِ ٱلْأَحْكَامِ وَتَدْبِيرِ ٱلْمَصَالِحِ وَأَمَّا سَلَامَةُ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلْأَعْضَاءِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْعُطْلَةِ كَٱلْجُنُونِ وَٱلْعَمَى وَٱلصَّمَمِ وَٱلْخَرَسِ وَمَا يُؤَثِّرُ فَقْدُهُ مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ فِي ٱلْعَمَلِ كَفَقْدِ ٱلْيَدَيْنِ وَٱلرِّجْلَيْنِ وَٱلْأُنْثَيَيْنِ فَتُشْتَرَطُ ٱلسَّلَامَةُ مِنْهَا كُلِّهَا لِتَأْثِيرِ ذٰلِكَ فِي تَمَامِ عَمَلِهِ وَقِيَامِهِ بِمَا جُعِلَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يَشِينُ فِي ٱلْمَنْظَرِ فَقَطْ كَفَقْدِ إِحْدَى هٰذِهِ ٱلْأَعْضَاءِ فَشَرْطُ ٱلسَّلَامَةِ مِنْهُ شَرْطُ كَمَالٍ وَيُلْحَقُ بِفِقْدَانِ ٱلْأَعْضَاءِ ٱلْمَنْعُ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ وَهُوَ ضَرْبَانِ ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهٰذِهِ فِي ٱشْتِرَاطِ ٱلسَّلَامَةِ مِنْهُ شَرْطَ وُجُوبٍ وَهُوَ ٱلْقَهْرُ وَٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ جُمْلَةً بِٱلْأَسْرِ وَشِبْهِهِ وَضَرْبٌ لَا يُلْحَقُ بِهٰذِهِ وَهُوَ ٱلْحَجْرُ بِٱسْتِيلَاءِ بَعْضِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ عِصْيَانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ فَيَنْتَقِلُ ٱلنَّظَرُ فِي حَالِ هٰذَا ٱلْمُسْتَوْلِي فَإِنْ جَرَى عَلَى حُكْمِ ٱلدِّينِ وَٱلْعَدْلِ وَحَمِيدِ ٱلسِّيَاسَةِ جَازَ قَرَارُهُ وَإِلَّا ٱسْتَنْصَرَ ٱلْمُسْلِمُونَ بِمَنْ يَقْبِضُ يَدَهُ عَنْ ذٰلِكَ وَيَدْفَعُ عِلَّتَهُ

حتى ينفذ فعل الخليفة وأما النسب القرشي فللإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منا أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحجوا الأنصار ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك وثبت أيضاً في الصحيح لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش وأمثال هذه الأدلة كثيرة إلا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فإنه خرج مخرج التمثيل والغرض للمبالغة في إيجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته أو لما دخلتني فيه الظنة وهو أيضاً لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضاً فمولى القوم منهم وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قريش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيد للعصبية كما نذكر ولم يبق إلا صراحة النسب فرآه غير محتاج إليه إذ الفائدة في النسب إنما هي العصبية وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصاً من عمر رضي الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم من الخلفاء فأسقط شرط القرشية وإن كان موافقاً لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده وبقي الجمهور على القول باشتراطها وصحة الإمامة للقرشي ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على أمره لأنه إذا ذهبت

ٱلشَّوْكَةُ بِذَهَابِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَقَدْ ذَهَبَتِ ٱلْكِفَايَةُ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْإِخْلَالُ بِشَرْطِ ٱلْكِفَايَةِ تَطَرَّقَ ذَٰلِكَ أَيْضًا إِلَى ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ وَسَقَطَ ٱعْتِبَارُ شُرُوطِ هٰذَا ٱلْمَنْصِبِ وَهُوَ خِلَافُ ٱلْإِجْمَاعِ. وَلْنَتَكَلَّمِ ٱلْآنَ فِي حِكْمَةِ ٱشْتِرَاطِ ٱلنَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ ٱلصَّوَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ فَنَقُولُ. إِنَّ ٱلْأَحْكَامَ ٱلشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدَ وَحِكَمٍ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا وَتُشْرَعُ لِأَجْلِهَا وَنَحْنُ إِذَا بَحَثْنَا عَنِ ٱلْحِكْمَةِ فِي ٱشْتِرَاطِ ٱلنَّسَبِ ٱلْقُرَشِيِّ وَمَقْصَدِ ٱلشَّارِعِ مِنْهُ لَمْ يُقْتَصَرْ فِيهِ عَلَى ٱلتَّبَرُّكِ بِوُصْلَةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ فِي ٱلْمَشْهُورِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ مَوْجُودَةً وَٱلتَّبَرُّكُ بِهَا حَاصِلًا لَٰكِنَّ ٱلتَّبَرُّكَ لَيْسَ مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ ٱلشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتَ فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ ٱلْمَصْلَحَةِ فِي ٱشْتِرَاطِ ٱلنَّسَبِ وَهِيَ ٱلْمَقْصُودَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهَا وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَّمْنَا لَمْ نَجِدْهَا إِلَّا ٱعْتِبَارَ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُطَالَبَةُ وَيَرْتَفِعُ ٱلْخِلَافُ وَٱلْفُرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ ٱلْمَنْصِبِ فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ ٱلْمِلَّةُ وَأَهْلُهَا وَيَنْتَظِمُ حَبْلُ ٱلْأُلْفَةِ فِيهَا وَذَٰلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا عُصْبَةَ مُضَرَ وَأَصْلَهُمْ وَأَهْلَ ٱلْغَلَبِ مِنْهُمْ وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرَ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْكَثْرَةِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلشَّرَفِ فَكَانَ سَائِرُ ٱلْعَرَبِ يَعْتَرِفُ لَهُمْ بِذَٰلِكَ وَيَسْتَكِينُونَ لِغَلَبِهِمْ فَلَوْ جُعِلَ ٱلْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ لَتُوُقِّعَ ٱفْتِرَاقُ ٱلْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَعَدَمِ ٱنْقِيَادِهِمْ وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ مُضَرَ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ ٱلْخِلَافِ وَلَا يَحْمِلَهُمْ عَلَى ٱلْكَرَّةِ فَتَتَفَرَّقَ ٱلْجَمَاعَةُ وَتَخْتَلِفَ ٱلْكَلِمَةُ وَٱلشَّارِعُ مُحَذِّرٌ مِنْ ذَٰلِكَ حَرِيصٌ عَلَى ٱتِّفَاقِهِمْ وَرَفْعِ ٱلتَّنَازُعِ وَٱلشَّتَاتِ بَيْنَهُمْ لِتَحْصُلَ ٱللُّحْمَةُ وَٱلْعَصَبِيَّةُ وَتَحْسُنَ ٱلْحِمَايَةُ بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ لِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى سَوْقِ ٱلنَّاسِ بِعَصَا ٱلْغَلَبِ إِلَى مَا يُرَادُ مِنْهُمْ فَلَا يُخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ خِلَافٍ عَلَيْهِمْ وَلَا فُرْقَةٍ لِأَنَّهُمْ كَفِيلُونَ حِينَئِذٍ بِدَفْعِهَا وَمَنْعِ ٱلنَّاسِ مِنْهَا فَٱشْتُرِطَ نَسَبُهُمُ ٱلْقُرَشِيُّ فِي هٰذَا ٱلْمَنْصِبِ وَهُمْ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي ٱنْتِظَامِ ٱلْمِلَّةِ وَٱتِّفَاقِ ٱلْكَلِمَةِ وَإِذَا ٱنْتَظَمَتْ كَلِمَتُهُمُ ٱنْتَظَمَتْ بِٱنْتِظَامِهَا كَلِمَةُ مُضَرَ أَجْمَعَ فَأَذْعَنَ لَهُمْ سَائِرُ ٱلْعَرَبِ وَٱنْقَادَتِ ٱلْأُمَمُ سِوَاهُمْ إِلَى أَحْكَامِ ٱلْمِلَّةِ وَوَطِئَتْ جُنُودُهُمْ قَاصِيَةَ ٱلْبِلَادِ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ ٱلْفُتُوحَاتِ وَٱسْتَمَرَّ بَعْدَهَا فِي ٱلدَّوْلَتَيْنِ إِلَى أَنِ ٱضْمَحَلَّ أَمْرُ ٱلْخِلَافَةِ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلْعَرَبِ وَيُعْلَمُ مَا كَانَ لِقُرَيْشٍ مِنَ ٱلْكَثْرَةِ وَٱلتَّغَلُّبِ عَلَى بُطُونِ مُضَرَ مَنْ مَارَسَ أَخْبَارَ ٱلْعَرَبِ وَسِيَرَهُمْ وَتَفَطَّنَ لِذَٰلِكَ فِي أَحْوَالِهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ ذَٰلِكَ ٱبْنُ إِسْحَاقَ

في كتاب السير وغيره فإذ ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب (١) في شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم إن الوجود شاهد بذلك فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي والله تعالى أعلم

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

إعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر وإن

(١) قوله الامام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر

عليًّا رضي الله عنه هو الذي عيّنه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤوّلونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنّة ولا نقلة الشريعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جليّ وخفيّ فالجليّ مثل قوله من كنت مولاه فعليّ مولاه قالوا ولم تطّرد هذه الولاية إلّا في عليّ ولهذا قال له عمر أصبحت مولى كلّ مؤمن ومؤمنة ومنها قوله أقضاكم عليّ ولا معنى للإمامة إلّا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الأمر الواجبة طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكمًا في قضيّة الإمامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعني على روحه وهو وصيّ وولّي هذا الأمر من بعدي فلم يبايعه إلّا عليّ ومن الخفيّ عندهم بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عليًّا لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت فإنّه بعث بها أوّلًا أبا بكر ثمّ أوحي إليه ليبلّغه رجل منك أو من قومك فبعث عليًّا ليكون القارئ المبلّغ قالوا وهذا يدلّ على تقديم عليّ وأيضًا فلم يعرف أنّه قدّم أحدًا على عليّ وأمّا أبو بكر وعمر فقدّم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرّة وعمرو بن العاص أخرى وهذه كلّها أدلّة شاهدة بتعيين عليّ للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم ثمّ منهم من يرى أنّ هذه النصوص تدلّ على تعيين عليّ وتشخيصه وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الإماميّة ويتبرّأون من الشيخين حيث لم يقدّموا عليًّا ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص ويغمصون في إمامتهما ولا يلتفت إلى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول إنّ هذه الأدلّة إنّما اقتضت تعيين عليّ بالوصف لا بالشخص والناس مقصّرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه ولا هم الزيديّة ولا يتبرّأون من الشيخين ولا يغمصون في إمامتهما مع قولهم بأنّ عليًّا أفضل منهما لكنّهم يجوّزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ثمّ اختلفت نقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد عليّ فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنصّ عليهم واحدًا بعد واحد على ما يذكر بعد وهؤلاء يسمّون الإماميّة نسبة إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان وهي أصل عندهم ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار مع الشيوخ ويشترط أن يكون الإمام منهم عالمًا

زَاهِدًا جَوَّادًا شُجَاعًا وَيَخْرُجَ دَاعِيًا إِلَى إِمَامَتِهِ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلزَّيْدِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى صَاحِبِ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ٱلسِّبْطُ وَقَدْ كَانَ يُنَاظِرُ أَخَاهُ مُحَمَّدًا ٱلْبَاقِرَ عَلَى ٱشْتِرَاطِ ٱلْخُرُوجِ فِي ٱلْإِمَامِ فَيُلْزِمُهُ ٱلْبَاقِرُ أَنْ لَا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنُ ٱلْعَابِدِينَ إِمَامًا لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ يَنْعَى عَلَيْهِ مَذَاهِبَ ٱلْمُعْتَزِلَةِ وَأَخْذَهُ إِيَّاهَا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَلَمَّا نَاظَرَ ٱلْإِمَامِيَّةُ زَيْدًا فِي إِمَامَةِ ٱلشَّيْخَيْنِ وَرَأَوْهُ يَقُولُ بِإِمَامَتِهِمَا وَلَا يَتَبَرَّأُ مِنْهُمَا رَفَضُوهُ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ وَبِذٰلِكَ سُمُّوا رَافِضَةً وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيٍّ وَٱبْنَيْهِ ٱلسِّبْطَيْنِ عَلَى ٱخْتِلَافِهِمْ فِي ذٰلِكَ إِلَى أَخِيهِمَا مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ ثُمَّ إِلَى وَلَدِهِ وَهُمُ ٱلْكَيْسَانِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى كَيْسَانَ مَوْلَاهُ وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلطَّوَائِفِ ٱخْتِلَافَاتٌ كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا ٱخْتِصَارًا وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ يُسَمَّوْنَ ٱلْغُلَاةَ تَجَاوَزُوا حَدَّ ٱلْعَقْلِ وَٱلْإِيمَانِ فِي ٱلْقَوْلِ بِأُلُوهِيَّةِ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَئِمَّةِ إِمَّا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ ٱتَّصَفُوا بِصِفَاتِ ٱلْأُلُوهِيَّةِ أَوْ أَنَّ ٱلْإِلٰهَ حَلَّ فِي ذَاتِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَهُوَ قَوْلٌ بِٱلْحُلُولِ يُوَافِقُ مَذْهَبَ ٱلنَّصَارَى فِي عِيسَى صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَقَ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بِٱلنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَسَخِطَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ ٱلْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْهُ فَصَرَّحَ بِلَعْنَتِهِ وَٱلْبَرَاءَةِ مِنْهُ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ جَعْفَرٌ ٱلصَّادِقُ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلُ هٰذَا عَنْهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ ٱلْإِمَامِ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ فَإِذَا مَاتَ ٱنْتَقَلَتْ رُوحُهُ إِلَى إِمَامٍ آخَرَ لِيَكُونَ فِيهِ ذٰلِكَ ٱلْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلٌ بِٱلتَّنَاسُخِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْغُلَاةِ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَنْ يُعَيِّنُ لِذٰلِكَ عِنْدَهُمْ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْوَاقِفِيَّةُ فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ هُوَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنْ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذٰلِكَ بِقِصَّةِ ٱلْخَضِرِ قِيلَ مِثْلُ ذٰلِكَ فِي عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي ٱلسَّحَابِ وَٱلرَّعْدُ صَوْتُهُ وَٱلْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلَهُ فِي مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلِ رَضْوَى مِنْ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ وَقَالَ شَاعِرُهُمْ

أَلَا إِنَّ ٱلْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلَاةَ ٱلْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلِيٌّ وَٱلثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ ... هُمُ ٱلْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيمَانٍ وَبِرٍّ ... وَسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلَاءُ
وَسِبْطٌ لَا يَذُوقُ ٱلْمَوْتَ حَتَّى ... يَقُودَ ٱلْجَيْشَ يَقْدُمُهُ ٱللِّوَاءُ

تَغَيَّبَ لاَ يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا   بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ

وَقَالَ مِثْلَهُ غُلاَةُ ٱلْإِمَامِيَّةِ وَخُصُوصًا ٱلِاثْنَا عَشْرِيَّةَ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ ٱلثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَسَنِ ٱلْعَسْكَرِيُّ وَيُلَقِّبُونَهُ ٱلْمَهْدِيَّ دَخَلَ فِي سِرْدَابٍ بِدَارِهِمْ فِي ٱلْحِلَّةِ وَتَغَيَّبَ حِينَ ٱعْتُقِلَ مَعَ أُمِّهِ وَغَابَ هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْرُجُ آخِرَ ٱلزَّمَانِ فَيَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ عَدْلاً يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى ٱلْحَدِيثِ ٱلْوَاقِعِ فِي كِتَابِ ٱلتِّرْمِذِيِّ فِي ٱلْمَهْدِيِّ وَهُمْ إِلَى ٱلْآنَ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْمُنْتَظَرَ لِذَلِكَ وَيَقِفُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلْمَغْرِبِ بِبَابِ هَذَا ٱلسِّرْدَابِ وَقَدْ قَدَّمُوا مَرْكَبًا فَيَهْتِفُونَ بِٱسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ ٱلنُّجُومُ ثُمَّ يَنْفَضُّونَ وَيُرْجِئُونَ ٱلْأَمْرَ إِلَى ٱللَّيْلَةِ ٱلْآتِيَةِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَبَعْضُ هٰؤُلَاءِ ٱلْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ ٱلْإِمَامَ ٱلَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ ٱلدُّنْيَا وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَٱلَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَقَتِيلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ ٱلْبَقَرَةِ ٱلَّتِي أُمِرُوا بِذَبْحِهَا وَمِثْلُ ذَلِكَ مِنَ ٱلْخَوَارِقِ ٱلَّتِي وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُعْجِزَةِ وَلَا يَصِحُّ ٱلِاسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَكَانَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّيِّدُ ٱلْحِمْيَرِيُّ وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذَلِكَ

إِذَا مَا ٱلْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَذَالٌ   وَعَلَّلَهُ ٱلْمَوَاشِطُ بِٱلْخِضَابِ
فَقَدْ ذَهَبَتْ بَشَاشَتُهُ وَأَوْدَى   فَقُمْ يَا صَاحِ نَبْكِ عَلَى ٱلشَّبَابِ
إِلَى يَوْمٍ تَئُوبُ ٱلنَّاسُ فِيهِ   إِلَى دُنْيَاهُمُ قَبْلَ ٱلْحِسَابِ
فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ   إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ ٱلْإِيَابِ
أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقٍّ   وَمَا أَنَا فِي ٱلنُّشُورِ بِذِي ٱرْتِيَابِ
كَذَاكَ ٱللهُ أَخْبَرَ عَنْ أُنَاسٍ   حَيُوا مِنْ بَعْدِ دَرْسٍ فِي ٱلتُّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مَؤُونَةَ هٰؤُلَاءِ ٱلْغُلَاةِ أَئِمَّةُ ٱلشِّيعَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا وَيُبْطِلُونَ ٱحْتِجَاجَاتِهِمْ عَلَيْهَا وَأَمَّا ٱلْكَيْسَانِيَّةُ فَسَاقُوا ٱلْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ إِلَى ٱبْنِهِ أَبِي هَاشِمٍ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْهَاشِمِيَّةُ ثُمَّ ٱفْتَرَقُوا فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيٍّ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ ٱلْحَسَنِ ٱبْنِ عَلِيٍّ وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ ٱلسَّرَاةِ مُنْصَرِفًا مِنَ ٱلشَّامِ أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ إِلَى ٱبْنِهِ إِبْرٰهِيمَ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْإِمَامِ وَأَوْصَى إِبْرٰهِيمُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْحَارِثِيَّةِ ٱلْمُلَقَّبِ بِٱلسَّفَّاحِ وَأَوْصَى هُوَ

إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد إلى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس لأنه كان حياً وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصبية العمومة وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها وإنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد ابن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر وعمر هو أخو زيد ابن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع منصور ونقلوا الإمامة في عقبه وإليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه أدريس الذي فر إلى المغرب ومات هنالك وقام بأمره ابنه أدريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل ابن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الأطروش منهم وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن ابن علي بن عمر وعمر أخو زيد بن علي فكانت لبنيه بطبرستان دولة وتوصل

ٱلدَّيْلَمُ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَٱلْاِسْتِبْدَادِ عَلَى ٱلْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ كَمَا تَذْكُرُ فِي أَخْبَارِهِمْ٠ وَأَمَّا ٱلْإِمَامِيَّةُ فَسَاقُوا ٱلْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيٍّ ٱلرِّضَى إِلَى ٱبْنِهِ ٱلْحَسَنِ بِٱلْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ ٱلْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ عَلِيٍّ زَيْنِ ٱلْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا ٱفْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةٌ سَاقُوهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِٱلْإِمَامِ وَهُمُ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَفِرْقَةٌ سَاقُوهَا إِلَى ٱبْنِهِ مُوسَى ٱلْكَاظِمِ وَهُمُ ٱلْاِثْنَا عَشْرِيَّةُ لِوُقُوفِهِمْ عِنْدَ ٱلثَّانِي عَشَرَ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ وَقَوْلِهِمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ ٱلزَّمَانِ كَمَا مَرَّ فَأَمَّا ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْإِمَامِ بِٱلنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَفَائِدَةُ ٱلنَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ ٱلْإِمَامَةِ فِي عَقِبِهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ ٱنْتَقَلَتِ ٱلْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْمَسْتُورِينَ لِأَنَّ ٱلْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَتِرُ وَتَكُونُ دُعَاتُهُ ظَاهِرِينَ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى ٱلْخَلْقِ وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ قَالُوا وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ ٱلْمَكْتُومِ ٱبْنُهُ جَعْفَرٌ ٱلصَّادِقُ وَبَعْدَهُ ٱبْنُهُ مُحَمَّدٌ ٱلْحَبِيبُ وَهُوَ آخِرُ ٱلْمَسْتُورِينَ وَبَعْدَهُ ٱبْنُهُ عَبْدُ ٱللّٰهِ ٱلْمَهْدِيُّ ٱلَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلشِّيعِيُّ فِي كُتَامَةَ وَتَتَابَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مُعْتَقَلِهِ بِسِجِلْمَاسَةَ وَمَلَكَ ٱلْقَيْرَوَانَ وَٱلْمَغْرِبَ وَمَلَكَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدُ مِصْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَمَّى هٰؤُلَاءِ نِسْبَةً إِلَى ٱلْقَوْلِ بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا بِٱلْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِٱلْإِمَامِ ٱلْبَاطِنِ أَيِ ٱلْمَسْتُورِ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا ٱلْمُلْحِدَةَ لِمَا فِي ضِمْنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ ٱلْإِلْحَادِ وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ دَعَا إِلَيْهَا ٱلْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلصَّبَّاحِ فِي آخِرِ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ وَمَلَكَ حُصُونًا بِٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَهَا ٱلْهَلَاكُ بَيْنَ مُلُوكِ ٱلتُّرْكِ بِمِصْرَ وَمُلُوكِ ٱلتَّتَرِ بِٱلْعِرَاقِ فَٱنْقَرَضَتْ وَمَقَالَةُ هٰذَا ٱلصَّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ ٱلْمِلَلِ وَٱلنِّحَلِ لِلشَّهْرَسْتَانِيِّ ٭ وَأَمَّا ٱلْاِثْنَا عَشْرِيَّةُ فَرُبَّمَا خُصُّوا بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ مُوسَى ٱلْكَاظِمِ بْنِ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ لِوَفَاةِ أَخِيهِ ٱلْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا جَعْفَرٍ فَنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هٰذَا ثُمَّ ٱبْنِهِ عَلِيٍّ ٱلرِّضَا ٱلَّذِي عَهِدَ إِلَيْهِ ٱلْمَأْمُونُ وَمَاتَ قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ثُمَّ ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلتَّقِيِّ ثُمَّ ٱبْنِهِ عَلِيٍّ ٱلْهَادِي ثُمَّ ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْحَسَنِ ٱلْعَسْكَرِيِّ ثُمَّ ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْمَهْدِيِّ ٱلْمُنْتَظَرِ ٱلَّذِي قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ وَفِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ

هٰذِهِ ٱلْمَقَالاَتِ لِلشِّيعَةِ ٱخْتِلاَفٌ كَثِيرٌ إِلاَّ أَنَّ هٰذِهِ أَشْهَرُ مَذَاهِبِهِمْ وَمَنْ أَرَادَ ٱسْتِيعَابَهَا وَمُطَالَعَتَهَا فَعَلَيْهِ بِكِتَابِ ٱلْمِلَلِ وَٱلنِّحَلِ لِٱبْنِ حَزْمٍ وَٱلشَّهْرَسْتَانِي وَغَيْرِهِمَا فَفِيهَا بَيَانُ ذٰلِكَ وَٱللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة الى الملك

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُلْكَ غَايَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ لَيْسَ وُقُوعُهُ عَنْهَا بِٱخْتِيَارٍ إِنَّمَا هُوَ بِضَرُورَةِ ٱلْوُجُودِ وَتَرْتِيبِهِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ ٱلشَّرَائِعَ وَٱلدِّيَانَاتِ وَكُلَّ أَمْرٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ ٱلْجُمْهُورُ فَلاَ بُدَّ فِيهِ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ إِذِ ٱلْمُطَالَبَةُ لاَ تَتِمُّ إِلاَّ بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَٱلْعَصَبِيَّةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمِلَّةِ وَبِوُجُودِهَا يَتِمُّ أَمْرُ ٱللهِ مِنْهَا وَفِي ٱلصَّحِيحِ مَا بَعَثَ ٱللهُ نَبِيًّا إِلاَّ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ثُمَّ وَجَدْنَا ٱلشَّارِعَ قَدْ ذَمَّ ٱلْعَصَبِيَّةَ وَنَدَبَ إِلَى أَطِّرَاحِهَا وَتَرْكِهَا فَقَالَ إِنَّ ٱللهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ [1] ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِٱلآبَاءِ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ وَقَالَ تَعَالَى إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ وَوَجَدْنَاهُ أَيْضًا قَدْ ذَمَّ ٱلْمُلْكَ وَأَهْلَهُ وَنَعَى عَلَى أَهْلِهِ أَحْوَالَهُمْ مِنَ ٱلِٱسْتِمْتَاعِ بِٱلْخَلاَقِ وَٱلإِسْرَافِ فِي غَيْرِ ٱلْقَصْدِ وَٱلتَّنَكُّبِ عَنْ صِرَاطِ ٱللهِ وَإِنَّمَا حَضَّ عَلَى ٱلإِلْفَةِ فِي ٱلدِّينِ وَحَذَّرَ مِنَ ٱلْخِلاَفِ وَٱلْفُرْقَةِ * وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَحْوَالَهَا مَطِيَّةٌ لِلآخِرَةِ وَمَنْ فَقَدَ ٱلْمَطِيَّةَ فَقَدَ ٱلْوُصُولَ وَلَيْسَ مُرَادُهُ فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ أَوْ يَذُمُّهُ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْبَشَرِ أَوْ يَنْدُبُ إِلَى تَرْكِهِ إِهْمَالَهُ بِٱلْكُلِّيَّةِ أَوِ ٱقْتِلاَعَهُ مِنْ أَصْلِهِ وَتَعْطِيلُ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا بِٱلْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا قَصْدُهُ تَصْرِيفُهَا فِي أَغْرَاضِ ٱلْحَقِّ جُهْدَ ٱلِٱسْتِطَاعَةِ حَتَّى تَصِيرَ ٱلْمَقَاصِدُ كُلُّهَا حَقًّا وَتَتَّحِدَ ٱلْوِجْهَةُ كَمَا قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ ٱمْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَذُمَّ ٱلْغَضَبَ وَهُوَ يَقْصِدُ نَزْعَهُ مِنَ ٱلإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَوْ زَالَتْ مِنْهُ قُوَّةُ ٱلْغَضَبِ لَفَقَدَ مِنْهُ ٱلِٱنْتِصَارُ لِلْحَقِّ وَبَطَلَ ٱلْجِهَادُ وَإِعْلاَءُ كَلِمَةِ ٱللهِ وَإِنَّمَا يَذُمُّ ٱلْغَضَبَ لِلشَّيْطَانِ وَلِلأَغْرَاضِ ٱلذَّمِيمَةِ فَإِذَا كَانَ ٱلْغَضَبُ لِذٰلِكَ كَانَ مَذْمُومًا وَإِذَا كَانَ ٱلْغَضَبُ فِي ٱللهِ وَلِلهِ كَانَ مَمْدُوحًا وَهُوَ مِنْ شَمَائِلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَا ذَمُّ ٱلشَّهَوَاتِ أَيْضًا لَيْسَ ٱلْمُرَادُ إِبْطَالَهَا بِٱلْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ مَنْ بَطَلَتْ شَهْوَتُهُ كَانَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ وَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ تَصْرِيفُهَا فِيمَا أُبِيحَ لَهُ بِٱشْتِمَالِهِ

(١) عبية بضم العين وكسرها وكسر الموحدة مشددة وتشديد المثناة التحتية الكبر والفخر والنخوة اه قاموس

عَلَى ٱلْمَصَالِحِ لِيَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَصَرِّفًا طَوْعَ ٱلْأَوَامِرِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ وَكَذَا ٱلْعَصَبِيَّةُ حَيْثُ ذَمَّهَا ٱلشَّارِعُ وَقَالَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ فَإِنَّمَا مُرَادُهُ حَيْثُ تَكُونُ ٱلْعَصَبِيَّةُ عَلَى ٱلْبَاطِلِ وَأَحْوَالِهِ كَمَا كَانَتْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا أَوْ حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ لِأَنَّ ذٰلِكَ مَجَّانٌ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْعُقَلَاءِ وَغَيْرُ نَافِعٍ فِي ٱلْآخِرَةِ ٱلَّتِي هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ فَأَمَّا إِذَا كَانَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ فِي ٱلْحَقِّ وَإِقَامَةِ أَمْرِ ٱللّٰهِ فَأَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَلَوْ بَطَلَ لَبَطَلَتِ ٱلشَّرَائِعُ إِذْ لَا يَتِمُّ قِوَامُهَا إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَكَذَا ٱلْمُلْكُ لَمَّا ذَمَّهُ ٱلشَّارِعُ لَمْ يَذُمَّ مِنْهُ ٱلْغَلَبَ بِٱلْحَقِّ وَقَهْرَ ٱلْكَافَّةِ عَلَى ٱلدِّينِ وَمُرَاعَاةِ ٱلْمَصَالِحِ وَإِنَّمَا ذَمَّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ بِٱلْبَاطِلِ وَتَصْرِيفِ ٱلْآدَمِيِّينَ طَوْعَ ٱلْأَغْرَاضِ وَٱلشَّهَوَاتِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَوْ كَانَ ٱلْمَلِكُ مُخْلِصًا فِي غَلَبِهِ لِلنَّاسِ أَنَّهُ لِلّٰهِ وَلِحَمْلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ ٱللّٰهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مَذْمُومًا وَقَدْ قَالَ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي لِمَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ بِمَعْزِلٍ عَنِ ٱلْبَاطِلِ فِي ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْمُلْكِ * وَلَمَّا لَقِيَ مُعَاوِيَةُ عُمَرَ بْنَ ٱلْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى ٱلشَّامِ فِي أُبَّهَةِ ٱلْمُلْكِ وَزِيِّهِ مِنَ ٱلْعَدِيدِ وَٱلْعُدَّةِ ٱسْتَنْكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ أَكِسْرَوِيَّةً يَا مُعَاوِيَةُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنَا فِي ثَغْرٍ تُجَاهَ ٱلْعَدُوِّ وَبِنَا إِلَى مُبَاهَاتِهِمْ بِزِينَةِ ٱلْحَرْبِ وَٱلْجِهَادِ حَاجَةٌ فَسَكَتَ وَلَمْ يُخَطِّئْهُ لِمَا ٱحْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ ٱلْحَقِّ وَٱلدِّينِ فَلَوْ كَانَ ٱلْقَصْدُ رَفْضَ ٱلْمُلْكِ مِنْ أَصْلِهِ لَمْ يُقْنِعْهُ ٱلْجَوَابُ فِي تِلْكَ ٱلْكِسْرَوِيَّةِ وَٱنْتِحَالِهَا بَلْ كَانَ يُحَرِّضُ عَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا بِٱلْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِٱلْكِسْرَوِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ فِي مُلْكِهِمْ مِنِ ٱرْتِكَابِ ٱلْبَاطِلِ وَٱلظُّلْمِ وَٱلْبَغْيِ وَسُلُوكِ سُبُلِهِ وَٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱللّٰهِ وَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَنَّ ٱلْقَصْدَ بِذٰلِكَ لَيْسَ كِسْرَوِيَّةَ فَارِسَ وَبَاطِلَهُمْ وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بِهَا وَجْهُ ٱللّٰهِ فَسَكَتَ * وَهٰكَذَا كَانَ شَأْنُ ٱلصَّحَابَةِ فِي رَفْضِ ٱلْمُلْكِ وَأَحْوَالِهِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِهِ حَذَرًا مِنَ ٱلْتِبَاسِهَا بِٱلْبَاطِلِ فَلَمَّا ٱسْتُحْضِرَ رَسُولُ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى ٱلصَّلَاةِ إِذْ هِيَ أَهَمُّ أُمُورِ ٱلدِّينِ وَٱرْتَضَاهُ ٱلنَّاسُ لِلْخِلَافَةِ وَهِيَ حَمْلُ ٱلْكَافَّةِ عَلَى أَحْكَامِ ٱلشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَجْرِ لِلْمُلْكِ ذِكْرٌ لِمَا أَنَّهُ مَظِنَّةٌ لِلْبَاطِلِ وَنِحْلَةٌ يَوْمَئِذٍ لِأَهْلِ ٱلْكُفْرِ وَأَعْدَاءِ ٱلدِّينِ فَقَامَ بِذٰلِكَ أَبُو بَكْرٍ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ مُتَّبِعًا سُنَنَ صَاحِبِهِ وَقَاتَلَ أَهْلَ ٱلرِّدَّةِ حَتَّى ٱجْتَمَعَ ٱلْعَرَبُ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ ثُمَّ عَهِدَ إِلَى عُمَرَ فَٱقْتَفَى أَثَرَهُ وَقَاتَلَ ٱلْأُمَمَ فَغَلَبَهُمْ وَأَذِنَ لِلْعَرَبِ بِٱنْتِزَاعِ

مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمُلْكِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا وَٱلْكُلُّ مُتَبَرِّئُونَ مِنَ ٱلْمُلْكِ مُنْكَبُّونَ عَنْ طُرُقِهِ وَأَكَّدَ ذٰلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاضَةِ ٱلْإِسْلَامِ وَبَدَاوَةِ ٱلْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ ٱلْأُمَمِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلدُّنْيَا وَتَرَفِهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمُ ٱلَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلزُّهْدِ فِي ٱلنَّعِيمِ وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ ٱلْعَيْشِ وَشَظَفِهِ ٱلَّذِي أَلِفُوهُ فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ أَسْغَبَ عَيْشًا مِنْ مُضَرَ لَمَّا كَانُوا بِٱلْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ ٱلْأَرْيَافِ وَحُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَٱخْتِصَاصِهَا بِمَنْ وَلِيَهَا مِنْ رَبِيعَةَ وَٱلْيَمَنِ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَأْكُلُونَ ٱلْعَقَارِبَ وَٱلْخَنَافِسَ وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ ٱلْعِلْهِزِ وَهُوَ وَبَرُ ٱلْإِبِلِ يَمْهُونَهُ بِٱلْحِجَارَةِ فِي ٱلدَّمِ وَيَطْبُخُونَهُ وَقَرِيبًا مِنْ هٰذَا كَانَتْ حَالُ قُرَيْشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ ٱللهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا إِلَى أُمَمِ فَارِسَ وَٱلرُّومِ وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ ٱللهُ لَهُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ بِوَعْدِ ٱلصِّدْقِ فَٱبْتَزُّوا مُلْكَهُمْ وَٱسْتَبَاحُوا دُنْيَاهُمْ فَزَخَرَتْ بِحَارُ ٱلرَّفَهِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ ٱلْفَارِسُ ٱلْوَاحِدُ يُقْسَمُ لَهُ فِي بَعْضِ ٱلْغَزَوَاتِ ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ ٱلذَّهَبِ أَوْ نَحْوُهَا فَٱسْتَوْلَوْا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ ٱلْحَصْرُ وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ عَلَى خُشُونَةِ عَيْشِهِمْ فَكَانَ عُمَرُ يُرَقِّعُ ثَوْبَهُ بِٱلْجِلْدِ وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غُرِّي غَيْرِي وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَافَى عَنْ أَكْلِ ٱلدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْهَا لِلْعَرَبِ لِقِلَّتِهَا يَوْمَئِذٍ وَكَانَتِ ٱلْمَنَاخِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِٱلْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ ٱلْحِنْطَةَ بِنُخَالِهَا وَمَكَاسِبُهُمْ مَعَ هٰذَا أَتَمُّ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَالَمِ قَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ ٱقْتَنَى ٱلصَّحَابَةُ ٱلضِّيَاعَ وَٱلْمَالَ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ وَمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَقِيمَةُ ضِيَاعِهِ بِوَادِي ٱلْقُرَى وَحُنَيْنٍ وَغَيْرِهِمَا مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ وَخَلَّفَ إِبِلًا وَخَيْلًا كَثِيرَةً وَبَلَغَ ٱلثُّمُنُ ٱلْوَاحِدُ مِنْ مَتْرُوكِ ٱلزُّبَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلَّفَ أَلْفَ فَرَسٍ وَأَلْفَ أَمَةٍ وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ ٱلْعِرَاقِ أَلْفَ دِينَارٍ كُلَّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ ٱلسَّرَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَكَانَ عَلَى مَرْبَطِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ عَوْفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشَرَةُ آلَافٍ مِنَ ٱلْغَنَمِ وَبَلَغَ ٱلرُّبْعُ مِنْ مَتْرُوكِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَخَلَّفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ ٱلْفِضَّةِ وَٱلذَّهَبِ مَا كَانَ يُكْسَرُ

بِالْفُؤُوسِ غَيْرَ مَا خَلَّفَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَبَنَى الزُّبَيْرُ دَارَهُ بِالْبَصْرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةِ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ بِالْكُوفَةِ وَشَيَّدَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا بِالْجِصِّ وَالْآجُرِّ وَالسَّاجِ وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دَارَهُ بِالْعَقِيقِ وَرَفَعَ سَمْكَهَا وَأَوْسَعَ فَضَاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَعْلَاهَا شُرُفَاتٍ وَبَنَى الْمِقْدَادُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا مُجَصَّصَةَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَخَلَّفَ يَعْلَى بْنُ مُنْيَةَ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَارًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا قِيمَتُهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ اهـ كَلَامُ الْمَسْعُودِيِّ فَكَانَتْ مَكَاسِبُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَنْعِيًّا عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ حَلَالٌ لِأَنَّهَا غَنَائِمُ وَفُيُوءٌ وَلَمْ يَكُنْ تَصَرُّفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى قَصْدٍ فِي أَحْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ الْاسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَذْمُومًا فَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالْخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ وَإِذَا كَانَ حَالُهُمْ قَصْدًا وَنَفَقَاتُهُمْ فِي سُبُلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ كَانَ ذَلِكَ الْاسْتِكْثَارُ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى طُرُقِ الْحَقِّ وَاكْتِسَابِ الدَّارِ الْآخِرَةِ فَلَمَّا تَدَرَّجَتِ الْبَدَاوَةُ وَالْغَضَاضَةُ إِلَى نِهَايَتِهَا وَجَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَحَصَلَ التَّغَلُّبُ وَالْقَهْرُ كَانَ حُكْمُ ذَلِكَ الْمُلْكِ عِنْدَهُمْ حُكْمَ ذَلِكَ الرَّفَهِ وَالْاسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَمْوَالِ فَلَمْ يَصْرِفُوا ذَلِكَ التَّغَلُّبَ فِي بَاطِلٍ وَلَا خَرَجُوا بِهِ عَنْ مَقَاصِدِ الدِّيَانَةِ وَمَذَاهِبِ الْحَقِّ * وَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَهِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيهَا الْحَقَّ وَالْاجْتِهَادَ وَلَمْ يَكُونُوا فِي مُحَارَبَتِهِمْ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ أَوْ لِإِيثَارِ بَاطِلٍ أَوْ لِاسْتِشْعَارِ حِقْدٍ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ مُتَوَهِّمٌ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ مُلْحِدٌ وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ فِي الْحَقِّ وَسَفَّهَ كُلٌّ وَاحِدٍ نَظَرَ صَاحِبِهِ بِاجْتِهَادِهِ فِي الْحَقِّ فَاقْتَتَلُوا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الْمُصِيبُ عَلِيًّا فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةُ قَائِمًا فِيهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ إِنَّمَا قَصَدَ الْحَقَّ وَأَخْطَأَ وَالْكُلُّ كَانُوا فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقٍّ ثُمَّ اقْتَضَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الْانْفِرَادَ بِالْمَجْدِ وَاسْتِئْثَارَ الْوَاحِدِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِمُعَاوِيَةَ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ فَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ سَاقَتْهُ الْعَصَبِيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا وَاسْتَشْعَرَتْهُ بَنُو أُمَيَّةَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ مُعَاوِيَةَ فِي اقْتِفَاءِ الْحَقِّ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ فَاعْصَوْصَبُوا عَلَيْهِ وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ وَلَوْ حَمَلَهُمْ مُعَاوِيَةُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَخَالَفَهُمْ فِي الْانْفِرَادِ بِالْأَمْرِ لَوُقُوعٍ فِي افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَ جَمْعُهَا وَتَأْلِيفُهَا أَهَمَّ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيرُ مُخَالَفَةٍ

وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة ولو أراد أن يعهد إليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية فالملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك من الانفراد به وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحاً ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا الله لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان ابن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم فقد احتج مالك في الموطإ بعمل عبد الملك وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالتهم معروفة ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم وولي رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهرياً فتأذن الله بحربهم وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم والله لا

يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ سِيَرَ هٰؤُلَاءِ ٱلْخُلَفَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَٱخْتِلَافَهُمْ فِي تَحَرِّي ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلْبَاطِلِ عَلِمَ صِحَّةَ مَا قُلْنَاهُ وَقَدْ حَكَاهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ مِثْلَهُ فِي أَحْوَالِ بَنِي أُمَيَّةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ وَقَدْ حَضَرَ عُمُومَتُهُ وَذَكَرُوا بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ أَمَّا عَبْدُ ٱلْمَلِكِ فَكَانَ جَبَّارًا لَا يُبَالِي بِمَا صَنَعَ وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَكَانَ هَمُّهُ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ وَأَمَّا عُمَرُ فَكَانَ أَعْوَرَ بَيْنَ عُمْيَانٍ وَكَانَ رَجُلَ ٱلْقَوْمِ هِشَامٌ قَالَ وَلَمْ يَزَلْ بَنُو أُمَيَّةَ ضَابِطِينَ لِمَا مُهِّدَ لَهُمْ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ يَحُوطُونَهُ وَيَصُونُونَ مَا وَهَبَ ٱللّٰهُ لَهُمْ مِنْهُ مَعَ تَسَنُّمِهِمْ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ وَرَفْضِهِمْ دَنِيَّاتِهَا حَتَّى أَفْضَى ٱلْأَمْرُ إِلَى أَبْنَائِهِمِ ٱلْمُتْرَفِينَ فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَصْدَ ٱلشَّهَوَاتِ وَرُكُوبَ ٱللَّذَّاتِ مِنْ مَعَاصِي ٱللّٰهِ جَهْلًا بِٱسْتِدْرَاجِهِ وَأَمْنًا لِمَكْرِهِ مَعَ ٱطِّرَاحِهِمْ صِيَانَةَ ٱلْخِلَافَةِ وَٱسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِّ ٱلرِّئَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنِ ٱلسِّيَاسَةِ فَسَلَبَهُمُ ٱللّٰهُ ٱلْعِزَّ وَأَلْبَسَهُمُ ٱلذُّلَّ وَنَفَى عَنْهُمُ ٱلنِّعْمَةَ ثُمَّ ٱسْتَحْضَرَ عَبْدَ ٱللّٰهِ [1] بْنَ مَرْوَانَ فَقَصَّ عَلَيْهِ خَبَرَهُ مَعَ مَلِكِ ٱلنُّوبَةِ لَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُمْ فَارًّا أَيَّامَ ٱلسَّفَّاحِ قَالَ أَقَمْتُ مَلِيًّا ثُمَّ أَتَانِي مَلِكُهُمْ فَقَعَدَ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَقَدْ بُسِطَتْ لِي فُرُشٌ ذَاتُ قِيمَةٍ فَقُلْتُ مَا مَنَعَكَ عَنِ ٱلْقُعُودِ عَلَى ثِيَابِنَا فَقَالَ إِنِّي مَلِكٌ وَحَقٌّ لِكُلِّ مَلِكٍ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِعَظَمَةِ ٱللّٰهِ إِذْ رَفَعَهُ ٱللّٰهُ ثُمَّ قَالَ لِي لِمَ تَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ فَقُلْتُ ٱجْتَرَأَ عَلَى ذٰلِكَ عَبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا قَالَ فَلِمَ تَطَئُونَ ٱلزَّرْعَ بِدَوَابِّكُمْ وَٱلْفَسَادُ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ قُلْتُ فَعَلَ ذٰلِكَ عَبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا بِجَهْلِهِمْ قَالَ فَلِمَ تَلْبَسُونَ ٱلدِّيبَاجَ وَٱلذَّهَبَ وَٱلْحَرِيرَ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ قُلْتُ ذَهَبَ مِنَّا ٱلْمُلْكُ وَٱنْتَصَرْنَا بِقَوْمٍ مِنَ ٱلْعَجَمِ دَخَلُوا فِي دِينِنَا فَلَبِسُوا ذٰلِكَ عَلَى ٱلْكُرْهِ مِنَّا فَأَطْرَقَ يَنْكُتُ بِيَدِهِ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَقُولُ عَبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا وَأَعَاجِمُ دَخَلُوا فِي دِينِنَا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ ٱسْتَحْلَلْتُمْ مَا حَرَّمَ ٱللّٰهُ عَلَيْكُمْ وَأَتَيْتُمْ مَا عَنْهُ نُهِيتُمْ وَظَلَمْتُمْ فِيمَا مَلَكْتُمْ فَسَلَبَكُمُ ٱللّٰهُ ٱلْعِزَّ وَأَلْبَسَكُمُ ٱلذُّلَّ بِذُنُوبِكُمْ وَلِلّٰهِ نِقْمَةٌ لَمْ تَبْلُغْ غَايَتَهَا فِيكُمْ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَحُلَّ بِكُمُ ٱلْعَذَابُ وَأَنْتُمْ بِبَلَدِي فَيَنَالَنِي مَعَكُمْ وَإِنَّمَا ٱلضِّيَافَةُ ثَلَاثٌ فَتَزَوَّدْ مَا ٱحْتَجْتَ إِلَيْهِ وَٱرْتَحِلْ عَنْ أَرْضِي فَتَعَجَّبَ ٱلْمَنْصُورُ وَأَطْرَقَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ كَيْفَ ٱنْقَلَبَتِ ٱلْخِلَافَةُ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَأَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ فِي أَوَّلِهِ خِلَافَةً وَوَازِعُ كُلِّ أَحَدٍ فِيهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ ٱلدِّينُ وَكَانُوا يُؤْثِرُونَهُ عَلَى أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَإِنْ أَفْضَتْ إِلَى

---

(1) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية و بعض الفارسية وفي بعضها عبد الملك واظنه تصحيفا قاله نصر

هلاكهم وحدهم دون الكافة فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للالفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه وهذا علي أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فراراً من الغش الذي ينافيه الإسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت فقال علي لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالأمس وغششتني اليوم ولكن منعني مما أشرت به زائد الحق وهكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكاً بحتاً وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملكاً بحتاً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضاً مع خلفاء بني أمية بالاندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة والله

مُقَدِّرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة (١)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَيْعَةَ هِيَ ٱلْعَهْدُ عَلَى ٱلطَّاعَةِ كَأَنَّ ٱلْمُبَايِعَ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ ٱلنَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ ٱلْمُسْلِمِينَ لَا يُنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ بِهِ مِنَ ٱلْأَمْرِ عَلَى ٱلْمَنْشَطِ وَٱلْمَكْرَهِ وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا ٱلْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تَأْكِيدًا لِلْعَهْدِ فَأَشْبَهَ ذَٰلِكَ فِعْلَ ٱلْبَائِعِ وَٱلْمُشْتَرِي فَسُمِّيَ بَيْعَةً مَصْدَرَ بَاعَ وَصَارَتِ ٱلْبَيْعَةُ مُصَافَحَةً بِٱلْأَيْدِي هٰذَا مَدْلُولُهَا فِي عُرْفِ ٱللُّغَةِ وَمَعْهُودِ ٱلشَّرْعِ وَهُوَ ٱلْمُرَادُ فِي ٱلْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ ٱلْعَقَبَةِ وَعِنْدَ ٱلشَّجَرَةِ وَحَيْثُمَا وَرَدَ هٰذَا ٱللَّفْظُ وَمِنْهُ بَيْعَةُ ٱلْخُلَفَاءِ وَمِنْهُ أَيْمَانُ ٱلْبَيْعَةِ كَانَ ٱلْخُلَفَاءُ يَسْتَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ ٱلْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذَٰلِكَ فَسُمِّيَ هٰذَا ٱلِاسْتِيعَابُ أَيْمَانَ ٱلْبَيْعَةِ وَكَانَ ٱلْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهٰذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ ٱلْإِكْرَاهِ أَنْكَرَهَا ٱلْوُلَاةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ ٱلْبَيْعَةِ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِحْنَةِ ٱلْإِمَامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَأَمَّا ٱلْبَيْعَةُ ٱلْمَشْهُورَةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ ٱلْمُلُوكِ ٱلْكِسْرَوِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ ٱلْأَرْضِ أَوِ ٱلْيَدِ أَوِ ٱلرِّجْلِ أَوِ ٱلذَّيْلِ أُطْلِقَ عَلَيْهَا ٱسْمُ ٱلْبَيْعَةِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْعَهْدُ عَلَى ٱلطَّاعَةِ مَجَازًا لِمَا كَانَ هٰذَا ٱلْخُضُوعُ فِي ٱلتَّحِيَّةِ وَٱلْتِزَامُ ٱلْآدَابِ مِنْ لَوَازِمِ ٱلطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً وَٱسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ مُصَافَحَةِ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْحَقِيقَةُ فِي ٱلْأَصْلِ لِمَا فِي ٱلْمُصَافَحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ ٱلتَّنَزُّلِ وَٱلِٱبْتِذَالِ ٱلْمُنَافِيَيْنِ لِلرِّئَاسَةِ وَصَوْنِ ٱلْمَنْصِبِ ٱلْمُلُوكِيِّ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِمَّنْ يَقْصِدُ ٱلتَّوَاضُعَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِّهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ ٱلدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَٱفْهَمْ مَعْنَى ٱلْبَيْعَةِ فِي ٱلْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدٌ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهُ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلَا تَكُونُ أَفْعَالُهُ عَبَثًا وَمَجَّانًا وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَٱللهُ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) البيعة بفتح الموحدة اما بكسرها على وزن شيعة بسكون الياء فيها فهي معبد النصارى ١٠ اه

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة وأن حقيقتها للنظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشورى إلى الستة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوض بعضهم إلى بعض حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى علي فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعن دون اجتهاده فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملأ من الصحابة حاضرون للأولى والثانية ولم ينكره أحد منهم فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والإجماع حجة كما عرف ولا يتهم الإمام في هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه لأنه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد فإنه بعيد عن الظنة في ذلك كله لا سيما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه من إيثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة في ذلك رأساً كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وإن كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته

وصحبته مانعة من سوى ذلك وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق فإنهم كلهم أجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبد الله ابن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحا كان أو محظورا كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير وندور المخالف معروف ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينيا فعند كل أحد وازع من نفسه فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصباني فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعا وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف. سأل رجل عليا رضي الله عنه ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر فقال لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي وأنا اليوم وال على مثلك يشير إلى وازع الدين أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد ورد أمرهم لمعاهده فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه لطفا من الله بعباده وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية إذ هو أمر

مِنَ ٱللهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تُحْسِنَ فِيهِ ٱلنِّيَّةَ مَا أَمْكَنَ خَوْفًا مِنَ ٱلْعَبَثِ بِٱلْمَنَاصِبِ ٱلدِّينِيَّةِ وَٱلْمُلْكُ لِلهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ * وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو ٱلضَّرُورَةُ إِلَى بَيَانِ ٱلْحَقِّ فِيهَا * فَٱلْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مِنَ ٱلْفِسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعْدَلُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَعْذُلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ ٱلْغِنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذٰلِكَ وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً وَلَمَّا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَثَ مِنَ ٱلْفِسْقِ ٱخْتَلَفَ ٱلصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى ٱلْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَنَقْضَ بَيْعَتِهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَمَا فَعَلَ ٱلْحُسَيْنُ وَعَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَهُمَا فِي ذٰلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ ٱلْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ ٱلْقَتْلِ مَعَ ٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلْوَفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمَئِذٍ هِيَ عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورُ أَهْلِ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَسْتَتْبِعُ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ أَجْمَعَ وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مُقَاوَمَتُهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذٰلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى ٱلدُّعَاءِ بِهِدَايَتِهِ وَٱلرَّاحَةِ مِنْهُ وَهٰذَا كَانَ شَأْنَ جُمْهُورِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ وَلَا يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي ٱلْبِرِّ وَتَحَرِّي ٱلْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَّقَنَا ٱللهُ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ * وَٱلْأَمْرُ ٱلثَّانِي هُوَ شَأْنُ ٱلْعَهْدِ مَعَ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا تَدَّعِيهِ ٱلشِّيعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحَّ وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ وَٱلَّذِي وَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ ٱلدَّوَاةِ وَٱلْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ ٱلْوَصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذٰلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي ٱلْعَهْدِ فَقَالَ إِنْ أَعْهَدْ فَقَدْ عَهِدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَإِنْ أَتْرُكْ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْهَدْ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيٍّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي ٱلْعَهْدِ فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعَنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ ٱلدَّهْرِ وَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصِ وَلَا عَهِدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبْهَةُ ٱلْإِمَامِيَّةِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ ٱلْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ ٱلدِّينِ كَمَا يَزْعُمُونَ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ ٱلْمَصَالِحِ ٱلْعَامَّةِ ٱلْمُفَوَّضَةِ إِلَى نَظَرِ ٱلْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ ٱلدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ ٱلصَّلَاةِ وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا ٱسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي ٱلصَّلَاةِ وَلَكَانَ يَشْتَهِرُ

كما اشتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا دليل على ان الوصية لم تقع ويدل ذلك أيضاً على أن أمر الامامة والعهد بها لم يكن مهماً كما هو اليوم وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لأن أمر الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والاذعان وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الإلهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجموا منها ودهشوا من تتابعها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجاً في ذلك القبيل كما وقع فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم بفناء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهماً من المهمات الأكيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة إليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرناه عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الأمور للالفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها * والأمر الثالث شأن الحروب الواقعة في الاسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون إذا اختلفوا فإن قلنا إن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطئ فإن جهته لا تتعين بإجماع فيبقى الكل على احتمال الإصابة ولا يتعين المخطئ

منها والتأثيم مدفوع عن الكل إجماعاً وإن قلنا إن الكل حق وإن كل مجتهد مصيب فأحرى بنفي الخطإ والتأثيم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك في الإسلام إنما هو واقعة علي مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة وواقعة الحسين مع يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فأما واقعة علي فإن الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين في الأمصار فلم يشهدوا بيعة علي والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة والذين كانوا في الأمصار عدلوا عن بيعته أيضاً إلى الطلب بدم عثمان وتركوا الأمر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه وظنوا بعلي هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قاتله لا في الممالأة عليه فحاش لله من ذلك ولقد كان معاوية إذا صرح بملامته إنما يوجهها عليه في سكوته فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فرأى علي أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وأرجأ الأمر في المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق ولم يحضر إلا قليل ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم وإن المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون أولاً بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام وذهب إلى هذا معاوية وعمرو بن العاص وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي بالمدينة كما ذكرنا إلا أن أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيه فيما ذهب إليه وتعيين الخطإ من جهة معاوية ومن كان على رأيه وخصوصاً طلحة

وَالزُّبَيْرُ لِانْتِقَاضِهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نُقِلَ مَعَ دَفْعِ التَّأْثِيمِ عَنْ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ كَالشَّأْنِ فِي الْمُجْتَهِدِينَ وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلَيْ أَهْلِ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلَى الْجَمَلِ وَصِفِّينَ فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ نَقَلَهُ الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدْحَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنَدَاتِ وَعَدَالَتُهُمْ مَفْرُوغٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ الِاخْتِلَافِ فِي عُثْمَانَ وَاخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ابْتَلَى اللَّهُ بِهَا الْأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَّكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَنَزَلُوا الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هَذِهِ الْأَمْصَارَ جُفَاةً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا ارْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالْبُعْدِ عَنْ سَكِينَةِ الْإِيمَانِ وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلَكَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ وَثَقِيفٍ وَهُذَيْلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِيمَانِ فَاسْتَنْكَفُوا مِنْ ذَلِكَ وَغَصُّوا بِهِ لِمَا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَمُصَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ مِثْلِ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ كِنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مُضَرَ فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنَفَةِ عَلَيْهِمْ وَالتَّمْرِيضِ فِي طَاعَتِهِمْ وَالتَّعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَالِاسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ وَالطَّعْنِ فِيهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ السَّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الْقَسْمِ عَنِ السَّوِيَّةِ وَفَشَتِ الْمَقَالَةُ بِذَلِكَ وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى الْأُمَرَاءِ شَيْئًا وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَعْنًا وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطَّعْنُ مِنْ اهْلِ الْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنْمُو وَرُمِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشُرْبِ الْخَمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ

مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزْلَ ٱلْعُمَّالِ وَشَكَوْا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَٱلزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ لَهُمْ عُثْمَانُ بَعْضَ ٱلْعُمَّالِ فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَفَدَ سَعِيدُ بْنُ ٱلْعَاصِي وَهُوَ عَلَى ٱلْكُوفَةِ فَلَمَّا رَجَعَ ٱعْتَرَضُوهُ بِٱلطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَعْزُولاً ثُمَّ ٱنْتَقَلَ ٱلْخِلاَفُ بَيْنَ عُثْمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ بِٱلْمَدِينَةِ وَنَقَمُوا عَلَيْهِ ٱمْتِنَاعَهُ مِنَ ٱلْعَزْلِ فَأَبَى إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى جُرْحَةٍ ثُمَّ نَقَلُوا ٱلنَّكِيرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِٱلِٱجْتِهَادِ وَهُمْ أَيْضاً كَذَلِكَ ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ ٱلْغَوْغَاءِ وَجَاءُوا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ ٱلنَّصَفَةِ مِنْ عُثْمَانَ وَهُمْ يُضْمِرُونَ خِلاَفَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِ وَفِيهِمْ مِنَ ٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ وَمِصْرَ وَقَامَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَٱلزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ يُحَاوِلُونَ تَسْكِينَ ٱلْأُمُورِ وَرُجُوعَ عُثْمَانَ إِلَى رَأْيِهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلَ مِصْرَ فَٱنْصَرَفُوا قَلِيلاً ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَّسُوا بِكِتَابٍ مُدَلَّسٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَقُوهُ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَامِلِ مِصْرَ بِأَنْ يَقْتُلَهُمْ وَحَلَفَ عُثْمَانُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا مَكِّنَّا مِنْ مَرْوَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ فَحَلَفَ مَرْوَانُ فَقَالَ لَيْسَ فِي ٱلْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا فَحَاصَرُوهُ بِدَارِهِ ثُمَّ بَيَّتُوهُ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَقَتَلُوهُ وَٱنْفَتَحَ بَابُ ٱلْفِتْنَةِ فَلِكُلٍّ مِنْ هَؤُلاَءِ عُذْرٌ فِيمَا وَقَعَ وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُهْتَمِّينَ بِأَمْرِ ٱلدِّينِ وَلاَ يُضِيعُونَ شَيْئاً مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هَذَا ٱلْوَاقِعِ وَٱجْتَهَدُوا وَٱللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَنَحْنُ لاَ نَظُنُّ بِهِمْ إِلاَّ خَيْراً لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ وَمَقَالاَتُ ٱلصَّادِقِ فِيهِمْ وَأَمَّا ٱلْحُسَيْنُ فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فِسْقُ يَزِيدَ عِنْدَ ٱلْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ بَعَثَتْ شِيعَةُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ بِٱلْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ فَرَأَى ٱلْحُسَيْنُ أَنَّ ٱلْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ مُتَعَيِّنٌ مِنْ أَجْلِ فِسْقِهِ لاَ سِيَّمَا مَنْ لَهُ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ وَظَنَّهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكَتِهِ فَأَمَّا ٱلْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا ظَنَّ وَزِيَادَةً وَأَمَّا ٱلشَّوْكَةُ فَغَلِطَ يَرْحَمُهُ ٱللَّهُ فِيهَا لِأَنَّ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ وَعَصَبِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ ٱلنَّاسِ وَلاَ يُنْكِرُونَهُ وَإِنَّمَا نُسِيَ ذَلِكَ أَوَّلَ ٱلْإِسْلاَمِ لِمَا شَغَلَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلذُّهُولِ بِٱلْخَوَارِقِ وَأَمْرِ ٱلْوَحْيِ وَتَرَدُّدِ ٱلْمَلاَئِكَةِ لِنُصْرَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ فَأَغْفَلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا وَنُسِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ ٱلْعَصَبِيَّةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ فِي ٱلْحِمَايَةِ وَٱلدِّفَاعِ يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ ٱلدِّينِ وَجِهَادِ ٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلدِّينُ فِيهَا مُحْكَمٌ وَٱلْعَادَةُ مَعْزُولَةٌ حَتَّى إِذَا ٱنْقَطَعَ أَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْخَوَارِقِ ٱلْمَهُولَةِ تَرَاجَعَ ٱلْحُكْمُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ

فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل فقد تبين لك غلط الحسين إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره إلى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقا لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أثموه لأنه مجتهد وهو أسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره فإنهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم وهو بكربلاء على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعيد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك لعلمه أنه عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحد الشافعي والمالكي والحنفي على شرب النبيذ واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقولن إن يزيد وإن كان فاسقا ولم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعا وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضا واجتهاد وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه . إن الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء وأما ابن الزبير فإنه رأى في منامه ما رآه الحسين وظن كما ظن وغلطه في أمر الشوكة أعظم لأن بني أسد

لاَ يُقَاوِمُونَ بَنِي أُمَيَّةَ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ وَٱلْقَوْلُ بِتَعَيُّنِ ٱلْخَطَاءِ فِي جِهَةِ مُعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيٍّ لاَ سَبِيلَ إِلَيْهِ لِأَنَّ ٱلْإِجْمَاعَ هُنَالِكَ قَضَى لَنَا بِهِ وَلَمْ نَجِدْهُ هَا هُنَا. وَأَمَّا يَزِيدُ فَعَيَّنَ خَطَأَهُ فِسْقُهُ وَعَبْدُ ٱلْمَلِكِ صَاحِبُ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ أَعْظَمُ ٱلنَّاسِ عَدَالَةً وَنَاهِيكَ بِعَدَالَتِهِ ٱحْتِجَاجُ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ وَعُدُولُ ٱبْنِ عَبَّاسٍ وَٱبْنِ عُمَرَ إِلَى بَيْعَتِهِ عَنِ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمْ تَنْعَقِدْ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْهَا أَهْلُ ٱلْعَقْدِ وَٱلْحَلِّ كَبَيْعَةِ مَرْوَانَ وَٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ عَلَى خِلاَفِ ذٰلِكَ وَٱلْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ مَحْمُولُونَ عَلَى ٱلْحَقِّ فِي ٱلظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ فِي جِهَةٍ مِنْهُمَا وَٱلْقَتْلُ ٱلَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يَجِيءُ عَلَى قَوَاعِدِ ٱلْفِقْهِ وَقَوَانِينِهِ مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مُثَابٌ بِٱعْتِبَارِ قَصْدِهِ وَتَحَرِّيهِ ٱلْحَقَّ هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِ أَفْعَالُ ٱلسَّلَفِ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ فَهُمْ خِيَارُ ٱلْأُمَّةِ وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلْقَدْحِ فَمَنِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلْعَدَالَةِ وَٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ خَيْرُ ٱلنَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ ٱلَّذِينَ يَلُونَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ثُمَّ يَفْشُو ٱلْكَذِبُ فَجَعَلَ ٱلْخِيرَةَ وَهِيَ ٱلْعَدَالَةُ مُخْتَصَّةً بِٱلْقَرْنِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلَّذِي يَلِيهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَوِّدَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ ٱلتَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلاَ يُشَوِّشْ قَلْبَكَ بِٱلرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ وَٱلْتَمِسْ لَهُمْ مَذَاهِبَ ٱلْحَقِّ وَطُرُقَهُ مَا ٱسْتَطَعْتَ فَهُمْ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِذٰلِكَ وَمَا ٱخْتَلَفُوا إِلاَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَمَا قَاتَلُوا أَوْ قُتِلُوا إِلاَّ فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أَوْ إِظْهَارِ حَقٍّ وَٱعْتَقِدْ مَعَ ذٰلِكَ أَنَّ ٱخْتِلاَفَهُمْ رَحْمَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ ٱلْأُمَّةِ لِيَقْتَدِيَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ وَيَجْعَلَهُ إِمَامَهُ وَهَادِيَهُ وَدَلِيلَهُ فَٱفْهَمْ ذٰلِكَ وَتَبَيَّنْ حِكْمَةَ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ وَأَكْوَانِهِ وَٱعْلَمْ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِلَيْهِ ٱلْمَلْجَأُ وَٱلْمَصِيرُ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْخِلاَفَةِ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ ٱلشَّرْعِ فِي حِفْظِ ٱلدِّينِ وَسِيَاسَةِ ٱلدُّنْيَا فَصَاحِبُ ٱلشَّرْعِ مُتَصَرِّفٌ فِي ٱلْأَمْرَيْنِ أَمَّا فِي ٱلدِّينِ فَبِمُقْتَضَى ٱلتَّكَالِيفِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا وَحَمْلِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا سِيَاسَةُ ٱلدُّنْيَا فَبِمُقْتَضَى رِعَايَتِهِ لِمَصَالِحِهِمْ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْبَشَرِيِّ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هٰذَا ٱلْعُمْرَانَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذٰلِكَ لِئَلاَّ يَفْسُدَ إِنْ أُهْمِلَتْ وَقَدَّمْنَا أَنَّ ٱلْمُلْكَ وَسَطْوَتَهُ كَافٍ فِي حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَصَالِحِ نَعَمْ إِنَّمَا تَكُونُ أَكْمَلَ إِذَا كَانَتْ بِٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِهٰذِهِ

الْمَصَالِحِ فَقَدْ صَارَ الْمُلْكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمِلَّةِ وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٌ وَوَظَائِفُ تَابِعَةٌ تَتَعَيَّنُ خِطَطًا وَتَتَوَزَّعُ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَظَائِفَ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوَظِيفَتِهِ حَسْبَمَا يُعَيِّنُهُ الْمَلِكُ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَمَّا الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ الْمُلْكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَتَصَرُّفُهُ الدِّينِيُّ يَخْتَصُّ بِخِطَطٍ وَمَرَاتِبَ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ فَلْنَذْكُرِ الْآنَ الْخِطَطَ الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلَافَةِ وَنَرْجِعُ إِلَى الْخِطَطِ الْمُلُوكِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْخِطَطَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ كُلُّهَا مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ الْخِلَافَةُ فَكَأَنَّهَا الْإِمَامُ الْكَبِيرُ وَالْأَصْلُ الْجَامِعُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا وَدَاخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ الْخِلَافَةِ وَتَصَرُّفِهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ الْمِلَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِيهَا عَلَى الْعُمُومِ فَأَمَّا إِمَامَةُ الصَّلَاةِ فَهِيَ أَرْفَعُ هَذِهِ الْخِطَطِ كُلِّهَا وَأَرْفَعُ مِنَ الْمُلْكِ بِخُصُوصِهِ الْمُنْدَرِجِ مَعَهَا تَحْتَ الْخِلَافَةِ وَلَقَدْ يَشْهَدُ لِذَلِكَ اسْتِدْلَالُ الصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ فِي السِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمِ ارْتَضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا فَلَوْلَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ السِّيَاسَةِ لَمَا صَحَّ الْقِيَاسُ وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَسَاجِدَ فِي الْمَدِينَةِ صِنْفَانِ مَسَاجِدُ عَظِيمَةٌ كَثِيرَةُ الْغَاشِيَةِ مُعَدَّةٌ لِلصَّلَوَاتِ الْمَشْهُودَةِ وَأُخْرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ فَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْعَظِيمَةُ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوْ مَنْ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ او مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ فَيَنْصِبُ لَهَا الْإِمَامُ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَالْخُسُوفَيْنِ وَالِاسْتِسْقَاءِ وَتَعَيُّنُ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى وَالِاسْتِحْسَانِ وَلِئَلَّا يَفْتَاتَ الرَّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَقَدْ يَقُولُ بِالْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ فَيَكُونُ نَصْبُ الْإِمَامِ لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْجِيرَانِ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوِلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَالْمُوَلَّى فِيهَا مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَرْدِيِّ وَغَيْرِهِ

فلا نطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقلدونها لغيرهم من الناس وانظر
من طعن من الخلفاء في المسجد عند الأذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها
يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا مستخلفين فيها وكذا كان رجال
الدولة الأموية من بعدهم استئثارا بها واستعظاما لرتبتها يحكى عن عبد الملك
أنه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابي إلا عن ثلاثة صاحب الطعام فإنه يفسد
بالتأخير والأذان بالصلاة فإنه داع إلى الله والبريد فإن في تأخيره فساد القاصية
فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم
ودنياهم استنابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الأحيان وفي الصلوات العامة
كالعيدين والجمعة إشارة وتنويها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين
صدر دولتهم وأما الفتيا فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس ورد الفتيا إلى من
هو أهل لها وإعانته على ذلك ومنع من ليس أهلا لها وزجره لأنها من مصالح
المسلمين في أديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل
الناس وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد فإن كانت
من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها والنظر في أئمتها كما مر فلا بد من
استئذانه في ذلك وإن كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على إذن على أنه
ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن
التصدي لما ليس له بأهل فيضل به المستهدي ويضل به المسترشد وفي الأثر
أجرأكم على الفتيا أجرأكم على جراثيم جهنم فللسلطان فيهم لذلك من النظر
ما توجبه المصلحة من إجازة أو رد وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت
الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع إلا
أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف
الخلافة ومندرجا في عمومها وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا
يجعلون القضاء إلى من سواهم وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله
عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري
بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة

وهي مستوفاة فيه يقول أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي إليه فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت القضاء عليه فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في نسب أو ولاء فإن الله سبحانه عفا عن الإيمان ودرأ بالبينات وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر والسلام . إنتهى كتاب عمر وإنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية فاستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفا على أنفسهم وكانوا مع ذلك إنما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة في كتب الفقه وخصوصا كتب الأحكام السلطانية إلا أن القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأي من رآه والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء

ٱلْعِلْمِ وَٱلْخِبْرَةِ فِيهِمْ بِٱلْعَدَالَةِ وَٱلْجَرْحِ لِيَحْصُلَ لَهُ ٱلْوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هٰذِهِ كُلُّهَا مِنْ تَعَلُّقَاتِ وَظِيفَتِهِ وَتَوَابِعِ وِلَايَتِهِ وَقَدْ كَانَ ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلُ يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْمَظَالِمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ ٱلسَّلْطَنَةِ وَنَصَفَةِ ٱلْقَضَاءِ وَتَحْتَاجُ إِلَى عُلُوِّ يَدٍ وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقْمَعُ ٱلظَّالِمَ مِنَ ٱلْخَصْمَيْنِ وَتَزْجُرُ ٱلْمُتَعَدِّيَ وَكَأَنَّهُ يُمْضِي مَا عَجَزَ ٱلْقُضَاةُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمْضَائِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلتَّقْرِيرِ وَٱعْتِمَادِ ٱلْأَمَارَاتِ وَٱلْقَرَائِنِ وَتَأْخِيرِ ٱلْحُكْمِ إِلَى ٱسْتِجْلَاءِ ٱلْحَقِّ وَحَمْلِ ٱلْخَصْمَيْنِ عَلَى ٱلصُّلْحِ وَٱسْتِحْلَافِ ٱلشُّهُودِ وَذٰلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ ٱلْقَاضِي * وَكَانَ ٱلْخُلَفَاءُ ٱلْأَوَّلُونَ يُبَاشِرُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى أَيَّامِ ٱلْمُهْتَدِي مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقُضَاتِهِمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيهِ أَبِي إِدْرِيسَ ٱلْخَوْلَانِيِّ وَكَمَا فَعَلَهُ ٱلْمَأْمُونُ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ وَٱلْمُعْتَصِمُ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي قِيَادَةَ ٱلْجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ ٱلطَّوَائِفِ وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ يَخْرُجُ أَيَّامَ ٱلْمَأْمُونِ بِٱلطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ ٱلرُّومِ وَكَذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوْلِيَةُ هٰذِهِ ٱلْوَظَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذٰلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مُفَوَّضٍ أَوْ سُلْطَانٍ مُتَغَلِّبٍ وَكَانَ أَيْضًا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْجَرَائِمِ وَإِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ وَٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَٱلْمَغْرِبِ رَاجِعًا إِلَى صَاحِبِ ٱلشُّرْطَةِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنَ ٱلْوَظَائِفِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ ٱلدُّوَلِ تَوَسَّعَ ٱلنَّظَرُ فِيهَا عَنْ أَحْكَامِ ٱلْقَضَاءِ قَلِيلًا فَيَجْعَلُ لِلتُّهْمَةِ فِي ٱلْحُكْمِ مَجَالًا وَيَفْرِضُ ٱلْعُقُوبَاتِ ٱلزَّاجِرَةَ قَبْلَ ثُبُوتِ ٱلْجَرَائِمِ وَيُقِيمُ ٱلْحُدُودَ ٱلثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي ٱلْقَوَدِ وَٱلْقِصَاصِ وَيُقِيمُ ٱلتَّعْزِيرَ وَٱلتَّأْدِيبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ ٱلْجَرِيمَةِ ثُمَّ تُنُوسِيَ شَأْنُ هَاتَيْنِ ٱلْوَظِيفَتَيْنِ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي تُنُوسِيَ فِيهَا أَمْرُ ٱلْخِلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ ٱلْمَظَالِمِ رَاجِعًا إِلَى ٱلسُّلْطَانِ كَانَ لَهُ تَفْوِيضٌ مِنَ ٱلْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَٱنْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ ٱلشُّرْطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا وَظِيفَةُ ٱلتُّهْمَةِ عَلَى ٱلْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمُبَاشَرَةُ ٱلْقَطْعِ وَٱلْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ وَنُصِبَ لِذٰلِكَ فِي هٰذِهِ ٱلدُّوَلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجَبِ ٱلسِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِٱسْمِ ٱلْوَالِي وَتَارَةً بِٱسْمِ ٱلشُّرْطَةِ وَبَقِيَ قِسْمُ ٱلتَّعَازِيرِ وَإِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ فِي ٱلْجَرَائِمِ ٱلثَّابِتَةِ شَرْعًا فَجُمِعَ ذٰلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ

ذلك من توابع وظيفة ولايته واستقرّ الأمر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة لأنّ الأمر لمّا كان خلافة دينيّة وهذه الخطّة من مراسم الدين فكانوا لا يولّون فيها إلّا من أهل عصبيّتهم من العرب ومواليهم بالحلف أو بالرقّ أو بالاصطناع ممّن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع إليه * ولمّا انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الأمر كلّه ملكا أو سلطانا صارت هذه الخطط الدينيّة بعيدة عنه بعض الشيء لأنّها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه ثمّ خرج الأمر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافيّة بعدا عنهم بمنحاها وعصبيّتها وذلك أنّ العرب كانوا يرون أنّ الشريعة دينهم وأنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم منهم وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الأمم وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك إنّما يولّونها جانبا من التعظيم لما دانوا بالملّة فقط فصاروا يقلّدونها من غير عصابتهم ممّن كان تأهّل لها في دول الخلفاء السالفة وكان أولئك المتأهّلون بما أخذهم ترف الدول منذ مئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعتهم وقلّة الممانعة عن أنفسهم وصارت هذه الخطط في الدول الملوكيّة من بعد الخلفاء مختصّة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار ونزل أهلها عن مراتب العزّ لفقد الأهليّة بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضر المنغمسين في الترف والدعة البعداء عن عصبيّة الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملّة وأخذها بأحكام الشريعة لما أنّهم الحاملون للأحكام المقتدون بها ولم يكن إيثارهم في الدولة حينئذ إكراما لذواتهم وإنّما هو لما يتلمّح من التجمّل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعيّة ولم يكن لهم فيها من الحلّ والعقد شيء وإن حضروه فحضور رسميّ لا حقيقة وراءه إذ حقيقة الحلّ والعقد إنّما هي لأهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حلّ له ولا عقد لديه اللّهمّ إلّا أخذ الأحكام الشرعيّة عنهم وتلقّي الفتاوى منهم فنعم والله الموفّق وربّما يظنّ بعض الناس أنّ الحقّ فيما وراء ذلك وأنّ فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قال صلّى الله عليه وسلّم العلماء ورثة الأنبياء فاعلم أنّ

ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان إنما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران وإلا كان بعيدا عن السياسة فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضي لهم شيئا من ذلك لأن الشورى والحل والعقد لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئا ولا من حمايتها وإنما هو عيال على غيره فأي مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو إلى اعتباره فيها اللهم إلا شوراه فيما يعلمه من الأحكام الشرعية فموجودة في الاستفتاء خاصة وأما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها وإنما إكرامهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب إليه بأي جهة انتسب وأما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء فاعلم أن الفقهاء في الأغلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقوالا في كيفية الأعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج إلى العمل بها هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون إلا بالأقل منها وفي بعض الأحوال والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها فمن حملها اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل أهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على أثرهم وإذا انفرد واحد من الأمة بأحد الأمرين فالعابد أحق بالوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد لأن العابد ورث بصفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئا إنما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كيفيات العمل وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم

(العدالة) * وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الإشهاد وأداء عند التنازع وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن

جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران (١) على ذلك والمدارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعولون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى أعلم

الحسبة والسكة

إما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه وليس له إمضاء الحكم في الدعاوي مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم وكأنها أحكام

(١) المران بكسر الميم التمرن والاعتياد على الشيء اه

يُنَزَّهُ ٱلْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسُهُولَةِ أَغْرَاضِهَا فَتُدْفَعُ إِلَى صَاحِبِ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ لِيَقُومَ بِهَا فَوَضْعُهَا عَلَى ذٰلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةً لِمَنْصِبِ ٱلْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأُمَوِيِّينَ بِٱلْأَنْدَلُسِ دَاخِلَةً فِي عُمُومِ وِلَايَةِ ٱلْقَاضِي يُوَلِّي فِيهَا بِٱخْتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا ٱنْفَرَدَتْ وَظِيفَةُ ٱلسُّلْطَانِ عَنِ ٱلْخِلَافَةِ وَصَارَ نَظَرُهُ عَامًّا فِي أُمُورِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱنْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ ٱلْمُلْكِ وَأُفْرِدَتْ بِٱلْوِلَايَةِ

وَأَمَّا ٱلسِّكَّةُ فَهِيَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنُّقُودِ ٱلْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَحِفْظُهَا مِمَّا يُدَاخِلُهَا مِنَ ٱلْغِشِّ أَوِ ٱلنَّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدَدًا أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ وَيُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ ٱلْاِعْتِبَارَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ عَلَامَةِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ ٱلنُّقُودِ بِٱلْاِسْتِجَادَةِ وَٱلْخُلُوصِ بِرَسْمِ تِلْكَ ٱلْعَلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ ٱتُّخِذَ لِذٰلِكَ وَنُقِشَ فِيهِ نُقُوشٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ عَلَى ٱلدِّينَارِ بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبُ عَلَيْهِ بِٱلْمِطْرَقَةِ حَتَّى تُرْسَمَ فِيهِ تِلْكَ ٱلنُّقُوشُ وَتَكُونَ عَلَامَةً عَلَى جَوْدَتِهِ بِحَسَبِ ٱلْغَايَةِ ٱلَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا ٱلسَّبْكُ وَٱلتَّخْلِيصُ فِي مُتَعَارَفِ أَهْلِ ٱلْقُطْرِ وَمَذَاهِبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْحَاكِمَةِ فَإِنَّ ٱلسَّبْكَ وَٱلتَّخْلِيصَ فِي ٱلنُّقُودِ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى ٱلْاِجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أُفُقٍ أَوْ قُطْرٍ عَلَى غَايَةٍ مِنَ ٱلتَّخْلِيصِ وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمُمَاثَلَتِهِ فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذٰلِكَ كَانَ زَيْفًا وَٱلنَّظَرُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهٰذَا ٱلْاِعْتِبَارِ فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وِلَايَةِ ٱلْقَاضِي ثُمَّ أُفْرِدَتْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْحِسْبَةِ هٰذَا آخِرُ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْوَظَائِفِ ٱلْخِلَافِيَّةِ وَبَقِيَتْ مِنْهَا وَظَائِفُ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ مَا يُنْظَرُ فِيهِ وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوَظِيفَةُ ٱلْإِمَارَةِ وَٱلْوِزَارَةِ وَٱلْحَرْبِ وَٱلْخَرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا بَعْدَ وَظِيفَةِ ٱلْجِهَادِ وَوَظِيفَةُ ٱلْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ وَيُدْرِجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي ٱلسُّلْطَانِيَّاتِ وَكَذَا نِقَابَةُ ٱلْأَنْسَابِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى ٱلْخِلَافَةِ أَوِ ٱلْحَقِّ فِي بَيْتِ ٱلْمَالِ قَدْ بَطَلَتْ لِدُثُورِ ٱلْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ قَدِ ٱنْدَرَجَتْ رُسُومُ ٱلْخِلَافَةِ وَوَظَائِفُهَا فِي رُسُومِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ ٱلدُّوَلِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَٱللّٰهُ مُصَرِّفُ ٱلْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بامير المومنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ وَكَانَ ٱلصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ وَسَائِرُ ٱلْمُسْلِمِينَ يُسَمُّونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ فَلَمَّا بُويِعَ لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ كَانُوا يَدْعُونَهُ خَلِيفَةَ خَلِيفَةِ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَأَنَّهُمُ ٱسْتَثْقَلُوا هٰذَا ٱللَّقَبَ بِكَثْرَتِهِ وَطُولِ إِضَافَتِهِ وَأَنَّهُ يَتَزَايَدُ فِيمَا بَعْدُ دَائِمًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْهُجْنَةِ وَيَذْهَبَ مِنْهُ ٱلتَّمْيِيزُ بِتَعَدُّدِ ٱلْإِضَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَلَا يُعْرَفُ فَكَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْ هٰذَا ٱللَّقَبِ إِلَى مَا سِوَاهُ مِمَّا يُنَاسِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِثْلُهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَ قُوَّادَ ٱلْبُعُوثِ بِٱسْمِ ٱلْأَمِيرِ وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ ٱلْإِمَارَةِ وَقَدْ كَانَ ٱلْجَاهِلِيَّةُ يَدْعُونَ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِيرَ مَكَّةَ وَأَمِيرَ ٱلْحِجَازِ وَكَانَ ٱلصَّحَابَةُ أَيْضًا يَدْعُونَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِإِمَارَتِهِ عَلَى جَيْشِ ٱلْقَادِسِيَّةِ وَهُمْ مُعْظَمُ ٱلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ وَٱتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضُ ٱلصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱسْتَحْسَنَهُ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَصْوَبُوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ يُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَاهُ بِذٰلِكَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ جَحْشٍ وَقِيلَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِي وَٱلْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَقِيلَ بَرِيدٌ جَاءَ بِٱلْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ ٱلْبُعُوثِ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ وَيَقُولُ أَيْنَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَٱسْتَحْسَنُوهُ وَقَالُوا أَصَبْتَ وَٱللّٰهِ ٱسْمَهُ إِنَّهُ وَٱللّٰهِ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ حَقًّا فَدَعَوْهُ بِذٰلِكَ وَذَهَبَ لَقَبًا لَهُ فِي ٱلنَّاسِ وَتَوَارَثَهُ ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ سِمَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُمْ إِلَّا سَائِرَ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ ثُمَّ إِنَّ ٱلشِّيعَةَ خَصُّوا عَلِيًّا بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِ نَعْتًا لَهُ بِٱلْإِمَامَةِ ٱلَّتِي هِيَ أُخْتُ ٱلْخِلَافَةِ وَتَعْرِيضًا بِمَذْهَبِهِمْ فِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِإِمَامَةِ ٱلصَّلَاةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ لِمَا هُوَ مَذْهَبُهُمْ وَبِدْعَتُهُمْ فَخَصُّوهُ بِهٰذَا ٱللَّقَبِ وَلِمَنْ يَسُوقُونَ إِلَيْهِ مَنْصِبَ ٱلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانُوا كُلُّهُمْ يُسَمَّوْنَ بِٱلْإِمَامِ مَا دَامُوا يَدْعُونَ لَهُمْ فِي ٱلْخُلَفَاءِ حَتَّى إِذَا يَسْتَوْلُونَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ يُحَوِّلُونَ ٱللَّقَبَ فِيمَا بَعْدَهُ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ كَمَا فَعَلَهُ شِيعَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَئِمَّتَهُمْ بِٱلْإِمَامِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي جَهَرُوا بِٱلدُّعَاءِ لَهُ وَعَقَدُوا ٱلرَّايَاتِ لِلْحَرْبِ عَلَى أَمْرِهِ فَلَمَّا هَلَكَ دُعِيَ أَخُوهُ ٱلسَّفَّاحُ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا ٱلرَّافِضَةُ بِأَفْرِيقِيَا فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَئِمَّتَهُمْ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بِٱلْإِمَامِ حَتَّى

انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدي وكانوا أيضاً يدعونه بالإمام ولابنه أبي القاسم من بعده فلما استوثق لهم الأمر دعوا من بعدهما بأمير المؤمنين وكذا الأدارسة بالمغرب كانوا يلقبون أدريس بالإمام وابنه أدريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق والمواطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح وازداد لذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما في أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم فاستحدث لذلك بنو العباس حجاباً لأسمائهم الأعلام عن امتهانها في ألسنة السوقة وصوناً لها عن الابتذال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد إلى آخر الدولة واقتفى أثرهم في ذلك العبيديون بأفريقية ومصر وتجافى بنو أمية عن ذلك بالمشرق قبلهم مع الغضاضة والسذاجة لأن العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة وأما بالأندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس حتى إذا جاء عبد الرحمن الداخل الآخر منهم وهو الناصر بن محمد ابن الأمير عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن الأوسط لأول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالي وعيثهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وأفريقية وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله وأخذت من بعده عادة ومذهباً لقن عنه ولم يكن لآبائه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصبية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على أمراء أفريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بني أمية واقتسموه وافترق أمر الإسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالألقاب بعد أن تسموا جميعاً باسم السلطان. فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بألقاب

تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضاً يخصون بها أمراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدباً معها وعدولاً عن سماتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور وزيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين. وأما ملوك الطوائف بالأندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف ينعى عليهم

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وأما صنهاجة فاقتصروا عن الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئاً من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جرياً على مذاهب البداوة والغضاضة ولما محي رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من أهل الخير والاقتداء نزعت به همته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلاً لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه بيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان توليته إياها على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته وخاطبه فيه يا أمير المؤمنين تشريفاً واختصاصاً فاتخذها لقباً ويقال إنه كان دعي له بأمير

ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ أَدَبًا مَعَ رُتْبَةِ ٱلْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ ٱلْمُرَابِطُونَ مِنِ ٱنْتِحَالِ ٱلدِّينِ وَٱتِّبَاعِ ٱلسُّنَّةِ وَجَاءَ ٱلْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِيًا إِلَى ٱلْحَقِّ آخِذًا بِمَذَاهِبِ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِيًا عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ ٱلسَّلَفِ فِي تَرْكِ ٱلتَّأْوِيلِ لِظَوَاهِرِ ٱلشَّرِيعَةِ وَمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلتَّجْسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَذْهَبِ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ وَسَمَّى أَتْبَاعَهُ ٱلْمُوَحِّدِينَ تَعْرِيضًا بِذَٰلِكَ ٱلنَّكِيرِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ فِي ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يَحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامَ هٰذَا ٱلْعَالَمِ فَسُمِّيَ بِٱلْإِمَامِ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلًا مِنْ مَذْهَبِ ٱلشِّيعَةِ فِي أَلْقَابِ خُلَفَائِهِمْ وَأُرْدِفَ بِٱلْمَعْصُومِ إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عِصْمَةِ ٱلْإِمَامِ وَتَنَزَّهَ عِنْدَ أَتْبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَخْذًا بِمَذَاهِبِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلشِّيعَةِ وَلِمَا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ ٱلْأَغْمَارِ وَٱلْوِلْدَانِ مِنْ أَعْقَابِ أَهْلِ ٱلْخِلَافَةِ يَوْمَئِذٍ بِٱلْمَشْرِقِ ثُمَّ ٱنْتَحَلَ عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ وَلِيُّ عَهْدِهِ ٱللَّقَبَ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ خُلَفَاءُ بَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَآلُ أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ٱسْتِئْثَارًا بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ ذَٰلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ ٱلْأَمْرِ وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَذَٰلِكَ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ لِٱنْتِفَاءِ عَصَبِيَّةِ قُرَيْشٍ وَتَلَاشِيهَا فَكَانَ ذَٰلِكَ دَأْبَهُمْ وَلَمَّا ٱنْتَقَضَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱنْتَزَعَهُ زَنَاتَةُ ذَهَبَ أَوَّلُهُمْ مَذَاهِبَ ٱلْبَدَاوَةِ وَٱلسَّذَاجَةِ وَٱتِّبَاعِ لِمْتُونَةَ فِي ٱنْتِحَالِ ٱللَّقَبِ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَدَبًا مَعَ رُتْبَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا لِبَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ أَوَّلًا وَلِبَنِي أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ نَزَعَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ إِلَى ٱللَّقَبِ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱنْتَحَلُوهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱسْتِبْلَاغًا فِي مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ وَتَتْمِيمًا لِمَذَاهِبِهِ وَسِمَاتِهِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْمِلَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ ٱلنَّبِيِّ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِهَا وَشَرَائِعِهَا وَيَكُونُ كَٱلْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ ٱلتَّكَالِيفِ وَٱلنَّوْعُ ٱلْإِنْسَانِيُّ أَيْضًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ ٱلسِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِٱجْتِمَاعِ ٱلْبَشَرِيِّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَزَعُهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِٱلْقَهْرِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْمَلِكِ وَٱلْمِلَّةُ ٱلْإِسْلَامِيَّةُ لَمَّا كَانَ ٱلْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعًا لِعُمُومِ ٱلدَّعْوَةِ وَحَمْلِ ٱلْكَافَّةِ عَلَى دِينِ ٱلْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ

كونها اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهما معا وأما
ما سوى الملة الإسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعا إلا
في المدافعة فقط فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك وإنما
وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولأمر غير ديني وهو ما اقتضته لهم العصبية لما
فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم
كما في الملة الإسلامية وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم في خاصتهم ولذلك بقي
بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعمائة سنة لا يعتنون
بشيء من أمر الملك إنما همهم إقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى
الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان ويشترطون
فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا
لإقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتلون أحكامهم العامة
والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شغب الأحكام واتصل ذلك فيهم
إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على
الأرض التي أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى
صلوات الله عليه فحاربتهم أمم الفلسطين والكنعانيين والأرمن وأردن وعمان
ومارب ورئاستهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحوا من أربعمائة
سنة ولم تكن بهم صولة الملك وضجر بنو طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك
الفلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل ملكه وامتد
إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افترق الأسباط من بعد
سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت
إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا
وبنيامين ثم غلبهم بخت نصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك أولا الأسباط
العشرة ثم ثانيا بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب
مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق إلى أن
ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من

خُرُوجِهِمْ فَبَنَوُا ٱلْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى ٱلرَّسْمِ ٱلْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ فَقَطْ وَٱلْمُلْكُ لِلْفُرْسِ ثُمَّ غَلَبَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ وَبَنُو يُونَانَ عَلَى ٱلْفُرْسِ وَصَارَ ٱلْيَهُودُ فِي مَلَكَتِهِمْ ثُمَّ فَشِلَ أَمْرُ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَٱعْتَزَّ ٱلْيَهُودُ عَلَيْهِمْ بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَدَفَعُوهُمْ عَنِ ٱلْاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِمْ وَقَامَ بِمُلْكِهِمِ ٱلْكَهَنَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ مِنْ بَنِي حَشْمَنَايَ وَقَاتَلُوا يُونَانَ حَتَّى ٱنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَغَلَبَهُمُ ٱلرُّومُ فَصَارُوا تَحْتَ أَمْرِهِمْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَفِيهَا بَنُو هِيرُودُسَ أَصْهَارُ بَنِي حَشْمَنَايَ وَبَقِيَّتُ دَوْلَتِهِمْ فَحَاصَرُوهُمْ مُدَّةً ثُمَّ ٱفْتَتَحُوهَا عَنْوَةً وَأَفْحَشُوا فِي ٱلْقَتْلِ وَٱلْهَدْمِ وَٱلتَّحْرِيقِ وَخَرَّبُوا بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا إِلَى رُومَةَ وَمَا وَرَاءَهَا وَهُوَ ٱلْخَرَابُ ٱلثَّانِي لِلْمَسْجِدِ وَيُسَمِّيهِ ٱلْيَهُودُ بِٱلْجَلْوَةِ ٱلْكُبْرَى فَلَمْ يَقُمْ لَهُمْ بَعْدَهَا مُلْكٌ لِفُقْدَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنْهُمْ وَبَقُوا بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي مَلَكَةِ ٱلرُّومِ مِنْ بَعْدِهِمْ يُقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمِ ٱلرَّئِيسُ عَلَيْهِمِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْكُوهِنِ * ثُمَّ جَاءَ ٱلْمَسِيحُ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ ٱلدِّينِ وَٱلنَّسْخِ لِبَعْضِ أَحْكَامِ ٱلتَّوْرَاةِ وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ ٱلْخَوَارِقُ ٱلْعَجِيبَةُ مِنْ إِبْرَاءِ ٱلْأَكْمَهِ وَٱلْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى وَٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَآمَنُوا بِهِ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْحَوَارِيُّونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانُوا ٱثْنَيْ عَشَرَ وَبَعَثَ مِنْهُمْ رُسُلًا إِلَى ٱلْآفَاقِ دَاعِينَ إِلَى مِلَّتِهِ وَذَٰلِكَ أَيَّامَ أُوغُسْطُسَ أَوَّلِ مُلُوكِ ٱلْقَيَاصِرَةِ وَفِي مُدَّةِ هِيرُودُسَ مَلِكِ ٱلْيَهُودِ ٱلَّذِي ٱنْتَزَعَ ٱلْمُلْكَ مِنْ بَنِي حَشْمَنَايَ أَصْهَارِهِ فَحَسَدَهُ ٱلْيَهُودُ وَكَذَّبُوهُ وَكَاتَبَ هِيرُودُسُ مَلِكُهُمْ مَلِكَ ٱلْقَيَاصِرَةِ أُوغُسْطُسَ يُغْرِيهِ بِهِ فَأَذِنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ وَوَقَعَ مَا تَلَاهُ ٱلْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِ وَٱفْتَرَقَ ٱلْحَوَارِيُّونَ شِيَعًا وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ ٱلرُّومِ دَاعِينَ إِلَى دِينِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَ بِطْرُسُ كَبِيرَهُمْ فَنَزَلَ بِرُومَةَ دَارِ مُلْكِ ٱلْقَيَاصِرَةِ ثُمَّ كَتَبُوا ٱلْإِنْجِيلَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ فِي نُسَخٍ أَرْبَعٍ عَلَى ٱخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِمْ فَكَتَبَ مَتَّى إِنْجِيلَهُ فِي بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ بِٱلْعِبْرَانِيَّةِ وَنَقَلَهُ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ إِلَى ٱللِّسَانِ ٱللَّاتِينِيِّ وَكَتَبَ لُوقَا مِنْهُمْ إِنْجِيلَهُ بِٱللَّاتِينِيِّ إِلَى بَعْضِ أَكَابِرِ ٱلرُّومِ وَكَتَبَ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ إِنْجِيلَهُ بِرُومَةَ وَكَتَبَ بِطْرُسُ إِنْجِيلَهُ بِٱللَّاتِينِيِّ وَنَسَبَهُ إِلَى مَرْقَاصَ تِلْمِيذِهِ وَٱخْتَلَفَتْ هٰذِهِ ٱلنُّسَخُ ٱلْأَرْبَعُ مِنَ ٱلْإِنْجِيلِ مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كُلُّهَا وَحْيًا صِرْفًا بَلْ مَشُوبَةٌ بِكَلَامِ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَبِكَلَامِ ٱلْحَوَارِيِّينَ وَكُلُّهَا مَوَاعِظُ وَقِصَصٌ وَٱلْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جِدًّا وَٱجْتَمَعَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ٱلرُّسُلُ لِذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بِرُومَةَ

وَوَضَعُوا قَوَانِينَ ٱلْمِلَّةِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَصَيَّرُوهَا بِيَدِ أَقْلِيمَنْطُسَ تِلْمِيذِ بِطْرُسَ وَكَتَبُوا فِيهَا عَدَدَ ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَٱلْعَمَلُ بِهَا فَمِنْ شَرِيعَةِ ٱلْيَهُودِ ٱلْقَدِيمَةِ ٱلتَّوْرَاةُ وَهِيَ خَمْسَةُ أَسْفَارٍ وَكِتَابُ يُوشَعَ وَكِتَابُ ٱلْقُضَاةِ وَكِتَابُ رَاعُوثَ وَكِتَابُ يَهُوذَا وَأَسْفَارُ ٱلْمُلُوكِ أَرْبَعَةٌ وَسِفْرُ بِنْيَامِينَ وَكُتُبُ ٱلْمَقَابِيِّينَ لِٱبْنِ كَرْيُونَ ثَلَاثَةٌ وَكِتَابُ عَزْرَا ٱلْإِمَامِ وَكِتَابُ أُوشِيرَ وَقِصَّةُ هَامَانَ وَكِتَابُ أَيُّوبَ ٱلصِّدِّيقِ وَمَزَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَكُتُبُ ٱبْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خَمْسَةٌ وَنُبُوَّاتُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلْكِبَارِ وَٱلصِّغَارِ سِتَّةَ عَشَرَ وَكِتَابُ يَشُوعَ بْنِ شَارِخَ وَزِيرِ سُلَيْمَانَ وَمِنْ شَرِيعَةِ عِيسَى صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ٱلْمُتَلَقَّاةِ مِنَ ٱلْحَوَارِيِّينَ نُسَخُ ٱلْإِنْجِيلِ ٱلْأَرْبَعِ وَكُتُبُ ٱلْقَتَالِيقُونَ سَبْعُ رَسَائِلَ وَثَامِنُهَا ٱلْإِبْرِيكْسِيسُ فِي قِصَصِ ٱلرُّسُلِ وَكِتَابُ بُولُسَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ رِسَالَةً وَكِتَابُ أَقْلِيمَنْطُسَ وَفِيهِ ٱلْأَحْكَامُ وَكِتَابُ أَبُوغَالَمْسِيسَ وَفِيهِ رُؤْيَا يُوحَنَّا بْنِ زَبَدِي وَٱخْتَلَفَ شَأْنُ ٱلْقَيَاصِرَةِ فِي ٱلْأَخْذِ بِهَذِهِ ٱلشَّرِيعَةِ تَارَةً وَتَعْظِيمِ أَهْلِهَا ثُمَّ تَرْكِهَا أُخْرَى وَٱلتَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ بِٱلْقَتْلِ وَٱلْبَغْيِ إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ وَأَخَذَ بِهَا وَٱسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا وَكَانَ صَاحِبُ هَذَا ٱلدِّينِ وَٱلْمُقِيمُ لِمَرَاسِيمِهِ يُسَمُّونَهُ ٱلْبَطْرَكَ وَهُوَ رَئِيسُ ٱلْمِلَّةِ عِنْدَهُمْ وَخَلِيفَةُ ٱلْمَسِيحِ فِيهِمْ يَبْعَثُ نُوَّابَهُ وَخُلَفَاءَهُ إِلَى مَا بَعُدَ عَنْهُ مِنْ أُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْأُسْقُفَ أَيْ نَائِبَ ٱلْبَطْرَكِ وَيُسَمُّونَ ٱلْإِمَامَ ٱلَّذِي يُقِيمُ ٱلصَّلَوَاتِ وَيُفْتِيهِمْ فِي ٱلدِّينِ بِٱلْقِسِّيسِ وَيُسَمُّونَ ٱلْمُنْقَطِعَ ٱلَّذِي حَبَسَ نَفْسَهُ فِي ٱلْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ بِٱلرَّاهِبِ وَأَكْثَرُ خَلَوَاتِهِمْ فِي ٱلصَّوَامِعِ وَكَانَ بِطْرُسُ ٱلرَّسُولُ رَأْسُ ٱلْحَوَارِيِّينَ وَكَبِيرُ ٱلتَّلَامِيذِ بِرُومَةَ يُقِيمُ بِهَا دِينَ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ نِيرُونُ خَامِسُ ٱلْقَيَاصِرَةِ فِيمَنْ قَتَلَ مِنَ ٱلْبَطَارِقِ وَٱلْأَسَاقِفَةِ ثُمَّ قَامَ بِخِلَافَتِهِ فِي كُرْسِيِّ رُومَةَ أَرْيُوسُ وَكَانَ مَرْقَاسُ ٱلْإِنْجِيلِيُّ بِٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَمِصْرَ وَٱلْمَغْرِبِ دَاعِيًا سَبْعَ سِنِينَ فَقَامَ بَعْدَهُ حَنَانِيَا وَتَسَمَّى بِٱلْبَطْرَكِ وَهُوَ أَوَّلُ ٱلْبَطَارِكَةِ فِيهَا وَجَعَلَ مَعَهُ ٱثْنَيْ عَشَرَ قِسًّا عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَاتَ ٱلْبَطْرَكُ يَكُونُ وَاحِدٌ مِنَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ مَكَانَهُ وَيَخْتَارُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَاحِدًا مَكَانَ ذَلِكَ ٱلثَّانِي عَشَرَ فَكَانَ أَمْرُ ٱلْبَطَارِكَةِ إِلَى ٱلْقُسُوسِ ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ ٱلِٱخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي قَوَاعِدِ دِينِهِمْ وَعَقَائِدِهِ وَٱجْتَمَعُوا بِنِيقِيَةَ أَيَّامَ قُسْطَنْطِينَ لِتَحْرِيرِ ٱلْحَقِّ فِي ٱلدِّينِ وَٱتَّفَقَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِي ٱلدِّينِ فَكَتَبُوهُ وَسَمَّوْهُ ٱلْإِمَامَ وَصَيَّرُوهُ أَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَكَانَ فِيمَا كَتَبُوهُ أَنَّ

البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وأبطلوا ذلك الرأي وإنما يقدم عن بلاء واختبار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقي الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقي الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطاركة وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بإسكندرية فارادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه حتى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقهم ولا يلتفتون إلى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على راي الملكية ورومة للإفرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في إقامة دينهم هنالك واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمي اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الإفرنجة أنه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تحرجاً من افتراق الكلمة ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الإنبرذور(١) وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة الإنبرذور وهذا

(١) المشهور قديماً ايبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس تقول امبرور ومعناها عندهم ملك الملوك

مُلَخَّصُ مَا أَوْرَدْنَاهُ مِنْ شَرْحِ هٰذَيْنِ ٱلِٱسْمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ هُمَا ٱلْبَابَا وَٱلْكُوهِنُ وَٱللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقابها

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ يَحْمِلُ أَمْرًا ثَقِيلاً فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مِهَنِهِ(1) فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ وَمَنِ ٱسْتَرْعَاهُ ٱللهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حِمَايَةِ ٱلْكَافَّةِ مِنْ عَدُوِّهِمْ بِٱلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَإِلَى كَفِّ عُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِمْضَاءِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلْوَازِعَةِ فِيهِمْ وَكَفِّ ٱلْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ بِإِصْلَاحِ سَابِلَتِهِمْ وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَا تَعُمُّهُمْ بِهِ ٱلْبَلْوَى فِي مَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ مِنْ تَفَقُّدِ ٱلْمَعَايِشِ وَٱلْمَكَايِيلِ وَٱلْمَوَازِينِ حَذَرًا مِنَ ٱلتَّطْفِيفِ وَإِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلسِّكَّةِ بِحِفْظِ ٱلنُّقُودِ ٱلَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ ٱلْغِشِّ وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ ٱلِٱنْقِيَادِ لَهُ وَٱلرِّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَٱنْفِرَادِهِ بِٱلْمَجْدِ دُونَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذٰلِكَ فَوْقَ ٱلْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ لَمُعَانَاةُ نَقْلِ ٱلْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ ٱلرِّجَالِ ثُمَّ إِنَّ ٱلِٱسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأُولِي ٱلْقُرْبَى مِنْ أَهْلِ ٱلنَّسَبِ أَوِ ٱلتَّرْبِيَةِ أَوِ ٱلِٱصْطِنَاعِ ٱلْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ لِمَا يَقَعُ فِي ذٰلِكَ مِنْ مُجَانَسَةِ خُلُقِهِمْ لِخُلُقِهِ فَتَتِمُّ ٱلْمُشَاكَلَةُ فِي ٱلِٱسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى وَٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذٰلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ بِحِجَابِهِ عَنِ ٱلنَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي مُهِمَّاتِهِمْ أَوْ يَدْفَعَ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْمُلْكِ كُلِّهِ وَيُعَوِّلَ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي ذٰلِكَ وَٱضْطِلَاعِهِ فَلِذٰلِكَ قَدْ تُوجَدُ فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ وَقَدْ تَفْتَرِقُ فِي أَشْخَاصٍ وَقَدْ يَتَفَرَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَٱلْقَلَمِ يَتَفَرَّعُ إِلَى قَلَمِ ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْمُخَاطَبَاتِ وَقَلَمِ ٱلصُّكُوكِ وَٱلْإِقْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلَمِ ٱلْمُحَاسَبَاتِ وَهُوَ صَاحِبُ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْعَطَاءِ وَدِيوَانُ ٱلْجَيْشِ وَكَٱلسَّيْفِ يَتَفَرَّعُ إِلَى صَاحِبِ ٱلْحَرْبِ

(1) المهنة الخدمة وجمعها مهن بكسر الميم

وَصَاحِبِ ٱلشُّرْطَةِ وَصَاحِبِ ٱلْبَرِيدِ وَوِلَايَةِ ٱلثُّغُورِ ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْوَظَائِفَ ٱلسُّلْطَانِيَّةَ فِي هٰذِهِ ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ لِٱشْتِمَالِ مَنْصِبِ ٱلْخِلَافَةِ عَلَى ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَٱلْأَحْكَامُ ٱلشَّرْعِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِهَا وَمَوْجُودَةٌ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِي سَائِرِ وُجُوهِهَا لِعُمُومِ تَعَلُّقِ ٱلْحُكْمِ ٱلشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَفْعَالِ ٱلْعِبَادِ وَٱلْفَقِيهُ يَنْظُرُ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا ٱسْتِبْدَادًا عَلَى ٱلْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلسُّلْطَانِ أَوْ تَعْوِيضًا مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى ٱلْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِي وَفِي نَظَرِهِ فِي ٱلْأَحْكَامِ وَٱلْأَمْوَالِ وَسَائِرِ ٱلسِّيَاسَاتِ مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا وَفِي مُوجِبَاتِ ٱلْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ مَعَانِي ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَكَذَا فِي سَائِرِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلَّتِي تَحْتَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ جِبَايَةٍ أَوْ وِلَايَةٍ لَا بُدَّ لِلْفَقِيهِ مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنِ ٱنْسِحَابِ حُكْمِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ إِلَّا أَنَّ كَلَامَنَا فِي وَظَائِفِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَرُتْبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ ٱلْعُمْرَانِ وَوُجُودِ ٱلْبَشَرِ لَا بِمَا يَخُصُّهَا مِنْ أَحْكَامِ ٱلشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا ٱلشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِي كُتُبِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ ٱلْقَاضِي أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْمَاوَرْدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ ٱلْفُقَهَاءِ فَإِنْ أَرَدْتَ ٱسْتِيفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَتِهَا هُنَالِكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي ٱلْوَظَائِفِ ٱلْخِلَافِيَّةِ وَأَفْرَدْنَاهَا لِنُمَيِّزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْوَظَائِفِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا ٱلشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ذٰلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ

الوزارة * وَهِيَ أُمُّ ٱلْخُطَطِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلرُّتَبِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ لِأَنَّ ٱسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ ٱلْإِعَانَةِ فَإِنَّ ٱلْوِزَارَةَ مَأْخُوذَةٌ إِمَّا مِنَ ٱلْمُؤَازَرَةِ وَهِيَ ٱلْمُعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ ٱلْوِزْرِ وَهُوَ ٱلثِّقْلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مُفَاعِلِهِ أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى ٱلْمُعَاوَنَةِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ ٱلْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ ٱلسُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ ٱلْكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْجُنْدِ وَٱلسِّلَاحِ وَٱلْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ ٱلْحِمَايَةِ وَٱلْمُطَالَبَةِ وَصَاحِبُ هٰذَا هُوَ ٱلْوَزِيرُ ٱلْمُتَعَارَفُ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلْقَدِيمَةِ بِٱلْمَشْرِقِ وَلِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَغْرِبِ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُ فِي

أُمُورِ جِبَايَةِ ٱلْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ وَضَبْطُ ذٰلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبَطَةٍ وَصَاحِبُ هٰذَا هُوَ صَاحِبُ ٱلْمَالِ وَٱلْجِبَايَةِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْوَزِيرِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مُدَافَعَةِ ٱلنَّاسِ ذَوِي ٱلْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنْ فَهْمِهِ وَهٰذَا رَاجِعٌ لِصَاحِبِ ٱلْبَابِ ٱلَّذِي يَحْجُبُهُ فَلَا تَعْدُو أَحْوَالُهُ هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةَ بِوَجْهٍ وَكُلُّ خِطَّةٍ أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتَبِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ إِلَّا أَنَّ ٱلْأَرْفَعَ مِنْهَا مَا كَانَتِ ٱلْإِعَانَةُ فِيهِ عَامَّةً فِيمَا تَحْتَ يَدِ ٱلسُّلْطَانِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفِ إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مُبَاشَرَةَ ٱلسُّلْطَانِ دَائِمًا وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَحْوَالِ مُلْكِهِ وَأَمَّا مَا كَانَ خَاصًّا بِبَعْضِ ٱلنَّاسِ أَوْ بِبَعْضِ ٱلْجِهَاتِ فَيَكُونُ دُونَ ٱلرُّتْبَةِ ٱلْأُخْرَى كَقِيَادَةِ ثَغْرٍ أَوْ وِلَايَةِ جِبَايَةٍ خَاصَّةٍ أَوِ ٱلنَّظَرِ فِي أَمْرٍ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ ٱلطَّعَامِ أَوِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلسِّكَّةِ فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا نَظَرٌ فِي أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لِأَهْلِ ٱلنَّظَرِ ٱلْعَامِّ وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرْؤُوسَةً لِأُولٰئِكَ وَمَا زَالَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلدُّوَلِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ هٰكَذَا حَتَّى جَاءَ ٱلْإِسْلَامُ وَصَارَ ٱلْأَمْرُ خِلَافَةً فَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْخُطَطُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ ٱلْمُلْكِ إِلَى مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ مِنَ ٱلْمُعَاوَنَةِ بِٱلرَّأْيِ وَٱلْمُفَاوَضَةِ فِيهِ فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فَكَانَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ وَيُفَاوِضُهُمْ فِي مُهِمَّاتِهِ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْخَاصَّةِ وَيَخُصُّ مَعَ ذٰلِكَ أَبَا بَكْرٍ بِخُصُوصِيَّاتٍ أُخْرَى حَتَّى كَانَ ٱلْعَرَبُ ٱلَّذِينَ عَرَفُوا ٱلدُّوَلَ وَأَحْوَالَهَا فِي كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَٱلنَّجَاشِيِّ يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزِيرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ ٱلْوَزِيرِ يُعْرَفُ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ لِذَهَابِ رُتْبَةِ ٱلْمُلْكِ بِسَذَاجَةِ ٱلْإِسْلَامِ وَكَذَا عُمَرُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَعُثْمَانُ مَعَ عُمَرَ وَأَمَّا حَالُ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْإِنْفَاقِ وَٱلْحُسْبَانِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ لِأَنَّ ٱلْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أُمِّيِّينَ لَا يُحْسِنُونَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِي ٱلْحِسَابِ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِي ٱلْعَجَمِ مِمَّنْ يُجِيدُهُ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَهُ لِأَنَّ ٱلْأُمِّيَّةَ كَانَتْ صِفَتَهُمُ ٱلَّتِي ٱمْتَازُوا بِهَا وَكَذَا حَالُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ وَتَنْفِيذِ ٱلْأُمُورِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتْبَةً خَاصَّةً لِلْأُمِّيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَٱلْأَمَانَةُ ٱلْعَامَّةُ فِي كِتْمَانِ ٱلْقَوْلِ وَتَأْدِيَتِهِ وَلَمْ تَخْرُجِ ٱلسِّيَاسَةُ إِلَى ٱخْتِيَارِهِ لِأَنَّ ٱلْخِلَافَةَ إِنَّمَا هِيَ دِينٌ لَيْسَتْ مِنَ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمُلْكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنِ ٱلْكِتَابَةُ صِنَاعَةً فَيُسْتَجَادُ لِلْخَلِيفَةِ أَحْسَنُهَا لِأَنَّ ٱلْكُلَّ كَانُوا يُعَبِّرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بِأَبْلَغِ ٱلْعِبَارَاتِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ٱلْخَطُّ فَكَانَ ٱلْخَلِيفَةُ

يستنيب في كتابته متى عز له من يحسنه وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان والقابه كان أول شيء بدئ به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون عن أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاصي وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فإنه داعي الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم واطلق عليه اسم الوزير وبقي أمر الحسبان في الموالي والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد تعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع إليه فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك ثم جاء في

لدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان
خرى وصار الوزير إذا استبد محتاجا إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام
لشرعية وتجيء على حالها كما تقدمت فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهي
حال ما يكون السلطان قائما على نفسه وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير
ستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار الأمر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم
كن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء
ي اللقب لأنهم خول لهم فتسموا بالإمارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى
مير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم
وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى
آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس
فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولأنهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من
لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واختص
اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها ويده مع ذلك عالية على أهل
الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبدادا واستمر الأمر على هذا ثم جاءت
دولة الترك آخرا بمصر فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن
يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مرؤوسة ناقصة
فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب
الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحاجب في
مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية. وأما دولة بني أمية بالأندلس
فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل
صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا وللترسيل وزيرا وللنظر في حوائج المتظلمين
وزيرا وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش
منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين
الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن

مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذاك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاءوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار ويضيفون إليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولي الأمور لمن يشاء

(الحجابة) * قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرؤوسة لها إذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد فهي بمصر مرؤوسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب * وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين

يَعْنُونَ بِهِ ٱلسَّيْفَ وَٱلْقَلَمَ وَيَدِلُّونَ بِٱلْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ ٱلسُّلْطَانِ عَنِ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْخَاصَّةِ وَبِذِي ٱلْوِزَارَتَيْنِ عَنْ جَمْعِهِ لِخُطَّتَيِ ٱلسَّيْفِ وَٱلْقَلَمِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دُوَلِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَةَ ذِكْرٌ لِهٰذَا ٱلِٱسْمِ لِلْبَدَاوَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَرُبَّمَا يُوجَدُ فِي دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ عِنْدَ ٱسْتِعْظَامِهَا وَحِضَارَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ * وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ لَمْ تَسْتَمْكِنْ فِيهَا ٱلْحِضَارَةُ ٱلدَّاعِيَةُ إِلَى ٱنْتِحَالِ ٱلْأَلْقَابِ وَتَمْيِيزِ ٱلْخُطَطِ وَتَعْيِينِهَا بِٱلْأَسْمَاءِ إِلَّا آخِرًا فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ ٱلرُّتَبِ إِلَّا ٱلْوَزِيرُ فَكَانُوا أَوَّلًا يَخُصُّونَ بِهٰذَا ٱلِٱسْمِ ٱلْكَاتِبَ ٱلْمُتَصَرِّفَ ٱلْمُشَارِكَ لِلسُّلْطَانِ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَٱبْنِ عَطِيَّةَ وَعَبْدِ ٱلسَّلَامِ ٱلْكُومِيِّ وَكَانَ لَهُ مَعَ ذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْحِسَابِ وَٱلْأَشْغَالِ ٱلْمَالِيَّةِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱسْمُ ٱلْوَزِيرِ لِأَهْلِ نَسَبِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْمُوَحِّدِينَ كَٱبْنِ جَامِعٍ وَغَيْرِهِ وَلَمْ يَكُنِ ٱسْمُ ٱلْحَاجِبِ مَعْرُوفًا فِي دَوْلَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ * وَأَمَّا بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَةَ فَكَانَتِ ٱلرِّئَاسَةُ فِي دَوْلَتِهِمْ أَوَّلًا وَٱلتَّقَدُّمُ لِوَزِيرِ ٱلرَّأْيِ وَٱلْمَشُورَةِ وَكَانَ يُخَصُّ بِٱسْمِ شَيْخِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَكَانَ لَهُ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْوِلَايَاتِ وَٱلْعَزْلِ وَقَوْدِ ٱلْعَسَاكِرِ وَٱلْحُرُوبِ وَٱخْتَصَّ ٱلْحُسْبَانُ وَٱلدِّيوَانُ بِرُتْبَةٍ اخرى وَيُسَمَّى مُتَوَلِّيهَا بِصَاحِبِ ٱلْأَشْغَالِ يَنْظُرُ فِيهَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمُطْلَقَ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَيُحَاسِبُ وَيَسْتَخْلِصُ ٱلْأَمْوَالَ وَيُعَاقِبُ عَلَى ٱلتَّفْرِيطِ وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَٱخْتَصَّ عِنْدَهُمُ ٱلْقَلَمُ أَيْضًا بِمَنْ يُجِيدُ ٱلتَّرْسِيلَ وَيُؤْتَمَنُ عَلَى ٱلْأَسْرَارِ لِأَنَّ ٱلْكِتَابَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مُنْتَحَلِ ٱلْقَوْمِ وَلَا ٱلتَّرْسِيلَ بِلِسَانِهِمْ فَلَمْ يُشْتَرَطْ فِيهِ ٱلنَّسَبُ وَٱحْتَاجَ ٱلسُّلْطَانُ لِٱتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ ٱلْمُرْتَزِقِينَ بِدَارِهِ إِلَى قَهْرَمَانٍ خَاصٍّ بِدَارِهِ فِي أَحْوَالِهِ يُجْرِيهَا عَلَى قَدْرِهَا وَتَرْتِيبِهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَطَاءٍ وَكُسْوَةٍ وَنَفَقَةٍ فِي ٱلْمَطَابِخِ وَٱلْإِصْطَبْلَاتِ وَغَيْرِهِمَا وَحَصْرِ ٱلذَّخِيرَةِ وَتَنْفِيذِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ذٰلِكَ عَلَى أَهْلِ ٱلْجِبَايَةِ فَخَصُّوهُ بِٱسْمِ ٱلْحَاجِبِ وَرُبَّمَا أَضَافُوا إِلَيْهِ كِتَابَةَ ٱلْعَلَامَةِ عَلَى ٱلسِّجِلَّاتِ إِذَا ٱتَّفَقَ أَنَّهُ يُحْسِنُ صِنَاعَةَ ٱلْكِتَابَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوهُ لِغَيْرِهِ وَٱسْتَمَرَّ ٱلْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ وَحَجَبَ ٱلسُّلْطَانُ نَفْسَهُ عَنِ ٱلنَّاسِ فَصَارَ هٰذَا ٱلْحَاجِبُ وَاسِطَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلرُّتَبِ كُلِّهِمْ ثُمَّ جُمِعَ لَهُ آخِرَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَرْبُ ثُمَّ ٱلرَّأْيُ وَٱلْمَشُورَةُ فَصَارَتِ ٱلْخُطَّةُ أَرْفَعَ ٱلرُّتَبِ وَأَوْعَبَهَا لِلْخُطَطِ ثُمَّ جَاءَ ٱلِٱسْتِبْدَادُ وَٱلْحَجْرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلثَّانِي عَشَرَ مِنْهُمْ ثُمَّ ٱسْتَبَدَّ بَعْدَ ذٰلِكَ حَفِيدُهُ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَذْهَبَ آثَارَ ٱلْحَجْرِ

وَالِاسْتِبْدَادِ بِإِذْهَابِ خِطَّةِ الْحِجَابَةِ الَّتِي كَانَتْ سُلَّمًا إِلَيْهِ وَبَاشَرَ أُمُورَهُ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مَرِينَ فَلَا أَثَرَ لِاسْمِ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ وَأَمَّا رِئَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْعَسَاكِرِ فَهِيَ لِلْوَزِيرِ وَرُتْبَةُ الْقَلَمِ فِي الْحُسْبَانِ وَالرَّسَائِلِ رَاجِعَةٌ إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِنِ اخْتَصَّتْ بِبَعْضِ الْبُيُوتِ الْمُصْطَنِعِينَ فِي دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ تُجْمَعُ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تُفَرَّقُ وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحَجْبُهُ عَنِ الْعَامَّةِ فَهِيَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيُسَمَّى صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمِزْوَارِ وَمَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجَنَادِرَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِي تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ وَتَصْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ وَإِنْزَالِ سَطَوَاتِهِ وَحِفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهِ وَالْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ فَالْبَابُ لَهُ وَأَخْذُ النَّاسِ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَّةِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ فَكَأَنَّهَا وِزَارَةٌ صُغْرَى. وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ وَلَا تَمْيِيزَ الْخِطَطِ لِبَدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخُصُّونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مُنَفِّذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْحُسْبَانَ وَالسِّجِلَّ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي تَبَعِيَّتِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَالْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحُسْبَانِ وَتَنْفِيذِ حَالِ السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ يُسَمُّونَهُ بِالْوَكِيلِ وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السِّجِلَّاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ الْعَلَامَةِ كَمَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الدُّوَلِ. وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ الشَّوْكَةِ وَهُمُ التُّرْكُ يُنَفِّذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْوَظِيفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيفَةِ النِّيَابَةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ التَّوْلِيَةُ وَالْعَزْلُ فِي بَعْضِ الْوَظَائِفِ عَلَى الْأَحْيَانِ وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيَبُتُّهَا وَتُنَفَّذُ أَوَامِرُهُ كَمَا تُنَفَّذُ الْمَرَاسِمُ السُّلْطَانِيَّةُ وَكَانَ لَهُ النِّيَابَةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ وَلِلْحُجَّابِ الْحُكْمُ فَقَطْ فِي طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ وَإِجْبَارِ مَنْ أَبَى الِانْقِيَادَ لِلْحُكْمِ وَطَوْرُهُمْ تَحْتَ طَوْرِ النِّيَابَةِ وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جِبَايَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ ثُمَّ فِي تَصْرِيفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ

أَوِ ٱلْجِرَايَاتِ ٱلْمُقَدَّرَةِ وَلَهُ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّوْلِيَةُ وَٱلْعَزْلُ فِي سَائِرِ ٱلْعُمَّالِ ٱلْمُبَاشِرِينَ لِهٰذِهِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلتَّنْفِيذِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَتَبَايُنِ أَصْنَافِهِمْ وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَكُونَ هٰذَا ٱلْوَزِيرُ مِنْ صِنْفِ ٱلْقِبْطِ ٱلْقَائِمِينَ عَلَى دِيوَانِ ٱلْحُسْبَانِ وَٱلْجِبَايَةِ لِٱخْتِصَاصِهِمْ بِذٰلِكَ فِي مِصْرَ مُنْذُ عُصُورٍ قَدِيمَةٍ وَقَدْ يُوَلِّيهَا ٱلسُّلْطَانُ بَعْضَ ٱلْأَحْيَانِ لِأَهْلِ ٱلشَّوْكَةِ مِنْ رِجَالَاتِ ٱلتُّرْكِ أَوْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى حَسَبِ ٱلدَّاعِيَةِ لِذٰلِكَ وَٱللّٰهُ مُدَبِّرُ ٱلْأُمُورِ وَمُصَرِّفُهَا بِحِكْمَتِهِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ

ديوان الاعمال والجبايات

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةَ مِنَ ٱلْوَظَائِفِ ٱلضَّرُورِيَّةِ لِلْمُلْكِ وَهِيَ ٱلْقِيَامُ عَلَى أَعْمَالِ ٱلْجِبَايَاتِ وَحِفْظُ حُقُوقِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَإِحْصَاءُ ٱلْعَسَاكِرِ بِأَسْمَائِهِمْ وَتَقْدِيرِ أَرْزَاقِهِمْ وَصَرْفِ أَعْطِيَاتِهِمْ فِي إِبَّانَاتِهَا وَٱلرُّجُوعُ فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْقَوَانِينِ ٱلَّتِي يُرَتِّبُهَا قَوَمَةُ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَقَهَارِمَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا مَسْطُورَةٌ فِي كِتَابٍ شَاهِدٍ بِتَفَاصِيلِ ذٰلِكَ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ مَبْنِيٍّ عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ ٱلْحِسَابِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا ٱلْمَهَرَةُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَيُسَمَّى ذٰلِكَ ٱلْكِتَابُ بِٱلدِّيوَانِ وَكَذٰلِكَ مَكَانُ جُلُوسِ ٱلْعُمَّالِ ٱلْمُبَاشِرِينَ لَهَا * وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَ هٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةِ أَنَّ كِسْرَى نَظَرَ يَوْمًا إِلَى كُتَّابِ دِيوَانِهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَأَنَّهُمْ يُحَادِثُونَ فَقَالَ دِيوَانَهْ أَيْ مَجَانِينُ بِلُغَةِ ٱلْفُرْسِ فَسُمِّيَ مَوْضِعُهُمْ بِذٰلِكَ وَحُذِفَتِ ٱلْهَاءُ لِكَثْرَةِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ تَخْفِيفًا فَقِيلَ دِيوَانٌ ثُمَّ نُقِلَ هٰذَا ٱلِٱسْمُ إِلَى كِتَابِ هٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتَضَمِّنِ لِلْقَوَانِينِ وَٱلْحُسْبَانَاتِ وَقِيلَ إِنَّهُ ٱسْمٌ لِلشَّيَاطِينِ بِٱلْفَارِسِيَّةِ سُمِّيَ ٱلْكُتَّابُ بِذٰلِكَ لِسُرْعَةِ نُفُوذِهِمْ فِي فَهْمِ ٱلْأُمُورِ وَوُقُوفِهِمْ عَلَى ٱلْجَلِيِّ مِنْهَا وَٱلْخَفِيِّ وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَذَّ وَتَفَرَّقَ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَكَانِ جُلُوسِهِمْ لِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَعَلَى هٰذَا فَيَتَنَاوَلُ ٱسْمُ ٱلدِّيوَانِ كِتَابَ ٱلرَّسَائِلِ وَمَكَانَ جُلُوسِهِ بِبَابِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى مَا يَأْتِي بَعْدُ وَقَدْ تُفْرَدُ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ بِنَاظِرٍ وَاحِدٍ يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ وَقَدْ يُفْرَدُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا بِنَاظِرٍ كَمَا يُفْرَدُ فِي بَعْضِ ٱلدُّوَلِ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْعَسَاكِرِ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ وَحُسْبَانِ أَعْطِيَاتِهِمْ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أَوَّلُوهَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي ٱلدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ ٱلْغَلَبِ وَٱلِٱسْتِيلَاءِ وَٱلنَّظَرِ فِي أَعْطَافِ ٱلْمُلْكِ وَفُنُونِ ٱلتَّمْهِيدِ وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ ٱلدِّيوَانَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ

رضي الله عنه يقال لسبب مال أتى به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين فاستكثروه وتعبوا في قسمه فسموا إلى إحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقيل له ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فإن من تخلف أخل بمكانه وإنما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا وسأل عمر عن اسم الديوان فعبر له ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة ابن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الأقرب فالأقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروى الزهري بن سعيد بن المسيب أن ذلك كان في المحرم سنة عشرين وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والي الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فأكمله لسنة من يوم ابتدائه ووقف عليه سرجون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم . وأما ديوان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله ولما قتل زادان في حرب عبد الرحمن ابن الأشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل ورغم لذلك كتاب الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة إلى من كان له النظر فيه كما كان شأن بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة . وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتمييز النواحي بالصلح والعنوة وفي تقليد

هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسبانات فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وإنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانه لأن الملك لابد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رئاسة الملك وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها. ولما استبد بنو أبي حفص بإفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الأشغال كما كان لهم بالأندلس وداولوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤوساً للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة. وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسبانات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخارج والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان. وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغة فتعين للنظر العام

منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالي السلطان وأهل عصبيته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظره ويجتهد جهده في متابعته ويسمى عندهم أستاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسبان مقصورة النظر إلى أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعاته أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار وإن كان الوزير من الجند فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص . هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الأمور لا رب غيره

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه وإلصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولا أو آخرا على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم

بعلامة الرئيس عليه يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة إتباعاً لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويتخير له من صيغ الإنفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان لنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته * ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فإما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها وكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول * واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سذاجة العصبية فيختص السلطان أهل عصبيته بخطط دولته وسائر رتبه فيقلد المال والسيف والكتابة منهم فأما رتبة السيف فتستغني عن معاناة العلم وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك البلاغة في هذه والحسبان في الأخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة ويقلدونه إلا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالبة على يده ويكون نظره منصرفاً عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فإن الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء إلا أنه تحت يد أمير من أهل

عصبيّة السّلطان يعرف بالدّويدار وتعويل السّلطان ووثوقه به واستنامته في غالب أحواله إليه وتعويله على الآخر في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الأسرار وغير ذلك من توابعها * وأمّا الشّروط المعتبرة في صاحب هذه الرّتبة الّتي يلاحظها السّلطان في اختياره وانتقائه من أصناف النّاس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتّاب وهي أمّا بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم فإنّ الله عزّ وجلّ جعل النّاس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرّمين أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرّفهم في صنوف الصّناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتّاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرّزانة بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كاف إلاّ منكم فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم الّتي بها يسمعون وأبصارهم الّتي بها يبصرون وألسنتهم الّتي بها ينطقون وأيديهم الّتي بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النّعمة عليكم وليس أحد من أهل الصّناعات كلّها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيّها الكتّاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فإنّ الكاتب يحتاج في نفسه ويحتاج منه صاحبه الّذي يثق به في مهمّات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم فهيماً في موضع الحكم مقداماً في موضع الإقدام محجماً في موضع الإحجام مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف كتوماً للأسرار وفيّاً عند الشّدائد عالماً بما يأتي من النّوازل يضع الأمور مواضعها والطّوارق في أماكنها قد نظر في كلّ فنّ من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعدّ لكلّ أمر عدّته وعتاده ويهيّئ لكلّ وجه هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب وتفقّهوا في الدّين وابدأوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ والفرائض ثمّ العربيّة فإنّها ثقاف ألسنتكم ثمّ أجيدوا الخطّ فإنّه حلية

كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها
وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب
فإنه قوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف
الأمور ومحاقرها فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة
واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكبر
والسخف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم
وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم، وإن نبا الزمان
برجل منكم فاعطفوا عليه وآسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره، وإن أقعد
أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا
بفضل تجربته وقديم معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم
حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه، فإن عرضت في الشغل محمدة فلا يصفها إلا إلى
صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه، وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير
الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء، وهو لكم أفسد منه لهم، فقد
علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب
عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره
ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه، فاستشعروا
ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمؤاساة والإحسان
والسراء والضراء، فنعمت السيمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، وإذا
ولي الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر
طاعته، وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه
أرفقهم بعياله، ثم ليكن بالعدل حاكماً وللأشراف مكرماً وللفيء موفراً وللبلاد
عامراً وللرعية متألفاً وعن أذاهم متخلفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفي سجلات
خراجه واستقضاء حقوقه رفيقاً، وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه فإذا عرف
حسنها وقبحها أعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح
بألطف حيلة وأجمل وسيلة، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها

ٱلْتَمِسَ مَعْرِفَةَ أَخْلَاقِهَا فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحًا لَمْ يَهِجْهَا إِذَا رَكِبَهَا وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا ٱتَّقَاهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شَرُودًا تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَرُونًا قَمَعَ بِرِفْقٍ هَوَاهَا فِي طُرُقِهَا فَإِنِ ٱسْتَمَرَّتْ عَطَفَهَا يَسِيرًا فَيَسْلَسُ لَهُ قِيَادُهَا وَفِي هٰذَا ٱلْوَصْفِ مِنَ ٱلسِّيَاسَةِ دَلَائِلُ لِمَنْ سَاسَ ٱلنَّاسَ وَعَامَلَهُمْ وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ وَٱلْكَاتِبُ بِفَضْلِ أَدَبِهِ وَشَرِيفِ صَنْعَتِهِ وَلَطِيفِ حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ يُحَاوِرُهُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُنَاظِرُهُ وَيَفْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطْوَتَهُ أَوْلَى بِٱلرِّفْقِ لِصَاحِبِهِ وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمِ أَوَدِهِ مِنْ سَائِسِ ٱلْبَهِيمَةِ ٱلَّتِي لَا تُحِيرُ جَوَابًا وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَفْهَمُ خِطَابًا إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا ٱلرَّاكِبُ عَلَيْهَا أَلَا فَٱرْفُقُوا رَحِمَكُمُ ٱللّٰهُ فِي ٱلنَّظَرِ وَٱعْمَلُوا مَا أَمْكَنَكُمْ فِيهِ مِنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَٱلْفِكْرِ تَأْمَنُوا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ ٱلنَّبْوَةَ وَٱلِٱسْتِثْقَالَ وَٱلْجَفْوَةَ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى ٱلْمُوَافَقَةِ وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى ٱلْمُؤَاخَاةِ وَٱلشَّفَقَةِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ وَلَا يُجَاوِزَنَّ ٱلرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبِنَائِهِ وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ فُنُونِ أَمْرِهِ قَدْرَ حَقِّهِ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمُ ٱللّٰهُ بِهِ مِنْ شَرَفِ صَنْعَتِكُمْ خَدَمَةٌ لَا تُحْمَلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى ٱلتَّقْصِيرِ وَحَفَظَةٌ لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ ٱلتَّضْيِيعِ وَٱلتَّبْذِيرِ وَٱسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِٱلْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ وَٱحْذَرُوا مَتَالِفَ ٱلسَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ ٱلتَّرَفِ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ ٱلْفَقْرَ وَيُذِلَّانِ ٱلرِّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا وَلَا سِيَّمَا ٱلْكُتَّابَ وَأَرْبَابَ ٱلْآدَابِ وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهٌ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ فَٱسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتُكُمْ ثُمَّ ٱسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ ٱلتَّدْبِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةً وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتْلِفَةً وَهُوَ ٱلْوَصْفُ ٱلشَّاغِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْفَاذِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ فَلْيَقْصِدِ ٱلرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ ٱلْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ وَلْيُوجِزْ فِي ٱبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفِعْلِهِ وَمَدْفَعَةٌ لِلتَّشَاغُلِ عَنْ إِكْثَارِهِ وَلْيَضْرَعْ إِلَى ٱللّٰهِ فِي صِلَةِ تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةَ وُقُوعِهِ فِي ٱلْغَلَطِ ٱلْمُضِرِّ بِبَدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانٌّ أَوْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّ ٱلَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ فَقَدْ تَعَرَّضَ بِظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ وَذٰلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِٱلْأُمُورِ وَأَحْمَلُ

لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمي بالعجب وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأحمد في طريقته وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده فإن ذلك إليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(الشرطة) * ويسمى صاحبها لهذا العهد بأفريقية الحاكم وفي دولة أهل الأندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك الوالي وهي وظيفة مرؤوسة لصاحب السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدادها أولاً ثم الحدود بعد استيفائها فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك فكان الذي يقوم بهذا الاستبداد وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق وأفردوها من نظر القاضي ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب والضرب على أيدي الرعاع والفجرة ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه وكانت

وِلَايَتُهَا لِلْأَكَابِرِ مِنْ رِجَالَاتِ ٱلدَّوْلَةِ حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيحاً لِلْوِزَارَةِ وَٱلْحِجَابَةِ

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِٱلْمَغْرِبِ فَكَانَ لَهَا حَظٌّ مِنَ ٱلتَّنْوِيهِ وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُوهَا عَامَّةً وَكَانَ لَا يَلِيهَا إِلَّا رِجَالَاتُ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَكُبَرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ٱلتَّحَكُّمُ عَلَى أَهْلِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ثُمَّ فَسَدَ ٱلْيَوْمَ مَنْصِبُهَا وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَصَارَتْ وِلَايَتُهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِينَ. وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مَرِينَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ فَوِلَايَتُهَا فِي بُيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ ٱصْطِنَاعِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ فِي رِجَالَاتِ ٱلتُّرْكِ أَوْ أَعْقَابِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلتُّرْكِ يَتَخَيَّرُونَهُمْ لَهَا فِي ٱلنَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنَ ٱلصَّلَابَةِ وَٱلْمَضَاءِ فِي ٱلْأَحْكَامِ لِقَطْعِ مَوَادِّ ٱلْفَسَادِ وَحَسْمِ أَبْوَابِ ٱلدَّعَارَةِ وَتَخْرِيبِ مَوَاطِنِ ٱلْفُسُوقِ وَتَفْرِيقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَٱلسِّيَاسِيَّةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ رِعَايَةُ ٱلْمَصَالِحِ ٱلْعَامَّةِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَٱللّٰهُ مُقَلِّبُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

(قيادة الاساطيل) * وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ ٱلدَّوْلَةِ وَخُطَطِهَا فِي مُلْكِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَمَرْؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ ٱلسَّيْفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِي عُرْفِهِمِ ٱلْبَلْمَنْدَ بِتَفْخِيمِ ٱللَّامِ مَنْقُولاً مِنْ لُغَةِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّهُ ٱسْمُهَا فِي ٱصْطِلَاحِ لُغَتِهِمْ وَإِنَّمَا ٱخْتَصَّتْ هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةُ بِمُلْكِ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّهُمَا جَمِيعاً عَلَى ضِفَّةِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ ٱلْبَرْبَرِ كُلِّهِمْ مِنْ سَبْتَةَ إِلَى ٱلشَّامِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ ٱلشَّمَالِيَّةِ بِلَادُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلصَّقَالِبَةِ وَٱلرُّومِ إِلَى بِلَادِ ٱلشَّامِ أَيْضاً وَيُسَمَّى ٱلْبَحْرَ ٱلرُّومِيَّ وَٱلْبَحْرَ ٱلشَّامِيَّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدْوَتِهِ وَٱلسَّاكِنُونَ بِسِيفِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عُدْوَتَيْهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا لَا تُعَانِيهِ أُمَّةٌ مِنْ أُمَمِ ٱلْبِحَارِ فَقَدْ كَانَتِ ٱلرُّومُ وَٱلْإِفْرَنْجَةُ وَٱلْقُوطُ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي ٱلسُّفُنِ فَكَانُوا مَهَرَةً فِي رُكُوبِهِ وَٱلْحَرْبِ فِي أَسَاطِيلِهِ وَلَمَّا أَسَفَّ مَنْ أَسَفَّ مِنْهُمْ إِلَى مُلْكِ ٱلْعُدْوَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِثْلَ ٱلرُّومِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْقُوطِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِي ٱلْأَسَاطِيلِ وَمَلَكُوهَا وَتَغَلَّبُوا عَلَى ٱلْبَرْبَرِ بِهَا وَٱنْتَزَعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا ٱلْمُدُنُ ٱلْحَافِلَةُ مِثْلَ قَرْطَاجَنَّةَ وَسَبِيطَلَةَ وَجَلُولَاءَ وَمَرْنَاقَ وَشَرْشَالَ وَطَنْجَةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجَنَّةَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَبْعَثُ ٱلْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِٱلْعَسَاكِرِ وَٱلْعُدَدِ فَكَانَتْ هٰذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ

السَّاكنينَ حفافيه معرُوفَةٌ فِي ٱلْقَدِيمِ وَٱلْحَدِيثِ وَلَمَّا مَلَكَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِصْرَ كَتَبَ عُمَرُ ٱبْنُ ٱلْخَطَّابِ إِلَى عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمَا أَنْ صِفْ لِيَ ٱلْبَحْرَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنَّ ٱلْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيمٌ يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ دُودٌ عَلَى عُودٍ فَأَوْعَزَ حِينَئِذٍ بِمَنْعِ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ رُكُوبِهِ وَلَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ إِلَّا مَنِ ٱفْتَاتَ عَلَى عُمَرَ فِي رُكُوبِهِ وَنَالَ مِنْ عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ ٱلْأَزْدِيِّ سَيِّدِ بَجِيلَةَ لَمَّا أَغْزَاهُ عُمَانَ فَبَلَغَهُ غَزْوُهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنَّفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ لِلْغَزْوِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلشَّأْنُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ أَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رُكُوبِهِ وَٱلْجِهَادِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لِبَدَاوَتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مَهَرَةً فِي ثِقَافَتِهِ وَرُكُوبِهِ وَٱلرُّومُ وَٱلْإِفْرَنْجَةُ لِمُمَارَسَتِهِمْ أَحْوَالَهُ وَمَرْبَاهُمْ فِي ٱلتَّقَلُّبِ عَلَى أَعْوَادِهِ مَرَنُوا عَلَيْهِ وَأَحْكَمُوا ٱلدِّرَايَةَ بِثِقَافَتِهِ فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ ٱلْمُلْكُ لِلْعَرَبِ وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ وَصَارَتْ أُمَمُ ٱلْعَجَمِ خَوَلًا لَهُمْ وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ وَٱسْتَخْدَمُوا مِنَ ٱلنَّوَاتِيَّةِ فِي حَاجَاتِهِمِ ٱلْبَحْرِيَّةِ أُمَمًا وَتَكَرَّرَتْ مُمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثِقَافَتِهِ وَٱسْتَحْدَثُوا بُصَرَاءَ بِهَا فَشَرِهُوا إِلَى ٱلْجِهَادِ فِيهِ وَأَنْشَأُوا ٱلسُّفُنَ فِيهِ وَٱلشَّوَانِيَ وَشَحَنُوا ٱلْأَسَاطِيلَ بِٱلرِّجَالِ وَٱلسِّلَاحِ وَأَمْطَوْهَا ٱلْعَسَاكِرَ وَٱلْمُقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ ٱلْبَحْرِ مِنْ أُمَمِ ٱلْكُفْرِ وَٱخْتَصُّوا بِذَلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَثُغُورِهِمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهَذَا ٱلْبَحْرِ وَعَلَى حَافَتِهِ مِثْلَ ٱلشَّامِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَأَوْعَزَ ٱلْخَلِيفَةُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ٱلنُّعْمَانِ عَامِلِ أَفْرِيقِيَّةَ بِٱتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةٍ بِتُونِسَ لِإِنْشَاءِ ٱلْآلَاتِ ٱلْبَحْرِيَّةِ حِرْصًا عَلَى مَرَاسِمِ ٱلْجِهَادِ وَمِنْهَا كَانَ فَتْحُ صِقِلِّيَةَ أَيَّامَ زِيَادَةِ ٱللّٰهِ ٱلْأَوَّلِ ٱبْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْأَغْلَبِ عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ ٱلْفُرَاتِ شَيْخِ ٱلْفُتْيَا وَفَتْحُ قُوصَرَةَ أَيْضًا فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ أَغْزَى صِقِلِّيَةَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَلَمْ يَفْتَحِ ٱللّٰهُ عَلَى يَدَيْهِ وَفُتِحَتْ عَلَى يَدِ ٱبْنِ ٱلْأَغْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدِ بْنِ ٱلْفُرَاتِ وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَسَاطِيلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْأَنْدَلُسِ فِي دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَٱلْأُمَوِيِّينَ تَتَعَاقَبُ إِلَى بِلَادِهِمَا فِي سَبِيلِ ٱلْفِتْنَةِ فَتَجُوسُ خِلَالَ ٱلسَّوَاحِلِ بِٱلْإِفْسَادِ وَٱلتَّخْرِيبِ وَٱنْتَهَى أُسْطُولُ ٱلْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ إِلَى مِائَتَيْ مَرْكَبٍ أَوْ نَحْوِهَا وَأُسْطُولُ أَفْرِيقِيَّةَ كَذَلِكَ مِثْلُهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ وَكَانَ قَائِدُ ٱلْأَسَاطِيلِ بِٱلْأَنْدَلُسِ ٱبْنُ دُمَاحِسَ وَمَرْفَأُهَا لِلْحَطِّ وَٱلْإِقْلَاعِ بِجَايَةُ وَٱلْمَرِيَّةُ وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ سَائِرِ ٱلْمَمَالِكِ

مِنْ كُلِّ بَلَدٍ تُتَّخَذُ فِيهِ السُّفُنُ أُسْطُولٌ يُرْجِعُ نَظَرَهُ إِلَى قَائِدٍ مِنَ النَّوَاتِيَةِ يُدَبِّرُ أَمْرَ حَرْبِهِ وَسِلَاحِهِ وَمُقَاتَلَتِهِ وَرَئِيسٌ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَرْيَتِهِ بِالرِّيحِ أَوْ بِالْمَجَاذِيفِ وَأَمْرَ إِرْسَائِهِ فِي مَرْفَئِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لِغَزْوٍ مُحْتَفَلٍ أَوْ غَرَضٍ سُلْطَانِيٍّ مُهِمٍّ عَسْكَرَتْ بِمَرْفَئِهَا الْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادِ عَسَاكِرِهِ وَمَوَالِيهِ وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لِوَجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ إِيَابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هٰذَا الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلْأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ قِبَلٌ بِأَسَاطِيلِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَانِبِهِ وَامْتَطَوْا ظَهْرَهُ لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ فَكَانَتْ لَهُمُ الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَمَلَكُوا سَائِرَ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنِ السَّوَاحِلِ فِيهِ مِثْلَ مَيُورْقَةَ وَمَنُورْقَةَ وَيَابِسَةَ وَسَرْدَانِيَةَ وَصِقِلِّيَّةَ وَقَوْصَرَّةَ وَمَالِطَةَ وَأَقْرِيطِشَ وَقُبْرُسَ وَسَائِرِ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِ وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الشِّيعِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يَغْزُونَ أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنْوَةَ فَتَنْقَلِبُ بِالظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ وَافْتَتَحَ مُجَاهِدٌ الْعَامِرِيُّ صَاحِبُ دَانِيَةَ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ جَزِيرَةَ سَرْدَانِيَةَ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَارْتَجَعَهَا النَّصَارَى لِوَقْتِهَا وَالْمُسْلِمُونَ خِلَالَ ذٰلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هٰذَا الْبَحْرِ وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَةً وَذَاهِبَةً وَالْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُجِيزُ الْبَحْرَ فِي الْأَسَاطِيلِ مِنْ صِقِلِّيَّةَ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمُقَابِلِ لَهَا مِنَ الْعُدْوَةِ الشَّمَالِيَّةِ فَتُوقِعُ بِمُلُوكِ الْإِفْرَنْجِ وَتُثْخِنُ فِي مَمَالِكِهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْحُسَيْنِ مُلُوكِ صِقِلِّيَّةَ الْقَائِمِينَ فِيهَا بِدَعْوَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَانْحَازَتْ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مِنْ سَوَاحِلِ الْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لَا يَعْدُونَهَا وَأَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءَ الْأَسَدِ عَلَى فَرِيسَتِهِ وَقَدْ مَلَأَتِ الْأَكْثَرَ مِنْ بَسِيطِ هٰذَا الْبَحْرِ عُدَّةً وَعَدَدًا وَاخْتَلَفَتْ فِي طُرُقِهِ سِلْمًا وَحَرْبًا فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ أَلْوَاحٌ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَ الدَّوْلَةَ الْعُبَيْدِيَّةَ وَالْأُمَوِيَّةَ الْفَشَلُ وَالْوَهَنُ وَطَرَقَهَا الْاِعْتِلَالُ مَدَّ النَّصَارَى أَيْدِيَهُمْ إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيَّةِ مِثْلِ صِقِلِّيَّةَ وَإِقْرِيطِشَ وَمَالِطَةَ فَمَلَكُوهَا ثُمَّ أَلَحُّوا عَلَى سَوَاحِلِ الشَّامِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلَانَ وَصُورَ وَعَكَّاءَ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِ الثُّغُورِ بِسَوَاحِلِ الشَّامِ وَغَلَبُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبَنَوْا عَلَيْهِ كَنِيسَةً لِمَظْهَرِ دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَغَلَبُوا

بَنِي خَزْرُونَ عَلَى طَرَابُلُسَ ثُمَّ عَلَى قَابِسَ وَصَفَاقِسَ وَوَضَعُوا عَلَيْهِمِ ٱلْجِزْيَةَ ثُمَّ مَلَكُوا ٱلْمَهْدِيَّةَ مَقَرَّ مُلُوكِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ مِنْ يَدِ أَعْقَابِ بَلُكِّينَ بْنِ زِيرِي وَكَانَتْ لَهُمْ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ ٱلْكَرَّةُ بِهٰذَا ٱلْبَحْرِ وَضَعُفَ شَأْنُ ٱلْأَسَاطِيلِ فِي دَوْلَةِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ إِلَى أَنِ ٱنْقَطَعَ وَلَمْ يَعْتَنُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيَّةِ عِنَايَةٌ تَجَاوَزَتِ ٱلْحَدَّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ فَبَطَلَ رَسْمُ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ هُنَالِكَ وَبَقِيَتْ بِإِفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ فَصَارَتْ مُخْتَصَّةً بِهَا وَكَانَ ٱلْجَانِبُ ٱلْغَرْبِيُّ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَوْفُورَ ٱلْأَسَاطِيلِ ثَابِتَ ٱلْقُوَّةِ لَمْ يَتَحَيَّفْهُ عَدُوٌّ وَلَا كَانَتْ لَهُمْ بِهِ كَرَّةٌ فَكَانَ قَائِدُ ٱلْأُسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ لِمْتُونَةَ بَنِي مَيْمُونَ رُؤَسَاءَ جَزِيرَةِ قَادِسَ وَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَٱنْتَهَى عَدَدُ أَسَاطِيلِهِمْ إِلَى ٱلْمِائَةِ مِنْ بِلَادِ ٱلْعُدْوَتَيْنِ جَمِيعًا * وَلَمَّا ٱسْتَفْحَلَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلسَّادِسَةِ وَمَلَكُوا ٱلْعُدْوَتَيْنِ أَقَامُوا خِطَّةَ هٰذَا ٱلْأُسْطُولِ عَلَى أَتَمِّ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمِ مَا عُهِدَ وَكَانَ قَائِدُ أُسْطُولِهِمْ أَحْمَدَ ٱلصِّقِلِّيَّ أَصْلُهُ مِنْ صَدَّغْيَارَ ٱلْمُوَطَّنِينَ بِجَزِيرَةِ شَرِيكِشَ أَسَرَهُ ٱلنَّصَارَى مِنْ سَوَاحِلِهَا وَرَبِيَ عِنْدَهُمْ وَٱسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صِقِلِّيَّةَ وَٱسْتَكْفَاهُ ثُمَّ هَلَكَ وَوَلِيَ ٱبْنُهُ فَأَسْخَطَهُ بِبَعْضِ ٱلنَّزَعَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَحِقَ بِتُونِسَ وَنَزَلَ عَلَى ٱلسَّيِّدِ بِهَا مِنْ بَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَأَجَازَ مَرَّاكُشَ فَتَلَقَّاهُ ٱلْخَلِيفَةُ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ بِٱلْمَبَرَّةِ وَٱلْكَرَامَةِ وَأَجْزَلَ ٱلصِّلَةَ وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أَسَاطِيلِهِ فَجَلَّى فِي جِهَادِ أُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَتْ لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ * وَٱنْتَهَتْ أَسَاطِيلُ ٱلْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي ٱلْكَثْرَةِ وَٱلِٱسْتِجَادَةِ إِلَى مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ فِيمَا عَهِدْنَاهُ وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ مَلِكُ مِصْرَ وَٱلشَّامِ لِعَهْدِهِ بِٱسْتِرْجَاعِ ثُغُورِ ٱلشَّامِ مِنْ يَدِ أُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ تَتَابَعَتْ أَسَاطِيلُهُمْ بِٱلْمَدَدِ لِتِلْكَ ٱلثُّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ ٱلَّذِي كَانُوا قَدِ ٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ فَأَمَدُّوهُمْ بِٱلْعَدَدِ وَٱلْأَقْوَاتِ وَلَمْ تُقَاوِمْهُمْ أَسَاطِيلُ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ لِٱسْتِمْرَارِ ٱلْغَلَبِ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنَ ٱلْبَحْرِيَّةِ وَتَعَدُّدِ أَسَاطِيلِهِمْ فِيهِ وَضُعْفِ ٱلْمُسْلِمِينَ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ قَبْلُ فَأَوْفَدَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ عَلَى أَبِي يَعْقُوبَ ٱلْمَنْصُورِ سُلْطَانِ ٱلْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ ٱلْمُوَحِّدِينَ رَسُولَهُ عَبْدَ ٱلْكَرِيمِ بْنَ مُنْقِذٍ مِنْ بَيْتِ بَنِي مُنْقِذٍ

مُلُوكِ شَيْزَرَ وَكَانَ مَلَكَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَبْقَى عَلَيْهِمْ فِي دَوْلَتِهِ فَبَعَثَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ مِنْهُمْ
هٰذَا إِلَى مَلِكِ ٱلْمَغْرِبِ طَالِبًا مَدَدَ ٱلْأَسَاطِيلِ لِتَحُولَ فِي ٱلْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ ٱلْأَجَانِبِ
وَبَيْنَ مَرَامِيهِمْ مِنْ أَمْدَادِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ بِثُغُورِ ٱلشَّامِ وَأَصْحَبَهُ كِتَابَهُ إِلَيْهِ فِي ذٰلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ
ٱلْفَاضِلِ ٱلْبَيْسَانِيِّ يَقُولُ فِي ٱفْتِتَاحِهِ فَتَحَ ٱللّٰهُ لِسَيِّدِنَا أَبْوَابَ ٱلْمَنَاجِحِ وَٱلْمَيَامِنِ حَسْبَمَا
نَقَلَهُ ٱلْعِمَادُ ٱلْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ ٱلْفَتْحِ ٱلْقُدْسِيِّ فَنَقَمَ عَلَيْهِمِ ٱلْمَنْصُورُ تَجَافِيَهُمْ عَنْ
خِطَابِهِ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَسَرَّهَا فِي نَفْسِهِ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَاهِجِ ٱلْبِرِّ وَٱلْكَرَامَةِ وَرَدَّهُمْ
إِلَى مُرْسِلِهِمْ وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذٰلِكَ وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ عَلَى ٱخْتِصَاصِ مَلِكِ ٱلْمَغْرِبِ
بِٱلْأَسَاطِيلِ وَمَا حَصَلَ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنَ ٱلِٱسْتِطَالَةِ وَعَدَمِ
عِنَايَةِ ٱلدُّوَلِ بِمِصْرَ وَٱلشَّامِ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ وَمَا بَعْدَهُ لِشَأْنِ ٱلْأَسَاطِيلِ ٱلْبَحْرِيَّةِ وَٱلِٱسْتِعْدَادِ
مِنْهَا لِلدَّوْلَةِ وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَعْقُوبَ ٱلْمَنْصُورُ وَٱعْتَلَّتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَٱسْتَوْلَتْ أُمَمُ
ٱلْجَلَالِقَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ مِنْ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَأَلْجَأُوا ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى سِيفِ ٱلْبَحْرِ وَمَلَكُوا
ٱلْجَزَائِرَ ٱلَّتِي بِٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ قَوِيَتْ رِيحُهُمْ فِي بَسِيطِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَٱشْتَدَّتْ
شَوْكَتُهُمْ وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى ٱلْمُسَاوَاةِ مَعَهُمْ
كَمَا وَقَعَ لِعَهْدِ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي ٱلْحَسَنِ مَلِكِ زَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ كَانَتْ عِنْدَ
مَرَامِهِ ٱلْجِهَادَ مِثْلَ عُدَّةِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَعَدِيدِهِمْ ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذٰلِكَ قُوَّةُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي
ٱلْأَسَاطِيلِ لِضُعْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِ ٱلْبَحْرِ بِكَثْرَةِ ٱلْعَوَائِدِ ٱلْبَدَوِيَّةِ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱنْقِطَاعِ
ٱلْعَوَائِدِ ٱلْأَنْدَلُسِيَّةِ وَرَجَعَ ٱلنَّصَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمِ ٱلْمَعْرُوفِ مِنَ ٱلدُّرْبَةِ فِيهِ وَٱلْمِرَانِ
عَلَيْهِ وَٱلْبَصَرِ بِأَحْوَالِهِ وَغَلَبِ ٱلْأُمَمِ فِي لُجَّتِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَصَارَ ٱلْمُسْلِمُونَ فِيهِ كَٱلْأَجَانِبِ
إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ ٱلْبِلَادِ ٱلسَّاحِلِيَّةِ لَهُمُ ٱلْمِرَانُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدُوا كَثْرَةً مِنَ ٱلْأَنْصَارِ
وَٱلْأَعْوَانِ أَوْ قُوَّةً مِنَ ٱلدَّوْلَةِ تَسْتَجِيشُ لَهُمْ أَعْوَانًا وَتُوضِحُ لَهُمْ فِي هٰذَا ٱلْغَرَضِ مَسْلَكًا
وَبَقِيَتِ ٱلرُّتْبَةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مَحْفُوظَةً وَٱلرَّسْمُ فِي مُعَانَاةِ ٱلْأَسَاطِيلِ بِٱلْإِنْشَاءِ
وَٱلرُّكُوبِ مَعْهُودًا لِمَا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُوَ إِلَيْهِ ٱلْحَاجَةُ مِنَ ٱلْأَغْرَاضِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ فِي ٱلْبِلَادِ
ٱلْبَحْرِيَّةِ وَٱلْمُسْلِمُونَ يَسْتَهِبُّونَ ٱلرِّيحَ عَلَى ٱلْكُفْرِ وَأَهْلِهِ فَمِنَ ٱلْمُشْتَهِرِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ
عَنْ كُتُبِ ٱلْحِدْثَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ ٱلْكَرَّةِ عَلَى ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَٱفْتِتَاحِ مَا وَرَاءَ
ٱلْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ وَأَنَّ ذٰلِكَ يَكُونُ فِي ٱلْأَسَاطِيلِ وَٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ

حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلسَّيْفَ وَٱلْقَلَمَ كِلَاهُمَا آلَةٌ لِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ بِهِمَا عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلْحَاجَةَ فِي أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى ٱلسَّيْفِ مَا دَامَ أَهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ أَشَدُّ مِنَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْقَلَمِ لِأَنَّ ٱلْقَلَمَ فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ خَادِمٌ فَقَطْ مُنَفِّذٌ لِلْحُكْمِ ٱلسُّلْطَانِيِّ وَٱلسَّيْفُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمَعُونَةِ وَكَذٰلِكَ فِي آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ حَيْثُ تَضْعُفُ عَصَبِيَّتُهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيَقِلُّ أَهْلُهَا بِمَا يَنَالُهُمْ مِنَ ٱلْهَرَمِ ٱلَّذِي قَدَّمْنَاهُ فَتَحْتَاجُ ٱلدَّوْلَةُ إِلَى ٱلِاسْتِظْهَارِ بِأَرْبَابِ ٱلسُّيُوفِ وَتَقْوَى ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ ٱلشَّأْنُ أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ فِي تَمْهِيدِهَا فَيَكُونُ لِلسَّيْفِ مَزِيَّةٌ عَلَى ٱلْقَلَمِ فِي ٱلْحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أَرْبَابُ ٱلسَّيْفِ حِينَئِذٍ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَكْثَرَ نِعْمَةً وَأَسْنَى إِقْطَاعًا وَأَمَّا فِي وَسَطِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَسْتَغْنِي صَاحِبُهَا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَنِ ٱلسَّيْفِ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَبْقَ هَمُّهُ إِلَّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلضَّبْطِ وَمُبَاهَاةِ ٱلدُّوَلِ وَتَنْفِيذِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلْقَلَمُ هُوَ ٱلْمُعِينُ لَهُ فِي ذٰلِكَ فَتَعْظُمُ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَصْرِيفِهِ وَتَكُونُ ٱلسُّيُوفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أَغْمَادِهَا إِلَّا إِذَا أَنَابَتْ نَائِبَةٌ أَوْ دُعِيَتْ إِلَى سَدِّ فُرْجَةٍ وَمِمَّا سِوَى ذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فَتَكُونُ أَرْبَابُ ٱلْأَقْلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَعْلَى رُتْبَةً وَأَعْظَمَ نِعْمَةً وَثَرْوَةً وَأَقْرَبَ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ مَجْلِسًا وَأَكْثَرَ إِلَيْهِ تَرَدُّدًا وَفِي خَلَوَاتِهِ نَجِيًّا لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ آلَتُهُ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَظْهِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ وَٱلنَّظَرِ إِلَى أَعْطَافِهِ وَتَثْقِيفِ أَطْرَافِهِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِأَحْوَالِهِ وَيَكُونُ ٱلْوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ ٱلسُّيُوفِ مُسْتَغْنًى عَنْهُمْ مُبْعَدِينَ عَنْ بَاطِنِ ٱلسُّلْطَانِ حَذِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ * وَفِي مَعْنَى ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْقُدُومِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَايَا ٱلْفُرْسِ أَخْوَفُ مَا يَكُونُ ٱلْوُزَرَاءُ إِذَا سَكَنَتِ ٱلدَّهْمَاءُ سُنَّةُ ٱللهِ فِي عِبَادِهِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إِعْلَمْ أَنَّ لِلسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالًا تَقْتَضِيهَا ٱلْأُبَّهَةُ وَٱلْبَذَخُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ

بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة وفوق كل ذي علم عليم

الآلة * فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة ولعمري إنه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذي ذكره أرسطو إن كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات * وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الإبل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ويزيد ذلك تأثيرا إذا كانت الأصوات متناسبة كما في الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى لأجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية (١) لا طبلا ولا بوقا فيحدق المغنون بالسلطان في موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة ولقد رأينا في حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الأبطال بما فيها ويسارعون إلى مجال الحرب وينبعث كل قرن إلى قرنه وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر وربما تحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام وأحوال النفوس وتلويناتها غريبة والله الخلاق العليم * ثم إن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها فأما الرايات فإنها شعار الحروب من عهد الخليقة

(١) قوله موسيقية وفي نسخة الموسيقارية وهي صحيحة لان الموسيقي بكسر القاف بين التحتيتين اسم للنغم والالحان وتوقيعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الالة موسيقار انظر اول سفينة الشيخ محمد شهاب

وَلَمْ تَزَلِ ٱلْأُمَمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ ٱلْحُرُوبِ وَٱلْغَزَوَاتِ لِعَهْدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْخُلَفَاءِ * وَأَمَّا قَرْعُ ٱلطُّبُولِ وَٱلنَّفْخُ فِي ٱلْأَبْوَاقِ فَكَانَ ٱلْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ ٱلْمِلَّةِ مُتَجَافِينَ عَنْهُ تَنَزُّهًا عَنْ غِلْظَةِ ٱلْمُلْكِ وَرَفْضًا لِأَحْوَالِهِ وَٱحْتِقَارًا لِأُبَّهَتِهِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ مِنَ ٱلْحَقِّ فِي شَيْءٍ حَتَّى إِذَا ٱنْقَلَبَتِ ٱلْخِلَافَةُ مُلْكًا وَتَبَجَّحُوا بِزَهْرَةِ ٱلدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا وَلَابَسَهُمُ ٱلْمَوَالِي مِنَ ٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ أَهْلِ ٱلدُّوَلِ ٱلسَّالِفَةِ وَأَرَوْهُمْ مَا كَانَ أُولَئِكَ يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْبَذَخِ وَٱلتَّرَفِ فَكَانَ مِمَّا ٱسْتَحْسَنُوهُ ٱتِّخَاذُ ٱلْآلَةِ فَأَخَذُوهَا وَأَذِنُوا لِعُمَّالِهِمْ فِي ٱتِّخَاذِهَا تَنْوِيهًا بِٱلْمُلْكِ وَأَهْلِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَ ٱلْعَامِلُ صَاحِبُ ٱلثَّغْرِ أَوْ قَائِدُ ٱلْجَيْشِ يَعْقِدُ لَهُ ٱلْخَلِيفَةُ مِنَ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ أَوِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ لِوَاءَهُ وَيَخْرُجُ إِلَى بَعْثِهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ ٱلْخَلِيفَةِ أَوْ دَارِهِ فِي مَوْكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ ٱلرَّايَاتِ وَٱلْآلَاتِ فَلَا يُمَيَّزُ بَيْنَ مَوْكِبِ ٱلْعَامِلِ وَٱلْخَلِيفَةِ إِلَّا بِكَثْرَةِ ٱلْأَلْوِيَةِ وَقِلَّتِهَا أَوْ بِمَا ٱخْتَصَّ بِهِ ٱلْخَلِيفَةُ مِنَ ٱلْأَلْوَانِ لِرَايَتِهِ كَٱلسَّوَادِ فِي رَايَاتِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِنَّ رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُودًا حُزْنًا عَلَى شُهَدَائِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَنَعْيًا عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ فِي قَتْلِهِمْ وَلِذَلِكَ سُمُّوا ٱلْمُسَوِّدَةَ * وَلَمَّا ٱفْتَرَقَ أَمْرُ ٱلْهَاشِمِيِّينَ وَخَرَجَ ٱلطَّالِبِيُّونَ عَلَى ٱلْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَصْرٍ ذَهَبُوا إِلَى مُخَالَفَتِهِمْ فِي ذَلِكَ فَٱتَّخَذُوا ٱلرَّايَاتِ بِيضًا وَسُمُّوا ٱلْمُبَيِّضَةَ لِذَلِكَ سَائِرَ أَيَّامِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَمَنْ خَرَجَ مِنَ ٱلطَّالِبِيِّينَ فِي ذَلِكَ ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ كَٱلدَّاعِي بِطَبَرِسْتَانَ وَدَاعِي صَعْدَةَ أَوْ مَنْ دَعَا إِلَى بِدْعَةِ ٱلرَّافِضَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ كَٱلْقَرَامِطَةِ وَلَمَّا نَزَعَ ٱلْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ ٱلسَّوَادِ وَشِعَارِهِ فِي دَوْلَتِهِ عَدَلَ إِلَى لَوْنِ ٱلْخُضْرَةِ فَجَعَلَ رَايَتَهُ خَضْرَاءَ وَأَمَّا ٱلْإِسْتِكْثَارُ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ وَقَدْ كَانَتْ آلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا خَرَجَ ٱلْعَزِيزُ إِلَى فَتْحِ ٱلشَّامِ خَمْسَمِائَةٍ مِنَ ٱلْبُنُودِ وَخَمْسَمِائَةٍ مِنَ ٱلْأَبْوَاقِ وَأَمَّا مُلُوكُ ٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ مِنْ صِنْهَاجَةَ وَغَيْرِهَا فَلَمْ يَخْتَصُّوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ وَشَّوْهَا بِٱلذَّهَبِ وَٱتَّخَذُوهَا مِنَ ٱلْحَرِيرِ ٱلْخَالِصِ مُلَوَّنَةً وَٱسْتَمَرُّوا عَلَى ٱلْإِذْنِ فِيهَا لِعُمَّالِهِمْ حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ زَنَاتَةَ قَصَرُوا ٱلْآلَةَ مِنَ ٱلطُّبُولِ وَٱلْبُنُودِ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَحَظَرُوهَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِنْ عُمَّالِهِ وَجَعَلُوا لَهَا مَوْكِبًا خَاصًّا يَتْبَعُ أَثَرَ ٱلسُّلْطَانِ فِي مَسِيرِهِ يُسَمَّى ٱلسَّاقَةَ وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مُكْثِرٍ وَمُقِلٍّ بِٱخْتِلَافِ مَذَاهِبِ ٱلدُّوَلِ فِي ذَلِكَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ ٱلْعَدَدِ تَبَرُّكًا بِٱلسَّبْعَةِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَبَنِي ٱلْأَحْمَرِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ ٱلْعَشَرَةَ وَٱلْعِشْرِينَ كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَاتَةَ وَقَدْ بَلَغَتْ فِي

أَيَّامِ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي ٱلْحَسَنِ فِيمَا أَدْرَكْنَاهُ مِائَةٌ مِنَ ٱلطُّبُولِ وَمِائَةٌ مِنَ ٱلْبُنُودِ مُلَوَّنَةٌ بِٱلْحَرِيرِ مَنْسُوجَةٌ بِٱلذَّهَبِ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَيَأْذَنُونَ لِلْوُلَاةِ وَٱلْعُمَّالِ وَٱلْقُوَّادِ فِي ٱتِّخَاذِ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ ٱلْكَتَّانِ بَيْضَاءَ وَطَبْلٍ صَغِيرٍ أَيَّامَ ٱلْحَرْبِ لَا يَتَجَاوَزُونَ ذَٰلِكَ وَأَمَّا دَوْلَةُ ٱلتُّرْكِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُونَ رَايَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً وَفِي رَأْسِهَا خُصْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ ٱلشَّعَرِ يُسَمُّونَهَا ٱلشَّالِشَ وَٱلْجِتْرَ وَهِيَ شِعَارُ ٱلسُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ثُمَّ تَتَعَدَّدُ ٱلرَّايَاتُ وَيُسَمُّونَهَا ٱلسَّنَاجِقَ وَاحِدُهَا سَنْجَقٌ وَهِيَ ٱلرَّايَةُ بِلِسَانِهِمْ. وَأَمَّا ٱلطُّبُولُ فَيُبَالِغُونَ فِي ٱلِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا وَيُسَمُّونَهَا ٱلْكُوسَاتِ وَيُبِيحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدِ عَسْكَرٍ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ ذَٰلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا ٱلْجِتْرَ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِٱلسُّلْطَانِ. وَأَمَّا ٱلْجَلَالِقَةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مِنْ أُمَمِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ فَأَكْثَرُ شَأْنِهِمِ ٱتِّخَاذُ ٱلْأَلْوِيَةِ ٱلْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةً فِي ٱلْجَوِّ صُعُدًا وَمَعَهَا قَرْعُ ٱلْأَوْتَارِ مِنَ ٱلطَّنَابِيرِ وَنَفْخُ ٱلْغِيطَاتِ يَذْهَبُونَ فِيهَا مَذْهَبَ ٱلْغِنَاءِ وَطَرِيقَهُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمْ هٰكَذَا يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ

(السرير). وَأَمَّا ٱلسَّرِيرُ وَٱلْمِنْبَرُ وَٱلتَّخْتُ وَٱلْكُرْسِيُّ فَهِيَ أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَائِكُ مُنَضَّدَةٌ لِجُلُوسِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَيْهَا مُرْتَفِعًا عَنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ أَنْ يُسَاوِيَهُمْ فِي ٱلصَّعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ ذَٰلِكَ مِنْ سُنَنِ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَفِي دُوَلِ ٱلْعَجَمِ وَقَدْ كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسِرَّةِ ٱلذَّهَبِ وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ كُرْسِيٌّ وَسَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مُغَشًّى بِٱلذَّهَبِ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ ٱلدُّوَلُ إِلَّا بَعْدَ ٱلِاسْتِفْحَالِ وَٱلتَّرَفِ شَأْنَ ٱلْأُبَّهَةِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَاهُ وَأَمَّا فِي أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ عِنْدَ ٱلْبَدَاوَةِ فَلَا يَتَشَوَّفُونَ إِلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّخَذَهُ فِي ٱلْإِسْلَامِ مُعَاوِيَةُ وَٱسْتَأْذَنَ ٱلنَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ إِنِّي قَدْ بَدُنْتُ فَأَذِنُوا لَهُ فَٱتَّخَذَهُ وَٱتَّبَعَهُ ٱلْمُلُوكُ ٱلْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ ٱلْأُبَّهَةِ وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِي بِمِصْرَ يَجْلِسُ فِي قَصْرِهِ عَلَى ٱلْأَرْضِ مَعَ ٱلْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ ٱلْمُقَوْقَسُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ مَحْمُولًا عَلَى ٱلْأَيْدِي لِجُلُوسِهِ شَأْنَ ٱلْمُلُوكِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامَهُ وَلَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ وَفَاءً لَهُ بِمَا ٱعْتَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ ٱلذِّمَّةِ وَٱطِّرَاحًا لِأُبَّهَةِ ٱلْمُلْكِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَٰلِكَ لِبَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ ٱلْإِسْلَامِ شَرْقًا وَغَرْبًا مِنَ ٱلْأَسِرَّةِ وَٱلْمَنَابِرِ وَٱلتُّخُوتِ مَا عَفَا عَنِ ٱلْأَكَاسِرَةِ وَٱلْقَيَاصِرَةِ وَٱللّٰهُ مُقَلِّبُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

(السكة)* وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير اشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم . ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم ويردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم

أيَّامَ ٱلْفُرْسِ كانَتْ مُخْتَلِفَةً وَكانَ مِنْها عَلَى وَزْنِ ٱلْمِثْقالِ عِشْرُونَ قِيراطاً وَمِنْها ٱثْنا عَشَرَ وَمِنْها عَشَرَةٌ فَلَمَّا ٱحْتِيجَ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي ٱلزَّكاةِ أُخِذَ ٱلْوَسَطُ وَذٰلِكَ ٱثْنا عَشَرَ قِيراطاً فَكانَ ٱلْمِثْقالُ دِرْهَماً وَثَلاثَةَ أَسْباعِ دِرْهَمٍ وَقِيلَ كانَ مِنْها ٱلْبَغْلِيُّ بِثَمانِيَةِ دَوانِقَ وَٱلطَّبَرِيُّ أَرْبَعَةَ دَوانِقَ وَٱلْمَغْرِبِيُّ ثَمانِيَةَ دَوانِقَ وَٱلْيَمَنِيُّ سِتَّةَ دَوانِقَ فَأَمَرَ عُمَرُ أَنْ يُنْظَرَ ٱلْأَغْلَبُ فِي ٱلتَّعامُلِ فَكانَ ٱلْبَغْلِيُّ وَٱلطَّبَرِيُّ ٱثْنَيْ عَشَرَ دانِقاً وَكانَ ٱلدِّرْهَمُ سِتَّةَ دَوانِقَ وَإِنْ زِدتَّ ثَلاثَةَ أَسْباعِهِ كانَ مِثْقالاً وَإِذا أَنْقَصْتَ ثَلاثَةَ أَعْشارِ ٱلْمِثْقالِ كانَ دِرْهَماً فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ ٱلْمَلِكِ ٱتِّخاذَ ٱلسِّكَّةِ لِصِيانَةِ ٱلنَّقْدَيْنِ ٱلْجارِيَيْنِ فِي مُعامَلَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنَ ٱلْغِشِّ عَيَّنَ مِقْدارَها عَلَى هٰذا ٱلَّذِي ٱسْتَقَرَّ لِعَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ وَٱتَّخَذَ فِيهِ كَلِماتٍ لا صُوَراً لِأَنَّ ٱلْعَرَبَ كانَ ٱلْكَلامُ وَٱلْبَلاغَةُ أَقْرَبَ مَناحِيهِمْ وَأَظْهَرَها مَعَ أَنَّ ٱلشَّرْعَ يَنْهَى عَنِ ٱلصُّوَرِ فَلَمَّا فَعَلَ ذٰلِكَ ٱسْتَمَرَّ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي أَيَّامِ ٱلْمِلَّةِ كُلِّها وَكانَ ٱلدِّينارُ وَٱلدِّرْهَمُ عَلَى شَكْلَيْنِ مُدَوَّرَيْنِ وَٱلْكِتابَةُ عَلَيْهِما فِي دَوائِرَ مُتَوازِيَةٍ يُكْتَبُ فِيها مِنْ أَحَدِ ٱلْوَجْهَيْنِ أَسْماءُ ٱللّٰهِ تَهْلِيلاً وَتَحْمِيداً وَصَلاةً عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَآلِهِ وَفِي ٱلْوَجْهِ ٱلثَّانِي ٱلتَّارِيخُ وَٱسْمُ ٱلْخَلِيفَةِ وَهٰكَذا أَيَّامَ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَٱلْأُمَوِيِّينَ وَأَمَّا صَنْهاجَةُ فَلَمْ يَتَّخِذُوا سِكَّةً إِلَّا آخِرَ ٱلْأَمْرِ ٱتَّخَذَها مَنْصُورٌ صاحِبُ بِجايَةَ ذَكَرَ ذٰلِكَ ٱبْنُ حَمَّادٍ فِي تارِيخِهِ وَلَمَّا جاءَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ كانَ مِمَّا سَنَّ لَهُمُ ٱلْمَهْدِيُّ ٱتِّخاذُ سِكَّةِ ٱلدِّرْهَمِ مُرَبَّعَ ٱلشَّكْلِ وَأَنْ يُرْسَمَ فِي دائِرَةِ ٱلدِّينارِ شَكْلٌ مُرَبَّعٌ فِي وَسَطِهِ وَيُمْلَأَ مِنْ أَحَدِ ٱلْجانِبَيْنِ تَهْلِيلاً وَتَحْمِيداً وَمِنَ ٱلْجانِبِ ٱلْآخَرِ كَتْباً فِي ٱلسُّطُورِ بِٱسْمِهِ وَٱسْمِ ٱلْخُلَفاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ ذٰلِكَ ٱلْمُوَحِّدُونَ وَكانَتْ سِكَّتُهُمْ عَلَى هٰذا ٱلشَّكْلِ لِهٰذا ٱلْعَهْدِ وَلَقَدْ كانَ ٱلْمَهْدِيُّ فِيما يُنْقَلُ يُنْعَتُ قَبْلَ ظُهُورِهِ بِصاحِبِ ٱلدِّرْهَمِ ٱلْمُرَبَّعِ نَعَتَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ بِٱلْحَدَثانِ مِنْ قَبْلِهِ ٱلْمُخْبِرُونَ فِي مَلاحِمِهِمْ عَنْ دَوْلَتِهِ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ لِهٰذا ٱلْعَهْدِ فَسِكَّتُهُمْ غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ وَإِنَّما يَتَعامَلُونَ بِٱلدَّنانِيرِ وَٱلدَّراهِمِ وَزْناً بِٱلصَّنَجاتِ ٱلْمُقَدَّرَةِ بِعِدَّةٍ مِنْها وَلا يَطْبَعُونَ عَلَيْها بِٱلسِّكَّةِ نُقُوشَ ٱلْكَلِماتِ بِٱلتَّهْلِيلِ وَٱلصَّلاةِ وَٱسْمِ ٱلسُّلْطانِ كَما يَفْعَلُهُ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ

وَلْنَخْتِمِ ٱلْكَلامَ فِي ٱلسِّكَّةِ بِذِكْرِ حَقِيقَةِ ٱلدِّرْهَمِ وَٱلدِّينارِ ٱلشَّرْعِيَّيْنِ وَبَيانِ حَقِيقَةِ مِقْدارِهِما

وَذَلِكَ أَنَّ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ مُخْتَلِفَا السِّكَّةِ فِي الْمِقْدَارِ وَالْمَوَازِينِ بِالْآفَاقِ وَالْأَمْصَارِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالشَّرْعُ قَدْ تَعَرَّضَ لِذِكْرِهِمَا وَعَلَّقَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا فَلَا بُدَّ لَهُمَا عِنْدَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ وَمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ فِي تَقْدِيرٍ تَجْرِي عَلَيْهِمَا أَحْكَامُهُ دُونَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ مِنْهُمَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ مُنْذُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَعَهْدِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ الدِّرْهَمَ الشَّرْعِيَّ هُوَ الَّذِي تَزِنُ الْعَشَرَةُ مِنْهُ سَبْعَةَ مَثَاقِيلَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأُوقِيَّةُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا وَهُوَ عَلَى هَذَا سَبْعَةُ أَعْشَارِ الدِّينَارِ وَوَزْنُ الْمِثْقَالِ مِنَ الذَّهَبِ اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ فَالدِّرْهَمُ الَّذِي هُوَ سَبْعَةُ أَعْشَارِهِ خَمْسُونَ حَبَّةً وَخُمُسَا حَبَّةٍ وَهَذِهِ الْمَقَادِيرُ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِالْإِجْمَاعِ فَإِنَّ الدِّرْهَمَ الْجَاهِلِيَّ كَانَ بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْوَاعٍ أَجْوَدُهَا الطَّبَرِيُّ وَهُوَ أَرْبَعَةُ دَوَانِقَ وَالْبَغْلِيُّ وَهُوَ ثَمَانِيَةُ دَوَانِقَ فَجَعَلُوا الشَّرْعِيَّ بَيْنَهُمَا وَهُوَ سِتَّةُ دَوَانِقَ فَكَانُوا يُوجِبُونَ الزَّكَاةَ فِي مِائَةِ دِرْهَمٍ بَغْلِيَّةٍ وَمِائَةٍ طَبَرِيَّةٍ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ وَسَطًا وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ وَضْعِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ إِجْمَاعِ النَّاسِ بَعْدُ عَلَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ ٠ ذَكَرَ ذَلِكَ الْخَطَّابُ فِي كِتَابِ مَعَالِمِ السُّنَنِ وَالْمَاوَرْدِيُّ فِي الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَنْكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِمَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ الشَّرْعِيَّانِ مَجْهُولَيْنِ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مَعَ تَعَلُّقِ الْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا كَانَا مَعْلُومَيِ الْمِقْدَارِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ لِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ يَوْمَئِذٍ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنَ الْحُقُوقِ وَكَانَ مِقْدَارُهُمَا غَيْرَ مُشَخَّصٍ فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَارَفًا بَيْنَهُمْ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَى الْمِقْدَارِ فِي مِقْدَارِهِمَا وَزِنَتِهِمَا حَتَّى اسْتَفْحَلَ الْإِسْلَامُ وَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ وَدَعَتِ الْحَالُ إِلَى تَشْخِيصِهِمَا فِي الْمِقْدَارِ وَالْوَزْنِ كَمَا هُوَ عِنْدَ الشَّرْعِ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ كُلْفَةِ التَّقْدِيرِ وَقَارَنَ ذَلِكَ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَشَخَّصَ مِقْدَارَهُمَا وَعَيَّنَهُمَا فِي الْخَارِجِ كَمَا هُوَ فِي الذِّهْنِ وَنَقَشَ عَلَيْهِمَا السِّكَّةَ بِاسْمِهِ وَتَارِيخِهِ أَثَرَ الشَّهَادَتَيْنِ الْإِيمَانِيَّتَيْنِ وَطَرَحَ النُّقُودَ الْجَاهِلِيَّةَ رَأْسًا حَتَّى خَلَصَتْ وَنَقَشَ عَلَيْهَا سِكَّةً وَتَلَاشَى وُجُودُهَا فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَقَعَ اخْتِيَارُ أَهْلِ السِّكَّةِ فِي الدُّوَلِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمِقْدَارِ الشَّرْعِيِّ فِي الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَاخْتَلَفَتْ فِي كُلِّ الْأَقْطَارِ وَالْآفَاقِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى تَصَوُّرِ مَقَادِيرِهِمَا

ٱلشَّرْعِيَّةِ ذِهْنًا كَمَا كَانَ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أُفُقٍ يَسْتَخْرِجُونَ ٱلْحُقُوقَ ٱلشَّرْعِيَّةَ مِنْ سِكَّتِهِمْ بِمَعْرِفَةِ ٱلنِّسْبَةِ ٱلَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَادِيرِهَا ٱلشَّرْعِيَّةِ وَأَمَّا وَزْنُ ٱلدِّينَارِ بِٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ ٱلشَّعِيرِ ٱلْوَسَطِ فَهُوَ ٱلَّذِي نَقَلَهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ ٱلْإِجْمَاعُ إِلَّا ٱبْنَ حَزْمٍ خَالَفَ ذَٰلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ وَزْنَهُ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ حَبَّةً . نَقَلَ ذَٰلِكَ عَنْهُ ٱلْقَاضِي عَبْدُ ٱلْحَقِّ وَرَدَّهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ وَعَدُّوهُ وَهْمًا وَغَلَطًا وَهُوَ ٱلصَّحِيحُ وَٱللَّهُ يُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَكَذَٰلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْأُوقِيَّةَ ٱلشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ ٱلْمُتَعَارَفَةَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْمُتَعَارَفَةَ مُخْتَلِفَةٌ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةٌ ذِهْنًا لَا ٱخْتِلَافَ فِيهَا وَٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا

(الخاتم) وَأَمَّا ٱلْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ ٱلْخُطَطِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلْوَظَائِفِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَٱلْخَتْمُ عَلَى ٱلرَّسَائِلِ وَٱلصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي ٱلصَّحِيحَيْنِ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ ٱلْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا فَٱتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ . مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ . قَالَ ٱلْبُخَارِيُّ جَعَلَ ٱلثَّلَاثَ ٱلْكَلِمَاتِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ وَخَتَمَ بِهِ وَقَالَ لَا يَنْقُشْ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ وَتَخَتَّمَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بِئْرِ أَرِيسَ وَكَانَتْ قَلِيلَةَ ٱلْمَاءِ فَلَمْ يُدْرَكْ قَعْرُهَا بَعْدُ وَٱغْتَمَّ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ ٱلْخَاتَمِ وَٱلْخَتْمِ بِهِ وُجُوهٌ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى ٱلْآلَةِ ٱلَّتِي تُجْعَلُ فِي ٱلْإِصْبَعِ وَمِنْهُ تَخَتَّمَ إِذَا لَبِسَهُ وَيُطْلَقُ عَلَى ٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّمَامِ وَمِنْهُ خَتَمْتُ ٱلْأَمْرَ إِذَا بَلَغْتُ آخِرَهُ وَخَتَمْتُ ٱلْقُرْآنَ كَذَٰلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمُ ٱلنَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ ٱلْأَمْرِ وَيُطْلَقُ عَلَى ٱلسِّدَادِ ٱلَّذِي يُسَدُّ بِهِ ٱلْأَوَانِي وَٱلدِّنَانُ وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى خِتَامُهُ مِسْكٌ وَقَدْ غَلِطَ مَنْ فَسَّرَ ذَٰلِكَ بِٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّمَامِ قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شَرَابِهِمْ رِيحُ ٱلْمِسْكِ وَلَيْسَ ٱلْمَعْنَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلْخِتَامِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلسِّدَادُ لِأَنَّ ٱلْخَمْرَ يُجْعَلُ لَهَا فِي ٱلدَّنِّ سِدَادُ ٱلطِّينِ أَوِ ٱلْقَارِ يَحْفَظُهَا وَيُطَيِّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا فَبُولِغَ فِي وَصْفِ خَمْرِ ٱلْجَنَّةِ بِأَنَّ سِدَادَهَا مِنَ ٱلْمِسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفًا وَذَوْقًا مِنَ ٱلْقَارِ وَٱلطِّينِ ٱلْمَعْهُودَيْنِ فِي ٱلدُّنْيَا فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ ٱلْخَاتَمِ عَلَى هَٰذِهِ كُلِّهَا صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَثَرِهَا ٱلنَّاشِئِ عَنْهَا وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْخَاتَمَ إِذَا نُقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غُمِسَ فِي مُدَافٍ مِنَ ٱلطِّينِ أَوْ مِدَادٍ وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ ٱلْقِرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ ٱلْكَلِمَاتِ

فِي ذَٰلِكَ ٱلصَّفْحِ وَكَذَٰلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى جِسْمٍ لَيِّنٍ كَٱلشَّمْعِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَٰلِكَ ٱلْمَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتٌ وَٱرْتَسَمَتْ فَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْيُسْرَى إِذَا كَانَ ٱلنَّقْشُ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ مِنَ ٱلْيُمْنَى وَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْيُمْنَى إِذَا كَانَ ٱلنَّقْشُ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْيُسْرَى لِأَنَّ ٱلْخَتْمَ يَقْلِبُ جِهَةَ ٱلْخَطِّ فِي ٱلصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي ٱلنَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارٍ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَتْمُ بِهَٰذَا ٱلْخَاتَمِ بِغَمْسِهِ فِي ٱلْمِدَادِ أَوِ ٱلطِّينِ وَوَضْعِهِ فِي ٱلصَّفْحِ فَتَنْتَقِشُ ٱلْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَٰذَا مِنْ مَعْنَى ٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّمَامِ بِمَعْنَى صِحَّةِ ذَٰلِكَ ٱلْمَكْتُوبِ وَنُفُوذِهِ كَأَنَّ ٱلْكِتَابَ إِنَّمَا يَتِمُّ ٱلْعَمَلُ بِهِ بِهَٰذِهِ ٱلْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا مُلْغًى لَيْسَ بِتَمَامٍ وَقَدْ يَكُونُ هَٰذَا ٱلْخَتْمُ بِٱلْخَطِّ آخِرَ ٱلْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِٱسْمِ ٱلسُّلْطَانِ أَوِ ٱلْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ ٱلْكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نُعُوتِهِ يَكُونُ ذَٰلِكَ ٱلْخَطُّ عَلَامَةً عَلَى صِحَّةِ ٱلْكِتَابِ وَنُفُوذِهِ وَيُسَمَّى ذَٰلِكَ فِي ٱلْمُتَعَارَفِ عَلَامَةً وَيُسَمَّى خَتْمًا تَشْبِيهًا لَهُ بِأَثَرِ ٱلْخَاتَمِ ٱلْآصَفِيِّ فِي ٱلنَّقْشِ وَمِنْ هَٰذَا خَاتَمُ ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخُصُومِ أَيْ عَلَامَتُهُ وَخَطُّهُ ٱلَّذِي يُنَفِّذُ بِهِمَا أَحْكَامَهُ وَمِنْهُ خَاتَمُ ٱلسُّلْطَانِ أَوِ ٱلْخَلِيفَةِ أَيْ عَلَامَتُهُ قَالَ ٱلرَّشِيدُ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوْزِرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ ٱلْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِأَبِيهِمَا يَحْيَى يَا أَبَتِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُحَوِّلَ ٱلْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي فَكَنَّى لَهُ بِٱلْخَاتَمِ عَنِ ٱلْوِزَارَةِ لِمَا كَانَتِ ٱلْعَلَامَةُ عَلَى ٱلرَّسَائِلِ وَٱلصُّكُوكِ مِنْ وَظَائِفِ ٱلْوِزَارَةِ لِعَهْدِهِمْ وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَٰذَا ٱلْإِطْلَاقِ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى ٱلْحَسَنِ عِنْدَ مُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُ فِي ٱلصُّلْحِ صَحِيفَةً بَيْضَاءَ خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنِ ٱشْتَرِطْ فِي هَٰذِهِ ٱلصَّحِيفَةِ ٱلَّتِي خَتَمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتَ فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى ٱلْخَتْمِ هُنَا عَلَامَةٌ فِي آخِرِ ٱلصَّحِيفَةِ بِخَطِّهِ أَوْ غَيْرِهِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ فِي جِسْمٍ لَيِّنٍ فَتَنْتَقِشُ فِيهِ حُرُوفُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ ٱلْحَزْمِ مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا حُزِمَ وَعَلَى ٱلْمَوْدُوعَاتِ وَهُوَ مِنَ ٱلسِّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي ٱلْوَجْهَيْنِ آثَارُ ٱلْخَاتَمِ فَيُطْلَقُ عَلَيْهِ خَاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ ٱلْخَتْمَ عَلَى ٱلْكِتَابِ أَيِ ٱلْعَلَامَةَ مُعَاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمَرَ لِعُمَرَ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ عِنْدَ زِيَادٍ بِٱلْكُوفَةِ بِمِائَةِ أَلْفٍ فَفَتَحَ ٱلْكِتَابَ وَصَيَّرَ ٱلْمِائَةَ مِائَتَيْنِ وَرَفَعَ زِيَادٌ حِسَابَهُ فَأَنْكَرَهَا مُعَاوِيَةُ وَطَلَبَ بِهَا عُمَرَ وَحَبَسَهُ حَتَّى قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عَبْدُ ٱللهِ وَٱتَّخَذَ مُعَاوِيَةُ عِنْدَ ذَٰلِكَ دِيوَانَ ٱلْخَاتَمِ ذَكَرَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ ٱلْكُتُبَ وَلَمْ تَكُنْ

تحزم أي جعل لها السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال والحزم للكتب يكون إما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب وإما بإلصاق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل المشرق وقد يجعل على مكان الدس أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك فيرتسم النقش في الشمع وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غمس في مداف من الطين معد لذلك صبغه أحمر فيرتسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجلب من سيراف فيظهر أنه مخصوص بها فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية ثم اختلف العرف وصار لمن إليه الترسيل وديوان الكتاب في الدولة ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للإصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه السلطان شارة في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية والله مصرف الأمور بحكمه

(الطراز) * من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب ألحاما وإسداء بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك ثم

اعْتَاضَ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ بِكَتْبِ أَسْمَائِهِمْ مَعَ كَلِمَاتٍ أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَى الْفَأْلِ أَوِ السَّجِلَّاتِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ أَبْهَةِ الْأُمُورِ وَأَفْخَمِ الْأَحْوَالِ وَكَانَتِ الدُّورُ الْمُعَدَّةُ لِنَسْجِ أَثْوَابِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ تُسَمَّى دُورَ الطِّرَازِ لِذَلِكَ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى النَّظَرِ فِيهَا يُسَمَّى صَاحِبَ الطِّرَازِ يَنْظُرُ فِي أُمُورِ الصِّبَاغِ وَالْآلَةِ وَالْحَاكَةِ فِيهَا وَإِجْرَاءِ أَرْزَاقِهِمْ وَتَسْهِيلِ آلَاتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ أَعْمَالِهِمْ وَكَانُوا يُقَلِّدُونَ ذَلِكَ لِخَوَاصِّ دَوْلَتِهِمْ وَثِقَاتِ مَوَالِيهِمْ وَكَذَلِكَ كَانَ الْحَالُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ لَمَّا ضَاقَ نِطَاقُ الدُّوَلِ عَنِ التَّرَفِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ لِضِيقِ نِطَاقِهَا فِي الْاسْتِيلَاءِ وَتَعَدَّدَتِ الدُّوَلُ تَعَطَّلَتْ هَذِهِ الْوَظِيفَةُ وَالْوِلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْثَرِ الدُّوَلِ بِالْجُمْلَةِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ بَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلَ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ لَمْ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ دَوْلَتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعِ الدِّيَانَةِ وَالسَّذَاجَةِ الَّتِي لُقِّنُوهَا عَنْ إِمَامِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ تُومَرْتَ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ لِبَاسِ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ فَسَقَطَتْ هَذِهِ الْوَظِيفَةُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ وَاسْتَدْرَكَ مِنْهَا أَعْقَابُهُمْ آخِرَ الدَّوْلَةِ طَرَفًا لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ النَّبَاهَةِ وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ فَأَدْرَكْنَا بِالْمَغْرِبِ فِي الدَّوْلَةِ الْمَرِينِيَّةِ لِعُنْفُوَانِهَا وَشُمُوخِهَا رَسْمًا جَلِيلًا لُقِّنُوهُ مِنْ دَوْلَةِ ابْنِ الْأَحْمَرِ مُعَاصِرِهِمْ بِالْأَنْدَلُسِ وَاتَّبَعَ هُوَ فِي ذَلِكَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ فَأَتَى مِنْهُ بِلَمْحَةٍ شَاهِدَةٍ بِالْأَثَرِ. وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَفِيهَا مِنَ الطِّرَازِ تَحْرِيرٌ آخَرُ عَلَى مِقْدَارِ مُلْكِهِمْ وَعُمْرَانِ بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُصْنَعُ فِي دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَلَيْسَتْ مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِمْ وَإِنَّمَا يَنْسِجُ مَا تَطْلُبُهُ الدَّوْلَةُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ صُنَّاعِهِ مِنَ الْحَرِيرِ وَمِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُزَرْكَشَ لَفْظَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ وَيُرْسَمُ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوِ الْأَمِيرِ عَلَيْهِ وَيُعِدُّهُ الصُّنَّاعُ لَهُمْ فِيمَا يُعِدُّونَهُ لِلدَّوْلَةِ مِنْ طُرَفِ الصِّنَاعَةِ اللَّائِقَةِ بِهَا وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفساطيط والسياج

إِعْلَمْ أَنَّ مِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ وَتَرَفِهِ اتِّخَاذَ الْأَخْبِيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ وَالْفَازَاتِ مِنْ ثِيَابِ الْكَتَّانِ وَالصُّوفِ وَالْقُطْنِ فَيُبَاهَى بِهَا فِي الْأَسْفَارِ وَتُنَوَّعُ مِنْهَا الْأَلْوَانُ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ فِي الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ فِي بُيُوتِهِمُ الَّتِي جَرَتْ عَادَتُهُمْ بِاتِّخَاذِهَا قَبْلَ الْمُلْكِ وَكَانَ الْعَرَبُ لِعَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ

إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين إلا الأقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج إلى ساقة تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زنباع وقصتهما في إحراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمن بوادر السفهاء من أحيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والأمصار وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ومن ظهر الخف إلى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الأمير والقائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله أفراك بالكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره. وأما في المشرق فيتخذه كل أمير وإن كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم فخف لذلك ظهرهم وتقاربت السياج بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهواً أنيقاً لاختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها وكذا كانت دولة الموحدين وزناتة التي أظلتنا كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطين حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور وعادوا إلى سكنى الأخبية والفساطيط بلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان إلا أن العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم

فيه الصيحة ولحفتهم من الأهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر والله القوي العزيز

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي ولم يعرف في غير دول الإسلام. فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على المحراب فيحوزه وما يليه فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأبهة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والأندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والأندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده. وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن أولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضى عن أصحابه وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعه بمصر وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب إليه عمر بن الخطاب أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين أو ما يكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك إلا ما كسرته فلما حدثت الأبهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا

فيهما فكان الخطيب يُشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو إليه وكثيراً ما يغفل المعاهدون من أهل الدول هذا الرسم عند ما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الإبهام والإجمال لمن ولي أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما سلف من الأمر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه يحكى أن يغمراسن بن زيان عاهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكرياء يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا وكذلك يعقوب بن عبد الحق عاهد دولة بني مرين حضره رسول المنتصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتخلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة فإذا انتبهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني البذخ والأبهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا إلى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الامم وترتيبها

إعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ براها الله وأصلها

إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته فإذا تذامروا لذلك
وتوافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر
طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة
ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه وإما غضب للملك وسعي في تمهيده
فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني وهو
العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك
والتركمان والأكراد وأشباههم لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما
بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من
رتبة ولا ملك وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم والثالث هو
المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين
لطاعتها فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب بغي وفتنة
والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليقة منذ
أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفا ونوع بالكر والفر أما الذي بالزحف
فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب
والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر وذلك
لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة
ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في
القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته وفي
التنزيل إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص أي يشد
بعضهم بعضا بالثبات وفي الحديث الكريم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا
ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف فإن المقصود من
الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف
وباء بإثم الهزيمة إن وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم
فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها إلى الدين بخرق سياجه فعد من الكبائر ويظهر
من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع وأما قتال الكر والفر فليس فيه

من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافا ثابتا يلجأون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد. ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساما يسمونها كراديس ويسوون في كل كردوس صفوفه وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضا إذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء وجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعا ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب ويسمون هذا الترتيب التعبئة وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين وصدر الإسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكرا منفردا بصفوفه متميزا بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة ثم عسكرا آخر ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمونه الميمنة ثم عسكرا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ثم عسكرا آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ويسمون موقفه القلب فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى في التعبئة فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج ابن يوسف كما أشرنا إليه وكما هو معروف في أخباره وكان في الدولة الأموية بالأندلس أيضا كثير منه وهو مجهول فيما لدينا لأنا إنما أدركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب إلى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبئة.

ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من

ٱلْجَمَادَاتِ وَٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ فَيَتَّخِذُونَهَا مَلْجَأً لِلْخَيَّالَةِ فِي كَرِّهِمْ وَفَرِّهِمْ يَطْلُبُونَ بِهِ ثَبَاتَ ٱلْمُقَاتِلَةِ لِيَكُونَ أَدْوَمَ لِلْحَرْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى ٱلْغَلَبِ وَقَدْ يَفْعَلُهُ أَهْلُ ٱلزَّحْفِ أَيْضاً لِيَزِيدَهُمْ ثَبَاتاً وَشِدَّةً فَقَدْ كَانَ ٱلْفُرْسُ وَهُمْ أَهْلُ ٱلزَّحْفِ يَتَّخِذُونَ ٱلْفِيلَةَ فِي ٱلْحُرُوبِ وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهَا أَبْرَاجاً مِنَ ٱلْخَشَبِ أَمْثَالَ ٱلصُّرُوحِ مَشْحُونَةً بِٱلْمُقَاتِلَةِ وَٱلسِّلَاحِ وَٱلرَّايَاتِ وَيَصُفُّونَهَا وَرَاءَهُمْ فِي حَوْمَةِ ٱلْحَرْبِ كَأَنَّهَا حُصُونٌ فَتَقْوَى بِذَٰلِكَ نُفُوسُهُمْ وَيَزْدَادُ وُثُوقُهُمْ وَٱنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَٰلِكَ فِي ٱلْقَادِسِيَّةِ وَإِنَّ فَارِسَ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ ٱشْتَدُّوا بِهِمْ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ حَتَّى ٱشْتَدَّتْ رِجَالَاتٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ فَخَالَطُوهُمْ وَبَعَجُوهَا بِٱلسُّيُوفِ عَلَى خَرَاطِيمِهَا فَنَفَرَتْ وَنَكَصَتْ عَلَى أَعْقَابِهَا إِلَى مَرَابِطِهَا بِٱلْمَدَائِنِ فَجَفَا مُعَسْكَرُ فَارِسَ لِذَٰلِكَ وَٱنْهَزَمُوا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلرَّابِعِ * وَأَمَّا ٱلرُّومُ وَمُلُوكُ ٱلْقُوطِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَأَكْثَرُ ٱلْعَجَمِ فَكَانُوا يَتَّخِذُونَ لِذَٰلِكَ ٱلْأَسِرَّةَ يَنْصِبُونَ لِلْمَلِكِ سَرِيرَهُ فِي حَوْمَةِ ٱلْحَرْبِ وَيَحُفُّ بِهِ مِنْ خَدَمِهِ وَحَاشِيَتِهِ وَجُنُودِهِ مَنْ هُوَ زَعِيمٌ بِٱلِٱسْتِمَاتَةِ دُونَهُ وَتُرْفَعُ ٱلرَّايَاتُ فِي أَرْكَانِ ٱلسَّرِيرِ وَيُحْدِقُ بِهِ سِيَاجٌ آخَرُ مِنَ ٱلرُّمَاةِ وَٱلرَّجَّالَةِ فَيَعْظُمُ هَيْكَلُ ٱلسَّرِيرِ وَيَصِيرُ فِئَةً لِلْمُقَاتِلَةِ وَمَلْجَأً لِلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ وَجَعَلَ ذَٰلِكَ ٱلْفُرْسُ أَيَّامَ ٱلْقَادِسِيَّةِ وَكَانَ رُسْتُمُ جَالِساً عَلَى سَرِيرٍ نَصَبَهُ لِجُلُوسِهِ حَتَّى ٱخْتَلَفَتْ صُفُوفُ فَارِسَ وَخَالَطَهُ ٱلْعَرَبُ فِي سَرِيرِهِ ذَٰلِكَ فَتَحَوَّلَ عَنْهُ إِلَى ٱلْفُرَاتِ وَقُتِلَ * وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَأَكْثَرُ ٱلْأُمَمِ ٱلْبَدَوِيَّةِ ٱلرَّحَّالَةِ فَيَصُفُّونَ لِذَٰلِكَ إِبِلَهُمْ وَٱلظَّهْرَ ٱلَّذِي يَحْمِلُ ظَعَائِنَهُمْ فَيَكُونُ فِئَةً لَهُمْ وَيُسَمُّونَهَا ٱلْمَجْبُودَةَ وَلَيْسَ أُمَّةٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ إِلَّا وَهِيَ تَفْعَلُ ذَٰلِكَ فِي حُرُوبِهَا وَتَرَاهُ أَوْثَقَ فِي ٱلْجَوْلَةِ وَآمَنَ مِنَ ٱلْغِرَّةِ وَٱلْهَزِيمَةِ وَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ وَقَدْ أَغْفَلَتْهُ ٱلدُّوَلُ لِعَهْدِنَا بِٱلْجُمْلَةِ وَٱعْتَاضُوا عَنْهُ بِٱلظَّهْرِ ٱلْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ وَٱلْفَسَاطِيطِ يَجْعَلُونَهَا سَاقَةً مِنْ خَلْفِهِمْ وَلَا تُغْنِي غَنَاءَ ٱلْفِيلَةِ وَٱلْإِبِلِ فَصَارَتِ ٱلْعَسَاكِرُ بِذَٰلِكَ عُرْضَةً لِلْهَزَائِمِ وَمُسْتَشْعِرَةً لِلْفِرَارِ فِي ٱلْمَوَاقِفِ * وَكَانَ ٱلْحَرْبُ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ كُلُّهُ زَحْفاً وَكَانَ ٱلْعَرَبُ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ ٱلْكَرَّ وَٱلْفَرَّ لَكِنْ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَٰلِكَ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّ أَعْدَاءَهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ زَحْفاً فَيُضْطَرُّونَ إِلَى مُقَاتَلَتِهِمْ بِمِثْلِ قِتَالِهِمِ ٱلثَّانِي أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَمِيتِينَ فِي جِهَادِهِمْ لِمَا رَغِبُوا فِيهِ مِنَ ٱلصَّبْرِ وَلِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنَ ٱلْإِيمَانِ وَٱلزَّحْفُ إِلَى ٱلِٱسْتِمَاتَةِ أَقْرَبُ * وَأَوَّلُ مَنْ أَبْطَلَ ٱلصَّفَّ فِي ٱلْحُرُوبِ وَصَارَ إِلَى ٱلتَّعْبِئَةِ كَرَادِيسَ مَرْوَانُ بْنُ ٱلْحَكَمِ فِي قِتَالِ ٱلضَّحَّاكِ ٱلْخَارِجِيِّ وَٱلْجَبْرِيِّ بَعْدَهُ

قَالَ ٱلطَّبَرِيُّ لَمَّا ذَكَرَ قِتَالَ ٱلْجُبَيْرِيِّ فَوَلَّى ٱلْخَوَارِجُ عَلَيْهِمْ شَيْبَانَ بْنَ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْيَشْكُرِيَّ وَيُلَقَّبُ أَبَا ٱلذَّلْفَاءِ قَاتَلَهُمْ مَرْوَانُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِٱلْكَرَادِيسِ وَأَبْطَلَ ٱلصَّفَّ مِنْ يَوْمَئِذٍ ٱنْتَهَى. فَتُنُوسِيَ قِتَالُ ٱلزَّحْفِ بِإِبْطَالِ ٱلصَّفِّ ثُمَّ تُنُوسِيَ ٱلصَّفُّ وَرَاءَ ٱلْمُقَاتِلَةِ بِمَا دَاخَلَ ٱلدُّوَلَ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا حِينَمَا كَانَتْ بَدَوِيَّةً وَسُكْنَاهُمُ ٱلْخِيَامُ كَانُوا يَسْتَكْثِرُونَ مِنَ ٱلْإِبِلِ وَسُكْنَى ٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ مَعَهُمْ فِي ٱلْأَحْيَاءِ فَلَمَّا حَصَلُوا عَلَى تَرَفِ ٱلْمُلْكِ وَأَلِفُوا سُكْنَى ٱلْقُصُورِ وَٱلْحَوَاضِرِ وَتَرَكُوا شَأْنَ ٱلْبَادِيَةِ وَٱلْقَفْرِ نَسُوا لِذٰلِكَ عَهْدَ ٱلْإِبِلِ وَٱلظَّعَائِنِ وَصَعُبَ عَلَيْهِمُ ٱتِّخَاذُهَا فَخَلَّفُوا ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْأَسْفَارِ وَحَمَلَهُمُ ٱلْمُلْكُ وَٱلتَّرَفُ عَلَى ٱتِّخَاذِ ٱلْفَسَاطِيطِ وَٱلْأَخْبِيَةِ فَٱقْتَصَرُوا عَلَى ٱلظَّهْرِ ٱلْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ⁽¹⁾ وَٱلْأَبْنِيَةِ وَكَانَ ذٰلِكَ صِنْفَتَهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ وَلَا يُغْنِي كُلَّ ٱلْغَنَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَى ٱلِٱسْتِمَاتَةِ كَمَا يَدْعُو إِلَيْهَا ٱلْأَهْلُ وَٱلْمَالُ فَيَخِفُّ ٱلصَّبْرُ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ وَتُصَرِّفُهُمُ ٱلْهَيَعَاتُ وَتُخَرِّمُ صُفُوفَهُمْ. وَلِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ ضَرْبِ ٱلْمَصَافِّ وَرَاءَ ٱلْعَسَاكِرِ وَتَأَكُّدِهِ فِي قِتَالِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ صَارَ مُلُوكُ ٱلْمَغْرِبِ يَتَّخِذُونَ طَائِفَةً مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ فِي جُنْدِهِمْ وَٱخْتَصُّوا بِذٰلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ أَهْلِ وَطَنِهِمْ كُلِّهِ بِٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ وَٱلسُّلْطَانُ يَتَأَكَّدُ فِي حَقِّهِ ضَرْبُ ٱلْمَصَافِّ لِيَكُونَ رِدْءًا لِلْمُقَاتِلَةِ أَمَامَهُ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ ذٰلِكَ ٱلصَّفِّ مِنْ قَوْمٍ مُتَعَوِّدِينَ لِلثَّبَاتِ فِي ٱلزَّحْفِ وَإِلَّا أَجْفَلُوا عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ فَٱنْهَزَمَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلْعَسَاكِرُ بِإِجْفَالِهِمْ فَٱحْتَاجَ ٱلْمُلُوكُ بِٱلْمَغْرِبِ أَنْ يَتَّخِذُوا جُنْدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ ٱلْمُتَعَوِّدَةِ ٱلثَّبَاتَ فِي ٱلزَّحْفِ وَهُمُ ٱلْإِفْرَنْجُ وَيُرَتِّبُونَ مَصَافَّهُمُ ٱلْمُحْدِقَ بِهِمْ مِنْهَا هٰذَا عَلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ ٱلْكُفْرِ وَإِنَّهُمُ ٱسْتَخَفُّوا ذٰلِكَ لِلضَّرُورَةِ ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَهَا مِنْ تَخَوُّفِ ٱلِٱجْفَالِ عَلَى مَصَافِّ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْإِفْرَنْجُ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ ٱلثَّبَاتِ فِي ذٰلِكَ لِأَنَّ عَادَتَهُمْ فِي ٱلْقِتَالِ ٱلزَّحْفُ فَكَانُوا أَقْوَمَ بِذٰلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ مَعَ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ فِي ٱلْمَغْرِبِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرْبِ مَعَ أُمَمِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَرْبَرِ وَقِتَالُهُمْ عَلَى ٱلطَّاعَةِ وَأَمَّا فِي ٱلْجِهَادِ فَلَا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ حَذَرًا مِنْ مُمَالَأَتِهِمْ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ هٰذَا هُوَ ٱلْوَاقِعُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَقَدْ أَبْدَيْنَا سَبَبَهُ وَٱللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَبَلَغَنَا أَنَّ أُمَمَ ٱلتُّرْكِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قِتَالُهُمْ مُنَاضَلَةٌ بِٱلسِّهَامِ وَأَنَّ تَعْبِئَةَ ٱلْحَرْبِ عِنْدَهُمْ بِٱلْمَصَافِّ وَأَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ بِثَلَاثَةِ صُفُوفٍ يَضْرِبُونَ صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ وَيَتَرَجَّلُونَ عَنْ خُيُولِهِمْ وَيُفَرِّغُونَ سِهَامَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَتَنَاضَلُونَ

---

١ قوله للاثقال والابنية مراده بالابنية الخيام كما يدل عليه قوله في فصل الحدق الآتي قريباً اذا نزلوا وضربوا ابنيتهم اه

جُلُوساً وَكُلُّ رِدْءٌ لِلَّذِي أَمَامَهُ أَنْ يَكْبِسَهُمُ ٱلْعَدُوُّ إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ ٱلنَّصْرُ لِإِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَهِيَ تَعْبِئَةٌ مُحْكَمَةٌ غَرِيبَةٌ * وَكَانَ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْأُوَلِ فِي حُرُوبِهِمْ حَفْرُ ٱلْخَنَادِقِ عَلَى مُعَسْكَرِهِمْ عِنْدَ مَا يَتَقَارَبُونَ لِلزَّحْفِ حَذَرًا مِنْ مَعَرَّةِ ٱلْبَيَاتِ وَٱلْهُجُومِ عَلَى ٱلْعَسْكَرِ بِٱللَّيْلِ لِمَا فِي ظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ مِنْ مُضَاعَفَةِ ٱلْخَوْفِ فَيَلُوذُ ٱلْجَيْشُ بِٱلْفِرَارِ وَتَجِدُ ٱلنُّفُوسُ فِي ٱلظُّلْمَةِ سِتْرًا مِنْ عَارِهِ فَإِذَا تَسَاوَوا فِي ذٰلِكَ أُرْجِفَ ٱلْعَسْكَرُ وَوَقَعَتِ ٱلْهَزِيمَةُ فَكَانُوا لِذٰلِكَ يَحْتَفِرُونَ ٱلْخَنَادِقَ عَلَى مُعَسْكَرِهِمْ إِذَا نَزَلُوا وَضَرَبُوا أَبْنِيَتَهُمْ وَيُدِيرُونَ ٱلْحَفَائِرَ نِطَاقًا عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ حِرْصًا أَنْ يُخَالِطَهُمُ ٱلْعَدُوُّ بِٱلْبَيَاتِ فَيَتَخَاذَلُوا وَكَانَتْ لِلدُّوَلِ فِي أَمْثَالِ هٰذَا قُوَّةٌ وَعَلَيْهِ ٱقْتِدَارٌ بِٱحْتِشَادِ ٱلرِّجَالِ وَجَمْعِ ٱلْأَيْدِي عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعُمْرَانِ وَضَخَامَةِ ٱلْمُلْكِ فَلَمَّا خَرِبَ ٱلْعُمْرَانُ وَتَبِعَهُ ضُعْفُ ٱلدُّوَلِ وَقِلَّةُ ٱلْجُنُودِ وَعَدَمُ ٱلْفَعَلَةِ نُسِيَ هٰذَا ٱلشَّأْنُ جُمْلَةً كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْقَادِرِينَ وَٱنْظُرْ وَصِيَّةَ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ وَتَحْرِيضَهُ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ صِفِّينَ تَجِدْ كَثِيرًا مِنْ عِلْمِ ٱلْحَرْبِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَبْصَرَ بِهَا مِنْهُ قَالَ فِي كَلَامٍ لَهُ فَسَوُّوا صُفُوفَكُمْ كَٱلْبُنْيَانِ ٱلْمَرْصُوصِ وَقَدِّمُوا ٱلدَّارِعَ وَأَخِّرُوا ٱلْحَاسِرَ وَعَضُّوا عَلَى ٱلْأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ ٱلْهَامِ وَٱلْتَوُوا عَلَى أَطْرَافِ ٱلرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَصْوَنُ لِلْأَسِنَّةِ وَغُضُّوا ٱلْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ وَأَخْفِتُوا ٱلْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ وَأَوْلَى بِٱلْوَقَارِ وَأَقِيمُوا رَايَاتِكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصِّدْقِ وَٱلصَّبْرِ فَإِنَّهُ بِقَدْرِ ٱلصَّبْرِ يَنْزِلُ ٱلنَّصْرُ وَقَالَ ٱلْأَشْتَرُ يَوْمَئِذٍ يُحَرِّضُ ٱلْأَزْدَ عَضُّوا عَلَى ٱلنَّوَاجِذِ مِنَ ٱلْأَضْرَاسِ وَٱسْتَقْبِلُوا ٱلْقَوْمَ بِهَامِكُمْ وَشُدُّوا شِدَّةَ قَوْمٍ مَوْتُورِينَ يَثْأَرُونَ بِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدْ وَطَّنُوا عَلَى ٱلْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لِئَلَّا يُسْبَقُوا بِوِتْرٍ وَلَا يَلْحَقَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا عَارٌ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ ذٰلِكَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصَّيْرَفِيُّ شَاعِرُ لِمْتُونَةَ وَأَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَمْدَحُ بِهَا تَاشَفِينَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا وَيُذَكِّرُهُ بِأُمُورِ ٱلْحَرْبِ فِي وَصَايَا تَحْذِيرَاتٍ تُنَبِّهُكَ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ سِيَاسَةِ ٱلْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا

يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِي يَتَقَنَّعُ ... مَنْ مِنْكُمُ ٱلْمَلِكُ ٱلْهُمَامُ ٱلْأَرْوَعُ
وَمَنِ ٱلَّذِي غَدَرَ ٱلْعَدُوُّ بِهِ دُجًى ... فَٱنْفَضَّ كُلٌّ وَهْوَ لَا يَتَزَعْزَعُ

تَمضِي ٱلْفَوَارِسُ وَٱلطِّعَانُ يَصُدُّهَا عَنْهُ وَيُذْمِرُهَا ٱلْوَفَاءُ فَتَرْجِعُ
وَٱللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ ٱلتَّرَائِكِ إِنَّهُ صُبْحٌ عَلَى هَامِ ٱلْجُيُوشِ يَلْمَعُ
أَنَّى فَزِعْتُمْ يَا بَنِي صَنْهَاجَةٍ وَإِلَيْكُمُ فِي ٱلرَّوْعِ كَانَ ٱلْمَفْزَعُ
إِنْسَانُ عَيْنٍ لَمْ يُصِبْهَا مِنْكُمُ حُضْنٌ وَقَلْبٌ أَسْلَمَتْهُ ٱلْأَضْلُعُ
وَصَدَدْتُمُ عَنْ تَاشِفِينَ وَإِنَّهُ لَعِقَابُهُ لَوْ شَاءَ فِيكُمْ مَوْضِعُ
مَا أَنْتُمُ إِلَّا أُسُودُ خَفِيَّةٍ كُلٌّ لِكُلِّ كَرِيهَةٍ مُسْتَطْلِعُ
يَا تَاشِفِينُ أَقِمْ لِجَيْشِكَ عُذْرَهُ بِٱللَّيْلِ وَٱلْعُذْرُ ٱلَّذِي لَا يُدْفَعُ

ومنها في سياسة الحرب

أُهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ ٱلسِّيَاسَةِ مَا بِهِ كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْفُرْسِ قَبْلَكَ تُولَعُ
لَا إِنَّنِي أَدْرِي بِهَا لَكِنَّهَا ذِكْرَى تَحُضُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَٱلْبَسْ مِنَ ٱلْحَلَقِ ٱلْمُضَاعَفَةِ ٱلَّتِي وَصَّى بِهَا صَنْعُ ٱلصَّنَائِعِ تُبَّعُ
وَٱلْهِنْدُوَانِيَّ ٱلرَّقِيقَ فَإِنَّهُ أَمْضَى عَلَى حَدِّ ٱلدِّلَاصِ وَأَقْطَعُ
وَٱرْكَبْ مِنَ ٱلْخَيْلِ ٱلسَّوَابِقِ عُدَّةً حُصْنًا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مَدْفَعُ
خَنْدِقْ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً سِيَّانِ تَتْبَعُ ظَافِرًا أَوْ تُتْبَعُ
وَٱلْوَادِ لَا تَعْبُرْهُ وَٱنْزِلْ عِنْدَهُ بَيْنَ ٱلْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ
وَٱجْعَلْ مُنَاجَزَةَ ٱلْجُيُوشِ عَشِيَّةً وَوَرَاءَكَ ٱلصِّدْقُ ٱلَّذِي هُوَ أَمْنَعُ
وَإِذَا تَضَايَقَتِ ٱلْجُيُوشُ بِمَعْرَكٍ ضَنْكٍ فَأَطْرَافُ ٱلرِّمَاحِ تُوَسِّعُ
وَٱصْدِمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرِثْ شَيْئًا فَإِظْهَارُ ٱلنُّكُولِ يُضَعْضِعُ
وَٱجْعَلْ مِنَ ٱلطُّلَّاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ لِلصِّدْقِ فِيهِمْ شِيمَةٌ لَا تَخْدَعُ
لَا تَسْمَعِ ٱلْكَذَّابَ جَاءَكَ رُجِّنًا لَا رَأْيَ لِلْكَذَّابِ فِيمَا يَصْنَعُ

قَوْلُهُ وَٱصْدِمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرِثْ ٱلْبَيْتُ مُخَالِفٌ لِمَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي أَمْرِ ٱلْحَرْبِ فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ ٱلثَّقَفِيِّ لَمَّا وَلَّاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَٱلْعِرَاقِ فَقَالَ لَهُ ٱسْمَعْ وَأَطِعْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَا تُجِيبَنَّ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ فَإِنَّهَا ٱلْحَرْبُ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَكِيثُ ٱلَّذِي يَعْرِفُ ٱلْفُرْصَةَ وَٱلْكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُؤَمِّرَ سَلِيطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي ٱلْحَرْبِ

وفي التسرع في الحرب إلا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لأمرته لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بأن التثاقل في الحرب أولى من الخفوف حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفي إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم * ولا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد وإنما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن أمور خفية وهي إما من خداع البشر وحيلهم في الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفي الكمون في الغياض ومطمئن الأرض والتواري بالكدى حول العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلمسون إلى النجاة وأمثال ذلك وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أمورا سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب فيستولي الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يعتمل لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالبا عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في قلوبهم سببا للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها إلا أنه خفي عن العيون * وقد ذكر الطرطوشي أن من أسباب الغلب في الحرب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب

ٱلآخرِ مثل أنْ يكون أحدُ ٱلجانبين فيه عشرةٌ أو عشرون من ٱلشجعان ٱلمشاهير وفي ٱلجانب ٱلآخر ثمانيةٌ أو ستةَ عشرَ فٱلجانبُ ٱلزائدُ ولو بواحدٍ يكون له ٱلغلبُ وأعاد في ذلك وأبدى وهو راجعٌ إلى ٱلأسباب ٱلظاهرة ٱلتي قدّمنا وليس بصحيح وإنما ٱلصحيحُ ٱلمعتبرُ في ٱلغلب حالُ ٱلعصبية أن يكون في أحد ٱلجانبين عصبيةٌ واحدةٌ جامعةٌ لكلّهم وفي ٱلجانب ٱلآخر عصائبُ متعددةٌ لأنّ ٱلعصائبَ إذا كانت متعددةً يقع بينها من ٱلتخاذل ما يقع في ٱلوحدان ٱلمتفرّقين ٱلفاقدين للعصبية تنزّل كلُّ عصابةٍ منهم منزلةَ ٱلواحد ويكون ٱلجانبُ ٱلذي عصابتُهُ متعددةٌ لا يقاومُ ٱلجانبَ ٱلذي عصبيّتُهُ واحدةٌ لأجل ذلك فتفهّمْهُ وٱعلمْ أنّه أصحّ في ٱلاعتبار ممّا ذهب إليه ٱلطرطوشيُّ ولم يحمله على ذلك إلّا نسيانُ شأنِ ٱلعصبية في حِلّةٍ وبلدةٍ وأنّهم إنّما يرون ذلك ٱلدفاعَ وٱلحمايةَ وٱلمطالبةَ إلى ٱلوحدان وٱلجماعةُ ٱلناشئةُ عنهم لا يعتبرون في ذلك عصبيةً ولا نسباً وقد بيّنّا ذلك أوّلَ ٱلكتاب مع أنّ هذا وأمثالَهُ على تقدير صحّته إنّما هو من ٱلأسباب ٱلظاهرة مثلُ ٱتفاق ٱلجيش في ٱلعدّة وصدقِ ٱلقتال وكثرةِ ٱلأسلحة وما أشبهها فكيف يُجعل ذلك كفيلاً بٱلغلب ونحنُ قد قرّرنا لك ٱلآن أنّ شيئاً منها لا يعارضُ ٱلأسبابَ ٱلخفيّةَ من ٱلحِيَل وٱلخداع ولا ٱلأمورَ ٱلسماويةَ من ٱلرعب وٱلخذلان ٱلإلهيّ فٱفهمْهُ وتفهّمْ أحوالَ ٱلكون وٱللهُ مقدّرُ ٱلليل وٱلنهار * ويُلحقُ بمعنى ٱلغلب في ٱلحروب وأنّ أسبابَهُ خفيّةٌ وغيرُ طبيعيةٍ حالُ ٱلشهرة وٱلصيت فقلَّ أنْ تصادفَ موضعَها في أحدٍ من طبقات ٱلناس من ٱلملوك وٱلعلماء وٱلصالحين وٱلمنتحلين للفضائل على ٱلعموم وكثيرٌ ممّن ٱشتهر بٱلشرّ وهو بخلافه وكثيرٌ ممّن تجاوزتْ عنه ٱلشهرةُ وهو أحقُّ بها وأهلُها وقد تصادفُ موضعَها وتكون طبقاً على صاحبها وٱلسببُ في ذلك أنّ ٱلشهرةَ وٱلصيتَ إنّما هُما بٱلإخبار وٱلإخبارُ يدخلُها ٱلذهولُ عن ٱلمقاصد عند ٱلتناقل ويدخلُها ٱلتعصّبُ وٱلتشيّعُ ويدخلُها ٱلأوهامُ ويدخلُها ٱلجهلُ بمطابقة ٱلحكايات للأحوال لخفائها بٱلتلبيس وٱلتصنّع أو لجهل ٱلناقل ويدخلُها ٱلتقرّبُ لأصحاب ٱلتجلّة وٱلمراتب ٱلدنيوية بٱلثناء وٱلمدح وتحسين ٱلأحوال وإشاعة ٱلذكر بذلك وٱلنفوسُ مولعةٌ بحبّ ٱلثناء وٱلناسُ متطاولون إلى ٱلدنيا وأسبابها من جاهٍ أو ثروةٍ وليسوا من ٱلأكثر براغبين في ٱلفضائل ولا منافسين في أهلها وأين مطابقةُ ٱلحقّ مع هذه كلّها فتختلُّ ٱلشهرةُ عن

أَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ مِنْ هٰذِهِ وَتَكُونُ غَيْرَ مُطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبٍ خَفِيٍّ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِٱلْبَخْتِ كَمَا تَقَرَّرَ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْجِبَايَةَ أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةَ ٱلْوَزَائِعِ كَثِيرَةَ ٱلْجُمْلَةِ وَآخِرَ ٱلدَّوْلَةِ تَكُونُ كَثِيرَةَ ٱلْوَزَائِعِ قَلِيلَةَ ٱلْجُمْلَةِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سَنَنِ ٱلدِّينِ فَلَيْسَتْ تَقْتَضِي إِلَّا ٱلْمَغَارِمَ ٱلشَّرْعِيَّةَ مِنَ ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلْخَرَاجِ وَٱلْجِزْيَةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ ٱلْوَزَائِعِ لِأَنَّ مِقْدَارَ ٱلزَّكَاةِ مِنَ ٱلْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ وَكَذَا زَكَاةُ ٱلْحُبُوبِ وَٱلْمَاشِيَةِ وَكَذَا ٱلْجِزْيَةُ وَٱلْخَرَاجُ وَجَمِيعُ ٱلْمَغَارِمِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سَنَنِ ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَٱلْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي ٱلْمُسَامَحَةَ وَٱلْمُكَارَمَةَ وَخَفْضَ ٱلْجَنَاحِ وَٱلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَٱلْغَفْلَةَ عَنْ تَحْصِيلِ ذٰلِكَ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ فَيَقِلُّ لِذٰلِكَ مِقْدَارُ ٱلْوَظِيفَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْوَزِيعَةِ ٱلَّتِي تَجْمَعُ ٱلْأَمْوَالَ مِنْ مَجْمُوعِهَا وَإِذَا قَلَّتِ ٱلْوَزَائِعُ وَٱلْوَظَائِفُ عَلَى ٱلرَّعَايَا نَشِطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغِبُوا فِيهِ فَيَكْثُرُ ٱلْاعْتِمَارُ وَيَتَزَايَدُ لِحُصُولِ ٱلْاغْتِبَاطِ بِقِلَّةِ ٱلْمَغْرَمِ وَإِذَا كَثُرَ ٱلْاعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ ٱلْوَظَائِفِ وَٱلْوَزَائِعِ فَكَثُرَتِ ٱلْجِبَايَةُ ٱلَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا فَإِذَا ٱسْتَمَرَّتِ ٱلدَّوْلَةُ وَٱتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَٱتَّصَفُوا بِٱلْكَيْسِ وَذَهَبَ سِرُّ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلسَّذَاجَةِ وَخُلُقُهَا مِنَ ٱلْإِغْضَاءِ وَٱلتَّجَافِي وَجَاءَ ٱلْمُلْكُ ٱلْعَضُوضُ وَٱلْحَضَارَةُ ٱلدَّاعِيَةُ إِلَى ٱلْكَيْسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِخُلُقِ ٱلتَّحَذْلُقِ وَتَكَثَّرَتْ عَوَائِدُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ بِسَبَبِ مَا ٱنْغَمَسُوا فِيهِ مِنَ ٱلنَّعِيمِ وَٱلتَّرَفِ فَيُكَثِّرُونَ ٱلْوَظَائِفَ وَٱلْوَزَائِعَ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلرَّعَايَا وَٱلْأَكَرَةِ وَٱلْفَلَّاحِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ ٱلْمَغَارِمِ وَيَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيعَةٍ مِقْدَارًا عَظِيمًا لِتَكْثُرَ لَهُمُ ٱلْجِبَايَةُ وَيَضَعُونَ ٱلْمُكُوسَ عَلَى ٱلْمُبَايَعَاتِ وَفِي ٱلْأَبْوَابِ كَمَا نَذْكُرُ بَعْدُ ثُمَّ تَتَدَرَّجُ ٱلزِّيَادَاتُ فِيهَا بِمِقْدَارٍ بَعْدَ مِقْدَارٍ لِتَدَرُّجِ عَوَائِدِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱلتَّرَفِ وَكَثْرَةِ ٱلْحَاجَاتِ وَٱلْإِنْفَاقِ بِسَبَبِهِ حَتَّى تَثْقُلَ ٱلْمَغَارِمُ عَلَى ٱلرَّعَايَا وَتَهْضِمَهُمْ وَتَصِيرَ عَادَةً مَفْرُوضَةً لِأَنَّ تِلْكَ ٱلزِّيَادَةَ تَدَرَّجَتْ قَلِيلًا قَلِيلًا وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ بِمَنْ زَادَهَا عَلَى ٱلتَّعْيِينِ وَلَا مَنْ هُوَ وَاضِعُهَا إِنَّمَا ثَبَتَ عَلَى ٱلرَّعَايَا فِي ٱلْاعْتِمَارِ لِذَهَابِ ٱلْأَمَلِ مِنْ نُفُوسِهِمْ بِقِلَّةِ ٱلنَّفْعِ إِذَا قَابَلَ بَيْنَ نَفْعِهِ وَمَغَارِمِهِ وَبَيْنَ

ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار جملة فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبرًا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لأن فائدة الاعتمار عائدة إليها وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس إليه لثقتها بإدراك المنفعة فيه والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها وبيده ملكوت كل شيء

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس اواخر الدولة

إعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإنفاقها قليلاً فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولاً كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرًا معلوماً على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه طرق الناس من كثرة العطاء من زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد

ٱلْأَسْوَاقُ لِفَسَادِ ٱلْآمَالِ وَيُؤْذِنُ ذٰلِكَ بِٱخْتِلَالِ ٱلْعُمْرَانِ وَيَعُودُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَلَا يَزَالُ ذٰلِكَ يَتَزَايَدُ إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ ٱلْمَشْرِقِ فِي أُخْرَيَاتِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ وَٱلْعُبَيْدِيَّةِ كَثِيرٌ وَفُرِضَتِ ٱلْمَغَارِمُ حَتَّى عَلَى ٱلْحَاجِّ فِي ٱلْمَوْسِمِ وَأَسْقَطَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ أَيُّوبُ تِلْكَ ٱلرُّسُومَ جُمْلَةً وَأَعَاضَهَا بِآثَارِ ٱلْخَيْرِ وَكَذٰلِكَ وَقَعَ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِعَهْدِ ٱلطَّوَائِفِ حَتَّى مَحَى رَسْمَهُ يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ أَمِيرُ ٱلْمُرَابِطِينَ وَكَذٰلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ ٱلْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حِينَ ٱسْتَبَدَّ بِهَا رُؤَسَاؤُهَا وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الاربعون

في ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا ضَاقَتْ جِبَايَتُهَا بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَوَائِدِ وَٱلنَّفَقَاتِ وَقَصُرَ ٱلْحَاصِلُ مِنْ جِبَايَتِهَا عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَٱحْتَاجَتْ إِلَى مَزِيدِ ٱلْمَالِ وَٱلْجِبَايَةِ فَتَارَةً تُوضَعُ ٱلْمُكُوسُ عَلَى بِيَاعَاتِ ٱلرَّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ذٰلِكَ فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِٱلزِّيَادَةِ فِي أَلْقَابِ ٱلْمُكُوسِ إِنْ كَانَ قَدِ ٱسْتُحْدِثَ مِنْ قَبْلُ وَتَارَةً بِمُقَاسَمَةِ ٱلْعُمَّالِ وَٱلْجُبَاةِ وَٱمْتِكَاكِ عِظَامِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْجِبَايَةِ لَا يُظْهِرُهُ ٱلْحُسْبَانُ وَتَارَةً بِٱسْتِحْدَاثِ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلْفِلَاحَةِ لِلسُّلْطَانِ عَلَى تَسْمِيَةِ ٱلْجِبَايَةِ لِمَا يَرَوْنَ ٱلتُّجَّارَ وَٱلْفَلَّاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى ٱلْفَوَائِدِ وَٱلْغَلَّاتِ مَعَ يَسَارَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَنَّ ٱلْأَرْبَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُؤُوسِ ٱلْأَمْوَالِ فَيَأْخُذُونَ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ لِٱسْتِغْلَالِهِ فِي شِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَٱلتَّعَرُّضِ بِهَا لِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَيَحْسَبُونَ ذٰلِكَ مِنْ إِدْرَارِ ٱلْجِبَايَةِ وَتَكْثِيرِ ٱلْفَوَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِدْخَالُ ٱلضَّرَرِ عَلَى ٱلرَّعَايَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوَّلًا مُضَايَقَةُ ٱلْفَلَّاحِينَ وَٱلتُّجَّارِ فِي شِرَاءِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلْبَضَائِعِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلرَّعَايَا مُتَكَافِئُونَ فِي ٱلْيَسَارِ مُتَقَارِبُونَ وَمُزَاحَمَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقْرُبُ وَإِذَا رَافَقَهُمُ ٱلسُّلْطَانُ فِي ذٰلِكَ وَمَالُهُ أَعْظَمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى ٱلنُّفُوسِ مِنْ ذٰلِكَ غَمٌّ وَنَكَدٌ ثُمَّ إِنَّ ٱلسُّلْطَانَ قَدْ يَنْتَزِعُ ٱلْكَثِيرَ مِنْ ذٰلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ غَضًّا أَوْ بِأَيْسَرِ ثَمَنٍ أَوْ لَا يَجِدُ مَنْ يُنَاقِشُهُ فِي شِرَائِهِ فَيَبْخَسُ ثَمَنَهُ عَلَى بَائِعِهِ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ ٱلْفِلَاحَةِ وَمُغَلُّهَا كُلُّهُ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ سُكَّرٍ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ

الغلاّت وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاّح بشراء تلك البضائع ولا يرضون في أثمانها إلاّ القيم وأزيد فيستوعبون في ذلك ناضّ أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدة ويمكثون عطلاً من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم وربّما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن وربّما يتكرّر ذلك على التاجر والفلاّح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعد عن سوقه ويتعدّد ذلك ويتكرّر ويدخل به على الرّعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدّي إلى فساد الجباية فإنّ معظم الجباية إنّما هي من الفلاّحين والتّجار ولا سيّما بعد وضع المكوس ونموّ الجباية بها فإذا انقبض الفلاّحون عن الفلاحة وقعد التّجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقلّ من القليل ثمّ إنّه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظّ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع فإنّه من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسّبها كلّها حاصلاً من جهة الجباية ثمّ فيه التعرّض لأهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصهم فإنّ الرّعايا إذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلاف أحوالهم فافهم ذلك وكان الفرس لا يملّكون عليهم إلاّ من أهل بيت المملكة ثمّ يختارونه من أهل الفضل والدّين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم ثمّ يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتّخذ صنعة فيضرّ بجيرانه ولا يتاجر فيحبّ غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فإنّهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة. واعلم أنّ السّلطان لا ينمي ماله ولا يدرّ موجوده إلاّ الجباية وإدرارها إنّما يكون بالعدل في أهل الأموال والنظر لهم بذلك فبذلك تنبسط آمالهم وتنشرح صدورهم للأخذ في تثمير الأموال وتنميتها فتعظم منها جباية السّلطان وأمّا غير ذلك من تجارة أو فلح فإنّما هو مضرّة عاجلة للرّعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة

وَٱلْفلاحة مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ وَٱلْمُتَغَلِّبِينَ فِي ٱلْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ ٱلْغَلَّاتِ وَٱلسِّلَعِ مِنْ أَرْبَابِهَا ٱلْوَارِدِينَ عَلَى بَلَدِهِمْ وَيَفْرِضُونَ لِذٰلِكَ مِنَ ٱلثَّمَنِ مَا يَشَاؤُونَ وَيَبِيعُونَهَا فِي وَقْتِهَا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ ٱلرَّعَايَا بِمَا يَفْرِضُونَ مِنَ ٱلثَّمَنِ وَهٰذِهِ أَشَدُّ مِنَ ٱلْأُولَى وَأَقْرَبُ إِلَى فَسَادِ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱخْتِلَالِ أَحْوَالِهِمْ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ ٱلسُّلْطَانَ عَلَى ذٰلِكَ مَنْ يُدَاخِلُهُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ أَعْنِي ٱلتُّجَّارَ وَٱلْفَلَّاحِينَ لِمَا هِيَ صِنَاعَتُهُ ٱلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ ٱلسُّلْطَانَ عَلَى ذٰلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ بِسَهْمٍ لِنَفْسِهِ لِيَحْصُلَ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ ٱلْمَالِ سَرِيعًا وَلَاسِيَّمَا مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ ٱلتِّجَارَةِ بِلَا مَغْرَمٍ وَلَا مَكْسٍ فَإِنَّهَا أَجْدَرُ بِنُمُوِّ ٱلْأَمْوَالِ وَأَسْرَعُ فِي تَثْمِيرِهِ وَلَا يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ مِنَ ٱلضَّرَرِ بِنَقْصِ جِبَايَتِهِ فَيَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَيُعْرِضَ عَنْ سِعَايَتِهِمِ ٱلْمُضِرَّةِ بِجِبَايَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَٱللّٰهُ يُلْهِمُنَا رُشْدَ أَنْفُسِنَا وَيَنْفَعُنَا بِصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الواحد والاربعون

في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجِبَايَةَ فِي أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ تَتَوَزَّعُ عَلَى أَهْلِ ٱلْقَبِيلِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ بِمِقْدَارِ غَنَائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ وَلِأَنَّ ٱلْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمْهِيدِ ٱلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ فَرَئِيسُهُمْ فِي ذٰلِكَ مُتَجَافٍ لَهُمْ عَمَّا يَسْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلِٱسْتِبْدَادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ وَلَهُ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ فَلَا يَطِيرُ فِي سُهْمَانِهِ مِنَ ٱلْجِبَايَةِ إِلَّا ٱلْأَقَلُّ مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجِدُ حَاشِيَتَهُ لِذٰلِكَ وَأَذْيَالَهُ مِنَ ٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلْمَوَالِي مُتَمَلِّقِينَ فِي ٱلْغَالِبِ وَجَاهُهُمْ مُتَقَلِّصٌ لِأَنَّهُ مِنْ جَاهِ مَخْدُومِهِمْ وَنِطَاقُهُ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يُزَاحِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ فَإِذَا ٱسْتَفْحَلَتْ طَبِيعَةُ ٱلْمُلْكِ وَحَصَلَ لِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلِٱسْتِبْدَادُ عَلَى قَوْمِهِ قَبَضَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ ٱلْجِبَايَاتِ إِلَّا مَا يَطِيرُ لَهُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي سُهْمَانِهِمْ وَتَقِلُّ حُظُوظُهُمْ إِذْ ذَاكَ لِقِلَّةِ غَنَائِهِمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ بِمَا ٱنْكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَصَارَ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعُ مُسَاهِمِينَ لَهُمْ فِي ٱلْقِيَامِ بِٱلدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ ٱلْأَمْرِ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِٱلْجِبَايَةِ أَوْ مُعْظَمِهَا وَيَحْتَوِي عَلَى ٱلْأَمْوَالِ وَيَحْتَجِنُهَا لِلنَّفَقَاتِ فِي مُهِمَّاتِ ٱلْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ ثَرْوَتُهُ وَتَمْتَلِئُ خَزَائِنُهُ وَيَتَّسِعُ نِطَاقُ جَاهِهِ وَيَعْتَزُّ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ فَيَعْظُمُ حَالُ حَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكَاتِبٍ وَحَاجِبٍ وَمَوْلًى وَشُرْطِيٍّ وَيَتَّسِعُ جَاهُهُمْ وَيَقْتَنُونَ ٱلْأَمْوَالَ وَيَتَأَثَّلُونَهَا ثُمَّ إِذَا أَخَذَتِ ٱلدَّوْلَةُ فِي

الهرم بتلاشي العصبية وفناء القليل المعاهدين للدولة احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأعوان والأنصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاض فصار خراجه لظهرائه وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصبيات وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحداً بعد واحد على نسبة رتبهم وتتنكر الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه. وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدركناها لعهدنا سنة الله التي قد خلت في عباده

فصل * ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون إلى الفرار عن الرتب والتخلص من ربقة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم ودنياهم واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا أهل العصبية المزاحمون له بل في ظهور ذلك منه هدم لملكه وإتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك لأن ربقة الملك يعسر الخلاص منها ولا سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان

وَحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ ٱلرُّتَبِ فِي دَوْلَتِهِ فَقَلَّ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذٰلِكَ أَمَّا أَوَّلاً فَلِمَا يَرَاهُ ٱلْمُلُوكُ أَنَّ ذَوِيهِمْ وَحَاشِيَتَهُمْ بَلْ وَسَائِرَ رَعَايَاهُمْ مَمَالِيكُ لَهُمْ مُطَّلِعُونَ عَلَى ذَاتِ صُدُورِهِمْ فَلَا يَسْمَحُونَ بِحَلِّ رِبْقَتِهِ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ ضِنًّا بِأَسْرَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَغَيْرَةً مِنْ خِدْمَتِهِ لِسِوَاهُمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ ٱلسَّفَرِ لِفَرِيضَةِ ٱلْحَجِّ لِمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ وُقُوعِهِمْ بِأَيْدِي بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَلَمْ يَحُجَّ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِمْ وَمَا أُبِيحَ ٱلْحَجُّ لِأَهْلِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَأْنِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَرُجُوعِهَا إِلَى ٱلطَّوَائِفِ وَأَمَّا ثَانِيًا فَلِأَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِحَلِّ رِبْقَتِهِ فَلَا يَسْمَحُونَ بِٱلتَّجَافِي عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يُكْتَسَبْ إِلَّا بِهَا وَفِي ظِلِّ جَاهِهَا فَتَحُومُ نُفُوسُهُمْ عَلَى ٱنْتِزَاعِ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ وَٱلْتِقَامِهِ كَمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ يَنْتَفِعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خَلَصَ بِذٰلِكَ ٱلْمَالِ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ وَهُوَ فِي ٱلنَّادِرِ ٱلْأَقَلِّ فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ ٱلْمُلُوكِ بِذٰلِكَ ٱلْقُطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ بِٱلْإِرْهَابِ وَٱلتَّخْوِيفِ تَعْرِيضًا أَوْ بِٱلْقَهْرِ ظَاهِرًا لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَالُ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلدُّوَلِ وَأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْإِنْفَاقِ فِي ٱلْمَصَالِحِ وَإِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى أَهْلِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ ٱلْمُتَكَسِّبِينَ مِنْ وُجُوهِ ٱلْمَعَاشِ فَأَحْرَى بِهَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلَى أَمْوَالِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي تَجِدُ ٱلسَّبِيلَ إِلَيْهِ بِٱلشَّرْعِ وَٱلْعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّا بْنُ أَحْمَدَ ٱللِّحْيَانِيُّ تَاسِعُ أَوْ عَاشِرُ مُلُوكِ ٱلْحَفْصِيِّينَ بِأَفْرِيقَةَ ٱلْخُرُوجَ عَنْ عُهْدَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱللَّحَاقَ بِمِصْرَ فِرَارًا مِنْ طَلَبِ صَاحِبِ ٱلثُّغُورِ ٱلْغَرْبِيَّةِ لَمَّا ٱسْتَجْمَعَ لِغَزْوِ تُونِسَ فَٱسْتَعْمَلَ ٱللِّحْيَانِيُّ ٱلرِّحْلَةَ إِلَى ثَغْرِ طَرَابُلُسَ يُوَرِّي بِتَمْهِيدِهِ وَرَكِبَ ٱلسُّفُنَ مِنْ هُنَالِكَ وَخَلَصَ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بِبَيْتِ ٱلْمَالِ مِنَ ٱلصَّامِتِ وَٱلذَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ بِخَزَائِنِهِمْ مِنَ ٱلْمَتَاعِ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْجَوْهَرِ حَتَّى ٱلْكُتُبِ وَٱحْتَمَلَ ذٰلِكَ كُلَّهُ إِلَى مِصْرَ وَنَزَلَ عَلَى ٱلْمَلِكِ ٱلنَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلْمِائَةِ ٱلثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ نُزُلَهُ وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلِصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِٱلتَّعْرِيضِ إِلَى أَنْ حَصَلَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ مَعَاشُ ٱبْنِ ٱللِّحْيَانِيِّ إِلَّا فِي جِرَايَتِهِ ٱلَّتِي فَرَضَ لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ حَسْبَمَا نَذْكُرُهُ فِي أَخْبَارِهِ فَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلَّذِي يَعْتَرِي أَهْلَ ٱلدُّوَلِ لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ مِنَ ٱلْمَعَاطِبِ وَإِنَّمَا يَخْلُصُونَ إِنِ ٱتَّفَقَ لَهُمُ ٱلْخَلَاصُ بِأَنْفُسِهِمْ

وَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ فَغَلَطٌ وَوَهْمٌ وَٱلَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنَ ٱلشُّهْرَةِ بِخِدْمَةِ ٱلدُّوَلِ كَافٍ فِي وِجْدَانِ ٱلْمَعَاشِ لَهُمْ بِٱلْجِرَايَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ أَوْ بِٱلْجَاهِ فِي ٱنْتِحَالِ طُرُقِ ٱلْكَسْبِ مِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلْفِلَاحَةِ وَٱلدُّوَلُ أَنْسَابٌ لَكِنْ

أَلنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا   وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ وَهُوَ ٱلْمُوَفِّقُ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والاربعون

في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ وَٱلسُّلْطَانَ هِيَ ٱلسُّوقُ ٱلْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَّةُ ٱلْعُمْرَانِ فَإِذَا ٱحْتَجَنَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلْأَمْوَالَ أَوِ ٱلْجِبَايَاتِ أَوْ فُقِدَتْ فَلَمْ يَصْرِفْهَا فِي مَصَارِفِهَا قَلَّ حِينَئِذٍ مَا بِأَيْدِي ٱلْحَاشِيَةِ وَٱلْحَامِيَةِ وَٱنْقَطَعَ أَيْضًا مَا كَانَ يَصِلُ مِنْهُمْ لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَّتْ نَفَقَاتُهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ ٱلسَّوَادِ وَنَفَقَاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةً لِلْأَسْوَاقِ مِمَّنْ سِوَاهُمْ فَيَقَعُ ٱلْكَسَادُ حِينَئِذٍ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَتَضْعُفُ ٱلْأَرْبَاحُ فِي ٱلْمَتَاجِرِ فَيَقِلُّ ٱلْخَرَاجُ لِذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْخَرَاجَ وَٱلْجِبَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ ٱلْاِعْتِمَارِ وَٱلْمُعَامَلَاتِ وَنَفَاقِ ٱلْأَسْوَاقِ وَطَلَبِ ٱلنَّاسِ لِلْفَوَائِدِ وَٱلْأَرْبَاحِ وَوَبَالُ ذٰلِكَ عَائِدٌ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ بِٱلنَّقْصِ لِقِلَّةِ أَمْوَالِ ٱلسُّلْطَانِ حِينَئِذٍ بِقِلَّةِ ٱلْخَرَاجِ فَإِنَّ ٱلدَّوْلَةَ كَمَا قُلْنَاهُ هِيَ ٱلسُّوقُ ٱلْأَعْظَمُ أُمُّ ٱلْأَسْوَاقِ كُلِّهَا وَأَصْلُهَا وَمَادَّتُهَا فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ فَإِنْ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ مَصَارِفُهَا فَأَجْدِرْ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْأَسْوَاقِ أَنْ يَلْحَقَهَا مِثْلُ ذٰلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ وَأَيْضًا فَٱلْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلسُّلْطَانِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ ٱلسُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتْهُ ٱلرَّعِيَّةُ سُنَّةُ ٱللّٰهِ فِي عِبَادِهِ

الفصل الثالث والاربعون

في ان الظلم موذن بخراب العمران

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعُدْوَانَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِآمَالِهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا وَٱكْتِسَابِهَا لِمَا يَرَوْنَهُ حِينَئِذٍ مِنْ أَنَّ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا ٱنْتِهَابُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ آمَالُهُمْ فِي ٱكْتِسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا ٱنْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ ٱلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ وَعَلَى قَدْرِ ٱلْاِعْتِدَاءِ وَنِسْبَتِهِ يَكُونُ ٱنْقِبَاضُ ٱلرَّعَايَا عَنِ ٱلسَّعْيِ فِي ٱلْاِكْتِسَابِ فَإِذَا كَانَ ٱلْاِعْتِدَاءُ كَثِيرًا عَامًّا فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ ٱلْمَعَاشِ كَانَ ٱلْقُعُودُ عَنِ ٱلْكَسْبِ كَذٰلِكَ لِذَهَابِهِ بِٱلْآمَالِ جُمْلَةً بِدُخُولِهِ

مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِهَا وَإِنْ كَانَ الِاعْتِدَاءُ يَسِيرًا كَانَ الِانْقِبَاضُ عَنِ الْكَسْبِ عَلَى نِسْبَتِهِ وَالْعُمْرَانُ وَوُفُورُهُ وَنَفَاقُ أَسْوَاقِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالْأَعْمَالِ وَسَعْيِ النَّاسِ فِي الْمَصَالِحِ وَالْمَكَاسِبِ ذَاهِبِينَ وَجَائِينَ فَإِذَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ الْمَعَاشِ وَانْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْمَكَاسِبِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ الْعُمْرَانِ وَانْتَقَضَتِ الْأَحْوَالُ وَابْذَعَرَّ النَّاسُ فِي الْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ تِلْكَ الْإِيَالَةِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ فِيمَا خَرَجَ عَنْ نِطَاقِهَا فَخَفَّ سَاكِنُ الْقُطْرِ وَخَلَتْ دِيَارُهُ وَخَرِبَتْ أَمْصَارُهُ. وَاخْتَلَّ بِاخْتِلَالِهِ حَالُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ لِمَا أَنَّهَا صُورَةٌ لِلْعُمْرَانِ تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَادَّتِهَا ضَرُورَةً وَانْظُرْ فِي ذَلِكَ مَا حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي أَخْبَارِ الْفُرْسِ عَنِ الْمُوبَذَانِ صَاحِبِ الدِّينِ عِنْدَهُمْ أَيَّامَ بَهْرَامَ بْنِ بَهْرَامَ وَمَا عَرَّضَ بِهِ لِلْمَلِكِ فِي إِنْكَارِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ عَائِدَتِهِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِضَرْبِ الْمِثَالِ فِي ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ الْبُومِ حِينَ سَمِعَ الْمَلِكُ أَصْوَاتَهَا وَسَأَلَهُ عَنْ فَهْمِ كَلَامِهَا فَقَالَ لَهُ إِنَّ بُومًا ذَكَرًا يَرُومُ نِكَاحَ بُومٍ أُنْثَى وَإِنَّهَا شَرَطَتْ عَلَيْهِ عِشْرِينَ قَرْيَةً مِنَ الْخَرَابِ فِي أَيَّامِ بَهْرَامَ فَقَبِلَ شَرْطَهَا وَقَالَ لَهَا إِنْ دَامَتْ أَيَّامُ الْمَلِكِ أَقْطَعْتُكِ أَلْفَ قَرْيَةٍ وَهَذَا أَسْهَلُ مَرَامٍ فَتَنَبَّهَ الْمَلِكُ مِنْ غَفْلَتِهِ وَخَلَا بِالْمُوبَذَانِ وَسَأَلَهُ عَنْ مُرَادِهِ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْمُلْكَ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِوَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمُلْكِ وَلَا عِزَّ لِلْمُلْكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِوَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالْمَالِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْمَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ الْمِيزَانُ الْمَنْصُوبُ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ نَصَبَهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قَيِّمًا وَهُوَ الْمَلِكُ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ عَمَدْتَ إِلَى الضِّيَاعِ فَانْتَزَعْتَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا وَعُمَّارِهَا وَهُمْ أَرْبَابُ الْخَرَاجِ وَمَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْأَمْوَالُ وَأَقْطَعْتَهَا الْحَاشِيَةَ وَالْخَدَمَ وَأَهْلَ الْبِطَالَةِ فَتَرَكُوا الْعِمَارَةَ وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ وَمَا يُصْلِحُ الضِّيَاعَ وَسُومِحُوا فِي الْخَرَاجِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَوَقَعَ الْحَيْفُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَرْبَابِ الْخَرَاجِ وَعُمَّارِ الضِّيَاعِ فَانْجَلَوْا عَنْ ضِيَاعِهِمْ وَخَلَّوْا دِيَارَهُمْ وَأَوَوْا إِلَى مَا تَعَذَّرَ مِنَ الضِّيَاعِ فَسَكَنُوهَا فَقَلَّتِ الْعِمَارَةُ وَخَرِبَتِ الضِّيَاعُ وَقَلَّتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْجُنُودُ وَالرَّعِيَّةُ وَطَمِعَ فِي مُلْكِ فَارِسَ مَنْ جَاوَرَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ لِعِلْمِهِمْ بِانْقِطَاعِ الْمَوَادِّ الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ دَعَائِمُ الْمُلْكِ إِلَّا بِهَا فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى النَّظَرِ فِي مُلْكِهِ وَانْتُزِعَتِ الضِّيَاعُ مِنْ أَيْدِي الْخَاصَّةِ وَرُدَّتْ عَلَى أَرْبَابِهَا وَحُمِلُوا عَلَى رُسُومِهِمُ السَّالِفَةِ وَأَخَذُوا فِي الْعِمَارَةِ وَقَوِيَ

مَنْ ضَعُفَ مِنْهُمْ فَعَمَرَتِ ٱلْأَرْضُ وَأَخْصَبَتِ ٱلْبِلَادُ وَكَثُرَتِ ٱلْأَمْوَالُ عِنْدَ جُبَاةِ ٱلْخَرَاجِ وَقَوِيَتِ ٱلْجُنُودُ وَقُطِعَتْ مَوَادُّ ٱلْأَعْدَاءِ وَشُحِنَتِ ٱلثُّغُورُ وَأَقْبَلَ ٱلْمَلِكُ عَلَى مُبَاشَرَةِ أُمُورِهِ بِنَفْسِهِ فَحَسُنَتْ أَيَّامُهُ وَٱنْتَظَمَ مُلْكُهُ فَتَفَهَّمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةِ أَنَّ ٱلظُّلْمَ مُخَرِّبٌ لِلْعُمْرَانِ وَأَنَّ عَائِدَةَ ٱلْخَرَابِ فِي ٱلْعُمْرَانِ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ بِٱلْفَسَادِ وَٱلِٱنْتِقَاضِ وَلَا تَنْظُرْ فِي ذٰلِكَ إِلَى أَنَّ ٱلِٱعْتِدَاءَ قَدْ يُوجَدُ بِٱلْأَمْصَارِ ٱلْعَظِيمَةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي بِهَا وَلَمْ يَقَعْ فِيهَا خَرَابٌ وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قِبَلِ ٱلْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ ٱلِٱعْتِدَاءِ وَأَحْوَالِ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ فَلَمَّا كَانَ ٱلْمِصْرُ كَبِيرًا وَعُمْرَانُهُ كَثِيرًا وَأَحْوَالُهُ مُتَّسِعَةً بِمَا لَا يَنْحَصِرُ كَانَ وُقُوعُ ٱلنَّقْصِ فِيهِ بِٱلِٱعْتِدَاءِ وَٱلظُّلْمِ يَسِيرًا لِأَنَّ ٱلنَّقْصَ إِنَّمَا يَقَعُ بِٱلتَّدْرِيجِ فَإِذَا خَفِيَ بِكَثْرَةِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱتِّسَاعِ ٱلْأَعْمَالِ فِي ٱلْمِصْرِ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُهُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ وَقَدْ تَذْهَبُ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْمُعْتَدِيَةُ مِنْ أَصْلِهَا قَبْلَ خَرَابِ ٱلْمِصْرِ وَتَجِيءُ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْأُخْرَى فَتَرْفَعُهُ بِجِدَّتِهَا وَتَجْبُرُ ٱلنَّقْصَ ٱلَّذِي كَانَ خَفِيًّا فِيهِ فَلَا يَكَادُ يُشْعَرُ بِهِ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَٱلْمُرَادُ مِنْ هٰذَا أَنَّ حُصُولَ ٱلنَّقْصِ فِي ٱلْعُمْرَانِ عَنِ ٱلظُّلْمِ وَٱلْعُدْوَانِ أَمْرٌ وَاقِعٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِمَا قَدَّمْنَاهُ وَوَبَالُهُ عَائِدٌ عَلَى ٱلدُّوَلِ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلظُّلْمَ إِنَّمَا هُوَ أَخْذُ ٱلْمَالِ أَوِ ٱلْمُلْكِ مِنْ يَدِ مَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ عِوَضٍ وَلَا سَبَبٍ كَمَا هُوَ ٱلْمَشْهُورُ بَلِ ٱلظُّلْمُ أَعَمُّ مِنْ ذٰلِكَ وَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مُلْكَ أَحَدٍ أَوْ غَصَبَهُ فِي عَمَلِهِ أَوْ طَالَبَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَفْرِضْهُ ٱلشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ فَجُبَاةُ ٱلْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَةٌ وَٱلْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا ظَلَمَةٌ وَٱلْمُنْتَهِبُونَ لَهَا ظَلَمَةٌ وَٱلْمَانِعُونَ لِحُقُوقِ ٱلنَّاسِ ظَلَمَةٌ وَخُصَّابُ ٱلْأَمْلَاكِ عَلَى ٱلْعُمُومِ ظَلَمَةٌ وَوَبَالُ ذٰلِكَ كُلِّهِ عَائِدٌ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ بِخَرَابِ ٱلْعُمْرَانِ ٱلَّذِي هُوَ مَادَّتُهَا لِإِذْهَابِهِ ٱلْآمَالَ مِنْ أَهْلِهِ وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَحْرِيمِ ٱلظُّلْمِ وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ فَسَادِ ٱلْعُمْرَانِ وَخَرَابِهِ وَذٰلِكَ مُؤْذِنٌ بِٱنْقِطَاعِ ٱلنَّوْعِ ٱلْبَشَرِيِّ وَهِيَ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْعَامَّةُ ٱلْمُرَاعِيَةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ مَقَاصِدِهِ ٱلضَّرُورِيَّةِ ٱلْخَمْسَةِ مِنْ حِفْظِ ٱلدِّينِ وَٱلنَّفْسِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلنَّسْلِ وَٱلْمَالِ فَلَمَّا كَانَ ٱلظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤْذِنًا بِٱنْقِطَاعِ ٱلنَّوْعِ لِمَا أَدَّى إِلَيْهِ مِنْ تَخْرِيبِ ٱلْعُمْرَانِ كَانَتْ حِكْمَةُ ٱلْحَظْرِ فِيهِ مَوْجُودَةً فَكَانَ تَحْرِيمُهُ مُهِمًّا وَأَدِلَّتُهُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَهَا قَانُونُ ٱلضَّبْطِ وَٱلْحَصْرِ وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ قَادِرًا عَلَى ٱلظُّلْمِ لَوُضِعَ بِإِزَائِهِ مِنَ ٱلْعُقُوبَاتِ ٱلزَّاجِرَةِ مَا وُضِعَ بِإِزَاءِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلْمُفْسِدَاتِ لِلنَّوْعِ ٱلَّتِي يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى

أقترافها من الزنا والقتل والسكر إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه وما ربك بظلام للعبيد. ولا تقولن إن العقوبة قد وضعت بإزاء الحرابة في الشرع وهي من ظلم القادر لأن المحارب زمن حرابته قادر فإن في الجواب عن ذلك طريقين. أحدهما أن تقول العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أو مال على ما ذهب إليه كثير وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة. الطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف بالقدرة لأنا إنما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب وأما قدرة المحارب فإنما هي إخافة يجعلها ذريعة لأخذ الأموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قادر على ما يشاء. ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق لأن الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران فإذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريا في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع وربما تفرض عليهم تلك الأثمان على التواحي والتعجيل فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس أموالهم وقد يعم ذلك أصناف

التُّجَّارِ ٱلْمُقِيمِينَ بِٱلْمَدِينَةِ وَٱلْوَارِدِينَ مِنَ ٱلْآفَاقِ فِي ٱلْبَضَائِعِ وَسَائِرِ ٱلسُّوقَةِ وَأَهْلِ ٱلدَّكَاكِينِ فِي ٱلْمَآكِلِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَأَهْلِ ٱلصَّنَائِعِ فِيمَا يُتَّخَذُ مِنَ ٱلْآلَاتِ وَٱلْمَوَاعِينِ فَتَشْمَلُ ٱلْخَسَارَةُ سَائِرَ ٱلْأَصْنَافِ وَٱلطَّبَقَاتِ وَتَتَوَالَى عَلَى ٱلسَّاعَاتِ وَتُجْحِفُ بِرُؤُوسِ ٱلْأَمْوَالِ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا وَلِيجَةً إِلَّا ٱلْقُعُودَ عَنِ ٱلْأَسْوَاقِ لِذَهَابِ رُؤُوسِ ٱلْأَمْوَالِ فِي جَبْرِهَا بِٱلْأَرْبَاحِ وَيَتَثَاقَلُ ٱلْوَارِدُونَ مِنَ ٱلْآفَاقِ لِشِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَبَيْعِهَا مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ فَتَكْسُدُ ٱلْأَسْوَاقُ وَيَبْطُلُ مَعَاشُ ٱلرَّعَايَا لِأَنَّ عَامَّتَهُ مِنَ ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَسْوَاقُ عُطْلًا مِنْهَا بَطَلَ مَعَاشُهُمْ وَتَنْقُصُ جِبَايَةُ ٱلسُّلْطَانِ أَوْ تَفْسُدُ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا مِنْ أَوْسَطِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلْمُكُوسِ عَلَى ٱلْبِيَاعَاتِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَيَؤُولُ ذٰلِكَ إِلَى تَلَاشِي ٱلدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عُمْرَانِ ٱلْمَدِينَةِ وَيَتَطَرَّقُ هٰذَا ٱلْخَلَلُ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ وَلَا يُشْعَرُ بِهِ هٰذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلذَّرَائِعِ وَٱلْأَسْبَابِ إِلَى أَخْذِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمَّا أَخْذُهَا مَجَّانًا وَٱلْعُدْوَانُ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرَمِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ فَهُوَ يُفْضِي إِلَى ٱلْخَلَلِ وَٱلْفَسَادِ دَفْعَةً وَتَنْتَقِضُ ٱلدَّوْلَةُ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ ٱلْهَرْجِ ٱلْمُفْضِي إِلَى ٱلِٱنْتِقَاضِ وَمِنْ أَجْلِ هٰذِهِ ٱلْمَفَاسِدِ حَظَرَ ٱلشَّرْعُ ذٰلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ ٱلْمُكَايَسَةَ فِي ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ سَدًّا لِأَبْوَابِ ٱلْمَفَاسِدِ ٱلْمُفْضِيَةِ إِلَى ٱنْتِقَاضِ ٱلْعُمْرَانِ بِٱلْهَرْجِ أَوْ بُطْلَانِ ٱلْمَعَاشِ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّاعِيَ لِذٰلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ حَاجَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلسُّلْطَانِ إِلَى ٱلْإِكْثَارِ مِنَ ٱلْمَالِ بِمَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ فِي ٱلْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ نَفَقَاتُهُمْ وَيَعْظُمُ ٱلْخَرْجُ وَلَا يَفِي بِهِ ٱلدَّخْلُ عَلَى ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُعْتَادَةِ يَسْتَحْدِثُونَ أَلْقَابًا وَوُجُوهًا يُوَسِّعُونَ بِهَا ٱلْجِبَايَةَ لِيَفِيَ لَهُمُ ٱلدَّخْلُ بِٱلْخَرْجِ ثُمَّ لَا يَزَالُ ٱلتَّرَفُ يَزِيدُ وَٱلْخَرْجُ بِسَبَبِهِ يَكْثُرُ وَٱلْحَاجَةُ إِلَى أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ تَشْتَدُّ وَنِطَاقُ ٱلدَّوْلَةِ بِذٰلِكَ يَزِيدُ إِلَى أَنْ تَمَّحِيَ دَائِرَتُهَا وَيَذْهَبَ بِرَسْمِهَا وَيَغْلِبَهَا طَالِبُهَا وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع والاربعون .

في ان الحجاب كيف يقع في الدول وفي انه يعظم عند الهرم

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا يَتِمُّ أَمْرُهَا وَيَحْصُلُ ٱسْتِيلَاؤُهَا وَٱلْبَدَاوَةُ هِيَ شِعَارُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلدَّوْلَةُ إِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِٱلدِّينِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنْ مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ وَإِنْ كَانَ قِيَامُهَا

بعزّ ٱلْغَلَبِ فقط فالْبداوة ٱلَّتي بها يحصل ٱلْغَلَبُ بعيدَةٌ أيضًا عن منازع ٱلْمُلْكِ ومذاهبه
وإذا كانت ٱلدَّوْلَةُ في أوّل أمرها بدويّة كان صاحبها على حال ٱلْغضاضة وٱلْبداوة
وٱلْقُرْب من ٱلنّاس وسهولة ٱلإذن فإذا رسخ عزّه وصار إلى ٱلاِنْفراد بنفسه عن
ٱلنّاس للحديث مع أوليائه في خواصّ شؤونه لما يكثر حينئذٍ بحاشيته فيطلب
ٱلاِنْفراد من ٱلْعامّة ما ٱستطاع ويتّخذ ٱلإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل
دولته ويتّخذ حاجبًا له عن ٱلنّاس يقيمه ببابه لهذه ٱلْوظيفة ثمّ إذا ٱستفحل ٱلْمُلْكُ
وجاءت مذاهبه ومنازعه ٱستحالت أخلاق صاحب ٱلدّولة إلى أخلاق ٱلْمُلْكِ وهي أخلاق
غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربّما جهل تلك
ٱلأخلاق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوا وصاروا إلى حالة ٱلاِنْتقام
منه فٱنْفرد بمعرفة هذه ٱلآداب ٱلْخواصّ من أوليائهم وحجبوا غير أولئك ٱلْخاصّة
عن لقائهم في كلّ وقت حفظًا على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم على ٱلنّاس من
ٱلتّعرّض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخصّ من ٱلْحجاب ٱلأوّل يفضي إليهم منه
خواصّهم من ٱلأولياء ويحجب دونه من سواهم من ٱلْعامّة وٱلْحجاب ٱلثّاني يفضي إلى
مجالس ٱلأولياء ويحجب دونه من سواهم من ٱلْعامّة وٱلْحجاب ٱلأوّل يكون في أوّل
ٱلدّولة كما ذكرنا كما حدث لأيّام معاوية وعبد ٱلْملك وخلفاء بني أميّة وكان
ٱلْقائم على ذلك ٱلْحجاب يسمّى عندهم ٱلْحاجب جريًا على مذهب ٱلاِشْتقاق ٱلصّحيح
ثمّ لمّا جاءت دولة بني ٱلْعبّاس وجدت ٱلدّولة من ٱلتّرف وٱلْعزّ ما هو معروف
وكملت خلق ٱلْملك على ما يجب فيها فدعا ذلك إلى ٱلْحجاب ٱلثّاني وصار ٱسم ٱلْحاجب
أخصّ به وصار بباب ٱلْخلفاء داران للعبّاسيّة دار ٱلْخاصّة ودار ٱلْعامّة كما هو مسطور
في أخبارهم ثمّ حدث في ٱلدّول حجاب ثالث أخصّ من ٱلأوّلين وهو عند محاولة ٱلْحجر
على صاحب ٱلدّولة وذلك أنّ أهل ٱلدّولة وخواصّ ٱلْملك إذا نصبوا ٱلأبناء من ٱلأعقاب
وحاولوا ٱلاِسْتبداد عليهم فأوّل ما يبدأ به ذلك ٱلْمستبدّ أن يحجب عنه بطانة أبيه
وخواصّ أوليائه يوهمه أنّ في مباشرتهم إيّاه خرق حجاب ٱلْهيبة وفساد قانون ٱلأدب
ليقطع بذلك لقاء ٱلْغير ويعوّده ملابسة أخلاقه هو حتّى لا يتبدّل به سواه إلى أن
يستحكم ٱلاِسْتيلاء عليه فيكون هذا ٱلْحجاب من دواعيه وهذا ٱلْحجاب لا يقع في

الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر ويكون دليلاً على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لأن القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباديه

الفصل الخامس والاربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به ويأنف حينئذ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم ونزعوا إلى القاصية إليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاغترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضايق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً مجتمعاً ونطاقاً ممتداً في الاتساع وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبة على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلافة سائر أيامه إلا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رئاسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو العباس بالأمر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وآذنت بالتقلص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام فاستحدث بها ملكاً واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع أدريس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغالبة في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على أفريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الأدارسة وقسموا الدولة دولتين أخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس

مَرْكَزَ ٱلْعَرَبِ وَأَصْلَهُمْ وَمَادَّتَهُمُ ٱلْإِسْلَامُ وَدَوْلَةَ بَنِي أُمَيَّةَ ٱلْمُجَدِّدِينَ بِٱلْأَنْدَلُسِ مُلْكَهُمُ ٱلْقَدِيمَ وَخِلَافَتَهُمْ بِٱلْمَشْرِقِ وَدَوْلَةَ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱلْحِجَازِ وَلَمْ تَزَلْ هٰذِهِ ٱلدَّوْلَةُ إِلَى أَنْ أَصْبَحَ ٱنْقِرَاضُهَا مُتَقَارِبًا أَوْ جَمِيعًا وَكَذٰلِكَ ٱنْقَسَمَتْ دَوْلَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ بِدُوَلٍ أُخْرَى وَكَانَ بِٱلْقَاصِيَةِ بَنُو سَامَانَ فِيمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَخُرَاسَانَ وَٱلْعَلَوِيَّةُ فِي ٱلدَّيْلَمِ وَطَبَرِسْتَانَ وَآلَ ذٰلِكَ إِلَى ٱسْتِيلَاءِ ٱلدَّيْلَمِ عَلَى ٱلْعِرَاقَيْنِ وَعَلَى بَغْدَادَ وَٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ جَاءَ ٱلسَّلْجُوقِيَّةُ فَمَلَكُوا جَمِيعَ ذٰلِكَ ثُمَّ ٱنْقَسَمَتْ دَوْلَتُهُمْ أَيْضًا بَعْدَ ٱلِٱسْتِفْحَالِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَكَذٰلِكَ ٱعْتَبِرْهُ فِي دَوْلَةِ صِنْهَاجَةَ بِٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ لَمَّا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا أَيَّامَ بَادِيسَ بْنِ ٱلْمَنْصُورِ خَرَجَ عَلَيْهِ عَمُّهُ حَمَّادٌ وَٱقْتَطَعَ مَمَالِكَ ٱلْعَرَبِ لِنَفْسِهِ مَا بَيْنَ جَبَلِ أَوْرَاسَ إِلَى تِلِمْسَانَ وَمَلْوِيَّةَ وَٱخْتَطَّ ٱلْقَلْعَةَ بِجَبَلِ كُتَامَةَ حِيَالَ ٱلْمَسِيلَةِ وَنَزَلَهَا وَٱسْتَوْلَى عَلَى مَرْكَزِهِمْ أَشِيرَ بِجَبَلِ تِيطَرَى وَٱسْتَحْدَثَ مُلْكًا آخَرَ قَسِيمًا لِمُلْكِ آلِ بَادِيسَ وَبَقِيَ آلُ بَادِيسَ بِٱلْقَيْرَوَانِ وَمَا إِلَيْهَا وَلَمْ يَزَلْ ذٰلِكَ إِلَى أَنِ ٱنْقَرَضَ أَمْرُهُمَا جَمِيعًا وَكَذٰلِكَ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ لَمَّا تَقَلَّصَ ظِلُّهَا ثَارَ بِأَفْرِيقِيَّةَ بَنُو أَبِي حَفْصٍ فَٱسْتَقَلُّوا بِهَا وَٱسْتَحْدَثُوا مُلْكًا لِأَعْقَابِهِمْ بِنَوَاحِيهَا ثُمَّ لَمَّا ٱسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ وَٱسْتَوْلَى عَلَى ٱلْغَايَةِ خَرَجَ عَلَى ٱلْمَمَالِكِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ أَعْقَابِهِمِ ٱلْأَمِيرُ أَبُو زَكَرِيَّاءَ يَحْيَى ٱبْنُ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي إِسْحٰقَ إِبْرَاهِيمَ رَابِعُ خُلَفَائِهِمْ وَٱسْتَحْدَثَ مُلْكًا بِبِجَايَةَ وَقُسَنْطِينَةَ وَمَا إِلَيْهَا أَوْرَثَهُ بَنِيهِ وَقَسَمُوا بِهِ ٱلدَّوْلَةَ قِسْمَيْنِ ثُمَّ ٱسْتَوْلَوْا عَلَى كُرْسِيِّ ٱلْحَضْرَةِ بِتُونِسَ ثُمَّ ٱنْقَسَمَ ٱلْمُلْكُ مَا بَيْنَ أَعْقَابِهِمْ ثُمَّ عَادَ ٱلِٱسْتِيلَاءُ فِيهِمْ وَقَدْ يَنْتَهِي ٱلِٱنْقِسَامُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ دَوْلَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَفِي غَيْرِ أَعْيَاصِ ٱلْمُلْكِ مِنْ قَوْمِهِ كَمَا وَقَعَ فِي مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَمُلُوكِ ٱلْعَجَمِ بِٱلْمَشْرِقِ وَفِي مُلْكِ صِنْهَاجَةَ بِأَفْرِيقِيَّةَ فَقَدْ كَانَ لِآخِرِ دَوْلَتِهِمْ فِي كُلِّ حِصْنٍ مِنْ حُصُونِ أَفْرِيقِيَّةَ ثَائِرٌ مُسْتَقِلٌّ بِأَمْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَكَذَا حَالُ ٱلْجَرِيدِ وَٱلزَّابِ مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ قُبَيْلَ هٰذَا ٱلْعَهْدِ كَمَا نَذْكُرُهُ وَهٰكَذَا شَأْنُ كُلِّ دَوْلَةٍ لَا بُدَّ وَأَنْ يَعْرِضَ فِيهَا عَوَارِضُ ٱلْهَرَمِ بِٱلتَّرَفِ وَٱلدَّعَةِ وَتَقَلُّصِ ظِلِّ ٱلْغَلَبِ فَيَنْقَسِمُ أَعْيَاصُهَا أَوْ مَنْ يَغْلِبُ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهَا ٱلْأَمْرَ وَيَتَعَدَّدُ فِيهَا ٱلدُّوَلُ وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل السادس والاربعون

في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قَدْ قَدَّمْنَا ذِكْرَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلْمُؤْذِنَةِ بِٱلْهَرَمِ وَأَسْبَابَهُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَبَيَّنَّا أَنَّهَا

تحدث للدولة بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها وإذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم وليس كذلك فإنها أمور طبيعية للدولة والعوائد هي المانعة له من تلافيها والعوائد منزلة طبيعية أخرى فإن من أدرك مثلا أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الأبهة فتتدرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها إيماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل أجل كتاب

الفصل السابع والاربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

إعلم أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين فلنذكر أولا طروق

الخلل في الشوكة والعصبية ثم تزحف إلى طرُوقه في المال والجباية واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فإذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية كان أول ما يجدع أنوف عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم لمكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخرا إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقلون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها فتنحل عروتها وتضعف شكيمتها وتستبدل عنها بالبطانة من موالي النعمة وصنائع الإحسان وتتخذ منهم عصبية إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمة لفقدان الرحم والقرابة منها وقد كنا قدمنا أن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرا طبيعيا فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحدا بعد واحد ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا فيستولي عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية ويفشوا بعزتها وثورتها ويصيروا أوجز على الحماية ويقلون لذلك فتقل الحماية التي تنزل بالأطراف والثغور فتتجاسر الرعايا على بعض الدعوة في الأطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الأعياص وغيرهم إلى تلك الأطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأمنهم من وصول الحامية إليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاث على قدر قوتها في الأصل كما قلناه ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها لكن إذعانا لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود واعتبر هذا في دولة العرب في

ٱلإِسْلاَمِ كَيفَ ٱنْتَهَتْ أَوَّلاً إِلَى ٱلأَنْدَلُسِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلصِّينِ وَكَانَ أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةَ نَافِذًا فِي جَمِيعِ ٱلْعَرَبِ بِعَصَبِيَّةِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَتَّى لَقَدْ أَمَرَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بِدِمَشْقَ بِقَتْلِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ بِقُرْطُبَةَ فَقُتِلَ وَلَمْ يُرَدَّ أَمْرُهُ ثُمَّ تَلاَشَتْ عَصَبِيَّةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ فَٱنْقَرَضُوا وَجَاءَ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ فَغَضُّوا مِنْ أَعِنَّةِ بَنِي هَاشِمٍ وَقَتَلُوا ٱلطَّالِبِيِّينَ وَشَرَّدُوهُمْ فَٱنْحَلَّتْ عَصَبِيَّةُ عَبْدِ مَنَافٍ وَتَلاَشَتْ وَتَجَاسَرَ ٱلْعَرَبُ عَلَيْهِمْ فَٱسْتَبَدَّ عَلَيْهِمْ أَهْلُ ٱلْقَاصِيَةِ مِثْلُ بَنِي ٱلأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَأَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ وَٱنْقَسَمَتِ ٱلدَّوْلَةُ ثُمَّ خَرَجَ بَنُو أَدْرِيسَ بِٱلْمَغْرِبِ وَقَامَ ٱلْبَرْبَرُ بِأَمْرِهِمْ إِذْعَانًا لِلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُمْ وَأَمْنًا أَنْ تَصِلَهُمْ مُقَاتِلَةٌ أَوْ حَامِيَةٌ لِلدَّوْلَةِ فَإِذَا خَرَجَ ٱلدُّعَاةُ آخِرًا فَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى ٱلأَطْرَافِ وَٱلْقَاصِيَةِ وَتَحْصُلُ لَهُمْ هُنَاكَ دَعْوَةٌ وَمُلْكٌ تَنْقَسِمُ بِهِ ٱلدَّوْلَةُ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذٰلِكَ مَتَى زَادَتِ ٱلدَّوْلَةُ تَقَلُّصًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْمَرْكَزِ وَتَضْعُفَ ٱلْبِطَانَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِمَا أَخَذَ مِنْهَا ٱلتَّرَفُ فَتَهْلِكُ وَتَضْمَحِلُّ وَتَضْعُفُ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْمُنْقَسِمَةُ كُلُّهَا وَرُبَّمَا طَالَ أَمَدُهَا بَعْدَ ذٰلِكَ فَتَسْتَغْنِي عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِمَا حَصَلَ لَهَا مِنَ ٱلصِّبْغَةِ فِي نُفُوسِ أَهْلِ إِيَالَتِهَا وَهِيَ صِبْغَةُ ٱلاِنْقِيَادِ وَٱلتَّسْلِيمِ مُنْذُ ٱلسِّنِينَ ٱلطَّوِيلَةِ ٱلَّتِي لاَ يَعْقِلُ أَحَدٌ مِنَ ٱلأَجْيَالِ مَبْدَأَهَا وَلاَ أَوَّلِيَّتَهَا فَلاَ يَعْقِلُونَ إِلاَّ ٱلتَّسْلِيمَ لِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَسْتَغْنِي بِذٰلِكَ عَنْ قُوَّةِ ٱلْعَصَائِبِ وَيَكْفِي صَاحِبَهَا بِمَا حَصَلَ لَهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهَا ٱلإِجْرَاءُ عَلَى ٱلْحَامِيَةِ مِنْ جُنْدِيٍّ وَمُرْتَزِقٍ وَيَعْضُدُ ذٰلِكَ مَا وَقَعَ فِي ٱلنُّفُوسِ عَامَّةً مِنَ ٱلتَّسْلِيمِ فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ عِصْيَانًا أَوْ خُرُوجًا إِلاَّ وَٱلْجُمْهُورُ مُنْكِرُونَ عَلَيْهِ مُخَالِفُونَ لَهُ فَلاَ يَقْدِرُ عَلَى ٱلتَّصَدِّي لِذٰلِكَ وَلَوْ جَهَدَ جَهْدَهُ وَرُبَّمَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ فِي هٰذَا ٱلْحَالِ أَسْلَمَ مِنَ ٱلْخَوَارِجِ وَٱلْمُنَازَعَةِ لاِسْتِحْكَامِ صِبْغَةِ ٱلتَّسْلِيمِ وَٱلاِنْقِيَادِ لَهُمْ فَلاَ تَكَادُ ٱلنُّفُوسُ تُحَدِّثُ سِرَّهَا بِمُخَالَفَةٍ وَلاَ يَخْتَلِجُ فِي ضَمِيرِهَا ٱنْحِرَافٌ عَنِ ٱلطَّاعَةِ فَيَكُونُ أَسْلَمَ مِنَ ٱلْهَرْجِ وَٱلاِنْتِقَاضِ ٱلَّذِي يَحْدُثُ مِنَ ٱلْعَصَائِبِ وَٱلْعَشَائِرِ ثُمَّ لاَ يَزَالُ أَمْرُ ٱلدَّوْلَةِ كَذٰلِكَ وَهِيَ تَتَلاَشَى فِي ذَاتِهَا شَأْنَ ٱلْحَرَارَةِ ٱلْغَرِيزِيَّةِ فِي ٱلْبَدَنِ ٱلْعَادِمِ لِلْغِذَاءِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى وَقْتِهَا ٱلْمَقْدُورِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ وَلِكُلِّ دَوْلَةٍ أَمَدٌ وَٱللّٰهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ. وَأَمَّا ٱلْخَلَلُ ٱلَّذِي يَتَطَرَّقُ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَالِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِهَا تَكُونُ بَدَوِيَّةً كَمَا مَرَّ فَيَكُونُ خُلُقُ ٱلرِّفْقِ بِٱلرَّعَايَا وَٱلْقَصْدِ فِي ٱلنَّفَقَاتِ وَٱلتَّعَفُّفِ عَنِ ٱلأَمْوَالِ فَتَتَجَافَى عَنِ ٱلإِمْعَانِ فِي ٱلْجِبَايَةِ وَٱلتَّحَذْلُقِ

وَٱلْكَيْسِ فِي جَمْعِ ٱلْأَمْوَالِ وَحِسْبَانِ ٱلْعُمَّالِ وَلَا دَاعِيَةَ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلْإِسْرَافِ فِي ٱلنَّفَقَةِ فَلَا تَحْتَاجُ ٱلدَّوْلَةُ إِلَى كَثْرَةِ ٱلْمَالِ ثُمَّ يَحْصُلُ ٱلِٱسْتِيلَاءُ وَيَعْظُمُ وَيَسْتَفْحِلُ ٱلْمُلْكُ فَيَدْعُو إِلَى ٱلتَّرَفِ وَيَكْثُرُ ٱلْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ ٱلسُّلْطَانِ وَأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱلْعُمُومِ بَلْ يَتَعَدَّى ذَٰلِكَ إِلَى أَهْلِ ٱلْمِصْرِ وَيَدْعُو ذَٰلِكَ إِلَى ٱلزِّيَادَةِ فِي أَعْطِيَاتِ ٱلْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ ٱلتَّرَفُ فَيَكْثُرُ ٱلْإِسْرَافُ فِي ٱلنَّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذَٰلِكَ فِي ٱلرَّعِيَّةِ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ عَلَى دِينِ مُلُوكِهَا وَعَوَائِدِهَا وَيَحْتَاجُ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ضَرْبِ ٱلْمُكُوسِ عَلَى أَثْمَانِ ٱلْبِيَاعَاتِ فِي ٱلْأَسْوَاقِ لِإِدْرَارِ ٱلْجِبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرَفِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِٱلرَّفَهِ وَلِمَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَزِيدُ عَوَائِدُ ٱلتَّرَفِ فَلَا تَفِي بِهَا ٱلْمُكُوسُ وَتَكُونُ ٱلدَّوْلَةُ قَدِ ٱسْتَفْحَلَتْ فِي ٱلِٱسْتِطَالَةِ وَٱلْقَهْرِ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ ٱلرَّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى جَمْعِ ٱلْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ ٱلرَّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْدٍ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ بِشُبْهَةٍ أَوْ بِغَيْرِ شُبْهَةٍ وَيَكُونُ ٱلْجُنْدُ فِي ذَٰلِكَ ٱلطَّوْرِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ بِمَا لَحِقَهَا مِنَ ٱلْفَشَلِ وَٱلْهَرَمِ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذَٰلِكَ مِنْهُمْ وَتُدَاوَى بِسَكِينَةِ ٱلْعَطَايَا وَكَثْرَةِ ٱلْإِنْفَاقِ فِيهِمْ وَلَا تَجِدُ عَنْ ذَٰلِكَ وَلِيجَةً وَتَكُونُ جُبَاةُ ٱلْأَمْوَالِ فِي ٱلدَّوْلَةِ قَدْ عَظُمَتْ ثَرْوَتُهُمْ فِي هَٰذَا ٱلطَّوْرِ بِكَثْرَةِ ٱلْجِبَايَةِ وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا ٱتَّسَعَ لِذَٰلِكَ مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِٱحْتِجَانِ ٱلْأَمْوَالِ مِنَ ٱلْجِبَايَةِ وَتَفْشُو ٱلسِّعَايَةُ فِيهِمْ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَٱلْحِقْدِ فَتَعُمُّهُمُ ٱلنَّكَبَاتُ وَٱلْمُصَادَرَاتُ وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ تَذْهَبَ ثَرْوَتُهُمْ وَتَتَلَاشَى أَحْوَالُهُمْ وَيُفْقَدَ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْأُبَّهَةِ وَٱلْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا ٱصْطُلِمَتْ نِعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمُ ٱلدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ ٱلثَّرْوَةِ مِنَ ٱلرَّعَايَا سِوَاهُمْ وَيَكُونُ ٱلْوَهَنُ فِي هَٰذَا ٱلطَّوْرِ قَدْ لَحِقَ ٱلشَّوْكَةَ وَضَعُفَتْ عَنِ ٱلِٱسْتِطَالَةِ وَٱلْقَهْرِ فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى مُدَارَاةِ ٱلْأُمُورِ بِبَذْلِ ٱلْمَالِ وَيَرَاهُ أَرْفَعَ مِنَ ٱلسَّيْفِ لِقِلَّةِ غَنَائِهِ فَتَعْظُمُ حَاجَتُهُ إِلَى ٱلْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى ٱلنَّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ ٱلْجُنْدِ وَلَا يُغْنِي فِيمَا يُرِيدُ وَيَعْظُمُ ٱلْهَرَمُ بِٱلدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ ٱلنَّوَاحِي وَٱلدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عُرَاهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هَٰذِهِ إِلَى أَنْ تُفْضِيَ إِلَى ٱلْهَلَاكِ وَتَتَعَوَّضَ مِنَ ٱلِٱسْتِيلَاءِ ٱلْكَلَالَ فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ ٱنْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِي ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَإِلَّا بَقِيَتْ وَهِيَ تَتَلَاشَى إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَٱلذُّبَالِ فِي ٱلسِّرَاجِ إِذَا فَنِيَ زَيْتُهُ وَطَفِئَ وَٱللهُ مَالِكُ ٱلْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ ٱلْأَكْوَانِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

الفصل الثامن والاربعون

في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

إِعْلَمْ أَنَّ نَشْأَةَ ٱلدُّوَلِ وَبِدَايَتَهَا إِذَا أَخَذَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْمُسْتَقِرَّةُ فِي ٱلْهَرَمِ وَٱلْإِنْتِقَاصِ تَكُونُ عَلَى نَوْعَيْنِ إِمَّا بِأَنْ يَسْتَبِدَّ وُلَاةُ ٱلْأَعْمَالِ فِي ٱلدَّوْلَةِ بِٱلْقَاصِيَةِ عِنْدَمَا يَتَقَلَّصُ ظِلُّهَا عَنْهُمْ فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دَوْلَةٌ يَسْتَجِدُّهَا لِقَوْمِهِ وَمَا يَسْتَقِرُّ فِي نِصَابِهِ يَرِثُهُ عَنْهُ أَبْنَاؤُهُ أَوْ مَوَالِيهِ وَيَسْتَفْحِلُ لَهُمُ ٱلْمُلْكُ بِٱلتَّدْرِيجِ وَرُبَّمَا يَزْدَحِمُونَ عَلَى ذَلِكَ ٱلْمُلْكِ وَيَتَقَارَعُونَ عَلَيْهِ وَيَتَنَازَعُونَ فِي ٱلْإِسْتِئْثَارِ بِهِ وَيَغْلِبُ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ فَضْلُ قُوَّةٍ عَلَى صَاحِبِهِ وَيَنْتَزِعُ مَا فِي يَدِهِ كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ حِينَ أَخَذَتْ دَوْلَتُهُمْ فِي ٱلْهَرَمِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ وَٱسْتَبَدَّ بَنُو سَاسَانَ بِمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَبَنُو حَمْدَانَ بِٱلْمَوْصِلِ وَٱلشَّامِ وَبَنُو طُولُونَ بِمِصْرَ وَكَمَا وَقَعَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَٱفْتَرَقَ مُلْكُهَا فِي ٱلطَّوَائِفِ ٱلَّذِينَ كَانُوا وُلَاتَهَا فِي ٱلْأَعْمَالِ وَٱنْقَسَمَتْ دُوَلًا وَمُلُوكًا أَوْرَثُوهَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِمْ أَوْ مَوَالِيهِمْ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ حَرْبًا لِأَنَّهُمْ مُسْتَقِرُّونَ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَلَا يَطْمَعُونَ فِي ٱلْإِسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ بِحَرْبٍ وَإِنَّمَا ٱلدَّوْلَةُ أَدْرَكَهَا ٱلْهَرَمُ وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ وَعَجَزَتْ عَنِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهَا وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّانِي بِأَنْ يَخْرُجَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ خَارِجٌ مِمَّنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ ٱلْأُمَمِ وَٱلْقَبَائِلِ إِمَّا بِدَعْوَةٍ يَحْمِلُ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَوْ يَكُونُ صَاحِبُ شَوْكَةٍ وَعَصَبِيَّةٍ كَبِيرًا فِي قَوْمِهِ قَدِ ٱسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ فَيَسْمُو بِهِمْ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَقَدْ حَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ ٱلْإِعْتِزَازِ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ وَمَا نَزَلَ بِهَا مِنَ ٱلْهَرَمِ فَيَتَعَيَّنُ لَهُ وَلِقَوْمِهِ ٱلْإِسْتِيلَاءُ عَلَيْهَا وَيُمَارِسُونَهَا بِٱلْمُطَالَبَةِ إِلَى أَنْ يَظْفَرُوا بِهَا وَيَزِنُونَ (١) كَمَا يَتَبَيَّنُ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والاربعون

في ان الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ ٱلدُّوَلَ ٱلْحَادِثَةَ ٱلْمُتَجَدِّدَةَ نَوْعَانِ نَوْعٌ مِنْ وِلَايَةِ ٱلْأَطْرَافِ إِذَا تَقَلَّصَ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ عَنْهُمْ وَٱنْحَسَرَ تَيَّارُهَا وَهٰؤُلَاءِ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ مُطَالَبَةٌ لِلدَّوْلَةِ فِي ٱلْأَكْثَرِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّ قُصَارَاهُمُ ٱلْقُنُوعُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَهُوَ نِهَايَةُ قُوَّتِهِمْ وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّانِي نَوْعُ

(١) قوله و يزنون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء اه

الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة لأن قوتهم وافية بها فإن ذلك
إنما يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك وواف به
فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل إلى أن يقع لهم
الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة والسبب في
ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأمور نفسانية وهمية وإن كان
العدد والسلاح وصدق القتال كفيلاً به لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية كما
مر ولذلك كان الخداع من أرفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به وفي
الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية
واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة
ويكثر من همم أتباعه وأهل شوكته وإن كان الأقربون من بطانته على بصيرة في
طاعته ومؤازرته إلا أن الآخرين أكثر وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم
للدولة المستقرة فيحصل بعض الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستقرة يرجع
إلى الصبر والمطاولة حتى يتضح هرم الدولة المستقرة فتضمحل عقائد التسليم لها
من قومه وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وأيضاً
فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع من النعيم
واللذات واختصوا به دون غيرهم من أموال الجباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول
واستجادة الأسلحة وتعظم فيهم الأبهة الملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم
اختياراً واضطراراً فيرهبون بذلك كله عدوهم وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن
ذلك لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق إلى قلوبهم أوهام
الرعب بما يبلغهم من أحوال الدولة المستقرة ويحرمون عن قتالهم من أجل ذلك
فيصير أمرهم إلى المطاولة حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الهرم ويستحكم
الخلل فيها في العصبية والجباية فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في
الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله في عباده وأيضاً فأهل الدولة المستجدة
كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم ثم هم مفاخرون
لهم ومنابذون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليه فتتمكن

الْمُبَاعَدَةِ بَيْنَ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ سِرًّا وَجَهْرًا وَلَا يَصِلُ إِلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ يُصِيبُونَ مِنْهُ غِرَّةً[1] بَاطِنًا وَظَاهِرًا لِانْقِطَاعِ الْمُدَاخَلَةِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ فَيُقِيمُونَ عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكُلُونَ عَنِ الْمُنَاجَزَةِ حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ بِزَوَالِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ وَفَنَاءِ عُمْرِهَا وَوُفُورِ الْخَلَلِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَاتَّضَحَ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ مَا كَانَ يَخْفَى مِنْهُمْ مِنْ هَرَمِهَا وَتَلَاشِيهَا وَقَدْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ بِمَا اقْتَطَعُوهُ مِنْ أَعْمَالِهَا وَنَقَصُوهُ مِنْ أَطْرَافِهَا فَتَنْبَعِثُ هِمَمُهُمْ يَدًا وَاحِدَةً لِلْمُنَاجَزَةِ وَيَذْهَبُ مَا كَانَ بَثَّ فِي عَزَائِمِهِمْ مِنَ التَّوَهُّمَاتِ وَتَنْتَهِي الْمُطَاوَلَةُ إِلَى حَدِّهَا وَيَقَعُ الِاسْتِيلَاءُ آخِرًا بِالْمُعَاجَلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ ظُهُورِهَا حِينَ قَامَ الشِّيعَةُ بِخُرَاسَانَ بَعْدَ انْعِقَادِ الدَّعْوَةِ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْمُطَالَبَةِ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ تَزِيدُ وَحِينَئِذٍ تَمَّ لَهُمُ الظَّفَرُ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَكَذَا الْعَلَوِيَّةُ بِطَبَرِسْتَانَ عِنْدَ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ فِي الدَّيْلَمِ كَيْفَ كَانَتْ مُطَاوَلَتُهُمْ حَتَّى اسْتَوْلَوْا عَلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ ثُمَّ لَمَّا انْقَضَى أَمْرُ الْعَلَوِيَّةِ وَسَمَا الدَّيْلَمُ إِلَى مُلْكِ فَارِسَ وَالْعِرَاقَيْنِ فَمَكَثُوا سِنِينَ كَثِيرَةً يُطَاوِلُونَ حَتَّى اقْتَطَعُوا أَصْبَهَانَ ثُمَّ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْخَلِيفَةِ بِبَغْدَادَ وَكَذَا الْعُبَيْدِيُّونَ أَقَامَ دَاعِيَتُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشِّيعِيُّ بِبَنِي كُتَامَةَ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ عَشْرَ سِنِينَ وَيَزِيدُ تَطَاوُلُ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةَ حَتَّى ظَفِرَ بِهِمْ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الْمَغْرِبِ كُلِّهِ وَسَمَوْا إِلَى مُلْكِ مِصْرَ فَمَكَثُوا ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي طَلَبِهَا يُجَهِّزُونَ إِلَيْهَا الْعَسَاكِرَ وَالْأَسَاطِيلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجِيءُ الْمَدَدُ لِمُدَافَعَتِهِمْ بَرًّا وَبَحْرًا مِنْ بَغْدَادَ وَالشَّامِ وَمَلَكُوا الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَالْفَيُّومَ وَالصَّعِيدَ وَتَخَطَّتْ دَعْوَتُهُمْ مِنْ هُنَالِكَ إِلَى الْحِجَازِ وَأُقِيمَتْ بِالْحَرَمَيْنِ ثُمَّ نَازَلَ قَائِدُهُمْ جَوْهَرُ الْكَاتِبُ بِعَسَاكِرِهِ مَدِينَةَ مِصْرَ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَاقْتَلَعَ دَوْلَةَ بَنِي طُغْجَ مِنْ أُصُولِهَا وَاخْتَطَّ الْقَاهِرَةَ فَجَاءَ الْخَلِيفَةُ بَعْدَ الْمُعِزُّ لِدِينِ اللهِ فَنَزَلَهَا لِسِتِّينَ سَنَةً أَوْ نَحْوِهَا مُنْذُ اسْتِيلَائِهِمْ عَلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَذَا السَّلْجُوقِيَّةُ مُلُوكُ التُّرْكِ لَمَّا اسْتَوْلَوْا عَلَى بَنِي سَاسَانَ وَأَجَازُوا مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ مَكَثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُطَاوِلُونَ بَنِي سُبُكْتِكِينَ بِخُرَاسَانَ حَتَّى اسْتَوْلَوْا عَلَى دَوْلَتِهِ ثُمَّ زَحَفُوا إِلَى بَغْدَادَ فَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا وَعَلَى الْخَلِيفَةِ بِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ الدَّهْرِ وَكَذَا التَّتَرُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَرَجُوا مِنَ الْمَفَازَةِ عَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسِتِّمِائَةٍ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُمُ الِاسْتِيلَاءُ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَكَذَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ خَرَجَ بِهِ الْمُرَابِطُونَ مِنْ

(١) قوله غرة بكسر الغين اي غفلة

لِمَتُونَةَ عَلَى مُلُوكِهِ مِنْ مَغْرَاوَةَ فَطَاوَلُوهُمْ سِنِينَ ثُمَّ ٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ ٱلْمُوَحِّدُونَ بِدَعْوَتِهِمْ عَلَى لِمَتُونَةَ فَمَكَثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُحَارِبُونَهُمْ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَّاكُشَ وَكَذَا بَنُو مَرِينَ مِنْ زَنَاتَةَ خَرَجُوا عَلَى ٱلْمُوَحِّدِينَ فَمَكَثُوا يُطَاوِلُونَهُمْ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى فَاسَ وَٱقْتَطَعُوهَا وَأَعْمَالَهَا مِنْ مُلْكِهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا فِي مُحَارَبَتِهِمْ ثَلَاثِينَ أُخْرَى حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَّاكُشَ حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي تَوَارِيخِ هٰذِهِ ٱلدُّوَلِ فَهٰكَذَا حَالُ ٱلدُّوَلِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ فِي ٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلْمُطَاوَلَةِ سُنَّةُ ٱللّٰهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللّٰهِ تَبْدِيلًا وَلَا يُعَارِضُ ذٰلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي ٱلْفُتُوحَاتِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَكَيْفَ كَانَ ٱسْتِيلَاؤُهُمْ عَلَى فَارِسَ وَٱلرُّومِ لِثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ وَفَاةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا سِرُّهَا ٱسْتِمَاتَةُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمِ ٱسْتِبْعَادًا بِٱلْإِيمَانِ وَمَا أَوْقَعَ ٱللّٰهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ مِنَ ٱلرُّعْبِ وَٱلتَّخَاذُلِ فَكَانَ ذٰلِكَ كُلُّهُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ ٱلْمُقَرَّرَةِ فِي مُطَاوَلَةِ ٱلدُّوَلِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ لِلْمُسْتَقِرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ خَارِقًا فَهُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ ٱلْمُتَعَارَفِ ظُهُورُهَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَٱلْمُعْجِزَاتُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا ٱلْأُمُورُ ٱلْعَادِيَّةُ وَلَا يُعْتَرَضُ بِهَا وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الخمسون

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنَ ٱلرِّفْقِ فِي مَلَكَتِهَا وَٱلِاعْتِدَالِ فِي إِيَالَتِهَا إِمَّا مِنَ ٱلدِّينِ إِنْ كَانَتِ ٱلدَّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنَ ٱلْمُكَارَمَةِ وَٱلْمُحَاسَنَةِ ٱلَّتِي تَقْتَضِيهَا ٱلْبَدَاوَةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ لِلدُّوَلِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَلَكَةُ رَفِيقَةً مُحْسِنَةً ٱنْبَسَطَتْ آمَالُ ٱلرَّعَايَا وَٱنْتَشَطُوا لِلْعُمْرَانِ وَأَسْبَابِهِ فَتَوَفَّرَ وَيَكْثُرُ ٱلتَّنَاسُلُ وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كُلُّهُ بِٱلتَّدْرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي ٱلْأَقَلِّ وَفِي ٱنْقِضَاءِ ٱلْجِيلَيْنِ تُشْرِفُ ٱلدَّوْلَةُ عَلَى نِهَايَةِ عُمْرِهَا ٱلطَّبِيعِيِّ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ ٱلْعُمْرَانُ فِي غَايَةِ ٱلْوُفُورِ وَٱلنَّمَاءِ وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ أَوَاخِرَ ٱلدَّوْلَةِ يَكُونُ فِيهَا ٱلْإِجْحَافُ بِٱلرَّعَايَا وَسُوءُ ٱلْمَلَكَةِ فَذٰلِكَ صَحِيحٌ وَلَا يُعَارِضُ مَا قُلْنَاهُ لِأَنَّ ٱلْإِجْحَافَ وَإِنْ حَدَثَ حِينَئِذٍ وَقَلَّتِ ٱلْجِبَايَاتُ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي تَنَاقُصِ ٱلْعُمْرَانِ بَعْدَ حِينٍ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّدْرِيجِ

فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَجَاعَاتِ وَٱلْمَوَتَانَ تَكْثُرُ عِنْدَ ذٰلِكَ فِي أَوَاخِرِ ٱلدُّوَلِ وَٱلسَّبَبُ فِيهِ إِمَّا ٱلْمَجَاعَاتُ فَلِقَبْضِ ٱلنَّاسِ أَيْدِيَهُمْ عَنِ ٱلْفَلْحِ فِي ٱلْأَكْثَرِ بِسَبَبِ مَا يَقَعُ فِي آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْعُدْوَانِ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْجِبَايَاتِ أَوِ ٱلْفِتَنِ ٱلْوَاقِعَةِ فِي ٱنْتِقَاصِ ٱلرَّعَايَا وَكَثْرَةِ ٱلْخَوَارِجِ لِهَرَمِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَقِلُّ ٱحْتِكَارُ ٱلزَّرْعِ غَالِبًا وَلَيْسَ صَلَاحُ ٱلزَّرْعِ وَثَمَرَتُهُ بِمُسْتَمِرِّ ٱلْوُجُودِ وَلَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَطَبِيعَةُ ٱلْعَالَمِ فِي كَثْرَةِ ٱلْأَمْطَارِ وَقِلَّتِهَا مُخْتَلِفَةٌ وَٱلْمَطَرُ يَقْوَى وَيَضْعُفُ وَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ وَٱلزَّرْعُ وَٱلثِّمَارُ وَٱلضَّرْعُ عَلَى نِسْبَتِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلنَّاسَ وَاثِقُونَ فِي أَقْوَاتِهِمْ بِٱلِٱحْتِكَارِ فَإِذَا فُقِدَ ٱلِٱحْتِكَارُ عَظُمَ تَوَقُّعُ ٱلنَّاسِ لِلْمَجَاعَاتِ فَغَلَا ٱلزَّرْعُ وَعَجَزَ عَنْهُ أُولُو ٱلْخَصَاصَةِ فَهَلَكُوا وَكَانَ بَعْضَ ٱلسَّنَوَاتِ ٱلِٱحْتِكَارُ مَفْقُودًا فَشَمِلَ ٱلنَّاسَ ٱلْجُوعُ وَأَمَّا كَثْرَةُ ٱلْمَوَتَانِ فَلَهَا أَسْبَابٌ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْمَجَاعَاتِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوْ كَثْرَةِ ٱلْفِتَنِ لِٱخْتِلَالِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَكْثُرُ ٱلْهَرْجُ وَٱلْقَتْلُ أَوْ وُقُوعُ ٱلْوَبَاءِ وَسَبَبُهُ فِي ٱلْغَالِبِ فَسَادُ ٱلْهَوَاءِ بِكَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ لِكَثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ ٱلْعَفَنِ وَٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ وَإِذَا فَسَدَ ٱلْهَوَاءُ وَهُوَ غِذَاءُ ٱلرُّوحِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَمُلَابِسُهُ دَائِمًا فَيَسْرِي ٱلْفَسَادُ إِلَى مِزَاجِهِ فَإِنْ كَانَ ٱلْفَسَادُ قَوِيًّا وَقَعَ ٱلْمَرَضُ فِي ٱلرِّئَةِ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلطَّوَاعِينُ وَأَمْرَاضُهَا مَخْصُوصَةٌ بِٱلرِّئَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلْفَسَادُ دُونَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْكَثِيرِ فَيَكْثُرُ ٱلْعَفَنُ وَيَتَضَاعَفُ فَتَكْثُرُ ٱلْحُمِّيَاتُ فِي ٱلْأَمْزِجَةِ وَتَمْرَضُ ٱلْأَبْدَانُ وَتَهْلِكُ وَسَبَبُ كَثْرَةِ ٱلْعَفَنِ وَٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ فِي هٰذَا كُلِّهِ كَثْرَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَوُفُورُهُ آخِرَ ٱلدَّوْلَةِ لِمَا كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مِنْ حُسْنِ ٱلْمَلَكَةِ وَرِفْقِهَا وَقِلَّةِ ٱلْمَغْرَمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَلِهٰذَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّ تَخَلُّلَ ٱلْخَلَاءِ وَٱلْقَفْرِ بَيْنَ ٱلْعُمْرَانِ ضَرُورِيٌّ لِيَكُونَ تَمَوُّجُ ٱلْهَوَاءِ يَذْهَبُ بِمَا يَحْصُلُ فِي ٱلْهَوَاءِ مِنَ ٱلْفَسَادِ وَٱلْعَفَنِ بِمُخَالَطَةِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَيَأْتِي بِٱلْهَوَاءِ ٱلصَّحِيحِ وَلِهٰذَا أَيْضًا فَإِنَّ ٱلْمَوَتَانَ يَكُونُ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْمَوْفُورَةِ ٱلْعُمْرَانِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا بِكَثِيرٍ كَمِصْرَ بِٱلْمَشْرِقِ وَفَاسَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱللّٰهُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ

الفصل الحادي والخمسون

في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها امره

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ ٱلِٱجْتِمَاعَ لِلْبَشَرِ ضَرُورِيٌّ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعُمْرَانِ ٱلَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ فِي ٱلِٱجْتِمَاعِ مِنْ وَازِعٍ حَاكِمٍ يَرْجِعُونَ

إليه وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزّل من عند الله يوجب انقيادهم
إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلّغه وتارة إلى سياسة عقليّة يوجب
انقيادهم إليها ما يتوقّعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالأولى
يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة
العباد في الآخرة والثانية إنّما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة
المدنيّة فليس من هذا الباب وإنّما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كلّ
واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتّى يستغنوا عن الحكّام رأساً
ويسمّون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمّى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين
المراعاة في ذلك بالسياسة المدنيّة وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل
الاجتماع بالمصالح العامّة فإنّ هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو
بعيدة الوقوع وإنّما يتكلّمون عليها على جهة الفرض والتقدير ثمّ إنّ السياسة العقليّة
التي قدّمناها تكون على وجهين أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح
السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة
الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملّة ولعهد الخلافة لأنّ الأحكام الشرعيّة
مغنية عنها في المصالح العامّة والخاصّة وأحكام الملك مندرجة فيها. الوجه الثاني
أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون
المصالح العامّة في هذه تبعاً وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر
الملوك في العالم من مسلم وغيره إلاّ أنّ ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه
الشريعة الإسلاميّة بحسب جهدهم فقوانينها إذاً مجتمعة من أحكام شرعيّة وآداب
خلقيّة وقوانين في الاجتماع طبيعيّة وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبيّة ضروريّة
والاقتداء فيها بالشرع أوّلاً ثمّ الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ومن أحسن
ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لمّا ولاّه
المأمون الرقّة ومصر وما بينهما فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه
فيه ووصّاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينيّة والخلقيّة والسياسة
الشرعيّة والملوكيّة وحثّه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك

وَلَا سُوقَةٌ . وَنَصُّ ٱلْكِتَابِ (بسم ٱلله الرحمن الرحيم) أَمَّا بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى ٱللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُزَايَلَةِ سُخْطِهِ وَٱحْفَظْ رَعِيَّتَكَ فِي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْزَمْ مَا أَلْبَسَكَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْعَافِيَةِ بِٱلذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ وَمَسْئُولٌ عَنْهُ وَٱلْعَمَلِ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ ٱللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنْجِيكَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ ٱلرَّأْفَةَ عَلَيْكَ بِمَنِ ٱسْتَرْعَاكَ أَمْرَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ وَأَلْزَمَكَ ٱلْعَدْلَ فِيهِمْ وَٱلْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودِهِ عَلَيْهِمْ وَٱلذَّبَّ عَنْهُمْ وَٱلدَّفْعَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ وَٱلْحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ وَٱلْأَمْنَ لِسِرْبِهِمْ وَإِدْخَالَ ٱلرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ وَمُؤَاخِذُكَ بِمَا فُرِضَ عَلَيْكَ وَمُوقِفُكَ عَلَيْهِ وَسَائِلُكَ عَنْهُ وَمُثِيبُكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ فَفَرِّغْ لِذٰلِكَ فَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَبَصَرَكَ وَلَا يُشْغِلْكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ وَمِلَاكُ شَأْنِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوَفِّقُكَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ وَتَنْسِبُ إِلَيْهِ فِعْلَكَ ٱلْمُوَاظَبَةَ عَلَى مَا فَرَضَ ٱللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ ٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ وَٱلْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِٱلنَّاسِ قِبَلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاغِ ٱلْوُضُوءِ لَهَا وَٱفْتِتَاحِ ذِكْرِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتِّلْ فِي قِرَاءَتِكَ وَتَمَكَّنْ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشَهُّدِكَ وَلْتَصْرِفْ فِيهِ رَأْيَكَ وَنِيَّتَكَ وَٱحْضُضْ عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِمَّنْ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَٱدْأَبْ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ ٱللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ ثُمَّ أَتْبِعْ ذٰلِكَ بِٱلْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَٱلْمُثَابَرَةِ عَلَى خَلَائِقِهِ وَٱقْتِفَاءِ أَثَرِ ٱلسَّلَفِ ٱلصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَٱسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِٱسْتِخَارَةِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبِلُزُومِ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَٱئْتِمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ ٱلْآثَارُ عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِٱلْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ ٱلْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيبٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَآثِرِ ٱلْفِقْهَ وَأَهْلَهُ وَٱلدِّينَ وَحَمَلَتَهُ وَكِتَابَ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْعَامِلِينَ بِهِ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلْفِقْهُ فِي ٱلدِّينِ وَٱلطَّلَبُ لَهُ وَٱلْحَثُّ عَلَيْهِ وَٱلْمَعْرِفَةُ بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ ٱلدَّلِيلُ عَلَى ٱلْخَيْرِ كُلِّهِ وَٱلْقَائِدُ إِلَيْهِ وَٱلْآمِرُ بِهِ وَٱلنَّاهِي عَنِ ٱلْمَعَاصِي وَٱلْمُوبِقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزْدَادُ ٱلْمَرْءُ مَعْرِفَةً وَإِجْلَالًا لَهُ وَدَرَكًا لِلدَّرَجَاتِ ٱلْعُلَى فِي ٱلْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ ٱلتَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ وَٱلْهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ وَٱلْأَنَسَةِ بِكَ وَٱلثِّقَةِ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِٱلِٱقْتِصَادِ فِي ٱلْأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْيَنَ

نفعاً ولا أخصّ أمناً ولا أجمع فضلاً منه والقصد داعية إلى الرشد والرشد دليل على
التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا في
دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة
ومعالم الرشد والإعانة والاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله
تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله في دار كرامته أما تعلم أن القصد في شأن الدنيا
يورث العز ويمحص من الذنوب وأنك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك
بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح عامتك وخاصتك وأحسن
ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم
به النعمة عليك ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف
أمره فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم آثم إثم فاجعل من شأنك حسن
الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعنك ذلك على استطاعتهم
ورياضتهم ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزاً فإنه يكتفي بالقليل من
وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك واعلم أنك
تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفي به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به
الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك
والرأفة برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء
وحياطة الرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤوناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك
فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة وأخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك
تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ومجزي بما أحسن ومؤاخذ بما أساء فإن الله عز
وجل جعل الدين حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعززه واسلك بمن تسوسه وترعاه
نهج الدين وطريقة الهدى وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم
وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فإن في
تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن
المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتقم لك مروءتك وإذا عاهدت
عهداً فأوف به وإذا وعدت خيراً فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها وأغمض عن عيب

كُلَّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَاشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ وَأَبْغِضْ أَهْلَ النَّمِيمَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَآجِلِهَا تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ وَالْجُرْأَةُ عَلَى الْكَذِبِ لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَآثِمِ وَالزُّورَ وَالنَّمِيمَةَ خَاتِمَتُهَا لِأَنَّ النَّمِيمَةَ لَا يَسْلَمُ صَاحِبُهَا وَقَائِلُهَا لَا يَسْلَمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ وَأَحْبِبْ أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالصِّدْقِ وَأَعِزَّ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ وَآسِ الضُّعَفَاءَ وَصِلِ الرَّحِمَ وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِعْزَازَ أَمْرِهِ وَالْتَمِسْ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ وَاجْتَنِبْ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجَوْرَ وَاصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ وَأَظْهِرْ بَرَاءَتَكَ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمْ بِالْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ وَقُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَامْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ وَآثِرِ الْحِلْمَ وَالْوَقَارَ وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيْشَ وَالْغُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ أَنَا مُسَلَّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ إِلَى نَقْصِ الرَّأْيِ وَقِلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَخْلِصْ لِلَّهِ وَحْدَهُ النِّيَّةَ فِيهِ وَالْيَقِينَ بِهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ وَلَنْ تَجِدَ تَغَيُّرَ النِّعْمَةِ وَحُلُولَ النِّقْمَةِ عَلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةِ النِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَالْمَبْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا كَفَرُوا نِعَمَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ وَاسْتَطَالُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَدَعْ عَنْكَ شَرَهَ نَفْسِكَ وَلْتَكُنْ ذَخَائِرُكَ وَكُنُوزُكَ الَّتِي تَدَّخِرُ وَتَكْنِزُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَاسْتِصْلَاحَ الرَّعِيَّةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمْ وَالتَّفَقُّدَ لِأُمُورِهِمْ وَالْحِفْظَ لِدِمَائِهِمْ وَالْإِغَاثَةَ لِمَلْهُوفِهِمْ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا اكْتُنِزَتْ وَادُّخِرَتْ فِي الْخَزَائِنِ لَا تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صَلَاحِ الرَّعِيَّةِ وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ الْأَذِيَّةِ عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلُحَتْ بِهَا الْعَامَّةُ وَتَرَتَّبَتْ بِهَا الْوِلَايَةُ وَطَابَ بِهَا الزَّمَانُ وَاعْتُقِدَ فِيهَا الْعِزُّ وَالْمَنْفَعَةُ فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَوَفِّرْ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قِبَلَكَ حُقُوقَهُمْ وَأَوْفِ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ وَتَعَهَّدْ مَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْكَ وَاسْتَوْجَبْتَ الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِبَايَةِ خَرَاجِكَ وَجَمْعِ أَمْوَالِ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ وَكَانَ الْجَمِيعُ لِمَا شَمِلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِطَاعَتِكَ وَأَطْيَبَ أَنْفُساً بِكُلِّ مَا أَرَدْتَ وَأَجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَّدْتُ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ وَلْيَعْظُمْ حَقُّكَ فِيهِ وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ مَا أُنْفِقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ وَأَثِبْهُمْ عَلَيْهِ وَإِيَّاكَ أَنْ

تُنسِيكَ ٱلدُّنيَا وَغُرُورُهَا هَوْلَ ٱلآخِرَةِ فَتتهاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيكَ فَإِنَّ التَّهَاوُنَ يُورِثُ ٱلتَّفْرِيطَ وَٱلتَّفْرِيطَ يُورِثُ ٱلبَوَارَ وَلْيَكُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَٱرْجُ ٱلثَّوَابَ فِيهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ وَٱعْتَصِمْ بِٱلشُّكْرِ وَعَلَيْهِ فَٱعْتَمِدْ يَزِدْكَ ٱللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ ٱلشَّاكِرِينَ وَإِحْسَانِ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَا تُحَقِّرَنَّ ذَنْبًا وَلَا تُمَالِئَنَّ حَاسِدًا وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا وَلَا تُدَاهِنَنَّ عَدُوًّا وَلَا تُصَدِّقَنَّ نَمَّامًا وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَّارًا وَلَا تُوَالِيَنَّ فَاسِقًا وَلَا تَتَّبِعَنَّ غَاوِيًا وَلَا تَحْمَدَنَّ مُرَائِيًا وَلَا تُحَقِّرَنَّ إِنْسَانًا وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا وَلَا تُحَسِّنَنَّ بَاطِلًا وَلَا تُلَاحِظَنَّ مُضْحِكًا وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا وَلَا تَزْهُوَنَّ فَخْرًا وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا وَلَا تُبَايِنَنَّ رَجَاءً وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا وَلَا تُفَرِّطَنَّ فِي طَلَبِ ٱلآخِرَةِ وَلَا تَرْفَعْ لِلنَّمَّامِ عَيْنًا وَلَا تُغْمِضَنَّ عَنْ ظَالِمٍ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مُحَابَاةً وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ ٱلآخِرَةِ فِي ٱلدُّنْيَا وَأَكْثِرْ مُشَاوَرَةَ ٱلْفُقَهَاءِ وَٱسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ بِٱلْحِلْمِ وَخُذْ عَنْ أَهْلِ ٱلتَّجَارِبِ وَذَوِي ٱلْعَقْلِ وَٱلرَّأْيِ وَٱلْحِكْمَةِ وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ ٱلرِّقَّةِ وَٱلْبُخْلِ وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمْ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فَسَادًا لِمَا ٱسْتَقْبَلْتَ فِيهِ أَمْرَ رَعِيَّتِكَ مِنَ ٱلشُّحِّ وَٱعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ كَثِيرَ ٱلْأَخْذِ قَلِيلَ ٱلْعَطِيَّةِ وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِٱلْكَفِّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ ٱلْجَوْرِ عَلَيْهِمْ وَٱبْتَدِئْ مَنْ صَافَاكَ مِنْ أَوْلِيَائِكَ بِٱلْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ وَحُسْنِ ٱلْعَطِيَّةِ لَهُمْ وَٱجْتَنِبِ ٱلشُّحَّ وَٱعْلَمْ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى ٱلْإِنْسَانُ بِهِ رَبَّهُ وَإِنَّ ٱلْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خِزْيٍ وَهُوَ قَوْلُ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ فَسَهِّلْ طَرِيقَ ٱلْجُودِ بِٱلْحَقِّ وَٱجْعَلْ لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ فَيْئِكَ حَظًّا وَنَصِيبًا وَأَيْقِنْ أَنَّ ٱلْجُودَ أَفْضَلُ أَعْمَالِ ٱلْعِبَادِ فَأَعِدَّهُ لِنَفْسِكَ خُلُقًا وَٱرْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا وَتَفَقَّدِ ٱلْجُنْدَ فِي دَوَاوِينِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ وَأَدِرَّ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ يُذْهِبِ ٱللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ فَاقَتَهُمْ فَيَقْوَى لَكَ أَمْرُهُمْ وَتَزِيدَ قُلُوبُهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ خُلُوصًا وَٱنْشِرَاحًا وَحَسْبُ ذِي ٱلسُّلْطَانِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ أَنْ يَكُونَ عَلَى جُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ذَا رَحْمَةٍ فِي عَدْلِهِ وَحِيطَتِهِ وَإِنْصَافِهِ وَعِنَايَتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَبِرِّهِ وَتَوْسِعَتِهِ فَزَايِلْ مَكْرُوهَ أَحَدِ ٱلْبَابَيْنِ بِٱسْتِشْعَارِ فَضِيلَةِ ٱلْبَابِ ٱلْآخَرِ وَلُزُومِ ٱلْعَمَلِ بِهِ تَلْقَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ تَعَالَى نَجَاحًا وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْقَضَاءَ مِنَ ٱللَّهِ تَعَالَى بِٱلْمَكَانِ

ٱلَّذي لَيس فَوْقَهُ شيءٌ مِنَ ٱلْأُمُور لِأَنَّهُ مِيزَانُ ٱللهِ ٱلَّذي تعدَّلُ عَلَيهِ أَحوَالُ ٱلنَّاسِ في ٱلْأَرْضِ وَبإِقَامَةِ ٱلعَدْلِ في ٱلقَضَاءِ وَٱلْعَمَلِ تَصلُحُ أَحْوَالُ ٱلرَّعِيَّةِ وَتَأْمَنُ ٱلسُّبُلَ وَيَنْتَصِفُ ٱلمَظْلُومُ وَتَأْخُذُ ٱلنَّاسُ حُقُوقَهُمْ وَتَحْسُنُ ٱلمَعِيشَةُ وَيُؤَدَّى حَقُّ ٱلطَّاعَةِ وَيَرْزُقُ ٱللهُ ٱلعَافِيَةَ وَٱلسَّلَامَةَ وَيُقِيمُ ٱلدِّينَ وَيُجْرِي ٱلسُّنَنَ وَٱلشَّرَائِعَ في مَجَارِيهَا وَٱشْتَدَّ في أَمْرِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوَرَّعْ عَنِ ٱلنُّطَفِ وَٱمْضِ لِإِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَأَقِلَّ ٱلعَجَلَةَ وَٱبْعُدْ عَنِ ٱلضَّجَرِ وَٱلقَلَقِ وَٱقْنَعْ بِٱلْقِسَمِ وَٱنْتَفِعْ بِتَجْرِبَتِكَ وَٱنْتَبِهْ في صَمْتِكَ وَٱسْدُدْ في مَنْطِقِكَ وَأَنْصِفِ ٱلخَصْمَ وَقِفْ عِنْدَ ٱلشُّبْهَةِ وَأَبْلِغْ في ٱلْحُجَّةِ وَلَا يَأْخُذْكَ في أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ مُحَابَاةٌ وَلَا مُجَامَلَةٌ وَلَا لَوْمَةُ لَائِمٍ وَتَثَبَّتْ وَتَأَنَّ وَرَاقِبْ وَٱنْظُرْ وَتَفَكَّرْ وَتَدَبَّرْ وَٱعْتَبِرْ وَتَوَاضَعْ لِرَبِّكَ وَٱرْفُقْ بِجَمِيعِ ٱلرَّعِيَّةِ وَسَلِّطِ ٱلْحَقَّ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى سَفْكِ دَمٍ فَإِنَّ ٱلدِّمَاءَ مِنَ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ ٱنْتِهَاكًا لَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا وَٱنْظُرْ هٰذَا ٱلخَرَاجَ ٱلَّذِي ٱسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ ٱلرَّعِيَّةُ وَجَعَلَهُ ٱللهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرِفْعَةً وَلِأَهْلِهِ تَوْسِعَةً وَمَنْعَةً وَلِعَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ كَبْتًا وَغَيْظًا وَلِأَهْلِ ٱلكُفْرِ مِنْ مُعَادِيهِمْ ذُلًّا وَصَغَارًا فَوَزِّعْهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِٱلْحَقِّ وَٱلعَدْلِ وَٱلتَّسْوِيَةِ وَٱلعُمُومِ وَلَا تَدْفَعَنَّ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ شَرِيفٍ لِشَرَفِهِ وَلَا عَنْ غَنِيٍّ لِغِنَاهُ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَتِكَ وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ فَوْقَ ٱلِٱحْتِمَالِ وَلَا تُكَلِّفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ وَٱحْمِلِ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى أَمْرِ ٱلْحَقِّ فَإِنَّ ذٰلِكَ أَجْمَعُ لِأُنْفُسِهِمْ وَأَلْزَمُ لِرِضَاءِ ٱلعَامَّةِ وَٱعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلْتَ بِوِلَايَتِكَ خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتَكَ لِأَنَّكَ رَاعِيهِمْ وَقَيِّمُهُمْ فَخُذْ مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَنَفِّذْهُ في قِوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَوَدِهِمْ وَٱسْتَعْمِلْ عَلَيْهِمْ أُولِي ٱلرَّأْيِ وَٱلتَّدْبِيرِ وَٱلتَّجْرِبَةِ وَٱلْخِبْرَةِ بِٱلعِلْمِ وَٱلعَمَلِ بِٱلسِّيَاسَةِ وَٱلعَفَافِ وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ في ٱلرِّزْقِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْحُقُوقِ ٱللَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا تَقَلَّدْتَ وَأُسْنِدَ إِلَيْكَ فَلَا يُشْغِلَنَّكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرِفَنَّكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى آثَرْتَهُ وَقُمْتَ فِيهِ بِٱلْوَاجِبِ ٱسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ ٱلنِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحُسْنَ ٱلْأُحْدُوثَةِ في عَمَلِكَ وَٱجْتَرَرْتَ بِهِ ٱلْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعَنْتَ عَلَى ٱلصَّلَاحِ فَدَرَّتِ ٱلْخَيْرَاتُ بِبَلَدِكَ وَفَشَتِ ٱلعِمَارَةُ بِنَاحِيَتِكَ وَظَهَرَ ٱلْخِصْبُ في كُوَرِكَ وَكَثُرَ خَرَاجُكَ وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ وَقَوِيتَ بِذٰلِكَ عَلَى ٱرْتِيَاضِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ ٱلعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ ٱلعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَكُنْتَ مَحْمُودَ ٱلسِّيَاسَةِ

مَرْضِيِّ الْعَدْلِ فِي ذَٰلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ وَكُنْتَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ وَعُدَّةٍ فَنَافِسْ فِي ذَٰلِكَ وَلَا تُقَدِّمْ عَلَيْهِ شَيْئًا تُحْمَدْ عَاقِبَةُ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عُمَّالِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيَرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمُورِهِ كُلِّهَا فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَٰلِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حُسْنَ الدِّفَاعِ وَالصُّنْعِ فَأَمْضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ بِهِ ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرِهِ وَقَدَّرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَأَغْوَاهُ ذَٰلِكَ وَأَعْجَبَهُ فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنُقِضَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَاسْتَعْمِلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ وَبَاشِرْهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُوَّةِ وَأَكْثِرْ مِنَ اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَافْرُغْ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ لِغَدِكَ وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ لِلْغَدِ أُمُورًا وَحَوَادِثَ تُلْهِيكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي أَخَّرْتَ وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا أَخَّرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَثْقُلُكَ ذَٰلِكَ حَتَّى تَمْرَضَ مِنْهُ وَإِذَا أَمْضَيْتَ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحْتَ بَدَنَكَ وَنَفْسَكَ وَجَمَعْتَ أَمْرَ سُلْطَانِكَ وَانْظُرْ أَحْرَارَ النَّاسِ وَذَوِي الْفَضْلِ مِنْهُمْ مِمَّنْ بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوِيَّتِهِمْ وَشَهِدْتَ مَوَدَّتَهُمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتَهُمْ بِالنُّصْحِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَمْرِكَ فَاسْتَخْلِصْهُمْ وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبُيُوتَاتِ مِمَّنْ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ وَاحْتَمِلْ مَؤُونَتَهُمْ وَأَصْلِحْ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِخَلَّتِهِمْ مَسًّا وَأَفْرِدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ وَالْمُحْتَقَرِ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ فَسَلْ عَنْهُ أَحْفَى مَسْأَلَةٍ وَوَكِّلْ بِأَمْثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَمُرْهُمْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ إِلَيْكَ لِتَنْظُرَ فِيمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ وَتَعَاهَدْ ذَوِي الْبَأْسَاءِ وَأَيْتَامَهُمْ وَأَرَامِلَهُمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصِّلَةِ لَهُمْ لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَٰلِكَ عَيْشَهُمْ وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَةً وَزِيَادَةً وَأَجْرِ لِلْأَضِرَّاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدِّمْ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ وَالْحَافِظِينَ لِأَكْثَرِهِ فِي الْجِرَايَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَانْصِبْ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دُورًا تَأْوِيهِمْ وَقُوَّامًا يَرْفُقُونَ بِهِمْ وَأَطِبَّاءَ يُعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ وَأَسْعِفْهُمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ ذَٰلِكَ إِلَى إِسْرَافٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أُعْطُوا حُقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِيِّهِمْ

لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعاً في نيل الزيادة وفضل الرفق منهم وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه فيها ما يناله به من مؤونة ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي يستقبل ما يقربه إلى الله تعالى ويلتمس رحمته وأكثر الإذن للناس عليك وأبرز لهم وجهك وسكن لهم حواسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسألة والنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى قبلك من أهل السلطان والرئاسة في القرون الخالية والأمم البائدة ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وبإقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله عز وجل واعرف ما يجمع عمالك من الأموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراماً ولا تنفق إسرافاً وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأخلاق ومعاليها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك عن إنهاء ذلك إليك في سرك وإعلامك بما فيه من النقص فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهرون لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل فيه عليك بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبر له فما كان موافقاً للحق والحزم فأمضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى المسألة عنه والتثبت فيه ولا تمتن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المسلمين ولا تضعن المعروف إلا على ذلك وتفهم كتابي إليك وأنعم النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فإن الله عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز

وَجَلَّ رِضًى وَلِدِينِهِ نِظَامًا وَلِأَهْلِهِ عِزًّا وَتَمْكِينًا وَلِلْمِلَّةِ وَالذِّمَّةِ عَدْلاً وَصَلاَحًا وَأَنَا أَسْأَلُ ٱللهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكَلاَءَتَكَ وَٱلسَّلاَمُ. وَحَدَّثَ ٱلإِخْبَارِيُّونَ أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمْرُهُ أُعْجِبَ بِهِ ٱلنَّاسُ وَٱتَّصَلَ بِٱلْمَأْمُونِ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ قَالَ مَا أَبْقَى أَبُو ٱلطَّيِّبِ يَعْنِي طَاهِرًا شَيْئًا مِنْ أُمُورِ ٱلدُّنْيَا وَٱلدِّينِ وَٱلتَّدْبِيرِ وَٱلرَّأْيِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَصَلاَحِ ٱلْمُلْكِ وَٱلرَّعِيَّةِ وَحِفْظِ ٱلسُّلْطَانِ وَطَاعَةِ ٱلْخُلَفَاءِ وَتَقْوِيمِ ٱلْخِلاَفَةِ إِلاَّ وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْصَى بِهِ ثُمَّ أَمَرَ ٱلْمَأْمُونُ فَكُتِبَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ ٱلْعُمَّالِ فِي ٱلنَّوَاحِي لِيَقْتَدُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ هٰذَا أَحْسَنُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ وَٱللهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والخمسون

في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شانه وكشف الغطاء عن ذلك

إِعْلَمْ أَنَّ فِي ٱلْمَشْهُورِ بَيْنَ ٱلْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ ٱلإِسْلاَمِ عَلَى مَمَرِّ ٱلأَعْصَارِ أَنَّهُ لاَ بُدَّ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ مِنْ ظُهُورِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ يُؤَيِّدُ ٱلدِّينَ وَيُظْهِرُ ٱلْعَدْلَ وَيَتْبَعُهُ ٱلْمُسْلِمُونَ وَيَسْتَوْلِي عَلَى ٱلْمَمَالِكِ ٱلإِسْلاَمِيَّةِ وَيُسَمَّى بِٱلْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ خُرُوجُ ٱلدَّجَّالِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ ٱلثَّابِتَةِ فِي ٱلصَّحِيحِ عَلَى أَثَرِهِ وَأَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ مِنْ بَعْدِهِ فَيَقْتُلُ ٱلدَّجَّالَ أَوْ يَنْزِلُ مَعَهُ فَيُسَاعِدُهُ عَلَى قَتْلِهِ وَيَأْتَمُّ بِٱلْمَهْدِيِّ فِي صَلاَتِهِ وَيَحْتَجُّونَ فِي ٱلشَّأْنِ بِأَحَادِيثَ خَرَّجَهَا ٱلأَئِمَّةُ وَتَكَلَّمَ فِيهَا ٱلْمُنْكِرُونَ لِذٰلِكَ وَرُبَّمَا عَارَضُوهَا بِبَعْضِ ٱلأَخْبَارِ وَلِلْمُتَصَوِّفَةِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِي أَمْرِ هٰذَا ٱلْفَاطِمِيِّ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَنَوْعٌ مِنَ ٱلاِسْتِدْلاَلِ وَرُبَّمَا يَعْتَمِدُونَ فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْكَشْفِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ طَرَائِقِهِمْ. وَنَحْنُ ٱلآنَ نَذْكُرُ هُنَا ٱلأَحَادِيثَ ٱلْوَارِدَةَ فِي هٰذَا ٱلشَّأْنِ وَمَا لِلْمُنْكِرِينَ فِيهَا مِنَ ٱلْمَطَاعِنِ وَمَا لَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمْ مِنَ ٱلْمُسْتَنَدِ ثُمَّ نُتْبِعُهُ بِذِكْرِ كَلاَمِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ وَرَأْيِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلصَّحِيحُ مِنْ ذٰلِكَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى فَنَقُولُ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ ٱلأَئِمَّةِ خَرَّجُوا أَحَادِيثَ ٱلْمَهْدِيِّ مِنْهُمُ ٱلتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَٱلْبَزَّازُ وَٱبْنُ مَاجَةَ وَٱلْحَاكِمُ وَٱلطَّبَرَانِيُّ وَأَبُو يَعْلَى ٱلْمَوْصِلِيُّ وَأَسْنَدُوهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ مِثْلِ عَلِيٍّ وَٱبْنِ عَبَّاسٍ وَٱبْنِ عُمَرَ وَطَلْحَةَ وَٱبْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ وَأُمِّ حَبِيبَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَثَوْبَانَ وَقُرَّةَ ٱبْنِ إِيَاسٍ وَعَلِيٍّ ٱلْهِلاَلِيِّ وَعَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ بِأَسَانِيدَ رُبَّمَا يَعْرِضُ لَهَا

المنكرون كما نذكره إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل فإذا وجدنا طعنا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها ولا تقولن مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصحيحين فإن الإجماع قد اتصل في الأمة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفعا وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك فقد تجد مجالا للكلام في أسانيدها بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك.

ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فقال ومن أغربها إسنادا ما ذكره أبو بكر الإسكاف في فوائد الأخبار مستندا إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب وحسبك هذا غلوا والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس على أن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع.

وأما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسنديهما إلى ابن عباس من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة إلى زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي. هذا لفظ أبي داود وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة إن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي وفي لفظ آخر حتى يلي رجل من أهل بيتي وكلاهما حديث حسن صحيح ورواه أيضا من طريق موقوفا على أبي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار عاصم إذ هو إمام من أئمة المسلمين (إنتهى) إلا أن عاصما قال فيه أحمد بن حنبل كان رجلا صالحا قارئا للقرآن خيرا ثقة والأعمش أحفظ منه وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت الحديث وقال العجلي كان يختلف عليه في زر وأبي وائل يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد

كَانَ ثِقَةً إِلاَّ أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَإِ فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ اضْطِرَابٌ وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِنَّ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثِقَةٌ فَقَالَ لَيْسَ مَحَلُّهُ هٰذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ابْنُ عُلَيَّةَ فَقَالَ كُلُّ مَنِ اسْمُهُ عَاصِمٌ سَيِّءُ الْحِفْظِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ الصِّدْقِ صَالِحُ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذٰلِكَ الْحَافِظُ وَاخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ النَّسَائِيِّ وَقَالَ ابْنُ حِرَاشٍ فِي حَدِيثِهِ نَكِرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرَ الْعُقَيْلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلاَّ سُوءُ الْحِفْظِ وَقَالَ الدَّارَقُطْنِي فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى الْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ رَجُلاً اسْمُهُ عَاصِمٌ إِلاَّ وَجَدْتُهُ رَدِيءَ الْحِفْظِ وَقَالَ أَيْضًا سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ أَبِي النُّجُودِ وَفِي النَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ الذَّهَبِيُّ ثَبْتٌ فِي الْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَإِنِ احْتَجَّ أَحَدٌ بِأَنَّ الشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ فَنَقُولُ أَخْرَجَا لَهُ مَقْرُونًا بِغَيْرِهِ لاَ أَصْلاً وَاللّٰهُ أَعْلَمُ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْبَابِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ قَطَنِ بْنِ خَلِيفَةَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مُرَّةَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ يَوْمٌ لَبَعَثَ اللّٰهُ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَقَطَنُ بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى ابْنُ الْقَطَّانِ وَابْنُ مَعِينٍ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلاَّ أَنَّ الْعِجْلِيَّ قَالَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشَيُّعٌ قَلِيلٌ وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ مَرَّةً ثِقَةٌ شِيعِيٌّ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ بْنُ يُونُسَ كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قَطَنَ وَهُوَ مَطْرُوحٌ لاَ نَكْتُبُ عَنْهُ وَقَالَ مَرَّةً كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَأَدَعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ وَقَالَ الدَّارَقُطْنِي لاَ يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ مَا تَرَكْتُ الرِّوَايَةَ عَنْهُ إِلاَّ لِسُوءِ مَذْهَبِهِ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ زَائِغٌ غَيْرُ ثِقَةٍ انْتَهَى وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا بِسَنَدِهِ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ ابْنِ الْمُغِيرَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ النَّسَفِيِّ قَالَ قَالَ عَلِيٌّ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ إِنَّ ابْنِي هٰذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشْبِهُهُ فِي الْخُلُقِ وَلاَ يُشْبِهُهُ فِي الْخَلْقِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلاً وَقَالَ هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ هِلاَلِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يُوَطِّئُ أَوْ يُمَكِّنُ لِآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا مَكَّنَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبَ

عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ أَوْ قَالَ إِجَابَتُهُ سَكَتَ أَبُو دَاوُدَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي هَارُونَ هُوَ مِنْ وُلْدِ الشِّيعَةِ وَقَالَ السُّلَيْمَانِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي عَمْرِ بْنِ أَبِي قَيْسٍ لَا بَأْسَ فِي حَدِيثِهِ خَطَأٌ وَقَالَ الذَّهَبِي صَدُوقٌ لَهُ أَوْهَامٌ وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ الشِّيعِيُّ وَإِنْ خَرَّجَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ اخْتَلَطَ آخِرَ عُمْرِهِ وَرِوَايَتُهُ عَنْ عَلِيٍّ مُنْقَطِعَةٌ وَكَذَلِكَ رِوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ هَارُونَ بْنِ الْمُغِيرَةِ . وَأَمَّا السَّنَدُ الثَّانِي فَأَبُو الْحَسَنِ فِيهِ وَهِلَالُ بْنُ عَمْرٍو مَجْهُولَانِ وَلَمْ يُعْرَفْ أَبُو الْحَسَنِ إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْهُ انْتَهَى وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ ابْنِ نُفَيْلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ بِالصَّحِيحِ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَّفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْعُقَيْلِيُّ وَقَالَ لَا يُتَابَعُ عَلِيُّ بْنُ نُفَيْلٍ عَلَيْهِ وَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ مِنْ رِوَايَةِ صَالِحٍ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ صَاحِبٍ لَهُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَ يَكُونُ اخْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ خَلِيفَةٍ فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَارِبًا إِلَى مَكَّةَ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُخْرِجُونَهُ وَهُوَ كَارِهٌ فَيُبَايِعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ مِنَ الشَّامِ فَيُخْسَفُ بِهِمْ بِالْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَتَاهُ أَبْدَالُ أَهْلِ الشَّامِ وَعَصَائِبُ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَيُبَايِعُونَهُ ثُمَّ يَنْشَأُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَخْوَالُهُ كَلْبٌ فَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ بَعْثًا فَيَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ بَعْثُ كَلْبٍ وَالْخَيْبَةُ لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ غَنِيمَةَ كَلْبٍ فَيَقْسِمُ الْمَالَ وَيَعْمَلُ فِي النَّاسِ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُلْقِي الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَيَلْبَثُ سَبْعَ سِنِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ الْمُبْهَمُ فِي الْإِسْنَادِ الْأَوَّلِ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحَيْنِ لَا مَطْعَنَ فِيهِمْ وَلَا مَغْمَزَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ وَقَتَادَةُ مُدَلِّسٌ وَقَدْ عَنْعَنَهُ وَالْمُدَلِّسُ لَا يُقْبَلُ مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَا صَرَّحَ فِيهِ بِالسَّمَاعِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ نَعَمْ ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي أَبْوَابِهِ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا وَتَابَعَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى

ٱلْأَنْفِ يَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ هٰذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَلَفْظُ ٱلْحَاكِمِ ٱلْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ أَشَمُّ ٱلْأَنْفِ أَقْنَى أَجْلَى يَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَعِيشُ هٰكَذَا وَيَبْسُطُ يَسَارَهُ وَإِصْبَعَيْنِ مِنْ يَمِينِهِ ٱلسَّبَّابَةِ وَٱلْإِبْهَامِ وَعَقَدَ ثَلَاثًا قَالَ ٱلْحَاكِمُ هٰذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. اهـ. وَعِمْرَانُ ٱلْقَطَّانُ مُخْتَلَفٌ فِي ٱلْاِحْتِجَاجِ بِهِ إِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ ٱلْبُخَارِيُّ ٱسْتِشْهَادًا لَا أَصْلًا وَكَانَ يَحْيَى ٱلْقَطَّانُ لَا يُحَدِّثُ عَنْهُ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ لَيْسَ بِٱلْقَوِيِّ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِشَيْءٍ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِحَ ٱلْحَدِيثِ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ كَانَ حَرُورِيًّا وَكَانَ يَرَى ٱلسَّيْفَ عَلَى أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ وَقَالَ ٱلنَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ ٱلْآجُرِّيُّ سَأَلْتُ أَبَا دَاوُدَ عَنْهُ فَقَالَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْحَسَنِ وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْرًا وَسَمِعْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى ذَكَرَهُ فَقَالَ ضَعِيفٌ أَفْتَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنٍ بِفَتْوَى شَدِيدَةٍ فِيهَا سَفْكُ ٱلدِّمَاءِ وَخَرَّجَ ٱلتِّرْمِذِيُّ وَٱبْنُ مَاجَةَ وَٱلْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ مِنْ طَرِيقِ زَيْدٍ ٱلْعَمِّيِّ عَنْ أَبِي صِدِّيقٍ ٱلنَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ قَالَ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ شَيْءٍ حَدَثَ فَسَأَلْنَا نَبِيَّ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ فِي أُمَّتِي ٱلْمَهْدِيَّ يَخْرُجُ وَيَعِيشُ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا زَيْدٌ ٱلشَّاكُّ قَالَ قُلْنَا وَمَا ذَاكَ قَالَ سِنِينَ قَالَ فَيَجِيءُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي قَالَ فَيَحْثُو لَهُ فِي ثَوْبِهِ مَا ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ لَفْظُ ٱلتِّرْمِذِيِّ وَقَالَ هٰذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَفْظُ ٱبْنِ مَاجَةَ وَٱلْحَاكِمِ يَكُونُ فِي أُمَّتِي ٱلْمَهْدِيُّ إِنْ قَصُرَ فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَتِسْعٌ فَتَنْعَمُ أُمَّتِي فِيهِ نِعْمَةً لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا قَطُّ تُؤْتَى ٱلْأَرْضُ أُكُلَهَا وَلَا يُدَّخَرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَٱلْمَالُ يَوْمَئِذٍ كُدُوسٌ فَيَقُومُ ٱلرَّجُلُ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ. إِنْتَهَى وَزَيْدٌ ٱلْعَمِّيُّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ ٱلدَّارَقُطْنِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ إِنَّهُ صَالِحٌ وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ يَزِيدَ ٱلرَّقَاشِيِّ وَفَضَلَ ٱبْنَ عِيسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ ضَعِيفٌ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لَا شَيْءَ وَقَالَ مَرَّةً يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ مُتَمَاسِكٌ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ بِقَوِيٍّ وَاهِي ٱلْحَدِيثِ ضَعِيفًا وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِذَاكَ وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ وَقَالَ ٱلنَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ ٱبْنُ عَدِيٍّ عَامَّةُ مَا يَرْوِيهِ وَمَنْ يَرْوِي عَنْهُمْ ضُعَفَاءُ عَلَى أَنَّ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَلَّ

شعبة لم يرو عن أضعف منه وقد يقال إن حديث الترمذي وقع تفسيرا لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في آخر أمتي خليفة يحثو المال حثوا لا يعده عدا ومن حديث أبي سعيد قال من خلفائكم خليفة يحثو المال حثوا ومن طريق أخرى عنهما قال يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده انتهى وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها ورواه الحاكم أيضا من طريق عوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جورا وظلما وعدوانا ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملأها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقال فيه الحاكم هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم أيضا عن طريق سليمان بن عبيد عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم الأمة يعيش سبعا أو ثمانيا يعني حججا وقال فيه حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرد أن أحدا تكلم فيه ثم رواه الحاكم أيضا من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبي هارون العبدي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تملأ الأرض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعا أو تسعا فيملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال الحاكم فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق وأما شيخه الآخر وهو أبو هارون العبدي فلم يخرج له وهو ضعيف جدا متهم بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه . وأما الراوي له عن حماد بن سلمة فهو أسد بن موسى يلقب أسد السنة وإن قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به أبو داود والنسائي إلا أنه قال مرة أخرى ثقة لو لم يصنف كان خيرا له وقال فيه محمد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق

النَّاجي عن الحسن بن يزيد السعدي أحد بني بهدلة عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من أمتي يقول بسنتي ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخرج الأرض بركتها وتملأ الأرض منه قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل على بيت المقدس وقال الطبراني فيه رواه جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحدًا إلا أبا الواصل فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد ورواية أبي الصديق عنه وقال الذهبي في الميزان إنه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروي عن أنس روى عنه شعبة وعتاب بن بشر وخرج ابن ماجة في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرفت عيناه وتغير لونه قال فقلت ما نزال نرى في وجهك شيئًا نكرهه فقال إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدًا وتطريدًا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطًا كما ملؤها جورًا فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوًا على الثلج انتهى. وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات ويزيد بن أبي زياد راويه قال فيه شعبة كان رفاعًا يعني يرفع الأحاديث التي لا تعرف مرفوعة وقال محمد بن الفضيل من كبار أئمة الشيعة وقال أحمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة حديثه ليس بذلك وقال يحيى ابن معين ضعيف وقال العجلي جائز الحديث وكان بآخره يلقن وقال أبو زرعة لين يكتب حديثه ولا يحتج به وقال أبو حاتم ليس بالقوي وقال الجرجاني سمعتهم يضعفون حديثه وقال أبو داود لا أعلم أحدًا ترك حديثه وغيره أحب إلي منه وقال

ابْنُ عَدِيّ هُوَ مِنْ شِيعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَمَعَ ضُعْفِهِ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَرَوَى لَهُ مُسْلِمٌ لٰكِنْ مَقْرُونًا بِغَيْرِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى ضُعْفِهِ وَقَدْ صَرَّحَ الْأَئِمَّةُ بِتَضْعِيفِ هٰذَا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللّٰهِ وَهُوَ حَدِيثُ الرَّايَاتِ وَقَالَ وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ فِيهِ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَكَذٰلِكَ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ أَبُو قُدَامَةَ سَمِعْتُ أَبَا أُسَامَةَ يَقُولُ فِي حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي الرَّايَاتِ لَوْ حَلَفَ عِنْدِي خَمْسِينَ يَمِينًا أُسَامَةُ مَا صَدَّقْتُهُ أَهٰذَا مَذْهَبُ إِبْرَاهِيمَ أَهٰذَا مَذْهَبُ عَلْقَمَةَ أَهٰذَا مَذْهَبُ عَبْدِ اللّٰهِ وَأَوْرَدَ الْعُقَيْلِيُّ هٰذَا الْحَدِيثَ فِي الضُّعَفَاءِ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَخَرَّجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ يَاسِينَ الْعِجْلِيِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ يُصْلِحُ اللّٰهُ بِهِ فِي لَيْلَةٍ وَيَاسِينُ الْعِجْلِيُّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ ابْنُ مَعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَهٰذِهِ اللَّفْظَةُ مِنَ اصْطِلَاحِهِ قَوِيَّةٌ فِي التَّضْعِيفِ جِدًّا وَأَوْرَدَ لَهُ ابْنُ عَدِيّ فِي الْكَامِلِ وَالذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ هٰذَا الْحَدِيثَ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِنْكَارِ لَهُ وَقَالَ هُوَ مَعْرُوفٌ بِهِ وَخَرَّجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِنَّا الْمَهْدِيُّ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا يَا رَسُولَ اللّٰهِ فَقَالَ بَلْ مِنَّا بِنَا يَخْتِمُ اللّٰهُ كَمَا بِنَا فَتَحَ وَبِنَا يَسْتَنْقِذُونَ مِنَ الشِّرْكِ وَبِنَا يُؤَلِّفُ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ عَدَاوَةٍ بَيِّنَةٍ كَمَا بِنَا أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عَدَاوَةِ الشِّرْكِ قَالَ عَلِيٌّ أَمُؤْمِنُونَ أَمْ كَافِرُونَ قَالَ مَفْتُونٌ وَكَافِرٌ انتهى . وَفِيهِ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ لَهِيعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ مَعْرُوفُ الْحَالِ وَفِيهِ عُمَرُ بْنُ جَابِرٍ الْحَضْرَمِيُّ وَهُوَ أَضْعَفُ مِنْهُ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رُوِيَ عَنْ جَابِرٍ مَنَاكِيرُ وَبَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ لَيْسَ بِثِقَةٍ وَقَالَ كَانَ ابْنُ لَهِيعَةَ شَيْخًا أَحْمَقَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ وَكَانَ يَقُولُ عَلِيٌّ فِي السَّحَابِ وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَنَا فَيُبْصِرُ سَحَابَةً فَيَقُولُ هٰذَا عَلِيٌّ قَدْ مَرَّ فِي السَّحَابِ وَخَرَّجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللّٰهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فِتْنَةٌ يُحَصَّلُ النَّاسُ فِيهَا كَمَا يُحَصَّلُ الذَّهَبُ فِي الْمَعْدِنِ فَلَا تَسُبُّوا أَهْلَ الشَّامِ وَلٰكِنْ سُبُّوا أَشْرَارَهُمْ فَإِنَّ فِيهِمِ الْأَبْدَالَ يُوشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيِّبٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيُفَرِّقُ جَمَاعَتَهُمْ حَتَّى لَوْ قَاتَلَتْهُمُ الثَّعَالِبُ غَلَبَتْهُمْ فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي ثَلَاثِ رَايَاتٍ الْمُكْثِرُ يَقُولُ بِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَالْمُقِلُّ يَقُولُ بِهِمُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا وَأَمَارَتُهُمْ امِتْ امِتْ يَلْقَوْنَ

سَبْعَ رَايَاتٍ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ مِنْهَا رَجُلٌ يَطْلُبُ ٱلْمُلْكَ فَيَقْتُلُهُمُ ٱللّٰهُ جَمِيعًا وَيَرُدُّ ٱللّٰهُ إِلَى ٱلْمُسْلِمِينَ أُلْفَتَهُمْ وَنِعْمَتَهُمْ وَقَاصِيَتَهُمْ وَرَأْيَهُمْ. اه. وَفِيهِ عَبْدُ ٱللّٰهِ ٱبْنُ لَهِيعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ مَعْرُوفُ ٱلْحَالِ وَرَوَاهُ ٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ صَحِيحُ ٱلْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ فِي رِوَايَتِهِ ثُمَّ يَظْهَرُ ٱلْهَاشِمِيُّ فَيَرُدُّ ٱللّٰهُ ٱلنَّاسَ إِلَى أُلْفَتِهِمْ الخ وَلَيْسَ فِي طَرِيقِهِ ٱبْنُ لَهِيعَةَ وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ كَمَا ذَكَرَ وَخَرَّجَ ٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ٱلطُّفَيْلِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ ٱلْمَهْدِيِّ فَقَالَ لَهُ هَيْهَاتَ ثُمَّ عَقَدَ بِيَدِهِ سَبْعًا فَقَالَ ذٰلِكَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ إِذَا قَالَ ٱلرَّجُلُ ٱللّٰهُ ٱللّٰهُ قُتِلَ وَيَجْمَعُ ٱللّٰهُ لَهُ قَوْمًا قَزَعًا كَقَزَعِ ٱلسَّحَابِ يُؤَلِّفُ ٱللّٰهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَلَا يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ دَخَلَ فِيهِمْ عِدَّتُهُمْ عَلَى عِدَّةِ أَهْلِ بَدْرٍ لَمْ يَسْبِقْهُمُ ٱلْأَوَّلُونَ وَلَا يُدْرِكُهُمُ ٱلْآخِرُونَ وَعَلَى عَدَدِ أَصْحَابِ طَالُوتَ ٱلَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ ٱلنَّهَرَ قَالَ أَبُو ٱلطُّفَيْلِ قَالَ ٱبْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ أَتُرِيدُهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ هٰذَيْنِ ٱلْأَخْشَبَيْنِ قُلْتُ لَا جَرَمَ وَٱللّٰهِ وَلَا أَدَعُهَا حَتَّى أَمُوتَ وَمَاتَ بِهَا يَعْنِي مَكَّةَ قَالَ ٱلْحَاكِمُ هٰذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ ٱلشَّيْخَيْنِ انتهى وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ فَقَطْ فَإِنَّ فِيهِ عَمَّارًا ٱلذَّهَبِيَّ وَيُونُسَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ وَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُمَا ٱلْبُخَارِيُّ وَفِيهِ عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلْعَبْقَرِيُّ وَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ ٱلْبُخَارِيُّ ٱحْتِجَاجًا بَلِ ٱسْتِشْهَادًا مَعَ مَا يَنْضَمُّ إِلَى ذٰلِكَ مِنْ تَشَيُّعِ عَمَّارٍ ٱلذَّهَبِيِّ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَٱبْنُ مَعِينٍ وَأَبُو حَاتِمٍ ٱلنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْمَدَنِيِّ عَنْ سُفْيَانَ أَنَّ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ قَطَعَ عُرْقُوبَيْهِ قُلْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَالَ فِي ٱلتَّشَيُّعِ وَخَرَّجَ ٱبْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ فِي رِوَايَةِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زِيَادٍ ٱلْيَمَامِيِّ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ إِسْحَاقَ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ نَحْنُ وُلْدُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ سَادَاتُ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ أَنَا وَحَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرٌ وَٱلْحَسَنُ وَٱلْحُسَيْنُ وَٱلْمَهْدِيُّ انتهى وَعِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ وَإِنْ أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُتَابَعَةً وَقَدْ ضَعَّفَهُ بَعْضٌ وَوَثَّقَهُ آخَرُونَ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ ٱلرَّازِيُّ هُوَ مُدَلِّسٌ فَلَا يُقْبَلُ إِلَى أَنْ يُصَرِّحَ بِٱلسَّمَاعِ عَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ قَالَ ٱلذَّهَبِيُّ فِي ٱلْمِيزَانِ لَا نَدْرِي مَنْ هُوَ ثُمَّ قَالَ ٱلصَّوَابُ فِيهِ عَبْدُ ٱللّٰهِ ٱبْنُ زِيَادٍ وَسَعْدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْحَمِيدِ وَإِنْ وَثَّقَهُ يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ

مُعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الثَّوْرِيُّ قَالُوا لِأَنَّهُ رَآهُ يُفْتِي فِي مَسَائِلَ وَيُخْطِئُ فِيهَا وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ كَانَ مِمَّنْ فَحُشَ خَطَاؤُهُ فَلَا يُحْتَجُّ فِيهِ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ سَعِيدُ ابْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ يَدَّعِي أَنَّهُ سَمِعَ عَرْضَ كُتُبِ مَالِكٍ وَالنَّاسُ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَهُوَ هَهُنَا بِبَغْدَادَ لَمْ يُحْتَجَّ فَكَيْفَ سَمِعَهَا وَجَعَلَهُ الذَّهَبِيُّ مِمَّنْ لَمْ يَقْدَحْ فِيهِ كَلَامُ مَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ وَخَرَّجَ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ قَالَ مُجَاهِدٌ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ لَوْ لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكَ مِثْلُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدٌ فَإِنَّهُ فِي سِتْرٍ لَا أَذْكُرُهُ لِمَنْ يَكْرَهُ قَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ أَرْبَعَةٌ مِنَّا السَّفَّاحُ وَمِنَّا الْمُنْذِرُ وَمِنَّا الْمَهْدِيُّ قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدٌ بَيِّنْ لِي هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَمَّا السَّفَّاحُ فَرُبَّمَا قَتَلَ أَنْصَارَهُ وَعَفَا عَنْ عَدُوِّهِ وَأَمَّا الْمُنْذِرُ أَرَاهُ قَالَ فَإِنَّهُ يُعْطِي الْمَالَ الْكَثِيرَ وَلَا يَتَعَاظَمُ فِي نَفْسِهِ وَيُمْسِكُ الْقَلِيلَ مِنْ حَقِّهِ وَأَمَّا الْمَنْصُورُ فَإِنَّهُ يُعْطَى النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ الشَّطْرَ مِمَّا كَانَ يُعْطِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرَيْنِ وَالْمَنْصُورُ يَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأَمَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَتَأْمَنُ الْبَهَائِمُ السِّبَاعَ وَتُلْقِي الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا قَالَ قُلْتُ وَمَا أَفْلَاذُ كَبِدِهَا قَالَ أَمْثَالُ الْأُسْطُوَانَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَقَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ عَنْ أَبِيهِ وَإِسْمَاعِيلُ ضَعِيفٌ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُوهُ وَإِنْ خَرَّجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى تَضْعِيفِهِ ١هـ. وَخَرَّجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا لَمْ يَقْتُلْهُ قَوْمٌ ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ قَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ ١هـ. وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحَيْنِ إِلَّا أَنَّ فِيهِ أَبَا قِلَابَةَ الْجَرْمِيَّ وَذَكَرَ الذَّهَبِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ مُدَلِّسٌ وَفِيهِ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَهُوَ مَشْهُورٌ بِالتَّدْلِيسِ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْعَنَ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِالسَّمَاعِ فَلَا يُقْبَلُ وَفِيهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ هَمَّامٍ وَكَانَ مَشْهُورًا بِالتَّشَيُّعِ وَعَمِيَ فِي آخِرِ وَقْتِهِ فَخَلَطَ قَالَ ابْنُ عَدِيٍّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ فِي الْفَضَائِلِ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَنَسَبُوهُ إِلَى التَّشَيُّعِ إِنْتَهَى. وَخَرَّجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ الزُّبَيْدِيِّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ

لَهِيعَةَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ جَابِرٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوَطِّئُونَ لِلْمَهْدِيِّ يَعْنِي سُلْطَانَهُ. قَالَ الطَّبَرَانِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهِيعَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ الَّذِي خَرَّجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ أَنَّ ابْنَ لَهِيعَةَ ضَعِيفٌ وَأَنَّ شَيْخَهُ عُمَرَ بْنَ جَابِرٍ أَضْعَفُ مِنْهُ وَخَرَّجَ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لِلطَّبَرَانِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصُرَ فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَثَمَانٍ وَإِلَّا فَتِسْعٌ تَنْعَمُ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا تُرْسَلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَلَا تَدَّخِرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْمَالُ كُدُوسٌ يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ قَالَ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْعِجْلِيُّ زَادَ الْبَزَّارُ وَلَا نَعْلَمُ أَنَّهُ تَابَعَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حِبَّانَ أَيْضًا بِمَا ذَكَرَهُ فِي الثِّقَاتِ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ صَالِحٌ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ عِنْدِي بِذَلِكَ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ الْعِجْلِيَّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ وَأَنَا شَاهِدٌ لَمْ نَكْتُبْهَا تَرَكْتُهَا عَلَى عَمْدٍ وَكَتَبَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْهُ كَأَنَّهُ ضَعَّفَهُ وَخَرَّجَهُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ حَدَّثَنِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَضْرِبَهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ قَالَ قُلْتُ وَكَمْ يَمْلِكُ قَالَ خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ قُلْتُ وَمَا خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ لَا أَدْرِي. اهـ. وَهَذَا السَّنَدُ غَيْرُ مُحْتَجٍّ بِهِ وَإِنْ قَالَ فِيهِ بَشِيرُ بْنُ نَهِيكٍ وَقَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ فَقَدِ احْتَجَّ بِهِ الشَّيْخَانِ وَوَثَّقَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِ أَبِي حَاتِمٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ رَجَاءُ ابْنُ أَبِي رَجَاءٍ الْيَشْكُرِيُّ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ قَالَ أَبُو زُرْعَةَ ثِقَةٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ ضَعِيفٌ وَقَالَ مَرَّةً صَالِحٌ وَعَلَّقَ لَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حَدِيثًا وَاحِدًا وَخَرَّجَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ عَنْ قُرَّةَ بْنِ إِيَاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَتُمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَإِذَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللهُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا وَلَا تَدَّخِرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِهَا يَلْبَثُ فِيكُمْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا أَوْ تِسْعًا

يَعْنِي سِنِينَ ٠اه٠ وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبِّي بْنُ الْمُحْرِمِ عَنْ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا وَخَرَّجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ تَلَاحَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَغْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ الْعَبَّاسِ وَبِيَدِ عَلِيٍّ وَقَالَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هٰذَا حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ جَوْرًا وَظُلْمًا وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هٰذَا حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذٰلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِالْفَتَى التَّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ يُقْبِلُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَايَةِ الْمَهْدِيِّ ٠انتهى٠ وَفِيهِ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ اللّٰهِ بْنُ لَهِيعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ٠اه٠ وَخَرَّجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللّٰهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ أَمِيرَكُمْ فُلَانٌ٠ اه٠ وَفِيهِ الْمُثَنَّى بْنُ الصَّبَّاحِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَبْوَابِهِ وَتَرْجَمَتِهِ اسْتِئْنَاسًا فَهٰذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي خَرَّجَهَا الْأَئِمَّةُ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ وَخُرُوجِهِ آخِرَ الزَّمَانِ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنَ النَّقْدِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَالْأَقَلُّ مِنْهُ وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ الْمُنْكِرُونَ لِشَأْنِهِ بِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ الْجُنْدِيُّ عَنْ أَبَانَ بْنِ صَالِحِ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ إِنَّهُ ثِقَةٌ وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ وَقَالَ الْحَاكِمُ فِيهِ إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَاخْتُلِفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةً يَرْوُونَهُ كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذٰلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَمَرَّةً يَرْوُونَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانَ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلًا قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ مَجْهُولٌ عَنْ ابَانَ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ وَهُوَ مَتْرُوكٌ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُضْطَرِبٌ وَقَدْ قِيلَ أَنْ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى يُحَاوِلُونَ بِهٰذَا التَّأْوِيلِ رَدَّ الِاحْتِجَاجِ بِهِ أَوِ الْجَمْعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيْجٍ وَمِثْلِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ٠ وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَلَمْ يَكُنِ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي الْمُجَاهَدَةِ

بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والأحوال وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم وكثرت التآليف في مذاهبهم وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيرها ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحس وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والأبدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقة أن علياً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طريق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها من القوم دخلهم في التشيع وانخراطهم في سلكه وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم عن بعض وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات وهو من نوع الكلام في الملاحم ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب وابن قسي في كتاب خلع النعلين وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واصل تلميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين وأكثر كلماتهم في شأنه ألغاز وأمثال وربما يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرو

كَلَامِهِمْ وَحَاصِلُ مَذْهَبِهِمْ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ أَنَّ النُّبُوَّةَ بِهَا ظَهَرَ الْحَقُّ
وَالْهُدَى بَعْدَ الضَّلَالِ وَالْعَمَى وَأَنَّهَا تَعْقُبُهَا الْخِلَافَةُ ثُمَّ يَعْقُبُ الْخِلَافَةَ الْمُلْكُ ثُمَّ يَعُودُ تَجَبُّرًا
وَتَكَبُّرًا وَبَاطِلًا قَالُوا وَلَمَّا كَانَ فِي الْمَعْهُودِ مِنْ سُنَّةِ اللهِ رُجُوعُ الْأُمُورِ إِلَى مَا كَانَتْ وَجَبَ
أَنْ يَحْيَا أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْحَقِّ بِالْوِلَايَةِ ثُمَّ بِخِلَافَتِهَا ثُمَّ يَعْقُبُهَا الدَّجْلُ مَكَانَ الْمُلْكِ وَالتَّسَلُّطِ
ثُمَّ يَعُودُ الْكُفْرُ بِحَالِهِ يُشِيرُونَ بِهَذَا لِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ بَعْدَهَا وَالْمُلْكِ
بَعْدَ الْخِلَافَةِ هَذِهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ وَكَذَلِكَ الْوِلَايَةُ الَّتِي هِيَ لِهَذَا الْفَاطِمِيِّ وَالدَّجْلُ بَعْدَهَا
كِنَايَةٌ عَنْ خُرُوجِ الدَّجَّالِ عَلَى أَثَرِهِ وَالْكُفْرِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ عَلَى نِسْبَةِ
الثَّلَاثِ الْمَرَاتِبِ الْأُولَى قَالُوا وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ لِقُرَيْشٍ حُكْمًا شَرْعِيًّا بِالْإِجْمَاعِ
الَّذِي لَا يُوهِنُهُ إِنْكَارُ مَنْ لَمْ يُزَاوِلْ عِلْمَهُ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْإِمَامَةُ فِيمَنْ هُوَ أَخَصُّ
مِنْ قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَّا ظَاهِرًا كَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِمَّا بَاطِنًا مِمَّنْ
كَانَ مِنْ حَقِيقَةِ الْآلِ وَالْآلُ مَنْ إِذَا حَضَرَ لَمْ يَغِبْ مَنْ هُوَ آلُهُ وَابْنُ الْعَرَبِيِّ
الْحَاتِمِيُّ سَمَّاهُ فِي كِتَابِهِ عَنْقَاءِ مُغْرِبٍ مِنْ تَآلِيفِهِ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَنَّى عَنْهُ بِلَبِنَةِ
الْفِضَّةِ إِشَارَةً إِلَى حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ فِي بَابِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
مَثَلِي فِيمَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا وَأَكْمَلَهُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ
إِلَّا مَوْضِعُ لَبِنَةٍ فَأَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةُ فَيُفَسِّرُونَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ بِاللَّبِنَةِ حَتَّى أَكْمَلَتِ الْبُنْيَانَ
وَمَعْنَاهُ النَّبِيُّ الَّذِي حَصَلَتْ لَهُ النُّبُوَّةُ الْكَامِلَةُ وَيُمَثِّلُونَ الْوِلَايَةَ فِي تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا
بِالنُّبُوَّةِ وَيَجْعَلُونَ صَاحِبَ الْكَمَالِ فِيهَا خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَيْ حَائِزَ الرُّتْبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ
الْوِلَايَةِ كَمَا كَانَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ حَائِزًا لِلْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ النُّبُوَّةِ فَكَنَى الشَّارِعُ
عَنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْخَاتِمَةِ بِلَبِنَةِ الْبَيْتِ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ وَهُمَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ
فِيهِمَا فَهِيَ لَبِنَةٌ وَاحِدَةٌ فِي التَّمْثِيلِ فَفِي النُّبُوَّةِ لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَفِي الْوِلَايَةِ لَبِنَةُ فِضَّةٍ لِلتَّفَاوُتِ
بَيْنَ الرُّتْبَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجْعَلُونَ لَبِنَةَ الذَّهَبِ كِنَايَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَبِنَةَ الْفِضَّةِ كِنَايَةً عَنْ هَذَا الْوَلِيِّ الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ وَذَلِكَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ
وَهَذَا خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِيمَا نَقَلَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ عَنْهُ وَهَذَا الْإِمَامُ
الْمُنْتَظَرُ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَظُهُورُهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ مُضِيِّ خ ف ج مِنَ
الْهِجْرَةِ وَرَسَمَ حُرُوفًا ثَلَاثَةً يُرِيدُ عَدَدَهَا بِحِسَابِ الْجُمَّلِ وَهُوَ الْخَاءُ الْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ

فَوْقَ سِتِّمِائَةٍ وَالْفَاءُ أُخْتُ الْقَافِ بِثَمَانِينَ وَالْجِيمُ الْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَسْفَلَ ثَلَاثَةٌ وَذَلِكَ سِتِّمِائَةٍ وَثَلَاثٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ الْقَرْنِ السَّابِعِ وَلَمَّا انْصَرَمَ هَذَا الْعَصْرُ وَلَمْ يَظْهَرْ حَمَلَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُقَلِّدِينَ لَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْمُدَّةِ مَوْلِدُهُ وَعَبَّرَ بِظُهُورِهِ عَنْ مَوْلِدِهِ وَأَنَّ خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعْدَ الْعَشْرِ وَالسَّبْعِ الْمِائَةِ فَإِنَّهُ الْإِمَامُ النَّاجِمُ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ قَالَ وَإِذَا كَانَ مَوْلِدُهُ كَمَا زَعَمَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ فَيَكُونُ عُمْرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ سِتًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً قَالَ وَزَعَمُوا أَنَّ خُرُوجَ الدَّجَّالِ يَكُونُ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ وَابْتِدَاءُ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ عِنْدَهُمْ مِنْ يَوْمِ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى تَمَامِ أَلْفِ سَنَةٍ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ فِي شَرْحِهِ كِتَابَ خَلْعِ النَّعْلَيْنِ الْوَلِيُّ الْمُنْتَظَرُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِمُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ وَخَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ وَلَيْسَ هُوَ بِنَبِيٍّ وَإِنَّمَا هُوَ وَلِيٌّ ابْتَعَثَهُ رُوحُهُ وَحَبِيبُهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَالِمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ وَقَالَ عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَزَلِ الْبُشْرَى تَتَابَعُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ إِلَى قُبَيْلِ الْخَمْسِمِائَةِ نِصْفِ الْيَوْمِ وَتَأَكَّدَتْ وَتَضَاعَفَتْ بِتَبَاشِيرِ الْمَشَايِخِ بِتَقْرِيبِ وَقْتِهِ وَازْدِلَافِ زَمَانِهِ مُنْذُ انْقَضَتْ إِلَى هَلُمَّ جَرًّا قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ أَنَّ هَذَا الْوَلِيَّ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الظُّهْرِ وَيُجَدِّدُ الْإِسْلَامَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَفْتَحُ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ وَيَصِلُ إِلَى رُومِيَةَ فَيَفْتَحُهَا وَيَسِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَيَفْتَحُهُ وَيَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مُلْكُ الْأَرْضِ فَيَتَقَوَّى الْمُسْلِمُونَ وَيَعْلُو الْإِسْلَامُ وَيَظْهَرُ دِينُ الْحَنِيفِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ وَقْتَ صَلَاةٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتٌ وَقَالَ الْكِنْدِيُّ أَيْضًا الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ غَيْرُ الْمُعْجَمَةِ يَعْنِي الْمُفْتَتَحَ بِهَا سُوَرُ الْقُرْآنِ جُمْلَةُ عَدَدِهَا سَبْعُمِائَةٍ وَثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ وَسَبْعٌ دَجَّالِيَّةٌ ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيُصْلِحُ الدُّنْيَا وَتَمْشِي الشَّاةُ مَعَ الذِّئْبِ ثُمَّ مَبْلَغُ مُلْكِ الْعَجَمِ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ مَعَ عِيسَى مِائَةٌ وَسِتُّونَ عَامًا عَدَدَ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ وَهِيَ ق ي ن دَوْلَةُ الْعَدْلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ وَمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى فَمَعْنَاهُ لَا مَهْدِيَّ تُسَاوِي هِدَايَتُهُ هِدَايَتَهُ وَقِيلَ لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى وَهَذَا مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيْجٍ وَغَيْرِهِ وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً

يَعْنِي قُرَشِيًّا وَقَدْ أَعْطَى ٱلْوُجُودُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِ ٱلْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ مَنْ سَيَكُونُ فِي آخِرِهِ وَقَالَ ٱلْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ أَوْ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتٌّ وَثَلَاثُونَ وَٱنْقِضَاؤُهَا فِي خِلَافَةِ ٱلْحَسَنِ وَأَوَّلِ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ فَيَكُونُ أَوَّلُ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ خِلَافَةً أَخْذًا بِأَوَائِلِ ٱلْأَسْمَاءِ فَهُوَ سَادِسُ ٱلْخُلَفَاءِ وَأَمَّا سَابِعُ ٱلْخُلَفَاءِ فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ وَٱلْبَاقُونَ خَمْسَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَّةِ عَلِيٍّ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ إِنَّكَ لَذُو قَرْنَيْهَا يُرِيدُ ٱلْأُمَّةَ أَيْ إِنَّكَ لَخَلِيفَةٌ فِي أَوَّلِهَا وَذُرِّيَّتُكَ فِي آخِرِهَا وَرُبَّمَا ٱسْتَدَلَّ بِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ ٱلْقَائِلُونَ بِٱلرَّجْعَةِ فَٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ بِطُلُوعِ ٱلشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَقَدْ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَقَدْ أَنْفَقَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ كُنُوزَ كِسْرَى فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَٱلَّذِي يُهْلِكُ قَيْصَرَ وَيُنْفِقُ كُنُوزَهُ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ هُوَ هٰذَا ٱلْمُنْتَظَرُ حِينَ يَفْتَحُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةَ فَنِعْمَ ٱلْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَنِعْمَ ٱلْجَيْشُ ذٰلِكَ ٱلْجَيْشُ كَذَا قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُدَّةُ حُكْمِهِ بِضْعٌ وَٱلْبِضْعُ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ وَقِيلَ إِلَى عَشْرٍ وَجَاءَ ذِكْرُ أَرْبَعِينَ وَفِي بَعْضِ ٱلرِّوَايَاتِ سَبْعِينَ وَأَمَّا ٱلْأَرْبَعُونَ فَإِنَّهَا مُدَّتُهُ وَمُدَّةُ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلْبَاقِينَ مِنْ أَهْلِهِ ٱلْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى جَمِيعِهِمِ ٱلسَّلَامُ قَالَ وَذَكَرَ أَصْحَابُ ٱلنُّجُومِ وَٱلْقِرَانَاتِ أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ أَمْرِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ عَامًا فَيَكُونُ ٱلْأَمْرُ عَلَى هٰذَا جَارِيًا عَلَى ٱلْخِلَافَةِ وَٱلْعَدْلِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ثُمَّ تَخْتَلِفُ ٱلْأَحْوَالُ فَتَكُونُ مُلْكًا ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ أَبِي وَاصِلٍ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ نُزُولُ عِيسَى يَكُونُ فِي وَقْتِ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ مِنَ ٱلْيَوْمِ ٱلْمُحَمَّدِيِّ حِينَ تَمْضِي ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِهِ قَالَ وَذَكَرَ ٱلْكِنْدِيُّ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ ٱلْجَفْرِ ٱلَّذِي ذَكَرَ فِيهِ ٱلْقِرَانَاتِ أَنَّهُ إِذَا وَصَلَ ٱلْقِرَانُ إِلَى ٱلثَّوْرِ عَلَى رَأْسِ ضخ بِحَرْفَيْنِ ٱلضَّادِ[1] ٱلْمُعْجَمَةِ وَٱلْخَاءِ ٱلْمُهْمَلَةِ يُرِيدُ ثَمَانِيَةً وَتِسْعِينَ وَسِتَّمِائَةٍ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ يَنْزِلُ ٱلْمَسِيحُ فَيَحْكُمُ فِي ٱلْأَرْضِ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى قَالَ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ عِنْدَ ٱلْمَنَارَةِ ٱلْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ يَنْزِلُ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ يَعْنِي حُلَّتَيْنِ مُزَعْفَرَتَيْنِ صُفْرَاوَيْنِ مُمَصَّرَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ ٱلْمَلَكَيْنِ لَهُ لِمَّةٌ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ

(١) الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين ١ هـ قاله نصر

كاللؤلؤ كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مربوع الخلق وإلى البياض والحمرة
وفي آخر أنه يتزوج في الغرب والغرب دلو البادية يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته
وذكر وفاته بعد أربعين عاماً وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر
ابن الخطاب وجاء أن أبا بكر وعمر يحشران بين نبيين قال ابن أبي واطيل والشيعة
تقول إنه هو المسيح مسيح المسائح من آل محمد قلت وعليه حمل بعض المتصوفة
حديث لا مهدي إلا عيسى أي لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة
المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ إلى كلام
من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة
فينقضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون إلى تجديد رأي آخر منتحل كما
تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخييلية وأحكام نجومية في هذا انقضت أعمار الأول
منهم والآخر . وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل
مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول
من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي
كبير الأولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافده صاحبنا
أبو يحيى زكرياء عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور
هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث
من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا والحق الذي ينبغي أن يتقرر
لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع
عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي
أريناك هناك وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد
أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع
بالمدينة من الطالبيين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر وهم منتشرون في تلك البلاد
وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون
الآلاف من الكثرة فإن صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون
منهم ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار

كَلِمَتِهِ وَحَمْلِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هٰذَا ٱلْوَجْهِ مِثْلِ أَنْ يَدْعُوَ فَاطِمِيٌّ مِنْهُمْ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ فِي أُفُقٍ مِنَ ٱلْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ عَصَبِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا مُجَرَّدَ نِسْبَةٍ فِي أَهْلِ ٱلْبَيْتِ فَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ وَلَا يُمْكِنُ لِمَا أَسْلَفْنَاهُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ ٱلصَّحِيحَةِ وَأَمَّا مَا تَدَّعِيهِ ٱلْعَامَّةُ وَٱلْأَغْمَارُ مِنَ ٱلدَّهْمَاءِ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ فِي ذٰلِكَ إِلَى عَقْلٍ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُجِيبُونَ ذٰلِكَ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ تَقْلِيدًا لِمَا ٱشْتَهَرَ مِنْ ظُهُورِ فَاطِمِيٍّ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ ٱلْأَمْرِ كَمَا بَيَّنَّاهُ وَأَكْثَرَ مَا يُجِيبُونَ فِي ذٰلِكَ ٱلْقَاصِيَةَ مِنَ ٱلْمَمَالِكِ وَأَطْرَافِ ٱلْعُمْرَانِ مِثْلِ ٱلزَّابِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلسُّوسِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَنَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْبَصَائِرِ يَقْصِدُونَ رِبَاطًا بِمَاسَةَ لِمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلرِّبَاطُ بِٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنْ كُدَالَةَ وَٱعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَمِ وَبُعْدُهُمْ عَنْ يَقِينِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثْرَةٍ أَوْ قِلَّةٍ أَوْ ضُعْفٍ أَوْ قُوَّةٍ وَلِبُعْدِ ٱلْقَاصِيَةِ عَنْ مَنَالِ ٱلدَّوْلَةِ وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ ٱلْأَوْهَامُ فِي ظُهُورِهِ هُنَاكَ بِخُرُوجِهِ عَنْ رِبْقَةِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَنَالِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلْقَهْرِ وَلَا مَحْصُولَ لَدَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ إِلَّا هٰذَا وَقَدْ يَقْصِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ لِلتَّلْبِيسِ بِدَعْوَةٍ يُمَنِّيهِ تَمَامَهَا وَسْوَاسًا وَحُمْقًا وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ٱلْأَبْلِيُّ قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطِ مَاسَةَ لِأَوَّلِ ٱلْمِائَةِ ٱلثَّامِنَةِ وَعَصْرِ ٱلسُّلْطَانِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ رَجُلٌ مِنْ مُنْتَحِلِي ٱلتَّصَوُّفِ يُعْرَفُ بِٱلتُّوَيْزِرِيِّ نِسْبَةً إِلَى تُوزَرَ مُصَغَّرًا وَٱدَّعَى أَنَّهُ ٱلْفَاطِمِيُّ ٱلْمُنْتَظَرُ وَٱتَّبَعَهُ ٱلْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ ٱلسُّوسِ مِنْ ضَالَّةَ وَكَزُولَةَ وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَخَافَهُ رُؤَسَاءُ ٱلْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ عَلَيْهِ ٱلسَّكْسَوِيُّ مَنْ قَتَلَهُ بَيَاتًا وَٱنْحَلَّ أَمْرُهُ وَكَذٰلِكَ ظَهَرَ فِي غُمَارَةَ فِي آخِرِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَعَشْرِ ٱلتِّسْعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِٱلْعَبَّاسِ وَٱدَّعَى أَنَّهُ ٱلْفَاطِمِيُّ وَٱتَّبَعَهُ ٱلدَّهْمَاءُ مِنْ غُمَارَةَ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ عَنْوَةً وَحَرَقَ أَسْوَاقَهَا وَٱرْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ ٱلْمَزْمَةِ فَقُتِلَ بِهَا غِيلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ هٰذَا ٱلنَّمَطِ وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا ٱلْمَذْكُورُ بِغَرِيبَةٍ فِي مِثْلِ هٰذَا وَهُوَ أَنَّهُ صَحِبَ فِي حَجِّهِ فِي رِبَاطِ ٱلْعُبَّادِ وَهُوَ مَدْفَنُ ٱلشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ فِي جَبَلِ تِلِمْسَانَ ٱلْمُطِلِّ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتْبُوعًا مُعَظَّمًا كَثِيرَ ٱلتِّلْمِيذِ وَٱلْخَادِمِ قَالَ وَكَانَ ٱلرِّجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِٱلنَّفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ ٱلْبُلْدَانِ قَالَ وَتَأَكَّدَتِ ٱلصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذٰلِكَ ٱلطَّرِيقِ فَٱنْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا جَاءُوا

مِنْ مَوْطِنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لِطَلَبِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ وَٱنْتِحَالِ دَعْوَةِ ٱلْفَاطِمِيِّ بِٱلْمَغْرِبِ فَلَمَّا عَايَنَ دَوْلَةَ بَنِي مَرِينَ وَيُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مُنَازِلُ تِلِمْسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ ٱرْجِعُوا فَقَدْ أَزْرَى بِنَا ٱلْغَلَطُ وَلَيْسَ هٰذَا ٱلْوَقْتُ وَقْتَنَا وَيَدُلُّ هٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْمُكَافِئَةِ لِأَهْلِ ٱلْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْوَطَنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصَبِيَّةَ بَنِي مَرِينَ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ لَا يُقَاوِمُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ ٱسْتَكَانَ وَرَجَعَ إِلَى ٱلْحَقِّ وَأَقْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّ عَصَبِيَّةَ ٱلْفَوَاطِمِ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعَ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيَّمَا فِي ٱلْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ ٱلتَّعَصُّبَ لِشَأْنِهِ لَمْ يَتْرُكْهُ لِهٰذَا ٱلْقَوْلِ وَٱللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَدْ كَانَتْ بِٱلْمَغْرِبِ لِهٰذِهِ ٱلْعُصُورِ ٱلْقَرِيبَةِ نَزْعَةٌ مِنَ ٱلدُّعَاةِ إِلَى ٱلْحَقِّ وَٱلْقِيَامِ بِٱلسُّنَّةِ لَا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَنْزِعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ ٱلْوَاحِدُ فَٱلْوَاحِدُ إِلَى إِقَامَةِ ٱلسُّنَّةِ وَتَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ وَيَعْتَنِي بِذٰلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُعْنَوْنَ بِإِصْلَاحِ ٱلسَّابِلَةِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ فَسَادِ ٱلْأَعْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ فَيَأْخُذُونَ فِي تَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ بِمَا ٱسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ ٱلدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تُسْتَحْكَمْ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ ٱلْعَرَبِ وَرُجُوعَهُمْ إِلَى ٱلدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا ٱلْإِقْصَارَ عَنِ ٱلْغَارَةِ وَٱلنَّهْبِ لَا يَعْقِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاحِي ٱلدِّيَانَةِ غَيْرَ ذٰلِكَ لِأَنَّهَا ٱلْمَعْصِيَةُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ ٱلْمَقْرُبَةِ وَمِنْهَا تَوْبَتُهُمْ فَتَجِدُ ذٰلِكَ ٱلْمُنْتَحِلَ لِلدَّعْوَةِ وَٱلْقَائِمَ بِزَعْمِهِ بِٱلسُّنَّةِ غَيْرَ مُتَعَمِّقِينَ فِي فُرُوعِ ٱلِٱقْتِدَاءِ وَٱلِٱتِّبَاعِ إِنَّمَا دِينُهُمُ ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱلنَّهْبِ وَٱلْبَغْيِ وَإِفْسَادِ ٱلسَّابِلَةِ ثُمَّ ٱلْإِقْبَالُ عَلَى طَلَبِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعَاشِ بِأَقْصَى جُهْدِهِمْ وَشَتَّانَ بَيْنَ هٰذَا ٱلْأَمْرِ مِنْ إِصْلَاحِ ٱلْخَلْقِ وَمِنْ طَلَبِ ٱلدُّنْيَا فَٱتِّفَاقُهُمَا مُمْتَنِعٌ لَا تَسْتَحْكِمُ لَهُ صِبْغَةٌ فِي ٱلدِّينِ وَلَا يَكْمُلُ لَهُ نُزُوعٌ عَنِ ٱلْبَاطِلِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَلَا يَكْثُرُونَ وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ ٱلدَّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي ٱسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوِلَايَتِهِ فِي نَفْسِهِ دُونَ تَابِعِهِ فَإِذَا هَلَكَ ٱنْحَلَّ أَمْرُهُمْ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ وَقَدْ وَقَعَ ذٰلِكَ بِإِفْرِيقِيَّةَ لِرَجُلٍ مِنْ كَعْبٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُسَمَّى قَاسِمَ بْنَ مُرَّةَ بْنِ أَحْمَدَ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَادِيَةِ رِيَاحٍ مِنْ بَطْنٍ مِنْهُمْ يُعْرَفُونَ بِمُسْلِمٍ وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةَ وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَسْتَتِبَّ أَمْرُ تَابِعِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُ ذٰلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ

سُلَيم وَرِياح وَبعدَ ذٰلكَ ظَهرَ نَاسٌ بهٰذِهِ ٱلدَّعوَةِ يَتَشَبَّهونَ بِمِثْلِ ذٰلكَ وَيلبِسُونَ فيهَا وَيَنتحِلُونَ ٱسْمَ ٱلسُّنَّةِ وَلَيسُوا عَلَيهَا إِلاَّ ٱلأَقلّ فَلاَ يَتِمُّ لَهُمْ وَلاَ لِمَنْ بَعدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِمْ . انتهى

الفصل الثالث والخمسون

في ابتداء الدول والامم وفي الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

إِعلَمْ أَنَّ من خَوَاصِّ ٱلنُّفُوسِ ٱلبَشرِيَّةِ ٱلتَّشَوُّقَ إِلَى عوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعِلْمِ مَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنْ حيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخيرٍ وَشَرٍّ سِيَّمَا ٱلحَوَادِثُ ٱلعَامَّةُ كَمعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلدُّنيَا وَمعْرِفَةِ مُدَدِ ٱلدُّوَلِ أَوْ تَفَاوُتِهَا وَٱلتَّطلعُ إِلَى هٰذَا طَبِيعَةٌ مَجْبُولُونَ عَلَيهَا وَلِذٰلِكَ تَجِدُ ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلنَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلَى ٱلوُقُوفِ عَلَى ذٰلِكَ فِي ٱلمَنَامِ وَٱلأَخبَارِ مِنَ ٱلكُهَّانِ لِمَنْ قَصدَهُمْ بِمِثْلِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلمُلُوكِ وَٱلسُّوقَةِ مَعرُوفَةٌ وَلَقَدْ نَجِدُ فِي ٱلمُدُنِ صِنفًا مِنَ ٱلنَّاسِ يَنتَحِلُونَ ٱلمَعَاشَ مِنْ ذٰلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِحِرْصِ ٱلنَّاسِ عَلَيهِ فَيَنْتَصِبُونَ لَهم فِي ٱلطُّرُقَاتِ وَٱلدَّكَاكِينِ يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ يَسأَلُهُمْ عَنهُ فَتَغدُو عَلَيهِمْ وَتَرُوحُ نِسْوَانُ ٱلمَدِينَةِ وَصِبيَانُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلعُقُولِ يَستَكشِفُونَ عَوَاقِبَ أَمْرِهِمْ فِي ٱلكَسْبِ وَٱلجَاهِ وَٱلمَعَاشِ وَٱلمُعَاشَرَةِ وَٱلعَدَاوَةِ وَأَمثَالِ ذٰلِكَ مَا بَيْنَ خَطٍّ فِي ٱلرَّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلمُنَجِّمَ وَطَرْقٍ بِٱلحَصَى وَٱلحُبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلحَاسِبَ وَنَظَرٍ فِي ٱلمَرَايَا وَٱلمِيَاهِ وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ ٱلمَندَلِ وَهُوَ مِنَ ٱلمُنكَرَاتِ ٱلفَاشِيَةِ فِي ٱلأَمْصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي ٱلشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذٰلِكَ وَإِنَّ ٱلبَشَرَ مَحْجُوبُونَ عَنِ ٱلغَيبِ إِلاَّ مَنْ أَطْلَعَهُ ٱللهُ عَلَيهِ مِنْ عِندِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ وِلاَيَةٍ وَأَكْثَرُ مَا يَعتَنِي بِذٰلِكَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَيهِ ٱلأُمَرَاءُ وَٱلمُلُوكُ فِي آمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذٰلِكَ ٱنصَرَفَتِ ٱلعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ ٱلعِلْمِ إِلَيهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ ٱلأُمَمِ يُوجَدُ لَهُمْ كَلاَمٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُنَجِّمٍ أَوْ وَلِيٍّ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَوْ دَوْلَةٍ يُحَدِّثُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنَ ٱلحَرْبِ وَٱلمَلاَحِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَعَدَدِ ٱلمُلُوكِ فِيهَا وَٱلتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيُسَمَّى مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلحَدَثَانَ وَكَانَ فِي ٱلعَرَبِ ٱلكُهَّانُ وَٱلعَرَّافُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيهِمْ فِي ذٰلِكَ وَقَدْ أَخبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ لِلعَرَبِ مِنَ ٱلمُلْكِ وَٱلدَّوْلَةِ كَمَا وَقَعَ لِشِقٍّ وَسَطِيحٍ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ نَصْرٍ مِنْ مُلُوكِ ٱليَمَنِ أَخبَرَهُمْ بِمُلْكِ ٱلحَبَشَةِ بِلاَدَهُمْ ثُمَّ رُجُوعِهَا إِلَيهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ ٱلمُلْكُ وَٱلدَّوْلَةُ لِلعَرَبِ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَكَذَا

تأويلُ سَطِيحٍ لرؤيا المُوبَذانِ حيثُ بعثَ إليهِ كِسرى بها مع عبدِ المسيحِ وأخبرَهم بظهورِ دولةِ العربِ وكذا كانَ في جيلِ البربرِ كُهّانٌ من أشهرِهم موسى بنُ صالحٍ من بني يفرنَ ويقالُ من غمرةَ له كلماتٌ حدثانيةٌ على طريقةِ الشعرِ برطانتِهم وفيها حدثانٌ كثيرٌ ومعظمُهُ فيما يكونُ لزناتةَ من الملكِ والدولةِ بالمغربِ وهي متداولةٌ بينَ أهلِ الجيلِ وهم يزعمونَ تارةً أنه وليٌّ وتارةً أنه كاهنٌ وقد يزعمُ بعضُ مزاعمِهم أنه كانَ نبيًّا لأنَّ تاريخَهُ عندَهم قبلَ الهجرةِ بكثيرٍ واللهُ أعلمُ وقد يستندُ الجيلُ إلى خبرِ الأنبياءِ إن كانَ لعهدِهم كما وقعَ لبني إسرائيلَ فإنَّ أنبياءَهم المتعاقبينَ فيهم كانوا يخبرونَهم بمثلِهِ عندما يعنونَهم في السؤالِ عنهُ. وأمّا في الدولةِ الإسلاميةِ فوقعَ منهُ كثيرٌ فيما يرجعُ إلى بقاءِ الدنيا ومدّتِها على العمومِ وفيما يرجعُ إلى الدولةِ وأعمارِها على الخصوصِ وكانَ المعتمدُ في ذلكَ في صدرِ الإسلامِ لآثارٍ منقولةٍ عن الصحابةِ وخصوصًا مسلمةَ بني إسرائيلَ مثلَ كعبِ الأحبارِ ووهبِ بنِ منبهٍ وأمثالِهما وربّما اقتبسوا بعضَ ذلكَ من ظواهرَ مأثورةٍ وتأويلاتٍ محتملةٍ ووقعَ لجعفرٍ وأمثالِهِ من أهلِ البيتِ كثيرٌ من ذلكَ مستندُهم فيهِ واللهُ أعلمُ الكشفُ بما كانوا عليهِ من الولايةِ وإذا كانَ مثلُهُ لا ينكَرُ من غيرِهم من الأولياءِ في ذويهم وأعقابِهم وقد قالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ إنَّ فيكم محدَّثينَ فهم أولى الناسِ بهذهِ الرتبِ الشريفةِ والكراماتِ الموهوبةِ وأمّا بعدَ صدرِ الملّةِ وحينَ علقَ الناسُ على العلومِ والاصطلاحاتِ وترجمتْ كتبُ الحكماءِ إلى اللسانِ العربيِّ فأكثرُ معتمدِهم في ذلكَ كلامُ المنجّمينَ في الملكِ والدولِ وسائرِ الأمورِ العامّةِ من القراناتِ وفي المواليدِ والمسائلِ وسائرِ الأمورِ الخاصّةِ من الطوالعِ لها وهي شكلُ الفلكِ عندَ حدوثِها فلنذكرِ الآنَ ما وقعَ لأهلِ الأثرِ في ذلكَ ثمَّ نرجعُ إلى كلامِ المنجّمينَ. أمّا أهلُ الأثرِ فلهم في مدّةِ المللِ وبقاءِ الدنيا على ما وقعَ في كتابِ السهيليِّ فإنّهُ نقلَ عن الطبريِّ ما يقتضي أنَّ مدّةَ بقاءِ الدنيا منذُ الملّةِ خمسمائةِ سنةٍ ونقضَ ذلكَ بظهورِ كذبِهِ ومستندُ الطبريِّ في ذلكَ أنّهُ نقلَ عن ابنِ عبّاسٍ أنَّ الدنيا جمعةٌ من جمعِ الآخرةِ ولم يذكرْ لذلكَ دليلاً وسرُّهُ واللهُ أعلمُ تقديرُ الدنيا بأيّامِ خلقِ السماواتِ والأرضِ وهي سبعةٌ ثمَّ اليومُ بألفِ سنةٍ لقولِهِ وإنَّ يومًا عندَ ربّكَ كألفِ سنةٍ ممّا تعدّونَ وقد ثبتَ في

ٱلصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ ٱلشَّمْسِ وَقَالَ بُعِثْتُ أَنَا وَٱلسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَٱلْوُسْطَى وَقَدَّرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ وَغُرُوبِ ٱلشَّمْسِ حِينَ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْهِ يَكُونُ عَلَى ٱلتَّقْرِيبِ نِصْفَ سُبْعٍ وَكَذٰلِكَ وَصْلُ الْوُسْطَى عَلَى ٱلسَّبَّابَةِ فَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةُ نِصْفَ سُبْعِ ٱلْجُمُعَةِ كُلِّهَا وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَنْ يُعْجِزَ ٱللهَ أَنْ يُؤَخِّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَدَلَّ ذٰلِكَ عَلَى أَنَّ مُدَّةَ ٱلدُّنْيَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ خَمْسَةُ ٱلْآلَافٍ وَخَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهَا خَمْسَةُ الآلَافِ وَسِتُّمِائَةِ سَنَةٍ أَعْنِي ٱلْمَاضِيَ وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّ مُدَّةَ ٱلدُّنْيَا كُلِّهَا سِتَّةُ الآلَافِ سَنَةٍ قَالَ ٱلسُّهَيْلِيُّ وَلَيْسَ فِي ٱلْحَدِيثَيْنِ مَا يَشْهَدُ لِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ مَعَ وُقُوعِ ٱلْوُجُودِ بِخِلَافِهِ فَأَمَّا قَوْلُهُ لَنْ يُعْجِزَ ٱللهَ أَنْ يُؤَخِّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَلَا يَقْتَضِي نَفْيَ ٱلزِّيَادَةِ عَلَى ٱلنِّصْفِ وَأَمَّا قَوْلُهُ بُعِثْتُ أَنَا وَٱلسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ فَإِنَّمَا فِيهِ ٱلْإِشَارَةُ إِلَى ٱلْقُرْبِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلسَّاعَةِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ وَلَا شَرْعٌ غَيْرُ شَرْعِهِ ثُمَّ رَجَعَ ٱلسُّهَيْلِيُّ إِلَى تَعْيِينِ أَمَدِ ٱلْمِلَّةِ مِنْ مَدْرَكٍ آخَرَ لَوْ سَاعَدَهُ ٱلتَّحْقِيقُ وَهُوَ أَنَّهُ جَمَعَ ٱلْحُرُوفَ ٱلْمُقَطَّعَةَ فِي أَوَائِلِ ٱلسُّوَرِ بَعْدَ حَذْفِ ٱلْمُكَرَّرِ قَالَ وَهِيَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (الم يسطع نص حق كره) فَأَخَذَ عَدَدَهَا بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ فَكَانَ سَبْعُمِائَةٍ وَثَلَاثَةً [1] أَضَافَهُ إِلَى ٱلْمُنْقَضِي مِنَ ٱلْأَلْفِ ٱلْآخِرِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ فَهٰذِهِ هِيَ مُدَّةُ ٱلْمِلَّةِ قَالَ وَلَا يَبْعُدُ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ هٰذِهِ ٱلْحُرُوفِ وَفَوَائِدِهَا قُلْتُ وَكَوْنُهُ لَا يَبْعُدُ لَا يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلَا ٱلتَّعْوِيلَ عَلَيْهِ وَٱلَّذِي حَمَلَ ٱلسُّهَيْلِيَّ عَلَى ذٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ ٱلسِّيَرِ لِٱبْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ٱبْنَيْ أَخْطَبَ مِنْ أَحْبَارِ ٱلْيَهُودِ وَهُمَا أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حُيَيٌّ حِينَ سَمِعَا مِنَ ٱلْأَحْرُفِ ٱلْمُقَطَّعَةِ أَلَمْ وَتَأَوَّلَاهَا عَلَى بَيَانِ ٱلْمُدَّةِ بِهٰذَا ٱلْحِسَابِ فَبَلَغَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَٱسْتَقَلَّا ٱلْمُدَّةَ وَجَاءَ حُيَيٌّ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ هَلْ مَعَ هٰذَا غَيْرُهُ فَقَالَ ٱلْمص ثُمَّ ٱسْتَزَادَ ٱلر ثُمَّ ٱسْتَزَادَ ٱلْمر فَكَانَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَٱسْتَطَالَ ٱلْمُدَّةَ وَقَالَ قَدْ لُبِّسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى لَا نَدْرِي أَقَلِيلًا أُعْطِيتَ أَمْ كَثِيرًا ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَاسِرَ مَا يُدْرِيكُمْ لَعَلَّهُ أُعْطِيَ عَدَدَهَا كُلَّهَا تِسْعَمِائَةٍ وَأَرْبَعَ سِنِينَ قَالَ ٱبْنُ إِسْحَاقَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْهُ

1 هذا العدد غير مطابق كما ان المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٢٠ وانما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٣

آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. اه. ولا يقوم من القصة دليل على
تقدير الملة بهذا العدد لأن دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا
عقلية وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم إنه قديم
مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو ياسر وأخوه حيي ممن يؤخذ رأيه
في ذلك دليلاً ولا من علماء اليهود لأنهم كانوا بادية بالحجاز غفلاً عن الصنائع
والعلوم حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب
كما تتلقفه العوام في كل ملة فلا ينهض للسهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك ووقع
في الملة في حدثان دولتها على الخصوص مسند من الأثر إجمالي في حديث خرجه
أبو داود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهبي عن سعيد
ابن أبي مريم عن عبد الله بن فروخ عن أسامة بن زيد الليثي عن أبي قبيصة بن
ذؤيب عن أبيه قال قال حذيفة بن اليمان والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه
والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا لا يبلغ من
معه ثلثمائة فصاعداً إلا قد سماه باسمه واسم أبيه وقبيلته وسكت عليه أبو داود وقد
تقدم أنه قال في رسالته ما سكت عليه في كتابه فهو صالح وهذا الحديث إذا كان
صحيحاً فهو مجمل ويفتقر في بيان إجماله وتعيين مبهماته إلى آثار أخرى يجود
أسانيدها وقد وقع إسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع
في الصحيحين من حديث حذيفة أيضاً قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً
فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث عنه حفظه من حفظه ونسيه
من نسيه قد علمه أصحابه هؤلاء. اه. ولفظ البخاري ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة إلا
ذكره وفي كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال صلى بنا رسول الله صلى
الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر بنهار ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة
إلا أخبرنا به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه اه وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما
ثبت في الصحيحين من أحاديث الفتن والأشراط لا غير لأنه المعهود من الشارع صلوات
الله وسلامه عليه في أمثال هذه العمومات وهذه الزيادة التي تفرد بها أبو داود في
هذه الطريق شاذة منكرة مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله فقال ابن أبي مريم في

ٱبْنِ فَرُّوخَ أَحَادِيثُهُ مَنَاكِيرُ وَقَالَ ٱلْبُخَارِيُّ يُعْرَفُ مِنْهُ وَيُنْكَرُ وَقَالَ ٱبْنُ عَدِيٍّ أَحَادِيثُهُ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خَرَّجَ لَهُ فِي ٱلصَّحِيحَيْنِ وَوَثَّقَهُ ٱبْنُ مَعِينٍ فَإِنَّمَا خَرَّجَ لَهُ ٱلْبُخَارِيُّ ٱسْتِشْهَادًا وَضَعَّفَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ ٱبْنُ حَاتِمٍ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَأَبُو قَبِيصَةَ ٱبْنُ ذُؤَيْبٍ مَجْهُولٌ فَتَضْعُفُ هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ ٱلَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هٰذَا ٱلْحَدِيثِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَاتِ مَعَ شُذُوذِهَا كَمَا مَرَّ. وَقَدْ يَسْتَنِدُونَ فِي حَدَثَانِ ٱلدُّوَلِ عَلَى ٱلْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ ٱلْجَفْرِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ فِيهِ عِلْمَ ذٰلِكَ كُلِّهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْآثَارِ وَٱلنُّجُومِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ ذٰلِكَ وَلَا مُسْتَنَدِهِ وَٱعْلَمْ أَنَّ كِتَابَ ٱلْجَفْرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنَ سَعِيدٍ ٱلْعِجْلِيَّ وَهُوَ رَأْسُ ٱلزَّيْدِيَّةِ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَرْوِيهِ عَنْ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَفِيهِ عِلْمُ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ ٱلْبَيْتِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَلِبَعْضِ ٱلْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى ٱلْخُصُوصِ وَقَعَ ذٰلِكَ لِجَعْفَرٍ وَنَظَائِرِهِ مِنْ رِجَالَاتِهِمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْكَرَامَةِ وَٱلْكَشْفِ ٱلَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ ٱلْأَوْلِيَاءِ وَكَانَ مَكْتُوبًا عِنْدَ جَعْفَرٍ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ صَغِيرٍ فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونُ ٱلْعِجْلِيُّ وَكَتَبَهُ وَسَمَّاهُ ٱلْجَفْرَ بِٱسْمِ ٱلْجِلْدِ ٱلَّذِي كُتِبَ فِيهِ لِأَنَّ ٱلْجَفْرَ فِي ٱللُّغَةِ هُوَ ٱلصَّغِيرُ وَصَارَ هٰذَا ٱلِٱسْمُ عَلَمًا عَلَى هٰذَا ٱلْكِتَابِ عِنْدَهُمْ وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ ٱلْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ ٱلْمَعَانِي مَرْوِيَّةً عَنْ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ لَمْ تَتَّصِلْ رِوَايَتُهُ وَلَا عُرِفَ عَيْنُهُ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَاذُّ مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ لَا يَصْحَبُهَا دَلِيلٌ وَلَوْ صَحَّ ٱلسَّنَدُ إِلَى جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نِعْمَ ٱلْمُسْتَنَدُ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ فَهُمْ أَهْلُ ٱلْكَرَامَاتِ وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُحَذِّرُ بَعْضَ قَرَابَتِهِ بِوَقَائِعَ تَكُونُ لَهُمْ فَتَصِحُّ كَمَا يَقُولُ وَقَدْ حَذَّرَ يَحْيَى ٱبْنَ عَمِّهِ زَيْدٍ مِنْ مَصْرَعِهِ وَعَصَاهُ فَخَرَجَ وَقُتِلَ بِٱلْجُوزَجَانِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْكَرَامَةُ تَقَعُ لِغَيْرِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ عِلْمًا وَدِينًا وَآثَارًا مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ وَعِنَايَةً مِنَ ٱللّٰهِ بِٱلْأَصْلِ ٱلْكَرِيمِ تَشْهَدُ لِفُرُوعِهِ ٱلطَّيِّبَةِ وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ هٰذَا ٱلْكَلَامِ غَيْرُ مَنْسُوبٍ إِلَى أَحَدٍ وَفِي أَخْبَارِ دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَٱنْظُرْ مَا حَكَاهُ ٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ فِي لِقَاءِ أَبِي عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلشِّيعِيِّ لِعُبَيْدِ ٱللّٰهِ ٱلْمَهْدِيِّ مَعَ ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْحَبِيبِ وَمَا حَدَّثَاهُ بِهِ وَكَيْفَ بَعَثَاهُ إِلَى ٱبْنِ حَوْشَبٍ دَاعِيَتِهِمْ بِٱلْيَمَنِ فَأَمَرَهُ بِٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَبَثِّ ٱلدَّعْوَةِ فِيهِ عَلَى عِلْمٍ لَقَّنَهُ أَنَّ دَعْوَتَهُ تَتِمُّ هُنَاكَ وَأَنَّ عُبَيْدَ ٱللّٰهِ لَمَّا بَنَى ٱلْمَهْدِيَّةَ بَعْدَ ٱسْتِفْحَالِ

دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيقِيَّةَ قَالَ بَنَيْتُهَا لِيَعْتَصِمَ بِهَا ٱلْفَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَأَرَاهُمْ مَوْقِفَ صَاحِبِ ٱلْحِمَارِ أَبِي يَزِيدَ بِٱلْمَهْدِيَّةِ وَكَانَ يَسْأَلُ عَنْ مُنْتَهَى مَوْقِفِهِ حَتَّى جَاءَهُ ٱلْخَبَرُ بِبُلُوغِهِ إِلَى ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي عَيَّنَهُ جَدُّهُ أَبُو عُبَيْدِ ٱللّٰهِ فَأَيْقَنَ بِٱلظَّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ ٱلْبَلَدِ فَهَزَمَهُ وَٱتَّبَعَهُ إِلَى نَاحِيَةِ ٱلزَّابِ فَظَفِرَ بِهِ وَقَتَلَهُ وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَخْبَارِ كَثِيرَةٌ. وَأَمَّا ٱلْمُنَجِّمُونَ فَيَسْتَنِدُونَ فِي حَدَثَانِ ٱلدُّوَلِ إِلَى ٱلْأَحْكَامِ ٱلنُّجُومِيَّةِ أَمَّا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْعَامَّةِ مِثْلِ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ فَمِنَ ٱلْقِرَانَاتِ وَخُصُوصاً بَيْنَ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ زُحَلَ وَٱلْمُشْتَرِي يَقْتَرِنَانِ فِي كُلِّ عِشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَعُودُ ٱلْقِرَانُ إِلَى بُرْجٍ آخَرَ فِي تِلْكَ ٱلْمُثَلَّثَةِ مِنَ ٱلتَّثْلِيثِ ٱلْأَيْمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخَرَ كَذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي ٱلْمُثَلَّثَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً تَسْتَوِي بُرُوجُهُ ٱلثَّلَاثَةُ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي ٱلْمُثَلَّثَةِ بِثِنْتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَأَرْبَعِ عَوْدَاتٍ فِي مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَيَكُونُ ٱنْتِقَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى ٱلتَّثْلِيثِ ٱلْأَيْمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ ٱلْمُثَلَّثَةِ إِلَى ٱلْمُثَلَّثَةِ ٱلَّتِي تَلِيهَا أَعْنِي ٱلْبُرْجَ ٱلَّذِي يَلِي ٱلْبُرْجَ ٱلْأَخِيرَ مِنَ ٱلْقِرَانِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ فِي ٱلْمُثَلَّثَةِ وَهٰذَا ٱلْقِرَانُ ٱلَّذِي هُوَ قِرَانُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسَطٍ فَٱلْكَبِيرُ هُوَ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْفَلَكِ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً وَٱلْوَسَطُ هُوَ ٱقْتِرَانُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ فِي كُلِّ مُثَلَّثَةٍ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ مِئَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مُثَلَّثَةٍ أُخْرَى وَٱلصَّغِيرُ هُوَ ٱقْتِرَانُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ فِي دَرَجَةِ بُرْجٍ وَبَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجٍ آخَرَ عَلَى تَثْلِيثِهِ ٱلْأَيْمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجِهِ أَوْ دَقَائِقِهِ مِثَالُ ذٰلِكَ وَقَعَ ٱلْقِرَانُ يَكُونُ أَوَّلَ دَقِيقَةٍ مِنَ ٱلْحَمَلِ وَبَعْدَ عِشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ ٱلْأَسَدِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ وَهٰذَا كُلُّهُ قِرَانٌ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوَّلِ ٱلْحَمَلِ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً وَيُسَمَّى دَوْرَ ٱلْقِرَانِ وَعَوْدَ ٱلْقِرَانِ وَبَعْدَ مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ ٱلنَّارِيَّةِ إِلَى ٱلتُّرَابِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا وَهٰذَا قِرَانٌ وَسَطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى ٱلْهَوَائِيَّةِ ثُمَّ ٱلْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ ٱلْحَمَلِ فِي تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَهُوَ ٱلْكَبِيرُ وَٱلْقِرَانُ ٱلْكَبِيرُ يَدُلُّ عَلَى عِظَامِ ٱلْأُمُورِ مِثْلَ تَغْيِيرِ ٱلْمُلْكِ وَٱلدَّوْلَةِ وَٱنْتِقَالِ ٱلْمُلْكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَٱلْوَسَطُ عَلَى ظُهُورِ ٱلْمُتَغَلِّبِينَ وَٱلطَّالِبِينَ لِلْمُلْكِ وَٱلصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ ٱلْخَوَارِجِ وَٱلدُّعَاةِ وَخَرَابِ ٱلْمُدُنِ أَوْ عُمْرَانِهَا وَيَقَعُ فِي أَثْنَاءِ هٰذِهِ ٱلْقِرَانَاتِ قِرَانُ ٱلنَّحْسَيْنِ فِي بُرْجِ ٱلسَّرَطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ

سَنَةً مَرَّةً وَيُسَمَّى ٱلرَّابِعَ وَبُرْجُ ٱلسَّرَطَانِ هُوَ طَالِعُ ٱلْعَالَمِ وَفِيهِ وَبَالُ زُحَلَ وَهُبُوطُ ٱلْمِرِّيخِ فَتَعْظُمُ دَلَالَةُ هٰذَا ٱلْقِرَانِ فِي ٱلْفِتَنِ وَٱلْحُرُوبِ وَسَفْكِ ٱلدِّمَاءِ وَظُهُورِ ٱلْخَوَارِجِ وَحَرَكَةِ ٱلْعَسَاكِرِ وَعِصْيَانِ ٱلْجُنْدِ وَٱلْوَبَاءِ وَٱلْقَحْطِ وَيَدُومُ ذٰلِكَ أَوْ يَنْتَهِي عَلَى قَدْرِ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلنُّحُوسَةِ فِي وَقْتِ قِرَانِهِمَا عَلَى قَدْرِ تَيْسِيرِ ٱلدَّلِيلِ فِيهِ قَالَ جِرَاسُ بْنُ أَحْمَدَ ٱلْحَاسِبُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَلَّفَهُ لِنِظَامِ ٱلْمُلْكِ وَرُجُوعُ ٱلْمِرِّيخِ إِلَى ٱلْعَقْرَبِ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ دَلِيلَهَا فَٱلْمَوْلِدُ ٱلنَّبَوِيُّ كَانَ عِنْدَ قِرَانِ ٱلْعُلْوِيَّيْنِ بِبُرْجِ ٱلْعَقْرَبِ فَلَمَّا رَجَعَ هُنَالِكَ حَدَثَ ٱلتَّشْوِيشُ عَلَى ٱلْخُلَفَاءِ وَكَثُرَ ٱلْمَرَضُ فِي أَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُهُمْ وَرُبَّمَا ٱنْهَدَمَ بَعْضُ بُيُوتِ ٱلْعِبَادَةِ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ عِنْدَ قَتْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ وَمَرْوَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱلْمُتَوَكِّلِ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِذَا رُوعِيَتْ هٰذِهِ ٱلْأَحْكَامُ مَعَ أَحْكَامِ ٱلْقِرَانَاتِ كَانَتْ فِي غَايَةِ ٱلْإِحْكَامِ وَذَكَرَ شَاذَانُ ٱلْبَلْخِيُّ أَنَّ ٱلْمِلَّةَ تَنْتَهِي إِلَى ثَلَاثِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ وَقَدْ ظَهَرَ كَذِبُ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ يَظْهَرُ بَعْدَ ٱلْمِائَةِ وَٱلْخَمْسِينَ مِنْهَا ٱخْتِلَافٌ كَثِيرٌ وَلَمْ يَصِحَّ ذٰلِكَ وَقَالَ خُرَاشٌ رَأَيْتُ فِي كُتُبِ ٱلْقُدَمَاءِ أَنَّ ٱلْمُنَجِّمِينَ أَخْبَرُوا كِسْرَى عَنْ مُلْكِ ٱلْعَرَبِ وَظُهُورِ ٱلنُّبُوَّةِ فِيهِمْ وَأَنَّ دَلِيلَهُمُ ٱلزُّهَرَةُ وَكَانَتْ فِي شَرَفِهَا فَيَبْقَى ٱلْمُلْكُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِ ٱلْقِرَانَاتِ ٱلْقِسْمَةُ إِذَا ٱنْتَهَتْ إِلَى ٱلسَّابِعَةِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنَ ٱلْحُوتِ فِيهَا شَرَفُ ٱلزُّهَرَةِ وَوَقَعَ ٱلْقِرَانُ مَعَ ذٰلِكَ بِبُرْجِ ٱلْعَقْرَبِ وَهُوَ دَلِيلُ ٱلْعَرَبِ ظَهَرَتْ حِينَئِذٍ دَوْلَةُ ٱلْعَرَبِ وَكَانَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ وَيَكُونُ قُوَّةُ مُلْكِهِ وَمُدَّتُهُ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ دَرَجَاتِ شَرَفِ ٱلزُّهَرَةِ وَهِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً بِتَقْرِيبٍ مِنْ بُرْجِ ٱلْحُوتِ وَمُدَّةُ ذٰلِكَ سِتُّمِائَةٍ وَعَشْرُ سِنِينَ وَكَانَ ظُهُورُ أَبِي مُسْلِمٍ عِنْدَ ٱنْتِقَالِ ٱلزُّهَرَةِ وَوُقُوعِ ٱلْقِسْمَةِ أَوَّلَ ٱلْحَمَلِ وَصَاحِبُ ٱلْجَدِّ ٱلْمُشْتَرِي وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ ٱلْكِنْدِيُّ إِنَّ مُدَّةَ ٱلْمِلَّةِ تَنْتَهِي إِلَى سِتِّمِائَةٍ وَثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ لِأَنَّ ٱلزُّهَرَةَ كَانَتْ عِنْدَ قِرَانِ ٱلْمِلَّةِ فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِنَ ٱلْحُوتِ فَٱلْبَاقِي إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَمَانِ عَشْرَةَ دَقِيقَةً وَدَقَائِقُهَا سِتُّونَ فَيَكُونُ سِتَّمِائَةٍ وَثَلَاثًا وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ وَهٰذِهِ مُدَّةُ ٱلْمِلَّةِ بِٱتِّفَاقِ ٱلْحُكَمَاءِ وَيَعْضُدُهُ ٱلْحُرُوفُ ٱلْوَاقِعَةُ فِي أَوَّلِ ٱلسُّوَرِ بِحَذْفِ ٱلْمُكَرَّرِ وَٱعْتِبَارِهِ بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ قُلْتُ وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱلسُّهَيْلِيُّ وَٱلْغَالِبُ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ هُوَ مُسْتَنَدُ ٱلسُّهَيْلِيِّ فِيمَا نَقَلْنَاهُ

عنهُ قالَ خراشٌ سألَ هرمزُ إفريذَ الحكيمَ عن مدةِ أردشيرَ وولدهِ ملوكِ الساسانيةِ فقالَ دليلُ ملكهِ المشتري وكانَ في شرفهِ فيُعطى أطولَ السنينَ وأجودَها أربعمائةٍ وسبعًا وعشرينَ سنةً ثمَّ تزيدُ الزهرةُ وتكونُ في شرفِها وهيَ دليلُ العربِ فيملكونَ لأنَّ طالعَ القرانِ الميزانُ وصاحبهِ الزهرةُ وكانتْ عندَ القرانِ في شرفِها فدلَّ أنهمْ يملكونَ ألفَ سنةٍ وستينَ سنةً وسألَ كسرى أنوشروانَ وزيرهُ بزرجمهرَ الحكيمَ عن خروجِ الملكِ من فارسَ إلى العربِ فأخبرهُ أنَّ القائمَ منهمْ يولدُ لخمسٍ وأربعينَ من دولتهِ ويملكُ المشرقَ والمغربَ والمشتري يغوصُ إلى الزهرةِ وينتقلُ القرانُ منَ الهوائيةِ إلى العقربِ وهوَ مائيٌّ وهوَ دليلُ العربِ فهذهِ الأدلةُ تقضي للملةِ بمدةِ دورِ الزهرةِ وهيَ ألفٌ وستونَ سنةً وسألَ كسرى أبرويزُ أليوسَ الحكيمَ عن ذلكَ فقالَ مثلَ قولِ بزرجمهرَ وقالَ توفيلُ الروميُّ المنجمُ في أيامِ بني أميةَ إنَّ ملةَ الإسلامِ تبقى مدةَ القرانِ الكبيرِ تسعمائةٍ وستينَ سنةً فإذا عادَ القرانُ إلى برجِ العقربِ كما كانَ في ابتداءِ الملةِ وتغيرَ وضعُ الكواكبِ عن هيئتِها في قرانِ الملةِ فحينئذٍ إمّا أنْ يفترَ العملُ بهِ أوْ يتجددَ منَ الأحكامِ ما يوجبُ خلافَ الظنِّ قالَ خراشٌ واتفقوا على أنَّ خرابَ العالمِ يكونُ باستيلاءِ الماءِ والنارِ حتى تهلكَ سائرُ المكوناتِ وذلكَ عندَما يقطعُ قلبُ الأسدِ أربعًا وعشرينَ درجةً وهيَ حدُّ المريخِ وذلكَ بعدَ مضيِّ تسعمائةٍ وستينَ سنةً وذكرَ خراشٌ أنَّ ملكَ زابلستانَ بعثَ إلى المأمونِ بحكيمهِ ذوبانَ أتحفهُ بهِ في هديةٍ وأنهُ تصرَّفَ للمأمونِ في الاختياراتِ بحروبِ أخيهِ وبعقدِ اللواءِ لطاهرٍ وأنَّ المأمونَ أعظمَ حكمتهُ فسألهُ عن مدةِ ملكِهمْ فأخبرهُ بانقطاعِ الملكِ من عقبهِ واتصالهِ في ولدِ أخيهِ وأنَّ العجمَ يتغلبونَ على الخلافةِ منَ الديلمِ في دولةٍ سنةَ خمسينَ ويكونُ ما يريدهُ اللهُ ثمَّ يسوءُ حالهمْ ثمَّ تظهرُ التركُ منْ شمالِ المشرقِ فيملكونَ إلى الشامِ والفراتِ وسيحونَ وسيملكونَ بلادَ الرومِ ويكونُ ما يريدهُ اللهُ فقالَ لهُ المأمونُ منْ أينَ لكَ هذا فقالَ منْ كتبِ الحكماءِ ومنْ أحكامِ صصةَ بنِ داهرَ الهنديِّ الذي وضعَ الشطرنجَ قلتُ والتركُ الذينَ أشارَ إلى ظهورِهمْ بعدَ الديلمِ همُ السلجوقيةُ وقدِ انقضتْ دولتهمْ أولَ القرنِ السابعِ قالَ خراشٌ وانتقالُ القرانِ إلى المثلثةِ المائيةِ منْ برجِ الحوتِ يكونُ سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ وثمانمائةٍ

لِيَزْدَجَرْدَ وَبَعْدَهَا إِلَى بُرْجِ ٱلْعَقْرَبِ حَيْثُ كَانَ قِرَانُ ٱلْمِلَّةِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ قَالَ وَالَّذِي فِي ٱلْحُوتِ هُوَ أَوَّلُ ٱلِانْتِقَالِ وَٱلَّذِي فِي ٱلْعَقْرَبِ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ دَلَائِلُ ٱلْمِلَّةِ قَالَ وَتَحْوِيلُ ٱلسَّنَةِ ٱلْأُولَى مِنَ ٱلْقِرَانِ ٱلْأَوَّلِ فِي ٱلْمُثَلَّثَاتِ ٱلْمَائِيَّةِ فِي ثَانِي رَجَبٍ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَمَانِمِائَةٍ وَلَمْ يَسْتَوْفِ ٱلْكَلَامَ عَلَى ذَٰلِكَ. وَأَمَّا مُسْتَنَدُ ٱلْمُنَجِّمِينَ فِي دَوْلَةٍ عَلَى ٱلْخُصُوصِ فَمِنَ ٱلْقِرَانِ ٱلْأَوْسَطِ وَهَيْئَةِ ٱلْفَلَكِ عِنْدَ وُقُوعِهِ لِأَنَّ لَهُ دَلَالَةً عِنْدَهُمْ عَلَى حُدُوثِ ٱلدَّوْلَةِ وَجِهَاتِهَا مِنَ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْقَائِمِينَ بِهَا مِنَ ٱلْأُمَمِ وَعَدَدِ مُلُوكِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَنِحَلِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِهِ فِي ٱلْقِرَانَاتِ وَقَدْ تُوجَدُ هَٰذِهِ ٱلدَّلَالَةُ مِنَ ٱلْقِرَانِ ٱلْأَصْغَرِ إِذَا كَانَ ٱلْأَوْسَطُ دَالًّا عَلَيْهِ فَمِنْ هَٰذَا يُوجَدُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلدُّوَلِ وَقَدْ كَانَ يَعْقُوبُ ٱبْنُ إِسْحَاقَ ٱلْكِنْدِيُّ مُنَجِّمُ ٱلرَّشِيدِ وَٱلْمَأْمُونِ وَضَعَ فِي ٱلْقِرَانَاتِ ٱلْكَائِنَةِ فِي ٱلْمِلَّةِ كِتَابًا سَمَّاهُ ٱلشِّيعَةُ بِٱلْجَفْرِ بِٱسْمِ كِتَابِهِمُ ٱلْمَنْسُوبِ إِلَى جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَذَكَرَ فِيهِ فِيمَا يُقَالُ حَدَثَانَ دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَأَنَّهَا نِهَايَتُهُ وَأَشَارَ إِلَى ٱنْقِرَاضِهَا وَٱلْحَادِثَةِ عَلَى بَغْدَادَ أَنَّهَا تَقَعُ فِي ٱنْتِصَافِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَأَنَّهُ بِٱنْقِرَاضِهَا يَكُونُ ٱنْقِرَاضُ ٱلْمِلَّةِ وَلَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَبَرِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ وَلَا رَأَيْنَا مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ وَلَعَلَّهُ غَرِقَ فِي كُتُبِهِمُ ٱلَّتِي طَرَحَهَا هُلَاكُو مَلِكُ ٱلتَّتَرِ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ ٱسْتِيلَائِهِمْ عَلَى بَغْدَادَ وَقَتْلِ ٱلْمُسْتَعْصِمِ آخِرِ ٱلْخُلَفَاءِ وَقَدْ وَقَعَ بِٱلْمَغْرِبِ جُزْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى هَٰذَا ٱلْكِتَابِ يُسَمُّونَهُ ٱلْجَفْرَ ٱلصَّغِيرَ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُ وُضِعَ لِبَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ لِذِكْرِ ٱلْأَوَّلِينَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْمُوَحِّدِينَ فِيهِ عَلَى ٱلتَّفْصِيلِ وَمُطَابَقَةِ مَنْ تَقَدَّمَ عَنْ ذَٰلِكَ مِنْ حَدَثَانِهِ وَكَذَّبَ مَا بَعْدَهُ وَكَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ مِنْ بَعْدِ ٱلْكِنْدِيِّ مُنَجِّمُونَ وَكُتُبٌ فِي ٱلْحَدَثَانِ وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ فِي أَخْبَارِ ٱلْمَهْدِيِّ عَنْ أَبِي بُدَيْلٍ مِنْ أَصْحَابِ صَنَائِعِ ٱلدَّوْلَةِ قَالَ بَعَثَ إِلَيَّ ٱلرَّبِيعُ وَٱلْحَسَنُ فِي غُزَاتِهِمَا مَعَ ٱلرَّشِيدِ أَيَّامَ أَبِيهِ فَجِئْتُهُمَا جَوْفَ ٱللَّيْلِ فَإِذَا عِنْدَهُمَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ ٱلدَّوْلَةِ يَعْنِي ٱلْحَدَثَانَ وَإِذَا مُدَّةُ ٱلْمَهْدِيِّ فِيهِ عَشْرُ سِنِينَ فَقُلْتُ هَٰذَا ٱلْكِتَابُ لَا يَخْفَى عَلَى ٱلْمَهْدِيِّ وَقَدْ مَضَى مِنْ دَوْلَتِهِ مَا مَضَى فَإِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ كُنْتُمْ قَدْ نَعَيْتُمْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ قَالَا فَمَا ٱلْحِيلَةُ فَٱسْتَدْعَيْتُ عَنْبَسَةَ ٱلْوَرَّاقَ مَوْلَى آلِ بُدَيْلٍ وَقُلْتُ لَهُ ٱنْسَخْ هَٰذِهِ ٱلْوَرَقَةَ وَٱكْتُبْ مَكَانَ عَشْرٍ أَرْبَعِينَ فَفَعَلَ فَوَٱللَّهِ لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ ٱلْعَشَرَةَ فِي تِلْكَ ٱلْوَرَقَةِ وَٱلْأَرْبَعِينَ فِي هَٰذِهِ مَا كُنْتُ أَشُكُّ أَنَّهَا هِيَ ثُمَّ كَتَبَ ٱلنَّاسُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فِي حَدَثَانِ ٱلدُّوَلِ مَنْظُومًا وَمَنْثُورًا وَرَجَزًا مَا شَاءَ ٱللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ

وبأيدي الناس متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة إلى مشاهير من أهل الخليقة وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روي الراء وهي متداولة بين الناس وتحسب العامة أنها من الحدثان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونة لأن الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من يد موالي بني حمود وملكهم لعدوة الأندلس ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً قصيدة تسمى التبعية أولها

طربت وما ذاك مني طرب وقد يطرب الطائر المغتصب

وما ذاك مني للهو أراه ولكن لتذكار بعض السبب

قريباً من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيراً من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمي وغيره والظاهر أنها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب أيضاً ملعبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرانات لعصره العلويين والنحسين وغيرها وذكر ميتته قتيلاً بفاس وكان كذلك فيما زعموه وأوله

في صبغ ذا الازرق لشرفه خيارا فافهموا ياقوم هذي الاشارا

نجم زحل اخبر بذي العلاما وبدل الشكلا وهي سلاما

شاشية زرقا بدل العاما وشاش ازرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي يصلب في بلدة فاس في يوم عيد

حتى يجيه الناس من البوادي وقتله يا قوم على الفراد

وأبياته نحو الخمسمائة وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم المغرب أيضاً قصيدة من عروض المتقارب على روي الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الأبار وقال لي قاضي قسنطينية الخطيب الكبير أبو علي بن باديس وكان بصيراً بما يقوله وله قدم في التنجيم فقال لي إن هذا ابن الأبار ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب مقتول المستنصر وإنما هو رجل خياط من أهل

تُونِسَ تَوَاطأَتْ شُهْرَتُهُ مَعَ شُهْرَةِ ٱلْحَافِظِ وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى يُنْشِدُ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَلْحَمَةِ وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي حِفْظِي مَطْلَعُهَا

عَذِيرِيَ مِنْ زَمَنٍ قُلَّبٍ   يَغُرُّ بِبَارِقِهِ ٱلْأَشْنَبِ

ومنها

وَيَبْعَثُ مِنْ جَيْشِهِ قَائِدًا   وَيَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرْقَبِ

فَتَأْتِي إِلَى ٱلشَّيْخِ أَخْبَارُهُ   فَيُقْبِلُ كَٱلْجَمَلِ ٱلْأَجْرَبِ

وَيُظْهِرُ مِنْ عَدْلِهِ سِيرَةً   وَتِلْكَ سِيَاسَةُ مُسْتَجْلِبِ

ومنها في ذكر احوال تونس على العموم

فَإِمَّا[1] رَأَيْتَ ٱلرُّسُومَ ٱمَّحَتْ   وَلَمْ يُرْعَ حَقٌّ لِذِي مَنْصِبِ

فَخُذْ فِي ٱلتَّرَحُّلِ عَنْ تُونِسٍ   وَوَدِّعْ مَعَالِمَهَا وَٱذْهَبِ

فَسَوْفَ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةٌ   تُضِيفُ ٱلْبَرِيءَ إِلَى ٱلْمُذْنِبِ

وَوَقَفْتُ بِٱلْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ هٰؤُلَاءِ بِتُونِسَ فِيهَا بَعْدَ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى ٱلشَّهِيرِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ ذِكْرُ مُحَمَّدٍ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ يَقُولُ فِيهَا

وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ ٱلْإِلٰهِ شَقِيقُهُ   وَيُعْرَفُ بِٱلْوَثَّابِ فِي نُسْخَةِ ٱلْأَصْلِ

إِلَّا أَنَّ هٰذَا ٱلرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ وَكَانَ يُمَنِّي بِذٰلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ وَمِنَ ٱلْمَلَاحِمِ فِي ٱلْمَغْرِبِ أَيْضًا ٱلْمَلْعَبَةُ ٱلْمَنْسُوبَةُ إِلَى ٱلْهَوْثِنِيِّ عَلَى لُغَةِ ٱلْعَامَّةِ فِي عَرُوضِ ٱلْبَلَدِ

دعني بدمعي الهتان   فترت الامطار ولم تفتر

واستقت كلها الويدان   واني تملي وتغدر

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَمَحْفُوظَةٌ بَيْنَ عَامَّةِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهَا ٱلْوَضْعُ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ مِنْهَا قَوْلٌ إِلَّا عَلَى تَأْوِيلٍ تُحَرِّفُهُ ٱلْعَامَّةُ أَوِ ٱلْخَارِفُ فِيهِ مَنْ يَنْتَحِلُهَا مِنَ ٱلْخَاصَّةِ وَوَقَفْتُ بِٱلْمَشْرِقِ عَلَى مَلْحَمَةٍ مَنْسُوبَةٍ لِٱبْنِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْحَاتِمِيِّ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ شِبْهِ ٱلْأَلْغَازِ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللهُ لِتَخَلُّلِهِ إِلَى أَوْفَاقٍ عَدَدِيَّةٍ وَرُمُوزٍ مَلْغُوزَةٍ وَأَشْكَالِ حَيَوَانَاتٍ تَامَّةٍ وَرُؤُوسٍ مُقَطَّعَةٍ وَتَمَاثِيلَ مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ وَفِي آخِرِهَا قَصِيدَةٌ عَلَى رَوِيِّ ٱللَّامِ وَٱلْغَالِبُ أَنَّهَا كُلَّهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ عَنْ أَصْلٍ عِلْمِيٍّ مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَسَمِعْتُ أَيْضًا أَنَّ هُنَاكَ

---

[1] قوله فاما رايت اصله فان رايت زيدت ما وادغمت في ان الشرطية المحذوف نونها خطا وفي نسخة فلما رايت والاولى هي الموجودة في النسخة التونسية ا ه قاله نصر

ملاحم أخرى منسوبة لابن سيناء وابن عقاب وليس في شيء منها دليل على الصحة لأن ذلك إنما يؤخذ من القرانات ووقفت بالمشرق أيضاً على ملحمة من حدثان دولة الترك منسوبة إلى رجل من الصوفية يسمى الباجربقي وكلها إلغاز بالحروف أولها

إن شئت تكشف سر الجفر يا سؤلي　　من علم جفر وصي والد الحسن
فافهم وكن واعياً حرفاً وجملته　　والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذي قبل عصري لست أذكره　　لكنني أذكر الآتي من الزمن
بشهر بيبرس يبقى بعد خمستها　　بحاء ميم بطيش نام في الكتن
شين له أثر من تحت سرته　　له القضاء قضى أي ذلك المنن
فمصر والشام مع أرض العراق له　　وأذربيجان في ملك إلى اليمن

وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعتها كان في القديم كثير ومعروف الانتحال

حكى المؤرخون لأخبار بغداد أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكي يعرف بالدانالي يبل الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء اهل الدولة ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم ويحصل على ما يريده منهم من الدنيا وإنه وضع في بعض دفاتره ميماً مكررة ثلاث مرات وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر فقال له هذا كناية عنك وهو مفلح مولى المقتدر وذكر عنه ما يرضاه وينال من الدولة ونصب لذلك علامات يموه بها عليه فبذل له ما أغناه به ثم وضعه للوزير ابن القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معزولاً فجاءه بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وبعلامات ذكرها وأنه يلي الوزارة للثاني عشر من الخلفاء وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعداء وتعمر الدنيا في أيامه وأوقف مفلحاً هذا على الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه إلى دانال فأعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الألغاز والظاهر أن هذه الملحمة التي ينسبونها إلى الباجربقي من هذا النوع . ولقد سألت أكمل الدين ابن

شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب اليه من الصوفية وهو الباجربقي وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويومي الى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم وربما يظهر نظم ذلك في ابيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو امر ممتنع اذ الرمز انما يهدي الى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له واما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان في النفس من امر هذه الملحمة وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق



الفصل الرابع

من الكتاب الاول

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال

وفيه سوابق ولواحق

الفصل الاول

في ان الدول من المدن والامصار وانها انما توجد ثانية عن الملك

وبيانه ان البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعو اليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وايضا فالمدن والامصار ذات هياكل واجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج الى اجتماع الايدي وكثرة التعاون وليست من الامور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم اليها اضطرارا بل لا بد من اكراههم على ذلك وسوقهم اليه مضطهدين بعصا الملك او مرغبين في الثواب والاجر الذي لا يفي بكثرته الا

اَلْمُلْكُ وَالدَّوْلَةُ فَلَا بُدَّ فِي تَمْصِيرِ الْأَمْصَارِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ مِنَ الدَّوْلَةِ وَالْمُلْكِ ثُمَّ إِذَا بُنِيَتِ الْمَدِينَةُ وَكَمُلَ تَشْيِيدُهَا بِحَسَبِ نَظَرِ مَنْ شَيَّدَهَا وَبِمَا اقْتَضَتْهُ الْأَحْوَالُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ فِيهَا فَعُمُرُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ عُمُرٌ لَهَا فَإِنْ كَانَ عُمُرُ الدَّوْلَةِ قَصِيرًا وَقَفَ الْحَالُ فِيهَا عِنْدَ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَتَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَخَرِبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمَدُ الدَّوْلَةِ طَوِيلًا وَمُدَّتُهَا مُنْفَسِحَةً فَلَا تَزَالُ الْمَصَانِعُ فِيهَا تُشَادُ وَالْمَنَازِلُ الرَّحِيبَةُ تَكْثُرُ وَتَتَعَدَّدُ وَنِطَاقُ الْأَسْوَاقِ يَتَبَاعَدُ وَيَنْفَسِحُ إِلَى أَنْ تَتَّسِعَ الْخِطَّةُ وَتَبْعُدَ الْمَسَافَةُ وَيَنْفَسِحَ ذَرْعُ الْمَسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ بِبَغْدَادَ وَأَمْثَالِهَا. ذَكَرَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ الْحَمَّامَاتِ بَلَغَ عَدَدُهَا بِبَغْدَادَ لِعَهْدِ الْمَأْمُونِ خَمْسَةً وَسِتِّينَ أَلْفَ حَمَّامٍ وَكَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاصِقَةٍ وَمُتَقَارِبَةٍ تُجَاوِزُ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةً وَحْدَهَا يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِإِفْرَاطِ الْعُمْرَانِ وَكَذَا حَالُ الْقَيْرَوَانِ وَقُرْطُبَةَ وَالْمَهْدِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَغَنَا لِهٰذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا بَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْمُشَيِّدَةِ لِلْمَدِينَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِضَوَاحِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَمَا قَارَبَهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَسَائِطِ بَادِيَةٌ يُمِدُّهَا الْعُمْرَانُ دَائِمًا فَيَكُونُ ذٰلِكَ حَافِظًا لِوُجُودِهَا وَيَسْتَمِرُّ عُمُرُهَا بَعْدَ الدَّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ بِفَاسَ وَبِجَايَةَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبِعِرَاقِ الْعَجَمِ مِنَ الْمَشْرِقِ الْمَوْجُودِ لَهَا الْعُمْرَانُ مِنَ الْجِبَالِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبَدَاوَةِ إِذَا انْتَهَتْ أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَاتِهَا مِنَ الرَّفْهِ وَالْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ الَّذِي فِي طَبِيعَةِ الْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ الْمُدُنَ وَالْأَمْصَارَ وَيَتَأَهَّلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِتِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمُؤَسَّسَةِ مَادَّةٌ تُفِيدُهَا الْعُمْرَانَ بِتَرَادُفِ السَّاكِنِ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ انْقِرَاضُ الدَّوْلَةِ خَرْقًا لِسِيَاجِهَا فَيَزُولُ حِفْظُهَا وَيَتَنَاقَصُ عُمْرَانُهَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَبْذَعِرَّ سَاكِنُهَا وَتَخْرَبَ كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبَغْدَادَ وَالْكُوفَةِ بِالْمَشْرِقِ وَالْقَيْرَوَانِ وَالْمَهْدِيَّةِ وَقَلْعَةِ بَنِي حَمَّادٍ بِالْمَغْرِبِ وَأَمْثَالِهَا فَتَفَهَّمْهُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ انْقِرَاضِ مُخْتَطِّيهَا الْأَوَّلِينَ مَلِكٌ آخَرُ وَدَوْلَةٌ ثَانِيَةٌ يَتَّخِذُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًّا يَسْتَغْنِي بِهَا عَنِ اخْتِطَاطِ مَدِينَةٍ يَنْزِلُهَا فَتَحْفَظُ تِلْكَ الدَّوْلَةُ سِيَاجَهَا وَتَتَزَايَدُ مَبَانِيهَا وَمَصَانِعُهَا بِتَزَايُدِ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَتَرَفِهَا وَتَسْتَجِدُّ بِعُمْرَانِهَا عُمُرًا آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِفَاسَ وَالْقَاهِرَةِ لِهٰذَا الْعَهْدِ وَاللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثاني

في ان الملك يدعو الى نزول الامصار

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقَبَائِلَ وَٱلْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلْمُلْكُ ٱضْطُرُّوا لِلاسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلْأَمْصَارِ لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلْمُلْكُ مِنَ ٱلدَّعَةِ وَٱلرَّاحَةِ وَحَطِّ ٱلْأَثْقَالِ وَٱسْتِكْمَالِ مَا كَانَ نَاقِصًا مِنْ أُمُورِ ٱلْعُمْرَانِ فِي ٱلْبَدْوِ وَٱلثَّانِي دَفْعُ مَا يُتَوَقَّعُ عَلَى ٱلْمُلْكِ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُنَازِعِينَ وَٱلْمُشَاغِبِينَ لِأَنَّ ٱلْمِصْرَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رُبَّمَا يَكُونُ مَلْجَأً لِمَنْ يَرُومُ مُنَازَعَتَهُمْ وَٱلْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ وَٱنْتِزَاعَ ذٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي سَمَوْا إِلَيْهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَيَعْتَصِمُ بِذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ وَيُغَالِبُهُمْ وَمُغَالَبَةُ ٱلْمِصْرِ عَلَى نِهَايَةٍ مِنَ ٱلصُّعُوبَةِ وَٱلْمَشَقَّةِ وَٱلْمِصْرُ يَقُومُ مَقَامَ ٱلْعَسَاكِرِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلِامْتِنَاعِ وَنِكَايَةِ ٱلْحَرْبِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْجُدْرَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كَثِيرِ عَدَدٍ وَلَا عَظِيمِ شَوْكَةٍ لِأَنَّ ٱلشَّوْكَةَ وَٱلْعِصَابَةَ إِنَّمَا ٱحْتِيجَ إِلَيْهِمَا فِي ٱلْحَرْبِ لِلثَّبَاتِ لِمَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ كَرَّةِ ٱلْقَوْمِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ ٱلْجَوْلَةِ وَثَبَاتِ هٰؤُلَاءِ بِٱلْجُدْرَانِ فَلَا يَضْطَرُّونَ إِلَى كَبِيرِ عِصَابَةٍ وَلَا عَدَدٍ فَيَكُونُ حَالُ هٰذَا ٱلْحِصْنِ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ ٱلْمُنَازِعِينَ مِمَّا يَفُتُّ فِي عَضُدِ ٱلْأُمَّةِ ٱلَّتِي تَرُومُ ٱلِاسْتِيلَاءَ وَيَخْضُدُ شَوْكَةَ ٱسْتِيلَائِهَا فَإِذَا كَانَتْ بَيْنَ أَجْنَابِهِمْ أَمْصَارٌ ٱنْتَظَمُوهَا فِي ٱسْتِيلَائِهِمْ لِلْأَمْنِ مِنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلِانْخِرَامِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِصْرٌ ٱسْتَحْدَثُوهُ ضَرُورَةً لِتَكْمِيلِ عُمْرَانِهِمْ أَوَّلًا وَحَطِّ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَكُونَ شَجًا فِي حَلْقِ مَنْ يَرُومُ ٱلْعِزَّةَ وَٱلِامْتِنَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَوَائِفِهِمْ وَعَصَائِبِهِمْ فَتَعَيَّنَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ يَدْعُو إِلَى نُزُولِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث

في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير

قَدْ قَدَّمْنَا ذٰلِكَ فِي آثَارِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَغَيْرِهَا وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ تَشْيِيدَ ٱلْمُدُنِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِٱجْتِمَاعِ ٱلْفَعَلَةِ وَكَثْرَتِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ فَإِذَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَظِيمَةً مُتَّسِعَةَ ٱلْمَمَالِكِ حُشِرَ ٱلْفَعَلَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا وَجُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ عَلَى عَمَلِهَا وَرُبَّمَا ٱسْتُعِينَ فِي ذٰلِكَ فِي أَكْثَرِ ٱلْأَمْرِ بِٱلْهِنْدَامِ ٱلَّذِي يُضَاعِفُ ٱلْقُوَى وَٱلْقُدَرَ فِي حَمْلِ أَثْقَالِ ٱلْبِنَاءِ

لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخال وغيره وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب إنما كانت بقدرهم متفرقين أو مجتمعين فيتخيل لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الأجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عيانا وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة إلى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كإيوان كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بأفريقية والصنهاجيين وأثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بإزاء تلمسان وكذلك الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة لهذا العهد وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها قريبا وبعيدا وتيقنا أنهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى إنهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريئا فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة وإنما هي كوكب مضيء لا مزاج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد

الفصل الرابع

في ان الهياكل العظيمة جدًّا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ ٱلْبِنَاءِ إِلَى ٱلتَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ ٱلْقُدَرِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ ٱلْمَبَانِي فِي عِظَمِهَا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْقُدَرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِٱلْهِنْدَامِ كَمَا قُلْنَاهُ فَيَحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدَرٍ أُخْرَى مِثْلِهَا فِي أَزْمِنَةٍ مُتَعَاقِبَةٍ إِلَى أَنْ تَتِمَّ فَيَبْتَدِئُ ٱلْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِٱلْبِنَاءِ وَيَعْقُبُهُ ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي حَشْرِ ٱلْفَعَلَةِ وَجَمْعِ ٱلْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ ٱلْقَصْدُ مِنْ ذَٰلِكَ وَيَكْمُلَ وَيَكُونَ مَاثِلًا لِلْعِيَانِ يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ ٱلْآخَرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَٱنْظُرْ فِي ذَٰلِكَ مَا تَنْقُلُهُ ٱلْمُؤَرِّخُونَ فِي بِنَاءِ سَدِّ مَأْرِبَ وَأَنَّ ٱلَّذِي بَنَاهُ سَبَأُ بْنُ يَشْجُبَ وَسَاقَ إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَادِيًا وَعَاقَهُ ٱلْمَوْتُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَأَتَمَّهُ مُلُوكُ حِمْيَرَ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هٰذَا مَا نُقِلَ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجَنَّةَ وَقَنَاتِهَا ٱلرَّاكِبَةِ عَلَى ٱلْحَنَايَا ٱلْعَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ ٱلْمَبَانِي ٱلْعَظِيمَةِ فِي ٱلْغَالِبِ هٰذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَبَانِيَ ٱلْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ ٱلْمَلِكَ ٱلْوَاحِدَ يَشْرَعُ فِي ٱخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتْبَعْ أَثَرَهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُلُوكِ فِي إِتْمَامِهَا بَقِيَتْ بِحَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ ٱلْقَصْدُ فِيهَا وَيَشْهَدُ لِذَٰلِكَ أَيْضًا أَنَّا نَجِدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنَ ٱلْمَبَانِي ٱلْعَظِيمَةِ تَعْجِزُ ٱلدُّوَلُ عَنْ هَدْمِهَا وَتَخْرِيبِهَا مَعَ أَنَّ ٱلْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ ٱلْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ ٱلْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلَى ٱلْأَصْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعَدَمُ وَٱلْبِنَاءُ عَلَى خِلَافِ ٱلْأَصْلِ فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضْعُفُ قُوَّتُنَا ٱلْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سُهُولَةِ ٱلْهَدْمِ عَلِمْنَا أَنَّ ٱلْقُدْرَةَ ٱلَّتِي أَسَّسَتْهُ مُفْرِطَةُ ٱلْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَثَرَ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهٰذَا مِثْلُ مَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ فِي إِيوَانِ كِسْرَى لَمَّا ٱعْتَزَمَ ٱلرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ فِي مَحْبِسِهِ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَٰلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ وَٱتْرُكْهُ مَاثِلًا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عِظَمِ مُلْكِ آبَائِكَ ٱلَّذِينَ سَلَبُوا ٱلْمُلْكَ لِأَهْلِ ذَٰلِكَ ٱلْهَيْكَلِ فَٱتَّهَمَهُ فِي ٱلنَّصِيحَةِ وَقَالَ أَخَذَتْهُ ٱلنُّعَرَةُ لِلْعَجَمِ وَٱللّٰهِ لَأَصْرَعَنَّهُ وَشَرَعَ فِي هَدْمِهِ وَجَمَعَ ٱلْأَيْدِيَ عَلَيْهِ وَٱتَّخَذَ لَهُ ٱلْفُؤُوسَ وَحَمَاهُ بِٱلنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ ٱلْخَلَّ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْعَجْزُ بَعْدَ ذَٰلِكَ كُلِّهِ وَخَافَ ٱلْفَضِيحَةَ بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي ٱلتَّجَافِي عَنِ ٱلْهَدْمِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ وَٱسْتَمِرَّ عَلَى ذَٰلِكَ لِئَلَّا يُقَالَ عَجَزَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكُ ٱلْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ ٱلْعَجَمِ فَعَرَفَهَا ٱلرَّشِيدُ وَأَقْصَرَ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذَٰلِكَ ٱتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ فِي هَدْمِ ٱلْأَهْرَامِ ٱلَّتِي بِمِصْرَ

وَجَمَعَ ٱلْفَعَلَةَ لِهَدْمِهَا فَلَمْ يَحُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَعُوا فِي نَقْبِهِ فَٱنْتَهَوا إِلَى جَوٍّ بَيْنَ ٱلْحَائِطِ وَٱلظَّاهِرِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ ٱلْحِيطَانِ وَهُنَالِكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدْمِهِمْ وَهُوَ إِلَى ٱلْيَوْمِ فِيمَا يُقَالُ مَنْفَذٌ ظَاهِرٌ وَيَزْعُمُ ٱلزَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازًا بَيْنَ تِلْكَ ٱلْحِيطَانِ وَٱللهُ أَعْلَمُ وَكَذَلِكَ حَنَايَا ٱلْمُعَلَّقَةِ إِلَى هٰذَا ٱلْعَهْدِ تَحْتَاجُ أَهْلُ مَدِينَةِ تُونِسَ إِلَى ٱنْتِخَابِ ٱلْحِجَارَةِ لِبِنَائِهِمْ وَتَسْتَجِيدُ ٱلصُّنَّاعُ حِجَارَةَ تِلْكَ ٱلْحَنَايَا فَيُحَاوِلُونَ عَلَى هَدْمِهَا ٱلْأَيَّامَ ٱلْعَدِيدَةَ وَلَا يَسْقُطُ ٱلصَّغِيرُ مِنْ جُدْرَانِهَا إِلَّا بَعْدَ عَصْبِ ٱلرِّيقِ وَتَجْتَمِعُ لَهُ ٱلْمَحَافِلُ ٱلْمَشْهُورَةُ شَهِدْتُ مِنْهَا فِي أَيَّامِ صِبَايَ كَثِيرًا وَٱللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

الفصل الخامس

فيما تجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن المراعاة

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُدُنَ قَرَارٌ يَتَّخِذُهُ ٱلْأُمَمُ عِنْدَ حُصُولِ ٱلْغَايَةِ ٱلْمَطْلُوبَةِ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَدَوَاعِيهِ فَتُؤْثِرُ ٱلدَّعَةَ وَٱلسُّكُونَ وَتَتَوَجَّهُ إِلَى ٱتِّخَاذِ ٱلْمَنَازِلِ لِلْقَرَارِ وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ ٱلْقَرَارُ وَٱلْمَأْوَى وَجَبَ أَنْ يُرَاعَى فِيهِ دَفْعُ ٱلْمَضَارِّ بِٱلْحِمَايَةِ مِنْ طَوَارِقِهَا وَجَلْبُ ٱلْمَنَافِعِ وَتَسْهِيلُ ٱلْمَرَافِقِ لَهَا فَأَمَّا ٱلْحِمَايَةُ مِنَ ٱلْمَضَارِّ فَيُرَاعَى لَهَا أَنْ يُدَارَ عَلَى مَنَازِلِهَا جَمِيعًا سِيَاجُ ٱلْأَسْوَارِ وَأَنْ يَكُونَ وَضْعُ ذَلِكَ فِي مُتَمَنِّعٍ مِنَ ٱلْأَمْكِنَةِ إِمَّا عَلَى هَضْبَةٍ مُتَوَعِّرَةٍ مِنَ ٱلْجَبَلِ وَإِمَّا بِٱسْتِدَارَةِ بَحْرٍ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوصَلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ ٱلْعُبُورِ عَلَى جِسْرٍ أَوْ قَنْطَرَةٍ فَيَصْعُبُ مَنَالُهَا عَلَى ٱلْعَدُوِّ وَيَتَضَاعَفُ ٱمْتِنَاعُهَا وَحِصْنُهَا وَمِمَّا يُرَاعَى فِي ذَلِكَ لِلْحِمَايَةِ مِنَ ٱلْآفَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ طِيبُ ٱلْهَوَاءِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ ٱلْأَمْرَاضِ فَإِنَّ ٱلْهَوَاءَ إِذَا كَانَ رَاكِدًا خَبِيثًا أَوْ مُجَاوِرًا لِلْمِيَاهِ ٱلْفَاسِدَةِ أَوْ مَنَاقِعَ مُتَعَفِّنَةٍ أَوْ مُرُوجٍ خَبِيثَةٍ أَسْرَعَ إِلَيْهَا ٱلْعَفَنُ مِنْ مُجَاوَرَتِهَا فَأَسْرَعَ ٱلْمَرَضُ لِلْحَيَوَانِ ٱلْكَائِنِ فِيهِ لَا مَحَالَةَ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ وَٱلْمُدُنُ ٱلَّتِي لَمْ يُرَاعَ فِيهَا طِيبُ ٱلْهَوَاءِ كَثِيرَةُ ٱلْأَمْرَاضِ فِي ٱلْغَالِبِ وَقَدِ ٱشْتَهَرَ بِذَلِكَ فِي قُطْرِ ٱلْمَغْرِبِ بَلَدُ قَابِسَ مِنْ بِلَادِ ٱلْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ فَلَا يَكَادُ سَاكِنُهَا أَوْ طَارِقُهَا يَخْلُصُ مِنْ حُمَّى ٱلْعَفَنِ بِوَجْهٍ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ ذَلِكَ حَادِثٌ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ وَنَقَلَ ٱلْبَكْرِيُّ فِي سَبَبِ حُدُوثِهِ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا حَفْرٌ ظَهَرَ فِيهِ إِنَاءٌ مِنْ نُحَاسٍ مَخْتُومٌ بِٱلرَّصَاصِ فَلَمَّا فُضَّ خِتَامُهُ صَعِدَ مِنْهُ دُخَانٌ إِلَى ٱلْجَوِّ وَٱنْقَطَعَ وَكَانَ ذَلِكَ مَبْدَأَ أَمْرَاضِ ٱلْحُمَّيَاتِ فِيهِ وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ ٱلْإِنَاءَ كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ ٱلطِّلَّسْمَاتِ لِوَبَائِهِ وَأَنَّهُ

هب سره بذهابه فرجع إليها العفن والوباء وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم
ركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا
و يتبين خرفه فنقله كما سمعه والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية
لعفنة أكثر ما يهيئها لتعفين الأجسام وأمراض الحميات ركودها فإذا تخللتها الريح
تفشت وذهبت بها يمينا وشمالا خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات والبلد
ذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث
لريح المتخللة للهواء الراكد ويكون ذلك معينا له على الحركة والتموج وإذا خف
لساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتموجه وبقي ساكنا راكدا وعظم عفنه
كثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عندما كانت أفريقية مستجدة العمران كثيرة
لساكن تموج بأهلها موجا فكان ذلك معينا على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف
لأذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعندما خف ساكنها ركد هواؤها
لمتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض فهذا وجهه لا غير وقد رأينا عكس
لك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولا قليلة الساكن فكانت
مراضها كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس
لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد ما قلته لك
أما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على
هر أو بإزائها عيون عذبة ثرة فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن
حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة ومما يراعى
ن المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من
وجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى فإذا كان قريبا
طيبا كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده ومما يراعى أيضا
لمزارع فإن الزروع هي الأقوات فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك
سهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فإن الحطب مما
م البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ والخشب أيضا ضروري
سقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم وقد يراعى أيضا قربها من

ٱلْبَحْرِ لِتَسْهِيلِ ٱلْحَاجَاتِ ٱلْقَاصِيَةِ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلنَّائِيَةِ إِلاَّ أَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ ٱلْأَوَّلِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ ٱلْحَاجَاتِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ ٱلسَّاكِنِ وَقَدْ يَكُونُ ٱلْوَاضِعُ غَافِلاً عَنْ حُسْنِ ٱلِاخْتِيَارِ ٱلطَّبِيعِيِّ أَوْ إِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهَمُّ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ وَلاَ يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْعَرَبُ لِأَوَّلِ ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلَّتِي ٱخْتَطُّوهَا بِٱلْعِرَاقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرَاعُوا فِيهَا إِلاَّ ٱلْأَهَمَّ عِنْدَهُمْ مِنْ مَرَاعِي ٱلْإِبِلِ وَمَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ ٱلشَّجَرِ وَٱلْمَاءِ ٱلْمِلْحِ وَلَمْ يُرَاعُوا ٱلْمَاءَ وَلاَ ٱلْمَزَارِعَ وَلاَ ٱلْحَطَبَ وَلاَ مَرَاعِيَ ٱلسَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ ٱلظِّلْفِ وَلاَ غَيْرَ ذٰلِكَ كَٱلْقَيْرَوَانِ وَٱلْكُوفَةِ وَٱلْبَصْرَةِ وَأَمْثَالِهَا وَلِهٰذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْخَرَابِ مَا لَمْ تُرَاعَ فِيهَا ٱلْأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ

وَمِمَّا يُرَاعَى فِي ٱلْبِلَادِ ٱلسَّاحِلِيَّةِ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ بَيْنَ أُمَّةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ مَوْفُورَةِ ٱلْعَدَدِ تَكُونُ صَرِيخًا لِلْمَدِينَةِ مَتَى طَرَقَهَا طَارِقٌ مِنَ ٱلْعَدُوِّ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحَتِهَا عُمْرَانٌ لِلْقَبَائِلِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ وَلاَ مَوْضِعُهَا مُتَوَعِّرٌ مِنَ ٱلْجَبَلِ كَانَتْ فِي غِرَّةٍ لِلْبَيَاتِ وَسَهُلَ طُرُوقُهَا فِي ٱلْأَسَاطِيلِ ٱلْبَحْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَحَيُّفُهُ لَهَا لِمَا يَأْمَنُ مِنْ وُجُودِ ٱلصَّرِيخِ لَهَا وَأَنَّ ٱلْحَضَرَ ٱلْمُتَعَوِّدِينَ لِلدَّعَةِ قَدْ صَارُوا عِيَالاً وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ ٱلْمُقَاتِلَةِ وَهٰذِهِ كَٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ وَطَرَابُلُسَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَبُونَةَ وَسَلاَ وَمَتَى كَانَتِ ٱلْقَبَائِلُ وَٱلْعَصَائِبُ مُوَطَّنِينَ بِقُرْبِهَا بِحَيْثُ يَبْلُغُهُمُ ٱلصَّرِيخُ وَٱلنَّعِيرُ وَكَانَتْ مُتَوَعِّرَةَ ٱلْمَسَالِكِ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا بِٱخْتِطَاطِهَا فِي هِضَابِ ٱلْجِبَالِ وَعَلَى أَسْنِمَتِهَا كَانَ لَهَا بِذٰلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ ٱلْعَدُوِّ وَيَئِسُوا مِنْ طُرُوقِهَا لِمَا يُكَابِدُونَهُ مِنْ وَعْرِهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيخِهَا كَمَا فِي سَبْتَةَ وَبِجَايَةَ وَبَلَدِ ٱلْقُلِّ عَلَى صِغَرِهَا فَافْهَمْ ذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْهُ فِي ٱخْتِصَاصِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بِٱسْمِ ٱلثَّغْرِ مِنْ لَدُنِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ ٱلدَّعْوَةَ مِنْ وَرَائِهَا بِبَرْقَةَ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَإِنَّمَا ٱعْتُبِرَ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَخَافَةُ ٱلْمُتَوَقَّعَةُ فِيهَا مِنَ ٱلْبَحْرِ لِسُهُولَةِ وَضْعِهَا وَلِذٰلِكَ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ كَانَ طُرُوقُ ٱلْعَدُوِّ لِلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَرَابُلُسَ فِي ٱلْمِلَّةِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِعْلَمْ أَنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضَّلَ مِنَ ٱلْأَرْضِ بِقَاعًا ٱخْتَصَّهَا بِتَشْرِيفِهِ وَجَعَلَهَا مَوَاطِنَ

لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الأجور وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السعادة لهم . وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج إليه فبناه هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن وقام بما أمره الله فيه وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه . وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام حواليه . والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف في تربتها فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فلنشر إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها في العالم فأما مكة فأوليتها فيما يقال أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وإنما اقتبسوه من محمل الآية في قوله وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ثم بعث الله إبراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بها حتى احتملوها وسكنوا إليهما ونزلوا معهما حوالي زمزم كما عرف في موضعه فاتخذ إسماعيل بموضع الكعبة بيتاً يأوي إليه وأدار عليه سياجاً من الردم وجعله زرباً لغنمه وجاء إبراهيم صلوات الله عليه مراراً لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل ودعا الناس إلى حجه وبقي إسماعيل ساكناً به ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم ثم العماليق من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون

إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أُفُقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ لَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَنَا أَوْ نَأَى فَقَدْ نُقِلَ أَنَّ التَّبَابِعَةَ كَانَتْ تَحُجُّ الْبَيْتَ وَتُعَظِّمُهُ وَأَنَّ تُبَّعًا كَسَاهَا الْمُلَاءَ وَالْوَصَائِلَ وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحًا وَنُقِلَ أَيْضًا أَنَّ الْفُرْسَ كَانَتْ تَحُجُّهُ وَتُقَرِّبُ إِلَيْهِ وَأَنَّ غَزَالَيِ الذَّهَبِ اللَّذَيْنِ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ احْتَفَرَ زَمْزَمَ كَانَا مِنْ قَرَابِينِهِمْ وَلَمْ يَزَلْ لِجُرْهُمٍ الْوِلَايَةُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قِبَلِ خُؤُولَتِهِمْ حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ خُزَاعَةُ وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ كَثُرَ وُلْدُ إِسْمَاعِيلَ وَانْتَشَرُوا وَتَشَعَّبُوا إِلَى كِنَانَةَ ثُمَّ كِنَانَةُ إِلَى قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وِلَايَةُ خُزَاعَةَ فَغَلَبَتْهُمْ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْبَيْتِ وَمَلَّكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ قُصَيَّ بْنَ كِلَابٍ فَبَنَى الْبَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ الدَّوْمِ وَجَرِيدِ النَّخْلِ وَقَالَ الْأَعْشَى

خَلَفْتُ بِثَوْبَيْ رَاهِبِ الدُّورِ وَالَّتِي ... بَنَاهَا قُصَيٌّ وَالْمُضَاضُ بْنُ جُرْهُمِ

ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهَدَّمَ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا النَّفَقَةَ لِذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَانْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جُدَّةَ فَاشْتَرَوْا خَشَبَهَا لِلسَّقْفِ وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ الْقَامَةِ فَجَعَلُوهَا ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا بِالْأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ لِئَلَّا تَدْخُلَهُ السُّيُولُ وَقَصَّرَتْ بِهِمِ النَّفَقَةُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَقَصَّرُوا عَنْ قَوَاعِدِهِ وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِبْرًا أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الْحِجْرُ وَبَقِيَ الْبَيْتُ عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ جُيُوشُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ الْحُصَيْنِ بْنِ نُمَيْرٍ السَّكُونِيِّ وَرَمَى الْبَيْتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ يُقَالُ مِنَ النَّفْطِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ أَنِ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا فَهَدَمَهُ وَكَشَفَ عَنْ أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمَعَ الْوُجُوهَ وَالْأَكَابِرَ حَتَّى عَايَنُوهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالتَّحَرِّي فِي حِفْظِ الْقِبْلَةِ عَلَى النَّاسِ فَأَدَارَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا الْأَسْتَارَ حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلَى صَنْعَاءَ فِي الْفِضَّةِ وَالْكِلْسِ فَحَمَلَهَا وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ الْحِجَارَةِ الْأُوَلِ فَجَمَعَ مِنْهَا مَا احْتَاجَ إِلَيْهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي الْبِنَاءِ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفَعَ جُدْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ

ذراعاً وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روي في حديثه وجعل فرشها وإزرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب. ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات إلى أن تصدعت حيطانها ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده في البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت أني كنت حملت أبا حبيب في أمر البيت وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج منها ست أذرع وشبراً مكان الحجر وبناها على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي وترك سائرها لم يغير منه شيئاً فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان لحمة ظاهرة بين البناءين والبناء متميز عن البناء بمقدار إصبع شبه الصدع وقد لحم. ويعرض ههنا إشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل الحجر الأسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائماً لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت وإذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو إنما بني على أساس إبراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين أحدهما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاده وقد نقل ذلك جماعة إلا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه على الآخر في الصناعة يرد ذلك وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس إبراهيم مع جميع جهاته وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم وهذا بعيد ولا محيص من هذين والله تعالى أعلم. ثم إن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ولم يكن عليه جدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده ثم كثر الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دوراً هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جداراً دون القامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعمد

الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا . وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به وكفى بذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ومكاناً للعبادة وفرض شرائع الحج ومناسكه وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجبه لغيره فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره وحمى العائذ به والراتع في مسارحه من مواقع الآفات فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر . وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشائر . هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويقال لها أيضاً بكة قال الأصمعي لأن الناس يبك بعضهم بعضاً إليها أي يدفع وقال مجاهد باء بكة أبدلوها ميماً كما قالوا لازب ولازم لقرب المخرجين وقال النخعي بالباء وبالميم البلد وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسرى وغيره وقصة الأسياف وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزناً وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يفعل ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه هكذا قال الأزرقي وفي البخاري يسنده إلى أبي وائل قال جلست إلى شيبة بن عثمان وقال جلس إلي عمر بن الخطاب فقال هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين قلت ما أنت بفاعل قال ولم قلت لم يفعله صاحباك فقال هما اللذان يقتدى بهما وخرجه أبو داود وابن ماجة وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفطس وهو الحسن بن الحسين ابن علي بن زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب مكة عمد إلى

ٱلْكَعْبَةِ فَأَخَذَ مَا فِي خَزَائِنِهَا وَقَالَ مَا تَصْنَعُ ٱلْكَعْبَةُ بِهٰذَا ٱلْمَالِ مَوْضُوعًا فِيهَا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَرْبِنَا وَأَخْرَجَهُ وَتَصَرَّفَ فِيهِ وَبَطَلَتِ ٱلذَّخِيرَةُ مِنَ ٱلْكَعْبَةِ مِنْ يَوْمَئِذٍ. (واما بيت المقدس) وَهُوَ ٱلْمَسْجِدُ ٱلْأَقْصَى فَكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ أَيَّامَ ٱلصَّابِئَةِ مَوْضِعَ ٱلزُّهْرَةِ وَكَانُوا يُقَرِّبُونَ إِلَيْهِ ٱلزَّيْتَ فِيمَا يُقَرِّبُونَهُ يَصُبُّونَهُ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتِي هُنَاكَ ثُمَّ دُثِرَ ذٰلِكَ ٱلْهَيْكَلُ وَٱتَّخَذَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ مَلَكُوهَا قِبْلَةً لِصَلَاتِهِمْ: وَذٰلِكَ أَنَّ مُوسَى صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ لِتَمْلِيكِهِمْ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ كَمَا وَعَدَ ٱللّٰهُ أَبَاهُمْ إِسْرَائِيلَ وَأَبَاهُ إِسْحٰقَ مِنْ قَبْلِهِ وَأَقَامُوا بِأَرْضِ ٱلتِّيهِ أَمَرَهُ ٱللّٰهُ بِٱتِّخَاذِ قُبَّةٍ مِنْ خَشَبِ ٱلسَّنْطِ عُيِّنَ بِٱلْوَحْيِ مِقْدَارُهَا وَصِفَتُهَا وَهَيَاكِلُهَا وَتَمَاثِيلُهَا وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا ٱلتَّابُوتُ وَمَائِدَةٌ بِصِحَافِهَا وَمَنَارَةٌ بِقَنَادِيلِهَا وَأَنْ يَصْنَعَ مَذْبَحًا لِلْقُرْبَانِ وَصَفَ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي ٱلتَّوْرَاةِ أَكْمَلَ وَصْفٍ فَصَنَعَ ٱلْقُبَّةَ وَوَضَعَ فِيهَا تَابُوتَ ٱلْعَهْدِ وَهُوَ ٱلتَّابُوتُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْأَلْوَاحُ ٱلْمَصْنُوعَةُ عِوَضًا عَنِ ٱلْأَلْوَاحِ ٱلْمُنَزَّلَةِ بِٱلْكَلِمَاتِ ٱلْعَشْرِ لَمَّا تَكَسَّرَتْ وَوَضَعَ ٱلْمَذْبَحَ عِنْدَهَا. وَعَهِدَ ٱللّٰهُ إِلَى مُوسَى بِأَنْ يَكُونَ هَارُونُ صَاحِبَ ٱلْقُرْبَانِ وَنَصَبُوا تِلْكَ ٱلْقُبَّةَ بَيْنَ خِيَامِهِمْ فِي ٱلتِّيهِ يُصَلُّونَ إِلَيْهَا وَيَتَقَرَّبُونَ فِي ٱلْمَذْبَحِ أَمَامَهَا وَيَتَعَرَّضُونَ لِلْوَحْيِ عِنْدَهَا. وَلَمَّا مَلَكُوا ٱلشَّامَ وَبَقِيَتْ تِلْكَ ٱلْقُبَّةُ قِبْلَتَهُمْ وَوَضَعُوهَا عَلَى ٱلصَّخْرَةِ بِبَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَأَرَادَ دَاوُدُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ مَكَانَهَا فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذٰلِكَ وَعَهِدَ بِهِ إِلَى ٱبْنِهِ سُلَيْمَانَ فَبَنَاهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ وَلِخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَٱتَّخَذَ عُمُدَهُ مِنَ ٱلصُّفْرِ وَجَعَلَ بِهِ صَرْحَ ٱلزُّجَاجِ وَغَشَّى أَبْوَابَهُ وَحِيطَانَهُ بِٱلذَّهَبِ وَصَاغَ هَيَاكِلَهُ وَتَمَاثِيلَهُ وَأَوْعِيَتَهُ وَمَنَارَتَهُ وَمِفْتَاحَهُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَجَعَلَ فِي ظَهْرِهِ قَبْرًا لِيَضَعَ فِيهِ تَابُوتَ ٱلْعَهْدِ وَهُوَ ٱلتَّابُوتُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْأَلْوَاحُ وَجَاءَ بِهِ مِنْ صِهْيُونَ بَلَدِ أَبِيهِ دَاوُدَ تَحْمِلُهُ ٱلْأَسْبَاطُ وَٱلْكَهَنُوتِيَّةُ حَتَّى وَضَعَهُ فِي ٱلْقَبْرِ وَوُضِعَتِ ٱلْقُبَّةُ وَٱلْأَوْعِيَةُ وَٱلْمَذْبَحُ كُلٌّ وَاحِدٍ حَيْثُ أُعِدَّ لَهُ مِنَ ٱلْمَسْجِدِ وَأَقَامَ كَذٰلِكَ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ ثُمَّ خَرَّبَهُ بُخْتُ نَصَّرُ بَعْدَ ثَمَانِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ بِنَائِهِ وَأَحْرَقَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْعَصَا وَصَاغَ ٱلْهَيَاكِلَ وَنَثَرَ ٱلْأَحْجَارَ ثُمَّ لَمَّا أَعَادَهُمْ مُلُوكُ ٱلْفُرْسِ بَنَاهُ عُزَيْرُ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعَهْدِهِ بِإِعَانَةِ بَهْمَنَ مَلِكِ ٱلْفُرْسِ ٱلَّذِي كَانَتِ ٱلْوِلَادَةُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ مِنْ سَبْيِ بُخْتَ نَصَّرَ وَحَدَّ لَهُمْ فِي بُنْيَانِهِ حُدُودًا دُونَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ فَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا ثُمَّ تَدَاوَلَتْهُمْ

مُلُوكُ يُونَانَ وَٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱسْتَفْحَلَ ٱلْمَلَكُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ ثُمَّ لِبَنِي حَشْمنَايَ مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ لِصِهْرِهِمْ هِيرُودُسَ وَلِبَنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ عَلَى بِنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَتَأَنَّقَ فِيهِ حَتَّى أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طِيطُشُ مِنْ مُلُوكِ ٱلرُّومِ وَغَلَبَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ خَرَّبَ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ مَكَانَهُ ثُمَّ أَخَذَ ٱلرُّومُ بِدِينِ ٱلْمَسِيحِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ ٱخْتَلَفَ حَالُ مُلُوكِ ٱلرُّومِ فِي ٱلْأَخْذِ بِدِينِ ٱلنَّصَارَى تَارَةً وَتَرْكِهِ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ وَتَنَصَّرَتْ أُمُّهُ هِيلَانَةُ وَٱرْتَحَلَتْ إِلَى ٱلْقُدْسِ فِي طَلَبِ ٱلْخَشَبَةِ ٱلَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا ٱلْمَسِيحُ بِزَعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا ٱلْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رُمِيَ بِخَشَبَتِهِ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَأُلْقِيَ عَلَيْهَا ٱلْقُمَامَاتُ وَٱلْقَاذُورَاتُ فَٱسْتَخْرَجَتِ ٱلْخَشَبَةَ وَبَنَتْ مَكَانَ تِلْكَ ٱلْقُمَامَاتِ كَنِيسَةَ ٱلْقُمَامَةِ كَأَنَّهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَرَّبَتْ مَا وَجَدَتْ مِنْ عِمَارَةِ ٱلْبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ ٱلزِّبْلِ وَٱلْقُمَامَاتِ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ حَتَّى غَطَّاهَا وَخَفِيَ مَكَانُهَا جَزَاءً بِزَعْمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ ٱلْمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ ٱلْقُمَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ وَهُوَ ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَبَقِيَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ ٱلْإِسْلَامُ وَحَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَسَأَلَ عَنِ ٱلصَّخْرَةِ فَأُرِيَ مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَاهَا ٱلزِّبْلُ وَٱلتُّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَدَاوَةِ وَعَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ مَا أَذِنَ ٱللّٰهُ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمِّ ٱلْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَمَا ثَبَتَ ثُمَّ ٱحْتَفَلَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سَنَنِ مَسَاجِدِ ٱلْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلْاِحْتِفَالِ كَمَا فَعَلَ فِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِٱلْمَدِينَةِ وَفِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ تُسَمِّيهِ بَلَاطَ ٱلْوَلِيدِ وَأَلْزَمَ مَلِكَ ٱلرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ ٱلْفَعَلَةَ وَٱلْمَالَ لِبِنَاءِ هٰذِهِ ٱلْمَسَاجِدِ وَأَنْ يُنَمِّقُوهَا بِٱلْفُسَيْفِسَاءِ فَأَطَاعَ لِذٰلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى مَا ٱقْتَرَحَهُ ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ ٱلْخِلَافَةِ أَعْوَامَ ٱلْخَمْسِمِائَةِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ فِي آخِرِهَا وَكَانَتْ فِي مَلَكَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ خُلَفَاءِ ٱلْقَاهِرَةِ مِنَ ٱلشِّيعَةِ وَٱخْتَلَّ أَمْرُهُمْ زَحَفَ ٱلْفِرَنْجَةُ إِلَى بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ فَمَلَكُوهُ وَمَلَكُوا مَعَهُ عَامَّةَ ثُغُورِ ٱلشَّامِ وَبَنَوْا عَلَى ٱلصَّخْرَةِ ٱلْمُقَدَّسَةِ مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعَظِّمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا حَتَّى إِذَا ٱسْتَقَلَّ صَلَاحُ ٱلدِّينِ بْنُ أَيُّوبَ ٱلْكُرْدِيُّ بِمُلْكِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَمَحَا أَثَرَ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَبِدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى ٱلشَّامِ وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ ٱلْفِرَنْجَةِ حَتَّى غَلَبَهُمْ عَلَى بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَعَلَى مَا كَانُوا مَلَكُوهُ

مِنْ ثُغُورِ ٱلشَّامِ وَذٰلِكَ لِنَحْوِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ ٱلْكَنِيسَةَ وَأَظْهَرَ ٱلصَّخْرَةَ وَبَنَى ٱلْمَسْجِدَ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَيْهِ ٱلْيَوْمَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَا يَعْرِضُ لَكَ ٱلْإِشْكَالُ ٱلْمَعْرُوفُ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلصَّحِيحِ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ فَقَالَ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ قِيلَ نَكَمْ بَيْنَهُمَا قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً فَإِنَّ ٱلْمُدَّةَ بَيْنَ بِنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَيْمَانَ لِأَنَّ سُلَيْمَانَ بَانِيهِ وَهُوَ يُنِيفُ عَلَى ٱلْأَلْفِ بِكَثِيرٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلْوَضْعِ فِي ٱلْحَدِيثِ لَيْسَ ٱلْبِنَاءَ وَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عُيِّنَ لِلْعِبَادَةِ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ ٱلْمَقْدِسِ عُيِّنَ لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ ٱلصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى ٱلصَّخْرَةِ هَيْكَلَ ٱلزُّهَرَةِ فَلَعَلَّ ذٰلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَكَانًا لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتِ ٱلْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ ٱلْأَصْنَامَ وَٱلتَّمَاثِيلَ حَوَالَيِ ٱلْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا وَٱلصَّابِئَةُ ٱلَّذِينَ بَنَوْا هَيْكَلَ ٱلزُّهَرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ مُدَّةُ ٱلْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بِنَاءٌ كَمَا هُوَ ٱلْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَتَفَهَّمْهُ فَفِيهِ حَلُّ هٰذَا ٱلْإِشْكَالِ. وَأَمَّا ٱلْمَدِينَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ بِيَثْرِبَ فَهِيَ مِنْ بِنَاءِ يَثْرِبَ بْنِ مَهْلَائِيلَ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنْ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ ثُمَّ جَاوَرَهُمْ بَنُو قَيْلَةَ مِنْ غَسَّانَ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا. ثُمَّ أُمِرَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِٱلْهِجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ ٱللهِ بِهَا فَهَاجَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَبُيُوتَهُ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي كَانَ ٱللهُ قَدْ أَعَدَّهُ لِذٰلِكَ وَشَرَّفَهُ فِي سَابِقِ أَزَلِهِ وَآوَاهُ أَبْنَاءُ قَيْلَةَ وَنَصَرُوهُ فَلِذٰلِكَ سُمُّوا ٱلْأَنْصَارَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ٱلْإِسْلَامِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى ٱلْكَلِمَاتِ وَغَلَبَ عَلَى قَوْمِهِ وَفَتَحَ مَكَّةَ وَمَلَكَهَا وَظَنَّ ٱلْأَنْصَارُ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَهَمَّهُمْ ذٰلِكَ فَخَاطَبَهُمْ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قُبِضَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَلْحَدُهُ ٱلشَّرِيفُ بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ ٱلصَّحِيحَةِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ وَوَقَعَ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلْعُلَمَاءِ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللهُ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّصِّ ٱلصَّرِيحِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ٱلْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ نَقَلَ ذٰلِكَ أَبُو ٱلْوَهَّابِ فِي ٱلْمَعُونَةِ إِلَى أَحَادِيثَ أُخْرَى

تَدُلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذَلِكَ وَخَالَفَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ . وَأَصْبَحَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثَانِيَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَجَنَحَ إِلَيْهَا الْأُمَمُ بِأَفْئِدَتِهِمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ فَانْظُرْ كَيْفَ تَدَرَّجَتِ الْفَضِيلَةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الْمُعَظَّمَةِ لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللهِ لَهَا وَتَفَهَّمْ سِرَّ اللهِ فِي الْكَوْنِ وَتَدْرِيجَهُ عَلَى تَرْتِيبٍ مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ فَلَا نَعْلَمُهُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَرَنْدِيبَ مِنْ جَزَائِرِ الْهِنْدِ لَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتْ لِلْأُمَمِ فِي الْقَدِيمِ مَسَاجِدُ يُعَظِّمُونَهَا عَلَى جِهَةِ الدِّيَانَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا بُيُوتُ النَّارِ لِلْفُرْسِ وَهَيَاكِلُ يُونَانَ وَبُيُوتُ الْعَرَبِ بِالْحِجَازِ الَّتِي أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَدْمِهَا فِي غَزَوَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا بُيُوتًا لَسْنَا مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقٍ دِينِيٍّ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا وَلَا إِلَى الْخَبَرِ عَنْهَا وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي التَّوَارِيخِ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الْأَخْبَارِ فَعَلَيْهِ بِهَا وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السابع

في ان المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْطَارَ كَانَتْ لِلْبَرْبَرِ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَكَانَ عُمْرَانُهَا كُلُّهُ بَدَوِيًّا وَلَمْ تَسْتَمِرَّ فِيهِمُ الْحَضَارَةُ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَحْوَالَهَا وَالدُّوَلُ الَّتِي مَلَكَتْهُمْ مِنَ الْإِفْرَنْجَةِ وَالْعَرَبِ لَمْ يَطُلْ أَمَدُ مُلْكِهِمْ فِيهِمْ حَتَّى تَرْسَخَ الْحَضَارَةُ مِنْهَا فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْبِدَاوَةِ وَشُؤُونُهَا فَكَانُوا إِلَيْهَا أَقْرَبَ فَلَمْ تَكْثُرْ مَبَانِيهِمْ وَأَيْضًا فَالصَّنَائِعُ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَرْبَرِ لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُ فِي الْبَدْوِ وَالصَّنَائِعُ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ وَإِنَّمَا تَتِمُّ الْمَبَانِي بِهَا فَلَا بُدَّ مِنَ الْحِذْقِ فِي تَعَلُّمِهَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْبَرْبَرِ انْتِحَالٌ لَهَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَشَوُّقٌ إِلَى الْمَبَانِي فَضْلًا عَنِ الْمُدُنِ وَأَيْضًا فَهُمْ أَهْلُ عَصَبِيَّاتٍ وَأَنْسَابٍ لَا يَخْلُو عَنْ ذَلِكَ جَمْعٌ مِنْهُمْ وَالْأَنْسَابُ وَالْعَصَبِيَّةُ أَجْنَحُ إِلَى الْبَدْوِ وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى الْمُدُنِ الدَّعَةُ وَالسُّكُونُ وَيَصِيرُ سَاكِنُهَا عِيَالًا عَلَى حَامِيَتِهَا فَتَجِدُ أَهْلَ الْبَدْوِ لِذَلِكَ يَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سُكْنَى الْمَدِينَةِ أَوِ الْإِقَامَةِ بِهَا فَلَا يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ إِلَّا التَّرَفُ وَالْغِنَى وَقَلِيلٌ مَا هُوَ فِي النَّاسِ فَلِذَلِكَ كَانَ عُمْرَانُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ بَدَوِيًّا أَهْلَ خِيَامٍ وَظَوَاعِنَ وَقَيَاطِنَ وَكُنَنٍ فِي الْجِبَالِ وَكَانَ عُمْرَانُ بِلَادِ الْعَجَمِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ قُرًى

وَأَمصارًا وَرَسَاتِيقَ مِنْ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقِ ٱلْعَجَمِ وَأَمْثَالِهَا لِأَنَّ ٱلْعَجَمَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَبَاهَوْنَ فِي صَرَاحَتِهَا وَٱلْتِحَامِهَا إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى ٱلْبَدْوِ لِأَهْلِ ٱلْأَنْسَابِ لِأَنَّ لُحْمَةَ ٱلنَّسَبِ أَقْرَبُ وَأَشَدُّ فَتَكُونُ عَصَبِيَّتُهُ كَذَلِكَ وَتَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى ٱلْبَدْوِ وَٱلتَّجَافِي عَنِ ٱلْمِصْرِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْبَسَالَةِ وَيُصَيِّرُهُ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فَٱفْهَمْهُ وَقِسْ عَلَيْهِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثامن

في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي ٱلْبَرْبَرِ بِعَيْنِهِ إِذِ ٱلْعَرَبُ أَيْضًا أَعْرَقُ فِي ٱلْبَدْوِ وَأَبْعَدُ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ وَأَيْضًا فَكَانُوا أَجَانِبَ مِنَ ٱلْمَمَالِكِ ٱلَّتِي ٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَلَمَّا تَمَلَّكُوهَا لَمْ يَنْفَسِحِ ٱلْأَمَدُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رُسُومَ ٱلْحَضَارَةِ مَعَ أَنَّهُمُ ٱسْتَغْنَوْا بِمَا وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيْضًا فَكَانَ ٱلدِّينُ أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ مَانِعًا مِنَ ٱلْمُغَالَاةِ أَوِ ٱلْبُنْيَانِ وَٱلْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ ٱلْقَصْدِ كَمَا عَهِدَ لَهُمْ عُمَرُ حِينَ ٱسْتَأْذَنُوهُ فِي بِنَاءِ ٱلْكُوفَةِ بِٱلْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَرِيقُ فِي ٱلْقَصَبِ ٱلَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ فَقَالَ ٱفْعَلُوا وَلَا يَزِيدَنَّ أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ وَلَا تَطَاوَلُوا فِي ٱلْبُنْيَانِ وَٱلْزَمُوا ٱلسُّنَّةَ تَلْزَمْكُمُ ٱلدَّوْلَةُ وَعَهِدَ إِلَى ٱلْوَفْدِ وَتَقَدَّمَ إِلَى ٱلنَّاسِ أَنْ لَا يَرْفَعُوا بُنْيَانًا فَوْقَ ٱلْقَدْرِ قَالُوا وَمَا ٱلْقَدْرُ قَالَ لَا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ ٱلسَّرَفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ ٱلْقَصْدِ فَلَمَّا بَعُدَ ٱلْعَهْدُ بِٱلدِّينِ وَٱلتَّحَرُّجُ فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمَقَاصِدِ وَغَلَبَتْ طَبِيعَةُ ٱلْمُلْكِ وَٱلتَّرَفِ وَٱسْتَخْدَمَ ٱلْعَرَبُ أُمَّةَ ٱلْفُرْسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمُ ٱلصَّنَائِعَ وَٱلْمَبَانِيَ وَدَعَتْهُمْ إِلَيْهَا أَحْوَالُ ٱلدَّعَةِ وَٱلتَّرَفِ فَحِينَئِذٍ شَيَّدُوا ٱلْمَبَانِيَ وَٱلْمَصَانِعَ وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيبًا بِٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ ٱلْأَمَدُ لِكَثْرَةِ ٱلْبِنَاءِ وَٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ فَٱلْفُرْسُ طَالَتْ مُدَّتُهُمْ آلَافًا مِنَ ٱلسِّنِينَ وَكَذَلِكَ ٱلْقِبْطُ وَٱلنَّبَطُ وَٱلرُّومُ وَكَذَلِكَ ٱلْعَرَبُ ٱلْأُولَى مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ وَٱلتَّبَابِعَةِ طَالَتْ آمَادُهُمْ وَرَسَخَتِ ٱلصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهَيَاكِلُهُمْ أَكْثَرَ عَدَدًا وَأَبْقَى عَلَى ٱلْأَيَّامِ أَثَرًا وَٱسْتَبْصِرْ فِي هٰذَا تَجِدْهُ كَمَا قُلْتُ وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل التاسع

في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ شَأْنُ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلْبُعْدُ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَا تَكُونُ ٱلْمَبَانِي وَثِيقَةً فِي تَشْيِيدِهَا وَلَهُ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَمَسُّ بِهِ وَذٰلِكَ قِلَّةُ مُرَاعَاتِهِمْ لِحُسْنِ ٱلِٱخْتِيَارِ فِي ٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱلْمَكَانِ وَطِيبِ ٱلْهَوَاءِ وَٱلْمِيَاهِ وَٱلْمَزَارِعِ وَٱلْمَرَاعِي فَإِنَّهُ بِٱلتَّفَاوُتِ فِي هٰذَا تَتَفَاوَتُ جُودَةُ ٱلْمِصْرِ وَرَدَاءَتُهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْعُمْرَانُ ٱلطَّبِيعِيُّ وَٱلْعَرَبُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا وَإِنَّمَا يُرَاعُونَ مَرَاعِيَ إِبِلِهِمْ خَاصَّةً لَا يُبَالُونَ بِٱلْمَاءِ طَابَ أَوْ خَبُثَ وَلَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ وَلَا يَسْأَلُونَ عَنْ زَكَاءِ ٱلْمَزَارِعِ وَٱلْمَنَابِتِ وَٱلْأَهْوِيَةِ لِٱنْتِقَالِهِمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَقْلِهِمِ ٱلْحُبُوبَ مِنَ ٱلْبَلَدِ ٱلْبَعِيدِ وَأَمَّا ٱلرِّيَاحُ فَٱلْقَفْرُ مُخْتَلِفٌ لِلْمَهَابِّ كُلِّهَا وَٱلظَّعْنُ كَفِيلٌ لَهُمْ بِطِيبِهَا لِأَنَّ ٱلرِّيَاحَ إِنَّمَا تَخْبُثُ مَعَ ٱلْقَرَارِ وَٱلسُّكْنَى وَكَثْرَةِ ٱلْفَضَلَاتِ وَٱنْظُرْ لَمَّا ٱخْتَطُّوا ٱلْكُوفَةَ وَٱلْبَصْرَةَ وَٱلْقَيْرَوَانَ كَيْفَ لَمْ يُرَاعُوا فِي ٱخْتِطَاطِهَا إِلَّا مَرَاعِيَ إِبِلِهِمْ وَمَا يَقْرُبُ مِنَ ٱلْقَفْرِ وَمَسَالِكِ ٱلظَّعْنِ فَكَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ ٱلْوَضْعِ ٱلطَّبِيعِيِّ لِلْمُدُنِ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا مَادَّةٌ تُمِدُّ عُمْرَانَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَقَدْ كَانَتْ مَوَاطِنُهَا غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ لِلْقَرَارِ وَلَمْ تَكُنْ فِي وَسَطِ ٱلْأُمَمِ فَيَعْمُرُهَا ٱلنَّاسُ فَلِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنَ ٱنْحِلَالِ أَمْرِهِمْ وَذَهَابِ عَصَبِيَّتِهِمِ ٱلَّتِي كَانَتْ سِيَاجًا لَهَا أَتَى عَلَيْهَا ٱلْخَرَابُ وَٱلِٱنْحِلَالُ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَٱللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل العاشر

في مبادي الخراب في الامصار

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَمْصَارَ إِذَا ٱخْتُطَّتْ أَوَّلًا تَكُونُ قَلِيلَةَ ٱلْمَسَاكِنِ وَقَلِيلَةَ آلَاتِ ٱلْبِنَاءِ مِنَ ٱلْحَجَرِ وَٱلْجِيرِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى ٱلْحِيطَانِ عِنْدَ ٱلتَّأَنُّقِ كَٱلزُّلَّجِ وَٱلرُّخَامِ وَٱلرَّبْجِ وَٱلزُّجَاجِ وَٱلْفُسَيْفِسَاءِ وَٱلصَّدَفِ فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا يَوْمَئِذٍ بَدَوِيًّا وَآلَاتُهَا فَاسِدَةً فَإِذَا عَظُمَ عُمْرَانُ ٱلْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا كَثُرَتِ ٱلْآلَاتُ بِكَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ حِينَئِذٍ وَكَثُرَتِ ٱلصُّنَّاعُ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذٰلِكَ كَمَا سَبَقَ بِشَأْنِهَا فَإِذَا تَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَخَفَّ سَاكِنُهَا قَلَّتِ ٱلصَّنَائِعُ لِأَجْلِ ذٰلِكَ وَفُقِدَتِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلْإِحْكَامُ وَٱلْمُعَالَاةُ عَلَيْهِ بِٱلتَّنْمِيقِ ثُمَّ تَقِلُّ ٱلْأَعْمَالُ لِعَدَمِ ٱلسَّاكِنِ فَيَقِلُّ جَلْبُ ٱلْآلَاتِ مِنَ ٱلْحَجَرِ وَٱلرُّخَامِ وَغَيْرِهِمَا

فَتَفْقِدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ ٱلْآلَاتِ ٱلَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَنْقُلُونَهَا مِنْ مَصْنَعٍ إِلَى مَصْنَعٍ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ ٱلْمَصَانِعِ وَٱلْقُصُورِ وَٱلْمَنَازِلِ بِقِلَّةِ ٱلْعُمْرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلًا ثُمَّ لَا تَزَالُ تُنْقَلُ مِنْ قَصْرٍ إِلَى قَصْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يُفْقَدَ ٱلْكَثِيرُ مِنْهَا جُمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى ٱلْبِدَاوَةِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱتِّخَاذِ ٱلطُّوبِ عِوَضًا عَنِ ٱلْحِجَارَةِ وَٱلْقُصُورِ عَنِ ٱلتَّنْمِيقِ بِٱلْكُلِّيَّةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ ٱلْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ ٱلْقُرَى وَٱلْمَدَرِ وَتَظْهَرُ عَلَيْهَا سِيمَاءُ ٱلْبِدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي ٱلتَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ ٱلْخَرَابِ إِنْ قُدِّرَ لَهَا بِهِ سُنَّةُ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَثَبَتَ أَنَّ ٱلْوَاحِدَ مِنَ ٱلْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعًا فِي عُمْرَانِهِمْ عَلَى ذَٰلِكَ وَٱلْحَاجَةُ ٱلَّتِي تُحَصَّلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشْتَدُّ ضَرُورَةُ ٱلْأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافًا فَٱلْقُوتُ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ مَثَلًا لَا يَسْتَقِلُّ ٱلْوَاحِدُ بِتَحْصِيلِ حِصَّتِهِ مِنْهُ وَإِذَا ٱنْتَدَبَ لِتَحْصِيلِهِ ٱلسِّتَّةُ أَوِ ٱلْعَشَرَةُ مِنْ حَدَّادٍ وَنَجَّارٍ لِلْآلَاتِ وَقَائِمٍ عَلَى ٱلْبَقَرِ وَإِثَارَةِ ٱلْأَرْضِ وَحِصَادِ ٱلسُّنْبُلِ وَسَائِرِ مُؤَنِ ٱلْفَلْحِ وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ أَوِ ٱجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْقُوتِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قُوتٌ لِأَضْعَافِهِمْ مَرَّاتٍ فَٱلْأَعْمَالُ بَعْدَ ٱلِٱجْتِمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ ٱلْعَامِلِينَ وَضَرُورَاتِهِمْ فَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ إِذَا وُزِّعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عَلَى مِقْدَارِ ضَرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ ٱكْتُفِيَ فِيهَا بِٱلْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَبَقِيَتِ ٱلْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَائِدَةً عَلَى ٱلضَّرُورَاتِ فَتُصْرَفُ فِي حَالَاتِ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَيَسْتَجْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَاضِهِ وَقِيَمِهِ فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَٰلِكَ حَظٌّ مِنَ ٱلْغِنَى وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْخَامِسِ فِي بَابِ ٱلْكَسْبِ وَٱلرِّزْقِ أَنَّ ٱلْمَكَاسِبَ إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ ٱلْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ ٱلْأَعْمَالُ كَثُرَتْ قِيَمُهَا بَيْنَهُمْ فَكَثُرَتْ مَكَاسِبُهُمْ ضَرُورَةً وَدَعَتْهُمْ أَحْوَالُ ٱلرَّفَهِ وَٱلْغِنَى إِلَى ٱلتَّرَفِ وَحَاجَاتِهِ مِنَ ٱلتَّأَنُّقِ فِي ٱلْمَسَاكِنِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلْآنِيَةِ وَٱلْمَاعُونِ وَٱتِّخَاذِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْمَرَاكِبِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيَمِهَا وَيُخْتَارُ ٱلْمَهَرَةُ فِي صِنَاعَتِهَا وَٱلْقِيَامِ عَلَيْهَا فَتَنْفُقُ أَسْوَاقُ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلصَّنَائِعِ وَيَكْثُرُ دَخْلُ ٱلْمِصْرِ

وَخَرْجُهُ وَيَحْصُلُ الْيَسَارُ لِمُنْتَحِلِي ذَٰلِكَ مِنْ قِبَلِ أَعْمَالِهِمْ وَمَتَى زَادَ الْعُمْرَانُ زَادَتِ الْأَعْمَالُ ثَانِيَةً ثُمَّ زَادَ التَّرَفُ تَابِعًا لِلْكَسْبِ وَزَادَتْ عَوَائِدُهُ وَحَاجَاتُهُ وَاسْتُنْبِطَتِ الصَّنَائِعُ لِتَحْصِيلِهَا فَزَادَتْ قِيمُهَا وَتَضَاعَفَ الْكَسْبُ فِي الْمَدِينَةِ لِذَٰلِكَ ثَانِيَةً وَنَفَقَتْ سُوقُ الْأَعْمَالِ بِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِ وَكَذَا فِي الزِّيَادَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الزَّائِدَةَ كُلَّهَا تَخْتَصُّ بِالتَّرَفِ وَالْغِنَى بِخِلَافِ الْأَعْمَالِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْمَعَاشِ فَالْمِصْرُ إِذَا فَضَلَ بِعُمْرَانٍ وَاحِدٍ فَفَضْلُهُ بِزِيَادَةِ كَسْبٍ وَرَفْهٍ بِعَوَائِدَ مِنَ التَّرَفِ لَا تُوجَدُ فِي الْآخَرِ فَمَا كَانَ عُمْرَانُهُ مِنَ الْأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ كَانَ حَالُ أَهْلِهِ فِي التَّرَفِ أَبْلَغَ مِنْ حَالِ الْمِصْرِ الَّذِي دُونَهُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْأَصْنَافِ الْقَاضِي مَعَ الْقَاضِي وَالتَّاجِرِ مَعَ التَّاجِرِ وَالصَّانِعِ مَعَ الصَّانِعِ وَالسُّوقِيِّ مَعَ السُّوقِيِّ وَالْأَمِيرِ مَعَ الْأَمِيرِ وَالشُّرَطِيِّ مَعَ الشُّرَطِيِّ * وَاعْتَبِرْ ذَٰلِكَ فِي الْمَغْرِبِ مَثَلًا بِحَالِ فَاسَ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِهِ مِثْلِ بِجَايَةَ وَتِلِمْسَانَ وَسَبْتَةَ تَجِدْ بَيْنَهُمَا بَوْنًا كَثِيرًا عَلَى الْجُمْلَةِ ثُمَّ عَلَى الْخُصُوصِيَّاتِ فَحَالُ الْقَاضِي بِفَاسَ أَوْسَعُ مِنْ حَالِ الْقَاضِي بِتِلِمْسَانَ وَهٰكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفِ أَهْلِهِ وَكَذَا أَيْضًا حَالُ تِلِمْسَانَ مَعَ وَهْرَانَ أَوِ الْجَزَائِرِ وَحَالُ وَهْرَانَ وَالْجَزَائِرِ مَعَ مَا دُونَهُمَا إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْمَدَرِ الَّذِينَ اعْتِمَالُهُمْ فِي ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فَقَطْ وَيُقَصِّرُونَ عَنْهَا وَمَا ذَٰلِكَ إِلَّا لِتَفَاوُتِ الْأَعْمَالِ فِيهَا فَكَأَنَّهَا كُلَّهَا أَسْوَاقٌ لِلْأَعْمَالِ وَالْخَرْجُ فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَى نِسْبَتِهِ فَالْقَاضِي بِفَاسَ دَخْلُهُ كِفَاءُ خَرْجِهِ وَكَذَا الْقَاضِي بِتِلِمْسَانَ وَحَيْثُ الدَّخْلُ وَالْخَرْجُ أَكْثَرُ تَكُونُ الْأَحْوَالُ أَعْظَمَ وَهُمَا بِفَاسَ أَكْثَرُ لِنَفَاقِ سُوقِ الْأَعْمَالِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرَفُ فَالْأَحْوَالُ أَضْخَمُ ثُمَّ كَذَا حَالُ وَهْرَانَ وَقُسَنْطِينِيَّةَ وَالْجَزَائِرِ وَبِسْكَرَةَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كَمَا قُلْنَاهُ إِلَى الْأَمْصَارِ الَّتِي لَا تُوَفِّي أَعْمَالُهَا بِضَرُورَاتِهَا وَلَا تُعَدُّ فِي الْأَمْصَارِ إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ فَلِذَٰلِكَ تَجِدُ أَهْلَ هٰذِهِ الْأَمْصَارِ الصَّغِيرَةِ ضُعَفَاءَ الْأَحْوَالِ مُتَقَارِبِينَ فِي الْفَقْرِ وَالْخَصَاصَةِ لِمَا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَفِي بِضَرُورَاتِهِمْ وَلَا يَفْضُلُ مَا يَتَأَثَّلُونَهُ كَسْبًا فَلَا تَنْمُو مَكَاسِبُهُمْ وَهُمْ لِذَٰلِكَ مَسَاكِينُ مَحَاوِيجُ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ النَّادِرِ وَاعْتَبِرْ ذَٰلِكَ حَتَّى فِي أَحْوَالِ الْفُقَرَاءِ وَالسُّؤَّالِ فَإِنَّ السَّائِلَ بِفَاسَ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ السَّائِلِ بِتِلِمْسَانَ أَوْ وَهْرَانَ وَلَقَدْ شَاهَدْتُ بِفَاسَ السُّؤَّالَ يَسْأَلُونَ أَيَّامَ الْأَضَاحِي أَثْمَانَ ضَحَايَاهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ يَسْأَلُونَ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَاقْتِرَاحِ الْمَآكِلِ مِثْلَ سُؤَالِ اللَّحْمِ وَالسَّمْنِ

وَعِلَاجِ ٱلطَّبْخِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَاعُونِ كَالْغِرْبَالِ وَٱلآنِيَةِ وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ مِثْلَ هٰذَا بِتِلْمِسَانَ أَوْ وَهْرَانَ لَاسْتُنْكِرَ وَعُنِّفَ وَزُجِرَ وَيَبْلُغُنَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَٱلْغِنَى فِي عَوَائِدِهِمْ مَا يُقْضَى مِنْهُ ٱلْعَجَبُ حَتَّى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْفُقَرَاءِ بِٱلْمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ مِنَ ٱلنُّقْلَةِ إِلَى مِصْرَ لِذٰلِكَ وَلِمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَنَّ شَأْنَ ٱلرَّفَهِ بِمِصْرَ أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَيَعْتَقِدُ ٱلْعَامَّةُ مِنَ ٱلنَّاسِ أَنَّ ذٰلِكَ لِزِيَادَةِ إِيثَارٍ فِي أَهْلِ تِلْكَ ٱلآفَاقِ عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالٍ مُخْتَزَنَةٍ لَدَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةً وَإِيثَارًا مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا تَعْرِفُهُ مِنْ أَنَّ عُمْرَانَ مِصْرَ وَٱلْقَاهِرَةِ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِ هٰذِهِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلَّتِي لَدَيْكَ فَعَظُمَتْ لِذٰلِكَ أَحْوَالُهُمْ. وَأَمَّا حَالُ ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ فَمُتَكَافِئٌ فِي جَمِيعِ ٱلْأَمْصَارِ وَمَتَى عَظُمَ ٱلدَّخْلُ عَظُمَ ٱلْخَرْجُ وَبِٱلْعَكْسِ وَمَتَى عَظُمَ ٱلدَّخْلُ وَٱلْخَرْجُ ٱتَّسَعَتْ أَحْوَالُ ٱلسَّاكِنِ وَوَسِعَ ٱلْمِصْرُ كُلُّ شَيْءٍ يَبْلُغُكَ مِنْ مِثْلِ هٰذَا فَلَا تُنْكِرْهُ وَٱعْتَبِرْهُ بِكَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْمَكَاسِبِ ٱلَّتِي يَسْهُلُ بِسَبَبِهَا ٱلْبَذْلُ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ مَعَ بُيُوتِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَكَيْفَ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهَا فِي هِجْرَانِهَا أَوْ غِشْيَانِهَا فَإِنَّ بُيُوتَ أَهْلِ ٱلنِّعَمِ وَٱلثَّرْوَةِ وَٱلْمَوَائِدِ ٱلْخَصِبَةِ مِنْهَا تَكْثُرُ بِسَاحَتِهَا وَأَفْنِيَتِهَا بِنَثْرِ ٱلْحُبُوبِ وَسَوَاقِطِ ٱلْفُتَاتِ فَيَزْدَحِمُ عَلَيْهَا غَوَاشِي ٱلنَّمْلِ وَٱلْخَشَاشِ وَيَلْحَقُ فَوْقَهَا عَصَائِبُ ٱلطُّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ بِطَانًا وَتَمْتَلِئَ شِبَعًا وَرِيًّا وَبُيُوتُ أَهْلِ ٱلْخَصَاصَةِ وَٱلْفُقَرَاءِ ٱلْكَاسِدَةِ أَرْزَاقُهُمْ لَا يَسْرِي بِسَاحَتِهَا دَبِيبٌ وَلَا يُحَلِّقُ بِجَوِّهَا طَائِرٌ وَلَا تَأْوِي إِلَى زَوَايَا بُيُوتِهِمْ فَأْرَةٌ وَلَا هِرَّةٌ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ تَلْتَقِطُ ٱلْحَبَّ م وَتُغْشَى مَنَازِلُ ٱلْكُرَمَاءِ

فَتَأَمَّلْ سِرَّ ٱللهِ تَعَالَى فِي ذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْ غَاشِيَةَ ٱلأَنَاسِيِّ بِغَاشِيَةِ ٱلْعُجْمِ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَفُتَاتِ ٱلْمَوَائِدِ بِفَضَلَاتِ ٱلرِّزْقِ وَٱلتَّرَفِ وَسُهُولَتِهَا عَلَى مَنْ يَبْذُلُهَا لِٱسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا فِي ٱلْأَكْثَرِ لِوُجُودِ أَمْثَالِهَا لَدَيْهِمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱتِّسَاعَ ٱلْأَحْوَالِ وَكَثْرَةَ ٱلنِّعَمِ فِي ٱلْعُمْرَانِ تَابِعٌ لِكَثْرَتِهِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ

الفصل الثاني عشر

في اسعار المدن

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَسْوَاقَ كُلَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهَا ٱلضَّرُورِيُّ وَهِيَ ٱلْأَقْوَاتُ

مِنَ ٱلْحِنْطَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا كَالْبَاقِلَاءِ وَٱلْبَصَلِ وَٱلثُّومِ وَأَشْبَاهِهِ وَمِنْهَا ٱلْحَاجِيُّ وَٱلْكَمَالِيُّ مِثْلُ ٱلْأُدُمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَاعُونِ وَٱلْمَرَاكِبِ وَسَائِرِ ٱلْمَصَانِعِ وَٱلْمَبَانِي فَإِذَا ٱسْتَبْحَرَ ٱلْمِصْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخُصَتْ أَسْعَارُ ٱلضَّرُورِيِّ مِنَ ٱلْقُوتِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَغَلَتْ أَسْعَارُ ٱلْكَمَالِيِّ مِنَ ٱلْأُدُمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَمَا يَتْبَعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ ٱلْمِصْرِ وَضَعُفَ عُمْرَانُهُ كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ. وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُبُوبَ مِنْ ضَرُورَاتِ ٱلْقُوتِ فَتَتَوَفَّرُ ٱلدَّوَاعِي عَلَى ٱتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يُهْمِلُ قُوتَ نَفْسِهِ وَلَا قُوتَ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِهِ أَوْ سَنَتِهِ فَيَعُمُّ ٱتِّخَاذُهَا أَهْلَ ٱلْمِصْرِ أَجْمَعَ أَوِ ٱلْأَكْثَرَ مِنْهُمْ فِي ذَٰلِكَ ٱلْمِصْرِ أَوْ فِيمَا قَرُبَ مِنْهُ لَا بُدَّ مِنْ ذَٰلِكَ وَكُلُّ مُتَّخِذٍ لِقُوتِهِ تَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تَسُدُّ خَلَّةَ كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذَٰلِكَ ٱلْمِصْرِ فَتَفْضُلُ ٱلْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ فَتَرْخُصُ أَسْعَارُهَا فِي ٱلْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ ٱلسِّنِينَ مِنَ ٱلْآفَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَلَوْلَا ٱحْتِكَارُ ٱلنَّاسِ لَهَا لِمَا يُتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ ٱلْآفَاتِ لَبُذِلَتْ دُونَ ثَمَنٍ وَلَا عِوَضٍ لِكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ. وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْمَرَافِقِ مِنَ ٱلْأُدُمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَمَا إِلَيْهَا فَإِنَّهَا لَا تَعُمُّ بِهَا ٱلْبَلْوَى وَلَا يَسْتَغْرِقُ ٱتِّخَاذُهَا أَعْمَالَ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ أَجْمَعِينَ وَلَا ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمِصْرَ إِذَا كَانَ مُسْتَبْحِرًا مَوْفُورَ ٱلْعُمْرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ ٱلتَّرَفِ تَوَفَّرَتْ حِينَئِذٍ ٱلدَّوَاعِي عَلَى طَلَبِ تِلْكَ ٱلْمَرَافِقِ وَٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْهَا كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ فَيَقْصُرُ ٱلْمَوْجُودُ مِنْهَا عَلَى ٱلْحَاجَاتِ قُصُورًا بَالِغًا وَيَكْثُرُ ٱلْمُسْتَامُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي نَفْسِهَا فَتَزْدَحِمُ أَهْلُ ٱلْأَغْرَاضِ وَيَبْذُلُ أَهْلُ ٱلرَّفْهِ وَٱلتَّرَفِ أَثْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي ٱلْغَلَاءِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَقَعُ فِيهَا ٱلْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ. وَأَمَّا ٱلصَّنَائِعُ وَٱلْأَعْمَالُ أَيْضًا فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمَوْفُورَةِ ٱلْعُمْرَانِ فَسَبَبُ ٱلْغَلَاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ ٱلْأَوَّلُ كَثْرَةُ ٱلْحَاجَةِ لِمَكَانِ ٱلتَّرَفِ فِي ٱلْمِصْرِ بِكَثْرَةِ عُمْرَانِهِ وَٱلثَّانِي ٱعْتِزَازُ أَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ لِخِدْمَتِهِمْ وَٱمْتِهَانُ أَنْفُسِهِمْ لِسُهُولَةِ ٱلْمَعَاشِ فِي ٱلْمَدِينَةِ بِكَثْرَةِ أَقْوَاتِهَا وَٱلثَّالِثُ كَثْرَةُ ٱلْمُتْرَفِينَ وَكَثْرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى ٱمْتِهَانِ غَيْرِهِمْ وَإِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلصُّنَّاعِ فِي مِهَنِهِمْ فَيَبْذُلُونَ فِي ذَٰلِكَ لِأَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَةِ أَعْمَالِهِمْ مُزَاحَمَةً وَمُنَافَسَةً فِي ٱلِٱسْتِئْثَارِ بِهَا فَيَعْتَزُّ ٱلْعُمَّالُ وَٱلصُّنَّاعُ وَأَهْلُ ٱلْحِرَفِ وَتَغْلُو أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ فِي ذَٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلْأَمْصَارُ ٱلصَّغِيرَةُ وَٱلْقَلِيلَةُ ٱلسَّاكِنِ فَأَقْوَاتُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقِلَّةِ ٱلْعَمَلِ فِيهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِصْرِهِمْ مِنْ عَدَمِ ٱلْقُوتِ

فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضاً حاجة بقلة الساكن وضعف الأحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وباب الحفر والجباة في منافع وصولها عن البيوعات لما يمسهم وبذلك كانت الأسعار في الأمصار اغلى من الاسعار في البادية إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة وكثرتها في الأمصار لا سيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالأندلس لهذا العهد وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها لقلة الأقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم أكثر أهل المعمور فلحاً فيما علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلح إلا قليل من أهل الصناعات والمهن أو الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع وإنما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه . ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرته وعمومه فصار ذلك سبباً لرخص الأقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب سواه .

الفصل الثالث عشر

في قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر

حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّرَفِ وَتُعْتَادُ تِلْكَ ٱلْحَاجَاتُ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضَرُورَاتٍ وَتَصِيرُ فِيهِ ٱلْأَعْمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذٰلِكَ عَزِيزَةً وَٱلْمَرَافِقُ غَالِيَةً بِٱزْدِحَامِ ٱلْأَغْرَاضِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ ٱلتَّرَفِ وَبِٱلْمَغَارِمِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلَّتِي تُوضَعُ عَلَى ٱلْأَسْوَاقِ وَٱلْبِيَاعَاتِ وَتُعْتَبَرُ فِي قِيَمِ ٱلْمَبِيعَاتِ وَيَعْظُمُ فِيهَا ٱلْغَلَاءُ فِي ٱلْمَرَافِقِ وَٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْأَعْمَالِ فَتَكْثُرُ لِذٰلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثْرَةً بَالِغَةً عَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهِ وَيَعْظُمُ خَرْجُهُ فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلْمَالِ ٱلْكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضَرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مَؤُونَتِهِمْ وَٱلْبَدَوِيُّ لَمْ يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيرًا سَاكِنًا بِمَكَانٍ كَاسِدِ ٱلْأَسْوَاقِ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ سَبَبُ ٱلْكَسْبِ فَلَمْ يَتَأَثَّلْ كَسْبًا وَلَا مَالًا فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ سُكْنَى ٱلْمِصْرِ ٱلْكَبِيرِ لِغَلَاءِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلَّتَهُ بِأَقَلِّ ٱلْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ قَلِيلُ عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَؤُونَتِهِ فَلَا يُضْطَرُّ إِلَى ٱلْمَالِ وَكُلُّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إِلَى ٱلْمِصْرِ وَسُكْنَاهُ مِنَ ٱلْبَادِيَةِ فَسَرِيعًا مَا يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَيَفْتَضِحُ فِي ٱسْتِيطَانِهِ إِلَّا مَنْ يُقَدِّمُ مِنْهُمْ تَأَثُّلَ ٱلْمَالِ وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ ٱلْحَاجَةِ وَيَجْرِي إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ مِنَ ٱلدَّعَةِ وَٱلتَّرَفِ فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ إِلَى ٱلْمِصْرِ وَيَنْتَظِمُ حَالُهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَتَرَفِهِمْ وَهٰكَذَا شَأْنُ بِدَاءَةِ عُمْرَانِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ

الفصل الرابع عشر

في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار

إِعْلَمْ أَنَّ مَا تَوَفَّرَ عُمْرَانُهُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ وَتَعَدَّدَتِ ٱلْأُمَمُ فِي جِهَاتِهِ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ ٱتَّسَعَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَمْصَارُهُمْ وَعَظُمَتْ دُوَلُهُمْ وَمَمَالِكُهُمْ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ وَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّهَا سَبَبُ لِلثَّرْوَةِ بِمَا يَفْضُلُ عَنْهَا بَعْدَ ٱلْوَفَاءِ بِٱلضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ ٱلسَّاكِنِ مِنَ ٱلْفَضْلَةِ ٱلْبَالِغَةِ عَلَى مِقْدَارِ ٱلْعُمْرَانِ وَكَثْرَتِهِ فَيَعُودُ عَلَى ٱلنَّاسِ كَسْبًا يَتَأَثَّلُونَهُ حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذٰلِكَ فِي فَصْلِ ٱلْمَعَاشِ وَبَيَانِ ٱلرِّزْقِ وَٱلْكَسْبِ فَيَتَزَيَّدُ ٱلرَّفَهُ لِذٰلِكَ وَتَتَّسِعُ ٱلْأَحْوَالُ وَيَجِيءُ ٱلتَّرَفُ وَٱلْغِنَى وَتَكْثُرُ ٱلْجِبَايَةُ لِلدَّوْلَةِ بِنَفَاقِ ٱلْأَسْوَاقِ فَيَكْثُرُ مَالُهَا وَيَشْمَخُ سُلْطَانُهَا وَتَتَفَنَّنُ فِي ٱتِّخَاذِ ٱلْمَعَاقِلِ وَٱلْحُصُونِ وَٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ وَتَشْيِيدِ ٱلْأَمْصَارِ. وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِأَقْطَارِ ٱلْمَشْرِقِ مِثْلِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَعِرَاقِ ٱلْعَجَمِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلصِّينِ وَنَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ كُلِّهَا

وأقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف وكذا تجار أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين فإنه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبان بحديثها وربما تتلقى بالإنكار في غالب الأمر ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار إنما هو من بلاد السودان وهي إلى المغرب أقرب وجميع ما في أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيدا موفورا لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال ولا استغنوا عن أموال الناس بالجملة. ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد المشرق أكثر منها حصصا في مواليد أهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه وهم إنما أعطوا في ذلك السبب النجومي وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لا إن ذلك لمجرد الأثر النجومي فقد فهمت مما أشرنا لك أولا أنه لا يستقل بذلك وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه. واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر أفريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته وكانت أموال الدولة بحيث حمل

جَوْهَرُ ٱلْكَاتِبُ فِي سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ أَلْفَ حِمْلٍ مِنَ ٱلْمَالِ يَسْتَعِدُّ بِهَا لِأَرْزَاقِ ٱلْجُنُودِ وَأَعْطِيَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِ ٱلْغُزَاةِ وَقُطْرُ ٱلْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلْقَدِيمِ دُونَ أَفْرِيقِيَّةَ فَلَمْ يَكُنْ بِٱلْقَلِيلِ فِي ذٰلِكَ وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دُوَلِ ٱلْمُوَحِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجِبَايَاتُهُ مَوْفُورَةً وَهُوَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قَدْ أَقْصَرَ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ وَتَنَاقُصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمْرَانِ ٱلْبَرْبَرِ فِيهِ أَكْثَرُهُ وَنَقَصَ عَنْ مَعْهُودِهِ نَقْصًا ظَاهِرًا مَحْسُوسًا وَكَادَ أَنْ يَلْحَقَ فِي أَحْوَالِهِ بِمِثْلِ أَحْوَالِ أَفْرِيقِيَّةَ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمْرَانُهُ مُتَّصِلًا مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ إِلَى بِلَادِ ٱلسُّودَانِ فِي طُولِ مَا بَيْنَ ٱلسُّوسِ ٱلْأَقْصَى وَبَرْقَةَ وَهِيَ ٱلْيَوْمَ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارٌ وَخَلَاءٌ وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسِيفِ ٱلْبَحْرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ ٱلتُّلُولِ وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الخامس عشر

في تأثل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها

إِعْلَمْ أَنَّ تَأَثُّلَ ٱلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ ٱلْكَثِيرَةِ لِأَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْمُدُنِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَلَا فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ إِذْ لَيْسَ يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ مَا يَمْلِكُ بِهِ ٱلْأَمْلَاكَ ٱلَّتِي تَخْرُجُ قِيمَتُهَا عَنِ ٱلْحَدِّ وَلَوْ بَلَغَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي ٱلرَّفَهِ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ وَإِنَّمَا يَكُونُ مُلْكُهُمْ وَتَأَثُّلُهُمْ لَهَا تَدْرِيجًا إِمَّا بِٱلْوِرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّى تَتَأَدَّى أَمْلَاكُ ٱلْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى ٱلْوَاحِدِ وَأَكْثَرَ لِذٰلِكَ أَوْ أَنْ يَكُونَ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ فَإِنَّ ٱلْعَقَارَ فِي آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَوَّلِ ٱلْأُخْرَى عِنْدَ فَنَاءِ ٱلْحَامِيَةِ وَخَرْقِ ٱلسِّيَاجِ وَتَدَاعِي ٱلْمِصْرِ إِلَى ٱلْخَرَابِ تَقِلُّ ٱلْغِبْطَةُ بِهِ لِقِلَّةِ ٱلْمَنْفَعَةِ فِيهَا بِتَلَاشِي ٱلْأَحْوَالِ فَتَرْخُصُ قِيَمُهَا وَتُتَمَلَّكُ بِٱلْأَثْمَانِ ٱلْيَسِيرَةِ وَتَتَخَطَّى بِٱلْمِيرَاثِ إِلَى مُلْكٍ آخَرَ وَقَدِ ٱسْتَجَدَّ ٱلْمِصْرُ شَبَابَهُ بِٱسْتِحَالِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَٱنْتَظَمَتْ لَهُ أَحْوَالٌ رَائِقَةٌ حَسَنَةٌ تَحْصُلُ مَعَهَا ٱلْغِبْطَةُ فِي ٱلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعْظُمُ قِيَمُهَا وَيَكُونُ لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْأَوَّلِ وَهٰذَا مَعْنَى ٱلْحَوَالَةِ فِيهَا وَيُصْبِحُ مَالِكُهَا مِنْ أَغْنَى أَهْلِ ٱلْمِصْرِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِسَعْيِهِ وَٱكْتِسَابِهِ إِذْ قُدْرَتُهُ تَعْجِزُ عَنْ مِثْلِ ذٰلِكَ. وَأَمَّا فَوَائِدُ ٱلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ لِمَالِكِهَا فِي حَاجَاتِ مَعَاشِهِ إِذْ هِيَ لَا تَفِي بِعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْغَالِبِ لِسَدِّ ٱلْخَلَّةِ وَضَرُورَةِ ٱلْمَعَاشِ وَٱلَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ مَشْيَخَةِ ٱلْبُلْدَانِ أَنَّ ٱلْقَصْدَ بِٱقْتِنَاءِ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ

إِنَّمَا هُوَ ٱلْخَشْيَةُ عَلَى مَنْ يَتْرُكُ خَلْفَهُ مِنَ ٱلذُّرِّيَّةِ ٱلضُّعَفَاءِ لِيَكُونَ مَرْبَاهُمْ بِهِ وَرِزْقُهُ فِيهِ وَنُشُوؤُهُمْ بِفَائِدَتِهِ مَا دَامُوا عَاجِزِينَ عَنِ ٱلِاكْتِسَابِ فَإِذَا ٱقْتَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ ٱلْمَكَاسِبِ سَعَوا فِيهَا بِأَنْفُسِهِمْ وَرُبَّمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْوُلْدِ مَنْ يَعْجِزُ عَنِ ٱلتَّكَسُّبِ لِضُعْفٍ فِي بَدَنِهِ أَوْ آفَةٍ فِي عَقْلِهِ ٱلْمَعَاشِيِّ فَيَكُونُ ذَلِكَ ٱلْعَقَارُ قِوَامًا لِحَالِهِ هٰذَا قَصْدُ ٱلْمُتْرَفِينَ فِي ٱقْتِنَائِهِ وَأَمَّا ٱلتَّمَوُّلُ مِنْهُ وَإِجْرَاءُ أَحْوَالِ ٱلْمُتْرَفِينَ فَلَا وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ مِنْهُ لِلْقَلِيلِ أَوِ ٱلنَّادِرِ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَحُصُولِ ٱلْكَثْرَةِ ٱلْبَالِغَةِ مِنْهُ وَٱلْعَالِي فِي جِنْسِهِ وَقِيمَتِهِ فِي ٱلْمِصْرِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ رُبَّمَا ٱمْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْيُنُ ٱلْأُمَرَاءِ وَٱلْوُلَاةِ وَٱغْتَصَبُوهُ فِي ٱلْغَالِبِ أَوْ أَرَادُوهُ عَلَى بَيْعِهِ مِنْهُمْ وَنَالَتْ أَصْحَابَهُ مِنْهُ مَضَارُّ وَمَعَاطِبُ وَٱللّٰهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ

الفصل السادس عشر

في حاجات المتمولين من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَرِيَّ إِذَا عَظُمَ تَمَوُّلُهُ وَكَثُرَ لِلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ تَأَثُّلُهُ وَأَصْبَحَ أَغْنَى أَهْلِ ٱلْمِصْرِ وَرَمَقَتْهُ ٱلْعُيُونُ بِذَلِكَ وَٱنْفَسَحَتْ أَحْوَالُهُ فِي ٱلتَّرَفِ وَٱلْعَوَائِدِ زَاحَمَ عَلَيْهَا ٱلْأُمَرَاءَ وَٱلْمُلُوكَ وَغَصُّوا بِهِ وَلِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلْعُدْوَانِ تَمْتَدُّ أَعْيُنُهُمْ إِلَى تَمَلُّكِ مَا بِيَدِهِ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ وَيَتَحَيَّلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ حَتَّى يُحَصِّلُوهُ فِي رِبْقَةِ حُكْمٍ سُلْطَانِيٍّ وَسَبَبٍ مِنَ ٱلْمُؤَاخَذَةِ ظَاهِرٍ يُنْتَزَعُ بِهِ مَالُهُ وَأَكْثَرُ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ جَائِرَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ إِذِ ٱلْعَدْلُ ٱلْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي ٱلْخِلَافَةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ ٱللُّبْثِ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكًا عَضُوضًا فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ ٱلْمَالِ وَٱلثَّرْوَةِ ٱلشَّهِيرَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ مِنْ حَامِيَةٍ تَذُودُ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لِلْمَلِكِ أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ أَوْ عَصَبِيَّةٍ يَتَحَامَاهَا ٱلسُّلْطَانُ فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَرْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ ٱلتَّعَدِّي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ نَهْبًا بِوُجُوهِ ٱلتَّحَيُّلَاتِ وَأَسْبَابِ ٱلْحُكَّامِ وَٱللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِ

الْعُمْرَانِ زِيَادَةً تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ الرَّفَهِ وَتَفَاوُتِ الْأُمَمِ فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ تَفَاوُتاً غَيْرَ مُنْحَصِرٍ وَتَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثْرَةِ التَّفَنُّنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَائِعِ وَيَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقَوَمَةِ عَلَيْهِ وَالْمَهَرَةِ فِيهِ وَبِقَدَرِ مَا يَتَزَيَّدُ مِنْ أَصْنَافِهَا تَتَزَيَّدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ الْجِيلُ بِهَا وَمَتَى اتَّصَلَتِ الْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتْ تِلْكَ الصِّنَاعَاتُ حَذَقَ أُولَئِكَ الصُّنَّاعُ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَالْأَعْصَارُ بِطُولِهَا وَانْفِسَاحِ أَمَدِهَا وَتَكْرِيرِ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا اسْتِحْكَاماً وَرُسُوخاً وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ لِاسْتِبْحَارِ الْعُمْرَانِ وَكَثْرَةِ الرَّفَهِ فِي أَهْلِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ تَجْمَعُ أَمْوَالَ الرَّعِيَّةِ وَتُنْفِقُهَا فِي بِطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَتَّسِعُ أَحْوَالُهُمْ بِالْجَاهِ أَكْثَرَ مِنِ اتِّسَاعِهَا بِالْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ مِنَ الرَّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ فِي مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ وَهُمُ الْأَكْثَرُ فَتَعْظُمُ لِذَلِكَ ثَرْوَتُهُمْ وَيَكْثُرُ غِنَاهُمْ وَتَتَزَيَّدُ عَوَائِدُ التَّرَفِ وَمَذَاهِبُهُ وَتَسْتَحْكِمُ لَدَيْهِمُ الصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ فُنُونِهِ وَهَذِهِ هِيَ الْحَضَارَةُ . وَلِهَذَا تَجِدُ الْأَمْصَارَ الَّتِي فِي الْقَاصِيَةِ وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةَ الْعُمْرَانِ تَغْلِبُ عَلَيْهَا أَحْوَالُ الْبَدَاوَةِ وَتَبْعُدُ عَنِ الْحَضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا بِخِلَافِ الْمُدُنِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِي الْأَقْطَارِ الَّتِي هِيَ مَرْكَزُ الدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمُجَاوَرَةِ السُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ أَمْوَالِهِ فِيهِمْ كَالْمَاءِ يَخْضَرُّ مَا قَرُبَ مِنْهُ فَمَا قَرُبَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْجُفُوفِ عَلَى الْبُعْدِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ السُّلْطَانَ وَالدَّوْلَةَ سُوقٌ لِلْعَالَمِ فَالْبَضَائِعُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي السُّوقِ وَمَا قَرُبَ مِنْهُ وَإِذَا أُبْعِدَتْ عَنِ السُّوقِ افْتُقِدَتِ الْبَضَائِعُ جُمْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا اتَّصَلَتْ تِلْكَ الدَّوْلَةُ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ اسْتَحْكَمَتِ الْحَضَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوخاً وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْيَهُودِ لَمَّا طَالَ مُلْكُهُمْ بِالشَّامِ نَحْواً مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ رَسَخَتْ حَضَارَتُهُمْ وَحَذَقُوا فِي أَحْوَالِ الْمَعَاشِ وَعَوَائِدِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِي صِنَاعَاتِهِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَنْزِلِ حَتَّى إِنَّهَا لَتُؤْخَذُ عَنْهُمْ فِي الْغَالِبِ إِلَى الْيَوْمِ وَرَسَخَتِ الْحَضَارَةُ أَيْضاً وَعَوَائِدُهَا فِي الشَّامِ مِنْهُمْ وَمِنْ دَوْلَةِ الرُّومِ بَعْدَهُمْ سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ فَكَانُوا فِي غَايَةِ الْحَضَارَةِ . وَكَذَلِكَ أَيْضاً الْقِبْطُ دَامَ مُلْكُهُمْ فِي الْخَلِيقَةِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ فَرَسَخَتْ عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ فِي بَلَدِهِمْ مِصْرَ وَأَعْقَبَهُمْ بِهَا مُلْكُ الْيُونَانِ وَالرُّومِ ثُمَّ مُلْكُ الْإِسْلَامِ النَّاسِخُ لِلْكُلِّ فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ بِهَا مُتَّصِلَةً وَكَذَلِكَ أَيْضاً رَسَخَتْ

عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتبابعة الآلافا
من السنين وأعقبهم ملك مصر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس
بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافا من السنين فلم
يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضا
رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط
ثم ما أعقبها من ملك بني أمية آلافا من السنين وكلتا الدولتين عظيمة فاتصلت فيها
عوائد الحضارة واستحكمت . وأما أفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام
ملك ضخم إنما قطع الإفرنجة إلى أفريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة
البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأوفاز وأهل المغرب
لم تجاورهم دولة وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر ولما جاء
الله بالإسلام وملك العرب أفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلا
أول الإسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بأفريقية والمغرب
لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه إذ كانوا برابر منغمسين في البداوة
ثم انتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة المطغري أيام هشام
ابن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وإن بايعوا
لإدريس فلا تعد دولته فيهم عربية لأن البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب
فيها كثير عدد وبقيت أفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب فكان لهم من الحضارة
بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث
ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة
وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب
بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها وإلى هذا
العهد يونس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف فتجد له من الحضارة
في شؤن منزله وعوائد أحواله آثارا ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا
في أكثر أمصار أفريقية وليس كذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بأفريقية
أكثر أمدا منذ عهد الأغالبة والشيعة وصنهاجة وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة

ٱلْمُوَحِّدِينَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ حَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱسْتَحْكَمَتْ بِهِ عَوَائِدُهَا بِمَا كَانَ لِدَوْلَتِهِمْ مِنَ ٱلِٱسْتِيلَاءِ عَلَى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱنْتَقَلَ ٱلْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِهَا إِلَيْهِمْ طَوْعًا وَكُرْهًا وَكَانَتْ مِنِ ٱتِّسَاعِ ٱلنِّطَاقِ مَا عَلِمْتَ فَكَانَ فِيهَا حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱسْتِحْكَامِهَا وَمُعْظَمُهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ أَهْلُ شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ عِنْدَ جَالِيَةِ ٱلنَّصَارَى إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ فَأَبْقَوْا فِيهَا وَبِأَمْصَارِهَا مِنَ ٱلْحَضَارَةِ آثَارًا وَمُعْظَمُهَا بِتُونِسَ ٱمْتَزَجَتْ بِحَضَارَةِ مِصْرَ وَمَا يَنْقُلُهُ ٱلْمُسَافِرُونَ مِنْ عَوَائِدِهَا فَكَانَ بِذَٰلِكَ لِلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ عَفَّى عَلَيْهِ ٱلْخَلَاءُ وَرَجَعَ إِلَى أَعْقَابِهِ وَعَادَ ٱلْبَرْبَرُ بِٱلْمَغْرِبِ إِلَى أَدْيَانِهِمْ مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ وَٱلْخُشُونَةِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَآثَارُ ٱلْحَضَارَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ أَكْثَرُ مِنْهَا بِٱلْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ بِمَا تَدَاوَلَ فِيهَا مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلسَّالِفَةِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَلِقُرْبِ عَوَائِدِهِمْ مِنْ عَوَائِدِ أَهْلِ مِصْرَ بِكَثْرَةِ ٱلْمُتَرَدِّدِينَ بَيْنَهُمْ. فَتَفَطَّنْ لِهَٰذَا ٱلسِّرِّ فَإِنَّهُ خَفِيٌّ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱعْلَمْ أَنَّهَا أُمُورٌ مُتَنَاسِبَةٌ وَهِيَ حَالُ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ وَكَثْرَةِ ٱلْأُمَّةِ أَوِ ٱلْجِيلِ وَعِظَمِ ٱلْمَدِينَةِ أَوِ ٱلْمِصْرِ وَكَثْرَةِ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلْيَسَارِ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ وَٱلْمُلْكَ صُورَةُ ٱلْخَلِيقَةِ وَٱلْعُمْرَانِ وَكُلُّهَا مَادَّةٌ لَهَا مِنَ ٱلرَّعَايَا وَٱلْأَمْصَارِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَأَمْوَالُ ٱلْجِبَايَةِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وَيَسَارُهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ وَإِذَا أَفَاضَ ٱلسُّلْطَانُ عَطَاءَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي أَهْلِهَا ٱنْبَثَّتْ فِيهِمْ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ ثُمَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ فَهِيَ ذَاهِبَةٌ عَنْهُمْ فِي ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْخَرَاجِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي ٱلْعَطَاءِ فَعَلَى نِسْبَةِ حَالِ ٱلدَّوْلَةِ يَكُونُ يَسَارُ ٱلرَّعَايَا وَعَلَى نِسْبَةِ يَسَارِ ٱلرَّعَايَا وَكَثْرَتِهِمْ يَكُونُ مَالُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَصْلُهُ كُلُّهُ ٱلْعُمْرَانُ وَكَثْرَتُهُ فَٱعْتَبِرْهُ وَتَأَمَّلْهُ فِي ٱلدُّوَلِ تَجِدْهُ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها موذنة بفساده

قَدْ بَيَّنَّا لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ وَٱلدَّوْلَةَ غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّ ٱلْحَضَارَةَ غَايَةٌ لِلْبَدَاوَةِ وَأَنَّ ٱلْعُمْرَانَ كُلَّهُ مِنْ بَدَاوَةٍ وَحَضَارَةٍ وَمُلْكٍ وَسُوقَةٍ لَهُ عُمْرٌ مَحْسُوسٌ كَمَا أَنَّ لِلشَّخْصِ ٱلْوَاحِدِ مِنْ أَشْخَاصِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ عُمْرًا مَحْسُوسًا وَتَبَيَّنَ فِي ٱلْمَعْقُولِ وَٱلْمَنْقُولِ أَنَّ ٱلْأَرْبَعِينَ لِلْإِنْسَانِ غَايَةٌ فِي تَزَايُدِ قُوَاهُ وَنُمُوِّهَا وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنَّ ٱلْأَرْبَعِينَ وَقَفَتِ ٱلطَّبِيعَةُ عَنْ أَثَرِ ٱلنُّشُوءِ وَٱلنُّمُوِّ بُرْهَةً ثُمَّ تَأْخُذُ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلِٱنْحِطَاطِ فَلْتَعْلَمْ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ فِي ٱلْعُمْرَانِ أَيْضًا

كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَايَةٌ لَا مَزِيدَ وَرَاءَهَا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلتَّرَفَ وَٱلنِّعْمَةَ إِذَا حَصَلَا لِأَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ دَعَاهُمْ بِطَبْعِهِ إِلَى مَذَاهِبِ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّخَلُّقِ بِعَوَائِدِهَا وَٱلْحَضَارَةُ كَمَا عَلِمْتَ هِيَ ٱلتَّفَنُّنُ فِي ٱلتَّرَفِ وَٱسْتِجَادَةِ أَحْوَالِهِ وَٱلْكَلَفُ بِٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي تُؤَنِّقُ مِنْ أَصْنَافِهِ وَسَائِرِ فُنُونِهِ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمُهَيِّئَةِ لِلْمَطَابِخِ أَوِ ٱلْمَلَابِسِ أَوِ ٱلْمَبَانِي أَوِ ٱلْفُرُشِ أَوِ ٱلْآنِيَةِ وَلِسَائِرِ أَحْوَالِ ٱلْمَنْزِلِ وَلِلتَّأَنُّقِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ صَنَائِعُ كَثِيرَةٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ ٱلْبَدَاوَةِ وَعَدَمِ ٱلتَّأَنُّقِ فِيهَا وَإِذَا بَلَغَ ٱلتَّأَنُّقُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمَنْزِلِيَّةِ ٱلْغَايَةَ تَبِعَهُ طَاعَةُ ٱلشَّهَوَاتِ فَتَتَلَوَّنُ ٱلنَّفْسُ مِنْ تِلْكَ ٱلْعَوَائِدِ بِأَلْوَانٍ كَثِيرَةٍ لَا يَسْتَقِيمُ حَالُهَا مَعَهَا فِي دِينِهَا وَلَا دُنْيَاهَا أَمَّا دِينُهَا فَلِاسْتِحْكَامِ صِبْغَةِ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي يَعْسُرُ نَزْعُهَا وَأَمَّا دُنْيَاهَا فَلِكَثْرَةِ ٱلْحَاجَاتِ وَٱلْمُؤُنَاتِ ٱلَّتِي تُطَالِبُ بِهَا ٱلْعَوَائِدُ وَيَعْجِزُ وَيَنْكَبُ عَنِ ٱلْوَفَاءِ بِهَا. وَبَيَانُهُ أَنَّ ٱلْمِصْرَ بِٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْحَضَارَةِ تَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِهِ وَٱلْحَضَارَةُ تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ ٱلْعُمْرَانِ فَمَتَى كَانَ ٱلْعُمْرَانُ أَكْثَرَ كَانَتِ ٱلْحَضَارَةُ أَكْمَلَ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلْمِصْرَ ٱلْكَثِيرَ ٱلْعُمْرَانِ يَخْتَصُّ بِٱلْغَلَاءِ فِي أَسْوَاقِهِ وَأَسْعَارِ حَاجَتِهِ ثُمَّ تَزِيدُهَا ٱلْمُكُوسُ غَلَاءً لِأَنَّ ٱلْحَضَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ ٱنْتِهَاءِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱسْتِفْحَالِهَا وَهُوَ زَمَنُ وَضْعِ ٱلْمُكُوسِ فِي ٱلدُّوَلِ لِكَثْرَةِ خَرْجِهَا حِينَئِذٍ كَمَا تَقَدَّمَ وَٱلْمُكُوسُ تَعُودُ إِلَى ٱلْبِيَاعَاتِ بِٱلْغَلَاءِ لِأَنَّ ٱلسُّوقَةَ وَٱلتُّجَّارَ كُلُّهُمْ يَحْتَسِبُونَ عَلَى سِلَعِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ جَمِيعَ مَا يُنْفِقُونَهُ حَتَّى فِي مُؤْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فَيَكُونُ ٱلْمَكْسُ لِذٰلِكَ دَاخِلًا فِي قِيَمِ ٱلْمَبِيعَاتِ وَأَثْمَانِهَا فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِ ٱلْحَضَارَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ ٱلْقَصْدِ إِلَى ٱلْإِسْرَافِ وَلَا يَجِدُونَ وَلِيجَةً عَنْ ذٰلِكَ لِمَا مَلَكَهُمْ مِنْ أَثَرِ ٱلْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا وَتَذْهَبُ مَكَاسِبُهُمْ كُلُّهَا فِي ٱلنَّفَقَاتِ وَيَتَتَابَعُونَ فِي ٱلْإِمْلَاقِ وَٱلْخَصَاصَةِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمِ ٱلْفَقْرُ وَيَقِلُّ ٱلْمُسْتَامُونَ لِلْبَضَائِعِ فَتَكْسُدُ ٱلْأَسْوَاقُ وَيَفْسُدُ حَالُ ٱلْمَدِينَةِ وَدَاعِيَةُ ذٰلِكَ كُلِّهِ إِفْرَاطُ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ وَهٰذِهِ مُفْسِدَاتٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ عَلَى ٱلْعُمُومِ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَٱلْعُمْرَانِ وَأَمَّا فَسَادُ أَهْلِهَا فِي ذَاتِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا عَلَى ٱلْخُصُوصِ فَمِنَ ٱلْكَدِّ وَٱلتَّعَبِ فِي حَاجَاتِ ٱلْعَوَائِدِ وَٱلتَّلَوُّنِ بِأَلْوَانِ ٱلشَّرِّ فِي تَحْصِيلِهَا وَمَا يَعُودُ عَلَى ٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلضَّرَرِ بَعْدَ تَحْصِيلِهَا بِحُصُولِ لَوْنٍ آخَرَ مِنْ أَلْوَانِهَا فَلِذٰلِكَ يَكْثُرُ مِنْهُمُ ٱلْفِسْقُ وَٱلشَّرُّ وَٱلسَّفْسَفَةُ وَٱلتَّحَيُّلُ عَلَى تَحْصِيلِ ٱلْمَعَاشِ مِنْ وَجْهِهِ وَمِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ وَتَنْصَرِفُ ٱلنَّفْسُ إِلَى ٱلْفِكْرِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْغَوْصِ عَلَيْهِ وَٱسْتِجْمَاعِ ٱلْحِيلَةِ لَهُ فَتَجِدُهُمْ أَجْرِيَاءَ عَلَى

الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البياعات ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الأقارب وذوي المحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك وتجدهم أيضاً أبصر بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه أن ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوار وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات وذلك أن الناس بشر متماثلون وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة بأي وجه كان وفسد خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . ووجهه حينئذ ان مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم أحوالهم وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب حتى أن كثيراً من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور وليس المراد ذلك ولا أنه خاصية في النارنج وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم إن النارنج والليم والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط ولا تغرس إلا بعد التفنن في مذاهب الترف وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من هذا الباب إذ الدفلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف . ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات

ٱلْبَطْنِ مِنَ ٱلْمَآكِلِ وَٱلْمَلَاذِ فَيُفْضِي ذٰلِكَ إِلَى فَسَادِ ٱلنَّوْعِ فَٱفْهَمْ ذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْ بِهِ أَنَّ غَايَةَ ٱلْعُمْرَانِ هِيَ ٱلْحَضَارَةُ وَٱلتَّرَفُ وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ ٱنْقَلَبَ إِلَى ٱلْفَسَادِ وَأَخَذَ فِي ٱلْهَرَمِ كَٱلْأَعْمَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْحَيَوَانَاتِ بَلْ نَقُولُ إِنَّ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْحَاصِلَةَ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ هِيَ عَيْنُ ٱلْفَسَادِ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِٱقْتِدَارِهِ عَلَى جَلْبِ مَنَافِعِهِ وَدَفْعِ مَضَارِّهِ وَٱسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْحَضَرِيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ حَاجَاتِهِ إِمَّا عَجْزًا لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلدَّعَةِ أَوْ تَرَفُّعًا لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْبَى فِي ٱلنَّعِيمِ وَٱلتَّرَفِ وَكِلَا ٱلْأَمْرَيْنِ ذَمِيمٌ وَكَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ ٱلْمَضَارِّ وَٱسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْحَضَرِيُّ بِمَا قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّرَفِ وَٱلنَّعِيمِ فِي قَهْرِ ٱلتَّأْدِيبِ فَهُوَ بِذٰلِكَ عِيَالٌ عَلَى ٱلْحَامِيَةِ ٱلَّتِي تُدَافِعُ عَنْهُ ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ أَيْضًا غَالِبًا بِمَا فَسَدَتْ مِنْهُ ٱلْعَوَائِدُ وَطَاعَتُهَا وَمَا تَلَوَّنَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ مِنْ مَلَكَاتِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَإِذَا فَسَدَ ٱلْإِنْسَانُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى أَخْلَاقِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ فَسَدَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ وَصَارَ مَسْخًا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَبِهَا ٱلْاعْتِبَارُ كَأَنَّ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّوْنَ عَلَى ٱلْحَضَارَةِ وَخُلُقِهَا مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ دَوْلَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ سِنُّ ٱلْوُقُوفِ لِعُمْرِ ٱلْعَالَمِ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَٱلدَّوْلَةِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ

الفصل التاسع عشر

في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها

قَدِ ٱسْتَقْرَيْنَا فِي ٱلْعُمْرَانِ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا ٱخْتَلَّتْ وَٱنْتَقَضَتْ فَإِنَّ ٱلْمِصْرَ ٱلَّذِي يَكُونُ كُرْسِيًّا لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمْرَانُهُ وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي ٱنْتِقَاضِهِ إِلَى ٱلْخَرَابِ وَلَا يَكَادُ ذٰلِكَ يَتَخَلَّفُ وَٱلسَّبَبُ فِيهِ أُمُورٌ. ٱلْأَوَّلُ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ لَا بُدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلتَّحَذْلُقِ وَيَدْعُو ذٰلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْمَغَارِمِ ٱلَّتِي مِنْهَا مَادَّةُ ٱلدَّوْلَةِ فَتَقِلُّ ٱلنَّفَقَاتُ وَيَقِلُّ ٱلتَّرَفُ فَإِذَا صَارَ ٱلْمِصْرُ ٱلَّذِي كَانَ كُرْسِيًا لِلْمُلْكِ فِي مَلَكَةِ هٰذِهِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُتَجَدِّدَةِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُ ٱلتَّرَفِ فِيهَا نَقَصَ ٱلتَّرَفُ فِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ لِأَنَّ ٱلرَّعَايَا تَبَعٌ لِلدَّوْلَةِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ ٱلدَّوْلَةِ إِمَّا طَوْعًا لِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَتْبُوعِهِمْ أَوْ كُرْهًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْانْقِبَاضِ عَنِ ٱلتَّرَفِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَحْوَالِ وَقِلَّةِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي هِيَ مَادَّةُ ٱلْعَوَائِدِ فَتَقْصُرُ

لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصر . الأمر الثاني أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وإنما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداهما على الأخرى في العوائد والأحوال وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكرة عند أهل الدولة ومستبشعة وقبيحة وخصوصاً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في المصر . الأمر الثالث أن كل أمة لا بد لهم من وطن وهو منشأهم ومنه أولية ملكهم وإذا ملكوا ملكاً آخر صار تبعاً للأول وأمصاره تابعة لأمصار الأول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسي تخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوى أفئدة الناس من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول والحضارة إنما هي توفر العمران كما قدمناه فتنقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ولبني العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد ولبني مرين بالغرب في العدول عن مراكش إلى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الأول . الأمر الرابع أن الدولة الثانية لا بد فيها من تبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل المصر الكرسي أشياع الدولة إما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو أعيان المصر لأن لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في

مصرِ ٱلْكُرْسِيّ إِلاَّ ٱلْبَاعَةَ وَٱلْهَمَلَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَلْحِ وَٱلْعِيَارَةِ وَسَوَادِ ٱلْعَامَّةِ وَيَنْزِلُ مَكَانَهُمْ حَامِيَتُهَا وَأَشْيَاعُهَا مَنْ يَشْتَدُّ بِهِ ٱلْمِصْرُ وَإِذَا ذَهَبَ مِنَ ٱلْمِصْرِ أَعْيَانُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ نَقَصَ سَاكِنُهُ وَهُوَ مَعْنَى ٱخْتِلَالِ عُمْرَانِهِ ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَجِدَّ عُمْرَانٌ آخَرُ فِي ظِلِّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْجَدِيدَةِ وَتَحْصُلُ فِيهِ حِضَارَةٌ أُخْرَى عَلَى قَدْرِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَثَابَةِ مَنْ لَهُ بَيْتٌ عَلَى أَوْصَافٍ مَخْصُوصَةٍ فَأَظْهَرَ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ ٱلْأَوْصَافِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَخْتَارُهُ وَيَقْتَرِحُهُ فَيُخَرِّبُ ذَلِكَ ٱلْبَيْتَ ثُمَّ يُعِيدُ بِنَاءَهُ ثَانِيًا وَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلَّتِي هِيَ كَرَاسِيُّ لِلْمُلْكِ وَشَاهَدْنَاهُ وَعَلِمْنَاهُ وَٱللهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ. وَٱلسَّبَبُ ٱلطَّبِيعِيُّ ٱلْأَوَّلُ فِي ذَلِكَ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ وَٱلْمُلْكَ لِلْعُمْرَانِ بِمَثَابَةِ ٱلصُّورَةِ لِلْمَادَّةِ وَهُوَ ٱلشَّكْلُ ٱلْحَافِظُ بِنَوْعِهِ لِوُجُودِهَا وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عُلُومِ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ ٱنْفِكَاكُ أَحَدِهِمَا عَنِ ٱلْآخَرِ فَٱلدَّوْلَةُ دُونَ ٱلْعُمْرَانِ لَا تُتَصَوَّرُ وَٱلْعُمْرَانُ دُونَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْمُلْكِ مُتَعَذِّرٌ لِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلْعُدْوَانِ ٱلدَّاعِي إِلَى ٱلْوَازِعِ فَتَتَعَيَّنُ ٱلسِّيَاسَةُ لِذَلِكَ إِمَّا ٱلشَّرْعِيَّةُ أَوِ ٱلْمُلْكِيَّةُ وَهُوَ مَعْنَى ٱلدَّوْلَةِ وَإِذَا كَانَا لَا يَنْفَكَّانِ فَٱخْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي ٱخْتِلَالِ ٱلْآخَرِ كَمَا أَنَّ عَدَمَهُ مُؤَثِّرٌ فِي عَدَمِهِ وَٱلْخَلَلُ ٱلْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَلَلِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْكُلِّيَّةِ مِثْلِ دَوْلَةِ ٱلرُّومِ أَوِ ٱلْفُرْسِ أَوِ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلْعُمُومِ أَوْ بَنِي أُمَيَّةَ أَوْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ كَذَلِكَ وَأَمَّا ٱلدَّوْلَةُ ٱلشَّخْصِيَّةُ مِثْلَ دَوْلَةِ أَنُوشِرْوَانَ أَوْ هِرَقْلَ أَوْ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَوِ ٱلرَّشِيدِ فَأَشْخَاصُهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى ٱلْعُمْرَانِ حَافِظَةٌ لِوُجُودِهِ وَبَقَائِهِ وَقَرِيبَةُ ٱلشَّبَهِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَلَا تُؤَثِّرُ كَثِيرَ ٱخْتِلَالٍ لِأَنَّ ٱلدَّوْلَةَ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلْفَاعِلَةَ فِي مَادَّةِ ٱلْعُمْرَانِ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَٱلشَّوْكَةُ وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى أَشْخَاصِ ٱلدَّوْلَةِ فَإِذَا ذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا عَصَبِيَّةٌ أُخْرَى مُؤَثِّرَةٌ فِي ٱلْعُمْرَانِ ذَهَبَتْ أَهْلُ ٱلشَّوْكَةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَعَظُمَ ٱلْخَلَلُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ يَسْتَدْعِي بَعْضُهَا بَعْضًا لِمَا فِي طَبِيعَةِ ٱلْعُمْرَانِ مِنَ ٱلتَّعَاوُنِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنَ ٱلْأَعْمَالِ يَخْتَصُّ بِبَعْضِ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ فَيَقُومُونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَبْصِرُونَ فِي صِنَاعَتِهِ وَيَخْتَصُّونَ بِوَظِيفَتِهِ وَيَجْعَلُونَ مَعَاشَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَهُمْ مِنْهُ لِعُمُومِ

ٱلْبَلْوَى بِهِ فِي ٱلْمِصْرِ وَٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَمَا لَا يَسْتَدْعِي فِي ٱلْمِصْرِ يَكُونُ غُفْلًا إِذْ لَا فَائِدَةَ لِمُنْتَحِلِهِ فِي ٱلِٱحْتِرَافِ بِهِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنْ ذَٰلِكَ لِضَرُورَةِ ٱلْمَعَاشِ فَيُوجَدُ فِي كُلِّ مِصْرٍ كَٱلْخَيَّاطِ وَٱلْحَدَّادِ وَٱلنَّجَّارِ وَأَمْثَالِهَا وَمَا يَسْتَدْعِي لِعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَأَحْوَالِهِ فَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْمُسْتَبْحِرَةِ فِي ٱلْعِمَارَةِ ٱلْآخِذَةِ فِي عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْحَضَارَةِ مِثْلِ ٱلزَّجَّاجِ وَٱلصَّائِغِ وَٱلدَّهَّانِ وَٱلطَّبَّاخِ وَٱلصَّفَّارِ وَٱلْفَرَّاشِ وَٱلذَّبَّاحِ وَأَمْثَالِ هٰذِهِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ وَبِقَدْرِ مَا تَزِيدُ عَوَائِدُ ٱلْحَضَارَةِ وَتَسْتَدْعِي أَحْوَالُ ٱلتَّرَفِ تَحْدُثُ صَنَائِعُ لِذَٰلِكَ ٱلنَّوْعِ فَتُوجَدُ بِذَٰلِكَ ٱلْمِصْرِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ ٱلْحَمَّامَاتُ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُسْتَحْضَرَةِ ٱلْمُسْتَبْحِرَةِ ٱلْعُمْرَانِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلتَّرَفُ وَٱلْغِنَى مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ وَلِذَٰلِكَ لَا تَكُونُ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ وَإِنْ نَزَعَ بَعْضُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ إِلَيْهَا فَيَخْتَطُّهَا وَيُجْرِي أَحْوَالَهَا إِلَّا أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهَا دَاعِيَةٌ مِنْ كَافَّةِ ٱلنَّاسِ فَسَرْعَانَ مَا تُهْجَرُ وَتُخَرَّبُ وَتَفِرُّ عَنْهَا ٱلْقَوَمَةُ لِقِلَّةِ فَائِدَتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ مِنْهَا وَٱللّٰهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض

مِنَ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ ٱلِٱلْتِحَامَ وَٱلِٱتِّصَالَ مَوْجُودٌ فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ إِلَّا أَنَّهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَضْعَفُ مِمَّا يَكُونُ بِٱلنَّسَبِ وَأَنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ ٱلْعَصَبِيَّةُ بَعْضًا مِمَّا تَحْصُلُ بِٱلنَّسَبِ وَأَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مُلْتَحِمُونَ بِٱلصِّهْرِ يَجْذِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى أَنْ يَكُونُوا لُحْمًا لُحْمًا وَقَرَابَةً قَرَابَةً وَتَجِدُ بَيْنَهُمْ مِنَ ٱلْعَدَاوَةِ وَٱلصَّدَاقَةِ مَا يَكُونُ بَيْنَ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَشَائِرِ مِثْلَهُ فَيَفْتَرِقُونَ شِيَعًا وَعَصَائِبَ فَإِذَا نَزَلَ ٱلْهَرَمُ بِٱلدَّوْلَةِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ ٱحْتَاجَ أَهْلُ أَمْصَارِهَا إِلَى ٱلْقِيَامِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَٱلنَّظَرِ فِي حِمَايَةِ بَلَدِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلشُّورَى وَتَمَيُّزِ ٱلْعِلْيَةِ عَنِ ٱلسِّفْلَةِ وَٱلنُّفُوسُ بِطِبَاعِهَا مُتَطَاوِلَةٌ إِلَى ٱلْغَلَبِ وَٱلرِّئَاسَةِ فَتَطْمَحُ ٱلْمَشْيَخَةُ لِخَلَاءِ ٱلْجَوِّ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْقَاهِرَةِ إِلَى ٱلِٱسْتِبْدَادِ وَيُنَازِعُ كُلٌّ صَاحِبَهُ وَيَسْتَوْصِلُونَ بِٱلْأَتْبَاعِ مِنَ ٱلْمَوَالِي وَٱلشِّيَعِ وَٱلْأَحْلَافِ وَيَبْذُلُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ لِلْأَوْغَادِ وَٱلْأَوْشَابِ فَيَعْصَوْصِبُ كُلٌّ لِصَاحِبِهِ وَيَتَعَيَّنُ ٱلْغَلَبُ لِبَعْضِهِمْ فَيَعْطِفُ عَلَى أَكْفَائِهِ لِيَقُصَّ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَيَتَتَبَّعَهُمْ بِٱلْقَتْلِ أَوِ ٱلتَّغْرِيبِ حَتَّى يَخْضُدَ مِنْهُمُ ٱلشَّوْكَاتِ ٱلنَّافِذَةَ وَيُقَلِّمَ ٱلْأَظْفَارَ ٱلْخَادِشَةَ وَيَسْتَبِدَّ بِمِصْرِهِ أَجْمَعَ وَيَرَى أَنَّهُ قَدِ ٱسْتَحْدَثَ مُلْكًا

يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدة والهرم وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والأقطار والممالك فينتحلون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد والتختم والتحية والخطاب بالتمويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب السذاجة فرارا من التعريض بنفسه للسخرية والعبث وقد وقع هذا بإفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب وما إلى ذلك سموا إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والجباية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة وأقطعوها جانبا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل عنه وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية واستقل بأمصار الجريد أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي ونقلهم كلهم من إماراتهم بها إلى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في أخباره وكذا وقع بسبتة لآخر دولة بني عبد المؤمن وهذا التغلب يكون غالبا في أهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرئاسة في المصر وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهماء وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصابة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره

الفصل الثاني والعشرون

في لغات اهل الامصار

إِعْلَمْ أَنَّ لُغَاتِ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ إِنَّمَا تَكُونُ بِلِسَانِ ٱلْأُمَّةِ أَوِ ٱلْجِيلِ ٱلْغَالِبِينَ عَلَيْهَا أَوِ ٱلْمُخْتَطِّينَ لَهَا وَلِذَٰلِكَ كَانَتْ لُغَاتُ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عَرَبِيَّةً وَإِنْ كَانَ ٱللِّسَانُ ٱلْعَرَبِيُّ ٱلْمُضَرِيُّ قَدْ فَسَدَتْ مَلَكَتُهُ وَتَغَيَّرَ إِعْرَابُهُ وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ مَا وَقَعَ لِلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ ٱلْغَلَبِ عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلدِّينِ وَٱلْمِلَّةِ صُورَةٌ لِلْوُجُودِ وَلِلْمُلْكِ وَكُلُّهَا مَوَادُّ لَهُ وَٱلصُّورَةُ مُقَدَّمَةٌ عَلَى ٱلْمَادَّةِ وَٱلدِّينُ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ ٱلشَّرِيعَةِ وَهِيَ بِلِسَانِ ٱلْعَرَبِ لِمَا أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَبِيٌّ فَوَجَبَ هَجْرُ مَا سِوَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ مِنَ ٱلْأَلْسُنِ فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ فِي نَهْيِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ عَنْ بِطَانَةِ ٱلْأَعَاجِمِ وَقَالَ إِنَّهَا خِبٌّ أَيْ مَكْرٌ وَخَدِيعَةٌ فَلَمَّا هَجَرَ ٱلدِّينُ ٱللُّغَاتِ ٱلْأَعْجَمِيَّةَ وَكَانَ لِسَانُ ٱلْقَائِمِينَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عَرَبِيًّا هُجِرَتْ كُلُّهَا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ تَبَعٌ لِلسُّلْطَانِ وَعَلَى دِينِهِ فَصَارَ ٱسْتِعْمَالُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ مِنْ شَعَائِرِ ٱلْإِسْلَامِ وَطَاعَةِ ٱلْعَرَبِ وَهَجَرَ ٱلْأُمَمُ لُغَاتِهِمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ فِي جَمِيعِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْمَمَالِكِ وَصَارَ ٱللِّسَانُ ٱلْعَرَبِيُّ لِسَانَهُمْ حَتَّى رَسَخَ ذَٰلِكَ لُغَةً فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَصَارَتِ ٱلْأَلْسِنَةُ ٱلْعَجَمِيَّةُ دَخِيلَةً فِيهَا وَغَرِيبَةً ثُمَّ فَسَدَ ٱللِّسَانُ ٱلْعَرَبِيُّ بِمُخَالَطَتِهَا فِي بَعْضِ أَحْكَامِهِ وَتَغَيُّرِ أَوَاخِرِهِ وَإِنْ كَانَ بَقِيَ فِي ٱلدَّلَالَاتِ عَلَى أَصْلِهِ وَسُمِّيَ لِسَانًا حَضَرِيًّا فِي جَمِيعِ أَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِ وَأَيْضًا فَأَكْثَرُ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ فِي ٱلْمِلَّةِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مِنْ أَعْقَابِ ٱلْعَرَبِ ٱلْمَالِكِينَ لَهَا ٱلْهَالِكِينَ فِي تَرَفِهَا بِمَا كَثَّرُوا ٱلْعَجَمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِهَا وَوَرِثُوا أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَٱللُّغَاتُ مُتَوَارَثَةٌ فَبَقِيَتْ لُغَةُ ٱلْأَعْقَابِ عَلَى حِيَالِ لُغَةِ ٱلْآبَاءِ وَإِنْ فَسَدَتْ أَحْكَامُهَا بِمُخَالَطَةِ ٱلْأَعْجَامِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَسُمِّيَتْ لُغَتُهُمْ حَضَرِيَّةً مَنْسُوبَةً إِلَى أَهْلِ ٱلْحَوَاضِرِ وَٱلْأَمْصَارِ بِخِلَافِ لُغَةِ ٱلْبَدْوِ مِنَ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّهَا كَانَتْ أَعْرَقَ فِي ٱلْعُرُوبِيَّةِ وَلَمَّا تَمَلَّكَ ٱلْعَجَمُ مِنَ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلسَّلْجُوقِيَّةِ بَعْدَهُمْ بِٱلْمَشْرِقِ وَزَنَاتَةُ وَٱلْبَرْبَرُ بِٱلْمَغْرِبِ وَصَارَ لَهُمُ ٱلْمُلْكُ وَٱلِاسْتِيلَاءُ عَلَى جَمِيعِ ٱلْمَمَالِكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ فَسَدَ ٱللِّسَانُ ٱلْعَرَبِيُّ لِذَٰلِكَ وَكَادَ يَذْهَبُ لَوْلَا مَا حَفِظَهُ مِنْ عِنَايَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ ٱللَّذَيْنِ بِهِمَا حُفِظَ ٱلدِّينُ وَسَارَ ذَٰلِكَ مُرَجِّحًا لِبَقَاءِ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْمُضَرِيَّةِ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَٱلْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا بِٱلْأَمْصَارِ فَلَمَّا مَلَكَ ٱلتَّتَرُ

وَٱلْمغُولُ بِٱلْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ ٱلْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذٰلِكَ ٱلْمُرَجِّحُ وَفَسَدَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي ٱلْمَمَالِكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ بِٱلْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ ٱلْهِنْدِ وَٱلسِّنْدِ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَبِلَادِ ٱلشَّمَالِ وَبِلَادِ ٱلرُّومِ وَذَهَبَتْ أَسَالِيبُ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَٱلْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا يَقَعُ تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُتَدَارَسَةِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَحِفْظِ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسَّرَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى لِذٰلِكَ وَرُبَّمَا بَقِيَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ٱلْمُضَرِيَّةُ بِمِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱلْأَنْدَلُسِ بِٱلْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ ٱلدِّينِ طَلَبًا لَهَا فَٱنْحَفَظَتْ بِبَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ ٱلْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْنٌ حَتَّى إِنَّ كُتُبَ ٱلْعُلُومِ صَارَتْ تُكْتَبُ بِٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِيسُهُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِٱلصَّوَابِ

الفصل الخامس

من الكتاب الاول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

الفصل الاول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ بِٱلطَّبْعِ إِلَى مَا يَقُوتُهُ وَيَمُونُهُ فِي حَالَاتِهِ وَأَطْوَارِهِ مِنْ لَدُنْ نُشُوئِهِ إِلَى أَشُدِّهِ إِلَى كِبَرِهِ وَٱللّٰهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ جَمِيعَ مَا فِي ٱلْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ وَٱمْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ وَيَدُ ٱلْإِنْسَانِ مَبْسُوطَةٌ عَلَى ٱلْعَالَمِ وَمَا فِيهِ بِمَا جَعَلَ ٱللّٰهُ لَهُ مِنَ ٱلِٱسْتِخْلَافِ وَأَيْدِي ٱلْبَشَرِ مُنْتَشِرَةٌ فَهِيَ مُشْتَرَكَةٌ فِي ذٰلِكَ وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدُ هٰذَا ٱمْتَنَعَ عَنِ ٱلْآخَرِ إِلَّا بِعِوَضٍ فَٱلْإِنْسَانُ مَتَى ٱقْتَدَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَجَاوَزَ ٱلضُّعْفَ سَعَى فِي ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَكَاسِبِ لِيُنْفِقَ مَا آتَاهُ ٱللّٰهُ مِنْهَا فِي تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضَرُورَاتِهِ بِدَفْعِ ٱلْأَعْوَاضِ عَنْهَا قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللّٰهِ

ٱلرِّزْقَ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ ذَٰلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَالمَطَرِ ٱلْمُصْلِحِ لِلزِّرَاعَةِ وَأَمْثَالِهِ إِلاَّ أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ مُعِينَةً وَلاَ بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ ٱلْمَكَاسِبُ مَعَاشًا إِنْ كَانَتْ بِمِقْدَارِ ٱلضَّرُورَةِ وَٱلْحَاجَةِ وَرِيَاشًا وَمُتَمَوَّلاً إِنْ زَادَتْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ثُمَّ إِنَّ ذَٰلِكَ ٱلْحَاصِلَ أَوِ ٱلْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنْفَعَتُهُ عَلَى ٱلْعَبْدِ وَحَصَلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ إِنْفَاقِهِ فِي مَصَالِحِهِ وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذَٰلِكَ رِزْقًا قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ وَلاَ حَاجَاتِهِ فَلاَ يُسَمَّى بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْمَالِكِ رِزْقًا وَٱلْمُتَمَلَّكُ مِنْهُ حِينَئِذٍ بِسَعْيِ ٱلْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْبًا وَهٰذَا مِثْلُ ٱلتُّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْهَالِكِ كَسْبًا وَلاَ يُسَمَّى رِزْقًا إِذْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ مُنْتَفَعٌ وَبِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْوَارِثِينَ مَتَى ٱنْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقًا هٰذَا حَقِيقَةُ مُسَمَّى ٱلرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ وَقَدِ ٱشْتَرَطَ ٱلْمُعْتَزِلُ فِي تَسْمِيَتِهِ رِزْقًا أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ وَمَا لاَ يُتَمَلَّكُ عِنْدَهُمْ لاَ يُسَمَّى رِزْقًا وَأَخْرَجُوا ٱلْغُصُوبَاتِ وَٱلْحَرَامَ كُلَّهُ عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقًا وَٱللهُ تَعَالَى يَرْزُقُ ٱلْغَاصِبَ وَٱلظَّالِمَ وَٱلْمُؤْمِنَ وَٱلْكَافِرَ بِرَحْمَتِهِ وَهِدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَهُمْ فِي ذَٰلِكَ حُجَجٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلسَّعْيِ فِي ٱلاقْتِنَاءِ وَٱلْقَصْدِ إِلَى ٱلتَّحْصِيلِ فَلاَ بُدَّ فِي ٱلرِّزْقِ مِنْ سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي تَنَاوُلِهِ وَٱبْتِغَائِهِ مِنْ وُجُوهِهِ قَالَ تَعَالَى فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللهِ ٱلرِّزْقَ وَٱلسَّعْيُ إِلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَقْدَارِ ٱللهِ تَعَالَى وَإِلْهَامِهِ فَٱلْكُلُّ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ فَلاَ بُدَّ مِنَ ٱلأَعْمَالِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوَّلٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلاً بِنَفْسِهِ مِثْلَ ٱلصَّنَائِعِ فَظَاهِرٌ وَإِنْ كَانَ مُقْتَنًى مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ وَٱلْمَعْدِنِ فَلاَ بُدَّ فِيهِ مِنَ ٱلْعَمَلِ ٱلإِنْسَانِيِّ كَمَا تَرَاهُ وَإِلاَّ لَمْ يَحْصُلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ ٱنْتِفَاعٌ ثُمَّ إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى خَلَقَ ٱلْحَجَرَيْنِ ٱلْمَعْدِنِيَّيْنِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ قِيمَةً لِكُلِّ مُتَمَوَّلٍ وَهُمَا ٱلذَّخِيرَةُ وَٱلْقِنْيَةُ لِأَهْلِ ٱلْعَالَمِ فِي ٱلْغَالِبِ وَإِنِ ٱقْتُنِيَ سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ ٱلأَحْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ لِقَصْدِ تَحْصِيلِهِمَا بِمَا يَقَعُ فِي غَيْرِهِمَا مِنْ حَوَالَةِ ٱلأَسْوَاقِ ٱلَّتِي هُمَا عَنْهَا بِمَعْزِلٍ فَهُمَا أَصْلُ ٱلْمَكَاسِبِ وَٱلْقِنْيَةِ وَٱلذَّخِيرَةِ وَإِذَا تَقَرَّرَ هٰذَا كُلُّهُ فَٱعْلَمْ أَنَّ مَا يُفِيدُهُ ٱلإِنْسَانُ وَيَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْمُتَمَوَّلاَتِ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فَٱلْمُفَادُ ٱلْمُقْتَنَى مِنْهُ قِيمَةُ عَمَلِهِ وَهُوَ ٱلْقَصْدُ بِٱلْقِنْيَةِ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلاَّ ٱلْعَمَلُ وَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ لِلْقِنْيَةِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ ٱلصَّنَائِعِ فِي بَعْضِهَا غَيْرُهَا مِثْلُ ٱلنِّجَارَةِ وَٱلْحِيَاكَةِ

معهما الخشب والغزل إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر وإن كان من غير الصنائع فلا بد من قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به إذ لولا العمل لم تحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس فإن اعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه لكنه خفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤنته يسيرة فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية وتبين مسمى الرزق وأنه المنتفع به فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها حتى أن الأنهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما أن فور العيون إنما يكون بالإنباط والامتراء الذي هو بالعمل الإنساني كالحال في ضروع الأنعام فما لم يكن إنباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع إذا ترك امتراؤه وانظره في البلاد التي تعهد فيها العيون لأيام عمرانها ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن والله مقدر الليل والنهار .

الفصل الثاني

في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

إعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعل من العيش كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جعلت موضعا له على طريق المبالغة ثم إن تحصيل الرزق وكسبه إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجباية وإما أن يكون من الحيوان الوحشي بافتراسه وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ ٱلدَّاجِنِ بِٱسْتِخْرَاجِ فُضُولِهِ ٱلْمُنْصَرِفَةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي مَنَافِعِهِمْ كَاللَّبَنِ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرِيرِ مِنْ دُودِهِ وَٱلْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ فِي ٱلزَّرْعِ وَٱلشَّجَرِ بِٱلْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِٱسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هٰذَا كُلُّهُ فَلْحًا وَإِمَّا انْ يَكُونَ ٱلْكَسْبُ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِمَّا فِي مَوَادَّ مُعَيَّنَةٍ وَتُسَمَّى ٱلصَّنَائِعَ مِنْ كِتَابَةٍ وَنِجَارَةٍ وَخِيَاطَةٍ وَحِيَاكَةٍ وَفُرُوسِيَّةٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ أَوْ فِي مَوَادَّ غَيْرِ مُعَيَّنَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ ٱلْإِمْتِهَانَاتِ وَٱلتَّصَرُّفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْكَسْبُ مِنَ ٱلْبَضَائِعِ وَإِعْدَادِهَا لِلْأَعْوَاضِ إِمَّا بِٱلتَّقَلُّبِ بِهَا فِي ٱلْبِلَادِ وَٱحْتِكَارِهَا وَٱرْتِقَابِ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ فِيهَا وَيُسَمَّى هٰذَا تِجَارَةً فَهٰذِهِ وُجُوهُ ٱلْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَدَبِ وَٱلْحِكْمَةِ كَٱلْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا ٱلْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصِنَاعَةٌ فَأَمَّا ٱلْإِمَارَةُ فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيٍّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْجِبَايَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَأَمَّا ٱلْفِلَاحَةُ وَٱلصِّنَاعَةُ وَٱلتِّجَارَةُ فَهِيَ وُجُوهٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ أَمَّا ٱلْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِٱلذَّاتِ إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ فِطْرِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهٰذَا تُنْسَبُ فِي ٱلْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي ٱلْبَشَرِ وَأَنَّهُ مُعَلِّمُهَا وَٱلْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وُجُوهِ ٱلْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى ٱلطَّبِيعَةِ وَأَمَّا ٱلصَّنَائِعُ فَهِيَ ثَانِيَتُهَا وَمُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصْرَفُ فِيهَا ٱلْأَفْكَارُ وَٱلْأَنْظَارُ وَلِهٰذَا لَا يُوجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ ٱلْحَضَرِ ٱلَّذِي هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ ٱلْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى أُدْرِيسَ ٱلْأَبِ ٱلثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْبَشَرِ بِٱلْوَحْيِ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى وَأَمَّا ٱلتِّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعِيَّةً فِي ٱلْكَسْبِ فَٱلْأَكْثَرُ مِنْ طُرُقِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحَيُّلَاتٌ فِي ٱلْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ ٱلْقِيمَتَيْنِ فِي ٱلشِّرَاءِ وَٱلْبَيْعِ لِتَحْصُلَ فَائِدَةُ ٱلْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ ٱلْفَضْلَةِ وَلِذٰلِكَ أَبَاحَ ٱلشَّرْعُ فِيهِ ٱلْمُكَاسَبَةَ لِمَا أَنَّهُ مِنْ بَابِ ٱلْمُقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذًا لِمَالِ ٱلْغَيْرِ مَجَّانًا فَلِهٰذَا ٱخْتُصَّ بِٱلْمَشْرُوعِيَّةِ

الفصل الثالث

في ان الخدمة ليست من الطبيعي

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنِ ٱتِّخَاذِ ٱلْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ ٱلْإِمَارَةِ وَٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ ٱلْجُنْدِيِّ وَٱلشُّرْطِيِّ وَٱلْكَاتِبِ وَيَسْتَكْفِي فِي كُلِّ بَابٍ بِمَنْ يَعْلَمُ

غِنَاءَهُ فِيهِ وَيَتَكَفَّلُ بِأَرْزَاقِهِمْ مِنْ بَيْتِ مَالِهِ وَهٰذَا كُلُّهُ مُنْدَرِجٌ فِي ٱلْإِمَارَةِ وَمَعَاشِهَا إِذْ كُلُّهُمْ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِمْ حُكْمُ ٱلْإِمَارَةِ وَٱلْمُلْكُ ٱلْأَعْظَمُ هُوَ يَنْبُوعُ جَدَاوِلِهِمْ وَأَمَّا مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ فَسَبَبُهَا أَنَّ أَكْثَرَ ٱلْمُتْرَفِينَ يَتَرَفَّعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ حَاجَاتِهِ أَوْ يَكُونُ عَاجِزًا عَنْهَا لِمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقِ ٱلتَّنَعُّمِ وَٱلتَّرَفِ فَيَتَّخِذُ مَنْ يَتَوَلَّى ذٰلِكَ لَهُ وَيُقْطِعُهُ عَلَيْهِ أَجْرًا مِنْ مَالِهِ وَهٰذِهِ ٱلْحَالَةُ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ بِحَسَبِ ٱلرُّجُولِيَّةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ إِذِ ٱلثِّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزٌ وَلِأَنَّهَا تَزِيدُ فِي ٱلْوَظَائِفِ وَٱلْخَرْجِ وَتَدُلُّ عَلَى ٱلْعَجْزِ وَٱلْخَنَثِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي فِي مَذَاهِبِ ٱلرُّجُولِيَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ عَنْهُمَا إِلَّا أَنَّ ٱلْعَوَائِدَ تَقْلِبُ طِبَاعَ ٱلْإِنْسَانِ إِلَى مَأْلُوفِهَا فَهُوَ ٱبْنُ عَوَائِدِهِ لَا ٱبْنُ نَسَبِهِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَٱلْخَدِيمُ ٱلَّذِي يُسْتَكْفَى بِهِ وَيُوثَقُ بِغَنَائِهِ كَٱلْمَفْقُودِ إِذِ ٱلْخَدِيمُ ٱلْقَائِمُ بِذٰلِكَ لَا يَعْدُو أَرْبَعَ حَالَاتٍ إِمَّا مُضْطَلِعٌ بِأَمْرِهِ وَلَا مَوْثُوقٌ فِيمَا يَحْصُلُ بِيَدِهِ وَإِمَّا بِٱلْعَكْسِ فِي إِحْدَاهُمَا فَقَطْ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ مُضْطَلِعًا غَيْرَ مَوْثُوقٍ أَوْ مَوْثُوقًا غَيْرَ مُضْطَلِعٍ فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلْمُضْطَلِعُ ٱلْمَوْثُوقُ فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا ٱسْتِعْمَالُهُ بِوَجْهٍ إِذْ هُوَ بِٱضْطِلَاعِهِ وَثِقَتِهِ غَنِيٌّ عَنْ أَهْلِ ٱلرُّتَبِ ٱلدَّنِيئَةِ وَمُحْتَقِرٌ لِمِثَالِ ٱلْأَجْرِ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ لِٱقْتِدَارِهِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا ٱلْأُمَرَاءُ أَهْلُ ٱلْجَاهِ ٱلْعَرِيضِ لِعُمُومِ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْجَاهِ وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي وَهُوَ مِمَّنْ لَيْسَ بِمُضْطَلِعٍ وَلَا مَوْثُوقٍ فَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ ٱسْتِعْمَالُهُ لِأَنَّهُ يُجْحِفُ بِمَخْدُومِهِ فِي ٱلْأَمْرَيْنِ مَعًا فَيَضِيعُ عَلَيْهِ لِعَدَمِ ٱلْاِضْطِلَاعِ تَارَةً وَيَذْهَبُ مَالُهُ بِٱلْخِيَانَةِ أُخْرَى فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ فَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلصِّنْفَيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ مَوْثُوقٍ غَيْرِ مُضْطَلِعٍ وَمُضْطَلِعٍ غَيْرِ مَوْثُوقٍ وَلِلنَّاسِ فِي ٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَهُمَا مَذْهَبَانِ وَلِكُلٍّ مِنَ ٱلتَّرْجِيحَيْنِ وَجْهٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْمُضْطَلِعَ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مَوْثُوقٍ أَرْجَحُ لِأَنَّهُ يُؤْمَنُ مِنْ تَضْيِيعِهِ وَيُحَاوَلُ عَلَى ٱلتَّحَرُّزِ مِنْ خِيَانَتِهِ جُهْدَ ٱلْاِسْتِطَاعَةِ وَأَمَّا ٱلْمُضَيِّعُ وَلَوْ كَانَ مَأْمُونًا فَضَرَرُهُ بِٱلتَّضْيِيعِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَٱتَّخِذْهُ قَانُونًا فِي ٱلْاِسْتِكْفَاءِ بِٱلْخِدْمَةِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

الفصل الرابع

في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

إِعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ فِي ٱلْأَمْصَارِ يَحْرِصُونَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْأَمْوَالِ مِنْ

تحت الأرض ويبتغون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان فأهل الأمصار بأفريقية يرون أن الافرنجة الذين كانوا قبل الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك وأودعوها في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خاليا أو معمورا بالديدان أو يشاهد الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم أو تميد به الأرض حتى يظنه خسفا أو مثل ذلك من الهذر ونجد كثيرا من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة الحواشي إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونه على الحفر والطلب ويموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجرى الطبيعي من هذا وأمثاله عجزا عن السعي في المكاسب وركونا إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات وربما يحمل على ذلك في الأكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها

عَنْ حدِّ ٱلنِّهَايَةِ حَتَّى تُقصِّرَ عَنْهَا وُجُوهُ ٱلْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلَا تَفِي بِمَطَالِبِهَا فَإِذَا عَجِزَ عَنِ ٱلْكَسْبِ بِٱلْمَجْرَى ٱلطَّبِيعِيِّ لَمْ يَجِدْ وَلِيجَةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا ٱلتَّمَنِّيَ لِوُجُودِ ٱلْمَالِ ٱلْعَظِيمِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ لِيَفِيَ لَهُ ذَلِكَ بِٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرِهَا فَيَحْرِصُ عَلَى ٱبْتِغَاءِ ذَلِكَ وَيَسْعَى فِيهِ جُهْدَهُ وَلِهَذَا فَأَكْثَرُ مَنْ تَرَاهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى ذَلِكَ هُمُ ٱلْمُتْرَفُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمِنْ سُكَّانِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلتَّرَفِ ٱلْمُتَّسِعَةِ ٱلْأَحْوَالِ مِثْلِ مِصْرَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا فَنَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرَمِينَ بِٱبْتِغَاءِ ذَلِكَ وَتَحْصِيلِهِ وَمُسَاءَلَةِ ٱلرُّكْبَانِ عَنْ شَوَاذِّهِ كَمَا يَحْرِصُونَ عَلَى ٱلْكِيمِيَاءِ هٰكَذَا بَلَغَنِي عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي مُفَاوَضَةِ مَنْ يَلْقَوْنَهُ مِنْ طَلَبَةِ ٱلْمَغَارِبَةِ لَعَلَّهُمْ يَعْثُرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ ٱلْبَحْثَ عَنْ تَغْوِيرِ ٱلْمِيَاهِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّ غَالِبَ هٰذِهِ ٱلْأَمْوَالِ ٱلدَّفِينَةِ كُلَّهَا فِي مَجَارِي ٱلنِّيلِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مَا يَسْتُرُ دَفِينًا أَوْ مُخْتَزَنًا فِي تِلْكَ ٱلْآفَاقِ وَيُمَوِّهُ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ تِلْكَ ٱلدَّفَاتِرِ ٱلْمُفْتَعَلَةِ فِي ٱلِٱعْتِذَارِ عَنِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهَا بِجِرْيَةِ ٱلنِّيلِ تَسَتُّرًا بِذَلِكَ مِنَ ٱلْكَذِبِ حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى مَعَاشِهِ فَيَحْرِصُ سَامِعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَلَى نُضُوبِ ٱلْمَاءِ بِٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ لِتَحْصِيلِ مُبْتَغَاهُ مِنْ هٰذِهِ كَلِفًا بِشَأْنِ ٱلسِّحْرِ مُتَوَارَثًا فِي ذَلِكَ ٱلْقُطْرِ عَنْ أَوَّلِيهِ فَعُلُومُهُمُ ٱلسِّحْرِيَّةُ وَآثَارُهَا بَاقِيَةٌ بِأَرْضِهِمْ فِي ٱلْبَرَارِي وَغَيْرِهَا وَقِصَّةُ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ شَاهِدَةٌ بِٱخْتِصَاصِهِمْ بِذَلِكَ وَقَدْ تَنَاقَلَ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ قَصِيدَةً يَنْسِبُونَهَا إِلَى حُكَمَاءِ ٱلْمَشْرِقِ تُعْطِي فِيهَا كَيْفِيَّةَ ٱلْعَمَلِ بِٱلتَّغْوِيرِ بِصِنَاعَةٍ سِحْرِيَّةٍ حَسْبَمَا تَرَاهُ فِيهَا وَهِيَ هٰذِهِ

يَا طَالِبًا لِلسِّرِّ فِي ٱلتَّغْوِيرِ   إِسْمَعْ كَلَامَ ٱلصِّدْقِ مِنْ خَبِيرِ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ صَنَّفُوا فِي كُتْبِهِمْ   مِنْ قَوْلِ بُهْتَانٍ وَلَفْظِ غُرُورِ
وَٱسْمَعْ لِصِدْقِ مَقَالَتِي وَنَصِيحَتِي   إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ لَا يَرَى بِٱلزُّورِ
فَإِذَا أَرَدْتَ تَغَوُّرَ ٱلْبِئْرِ ٱلَّتِي   حَارَتْ لَهَا ٱلْأَوْهَامُ فِي ٱلتَّدْبِيرِ
صَوِّرْ كَصُورَتِكَ ٱلَّتِي أَوْقَفْتَهَا   وَٱلرَّأْسُ رَأْسُ ٱلشِّبْلِ فِي ٱلتَّقْوِيرِ
وَيَدَاهُ مَاسِكَتَانِ لِلْحَبْلِ ٱلَّذِي   فِي ٱلدَّلْوِ يُنْشَلُ مِنْ قَرَارِ ٱلْبِيرِ
وَبِصَدْرِهِ هَاءٌ كَمَا عَايَنْتَهَا   عَدَدُ ٱلطَّلَاقِ ٱحْذَرْ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ
وَيَطَا عَلَى ٱلطَّاءَاتِ غَيْرَ مُلَامِسٍ   مَشْيَ ٱللَّبِيبِ ٱلْكَيِّسِ ٱلنِّحْرِيرِ
وَيَكُونُ حَوْلَ ٱلْكُلِّ خَطٌّ دَائِرٌ   تَرْبِيعُهُ أَوْلَى مِنَ ٱلتَّكْوِيرِ

وَٱذْبَحْ عَلَيْهِ ٱلطَّيْرَ وَٱلْطَخْهُ بِهِ   وَٱقْصِدْهُ عَقْبَ ٱلذَّبْحِ بِٱلتَّبْخِيرِ
بِٱلسَّنْدَرُوسِ وَبِٱللُّبَانِ وَمَيْعَةٍ   وَٱلْقُسْطِ وَٱلْبِسْهُ بِثَوْبِ حَرِيرِ
مِنْ أَحْمَرٍ أَوْ أَصْفَرٍ لَا أَزْرَقٍ   لَا أَخْضَرٍ فِيهِ وَلَا تَكْدِيرِ
وَيَشُدُّهُ خِيطَانُ صُوفٍ أَبْيَضٍ   أَوْ أَحْمَرٍ مِنْ خَالِصِ ٱلتَّحْمِيرِ
وَٱلطَّالِعُ ٱلْأَسَدُ ٱلَّذِي قَدْ بَيَّنُوا   وَيَكُونُ بَدْءُ ٱلشَّهْرِ غَيْرَ مُنِيرِ
وَٱلْبَدْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عُطَارِدٍ   فِي يَوْمِ سَبْتٍ سَاعَةَ ٱلتَّدْبِيرِ

يَعْنِي أَنْ تَكُونَ ٱلطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ تَمْوِيهَاتِ ٱلْمُتَخَرِّفِينَ فَلَهُمْ فِي ذٰلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَٱصْطِلَاحَاتٌ عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهِي ٱلتَّخَرْفَةُ وَٱلْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا ٱلْمَنَازِلَ ٱلْمَشْهُورَةَ وَٱلدُّورَ ٱلْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هٰذِهِ وَيَحْتَفِرُونَ ٱلْحُفَرَ وَيَضَعُونَ ٱلْمَطَابِقَ فِيهَا وَٱلشَّوَاهِدَ ٱلَّتِي يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفِ كَذِبِهِمْ ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضُعَفَاءَ ٱلْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلصَّحَائِفِ وَيَبْعَثُونَ عَلَى كِرَاءِ ذٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ وَسُكْنَاهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ ٱلْمَالِ لَا يُعَبَّرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيُطَالِبُونَ بِٱلْمَالِ لِٱشْتِرَاءِ ٱلْعَقَاقِيرِ وَٱلْبَخُورَاتِ لِحَلِّ ٱلطَّلَاسِمِ وَيَعِدُونَهُ بِظُهُورِ ٱلشَّوَاهِدِ ٱلَّتِي قَدْ أَعَدُّوهَا هُنَالِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ فَيَنْبَعِثُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلُبِّسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ وَبَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ ٱصْطِلَاحٌ فِي كَلَامِهِمْ يُلَبِّسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَخْفَى عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ فِيمَا يَتَلُونَهُ مِنْ حَفْرٍ وَبَخُورٍ وَذَبْحِ حَيَوَانٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَأَمَّا ٱلْكَلَامُ فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَلَا أَصْلَ لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبَرٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تُوجَدُ لٰكِنَّهَا فِي حُكْمِ ٱلنَّادِرِ وَعَلَى وَجْهِ ٱلِٱتِّفَاقِ لَا عَلَى وَجْهِ ٱلْقَصْدِ إِلَيْهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِأَمْرٍ تَعُمُّ بِهِ ٱلْبَلْوَى حَتَّى يَدَّخِرَ ٱلنَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَيَخْتِمُونَ عَلَيْهَا بِٱلطَّلَاسِمِ لَا فِي ٱلْقَدِيمِ وَلَا فِي ٱلْحَدِيثِ وَٱلرِّكَازُ ٱلَّذِي وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ ٱلْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا يُوجَدُ بِٱلْعُثُورِ وَٱلِٱتِّفَاقِ لَا بِٱلْقَصْدِ وَٱلطَّلَبِ وَأَيْضًا فَمَنِ ٱخْتَزَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ فَقَدْ بَالَغَ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ ٱلْأَدِلَّةَ وَٱلْأَمَارَاتِ لِمَنْ يَبْتَغِيهِ وَيَكْتُبُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّحَائِفِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْآفَاقِ هٰذَا يُنَاقِضُ قَصْدَ ٱلْإِخْفَاءِ وَأَيْضًا فَأَفْعَالُ ٱلْعُقَلَاءِ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ لِغَرَضٍ مَقْصُودٍ فِي ٱلِٱنْتِفَاعِ وَمَنِ ٱخْتَزَنَ ٱلْمَالَ فَإِنَّهُ يَخْتَزِنُهُ لِوَلَدِهِ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مَنْ يُؤْثِرُهُ وَأَمَّا أَنْ

يَقْصِدَ إِخْفَاءَهُ بِالْكُلِّيَّةِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَإِنَّمَا هُوَ لِلْبِلَاءِ وَالْهَلَاكِ أَوْ لِمَنْ لَا يَعْرِفُهُ بِالْكُلِّيَّةِ مِمَّنْ سَيَأْتِي مِنَ الْأُمَمِ فَهَذَا لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعُقَلَاءِ بِوَجْهٍ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ أَيْنَ أَمْوَالُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِنَا وَمَا عُلِمَ فِيهَا مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْوُفُورِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَمْتِعَةِ إِنَّمَا هِيَ مَعَادِنُ وَمَكَاسِبُ مِثْلُ الْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالرَّصَاصِ وَسَائِرِ الْعَقَارَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَالْعُمْرَانُ يُظْهِرُهَا بِالْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَزِيدُ فِيهَا أَوْ يُنْقِصُهَا وَمَا يُوجَدُ مِنْهَا بِأَيْدِي النَّاسِ فَهُوَ مُتَنَاقَلٌ مُتَوَارَثٌ وَرُبَّمَا انْتَقَلَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ وَمِنْ دَوْلَةٍ إِلَى أُخْرَى بِحَسَبِ أَغْرَاضِهِ وَالْعُمْرَانُ الَّذِي يَسْتَدْعِي لَهُ فَإِنْ نَقَصَ الْمَالُ فِي الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَلَمْ يَنْقُصْ بِبِلَادِ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرَنْجِ وَإِنْ نَقَصَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ فَلَمْ يَنْقُصْ فِي الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَإِنَّمَا هِيَ الْآلَاتُ وَالْمَكَاسِبُ وَالْعُمْرَانُ يُوَفِّرُهَا أَوْ يُنْقِصُهَا مَعَ أَنَّ الْمَعَادِنَ يُدْرِكُهَا الْبَلَاءُ كَمَا يُدْرِكُ سَائِرَ الْمَوْجُودَاتِ وَيُسْرِعُ إِلَى اللُّؤْلُؤِ وَالْجَوْهَرِ أَعْظَمَ مِمَّا يُسْرِعُ إِلَى غَيْرِهِ وَكَذَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيدُ وَالرَّصَاصُ وَالْقَصْدِيرُ يَنَالُهَا مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفَنَاءِ مَا يُذْهِبُ بِأَعْيَانِهَا لِأَقْرَبِ وَقْتٍ وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي مِصْرَ مِنْ أَمْرِ الْمَطَالِبِ وَالْكُنُوزِ فَسَبَبُهُ أَنَّ مِصْرَ فِي مَلَكَةِ الْقِبْطِ مُنْذُ الْآلَافِ أَوْ يَزِيدُ مِنَ السِّنِينَ وَكَانَ مَوْتَاهُمْ يُدْفَنُونَ بِمَوْجُودِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوْهَرِ وَاللَّآلِئِ عَلَى مَذْهَبِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ فَلَمَّا انْقَضَتْ دَوْلَةُ الْقِبْطِ وَمَلَكَ الْفُرْسُ بِلَادَهُمْ نَقَّرُوا عَلَى ذَلِكَ فِي قُبُورِهِمْ فَكَشَفُوا عَنْهُ فَأَخَذُوا مِنْ قُبُورِهِمْ مَا لَا يُوصَفُ كَالْأَهْرَامِ مِنْ قُبُورِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهَا وَكَذَا فَعَلَ الْيُونَانِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَصَارَتْ قُبُورُهُمْ مَظِنَّةً لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَيُعْثَرُ عَلَى الدَّفِينِ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْأَوْقَاتِ أَمَّا مَا يَدْفِنُونَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ مَا يُكَرِّمُونَ بِهِ مَوْتَاهُمْ فِي الدَّفْنِ مِنْ أَوْعِيَةٍ وَتَوَابِيتَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مُعَدَّةٍ لِذَلِكَ فَصَارَتْ قُبُورُ الْقِبْطِ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ مَظِنَّةً لِوُجُودِ ذَلِكَ فِيهَا فَلِذَلِكَ عُنِيَ أَهْلُ مِصْرَ بِالْبَحْثِ عَنِ الْمَطَالِبِ لِوُجُودِ ذَلِكَ فِيهَا وَاسْتِخْرَاجِهَا حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَ ضُرِبَتِ الْمُكُوسُ عَلَى الْأَصْنَافِ آخِرَ الدَّوْلَةِ ضُرِبَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَطَالِبِ وَصَدَرَتْ ضَرِيبَةٌ عَلَى مَنْ يَشْتَغِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْحَمْقَى وَالْمَهْوُوسِينَ فَوَجَدَ بِذَلِكَ الْمُتَعَاطُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَطْمَاعِ الذَّرِيعَةَ إِلَى الْكَشْفِ عَنْهُ وَالذَّرْعِ بِاسْتِخْرَاجِهِ وَمَا حَصَّلُوا إِلَّا عَلَى الْخَيْبَةِ فِي جَمِيعِ مَسَاعِيهِمْ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُسْرَانِ فَيَحْتَاجُ مَنْ وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ وَابْتُلِيَ بِهِ أَنْ

يتعوّذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوّذ رسول الله صلى الله عليه وسلّم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

الفصل الخامس

في ان الجاه مفيد للمال

وذلك أنّا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يسارًا وثروة من فاقد الجاه . والسبب في ذلك أنّ صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرّب بها إليه في سبيل التزلّف والحاجة إلى جاهه فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي فتحصل قيم تلك الأعمال كلّها من كسبه وجميع معاشاته أن تبذل فيه الأعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفّر قيم تلك الأعمال عليه فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفّر عليه والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لأقرب وقت ويزداد مع الأيام يسارًا وثروة ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدّمناه وفاقد الجاه بالكلّيّة ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلّا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التجّار ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير ومما يشهد لذلك أنّا نجد كثيرًا من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا حسن الظنّ بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في إرفادهم فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم وأسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى إلّا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم ورأينا من ذلك أعدادًا في الأمصار والمدن وفي البدو يسعى لهم الناس في الفلح والتجر وكلّ هو قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثّل الغنى من غير سعي ويعجب من لا يفطن لهذا السرّ في حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب

الفصل السادس

في ان السعادة والكسب انما يحصل غالبًا لاهل الخضوع والتملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ ٱلَّذِي يَسْتَفِيدُهُ ٱلْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ قِيَمُ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ قُدِّرَ أَحَدٌ عُطِّلَ عَنِ ٱلْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ فَاقِدَ ٱلْكَسْبِ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَعَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ وَشَرَفِهِ بَيْنَ ٱلْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدْرُ قِيمَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ ذٰلِكَ نُمُوُّ كَسْبِهِ أَوْ نُقْصَانُهُ وَقَدْ بَيَّنَّا آنِفًا أَنَّ ٱلْجَاهَ يُفِيدُ ٱلْمَالَ لِمَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ تَقَرُّبِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ ٱلْمَضَارِّ وَجَلْبِ ٱلْمَنَافِعِ وَكَانَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ أَوْ مَالٍ عِوَضًا عَمَّا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ٱلْجَاهِ مِنَ ٱلْأَغْرَاضِ فِي صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ وَتَصِيرُ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ وَقِيَمُهَا أَمْوَالٌ وَثَرْوَةٌ لَهُ فَيَسْتَفِيدُ ٱلْغِنَى وَٱلْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ ثُمَّ إِنَّ ٱلْجَاهَ مُتَوَزِّعٌ فِي ٱلنَّاسِ وَمُتَرَتِّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ يَنْتَهِي فِي ٱلْعُلُوِّ إِلَى ٱلْمُلُوكِ ٱلَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ يَدٌ عَالِيَةٌ وَفِي ٱلسَّفَلِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا بَيْنَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَبَيْنَ ذٰلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ حِكْمَةُ ٱللّٰهِ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَنْتَظِمُ مَعَاشُهُمْ وَتَتَيَسَّرُ مَصَالِحُهُمْ وَيَتِمُّ بَقَاؤُهُمْ لِأَنَّ ٱلنَّوْعَ ٱلْإِنْسَانِيَّ لَا يَتِمُّ وُجُودُهُ إِلَّا بِٱلتَّعَاوُنِ وَإِنَّهُ وَإِنْ نَدَرَ فَقْدُ ذٰلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ لَا يَصِحُّ بَقَاؤُهُ ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلتَّعَاوُنَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِٱلْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ لِجَهْلِهِمْ فِي ٱلْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ ٱلنَّوْعِ وَلِمَا جُعِلَ لَهُمْ مِنَ ٱلْاِخْتِيَارِ وَأَنَّ أَفْعَالَهُمْ إِنَّمَا تَصْدُرُ بِٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ لَا بِٱلطَّبْعِ وَقَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ ٱلْمُعَاوَنَةِ فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَيْهَا فَلَا بُدَّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرِهُ أَبْنَاءَ ٱلنَّوْعِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتَتِمَّ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ فِي بَقَاءِ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلْجَاهَ هُوَ ٱلْقُدْرَةُ ٱلْحَامِلَةُ لِلْبَشَرِ عَلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِي مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ بِٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلتَّسَلُّطِ بِٱلْقَهْرِ وَٱلْغَلَبَةِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى دَفْعِ مَضَارِّهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي ٱلْعَدْلِ بِأَحْكَامِ ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَعَلَى أَغْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذٰلِكَ وَلٰكِنَّ ٱلْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي ٱلْعِنَايَةِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ بِٱلذَّاتِ وَٱلثَّانِي دَاخِلٌ فِيهَا بِٱلْعَرَضِ كَسَائِرِ ٱلشُّرُورِ ٱلدَّاخِلَةِ فِي ٱلْقَضَاءِ ٱلْإِلٰهِيِّ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ وُجُودُ ٱلْخَيْرِ ٱلْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرٍ مِنْ أَجْلِ ٱلْمَوَادِّ فَلَا يَفُوتُ ٱلْخَيْرُ بِذٰلِكَ بَلْ يَقَعُ

عَلَى مَا يَنطَوِي عَلَيْهِ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلْيَسِيرِ وَهٰذَا مَعْنَى وُقُوعِ ٱلظُّلْمِ فِي ٱلْخَلِيقَةِ فَتَفَهَّمْ ثُمَّ إِنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طِبَاقِ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مَنْ دُونَهَا مِنَ ٱلطِّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى يَسْتَمِدُّ بِذِي ٱلْجَاهِ مِنْ أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلَّتِي فَوْقَهُ وَيَزْدَادُ كَسْبُهُ تَصَرُّفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدْرِ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَٱلْجَاهُ عَلَى ذٰلِكَ دَاخِلٌ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ ٱلْمَعَاشِ وَيَتَّسِعُ وَيَضِيقُ بِحَسَبِ ٱلطَّبَقَةِ وَٱلطَّوْرِ ٱلَّذِي فِيهِ صَاحِبُهُ فَإِنْ كَانَ ٱلْجَاهُ مُتَّسِعًا كَانَ ٱلْكَسْبُ ٱلنَّاشِئُ عَنْهُ كَذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ ضَيِّقًا قَلِيلًا فَمِثْلُهُ وَفَاقِدُ ٱلْجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنِسْبَةِ سَعْيِهِ ذَاهِبًا وَآيِبًا فِي تَنْمِيَتِهِ كَأَكْثَرِ ٱلتُّجَّارِ وَأَهْلِ ٱلْفِلَاحَةِ فِي ٱلْغَالِبِ وَأَهْلِ ٱلصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ إِذَا فَقَدُوا ٱلْجَاهَ وَٱقْتَصَرُوا عَلَى فَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَلَا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ ثَرْوَةٌ وَإِنَّمَا يُرَمِّقُونَ ٱلْعَيْشَ تَرْمِيقًا وَيُدَافِعُونَ ضَرُورَةَ ٱلْفَقْرِ مُدَافَعَةً وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلْجَاهَ مُتَفَرِّعٌ وَأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ وَٱلْخَيْرَ مُقْتَرِنَانِ بِحُصُولِهِ عَلِمْتَ أَنَّ بَذْلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أَعْظَمِ ٱلنِّعَمِ وَأَجَلِّهَا وَأَنَّ بَاذِلَهُ مِنْ أَجَلِّ ٱلْمُنْعِمِينَ وَإِنَّمَا يَبْذُلُهُ لِمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ بَذْلُهُ بِيَدٍ عَالِيَةٍ وَعِزَّةٍ فَيَحْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُبْتَغِيهِ إِلَى خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلُ ٱلْعِزِّ وَٱلْمُلُوكُ وَإِلَّا فَيَتَعَذَّرُ حُصُولُهُ فَلِذٰلِكَ قُلْنَا إِنَّ ٱلْخُضُوعَ وَٱلتَّمَلُّقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هٰذَا ٱلْجَاهِ ٱلْمُحَصِّلِ لِلسَّعَادَةِ وَٱلْكَسْبِ وَإِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلسَّعَادَةِ بِهٰذَا ٱلتَّمَلُّقِ وَلِهٰذَا نَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِٱلتَّرَفُّعِ وَٱلشَّمَمِ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ ٱلْجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي ٱلتَّكَسُّبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلْكِبْرَ وَٱلتَّرَفُّعَ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ مِنْ تَوَهُّمِ ٱلْكَمَالِ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى بِضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَٱلْعَالِمِ ٱلْمُتَبَحِّرِ فِي عِلْمِهِ وَٱلْكَاتِبِ ٱلْمُجِيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوِ ٱلشَّاعِرِ ٱلْبَلِيغِ فِي شِعْرِهِ وَكُلُّ مُحْسِنٍ فِي صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ ٱلنَّاسَ مُحْتَاجُونَ لِمَا بِيَدِهِ فَيَحْدُثُ لَهُ تَرَفُّعٌ عَلَيْهِمْ بِذٰلِكَ وَكَذَا يَتَوَهَّمُ أَهْلُ ٱلْأَنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طَوْرٍ يَعْبُرُونَ بِهِ بِمَا رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ حَالِ آبَائِهِمْ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ ٱسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذٰلِكَ بِقَرَابَتِهِمْ إِلَيْهِمْ وَوِرَاثَتِهِمْ عَنْهُمْ فَهُمْ مُتَمَسِّكُونَ فِي ٱلْحَاضِرِ بِٱلْأَمْرِ ٱلْمَعْدُومِ وَكَذٰلِكَ أَهْلُ ٱلْحِيلَةِ وَٱلْبَصَرِ وَٱلتَّجَارِبِ بِٱلْأُمُورِ قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالًا فِي نَفْسِهِ بِذٰلِكَ وَٱحْتِيَاجًا

إِلَيْهِ وَتَجِدُ هٰؤُلاَءِ ٱلْأَصْنَافَ كُلَّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لاَ يَخْضَعُونَ لِصَاحِبِ ٱلْجَاهِ وَلاَ يَتَمَلَّقُونَ لِمَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُمْ وَيَسْتَصْغِرُونَ مَنْ سِوَاهُمْ لِاعْتِقَادِهِمِ ٱلْفَضْلَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَيَسْتَنْكِفُ أَحَدُهُمْ عَنِ ٱلْخُضُوعِ وَلَوْ كَانَ لِلْمَلِكِ وَيَعُدُّهُ مَذَلَّةً وَهَوَانًا وَسَفَهًا وَيُحَاسِبُ ٱلنَّاسَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ بِمِقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْقِدُ عَلَى مَنْ قَصَّرَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ ذٰلِكَ وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ ٱلْهُمُومُ وَٱلْأَحْزَانُ مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِيهِ وَيَسْتَمِرُّ فِي عَنَاءٍ عَظِيمٍ مِنْ إِيجَابِ ٱلْحَقِّ لِنَفْسِهِ أَوْ إِبَايَةِ ٱلنَّاسِ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَحْصُلُ لَهُ ٱلْمَقْتُ مِنَ ٱلنَّاسِ لِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلتَّأَلُّهِ وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ فِي ٱلْكَمَالِ وَٱلتَّرَفُّعِ عَلَيْهِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْقَهْرِ وَٱلْغَلَبَةِ وَٱلْاِسْتِطَالَةِ وَهٰذَا كُلُّهُ فِي ضِمْنِ ٱلْجَاهِ فَإِذَا فَقَدَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْخُلُقِ ٱلْجَاهَ وَهُوَ مَفْقُودٌ لَهُ كَمَا تَبَيَّنَ لَكَ مَقَتَهُ ٱلنَّاسُ بِهٰذَا ٱلتَّرَفُّعِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنْ إِحْسَانِهِمْ وَفَقَدَ ٱلْجَاهَ لِذٰلِكَ مِنْ أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنْهُ لِأَجْلِ ٱلْمَقْتِ وَمَا يَحْصُلُ لَهُ بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُعُودِ عَنْ تَعَاهُدِهِمْ وَغِشْيَانِ مَنَازِلِهِمْ فَفَسَدَ مَعَاشُهُ وَبَقِيَ فِي خَصَاصَةٍ وَفَقْرٍ أَوْ فَوْقَ ذٰلِكَ بِقَلِيلٍ وَأَمَّا ٱلثَّرْوَةُ فَلاَ تَحْصُلُ لَهُ أَصْلاً وَمِنْ هٰذَا ٱشْتَهَرَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنَّ ٱلْكَامِلَ فِي ٱلْمَعْرِفَةِ مَحْرُومٌ مِنَ ٱلْحَظِّ وَأَنَّهُ قَدْ حُوسِبَ بِمَا رُزِقَ مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَٱقْتُطِعَ لَهُ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْحَظِّ وَهٰذَا مَعْنَاهُ وَمَنْ خُلِقَ لِشَيْءٍ يُسِّرَ لَهُ وَٱللهُ ٱلْمُقَدِّرُ لاَ رَبَّ سِوَاهُ وَلَقَدْ يَقَعُ فِي ٱلدُّوَلِ أَضْرَابٌ فِي ٱلْمَرَاتِبِ مِنْ أَهْلِ ٱلْخُلُقِ وَيَرْتَفِعُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلسَّفَلَةِ وَيَنْزِلُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْعِلْيَةِ بِسَبَبِ ذٰلِكَ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّوَلَ إِذَا بَلَغَتْ نِهَايَتَهَا مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْاِسْتِيلاَءِ ٱنْفَرَدَ مِنْهَا مَنْبِتُ ٱلْمُلْكِ بِمُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَيَئِسَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ ذٰلِكَ وَإِنَّمَا صَارُوا فِي مَرَاتِبَ دُونَ مَرْتَبَةِ ٱلْمُلْكِ وَتَحْتَ يَدِ ٱلسُّلْطَانِ وَكَأَنَّهُمْ خَوَلٌ لَهُ فَإِذَا ٱسْتَمَرَّتِ ٱلدَّوْلَةُ وَشَمَخَ ٱلْمُلْكُ تَسَاوَى حِينَئِذٍ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ عِنْدَ ٱلسُّلْطَانِ كُلُّ مَنِ ٱنْتَمَى إِلَى خِدْمَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِنَصِيحَةٍ وَٱصْطَنَعَهُ ٱلسُّلْطَانُ لِغَنَائِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مُهِمَّاتِهِ فَتَجِدُ كَثِيرًا مِنَ ٱلسُّوقَةِ يَسْعَى فِي ٱلتَّقَرُّبِ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ بِجِدِّهِ وَنُصْحِهِ وَيَتَزَلَّفُ إِلَيْهِ بِوُجُوهِ خِدْمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى ذٰلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ ٱلْخُضُوعِ وَٱلتَّمَلُّقِ لَهُ وَلِحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ نَسَبِهِ حَتَّى يُرَسِّخَ قَدَمَهُ مَعَهُمْ وَيَنْظِمَهُ ٱلسُّلْطَانُ فِي جُمْلَتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذٰلِكَ حَظٌّ عَظِيمٌ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ وَيَنْتَظِمُ فِي عِدَدِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَنَاشِئَةُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنْ أَبْنَاءِ قَوْمِهَا ٱلَّذِينَ ذَلَّلُوا أَضْغَانَهُمْ وَمَهَّدُوا أَكْنَافَهُمْ مُغْتَرِّينَ بِمَا كَانَ لِآبَائِهِمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْآثَارِ لَمْ

تَسْمَحُ بِهِ نُفُوسُهُمْ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَيَعْتَدُّونَ بِآثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مِضْمَارِ ٱلدَّوْلَةِ بِسَبَبِهِ فَيَمْقُتُهُمُ ٱلسُّلْطَانُ لِذٰلِكَ وَيُبَاعِدُهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى هٰؤُلَاءِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْتَدُّونَ بِقَدِيمٍ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرَفُّعٍ إِنَّمَا دَأْبُهُمُ ٱلْخُضُوعُ لَهُ وَٱلتَّمَلُّقُ وَٱلِٱعْتِمَالُ فِي غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَّسِعُ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَازِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمِ ٱلْوُجُوهُ وَٱلْخَوَاطِرُ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَبْقَى نَاشِئَةُ ٱلدَّوْلَةِ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلتَّرَفُّعِ وَٱلِٱعْتِدَادِ بِٱلْقَدِيمِ لَا يَزِيدُهُمْ ذٰلِكَ إِلَّا بُعْدًا مِنَ ٱلسُّلْطَانِ وَمَقْتًا وَإِيثَارًا لِهٰؤُلَاءِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ ٱلدَّوْلَةُ وَهٰذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ ٱلْمُصْطَنَعِينَ فِي ٱلْغَالِبِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع

في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

وَٱلسَّبَبُ لِذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قِيمَةُ ٱلْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي ٱلْعُمْرَانِ عَامَّةَ ٱلْبَلْوَى بِهِ كَانَتْ قِيمَتُهَا أَعْظَمَ وَكَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ وَأَهْلُ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلدِّينِيَّةِ لَا تُضْطَرُّ إِلَيْهِمْ عَامَّةُ ٱلْخَلْقِ وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ ٱلْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ وَإِنِ ٱحْتِيجَ إِلَى ٱلْفُتْيَا وَٱلْقَضَاءِ فِي ٱلْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ ٱلِٱضْطِرَارِ وَٱلْعُمُومِ فَيَقَعُ ٱلِٱسْتِغْنَاءُ عَنْ هٰؤُلَاءِ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَإِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَاسِمِهِمْ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي قَرَّرْنَاهُ لَا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ ٱلشَّوْكَةِ وَلَا بِأَهْلِ ٱلصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ ٱلدِّينُ وَٱلْمَرَاسِمُ ٱلشَّرْعِيَّةُ لٰكِنَّهُ يَقْسِمُ بِحَسَبِ عُمُومِ ٱلْحَاجَةِ وَضَرُورَةِ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ فَلَا يَصِحُّ فِي قَسْمِهِمْ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ وَهُمْ أَيْضًا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ أَعِزَّةٌ عَلَى ٱلْخَلْقِ وَعِنْدَ نُفُوسِهِمْ فَلَا يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ ٱلْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظًّا يَسْتَدِرُّونَ بِهِ ٱلرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَفْرُغُ أَوْقَاتُهُمْ لِذٰلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلشُّغْلِ بِهٰذِهِ ٱلْبَضَائِعِ ٱلشَّرِيفَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْبَدَنِ بَلْ وَلَا يَسَعُهُمُ ٱبْتِذَالُ أَنْفُسِهِمْ لِأَهْلِ ٱلدُّنْيَا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ فَهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذٰلِكَ فَلِذٰلِكَ لَا تَعْظُمُ ثَرْوَتُهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ وَلَقَدْ بَاحَثْتُ بَعْضَ ٱلْفُضَلَاءِ فَأَنْكَرَ ذٰلِكَ عَلَيَّ فَوَقَعَ بِيَدِي أَوْرَاقٌ مُخَرَّقَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ ٱلدَّوَاوِينِ

بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين فوقفته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لا رب سواه

الفصل الثامن

في ان الفلاحة من معاش المتضعين واهل العافية من البدو

وذلك لأنه أصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر في الغالب ولا من المترفين ويختص منتحله بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الأنصار ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم واليد العالية فيكون الغارم ذليلاً بائساً بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً إشارة إلى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات واعتبار الحقوق كلها مغرم للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

إعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيام كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحاً فالمحاول لذلك الربح إما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلمها لك في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي فقد حصلت التجارة إشارة منه بذلك إلى المعنى الذي قررناه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

الفصل العاشر

في اي اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأغلى أو بيعها بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير إلا أن المال إذا كان كثيرا عظم الربح لأن القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي أثمانها وأهل النصفة قليل فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المطل في الأثمان المجحف بالربح كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها نماؤه ومن الجحود والإنكار المسحت لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغنى الحكام في ذلك قليل لأن الحكم إنما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك أحوالا صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله فإن كان جريئا على الخصومة بصيرا بالحسبان شديد المماحكة مقداما على الحكام كان ذلك أقرب له إلى النصفة بجراءته منهم ومماحكته وإلا فلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من معامليه فيحصل له بذلك النصفة في ماله طوعا في الأول وكرها في الثاني وأما من كان فاقدا الجراءة والإقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعة ولا يكاد ينتصف منهم لأن الغالب في الناس وخصوصا الرعاع والباعة شرهون إلى ما في أيدي الناس سواهم متوثبون عليه ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهبا ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين

الفصل الحادي عشر

في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء ولا بد فيه من

ٱلْمُكَايَسَةِ ضَرُورَةٌ فَإِنِ ٱقْتَصَرَ عَلَيْهَا ٱقْتَصَرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَعْنِي خُلُقَ ٱلْمُكَايَسَةِ بَعِيدَةٌ عَنِ ٱلْمُرُوءَةِ ٱلَّتِي تَتَخَلَّقُ بِهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَشْرَافُ وَأَمَّا إِنِ ٱسْتَرْذَلَ خُلُقَهُ بِمَا يَتْبَعُ ذٰلِكَ فِي أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ ٱلْمُمَاحَكَةِ وَٱلْغِشِّ وَٱلْخِلَابَةِ وَتَعَاهُدِ ٱلْأَيْمَانِ ٱلْكَاذِبَةِ عَلَى ٱلْأَثْمَانِ رَدًّا وَقُبُولاً فَأَجْدِرْ بِذٰلِكَ ٱلْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ ٱلْمَذَلَّةِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلِذٰلِكَ تَجِدُ أَهْلَ ٱلرِّئَاسَةِ يَتَحَامَوْنَ ٱلِٱحْتِرَافَ بِهٰذِهِ ٱلْحِرْفَةِ لِأَجْلِ مَا يُكْسِبُ مِنْ هٰذَا ٱلْخُلُقِ وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْخُلُقِ وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ جِلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱلنَّادِرِ بَيْنَ ٱلْوُجُودِ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

أَلتَّاجِرُ ٱلْبَصِيرُ بِٱلتِّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ ٱلسِّلَعِ إِلَّا مَا تَعُمُّ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْغَنِيِّ وَٱلْفَقِيرِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلسُّوقَةِ إِذْ فِي ذٰلِكَ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ وَأَمَّا إِذَا ٱخْتَصَّ نَقْلُهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْبَعْضُ فَقَطْ فَقَدْ يَتَعَذَّرُ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ ٱلشِّرَاءِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْبَعْضِ لِعَارِضٍ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ فَتَكْسُدُ سُوقُهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحُهُ وَكَذٰلِكَ إِذَا نَقَلَ ٱلسِّلْعَةَ ٱلْمُحْتَاجَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ ٱلْوَسَطَ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ ٱلْعَالِيَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلسِّلَعِ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ ٱلثَّرْوَةِ وَحَاشِيَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَهُمُ ٱلْأَقَلُّ وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلنَّاسُ أُسْوَةً فِي ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْوَسَطِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّ ذٰلِكَ جُهْدَهُ فَفِيهِ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ أَوْ كَسَادُهَا وَكَذٰلِكَ نَقْلُ ٱلسِّلَعِ مِنَ ٱلْبَلَدِ ٱلْبَعِيدِ ٱلْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ ٱلْخَطَرِ فِي ٱلطُّرُقَاتِ يَكُونُ أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلتُّجَّارِ وَأَعْظَمَ أَرْبَاحًا وَأَكْفَلَ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ لِأَنَّ ٱلسِّلْعَةَ ٱلْمَنْقُولَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مُعْوِزَةً لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ ٱلْغَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقِلُّ حَامِلُوهَا وَيَعِزُّ وُجُودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ غَلَتْ أَثْمَانُهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَ ٱلْبَلَدُ قَرِيبَ ٱلْمَسَافَةِ وَٱلطَّرِيقُ سَابِلٌ بِٱلْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتَرْخُصُ أَثْمَانُهَا وَلِهٰذَا تَجِدُ ٱلتُّجَّارَ ٱلَّذِينَ يُولَعُونَ بِٱلدُّخُولِ إِلَى بِلَادِ ٱلسُّودَانِ أَرْفَهَ ٱلنَّاسِ وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالاً لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَٱعْتِرَاضِ ٱلْمَفَازَةِ ٱلصَّعْبَةِ ٱلْمُخْطِرَةِ بِٱلْخَوْفِ وَٱلْعَطَشِ لَا يُوجَدُ فِيهَا ٱلْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَدِلَّاءُ ٱلرُّكْبَانِ فَلَا يَرْتَكِبُ خَطَرَ هٰذَا ٱلطَّرِيقِ وَبُعْدَهُ إِلَّا ٱلْأَقَلُّ مِنَ ٱلنَّاسِ فَتَجِدُ

سِلَعَ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ قَلِيلَةً لَدَيْنَا فَتَخْتَصُّ بِٱلْغَلَاءِ وَكَذٰلِكَ سِلَعُنَا لَدَيْهِمْ فَتَعْظُمُ بَضَائِعُ ٱلتُّجَّارِ مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمِ ٱلْغِنَى وَٱلثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ وَكَذٰلِكَ ٱلْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا إِلَى ٱلْمَشْرِقِ لِبُعْدِ ٱلشُّقَّةِ أَيْضًا وَأَمَّا ٱلْمُتَرَدِّدُونَ فِي أُفُقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبُلْدَانِهِ فَفَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ وَأَرْبَاحُهُمْ تَافِهَةٌ لِكَثْرَةِ ٱلسِّلَعِ وَكَثْرَةِ نَاقِلِيهَا وَٱللّٰهُ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وَمِمَّا ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي ٱلْبَصَرِ وَٱلتَّجْرِبَةِ فِي ٱلْأَمْصَارِ أَنَّ ٱحْتِكَارَ ٱلزَّرْعِ لِتَحَيُّنِ أَوْقَاتِ ٱلْغَلَاءِ مَشْؤُمٌ وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِٱلتَّلَفِ وَٱلْخُسْرَانِ وَسَبَبُهُ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ أَنَّ ٱلنَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى ٱلْأَقْوَاتِ مُضْطَرُّونَ إِلَى مَا يَبْذُلُونَ فِيهَا مِنَ ٱلْمَالِ ٱضْطِرَارًا فَتَبْقَى ٱلنُّفُوسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ ٱلنُّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ يَأْخُذُهُ مَجَّانًا وَلَعَلَّهُ ٱلَّذِي ٱعْتَبَرَهُ ٱلشَّارِعُ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَجَّانًا فَٱلنُّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي ٱلْعُذْرِ فَهُوَ كَٱلْمُكْرَهِ وَمَا عَدَا ٱلْأَقْوَاتَ وَٱلْمَأْكُولَاتِ مِنَ ٱلْمَبِيعَاتِ لَا ٱضْطِرَارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهَا ٱلتَّفَنُّنُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ فَلَا يَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِٱخْتِيَارٍ وَحِرْصٍ وَلَا يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أَعْطَوْهُ فَلِهٰذَا يَكُونُ مَنْ عُرِفَ بِٱلِٱحْتِكَارِ تَجْتَمِعُ ٱلْقُوَى ٱلنَّفْسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رِبْحُهُ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَسَمِعْتُ فِيمَا يُنَاسِبُ هٰذَا حِكَايَةً ظَرِيفَةً عَنْ بَعْضِ مَشْيَخَةِ ٱلْمَغْرِبِ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْأَبْلِيُّ قَالَ حَضَرْتُ عِنْدَ ٱلْقَاضِي بِفَاسَ لِعَهْدِ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ وَهُوَ ٱلْفَقِيهُ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْمَلِيلِيُّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ ٱلْأَلْقَابِ ٱلْمَخْزَنِيَّةِ لِجِرَايَتِهِ قَالَ فَأَطْرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ مِنْ مَكْسِ ٱلْخَمْرِ فَٱسْتَضْحَكَ ٱلْحَاضِرُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَجِبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذٰلِكَ فَقَالَ إِذَا كَانَتِ ٱلْجِبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَامًا فَأَخْتَارُ مِنْهَا مَا لَا تُتَابِعُهُ نَفْسُ مُعْطِيهِ وَٱلْخَمْرُ قَلَّ أَنْ يَبْذُلَ فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ طَرِبٌ مَسْرُورٌ بِوُجُودَانِهِ غَيْرُ أَسِفٍ عَلَيْهِ وَلَا مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ نَفْسُهُ وَهٰذِهِ مُلَاحَظَةٌ غَرِيبَةٌ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ٱلصُّدُورُ

الفصل الرابع عشر

في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ وَٱلْمَعَاشَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِٱلصَّنَائِعِ أَوِ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلتِّجَارَةُ هِيَ شِرَاءُ ٱلْبَضَائِعِ وَٱلسِّلَعِ وَٱدِّخَارُهَا يَتَحَيَّنُ بِهَا حَوَالَةَ ٱلْأَسْوَاقِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي أَثْمَانِهَا وَيُسَمَّى رِبْحًا وَيَحْصُلُ مِنْهُ ٱلْكَسْبُ وَٱلْمَعَاشُ لِلْمُحْتَرِفِينَ بِٱلتِّجَارَةِ دَائِمًا فَإِذَا ٱسْتُدِيمَ ٱلرُّخْصُ فِي سِلْعَةٍ أَوْ عَرَضٍ مِنْ مَأْكُولٍ أَوْ مَلْبُوسٍ أَوْ مُتَمَوَّلٍ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لِلتَّاجِرِ حَوَالَةُ ٱلْأَسْوَاقِ فَسَدَ ٱلرِّبْحُ وَٱلنَّمَاءُ بِطُولِ تِلْكَ ٱلْمُدَّةِ وَكَسَدَتْ سُوقُ ذَٰلِكَ ٱلصِّنْفِ فَقَعَدَ ٱلتُّجَّارُ عَنِ ٱلسَّعْيِ فِيهَا وَفَسَدَتْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ أَوَّلًا بِٱلزَّرْعِ فَإِنَّهُ إِذَا ٱسْتُدِيمَ رُخْصُهُ يَفْسُدُ بِهِ حَالُ ٱلْمُحْتَرِفِينَ بِسَائِرِ أَطْوَارِهِ مِنَ ٱلْفَلْحِ وَٱلزِّرَاعَةِ لِقِلَّةِ ٱلرِّبْحِ فِيهِ وَنَدَارَتِهِ أَوْ فَقْدِهِ فَيَفْقِدُونَ ٱلنَّمَاءَ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ يَجِدُونَهُ عَلَى قِلَّةٍ وَيَعُودُونَ بِٱلْإِنْفَاقِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ وَيَتْبَعُ ذَٰلِكَ فَسَادُ حَالِ ٱلْمُحْتَرِفِينَ أَيْضًا بِٱلطَّحْنِ وَٱلْخَبْزِ وَسَائِرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلزِّرَاعَةِ مِنَ ٱلْحَرْثِ إِلَى صَيْرُورَتِهِ مَأْكُولًا وَكَذَا يَفْسُدُ حَالُ ٱلْجُنْدِ إِذَا كَانَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى أَهْلِ ٱلْفَلْحِ زَرْعًا فَإِنَّهَا تَقِلُّ جِبَايَتُهُمْ مِنْ ذَٰلِكَ وَيَعْجِزُونَ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْجُنْدِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ بِسَبَبِهَا وَمُطَالَبُونَ بِهَا وَمُنْقَطِعُونَ لَهَا فَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَكَذَا إِذَا ٱسْتُدِيمَ ٱلرُّخْصُ فِي ٱلسُّكَّرِ أَوِ ٱلْعَسَلِ فَسَدَ جَمِيعُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَقَعَدَ ٱلْمُحْتَرِفُونَ عَنِ ٱلتِّجَارَةِ فِيهِ وَكَذَا ٱلْمَلْبُوسَاتُ إِذَا ٱسْتُدِيمَ فِيهَا ٱلرُّخْصُ فَإِذًا ٱلرُّخْصُ ٱلْمُفْرِطُ يُجْحِفُ بِمَعَاشِ ٱلْمُحْتَرِفِينَ بِذَٰلِكَ ٱلصِّنْفِ ٱلرَّخِيصِ وَكَذَا ٱلْغَلَاءُ ٱلْمُفْرِطُ أَيْضًا وَإِنَّمَا مَعَاشُ ٱلنَّاسِ وَكَسْبُهُمْ فِي ٱلتَّوَسُّطِ مِنْ ذَٰلِكَ وَسُرْعَةِ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَعِلْمُ ذَٰلِكَ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْعَوَائِدِ ٱلْمُتَقَرِّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ وَإِنَّمَا يُحْمَدُ ٱلرُّخْصُ فِي ٱلزَّرْعِ مِنْ بَيْنِ ٱلْمَبِيعَاتِ لِعُمُومِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَٱضْطِرَارِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْأَقْوَاتِ مِنْ بَيْنِ ٱلْغَنِيِّ وَٱلْفَقِيرِ وَٱلْعَالَةُ مِنَ ٱلْخَلْقِ هُمُ ٱلْأَكْثَرُ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَيَعُمُّ ٱلرِّفْقُ بِذَٰلِكَ وَيُرَجَّحُ جَانِبُ ٱلْقُوتِ عَلَى جَانِبِ ٱلتِّجَارَةِ فِي هَٰذَا ٱلصِّنْفِ ٱلْخَاصِّ وَٱللَّهُ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ

الفصل الخامس عشر

في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قَدْ قَدَّمْنَا فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ ٱلتَّاجِرَ مَدْفُوعٌ إِلَى مُعَانَاةِ ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَجَلْبِ ٱلْفَوَائِدِ وَٱلْأَرْبَاحِ وَلَا بُدَّ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمُكَايَسَةِ وَٱلْمُمَاحَكَةِ وَٱلتَّحَذْلُقِ وَمُمَارَسَةِ ٱلْخُصُومَاتِ وَٱللَّجَاجِ وَهِيَ عَوَارِضُ هٰذِهِ ٱلْحِرْفَةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَوْصَافُ نَقْصٌ مِنَ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَتَجْرَحُ فِيهَا لِأَنَّ ٱلْأَفْعَالَ لَا بُدَّ مِنْ عَوْدِ آثَارِهَا عَلَى ٱلنَّفْسِ فَأَفْعَالُ ٱلْخَيْرِ تَعُودُ بِآثَارِ ٱلْخَيْرِ وَٱلذَّكَاءِ وَأَفْعَالُ ٱلشَّرِّ وَٱلسَّفْسَفَةِ تَعُودُ بِضِدِّ ذٰلِكَ فَتَتَمَكَّنُ وَتَرْسَخُ إِنْ سَبَقَتْ وَتَكَرَّرَتْ وَتَنْقُصُ خِلَالَ ٱلْخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا بِمَا يَنْطَبِعُ مِنْ آثَارِهَا ٱلْمَذْمُومَةِ فِي ٱلنَّفْسِ شَأْنَ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلنَّاشِئَةِ عَنِ ٱلْأَفْعَالِ وَتَتَفَاوَتُ هٰذِهِ ٱلْآثَارُ بِتَفَاوُتِ أَصْنَافِ ٱلتُّجَّارِ فِي أَطْوَارِهِمْ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ سَافِلَ ٱلطَّوْرِ مُحَالِفًا لِأَشْرَارِ ٱلْبَاعَةِ أَهْلِ ٱلْغِشِّ وَٱلْخِلَابَةِ وَٱلْفُجُورِ فِي ٱلْأَثْمَانِ إِقْرَارًا وَإِنْكَارًا كَانَتْ رَدَاءَةُ تِلْكَ ٱلْخُلُقِ عِنْدَهُ أَشَدَّ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ ٱلسَّفْسَفَةُ وَبَعُدَ عَنِ ٱلْمُرُوءَةِ وَٱكْتِسَابِهَا بِٱلْجُمْلَةِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلْمُكَايَسَةِ وَٱلْمُمَاحَكَةِ فِي مُرُوءَتِهِ وَفِقْدَانِ ذٰلِكَ مِنْهُمْ فِي ٱلْجُمْلَةِ وَوُجُودُ ٱلصِّنْفِ ٱلثَّانِي مِنْهُمُ ٱلَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّهُمْ يَدَّرِعُونَ بِٱلْجَاهِ وَيُعَوِّضُ لَهُمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ ذٰلِكَ فَهُمْ نَادِرٌ وَأَقَلُّ مِنَ ٱلنَّادِرِ وَذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَالُ قَدْ يُوجَدُ عِنْدَهُ دَفْعَةً بِنَوْعٍ غَرِيبٍ أَوْ وَرِثَهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَحَصَلَتْ لَهُ ثَرْوَةٌ تُعِينُهُ عَلَى ٱلِٱتِّصَالِ بِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَتُكْسِبُهُ ظُهُورًا وَشُهْرَةً بَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ فَيَرْتَفِعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ ذٰلِكَ بِنَفْسِهِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ يَقُومُ لَهُ بِهِ مِنْ وُكَلَائِهِ وَحَشَمِهِ وَيَسْهُلُ لَهُ ٱلْحُكَّامُ ٱلنَّصَفَةَ فِي حُقُوقِهِمْ بِمَا يُؤْنِسُونَهُ مِنْ بِرِّهِ وَإِتْحَافِهِ فَيُبْعِدُونَهُ عَنْ تِلْكَ ٱلْخُلُقِ بِٱلْبُعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لَهَا كَمَا مَرَّ فَتَكُونُ مُرُوءَتُهُمْ أَرْسَخَ وَأَبْعَدَ عَنْ تِلْكَ ٱلْمُحَاجَاةِ إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحِجَابِ فَإِنَّهُمْ يُضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أُولٰئِكَ ٱلْوُكَلَاءِ وَرِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ يَذَرُونَ مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ وَٱللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس عشر

في ان الصنائع لا بد لها من العلم

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلصِّنَاعَةَ هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَمْرٍ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ وَبِكَوْنِهِ عَمَلِيًّا هُوَ جِسْمَانِيٌّ

مَحْسُوسٌ وَالْأَحْوَالُ الْجِسْمَانِيَّةُ الْمَحْسُوسَةُ فَنَقْلُهَا بِالْمُبَاشَرَةِ أَوْعَبُ لَهَا وَأَكْمَلُ لِأَنَّ الْمُبَاشَرَةَ فِي الْأَحْوَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ الْمَحْسُوسَةِ أَتَمُّ فَائِدَةً وَالْمَلَكَةُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ تَحْصُلُ عَنِ اسْتِعْمَالِ ذٰلِكَ الْفِعْلِ وَتَكَرُّرِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرْسَخَ صُورَتُهُ وَعَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ تَكُونُ الْمَلَكَةُ وَنَقْلُ الْمُعَايَنَةِ أَوْعَبُ وَأَتَمُّ مِنْ نَقْلِ الْخَبَرِ وَالْعِلْمِ فَالْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ عَنِ الْخَبَرِ عَلَى قَدْرِ جُودَةِ التَّعْلِيمِ وَمَلَكَةِ الْمُتَعَلِّمِ فِي الصِّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ ثُمَّ إِنَّ الصَّنَائِعَ مِنْهَا الْبَسِيطُ وَمِنْهَا الْمُرَكَّبُ وَالْبَسِيطُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالضَّرُورِيَّاتِ وَالْمُرَكَّبُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالِيَّاتِ وَالْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي التَّعْلِيمِ هُوَ الْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ أَوَّلاً وَلِأَنَّهُ مُخْتَصٌّ بِالضَّرُورِيِّ الَّذِي تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ فَيَكُونُ سَابِقًا فِي التَّعْلِيمِ وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ نَاقِصًا وَلَا يَزَالُ الْفِكْرُ يُخْرِجُ أَصْنَافَهَا وَمُرَكَّبَاتِهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بِالِاسْتِنْبَاطِ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى التَّدْرِيجِ حَتَّى تَكْمُلَ وَلَا يَحْصُلُ ذٰلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَحْصُلُ فِي أَزْمَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذْ خُرُوجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيَّمَا فِي الْأُمُورِ الصِّنَاعِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهُ إِذَنْ مِنْ زَمَانٍ وَلِهٰذَا تَجِدُ الصَّنَائِعَ فِي الْأَمْصَارِ الصَّغِيرَةِ نَاقِصَةً وَلَا يُوجَدُ مِنْهَا إِلَّا الْبَسِيطُ فَإِذَا تَزَايَدَتْ حِضَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورُ التَّرَفِ فِيهَا إِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّنَائِعِ خَرَجَتْ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَتَنْقَسِمُ الصَّنَائِعُ أَيْضًا إِلَى مَا يَخْتَصُّ بِأَمْرِ الْمَعَاشِ ضَرُورِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ وَإِلَى مَا يَخْتَصُّ بِالْأَفْكَارِ الَّتِي هِيَ خَاصِّيَّةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَمِنَ الْأَوَّلِ الْحِيَاكَةُ وَالْجِزَارَةُ وَالنِّجَارَةُ وَالْحِدَادَةُ وَأَمْثَالُهَا وَمِنَ الثَّانِي الْوِرَاقَةُ وَهِيَ مُعَانَاةُ الْكُتُبِ بِالِانْتِسَاخِ وَالتَّجْلِيدِ وَالْغِنَاءُ وَالشِّعْرُ وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ وَمِنَ الثَّالِثِ الْجُنْدِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا وَاللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل السابع عشر

في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ الْعُمْرَانُ الْحَضَرِيُّ وَتَتَمَدَّنُ الْمَدِينَةُ إِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي الضَّرُورِيِّ مِنَ الْمَعَاشِ وَهُوَ تَحْصِيلُ الْأَقْوَاتِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا تَمَدَّنَتِ الْمَدِينَةُ وَتَزَايَدَتْ فِيهَا الْأَعْمَالُ وَوَفَتْ بِالضَّرُورِيِّ وَزَادَتْ عَلَيْهِ صُرِفَ الزَّائِدُ حِينَئِذٍ إِلَى الْكَمَالَاتِ مِنَ الْمَعَاشِ ثُمَّ إِنَّ الصَّنَائِعَ وَالْعُلُومَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ فِكْرُهُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْقُوتُ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْحَيَوَانِيَّةُ وَالْغِذَائِيَّةُ فَهُوَ

مُقَدَّمٌ لِضَرُورِيَّتِهِ عَلَى ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَهِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنِ ٱلضَّرُورِيِّ وَعَلَى مِقْدَارِ عُمْرَانِ ٱلْبَلَدِ تَكُونُ جَوْدَةُ ٱلصَّنَائِعِ لِلتَّأَنُّقِ فِيهَا حِينَئِذٍ وَٱسْتِجَادَةِ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا بِحَيْثُ تَتَوَفَّرُ دَوَاعِي ٱلتَّرَفِ وَٱلثَّرْوَةِ وَأَمَّا ٱلْعُمْرَانُ ٱلْبَدَوِيُّ أَوِ ٱلْقَلِيلُ فَلَا يَحْتَاجُ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ إِلَّا ٱلْبَسِيطَ خَاصَّةً ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي ٱلضَّرُورِيَّاتِ مِنْ نَجَّارٍ أَوْ حَدَّادٍ أَوْ خَيَّاطٍ أَوْ حَائِكٍ أَوْ جَزَّارٍ وَإِذَا وُجِدَتْ هٰذِهِ بَعْدُ فَلَا تُوجَدُ فِيهِ كَامِلَةً وَلَا مُسْتَجَادَةً وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِنْهَا بِمِقْدَارِ ٱلضَّرُورَةِ إِذْ هِيَ كُلُّهَا وَسَائِلُ إِلَى غَيْرِهَا وَلَيْسَتْ مَقْصُودَةً لِذَاتِهَا وَإِذَا زَخَرَ بَحْرُ ٱلْعُمْرَانِ وَطُلِبَتْ فِيهِ ٱلْكَمَالَاتُ كَانَ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلتَّأَنُّقُ فِي ٱلصَّنَائِعِ وَٱسْتِجَادَتُهَا فَكَمُلَتْ بِجَمِيعِ مُتَمِّمَاتِهَا وَتَزَايَدَتْ صَنَائِعُ أُخْرَى مَعَهَا مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ ٱلتَّرَفِ وَأَحْوَالُهُ مِنْ جَزَّارٍ وَدَبَّاغٍ وَخَرَّازٍ وَصَائِغٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَقَدْ تَنْتَهِي هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافُ إِذَا ٱسْتَبْحَرَ ٱلْعُمْرَانُ إِلَى أَنْ يُوجَدَ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلْكَمَالَاتِ وَٱلتَّأَنُّقُ فِيهَا فِي ٱلْغَايَةِ وَتَكُونُ مِنْ وُجُوهِ ٱلْمَعَاشِ فِي ٱلْمِصْرِ لِمُنْتَحِلِهَا بَلْ تَكُونُ فَائِدَتُهَا مِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ ٱلْأَعْمَالِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلتَّرَفُ فِي ٱلْمَدِينَةِ مِثْلَ ٱلدَّهَّانِ وَٱلصَّفَّارِ وَٱلْحَمَّامِيِّ وَٱلطَّبَّاخِ وَٱلشَّمَّاعِ وَٱلْهَرَّاسِ وَمُعَلِّمِ ٱلْغِنَاءِ وَٱلرَّقْصِ وَقَرْعِ ٱلطُّبُولِ عَلَى ٱلتَّوْقِيعِ وَمِثْلَ ٱلْوَرَّاقِينَ ٱلَّذِينَ يُعَانُونَ صِنَاعَةَ ٱنْتِسَاخِ ٱلْكُتُبِ وَتَجْلِيدِهَا وَتَصْحِيحِهَا فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَيْهَا ٱلتَّرَفُ فِي ٱلْمَدِينَةِ مِنَ ٱلِٱشْتِغَالِ بِٱلْأُمُورِ ٱلْفِكْرِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَقَدْ تَخْرُجُ عَنِ ٱلْحَدِّ إِذَا كَانَ ٱلْعُمْرَانُ خَارِجًا عَنِ ٱلْحَدِّ كَمَا بَلَغَنَا عَنْ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُعَلِّمُ ٱلطُّيُورَ ٱلْعُجْمَ وَٱلْحُمُرَ ٱلْإِنْسِيَّةَ وَيَتَخَيَّلُ أَشْيَاءَ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ بِإِيهَامِ قَلْبِ ٱلْأَعْيَانِ وَتَعْلِيمِ ٱلْحُدَاءِ وَٱلرَّقْصِ وَٱلْمَشْيِ عَلَى ٱلْخُيُوطِ فِي ٱلْهَوَاءِ وَرَفْعِ ٱلْأَثْقَالِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلْحِجَارَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي لَا تُوجَدُ عِنْدَنَا بِٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّ عُمْرَانَ أَمْصَارِهِ لَمْ يَبْلُغْ عُمْرَانَ مِصْرَ وَٱلْقَاهِرَةِ أَدَامَ ٱللهُ عُمْرَانَهَا بِٱلْمُسْلِمِينَ

الفصل الثامن عشر

في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امده

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا عَوَائِدُ لِلْعُمْرَانِ وَٱلْأَلْوَانِ وَٱلْعَوَائِدُ إِنَّمَا تَرْسَخُ بِكَثْرَةِ ٱلتَّكْرَارِ وَطُولِ ٱلْأَمَدِ فَتَسْتَحْكِمُ صِبْغَةُ ذٰلِكَ وَتَرْسَخُ فِي ٱلْأَجْيَالِ وَإِذَا ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلصِّبْغَةُ عَسُرَ نَزْعُهَا وَلِهٰذَا نَجِدُ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلَّتِي كَانَتِ ٱسْتَبْحَرَتْ فِي

ٱلْحَضَارَةِ لَمَّا تَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَتَنَاقَصَ بَقِيَتْ فِيهَا آثَارٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُسْتَحْدَثَةِ ٱلْعُمْرَانِ وَلَوْ بَلَغَتْ مَبَالِغَهَا فِي ٱلْوُفُورِ وَٱلْكَثْرَةِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ أَحْوَالَ تِلْكَ ٱلْقَدِيمَةِ ٱلْعُمْرَانِ مُسْتَحْكِمَةٌ رَاسِخَةٌ بِطُولِ ٱلْأَحْقَابِ وَتَدَاوُلِ ٱلْأَحْوَالِ وَتَكَرُّرِهَا وَهٰذِهِ لَمْ تَبْلُغِ ٱلْغَايَةَ بَعْدُ وَهٰذَا كَٱلْحَالِ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَإِنَّا نَجِدُ فِيهَا رُسُومَ ٱلصَّنَائِعِ قَائِمَةً وَأَحْوَالَهَا مُسْتَحْكِمَةً رَاسِخَةً فِي جَمِيعِ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ أَمْصَارِهَا كَٱلْمَبَانِي وَٱلطَّبْخِ وَأَصْنَافِ ٱلْغِنَاءِ وَٱللَّهْوِ مِنَ ٱلْآلَاتِ وَٱلْأَوْتَارِ وَٱلرَّقْصِ وَتَنْضِيدِ ٱلْفُرُشِ فِي ٱلْقُصُورِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْتِيبِ وَٱلْأَوْضَاعِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَصَوْغِ ٱلْآنِيَةِ مِنَ ٱلْمَعَادِنِ وَٱلْخَزَفِ وَجَمِيعِ ٱلْمَوَاعِينِ وَإِقَامَةِ ٱلْوَلَائِمِ وَٱلْأَعْرَاسِ وَسَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا ٱلتَّرَفُ وَعَوَائِدُهُ فَنَجِدُهُمْ أَقْوَمَ عَلَيْهَا وَأَبْصَرَ بِهَا وَنَجِدُ صَنَائِعَهَا مُسْتَحْكِمَةً لَدَيْهِمْ فَهُمْ عَلَى حِصَّةٍ مَوْفُورَةٍ مِنْ ذٰلِكَ وَحَظٍّ مُتَمَيِّزٍ بَيْنَ جَمِيعِ ٱلْأَمْصَارِ وَإِنْ كَانَ عُمْرَانُهَا قَدْ تَنَاقَصَ وَٱلْكَثِيرُ مِنْهُ لَا يُسَاوِي عُمْرَانَ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ ٱلْعُدْوَةِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ رُسُوخِ ٱلْحَضَارَةِ فِيهِمْ بِرُسُوخِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ دَوْلَةِ ٱلْقُوطِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَوْلَةِ ٱلطَّوَائِفِ وَهَلُمَّ جَرًّا فَبَلَغَتِ ٱلْحَضَارَةُ فِيهَا مَبْلَغًا لَمْ تَبْلُغْهُ فِي قُطْرٍ إِلَّا مَا يُنْقَلُ عَنِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ وَمِصْرَ أَيْضًا لِطُولِ آمَادِ ٱلدُّوَلِ فِيهَا فَٱسْتَحْكَمَتْ فِيهَا ٱلصَّنَائِعُ وَكَمُلَتْ جَمِيعُ أَصْنَافِهَا عَلَى ٱلِٱسْتِجَادَةِ وَٱلتَّنْمِيقِ وَبَقِيَتْ صِبْغَتُهَا ثَابِتَةً فِي ذٰلِكَ ٱلْعُمْرَانِ لَا تُفَارِقُهُ إِلَى أَنْ يَنْتَقِضَ بِٱلْكُلِّيَّةِ حَالُ ٱلصِّبْغِ إِذَا رَسَخَ فِي ٱلثَّوْبِ وَكَذَا أَيْضًا حَالُ تُونِسَ فِيمَا حَصَلَ فِيهَا بِٱلْحَضَارَةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلصِّنْهَاجِيَّةِ وَٱلْمُوَحِّدِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱسْتَكْمَلَ لَهَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فِي سَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ دُونَ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَّا أَنَّهُ مُتَضَاعِفٌ بِرُسُومٍ مِنْهَا تُنْقَلُ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرَ لِقُرْبِ ٱلْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا وَتَرَدُّدِ ٱلْمُسَافِرِينَ مِنْ قُطْرِهَا إِلَى قُطْرِ مِصْرَ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَرُبَّمَا سَكَنَ أَهْلُهَا هُنَاكَ عُصُورًا فَيَنْقُلُونَ مِنْ عَوَائِدِ تَرَفِهِمْ وَمُحْكَمِ صَنَائِعِهِمْ مَا يَقَعُ لَدَيْهِمْ مَوْقِعَ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَصَارَتْ أَحْوَالُهَا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهَةً مِنْ أَحْوَالِ مِصْرَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ أَحْوَالِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ سَاكِنِهَا مِنْ شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ حِينَ ٱلْجَلَاءِ لِعَهْدِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَرَسَخَ فِيهَا مِنْ ذٰلِكَ أَحْوَالٌ وَإِنْ كَانَ عُمْرَانُهَا لَيْسَ بِمُنَاسِبٍ لِذٰلِكَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ إِلَّا أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ إِذَا ٱسْتَحْكَمَتْ فَقَلِيلًا مَا تَحُولُ إِلَّا بِزَوَالِ مَحَلِّهَا وَكَذَا نَجِدُ بِٱلْقَيْرَوَانِ وَمَرَّاكُشَ وَقَلْعَةِ

ٱبْنِ حَمَّادٍ أَثَرًا بَاقِيًا مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَتْ هٰذِهِ كُلُّهَا ٱلْيَوْمَ خَرَابًا أَوْ فِي حُكْمِ ٱلْخَرَابِ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا ٱلْبَصِيرُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَيَجِدُ مِنْ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ آثَارًا تَدُلُّهُ عَلَى مَا كَانَ بِهَا كَأَثَرِ ٱلْخَطِّ ٱلْمَمْحُوِّ فِي ٱلْكِتَابِ وَٱللّٰهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ

الفصل التاسع عشر

في ان الصنائع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْمَحُ بِعَمَلِهِ أَنْ يَقَعَ مَجَّانًا لِأَنَّهُ كَسْبُهُ وَمِنْهُ مَعَاشُهُ إِذْ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ فَلَا يَصْرِفُهُ إِلَّا فِيمَا لَهُ قِيمَةٌ فِي مِصْرِهِ لِيَعُودَ عَلَيْهِ بِٱلنَّفْعِ وَإِنْ كَانَتِ ٱلصِّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً وَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا ٱلنَّفَاقُ كَانَتْ حِينَئِذٍ ٱلصِّنَاعَةُ بِمَثَابَةِ ٱلسِّلْعَةِ ٱلَّتِي تَنْفُقُ سُوقُهَا وَتُجْلَبُ لِلْبَيْعِ فَتَجْتَهِدُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتَعَلُّمِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ لِيَكُونَ مِنْهَا مَعَاشُهُمْ وَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً لَمْ تَنْفُقْ سُوقُهَا وَلَا يُوَجَّهُ قَصْدٌ إِلَى تَعَلُّمِهَا فَٱخْتُصَّتْ بِٱلتَّرْكِ وَفُقِدَتْ لِلْإِهْمَالِ وَلِهٰذَا يُقَالُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُ بِمَعْنَى أَنَّ صِنَاعَتَهُ هِيَ قِيمَتُهُ أَيْ قِيمَةُ عَمَلِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَعَاشُهُ وَأَيْضًا فَهُنَا سِرٌّ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ وَإِجَادَتَهَا إِنَّمَا تَطْلُبُهَا ٱلدَّوْلَةُ فَهِيَ ٱلَّتِي تَنْفُقُ سُوقُهَا وَتُوَجَّهُ ٱلطَّالِبَاتُ إِلَيْهَا وَمَا لَمْ تَطْلُبْهُ ٱلدَّوْلَةُ وَإِنَّمَا يَطْلُبُهَا غَيْرُهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ فَلَيْسَ عَلَى نِسْبَتِهَا لِأَنَّ ٱلدَّوْلَةَ هِيَ ٱلسُّوقُ ٱلْأَعْظَمُ وَفِيهَا نَفَاقُ كُلِّ شَيْءٍ وَٱلْقَلِيلُ وَٱلْكَثِيرُ فِيهَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فَمَا نَفَقَ مِنْهَا كَانَ أَكْثَرِيًّا ضَرُورَةً وَٱلسُّوقَةُ وَإِنْ طَلَبُوا ٱلصِّنَاعَةَ فَلَيْسَ طَلَبُهُمْ بِعَامٍّ وَلَا سُوقُهُمْ بِنَافِقَةٍ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ

الفصل العشرون

في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وَذٰلِكَ لِمَا بَيَّنَّا أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ إِنَّمَا تُسْتَجَادُ إِذَا ٱحْتِيجَ إِلَيْهَا وَكَثُرَ طَالِبُهَا وَإِذَا ضَعُفَتْ أَحْوَالُ ٱلْمِصْرِ وَأَخَذَ فِي ٱلْهَرَمِ بِٱنْتِقَاصِ عُمْرَانِهِ وَقِلَّةِ سَاكِنِهِ تَنَاقَصَ فِيهِ ٱلتَّرَفُ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلِٱقْتِصَارِ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فَتَقِلُّ ٱلصَّنَائِعُ ٱلَّتِي كَانَتْ مِنْ تَوَابِعِ ٱلتَّرَفِ لِأَنَّ صَاحِبَهَا حِينَئِذٍ لَا يَصِحُّ لَهُ بِهَا مَعَاشُهُ فَيَفِرُّ إِلَى غَيْرِهَا أَوْ يَمُوتُ وَلَا يَكُونُ خَلَفٌ مِنْهُ

فَيَذْهَبُ رَسْمُ تِلْكَ ٱلصَّنَائِعِ جُمْلَةً كَمَا يَذْهَبُ ٱلنَّقَّاشُونَ وَٱلصُّوَّاغُ وَٱلْكُتَّابُ وَٱلنُّسَّاخُ وَأَمْثَالُهُمْ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ لِحَاجَاتِ ٱلتَّرَفِ وَلَا تَزَالُ ٱلصِّنَاعَاتُ فِي ٱلتَّنَاقُصِ إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ وَٱللّٰهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ وَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

الفصل الحادي والعشرون

في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ أَعْرَقُ فِي ٱلْبَدْوِ وَأَبْعَدُ عَنِ ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا وَٱلْعَجَمُ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ وَأُمَمِ ٱلنُّصْرَانِيَّةِ عُدْوَةَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ أَقْوَمُ ٱلنَّاسِ عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَأَبْعَدُ عَنِ ٱلْبَدْوِ وَعُمْرَانِهِ حَتَّى إِنَّ ٱلْإِبِلَ ٱلَّتِي أَعَانَتِ ٱلْعَرَبَ عَلَى ٱلتَّوَحُّشِ فِي ٱلْقَفْرِ وَٱلْإِعْرَاقِ فِي ٱلْبَدْوِ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ بِٱلْجُمْلَةِ وَمَفْقُودَةٌ مَرَاعِيهَا وَٱلرِّمَالُ ٱلْمُهَيِّئَةُ لِنِتَاجِهَا وَلِهٰذَا نَجِدُ أَوْطَانَ ٱلْعَرَبِ وَمَا مَلَكُوهُ فِي ٱلْإِسْلَامِ قَلِيلَ ٱلصَّنَائِعِ بِٱلْجُمْلَةِ حَتَّى تُجْلَبَ إِلَيْهِ مِنْ قُطْرٍ آخَرَ وَٱنْظُرْ بِلَادَ ٱلْعَجَمِ مِنَ ٱلصِّينِ وَٱلْهِنْدِ وَأَرْضِ ٱلتُّرْكِ وَأُمَمَ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ كَيْفَ ٱسْتَكْثَرَتْ فِيهِمِ ٱلصَّنَائِعُ وَٱسْتَجْلَبَهَا ٱلْأُمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ وَعَجَمُ ٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ مِثْلُ ٱلْعَرَبِ فِي ذٰلِكَ لِرُسُوخِهِمْ فِي ٱلْبَدَاوَةِ مُنْذُ أَحْقَابٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ وَيَشْهَدُ لَكَ بِذٰلِكَ قِلَّةُ ٱلْأَمْصَارِ بِقُطْرِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَٱلصَّنَائِعُ بِٱلْمَغْرِبِ لِذٰلِكَ قَلِيلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَحْكِمَةٍ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلصُّوفِ مِنْ نَسْجِهِ وَٱلْجِلْدِ فِي خَرْزِهِ وَدَبْغِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا ٱسْتَحْضَرُوا بَلَغُوا فِيهَا ٱلْمَبَالِغَ لِعُمُومِ ٱلْبَلْوَى بِهَا وَكَوْنِ هٰذَيْنِ أَغْلَبَ ٱلسِّلَعِ فِي قُطْرِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَالِ ٱلْبَدَاوَةِ وَأَمَّا ٱلْمَشْرِقُ فَقَدْ رَسَخَتِ ٱلصَّنَائِعُ فِيهِ مُنْذُ مُلْكِ ٱلْأُمَمِ ٱلْأَقْدَمِينَ مِنَ ٱلْفُرْسِ وَٱلنَّبَطِ وَٱلْقِبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَيُونَانَ وَٱلرُّومِ أَحْقَابًا مُتَطَاوِلَةً فَرَسَخَتْ فِيهِمْ أَحْوَالُ ٱلْحَضَارَةِ وَمِنْ جُمْلَتِهَا ٱلصَّنَائِعُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَمْ يَمْحُ رَسْمَهَا وَأَمَّا ٱلْيَمَنُ وَٱلْبَحْرَانِ وَعُمَانُ وَٱلْجَزِيرَةُ وَإِنْ مَلَكَهُ ٱلْعَرَبُ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاوَلُوا مُلْكَهُ آلَافًا مِنَ ٱلسِّنِينَ فِي أُمَمٍ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ وَٱخْتَطُّوا أَمْصَارَهُ وَمُدُنَهُ وَبَلَغُوا ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ وَحِمْيَرَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَٱلتَّبَابِعَةِ وَٱلْأَذْوَاءِ فَطَالَ أَمَدُ ٱلْمُلْكِ وَٱلْحَضَارَةِ وَٱسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهَا وَتَوَفَّرَتِ ٱلصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ فَلَمْ تَبْلَ بِبِلَى ٱلدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَبَقِيَتْ مُسْتَجِدَّةً حَتَّى ٱلْآنَ وَٱخْتُصَّتْ بِذٰلِكَ ٱلْوَطَنِ كَصِنَاعَةِ ٱلْوَشْيِ وَٱلْعَصْبِ وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ حَوْكِ ٱلثِّيَابِ وَٱلْحَرِيرِ فِيهَا وَٱللّٰهُ وَارِثُ

ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثاني والعشرون

فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعد في ملكة اخرى

وَمِثَالُ ذَلِكَ ٱلْخَيَّاطُ إِذَا أَجَادَ مَلَكَةَ ٱلْخِيَاطَةِ وَأَحْكَمَهَا وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا يُجِيدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلَكَةَ ٱلنِّجَارَةِ أَوِ ٱلْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ٱلْأُولَى لَمْ تَسْتَحْكِمْ بَعْدُ وَلَمْ تَرْسَخْ صِبْغَتُهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ٱلْمَلَكَاتِ صِفَاتٌ لِلنَّفْسِ وَأَلْوَانٌ فَلَا تَزْدَحِمُ دَفْعَةً وَمَنْ كَانَ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ ٱلْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ ٱسْتِعْدَادًا لِحُصُولِهَا فَإِذَا تَلَوَّنَتِ ٱلنَّفْسُ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ ٱلْفِطْرَةِ ضَعُفَ فِيهَا ٱلِٱسْتِعْدَادُ بِٱللَّوْنِ ٱلْحَاصِلِ مِنْ هَذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلَكَةِ أَضْعَفَ وَهَذَا بَيِّنٌ يَشْهَدُ لَهُ ٱلْوُجُودُ فَقَلَّ أَنْ تَجِدَ صَاحِبَ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا ثُمَّ يُحْكِمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعًا عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْإِجَادَةِ حَتَّى أَنَّ أَهْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِينَ مَلَكَتُهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهُمْ بِهَذِهِ ٱلْمَثَابَةِ وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَةِ عِلْمٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي ٱلْغَايَةِ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ مَلَكَةَ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ بَلْ يَكُونُ مُقَصِّرًا فِيهِ إِنْ طَلَبَهُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَمَبْنِيٌّ سَبَبُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلِٱسْتِعْدَادِ وَتَلْوِينِهِ بِلَوْنِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ فِي ٱلنَّفْسِ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث والعشرون

في الاشارة الى امهات الصنائع

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتَدَاوَلَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَهِيَ بِحَيْثُ تَشُذُّ عَنِ ٱلْحَصْرِ وَلَا يَأْخُذُهَا ٱلْعَدُّ إِلَّا أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ فِي ٱلْعُمْرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِٱلْمَوْضِعِ فَنَخُصُّهَا بِٱلذِّكْرِ وَنَتْرُكُ مَا سِوَاهَا فَأَمَّا ٱلضَّرُورِيُّ فَٱلْفِلَاحَةُ وَٱلْبِنَاءُ وَٱلْخِيَاطَةُ وَٱلنِّجَارَةُ وَٱلْحِيَاكَةُ وَأَمَّا ٱلشَّرِيفَةُ بِٱلْمَوْضِعِ فَكَٱلتَّوْلِيدِ وَٱلْكِتَابَةِ وَٱلْوِرَاقَةِ وَٱلْغِنَاءِ وَٱلطِّبِّ فَأَمَّا ٱلتَّوْلِيدُ فَإِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَعَامَّةُ ٱلْبَلْوَى إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ ٱلْمَوْلُودِ وَتَتِمُّ غَالِبًا وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذَلِكَ ٱلْمَوْلُودُونَ وَأُمَّهَاتُهُمْ وَأَمَّا ٱلطِّبُّ فَهُوَ حِفْظُ ٱلصِّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ وَدَفْعُ ٱلْمَرَضِ عَنْهُ وَيَتَفَرَّعُ

عَنْ عِلْمِ ٱلطَّبِيعَةِ وَمَوْضُوعُهُ مَعَ ذٰلِكَ بَدَنُ ٱلإِنْسَانِ وَأَمَّا ٱلْكِتَابَةُ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلْوِرَاقَةِ فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى ٱلإِنْسَانِ حَاجَتَهُ وَمُقَيِّدَةٌ لَهَا عَنِ ٱلنِّسْيَانِ وَمُبَلِّغَةٌ ضَمَائِرَ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلْبَعِيدِ ٱلْغَائِبِ وَمُخَلِّدَةٌ نَتَائِجَ ٱلأَفْكَارِ وَٱلْعُلُومِ فِي ٱلصُّحُفِ وَرَافِعَةٌ رُتَبَ ٱلْوُجُودِ لِلْمَعَانِي وَأَمَّا ٱلْغِنَاءُ فَهُوَ نِسَبُ ٱلأَصْوَاتِ وَمَظْهَرُ جَمَالِهَا لِلأَسْمَاعِ وَكُلُّ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلثَّلاَثِ دَاعٍ إِلَى مُخَالَطَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلأَعَاظِمِ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَمَجَالِسِ أُنْسِهِمْ فَلَهَا بِذٰلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لِغَيْرِهَا وَمَا سِوَى ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فَتَابِعَةٌ وَمُمْتَهَنَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ وَقَدْ يَخْتَلِفُ ذٰلِكَ بِٱخْتِلاَفِ ٱلأَغْرَاضِ وَٱلدَّوَاعِي وَٱللهُ أَعْلَمُ بِٱلصَّوَابِ

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ثَمَرَتُهَا ٱتِّخَاذُ ٱلأَقْوَاتِ وَٱلْحُبُوبِ بِٱلْقِيَامِ عَلَى إِثَارَةِ ٱلأَرْضِ لَهَا وَٱزْدِرَاعِهَا وَعِلاَجِ نَبَاتِهَا وَتَعَهُّدِهِ بِٱلسَّقْيِ وَٱلتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ ثُمَّ حَصَادِ سُنْبُلِهِ وَٱسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ مِنْ غِلاَفِهِ وَإِحْكَامِ ٱلأَعْمَالِ لِذٰلِكَ وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ وَهِيَ أَقْدَمُ ٱلصَّنَائِعِ لِمَا أَنَّهَا مُحَصِّلَةٌ لِلْقُوتِ ٱلْمُكَمِّلِ لِحَيَاةِ ٱلإِنْسَانِ غَالِبًا إِذْ يُمْكِنُ وُجُودُهُ مِنْ دُونِ ٱلْقُوتِ وَلِهٰذَا ٱخْتُصَّتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ بِٱلْبَدْوِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْحَضَرِ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِذٰلِكَ بَدَوِيَّةً لاَ يَقُومُ عَلَيْهَا ٱلْحَضَرُ وَلاَ يَعْرِفُونَهَا لأَنَّ أَحْوَالَهُمْ كُلَّهَا ثَانِيَةٌ عَلَى ٱلْبِدَاوَةِ فَصَنَائِعُهُمْ ثَانِيَةٌ عَنْ صَنَائِعِهَا وَتَابِعَةٌ لَهَا وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُقِيمُ ٱلْعِبَادِ فِيمَا أَرَادَ

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ أَوَّلُ صَنَائِعِ ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَأَقْدَمُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةُ ٱلْعَمَلِ فِي ٱتِّخَاذِ ٱلْبُيُوتِ وَٱلْمَنَازِلِ لِلْكِنِّ وَٱلْمَأْوَى لِلأَبْدَانِ فِي ٱلْمُدُنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلإِنْسَانَ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ لاَ بُدَّ أَنْ يُفَكِّرَ فِيمَا يَدْفَعُ عَنْهُ ٱلأَذَى مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ كَٱتِّخَاذِ ٱلْبُيُوتِ ٱلْمُكْتَنِفَةِ بِٱلسُّقُفِ وَٱلْحِيطَانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا وَٱلْبَشَرُ مُخْتَلِفٌ فِي هٰذِهِ ٱلْجِبِلَّةِ ٱلْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمُ ٱلْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَّخِذُونَ ذٰلِكَ بِٱعْتِدَالٍ أَهَالِي ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ وَٱلسَّادِسِ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْبَدْوِ فَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱتِّخَاذِ ذٰلِكَ لِقُصُورِ

أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون طرق بعضهم بعضاً فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة سياج أو أسوار تحوطهم ويصير جميعاً مدينة واحدة ومصراً واحداً ويحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون إلى الانتصاف ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معناهم من الأمراء وكبار القبائل في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالأصبغة والجص ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنميق إظهاراً للبسطة بالعناية في شأن المأوى ويهيئ مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته والإسطبلات لربط مقرباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معناهم ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ويبالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين وإنما يوجد في الأقاليم المعتدلة له وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربع أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد

وما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مخلطاً بالكلس ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه ويختلط أجزاؤه ثم يزاد التراب ثانياً وثالثاً إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً ثم يعاد نصب اللوحين على صورة ويركز كذلك إلى أن يتم وينظم الألواح كلها سطراً من فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحماً كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب ومن صنائع البناء أيضاً أن تجلل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعاً أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط النارية المفسدة للإلحام فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك إلى أن يلتحم ومن صنائع البناء عمل السقف بأن يمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالدسائر ويصب عليها التراب والكلس ويبسط بالمراكز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما يعالى على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع جسداً وفيه بقية البلل فيشكل على التناسب تخريماً بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواء وربما عولي على الحيطان أيضاً بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو السبج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسفح الماء بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحكمة الخرط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري إلى الصهريج يجلب إليه من خارج القنوات المفضية إلى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء وتختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون وربما يرجع الحكام إلى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء وذلك أن الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء الأعلى

والأسفل ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع
جاره من ذلك إلا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ
للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في
حائطه أو علوه أو قناته لتضايق الجوار أو يدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه
خشية سقوطه ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه أو
يحتاج إلى قسمة دار أو عرصة بين شريكين بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا إهمال
لمنفعتها وأمثال ذلك ويخفى جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله
المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم
المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة
بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كله البصر
والخبرة التي ليست لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون في الجودة والقصور في الأجيال باعتبار
الدول وقوتها فإنا قدمنا أن الصنائع وكمالها إنما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة
الطالب لها فلذلك عند ما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى
غير قطرها كما وقع للوليد ابن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس
ومسجده بالشام فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث
إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء
من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك
فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله وكذلك في جر الأثقال بالهندام فإن الأجرام
العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من
الحائط فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من أثقاب مقدرة على
نسب هندسية تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفاً فيتم المراد من ذلك بغير كلفة
وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر وبمثلها كان بناء الهياكل
الماثلة لهذا العهد التي يحسب أنها من بناء الجاهلية وأن أبدانهم كانت على نسبتها في
العظم الجسماني وليس كذلك وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه
فتفهم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشبا إذا يبست وأول منافعه أن يكون وقودا للنيران في معاشهم وعصيا للاتكاء والذود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والأوتاد لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولا إما بخشب أصغر منه أو ألواح ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول بصنعته إعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الأبواب والكراسي ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يحكم بريها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدسائر فتبدو لرأي العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجيء آنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدسر وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون

لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير إما عموماً أو خصوصاً وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كانت أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدوس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً وبها كان يعرف وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال أن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان ممكناً أعني كونه نجاراً إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم النجارة لأنه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل السابع والعشرون
في صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإلحاماً في العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تنبيتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذه في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى

كَمَا خَلَقْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ حَتَّى لاَ يُعَلِّقَ ٱلْعَبْدُ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِ تَرَفِهِ لاَ طِيبًا وَلاَ نِسَاءً وَلاَ مَخِيطًا وَلاَ خُفًّا وَلاَ يَتَعَرَّضُ لِصَيْدٍ وَلاَ لِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِهِ ٱلَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا نَفْسُهُ وَخُلُقُهُ مَعَ أَنَّهُ يَفْقِدُهَا بِٱلْمَوْتِ ضَرُورَةً وَإِنَّمَا يَجِيءُ كَأَنَّهُ وَارِدٌ إِلَى ٱلْمَحْشَرِ ضَارِعًا بِقَلْبِهِ مُخْلِصًا لِرَبِّهِ وَكَانَ جَزَاؤُهُ إِنْ تَمَّ لَهُ إِخْلاَصُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ سُبْحَانَكَ مَا أَرْفَقَكَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمَكَ بِهِمْ فِي طَلَبِ هِدَايَتِهِمْ إِلَيْكَ. وَهَاتَانِ ٱلصِّنْعَتَانِ قَدِيمَتَانِ فِي ٱلْخَلِيقَةِ لِمَا أَنَّ ٱلدِّفْءَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْمُعْتَدِلِ وَأَمَّا ٱلْمُنْحَرِفُ إِلَى ٱلْحَرِّ فَلاَ يَحْتَاجُ أَهْلُهُ إِلَى دِفْءٍ وَلِهٰذَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ ٱلإِقْلِيمِ ٱلأَوَّلِ مِنَ ٱلسُّودَانِ أَنَّهُمْ عُرَاةٌ فِي ٱلْغَالِبِ وَلِقِدَمِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ يَنْسِبُهَا ٱلْعَامَّةُ إِلَى أَدْرِيسَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ وَهُوَ أَقْدَمُ ٱلأَنْبِيَاءِ وَرُبَّمَا يَنْسِبُونَهَا إِلَى هِرْمِسَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هِرْمِسَ هُوَ أَدْرِيسُ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ ٱلْخَلاَّقُ ٱلْعَلِيمُ

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُعْرَفُ بِهَا ٱلْعَمَلُ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَوْلُودِ ٱلآدَمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنَ ٱلرِّفْقِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ ذٰلِكَ ثُمَّ مَا يُصْلِحُهُ بَعْدَ ٱلْخُرُوجِ عَلَى مَا نَذْكُرُ وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِٱلنِّسَاءِ فِي غَالِبِ ٱلأَمْرِ لِمَا أَنَّهُنَّ ٱلظَّاهِرَاتُ بَعْضُهُنَّ عَلَى عَوْرَاتِ بَعْضٍ وَتُسَمَّى ٱلْقَائِمَةُ عَلَى ذٰلِكَ مِنْهُنَّ ٱلْقَابِلَةَ ٱسْتُعِيرَ فِيهَا مَعْنَى ٱلإِعْطَاءِ وَٱلْقَبُولِ كَأَنَّ ٱلنُّفَسَاءَ تُعْطِيهَا ٱلْجَنِينَ وَكَأَنَّهَا تَقْبَلُهُ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَنِينَ إِذَا ٱسْتَكْمَلَ خَلْقَهُ فِي ٱلرَّحِمِ وَأَطْوَارَهُ وَبَلَغَ إِلَى غَايَتِهِ وَٱلْمُدَّةُ ٱلَّتِي قَدَّرَهَا ٱللهُ لِمَكْثِهِ هِيَ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ فِي ٱلْغَالِبِ فَيَطْلُبُ ٱلْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ ٱللهُ فِي ٱلْمَوْلُودِ مِنَ ٱلنُّزُوعِ لِذٰلِكَ وَيَضِيقُ عَلَيْهِ ٱلْمَنْفَذُ فَيَعْسُرُ وَرُبَّمَا مَزَّقَ بَعْضَ جَوَانِبِ ٱلْفَرْجِ بِٱلضَّغْطِ وَرُبَّمَا ٱنْقَطَعَ بَعْضُ مَا كَانَ مِنَ ٱلأَغْشِيَةِ مِنَ ٱلاِلْتِصَاقِ وَٱلاِلْتِحَامِ بِٱلرَّحِمِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا آلاَمٌ يَشْتَدُّ بِهَا ٱلْوَجَعُ وَهُوَ مَعْنَى ٱلطَّلْقِ فَتَكُونُ ٱلْقَابِلَةُ مُعِينَةً فِي ذٰلِكَ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ بِغَمْزِ ٱلظَّهْرِ وَٱلْوَرِكَيْنِ وَمَا يُحَاذِي ٱلرَّحِمَ مِنَ ٱلأَسَافِلِ تُسَاوِقُ بِذٰلِكَ فِعْلَ ٱلدَّافِعَةِ فِي إِخْرَاجِ ٱلْجَنِينِ وَتَسْهِيلِ مَا يَصْعُبُ مِنْهُ بِمَا يُمْكِنُهَا وَعَلَى مَا تَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَةِ عُسْرِهِ ثُمَّ إِنْ أُخْرِجَ ٱلْجَنِينُ بَقِيَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلرَّحِمِ ٱلْوُصْلَةُ حَيْثُ كَانَ يَتَغَذَّى مِنْهَا مُتَّصِلَةً مِنْ سُرَّتِهِ بِمِعَاهُ وَتِلْكَ

الوُصلةُ عضوٌ فضليٌّ لتغذيةِ المولودِ خاصّةً فتقطعها القابلةُ من حيثُ لا تتعدّى مكانَ
الفضلةِ ولا تضرُّ بمعاهُ ولا برحمِ أمّهِ ثمّ تدملُ مكانَ الجراحةِ منهُ بالكيِّ أو بما
تراهُ من وجوهِ الاندمالِ ثمّ إنّ الجنينَ عندَ خروجهِ من ذلكَ المنفذِ الضيّقِ وهوَ رطبُ
العظامِ سهلُ الانعطافِ والانثناءِ فربّما تتغيّرُ أشكالُ أعضائهِ وأوضاعها لقربِ
التكوينِ ورطوبةِ الموادِّ فتتناولهُ القابلةُ بالغمزِ والإصلاحِ حتّى يرجعَ كلُّ عضوٍ إلى
شكلهِ الطبيعيِّ ووضعهِ المقدّرِ لهُ ويرتدَّ خلقهُ سويًّا ثمّ بعدَ ذلكَ تراجعُ النفساءَ
وتحاذيها بالغمزِ والملاينةِ لخروجِ أغشيةِ الجنينِ لأنّها ربّما تتأخّرُ عن خروجهِ قليلاً
ويُخشى عندَ ذلكَ أن تراجعَ الماسكةُ حالها الطبيعيّةَ قبلَ استكمالِ خروجِ الأغشيةِ
وهيَ فضلاتٌ فتعفنُ ويسري عفنها إلى الرحمِ فيقعُ الهلاكُ فتحاذرُ القابلةُ هذا وتحاولُ
في إعانةِ الدفعِ إلى أن تخرجَ تلكَ الأغشيةُ التي كانت قد تأخّرت ثمّ ترجعُ إلى المولودِ
فتمرّخُ أعضاءهُ بالأدهانِ والذروراتِ القابضةِ لتشدّهُ وتجفّفَ رطوباتِ الرحمِ
وتحنّكهُ لرفعِ لهاتهِ وتسعطهُ لاستفراغِ بطونِ دماغهِ وتغرغرهُ باللعوقِ لدفعِ السددِ
من معاهُ وتجويفها عن الالتصاقِ ثمّ تداوي النفساءَ بعدَ ذلكَ من الوهنِ الذي أصابها
بالطلقِ وما لحقَ رحمها من ألمِ الانفصالِ إذ المولودُ إن لم يكن عضوًا طبيعيًّا فحالةُ
التكوينِ في الرحمِ صيّرتهُ بالالتحامِ كالعضوِ المتّصلِ فلذلكَ كانَ في انفصالهِ ألمٌ
يقربُ من ألمِ القطعِ وتداوي معَ ذلكَ ما يلحقُ الفرجَ من ألمٍ من جراحةِ التمزيقِ
عندَ الضغطِ في الخروجِ وهذهِ كلّها أدواءٌ نجدُ هؤلاءِ القوابلَ أبصرَ بدوائها وكذلكَ
ما يعرضُ للمولودِ مدّةَ الرضاعِ من أدواءٍ في بدنهِ إلى حينِ الفصالِ نجدهنّ أبصرَ بها
منَ الطبيبِ الماهرِ وما ذاكَ إلاّ لأنّ بدنَ الإنسانِ في تلكَ الحالةِ إنّما هوَ بدنٌ إنسانيٌّ
بالقوّةِ فقط فإذا جاوزَ الفصالَ صارَ بدنًا إنسانيًّا بالفعلِ فكانت حاجتهُ حينئذٍ إلى الطبيبِ
أشدَّ فهذهِ الصناعةُ كما تراهُ ضروريّةٌ في العمرانِ للنوعِ الإنسانيِّ لا يتمُّ كونُ
أشخاصهِ في الغالبِ دونها وقد يعرضُ لبعضِ أشخاصِ النوعِ الاستغناءُ عن هذهِ
الصناعةِ إمّا بخلقِ اللهِ ذلكَ لهم معجزةً وخرقًا للعادةِ كما في حقِّ الأنبياءِ صلواتُ
اللهِ وسلامهُ عليهم أو بإلهامٍ وهدايةٍ يُلهمُ لها المولودُ ويُفطرُ عليها فيتمُّ وجودهم
من دونِ هذهِ الصناعةِ فأمّا شأنُ المعجزةِ من ذلكَ فقد وقعَ كثيرًا ومنهُ ما رُوي أنّ

النَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلِدَ مَسْرُورًا مَخْتُونًا وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى ٱلْأَرْضِ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَكَذَٰلِكَ شَأْنُ عِيسَى فِي ٱلْمَهْدِ وَغَيْرُ ذَٰلِكَ وَأَمَّا شَأْنُ ٱلْإِلْهَامِ فَلَا يُنْكَرُ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْحَيَوَانَاتُ ٱلْعُجْمُ تُخْتَصُّ بِغَرَائِبِ ٱلْإِلْهَامَاتِ كَٱلنَّحْلِ وَغَيْرِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْإِنْسَانِ ٱلْمُفَضَّلِ عَلَيْهَا وَخُصُوصًا بِمَنِ ٱخْتُصَّ بِكَرَامَةِ ٱللهِ. ثُمَّ ٱلْإِلْهَامُ ٱلْعَامُّ لِلْمَوْلُودِينَ فِي ٱلْإِقْبَالِ عَلَى ٱلثَّدْيِ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى وُجُودِ ٱلْإِلْهَامِ ٱلْعَامِّ لَهُمْ فَشَأْنُ ٱلْعِنَايَةِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَمِنْ هُنَا يُفْهَمُ بُطْلَانُ رَأْيِ ٱلْفَارَابِيِّ وَحُكَمَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِيمَا ٱحْتَجُّوا بِهِ لِعَدَمِ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَنْوَاعِ وَٱسْتِحَالَةِ ٱنْقِطَاعِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ وَخُصُوصًا فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَقَالُوا لَوِ ٱنْقَطَعَتْ أَشْخَاصُهُ لَاسْتَحَالَ وُجُودُهَا بَعْدَ ذَٰلِكَ لِتَوَقُّفِهِ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلَّتِي لَا يَتِمُّ كَوْنُ ٱلْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا إِذْ لَوْ قَدَّرْنَا مَوْلُودًا دُونَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَكَفَالَتِهَا إِلَى حِينِ ٱلْفِصَالِ لَمْ يَتِمَّ بَقَاؤُهُ أَصْلًا وَوُجُودُ ٱلصَّنَائِعِ دُونَ ٱلْفِكْرِ مُمْتَنِعٌ لِأَنَّهَا ثَمَرَتُهُ وَتَابِعَةٌ لَهُ وَتَكَلَّفَ ٱبْنُ سِينَا فِي ٱلرَّدِّ عَلَى هٰذَا ٱلرَّأْيِ لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُ وَذَهَابِهِ إِلَى إِمْكَانِ ٱنْقِطَاعِ ٱلْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ ٱلتَّكْوِينِ ثُمَّ عَوْدِهِ ثَانِيًا لِاقْتِضَاءَاتٍ فَلَكِيَّةٍ وَأَوْضَاعٍ غَرِيبَةٍ تَنْدُرُ فِي ٱلْأَحْقَابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَخْمِيرَ طِينَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِمِزَاجِهِ بِحَرَارَةٍ مُنَاسِبَةٍ فَيَتِمُّ كَوْنُهُ إِنْسَانًا ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ حَيَوَانٌ يُخْلَقُ فِيهِ إِلْهَامًا لِتَرْبِيَتِهِ وَٱلْحُنُوِّ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وُجُودُهُ وَفِصَالُهُ وَأَطْنَبَ فِي بَيَانِ ذَٰلِكَ فِي ٱلرِّسَالَةِ ٱلَّتِي سَمَّاهَا رِسَالَةَ حَيِّ بْنِ يَقْظَانَ وَهٰذَا ٱلِٱسْتِدْلَالُ غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ كُنَّا نُوَافِقُهُ عَلَى ٱنْقِطَاعِ ٱلْأَنْوَاعِ لٰكِنْ مِنْ غَيْرِ مَا ٱسْتَدَلَّ بِهِ فَإِنَّ دَلِيلَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى إِسْنَادِ ٱلْأَفْعَالِ إِلَى ٱلْعِلَّةِ ٱلْمُوجِبَةِ وَدَلِيلُ ٱلْقَوْلِ بِٱلْفَاعِلِ ٱلْمُخْتَارِ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَلَا وَاسِطَةَ عَلَى ٱلْقَوْلِ بِٱلْفَاعِلِ ٱلْمُخْتَارِ بَيْنَ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْقُدْرَةِ ٱلْقَدِيمَةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هٰذَا ٱلتَّكَلُّفِ. ثُمَّ لَوْ سَلَّمْنَاهُ جَدَلًا فَغَايَةُ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ ٱطِّرَادُ وُجُودِ هٰذَا ٱلشَّخْصِ بِخَلْقِ ٱلْإِلْهَامِ لِتَرْبِيَتِهِ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلْأَعْجَمِ وَمَا ٱلضَّرُورَةُ ٱلدَّاعِيَةُ لِذَٰلِكَ وَإِذَا كَانَ ٱلْإِلْهَامُ يُخْلَقُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلْأَعْجَمِ فَمَا ٱلْمَانِعُ مِنْ خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا وَخَلْقُ ٱلْإِلْهَامِ فِي شَخْصٍ لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ أَقْرَبُ مِنْ خَلْقِهِ فِيهِ لِمَصَالِحِ غَيْرِهِ فَكِلَا ٱلْمَذْهَبَيْنِ شَاهِدَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِٱلْبُطْلَانِ فِي مَنَاحِيهِمَا لِمَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة فأما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمية رأس الدواء فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية وأما قوله أصل كل داء البردة فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الأول وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دما ملائما لأجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذه النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورا بعد طور حتى يصير جزءا بالفعل من البدن وتفسيره أن الغذاء إذا حصل في الفم ولاكته الأشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلبت مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة إذا تناولتها طعاما ثم أجدتها مضغا فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموسا وهو صفو ذلك المطبوخ وترسله إلى الكبد وترسل ما رسب منه في المعى ثفلا ينفذ إلى المخرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير عبيطا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء وترسب منه أجزاء يابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون لحما ثم غليظه عظاما ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحما ثم إن أصل الأمراض ومعظمها هي

ٱلْحُمَّيَاتُ وَسَبَبُهَا أَنَّ ٱلْحَارَّ ٱلْغَرِيزِيَّ قَدْ يَضْعُفُ عَنْ تَمَامِ ٱلنُّضْجِ فِي طَبْخِهِ فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هٰذِهِ فَيَبْقَى ذٰلِكَ ٱلْغِذَاءُ دُونَ نُضْجٍ وَسَبَبُهُ غَالِبًا كَثْرَةُ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلْمَعِدَةِ حَتَّى يَكُونَ أَغْلَبَ عَلَى ٱلْحَارِّ ٱلْغَرِيزِيِّ أَوْ إِدْخَالُ ٱلطَّعَامِ إِلَى ٱلْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْفِيَ طَبْخَ ٱلْأَوَّلِ فَيَسْتَقِلُّ بِهِ ٱلْحَارُّ ٱلْغَرِيزِيُّ وَيَتْرُكُ ٱلْأَوَّلَ بِحَالَةٍ أَوْ يَتَوَزَّعُ عَلَيْهِمَا فَيَقْصُرُ عَنْ تَمَامِ ٱلطَّبْخِ وَٱلنُّضْجِ وَتُرْسِلُهُ ٱلْمَعِدَةُ كَذٰلِكَ إِلَى ٱلْكَبِدِ فَلَا تَقْوَى حَرَارَةُ ٱلْكَبِدِ أَيْضًا عَلَى إِنْضَاجِهِ وَرُبَّمَا بَقِيَ فِي ٱلْكَبِدِ مِنَ ٱلْغِذَاءِ ٱلْأَوَّلِ فَضْلَةٌ غَيْرُ نَاضِجَةٍ وَتُرْسِلُ ٱلْكَبِدُ جَمِيعَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْعُرُوقِ غَيْرَ نَاضِجٍ كَمَا هُوَ فَإِذَا أَخَذَ ٱلْبَدَنُ حَاجَتَهُ ٱلْمُلَائِمَةَ أَرْسَلَهُ مَعَ ٱلْفَضَلَاتِ ٱلْأُخْرَى مِنَ ٱلْعَرَقِ وَٱلدَّمْعِ وَٱللُّعَابِ إِنِ ٱقْتَدَرَ عَلَى ذٰلِكَ وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلْكَثِيرِ مِنْهُ فَيَبْقَى فِي ٱلْعُرُوقِ وَٱلْكَبِدِ وَٱلْمَعِدَةِ وَتَتَزَايَدُ مَعَ ٱلْأَيَّامِ وَكُلُّ ذِي رُطُوبَةٍ مِنَ ٱلْمُمْتَزِجَاتِ إِذَا لَمْ يَأْخُذْهُ ٱلطَّبْخُ وَٱلنُّضْجُ يُعَفَّنُ فَيَتَعَفَّنُ ذٰلِكَ ٱلْغِذَاءُ غَيْرُ ٱلنَّاضِجِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْخِلْطِ وَكُلُّ مُتَعَفِّنٍ فَفِيهِ حَرَارَةٌ غَرِيبَةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ فِي بَدَنِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلْحُمَّى وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِٱلطَّعَامِ إِذَا تُرِكَ حَتَّى يَتَعَفَّنَ وَفِي ٱلزِّبْلِ إِذَا تَعَفَّنَ أَيْضًا كَيْفَ تَنْبَعِثُ فِيهِ ٱلْحَرَارَةُ وَتَأْخُذُ مَأْخَذَهَا فَهٰذَا مَعْنَى ٱلْحُمَّيَاتِ فِي ٱلْأَبْدَانِ وَهِيَ رَأْسُ ٱلْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَهٰذِهِ ٱلْحُمَّيَاتُ عِلَاجُهَا بِقَطْعِ ٱلْغِذَاءِ عَنِ ٱلْمَرِيضِ أَسَابِيعَ مَعْلُومَةً ثُمَّ يَتَنَاوَلُ ٱلْأَغْذِيَةَ ٱلْمُلَائِمَةَ حَتَّى يَتِمَّ بُرْؤُهُ وَذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلصِّحَّةِ عِلَاجٌ فِي ٱلتَّحَفُّظِ مِنْ هٰذَا ٱلْمَرَضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَقَدْ يَكُونُ ذٰلِكَ ٱلْعَفَنُ فِي عُضْوٍ مَخْصُوصٍ فَيَتَوَلَّدُ عَنْهُ مَرَضٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ وَيَحْدُثُ جِرَاحَاتٌ فِي ٱلْبَدَنِ إِمَّا فِي ٱلْأَعْضَاءِ ٱلرَّئِيسِيَّةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا وَقَدْ يَمْرَضُ ٱلْعُضْوُ وَيَحْدُثُ عَنْهُ مَرَضُ ٱلْقُوَى ٱلْمَوْجُودَةِ لَهُ هٰذِهِ كُلُّهَا جُمَّاعُ ٱلْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهَا فِي ٱلْغَالِبِ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ وَهٰذَا كُلُّهُ مَرْفُوعٌ إِلَى ٱلطَّبِيبِ وَوُقُوعُ هٰذِهِ ٱلْأَمْرَاضِ فِي أَهْلِ ٱلْحَضَرِ وَٱلْأَمْصَارِ أَكْثَرُ لِخِصْبِ عَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ مَآكِلِهِمْ وَقِلَّةِ ٱقْتِصَارِهِمْ عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ وَعَدَمِ تَوْقِيتِهِمْ لِتَنَاوُلِهَا وَكَثِيرًا مَا يَخْلِطُونَ بِٱلْأَغْذِيَةِ مِنَ ٱلتَّوَابِلِ وَٱلْبُقُولِ وَٱلْفَوَاكِهِ رَطْبًا وَيَابِسًا فِي سَبِيلِ ٱلْعِلَاجِ بِٱلطَّبْخِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذٰلِكَ عَلَى نَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ فَرُبَّمَا عَدَدْنَا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْوَاحِدِ مِنْ أَلْوَانِ ٱلطَّبْخِ أَرْبَعِينَ نَوْعًا مِنَ ٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانِ فَيَصِيرُ لِلْغِذَاءِ مِزَاجٌ غَرِيبٌ وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيبًا عَنْ مُلَاءَمَةِ ٱلْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْأَهْوِيَةَ فِي ٱلْأَمْصَارِ

تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الأثر الحار الغريزي في الهضم ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ولا تؤثر فيهم أثراً فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأمصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة وأما أهل البدو فمأكولهم قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة وربما يظن أنها جبلة لاستمرارها ثم الأدم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إلى ترف الحضارة الذين هم بمعزل عنه فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات إن كانوا ظواعن ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد إدخال الطعام على الطعام فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض فتقل حاجتهم إلى الطب ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه وما ذاك إلا للاستغناء عنه إذ لو احتيج إليه لوجد لأنه يكون له بذلك في البدو معاش يدعوه إلى سكناه سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

الفصل الثلاثون

في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان وأيضاً فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى البلاد البعيدة فتقضي الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع وخروجها في الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة إذ هو من جملة الصنائع وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا

نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرا أو قراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتأتي ملكته على أتم الوجوه وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال وقد كان الخط العربي بالغا مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر ويقال إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعا والخط والقلم

وهو قول بعيد لأن إياد وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريبا من كتابتهم لهذا العهد أو نقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة لأن هؤلاء

أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً ويتبع رسمه خطأ أو صواباً وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك وأثبت رسماً ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه يقولون في مثل زيادة الألف في لا أذبحنه إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأييد إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح . واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر والكمال في الصنائع إضافي بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس . وقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً وكان ذلك كمالاً في حقه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها وليست الأمية كمالاً في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فإن الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا

ٱلْأَمْصَارَ وَمَلَكُوا ٱلْمَمَالِكَ وَنَزَلُوا ٱلْبَصْرَةَ وَٱلْكُوفَةَ وَٱحْتَاجَتِ ٱلدَّوْلَةُ إِلَى ٱلْكِتَابَةِ ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلُّمَهُ وَتَدَاوَلُوهُ فَتَرَقَّتِ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ وَٱسْتَحْكَمَ وَبَلَغَ فِي ٱلْكُوفَةِ وَٱلْبَصْرَةِ رُتْبَةً مِنَ ٱلْإِتْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ دُونَ ٱلْغَايَةِ وَٱلْخَطُّ ٱلْكُوفِيُّ مَعْرُوفُ ٱلرَّسْمِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ثُمَّ ٱنْتَشَرَ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْمَمَالِكِ وَٱفْتَتَحُوا أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْأَنْدَلُسَ وَٱخْتَطَّ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ بَغْدَادَ وَتَرَقَّتِ ٱلْخُطُوطُ فِيهَا إِلَى ٱلْغَايَةِ لَمَّا ٱسْتَبْحَرَتْ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَكَانَتْ دَارَ ٱلْإِسْلَامِ وَمَرْكَزَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَكَانَ ٱلْخَطُّ ٱلْبَغْدَادِيُّ مَعْرُوفَ ٱلرَّسْمِ وَتَبِعَهُ ٱلْأَفْرِيقِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ رَسْمُهُ ٱلْقَدِيمُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَيَقْرُبُ مِنْ أَوْضَاعِ ٱلْخَطِّ ٱلْمَشْرِقِيِّ وَتَحَيَّزَ مُلْكُ ٱلْأَنْدَلُسِ بِٱلْأُمَوِيِّينَ فَتَمَيَّزُوا بِأَحْوَالِهِمْ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلْخُطُوطِ فَتَمَيَّزَ صِنْفُ خَطِّهِمِ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ ٱلرَّسْمِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَطَمَا بَحْرُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْحَضَارَةِ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَعَظُمَ ٱلْمُلْكُ وَنَفَقَتْ أَسْوَاقُ ٱلْعُلُومِ وَٱنْتُسِخَتِ ٱلْكُتُبُ وَأُجِيدَ كَتْبُهَا وَتَجْلِيدُهَا وَمُلِئَتْ بِهَا ٱلْقُصُورُ وَٱلْخَزَائِنُ ٱلْمُلُوكِيَّةُ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ وَتَنَافَسَ أَهْلُ ٱلْأَقْطَارِ فِي ذٰلِكَ وَتَنَاغَوْا فِيهِ ثُمَّ لَمَّا ٱنْحَلَّ نِظَامُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنَاقَصَتْ تَنَاقَصَ ذٰلِكَ أَجْمَعُ وَدَرَسَتْ مَعَالِمُ بَغْدَادَ بِدُرُوسِ ٱلْخِلَافَةِ فَٱنْتَقَلَ شَأْنُهَا مِنَ ٱلْخَطِّ وَٱلْكِتَابَةِ بَلْ وَٱلْعِلْمِ إِلَى مِصْرَ وَٱلْقَاهِرَةِ فَلَمْ تَزَلْ أَسْوَاقُهُ بِهَا نَافِقَةً لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَهُ بِهَا مُعَلِّمُونَ يَرْسُمُونَ لِتَعْلِيمِ ٱلْحُرُوفِ بِقَوَانِينَ فِي وَضْعِهَا وَأَشْكَالِهَا مُتَعَارَفَةٍ بَيْنَهُمْ فَلَا يَلْبَثُ ٱلْمُتَعَلِّمُ أَنْ يُحْكِمَ أَشْكَالَ تِلْكَ ٱلْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ ٱلْأَوْضَاعِ وَقَدْ لَقِنَهَا حِسًّا وَحَذَقَ فِيهَا دُرْبَةً وَكِتَابًا وَأَخَذَهَا قَوَانِينَ عِلْمِيَّةً فَتَجِيءُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فَٱفْتَرَقُوا فِي ٱلْأَقْطَارِ عِنْدَ تَلَاشِي مُلْكِ ٱلْعَرَبِ بِهَا وَمَنْ خَلَفَهُمْ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَمُ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ فَٱنْتَشَرُوا فِي عُدْوَةِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ مِنْ لَدُنِ ٱلدَّوْلَةِ ٱللَّمْتُونِيَّةِ إِلَى هٰذَا ٱلْعَهْدِ وَشَارَكُوا أَهْلَ ٱلْعُمْرَانِ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَتَعَلَّقُوا بِأَذْيَالِ ٱلدَّوْلَةِ فَغَلَبَ خَطُّهُمْ عَلَى ٱلْخَطِّ ٱلْأَفْرِيقِيِّ وَعَفَى عَلَيْهِ وَنُسِيَ خَطُّ ٱلْقَيْرَوَانِ وَٱلْمَهْدِيَّةِ بِنِسْيَانِ عَوَائِدِهِمَا وَصَنَائِعِهِمَا وَصَارَتْ خُطُوطُ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ كُلُّهَا عَلَى ٱلرَّسْمِ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ بِتُونِسَ وَمَا إِلَيْهَا لِتَوَفُّرِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ بِهَا عِنْدَ ٱلْجَالِيَةِ مِنْ شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَبَقِيَ مِنْهُ رَسْمٌ بِبِلَادِ ٱلْجَرِيدِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُخَالِطُوا كُتَّابَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَلَا تَمَرَّسُوا بِجِوَارِهِمْ إِنَّمَا كَانُوا يَغْدُونَ عَلَى دَارِ ٱلْمُلْكِ بِتُونِسَ فَصَارَ خَطُّ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ مِنْ أَحْسَنِ خُطُوطِ

أهل الأندلس حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فارس قريباً واستعمالهم إياهم سائر الدولة ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف فصارت الخطوط بأفريقية والمغربيين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والإتقان ثم طما بحر التآليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة

الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها والفتيا إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها إلى مدونها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمخضت زبدة في ذلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند الأمة وصار القصد إلى ذلك لغواً من العمل ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضنانة. ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التآليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالأندلس إلا إثارة خفية بالإمحاء وهي الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب والله غالب على أمره ويبلغنا لهذا العهد

أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلرِّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِٱلْمَشْرِقِ وَتَصْحِيحُ ٱلدَّوَاوِينِ لِمَنْ يَرُومُهُ بِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى مُبْتَغِيهِ لِنَفَاقِ أَسْوَاقِ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ كَمَا نَذْكُرُهُ بَعْدُ إِلَّا أَنَّ ٱلْخَطَّ ٱلَّذِي بَقِيَ مِنَ ٱلْإِجَادَةِ فِي ٱلِٱنْتِسَاخِ هُنَالِكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجَمِ وَفِي خُطُوطِهِمْ وَأَمَّا ٱلنَّسْخُ بِمِصْرَ فَفَسَدَ كَمَا فَسَدَ بِٱلْمَغْرِبِ وَأَشَدَّ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ تَلْحِينُ ٱلْأَشْعَارِ ٱلْمَوْزُونَةِ بِتَقْطِيعِ ٱلْأَصْوَاتِ عَلَى نِسَبٍ مُنْتَظِمَةٍ مَعْرُوفَةٍ يُوقَّعُ كُلُّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعًا عِنْدَ قَطْعِهِ فَيَكُونُ نَغْمَةً ثُمَّ تُؤَلَّفُ تِلْكَ ٱلنَّغَمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسَبٍ مُتَعَارَفَةٍ فَيَلَذُّ سَمَاعُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ ٱلتَّنَاسُبِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ ٱلْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ ٱلْأَصْوَاتِ وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ ٱلْمُوسِيقَى أَنَّ ٱلْأَصْوَاتَ تَتَنَاسَبُ فَيَكُونُ صَوْتٌ نِصْفَ صَوْتٍ وَرُبْعَ آخَرَ وَخُمْسَ آخَرَ وَجُزْءًا مِنْ أَحَدَ عَشَرَ مِنْ آخَرَ وَٱخْتِلَافُ هٰذِهِ ٱلنِّسَبِ عِنْدَ تَأْدِيَتِهَا إِلَى ٱلسَّمْعِ يُخْرِجُهَا مِنَ ٱلْبَسَاطَةِ إِلَى ٱلتَّرْكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْذُوذًا عِنْدَ ٱلسَّمَاعِ بَلْ لِلْمَلْذُوذِ تَرَاكِيبُ خَاصَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي حَصَرَهَا أَهْلُ عِلْمِ ٱلْمُوسِيقَى وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ وَقَدْ يُسَاوِقُ ذَلِكَ ٱلتَّلْحِينَ فِي ٱلنَّغَمَاتِ ٱلْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتٍ أُخْرَى مِنَ ٱلْجَمَادَاتِ إِمَّا بِٱلْقَرْعِ أَوْ بِٱلنَّفْخِ فِي ٱلْآلَاتِ تُتَّخَذُ لِذَلِكَ فَتَرَى لَهَا لَذَّةً عِنْدَ ٱلسَّمَاعِ فَمِنْهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ أَصْنَافٌ مِنْهَا مَا يُسَمُّونَهُ ٱلشَّبَّابَةَ وَهِيَ قَصَبَةٌ جَوْفَاءُ بِأَبْخَاشٍ فِي جَوَانِبِهَا مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا فَتُصَوِّتُ فَيَخْرُجُ ٱلصَّوْتُ مِنْ جَوْفِهَا عَلَى سِدَادِهِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَبْخَاشِ وَيُقَطَّعُ ٱلصَّوْتُ بِوَضْعِ ٱلْأَصَابِعِ مِنَ ٱلْيَدَيْنِ جَمِيعًا عَلَى تِلْكَ ٱلْأَبْخَاشِ وَضْعًا مُتَعَارَفًا حَتَّى تَحْدُثَ ٱلنِّسَبُ بَيْنَ ٱلْأَصْوَاتِ فِيهِ وَتَتَّصِلَ كَذَلِكَ مُتَنَاسِبَةً فَيَلْتَذُّ ٱلسَّمْعُ بِإِدْرَاكِهَا لِلتَّنَاسُبِ ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ جِنْسِ هٰذِهِ ٱلْآلَةِ ٱلْمِزْمَارُ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلزُّلَامِيَّ وَهُوَ شَكْلُ ٱلْقَصَبَةِ مَنْحُوتَةَ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلْخَشَبِ جَوْفَاءَ مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ٱئْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ مُنْفَرِدَتَيْنِ كَذَلِكَ بِأَبْخَاشٍ مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوصَلُ فَيَنْفُذُ ٱلنَّفْخُ بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتُصَوِّتُ بِنَغْمَةٍ حَادَّةٍ يَجْرِي فِيهَا مِنْ تَقْطِيعِ ٱلْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَبْخَاشِ بِٱلْأَصَابِعِ مِثْلَ مَا يَجْرِي فِي ٱلشَّبَّابَةِ وَمِنْ أَحْسَنِ آلَاتِ ٱلزَّمْرِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نُحَاسٍ أَجْوَفُ فِي مِقْدَارِ

ٱلذِّرَاعِ يَتَّسِعُ إِلَى أَنْ يَكُونَ ٱنْفِرَاجُ مَخْرَجِهِ فِي مِقْدَارٍ دُونَ ٱلْكَفِّ فِي شَكْلِ بَرْيِ ٱلْقَلَمِ وَيُنْفَخُ فِيهِ بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُؤَدِّي ٱلرِّيحَ مِنَ ٱلْفَمِ إِلَيْهِ فَيَخْرُجُ ٱلصَّوْتُ ثَخِينًا دَوِيًّا وَفِيهِ أَبْخَاشٌ أَيْضًا مَعْدُودَةٌ وَتُقَطَّعُ نَغْمَةٌ مِنْهَا كَذَلِكَ بِٱلْأَصَابِعِ عَلَى ٱلتَّنَاسُبِ فَيَكُونُ مَلْذُوذًا وَمِنْهَا آلَاتُ ٱلْأَوْتَارِ وَهِيَ جَوْفَاءُ كُلُّهَا إِمَّا عَلَى شَكْلِ قِطْعَةٍ مِنَ ٱلْكُرَةِ مِثْلِ ٱلْمِرْبَطِ وَٱلرَّبَابِ أَوْ عَلَى شَكْلٍ مُرَبَّعٍ كَٱلْقَانُونِ تُوضَعُ ٱلْأَوْتَارُ عَلَى بَسَائِطِهَا مَشْدُودَةً فِي رَأْسِهَا إِلَى دُسُرٍ جَائِلَةٍ لِيَأْتِيَ شَدُّ ٱلْأَوْتَارِ وَرَخْوُهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ بِإِدَارَتِهَا ثُمَّ تُقْرَعُ ٱلْأَوْتَارُ إِمَّا بِعُودٍ آخَرَ أَوْ بِوَتَرٍ مَشْدُودٍ بَيْنَ طَرَفَيْ قَوْسٍ يَمُرُّ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ يُطْلَى بِٱلشَّمْعِ وَٱلْكُنْدُرِ وَيُقَطَّعُ ٱلصَّوْتُ فِيهِ بِتَخْفِيفِ ٱلْيَدِ فِي إِمْرَارِهِ أَوْ نَقْلِهِ مِنْ وَتَرٍ إِلَى وَتَرٍ وَٱلْيَدُ ٱلْيُسْرَى مَعَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ آلَاتِ ٱلْأَوْتَارِ تُوَقِّعُ بِأَصَابِعِهَا عَلَى أَطْرَافِ ٱلْأَوْتَارِ فِيمَا يُقْرَعُ أَوْ يُحَكُّ بِٱلْوَتَرِ فَتَحْدُثُ ٱلْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً مَلْذُوذَةً وَقَدْ يَكُونُ ٱلْقَرْعُ فِي ٱلطُّسُوتِ بِٱلْقُضْبَانِ أَوْ فِي ٱلْأَعْوَادِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ عَلَى تَوْقِيعٍ مُنَاسِبٍ يُحْدِثُ عَنْهُ ٱلْتِذَاذٌ بِٱلْمَسْمُوعِ وَلْنُبَيِّنْ لَكَ ٱلسَّبَبَ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلنَّاشِئَةِ عَنِ ٱلْغِنَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱللَّذَّةَ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ هِيَ إِدْرَاكُ ٱلْمُلَائِمِ وَٱلْمَحْسُوسُ إِنَّمَا تُدْرَكُ مِنْهُ كَيْفِيَّةٌ فَإِذَا كَانَتْ مُنَاسِبَةً لِلْمُدْرِكِ وَمُلَائِمَةً كَانَتْ مَلْذُوذَةً وَإِذَا كَانَتْ مُنَافِيَةً لَهُ مُنَافِرَةً كَانَتْ مُؤْلِمَةً فَٱلْمُلَائِمُ مِنَ ٱلطُّعُومِ مَا نَاسَبَتْ كَيْفِيَّتُهُ حَاسَّةَ ٱلذَّوْقِ فِي مِزَاجِهَا وَكَذَا ٱلْمُلَائِمُ مِنَ ٱلْمَلْمُوسَاتِ وَفِي ٱلرَّوَائِحِ مَا نَاسَبَ مِزَاجَ ٱلرُّوحِ ٱلْقَلْبِيِّ ٱلْبُخَارِيِّ لِأَنَّهُ ٱلْمُدْرِكُ وَإِلَيْهِ تُؤَدِّيهِ ٱلْحَاسَّةُ وَلِهَذَا كَانَتِ ٱلرَّيَاحِينُ وَٱلْأَزْهَارُ ٱلْعِطْرِيَّاتُ أَحْسَنَ رَائِحَةً وَأَشَدَّ مُلَاءَمَةً لِلرُّوحِ لِغَلَبَةِ ٱلْحَرَارَةِ فِيهَا ٱلَّتِي هِيَ مِزَاجُ ٱلرُّوحِ ٱلْقَلْبِيِّ وَأَمَّا ٱلْمَرْئِيَّاتُ وَٱلْمَسْمُوعَاتُ فَٱلْمُلَائِمُ فِيهَا تَنَاسُبُ ٱلْأَوْضَاعِ فِي أَشْكَالِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا فَهُوَ أَنْسَبُ عِنْدَ ٱلنَّفْسِ وَأَشَدُّ مُلَاءَمَةً لَهَا فَإِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ مُتَنَاسِبًا فِي أَشْكَالِهِ وَتَخَاطِيطِهِ ٱلَّتِي لَهُ بِحَسَبِ مَادَّتِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ مَادَّتُهُ ٱلْخَاصَّةُ مِنْ كَمَالِ ٱلْمُنَاسَبَةِ وَٱلْوَضْعِ وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى ٱلْجَمَالِ وَٱلْحُسْنِ فِي كُلِّ مُدْرَكٍ كَانَ ذَلِكَ حِينَئِذٍ مُنَاسِبًا لِلنَّفْسِ ٱلْمُدْرِكَةِ فَتَلْتَذُّ بِإِدْرَاكِ مُلَائِمِهَا وَلِهَذَا تَجِدُ ٱلْعَاشِقِينَ ٱلْمُسْتَهْتَرِينَ فِي ٱلْمَحَبَّةِ يُعَبِّرُونَ عَنْ غَايَةِ مَحَبَّتِهِمْ وَعِشْقِهِمْ بِٱمْتِزَاجِ أَرْوَاحِهِمْ بِرُوحِ ٱلْمَحْبُوبِ وَفِي هَذَا سِرٌّ تَفْهَمُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَهُوَ ٱتِّحَادُ ٱلْمَبْدَإِ وَإِنْ كَانَ مَا سِوَاكَ إِذَا نَظَرْتَهُ وَتَأَمَّلْتَهُ

رَأَيْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ اتِّحَادًا فِي الْبِدَاءَةِ يَشْهَدُ لَكَ بِهِ اتِّحَادٌ كَمَا فِي الْكَوْنِ وَمَعْنَاهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ أَنَّ الْوُجُودَ يُشْرِكُ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ كَمَا تَقُولُهُ الْحُكَمَاءُ فَتَوَدُّ أَنْ تَمْتَزِجَ بِمُشَاهَدَاتِ فِيهِ الْكَمَالُ لِتَتَّحِدَ بِهِ بَلْ تَرُومُ النَّفْسُ حِينَئِذٍ الْخُرُوجَ عَنِ الْوَهْمِ إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ اتِّحَادُ الْمَبْدَإِ وَالْكَوْنِ وَلَمَّا كَانَ أَنْسَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَأَقْرَبُهَا إِلَى أَنْ يُدْرِكَ الْكَمَالَ فِي تَنَاسُبِ مَوْضُوعِهَا هُوَ شَكْلُهُ الْإِنْسَانِيُّ كَانَ إِدْرَاكُهُ لِلْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي تَخَاطِيطِهِ وَأَصْوَاتِهِ مِنَ الْمَدَارِكِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى فِطْرَتِهِ فَيَلْهَجُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالْحُسْنِ مِنَ الْمَرْئِيِّ أَوِ الْمَسْمُوعِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَالْحُسْنُ فِي الْمَسْمُوعِ أَنْ تَكُونَ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً لَا مُتَنَافِرَةً وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَهَا كَيْفِيَّاتٌ مِنَ الْهَمْسِ وَالْجَهْرِ وَالرَّخَاوَةِ وَالشِّدَّةِ وَالْقَلْقَلَةِ وَالضَّغْطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالتَّنَاسُبُ فِيهَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ لَهَا الْحُسْنَ فَأَوَّلًا أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى مِدِّهِ دَفْعَةً بَلْ بِتَدْرِيجٍ ثُمَّ يَرْجِعُ كَذَلِكَ وَهَكَذَا إِلَى الْمِثْلِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَوَسُّطِ الْمُغَايِرِ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ وَتَأَمَّلْ هَذَا مِنِ افْتِتَاحِ أَهْلِ اللِّسَانِ التَّرَاكِيبَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ أَوِ الْمُتَقَارِبَةِ الْمَخَارِجِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ وَثَانِيًا تَنَاسُبُهَا فِي الْأَجْزَاءِ كَمَا مَرَّ أَوَّلَ الْبَابِ فَيَخْرُجُ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى نِصْفِهِ أَوْ ثُلُثِهِ أَوْ جُزْءٍ مِنْ كَذَا مِنْهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّنَقُّلُ مُتَنَاسِبًا عَلَى مَا حَصَرَهُ أَهْلُ الصِّنَاعَةِ فَإِذَا كَانَتِ الْأَصْوَاتُ عَلَى تَنَاسُبٍ فِي الْكَيْفِيَّاتِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ تِلْكَ الصِّنَاعَةِ كَانَتْ مُلَائِمَةً مَلْذُوذَةً وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَكُونُ بَسِيطًا وَيَكُونُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ مَطْبُوعًا عَلَيْهِ لَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى تَعْلِيمٍ وَلَا صِنَاعَةٍ كَمَا نَجِدُ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْمَوَازِينِ الشِّعْرِيَّةِ وَتَوْقِيعِ الرَّقْصِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَتُسَمِّي الْعَامَّةُ هَذِهِ الْقَابِلِيَّةَ بِالْمِضْمَارِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ فَيُجِيدُونَ فِي تَلَاحِينِ أَصْوَاتِهِمْ كَأَنَّهَا الْمَزَامِيرُ فَيُطْرِبُونَ بِحُسْنِ مَسَاقِهِمْ وَتَنَاسُبِ نَغَمَاتِهِمْ وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَحْدُثُ بِالتَّرْكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ يَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ وَلَا كُلُّ الطِّبَاعِ تُوَافِقُ صَاحِبَهَا فِي الْعَمَلِ بِهِ إِذَا عَلِمَ وَهَذَا هُوَ التَّلْحِينُ الَّذِي يَتَكَفَّلُ بِهِ عِلْمُ الْمُوسِيقَى كَمَا نَشْرَحُهُ بَعْدُ عِنْدَ ذِكْرِ الْعُلُومِ وَقَدْ أَنْكَرَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى الْقِرَاءَةَ بِالتَّلْحِينِ وَأَجَازَهَا الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ تَلْحِينَ الْمُوسِيقَى الصِّنَاعِيَّ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَلَفَ فِي حَظْرِهِ إِذْ صِنَاعَةُ الْغِنَاءِ مُبَايِنَةٌ لِلْقُرْآنِ بِكُلِّ وَجْهٍ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالْأَدَاءَ تَحْتَاجُ إِلَى مِقْدَارٍ مِنَ الصَّوْتِ لِتَعَيُّنِ أَدَاءِ الْحُرُوفِ لَا

مِنْ حَيْثُ اتِّبَاعُ الْحَرَكَاتِ فِي مَوْضِعِهَا وَمِقْدَارِ الْمَدِّ عِنْدَ مَنْ يُطْلِقُهُ أَوْ يَقْصُرُهُ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَالتَّلْحِينُ أَيْضًا يَتَعَيَّنُ لَهُ مِقْدَارٌ مِنَ الصَّوْتِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ مِنْ أَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي قُلْنَاهُ فِي حَقِيقَةِ التَّلْحِينِ وَاعْتِبَارُ أَحَدِهِمَا قَدْ يُخِلُّ بِالْآخَرِ إِذَا تَعَارَضَا وَتَقْدِيمُ الرِّوَايَةِ مُتَعَيِّنٌ مِنْ تَغْيِيرِ الرِّوَايَةِ الْمَنْقُولَةِ فِي الْقُرْآنِ فَلَا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُ التَّلْحِينِ وَالْأَدَاءِ الْمُعْتَبَرِ فِي الْقُرْآنِ بِوَجْهٍ وَإِنَّمَا مُرَادُهُمُ التَّلْحِينُ الْبَسِيطُ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ صَاحِبُ الْمِضْمَارِ بِطَبْعِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَيُرَدِّدُ أَصْوَاتَهُ تَرْدِيدًا عَلَى نِسَبٍ يُدْرِكُهَا الْعَالِمُ بِالْغِنَاءِ وَغَيْرُهُ وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ بِوَجْهٍ كَمَا قَالَهُ مَالِكٌ هَذَا هُوَ مَحَلُّ الْخِلَافِ وَالظَّاهِرُ تَنْزِيهُ الْقُرْآنِ عَنْ هَذَا كُلِّهِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى لِأَنَّ الْقُرْآنَ مَحَلُّ خُشُوعٍ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ وَلَيْسَ مَقَامَ الْتِذَاذٍ بِإِدْرَاكِ الْحَسَنِ مِنَ الْأَصْوَاتِ وَهَكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ التَّرْدِيدَ وَالتَّلْحِينَ إِنَّمَا مَعْنَاهُ حُسْنُ الصَّوْتِ وَأَدَاءُ الْقِرَاءَةِ وَالْإِبَانَةُ فِي مَخَارِجِ الْحُرُوفِ وَالنُّطْقُ بِهَا وَإِذْ قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى الْغِنَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَحْدُثُ فِي الْعُمْرَانِ إِذَا تَوَفَّرَ وَتَجَاوَزَ حَدَّ الضَّرُورِيِّ إِلَى الْحَاجِيِّ ثُمَّ إِلَى الْكَمَالِيِّ وَتَفَنَّنُوا فَتَحْدُثُ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا مَنْ فَرَغَ مِنْ جَمِيعِ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْمُهِمَّةِ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَنْزِلِ وَغَيْرِهِ فَلَا يَطْلُبُهَا إِلَّا الْفَارِغُونَ عَنْ سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ تَفَنُّنًا فِي مَذَاهِبِ الْمَلْذُوذَاتِ وَكَانَ فِي سُلْطَانِ الْعَجَمِ قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنْهَا بَحْرٌ زَاخِرٌ فِي أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ لِمُلُوكِ الْفُرْسِ اهْتِمَامٌ بِأَهْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَلَهُمْ مَكَانٌ فِي دَوْلَتِهِمْ وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَشَاهِدَهُمْ وَمَجَامِعَهُمْ وَيُغَنُّونَ فِيهَا وَهَذَا شَأْنُ الْعَجَمِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي كُلِّ أُفُقٍ مِنْ آفَاقِهِمْ وَمَمْلَكَةٍ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَأَمَّا الْعَرَبُ فَكَانَ لَهُمْ أَوَّلًا فَنُّ الشِّعْرِ يُؤَلِّفُونَ فِيهِ الْكَلَامَ أَجْزَاءً مُتَسَاوِيَةً عَلَى تَنَاسُبٍ بَيْنَهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ وَالسَّاكِنَةِ وَيُفَصِّلُونَ الْكَلَامَ فِي تِلْكَ الْأَجْزَاءِ تَفْصِيلًا يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلًّا بِالْإِفَادَةِ لَا يَنْعَطِفُ عَلَى الْآخَرِ وَيُسَمُّونَهُ الْبَيْتَ فَتُلَائِمُ الطَّبْعَ بِالتَّجْزِئَةِ أَوَّلًا ثُمَّ بِتَنَاسُبِ الْأَجْزَاءِ فِي الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِئِ ثُمَّ بِتَأْدِيَةِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَتَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَلَهِجُوا بِهِ فَامْتَازَ مِنْ بَيْنِ كَلَامِهِمْ بِحَظٍّ مِنَ الشَّرَفِ لَيْسَ لِغَيْرِهِ لِأَجْلِ اخْتِصَاصِهِ بِهَذَا التَّنَاسُبِ وَجَعَلُوهُ دِيوَانًا لِأَخْبَارِهِمْ

وَحِكَمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَمَحَكًّا لِقَرَائِحِهِمْ فِي إِصَابَةِ ٱلْمَعَانِي وَإِجَادَةِ ٱلْأَسَالِيبِ وَٱسْتَمَرُّوا
عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلتَّنَاسُبُ ٱلَّذِي مِنْ أَجْلِ ٱلْأَجْزَاءِ وَٱلْمُتَحَرِّكِ وَٱلسَّاكِنِ مِنَ ٱلْحُرُوفِ
قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ مِنْ تَنَاسُبِ ٱلْأَصْوَاتِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ ٱلْمُوسِيقَى إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ
يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ يَنْتَحِلُوا عِلْمًا وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً وَكَانَتِ ٱلْبَدَاوَةُ أَغْلَبَ
نِحَلِهِمْ ثُمَّ تَغَنَّى ٱلْحُدَاةُ مِنْهُمْ فِي حِدَاءِ إِبِلِهِمْ وَٱلْفِتْيَانُ فِي فَضَاءِ خَلَوَاتِهِمْ فَرَجَّعُوا ٱلْأَصْوَاتَ
وَتَرَنَّمُوا وَكَانُوا يُسَمُّونَ ٱلتَّرَنُّمَ إِذَا كَانَ بِٱلشِّعْرِ غِنَاءً وَإِذَا كَانَ بِٱلتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعِ
ٱلْقِرَاءَةِ تَغْبِيرًا بِٱلْغَيْنِ ٱلْمُعْجَمَةِ وَٱلْبَاءِ ٱلْمُوَحَّدَةِ وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ ٱلزَّجَّاجُ بِأَنَّهَا تُذَكِّرُ
بِٱلْغَابِرِ وَهُوَ ٱلْبَاقِي أَيْ بِأَحْوَالِ ٱلْآخِرَةِ وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ ٱلنَّغَمَاتِ مُنَاسَبَةً
بَسِيطَةً كَمَا ذَكَرَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ آخِرَ كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ وَغَيْرُهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ ٱلسِّنَادَ
وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي ٱلْخَفِيفِ ٱلَّذِي يُرْقَصُ عَلَيْهِ وَيُمْشَى بِٱلدُّفِّ وَٱلْمِزْمَارِ
فَيَضْطَرِبُ وَيَسْتَخِفُّ ٱلْحُلُومَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ هٰذَا ٱلْهَزَجَ وَهٰذَا ٱلْبَسِيطُ كُلُّهُ مِنَ ٱلتَّلَاحِينِ
هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَتَفَطَّنَ لَهُ ٱلطِّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ شَأْنَ ٱلْبَسَائِطِ كُلِّهَا مِنَ
ٱلصَّنَائِعِ وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا شَأْنَ ٱلْعَرَبِ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ فَلَمَّا جَاءَ ٱلْإِسْلَامُ وَٱسْتَوْلَوْا
عَلَى مَمَالِكِ ٱلدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ ٱلْعَجَمِ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ وَٱلْغَضَاضَةِ عَلَى
ٱلْحَالِ ٱلَّتِي عُرِفَتْ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ ٱلدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ أَحْوَالِ ٱلْفَرَاغِ وَمَا لَيْسَ
بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذٰلِكَ شَيْئًا مَا وَلَمْ يَكُنِ ٱلْمَلْذُوذُ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَرْجِيعَ
ٱلْقِرَاءَةِ وَٱلتَّرَنُّمَ بِٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي هُوَ دَيْدَنُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلتَّرَفُ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ
ٱلرَّفَهُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَنَائِمِ ٱلْأُمَمِ صَارُوا إِلَى نَضَارَةِ ٱلْعَيْشِ وَرِقَّةِ ٱلْحَاشِيَةِ وَٱسْتِحْلَاءِ
ٱلْفَرَاغِ وَٱفْتَرَقَ ٱلْمُغَنُّونَ مِنَ ٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ فَوَقَعُوا إِلَى ٱلْحِجَازِ وَصَارُوا مَوَالِيَ لِلْعَرَبِ
وَغَنَّوْا جَمِيعًا بِٱلْعِيدَانِ وَٱلطَّنَابِيرِ وَٱلْمَعَازِفِ وَٱلْمَزَامِيرِ وَسَمِعَ ٱلْعَرَبُ تَلْحِينَهُمْ لِلْأَصْوَاتِ
فَلَحَّنُوا عَلَيْهَا أَشْعَارَهُمْ وَظَهَرَ بِٱلْمَدِينَةِ نَشِيطٌ ٱلْفَارِسِيُّ وَطُوَيْسٌ وَسَائِبُ بْنُ جَابِرٍ مَوْلَى عُبَيْدِ
ٱللهِ ٱبْنِ جَعْفَرٍ فَسَمِعُوا شِعْرَ ٱلْعَرَبِ وَلَحَّنُوهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرٌ ثُمَّ أَخَذَ عَنْهُمْ
مَعْبَدٌ وَطَبَقَتُهُ وَٱبْنُ سُرَيْجٍ وَأَنْظَارُهُ وَمَا زَالَتْ تَتَدَرَّجُ إِلَى أَنْ كَمُلَتْ أَيَّامَ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ
عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْمَهْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ وَٱبْنِهِ إِسْحَاقَ وَٱبْنِهِ حَمَّادٍ وَكَانَ مِنْ
ذٰلِكَ فِي دَوْلَتِهِمْ بِبَغْدَادَ مَا تَبِعَهُ ٱلْحَدِيثُ بَعْدَهُ بِهِ وَبِمَجَالِسِهِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَأَمْعَنُوا فِي ٱللَّهْوِ

وَٱللَّعِبِ وَٱتُّخِذَتْ آلَاتُ ٱلرَّقْصِ فِي ٱلْمَلْبَسِ وَٱلْقُضْبَانُ وَٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي يَتَرَنَّمُ بِهَا عَلَيْهِ وَجُعِلَ صِنْفًا وَحْدَهُ وَٱتُّخِذَتْ آلَاتٌ أُخْرَى لِلرَّقْصِ تُسَمَّى بِٱلْكُرَّجِ وَهِيَ تَمَاثِيلُ خَيْلٍ مُسْرَجَةٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ مُعَلَّقَةٌ بِأَطْرَافِ أَقْبِيَةٍ يَلْبَسُهَا ٱلنِّسْوَانُ وَيُحَاكِينَ بِهَا ٱمْتِطَاءَ ٱلْخَيْلِ فَيَكُرُّونَ وَيَفِرُّونَ وَيَثَاقَفُونَ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ مِنَ ٱللَّعِبِ ٱلْمُعَدِّ لِلْوَلَائِمِ وَٱلْأَعْرَاسِ وَأَيَّامِ ٱلْأَعْيَادِ وَمَجَالِسِ ٱلْفَرَاغِ وَٱللَّهْوِ وَكَثُرَ ذَٰلِكَ بِبَغْدَادَ وَأَمْصَارِ ٱلْعِرَاقِ وَٱنْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا وَكَانَ لِلْمَوْصِلِيِّينَ غُلَامٌ ٱسْمُهُ زِرْيَابُ أَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْغِنَاءَ فَأَجَادَ فَصَرَفُوهُ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ غَيْرَةً مِنْهُ فَلَحِقَ بِٱلْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلِ أَمِيرِ ٱلْأَنْدَلُسِ فَبَالَغَ فِي تَكْرِمَتِهِ وَرَكِبَ لِلِقَائِهِ وَأَسْنَى لَهُ ٱلْجَوَائِزَ وَٱلْإِقْطَاعَاتِ وَٱلْجِرَايَاتِ وَأَحَلَّهُ مِنْ دَوْلَتِهِ وَنُدَمَائِهِ بِمَكَانٍ فَأَوْرَثَ بِٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْغِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَزْمَانِ ٱلطَّوَائِفِ وَطَمَا مِنْهَا بِإِشْبِيلِيَّةَ بَحْرٌ زَاخِرٌ وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَضَارَتِهَا إِلَى بِلَادِ ٱلْعُدْوَةِ بِإِفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱنْقَسَمَ عَلَى أَمْصَارِهَا وَبِهَا ٱلْآنَ مِنْهَا صُبَابَةٌ عَلَى تَرَاجُعِ عُمْرَانِهَا وَتَنَاقُصِ دُوَلِهَا وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ آخِرُ مَا يَحْصُلُ فِي ٱلْعُمْرَانِ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ لِأَنَّهَا كَمَالِيَّةٌ فِي غَيْرِ وَظِيفَةٍ مِنَ ٱلْوَظَائِفِ إِلَّا وَظِيفَةَ ٱلْفَرَاغِ وَٱلْفَرَحِ وَهُوَ أَيْضًا أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ ٱلْعُمْرَانِ عِنْدَ ٱخْتِلَالِهِ وَتَرَاجُعِهِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب

قَدْ ذَكَرْنَا فِي ٱلْكِتَابِ أَنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا تُوجَدُ فِيهِ بِٱلْقُوَّةِ وَأَنَّ خُرُوجَهَا مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ بِتَجَدُّدِ ٱلْعُلُومِ وَٱلْإِدْرَاكَاتِ عَنِ ٱلْمَحْسُوسَاتِ أَوَّلًا ثُمَّ مَا يُكْتَسَبُ بَعْدَهَا بِٱلْقُوَّةِ ٱلنَّظَرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِدْرَاكًا بِٱلْفِعْلِ وَعَقْلًا مَحْضًا فَتَكُونُ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً وَيَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وُجُودُهَا فَوَجَبَ لِذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلنَّظَرِ يُفِيدُهَا عَقْلًا فَرِيدًا وَٱلصَّنَائِعُ أَبَدًا يَحْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ مَلَكَتِهَا قَانُونٌ عِلْمِيٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةِ فَلِهٰذَا كَانَتِ ٱلْحُنْكَةُ فِي ٱلتَّجْرِبَةِ تُفِيدُ عَقْلًا وَٱلْحَضَارَةُ ٱلْكَامِلَةُ تُفِيدُ عَقْلًا لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صَنَائِعَ فِي شَأْنِ تَدْبِيرِ ٱلْمَنْزِلِ وَمُعَاشَرَةِ أَبْنَاءِ ٱلْجِنْسِ وَتَحْصِيلِ ٱلْآدَابِ فِي مُخَالَطَتِهِمْ ثُمَّ ٱلْقِيَامِ بِأُمُورِ ٱلدِّينِ وَٱعْتِبَارِ آدَابِهَا وَشَرَائِطِهَا وَهٰذِهِ كُلُّهَا قَوَانِينُ تَنْتَظِمُ عُلُومًا فَيَحْصُلُ مِنْهَا زِيَادَةُ عَقْلٍ وَٱلْكِتَابَةُ مِنْ بَيْنِ ٱلصَّنَائِعِ

أَكْثَرُ إِفَادَةً لِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْعُلُومِ وَٱلْأَنْظَارِ بِخِلَافِ ٱلصَّنَائِعِ وَبَيَانُهُ أَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ ٱنْتِقَالًا مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْخَطِّيَّةِ إِلَى ٱلْكَلِمَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فِي ٱلْخَيَالِ وَمِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فِي ٱلْخَيَالِ إِلَى ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ ذَلِكَ دَائِمًا فَيَحْصُلُ لَهَا مَلَكَةُ ٱلِٱنْتِقَالِ مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ إِلَى ٱلْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلنَّظَرِ ٱلْعَقْلِيِّ ٱلَّذِي يُكْسِبُ ٱلْعُلُومَ ٱلْمَجْهُولَةَ فَيُكْسِبُ بِذَلِكَ مَلَكَةً مِنَ ٱلتَّعَقُّلِ تَكُونُ زِيَادَةَ عَقْلٍ وَيَحْصُلُ بِهِ قُوَّةُ فِطْنَةٍ وَكَيْسٍ فِي ٱلْأُمُورِ لِمَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ ذَلِكَ ٱلِٱنْتِقَالِ وَلِذَلِكَ قَالَ كِسْرَى فِي كُتَّابِهِ لَمَّا رَآهُمْ بِتِلْكَ ٱلْفِطْنَةِ وَٱلْكَيْسِ فَقَالَ دِيوَانَهْ أَيْ شَيَاطِينُ وَجُنُونٌ قَالُوا وَذَلِكَ أَصْلُ ٱشْتِقَاقِ ٱلدِّيوَانِ لِأَهْلِ ٱلْكِتَابَةِ وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ ٱلْحُسَّابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُسَّابِ نَوْعَ تَصَرُّفٍ فِي ٱلْعَدَدِ بِٱلضَّمِّ وَٱلتَّفْرِيقِ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مُتَعَوِّدًا لِلِٱسْتِدْلَالِ وَٱلنَّظَرِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعَقْلِ وَٱللهُ أَعْلَمُ



الفصل السادس

من الكتاب الاول

في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

الفصل الاول

في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَتْهُ جَمِيعُ ٱلْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ وَٱلْغِذَاءِ وَٱلْكِنِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِٱلْفِكْرِ ٱلَّذِي يَهْتَدِي بِهِ لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَٱلتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْمُهَيِّئِ لِذَلِكَ ٱلتَّعَاوُنِ وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ ٱلْأَنْبِيَاءُ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى وَٱلْعَمَلِ بِهِ وَٱتِّبَاعِ صَلَاحِ أُخْرَاهُ فَهُوَ مُفَكِّرٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ دَائِمًا لَا يَفْتُرُ عَنِ ٱلْفِكْرِ فِيهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ بَلِ ٱخْتِلَاجُ ٱلْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمْحِ ٱلْبَصَرِ وَعَنْ هَذَا ٱلْفِكْرِ تَنْشَأُ ٱلْعُلُومُ وَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ثُمَّ لِأَجْلِ هَذَا ٱلْفِكْرِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ بَلِ ٱلْحَيَوَانُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدْعِيهِ ٱلطِّبَاعُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ رَاغِبًا فِي تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ

عِنْدَهُ مِنَ ٱلْإِدْرَاكَاتِ فَيَرْجِعُ إِلَى مَنْ سَبَقَهُ بِعِلْمٍ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةٍ أَوْ إِدْرَاكٍ اوْ أَخَذَهُ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَهُ لِمَنْ تَلَقَّاهُ فَيَلْقَنُ ذَٰلِكَ عَنْهُمْ وَيَحْرِصُ عَلَى أَخْذِهِ وَعِلْمِهِ ثُمَّ إِنَّ فِكْرَهُ وَنَظَرَهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْحَقَائِقِ وَيَنْظُرُ مَا يَعْرِضُ لَهُ لِذَاتِهِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ وَيَتَمَرَّنُ عَلَى ذَٰلِكَ حَتَّى يَصِيرَ إِلْحَاقُ ٱلْعَوَارِضِ بِتِلْكَ ٱلْحَقِيقَةِ مَلَكَةً لَهُ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ عِلْمُهُ بِمَا يَعْرِضُ لِتِلْكَ ٱلْحَقِيقَةِ عِلْمًا مَخْصُوصًا وَتَتَشَوَّفُ نُفُوسُ أَهْلِ ٱلْجِيلِ ٱلنَّاشِئِ إِلَى تَحْصِيلِ ذَٰلِكَ فَيَفْزَعُونَ إِلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَيَجِيءُ ٱلتَّعْلِيمُ مِنْ هٰذَا فَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْعِلْمَ وَٱلتَّعْلِيمَ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلْبَشَرِ

الفصل الثاني

في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع

وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْحِذْقَ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّفَنُّنَ فِيهِ وَٱلِٱسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةٍ فِي ٱلْإِحَاطَةِ بِمَبَادِئِهِ وَقَوَاعِدِهِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى مَسَائِلِهِ وَٱسْتِنْبَاطِ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ وَمَا لَمْ تَحْصُلْ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ ٱلْحِذْقُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْفَنِّ ٱلْمُتَنَاوَلِ حَاصِلًا وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ هِيَ فِي غَيْرِ ٱلْفَهْمِ وَٱلْوَعْيِ لِأَنَّا نَجِدُ فَهْمَ ٱلْمَسْأَلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْفَنِّ ٱلْوَاحِدِ وَوَعْيَهَا مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَنْ شَدَا فِي ذَٰلِكَ ٱلْفَنِّ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِئٌ فِيهِ وَبَيْنَ ٱلْعَامِّيِّ ٱلَّذِي لَمْ يَعْرِفْ عِلْمًا وَبَيْنَ ٱلْعَالِمِ ٱلنِّحْرِيرِ وَٱلْمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَالِمِ أَوِ ٱلشَّادِي فِي ٱلْفُنُونِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةَ غَيْرُ ٱلْفَهْمِ وَٱلْوَعْيِ وَٱلْمَلَكَاتُ كُلُّهَا جِسْمَانِيَّةٌ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي ٱلْبَدَنِ أَوْ فِي ٱلدِّمَاغِ مِنَ ٱلْفِكْرِ وَغَيْرِهِ كَٱلْحِسَابِ وَٱلْجِسْمَانِيَّاتُ كُلُّهَا مَحْسُوسَةٌ فَتَفْتَقِرُ إِلَى ٱلتَّعْلِيمِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلسَّنَدُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ فِي كُلِّ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ إِلَى مَشَاهِيرِ ٱلْمُعَلِّمِينَ فِيهَا مُعْتَبَرًا عِنْدَ كُلِّ أَهْلِ أُفُقٍ وَجِيلٍ وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ تَعْلِيمَ ٱلْعِلْمِ صِنَاعَةٌ ٱخْتِلَافُ ٱلِٱصْطِلَاحَاتِ فِيهِ فَلِكُلِّ إِمَامٍ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْمَشَاهِيرِ ٱصْطِلَاحٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ يَخْتَصُّ بِهِ شَأْنَ ٱلصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَٰلِكَ ٱلِٱصْطِلَاحَ لَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَإِلَّا لَكَانَ وَاحِدًا عِنْدَ جَمِيعِهِمْ أَلَا تَرَى إِلَى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ كَيْفَ تَخَالَفَ فِي تَعْلِيمِهِ ٱصْطِلَاحُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَكَذَا أُصُولُ ٱلْفِقْهِ وَكَذَا ٱلْعَرَبِيَّةُ وَكَذَا كُلُّ عِلْمٍ يَتَوَجَّهُ الى مُطَالَعَتِهِ تَجِدُ ٱلِٱصْطِلَاحَاتِ فِي تَعْلِيمِهِ مُتَخَالِفَةً فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا صِنَاعَاتٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلْعِلْمُ وَاحِدٌ فِي نفسه وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ سَنَدَ تَعْلِيمِ ٱلْعِلْمِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قَدْ كَادَ يَنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ

باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً كان في دولة الموحدين بمراكش مستفاداً منها ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدإها فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل إلى المشرق من أفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة فأدرك تلميذ الإمام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل إليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيداً فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلاً بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة في مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد إلا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشدالي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل ببجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها وربما انتقل إلى تلمسان عمران المشدالي من تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد

ذَهابِ الكثيرِ من أعمارِهم في مُلازمةِ المجالسِ العلميّةِ سكوتاً لا ينطقون ولا
يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثرُ من الحاجة فلا يحصلون على طائلٍ من ملكة التصرّف
في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصّل تجد ملكته قاصرةً في
علمه إن فاوض أو ناظر أو علّم وما أتاهم القصور إلا من قِبَل التعليم وانقطاع سنده
وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدّة عنايتهم به وظنّهم أنه المقصود من الملكة
العلمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة
العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس
على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو
اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة
في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من
بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين
ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب اقتصروا عليه وانحفظ سند
تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين وأما العقليات
فلا أثر ولا عين وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو
على عامتها إلا قليلاً بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها والله
غالب على أمره . وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبحوره
زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وإن كانت الأمصار العظيمة التي
كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن الله تعالى قد
أدال منها بأمصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء
النهر من المشرق ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها
متصلاً وسند التعليم بها قائماً فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم
العلم وفي سائر الصنائع حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق
في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد
نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس
أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك

وَيُولَعُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَيْسِهِمْ فِي الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَلَيْسَ بَيْنَ قُطْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ تَفَاوُتٌ بِهَذَا الْمِقْدَارِ الَّذِي هُوَ تَفَاوُتٌ فِي الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ اللَّهُمَّ إِلاَّ الْأَقَالِيمَ الْمُنْحَرِفَةَ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالسَّابِعِ فَإِنَّ الْأَمْزِجَةَ فِيهَا مُنْحَرِفَةٌ وَالنُّفُوسَ عَلَى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا الَّذِي فَضَلَ بِهِ أَهْلُ الْمَشْرِقِ أَهْلَ الْمَغْرِبِ هُوَ مَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ آثَارِ الْحَضَارَةِ مِنَ الْعَقْلِ الْمَزِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّنَائِعِ وَنَزِيدُهُ الْآنَ تَحْقِيقًا وَذَلِكَ أَنَّ الْحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي أَحْوَالِهِمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَسْكَنِ وَالْبِنَاءِ وَأُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِهِمْ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقَفُ عِنْدَهَا فِي جَمِيعِ مَا يَتَنَاوَلُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ بِهِ مِنْ أَخْذٍ وَتَرْكٍ حَتَّى كَأَنَّهَا حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ صَنَائِعُ يَتَلَقَّاهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرَتَّبَةٍ يَرْجِعُ مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ أَثَرٌ يُكْسِبُهَا عَقْلًا جَدِيدًا تَسْتَعِدُّ بِهِ لِقَبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى وَيَتَهَيَّأُ بِهَا الْعَقْلُ بِسُرْعَةِ الْإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ وَلَقَدْ بَلَغَنَا فِي تَعْلِيمِ الصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ غَايَاتٌ لَا تُدْرَكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يُعَلِّمُونَ الْحُمُرَ الْإِنْسِيَّةَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمَ مِنَ الْمَاشِي وَالطَّائِرِ مُفْرَدَاتٍ مِنَ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ يُسْتَغْرَبُ نُدُورُهَا وَيَعْجِزُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا وَحُسْنُ الْمَلَكَاتِ فِي التَّعَالِيمِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْعَادِيَّةِ يَزِيدُ الْإِنْسَانَ ذَكَاءً فِي عَقْلِهِ وَإِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكَثْرَةِ الْمَلَكَاتِ الْحَاصِلَةِ لِلنَّفْسِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ بِالْإِدْرَاكَاتِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ فَيَزْدَادُونَ بِذَلِكَ كَيْسًا لِمَا يَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ مِنَ الْآثَارِ الْعِلْمِيَّةِ فَيَظُنُّهُ الْعَامِّيُّ تَفَاوُتًا فِي الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ أَلَا تَرَى إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مَعَ أَهْلِ الْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ الْحَضَرِيَّ مُتَحَلِّيًا بِالذَّكَاءِ مُمْتَلِئًا مِنَ الْكَيْسِ حَتَّى إِنَّ الْبَدَوِيَّ لَيَظُنُّهُ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لِإِجَادَتِهِ فِي مَلَكَاتِ الصَّنَائِعِ وَالْآدَابِ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ الْحَضَرِيَّةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْبَدَوِيُّ فَلَمَّا امْتَلَأَ الْحَضَرِيُّ مِنَ الصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحُسْنِ تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَّرَ عَنْ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ أَنَّهَا لِكَمَالٍ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نُفُوسَ أَهْلِ الْبَدْوِ قَاصِرَةٌ بِفِطْرَتِهَا وَجِبِلَّتِهَا عَنْ فِطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْفَهْمِ وَالْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ إِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ

ذٰلِكَ هُوَ رَوْنَقُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلتَّعْلِيمِ فَإِنَّ لَهَا آثَارًا تَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّفْسِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَكَذَا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ لَمَّا كَانُوا فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلصَّنَائِعِ أَرْسَخَ رُتْبَةً وَأَعْلَى قَدَمًا وَكَانَ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْبِدَاوَةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَ هٰذَا ظَنَّ ٱلْمُغَفَّلُونَ فِي بَادِىءِ ٱلرَّأْيِ أَنَّهُ لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱخْتَصُّوا بِهِ عَنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِصَحِيحٍ فَتَفَهَّمْهُ وَٱللّٰهُ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ إِلٰهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ

الفصل الثالث

في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ ٱلْعِلْمِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ فِي ٱلْأَمْصَارِ وَعَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهَا فِي ٱلْكَثْرَةِ وَٱلْقِلَّةِ وَٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ تَكُونُ نِسْبَةُ ٱلصَّنَائِعِ فِي ٱلْجُودَةِ وَٱلْكَثْرَةِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى ٱلْمَعَاشِ فَمَتَى فَضَلَتْ أَعْمَالُ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمِ ٱنْصَرَفَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ ٱلْمَعَاشِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ فِي خَاصِيَّةِ ٱلْإِنْسَانِ وَهِيَ ٱلْعُلُومُ وَٱلصَّنَائِعُ وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى ٱلْعِلْمِ مِمَّنْ نَشَأَ فِي ٱلْقُرَى وَٱلْأَمْصَارِ غَيْرِ ٱلْمُتَمَدِّنَةِ فَلَا يَجِدُ فِيهَا ٱلتَّعْلِيمَ ٱلَّذِي هُوَ صِنَاعِيٌّ لِفُقْدَانِ ٱلصَّنَائِعِ فِي أَهْلِ ٱلْبَدْوِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلرِّحْلَةِ فِي طَلَبِهِ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُسْتَبْحِرَةِ شَأْنَ ٱلصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَٱعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادَ وَقُرْطُبَةَ وَٱلْقَيْرَوَانِ وَٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ وَٱسْتَوَتْ فِيهَا ٱلْحَضَارَةُ كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ ٱلْعِلْمِ وَتَفَنَّنُوا فِي ٱصْطِلَاحَاتِ ٱلتَّعْلِيمِ وَأَصْنَافِ ٱلْعُلُومِ وَٱسْتِنْبَاطِ ٱلْمَسَائِلِ وَٱلْفُنُونِ حَتَّى أَرْبَوْا عَلَى ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَفَاتُوا ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَلَمَّا تَنَاقَصَ عُمْرَانُهَا وَٱبْذَعَرَّ سُكَّانُهَا ٱنْطَوَى ذٰلِكَ ٱلْبِسَاطُ بِمَا عَلَيْهِ جُمْلَةً وَفُقِدَ ٱلْعِلْمُ بِهَا وَٱلتَّعْلِيمُ وَٱنْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِ وَنَحْنُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ نَرَى أَنَّ ٱلْعِلْمَ وَٱلتَّعْلِيمَ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْقَاهِرَةِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ لِمَا أَنَّ عُمْرَانَهَا مُسْتَبْحِرٌ وَحِضَارَتَهَا مُسْتَحْكِمَةٌ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ فَٱسْتَحْكَمَتْ فِيهَا ٱلصَّنَائِعُ وَتَفَنَّنَتْ وَمِنْ جُمْلَتِهَا تَعْلِيمُ ٱلْعِلْمِ وَأَكَّدَ ذٰلِكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لِهٰذِهِ ٱلْعُصُورِ بِهَا مُنْذُ مِائَتَيْنِ مِنَ ٱلسِّنِينَ فِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ مِنْ أَيَّامِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ وَهَلُمَّ جَرًّا وَذٰلِكَ أَنَّ أُمَرَاءَ ٱلتُّرْكِ فِي دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَةَ سُلْطَانِهِمْ عَلَى مَنْ يَتَخَلَّفُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ لِمَا لَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلرِّقِّ أَوِ ٱلْوَلَاءِ وَلِمَا يُخْشَى مِنْ مَعَاطِبِ ٱلْمُلْكِ وَنَكَبَاتِهِ فَٱسْتَكْثَرُوا مِنْ بِنَاءِ ٱلْمَدَارِسِ

وَالزَّوَايَا وَالرُّبُطِ وَوَقَفُوا عَلَيْهَا الْأَوْقَافَ الْمُغِلَّةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا شِرْكًا لِوُلْدِهِمْ يَنْظُرُ عَلَيْهَا أَوْ يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِبًا مِنَ الْجُنُوحِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْتِمَاسِ الْأَجْرِ فِي الْمَقَاصِدِ وَالْأَفْعَالِ فَكَثُرَتِ الْأَوْقَافُ لِذَلِكَ وَعَظُمَتِ الْغَلَّاتُ وَالْفَوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَمُعَلِّمُهُ بِكَثْرَةِ جِرَايَتِهِمْ مِنْهَا وَارْتَحَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَالْمَغْرِبِ وَنَفَقَتْ بِهَا أَسْوَاقُ الْعُلُومِ وَزَخَرَتْ بِحَارُهَا وَاللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إِعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي يَخُوضُ فِيهَا الْبَشَرُ وَيَتَدَاوَلُونَهَا فِي الْأَمْصَارِ تَحْصِيلاً وَتَعْلِيماً هِيَ عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٍ طَبِيعِيٍّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ وَصِنْفٍ نَقْلِيٍّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ وَضَعَهُ وَالْأَوَّلُ هِيَ الْعُلُومُ الْحِكْمِيَّةُ الْفَلْسَفِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا وَمَسَائِلِهَا وَأَنْحَاءِ بَرَاهِينِهَا وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقِفَهُ (١) نَظَرُهُ وَبَحْثُهُ عَلَى الصَّوَابِ مِنَ الْخَطَإِ فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ وَالثَّانِي هِيَ الْعُلُومُ النَّقْلِيَّةُ الْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى الْخَبَرِ عَنِ الْوَاضِعِ الشَّرْعِيِّ وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِلْعَقْلِ إِلَّا فِي إِلْحَاقِ الْفُرُوعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِالْأُصُولِ لِأَنَّ الْجُزْئِيَّاتِ الْحَادِثَةَ الْمُتَعَاقِبَةَ لَا تَنْدَرِجُ تَحْتَ النَّقْلِ الْكُلِّيِّ بِمُجَرَّدِ وَضْعِهِ فَتَحْتَاجُ إِلَى الْإِلْحَاقِ بِوَجْهٍ قِيَاسِيٍّ إِلَّا أَنَّ هٰذَا الْقِيَاسَ يَتَفَرَّعُ عَنِ الْخَبَرِ بِثُبُوتِ الْحُكْمِ فِي الْأَصْلِ وَهُوَ نَقْلِيٌّ فَرَجَعَ هٰذَا الْقِيَاسُ إِلَى النَّقْلِ لِتَفَرُّعِهِ عَنْهُ وَأَصْلُ هٰذِهِ الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ كُلِّهَا هِيَ الشَّرْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي هِيَ مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي تُهَيِّئُهَا لِلْإِفَادَةِ ثُمَّ يَسْتَتْبِعُ ذَلِكَ عُلُومُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي هُوَ لِسَانُ الْمِلَّةِ وَبِهِ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَأَصْنَافُ هٰذِهِ الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ كَثِيرَةٌ لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَحْكَامَ اللّٰهِ تَعَالَى الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالنَّصِّ أَوْ بِالْإِجْمَاعِ أَوْ بِالْإِلْحَاقِ فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ بِالْكِتَابِ بِبَيَانِ أَلْفَاظِهِ أَوَّلاً وَهٰذَا هُوَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ نَقْلِهِ وَرِوَايَتِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَاخْتِلَافِ

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعدياً فتقول وقفته على كذا اي اطلعته عليه قاله نصر

روايات القرّاء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثمّ بإسناد السنّة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثمّ لا بدّ في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفيّة هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلّفين وهذا هو الفقه ثمّ إنّ التكاليف منها بدنيّ ومنها قلبيّ وهو المختصّ بالإيمان وما يجب أن يعتقد ممّا لا يعتقد وهذه هي العقائد الإيمانيّة في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالأدلّة العقليّة هو علم الكلام ثمّ النظر في القرآن والحديث لا بدّ أن تتقدّمه العلوم اللسانيّة لأنّه متوقّف عليها وهي أصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب حسبما نتكلّم عليها كلّها وهذه العلوم النقليّة كلّها مختصّة بالملّة الإسلاميّة وأهلها وإن كانت كلّ ملّة على الجملة لا بدّ فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنّها العلوم الشرعيّة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلّغ لها وأمّا على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنّها ناسخة لها وكلّ ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلّى الله عليه وسلّم لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنّا بالّذي أنزل علينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ورأى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتّى تبيّن الغضب في وجهه ثمّ قال ألم آتكم بها بيضاء نقيّة والله لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلّا اتّباعي ثمّ إنّ هذه العلوم الشرعيّة النقليّة قد نفقت أسواقها في هذه الملّة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية الّتي لا شيء فوقها وهذّبت الاصطلاحات ورتّبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكلّ فنّ رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختصّ المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدّمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله

بِالْمَشْرِقِ وَالظَّنُّ بِهِ نَفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتِّصَالُ التَّعْلِيمِ فِي الْعُلُومِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ لِكَثْرَةِ عُمْرَانِهِ وَالْحَضَارَةِ وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْجِرَايَةِ مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ وَبِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

اَلْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ وَهُوَ مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي أَدَائِهَا وَتُنُوقِلَ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ إِلَى أَنِ اسْتَقَرَّتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مُعَيَّنَةٌ تَوَاتَرَ نَقْلُهَا أَيْضًا بِأَدَائِهَا وَاخْتُصَّتْ بِالْانْتِسَابِ إِلَى مَنِ اشْتَهَرَ بِرِوَايَتِهَا مِنَ الْجَمِّ الْغَفِيرِ فَصَارَتْ هٰذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أُصُولًا لِلْقِرَاءَةِ وَرُبَّمَا زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخَرُ لَحِقَتْ بِالسَّبْعِ إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أَئِمَّةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتَهَا فِي النَّقْلِ وَهٰذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِهَا وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَوَاتُرِ طُرُقِهَا لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَيْفِيَّاتٌ لِلْأَدَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مُنْضَبِطٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِقَادِحٍ فِي تَوَاتُرِ الْقُرْآنِ وَأَبَاهُ الْأَكْثَرُ وَقَالُوا بِتَوَاتُرِهَا وَقَالَ آخَرُونَ بِتَوَاتُرِ غَيْرِ الْأَدَاءِ مِنْهَا كَالْمَدِّ وَالتَّسْهِيلِ لِعَدَمِ الْوُقُوفِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ بِالسَّمْعِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَلَمْ يَزَلِ الْقُرَّاءُ يَتَدَاوَلُونَ هٰذِهِ الْقِرَاءَاتِ وَرِوَايَتَهَا إِلَى أَنْ كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدُوِّنَتْ فَكُتِبَتْ فِيمَا كُتِبَ مِنَ الْعُلُومِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً مَخْصُوصَةً وَعِلْمًا مُنْفَرِدًا وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ فِي جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ مَلَكَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ مُجَاهِدٌ مِنْ مَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ وَكَانَ مُعْتَنِيًا بِهٰذَا الْفَنِّ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْقُرْآنِ لَمَّا أَخَذَهُ بِهِ مَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْعَامِرِ وَاجْتَهَدَ فِي تَعْلِيمِهِ وَعَرْضِهِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْقُرَّاءِ بِحَضْرَتِهِ فَكَانَ سَهْمُهُ فِي ذَلِكَ وَافِرًا وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَانِيَةَ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ فَنَفَقَتْ بِهَا سُوقُ الْقِرَاءَةِ لِمَا كَانَ هُوَ مِنْ أَئِمَّتِهَا وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُومًا وَبِالْقِرَاءَاتِ خُصُوصًا فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا وَانْتَهَتْ إِلَى رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا وَتَعَدَّدَتْ تَآلِيفُهُ فِيهَا وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَدَلُوا عَنْ غَيْرِهَا وَاعْتَمَدُوا

منْ بيْنِهَا كِتَابَ ٱلتَّيْسِيرِ لَهُ ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فِيمَا يَلِيهِ مِنَ ٱلْعُصُورِ وَٱلْأَجْيَالِ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ فِيرُّهْ مِنْ أَهْلِ شَاطِبَةَ فَعَمَدَ إِلَى تَهْذِيبِ مَا دَوَّنَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلْخِيصِهِ فَنَظَمَ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَغَزَ فِيهَا أَسْمَاءَ ٱلْقُرَّاءِ بِحُرُوفِ ا ب ج د تَرْتِيبًا أَحْكَمَهُ لِيَتَيَسَّرَ عَلَيْهِ مَا قَصَدَهُ مِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ وَلِيَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا فَٱسْتَوْعَبَ فِيهَا ٱلْفَنَّ ٱسْتِيعَابًا حَسَنًا وَعُنِيَ ٱلنَّاسُ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوِلْدَانِ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَجَرَى ٱلْعَمَلُ عَلَى ذٰلِكَ فِي أَمْصَارِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَرُبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَنِّ ٱلْقِرَاءَاتِ فَنُّ ٱلرَّسْمِ أَيْضًا وَهِيَ أَوْضَاعُ حُرُوفِ ٱلْقُرْآنِ فِي ٱلْمُصْحَفِ وَرُسُومُهُ ٱلْخَطِّيَّةُ لِأَنَّ فِيهِ حُرُوفًا كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى غَيْرِ ٱلْمَعْرُوفِ مِنْ قِيَاسِ ٱلْخَطِّ كَزِيَادَةِ ٱلْيَاءِ فِي بِأَيْيدٍ وَزِيَادَةِ ٱلْأَلِفِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ وَلَا أَوْضَعُوا وَٱلْوَاوِ فِي جَزَاؤُ ٱلظَّالِمِينَ وَحَذْفِ ٱلْأَلِفَاتِ فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا رُسِمَ فِيهِ مِنَ ٱلتَّاءَاتِ مَمْدُودًا وَٱلْأَصْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى شَكْلِ ٱلْهَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ هٰذَا ٱلرَّسْمِ ٱلْمُصْحَفِيِّ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْخَطِّ فَلَمَّا جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةُ لِأَوْضَاعِ ٱلْخَطِّ وَقَانُونِهِ ٱحْتِيجَ إِلَى حَصْرِهَا فَكَتَبَ ٱلنَّاسُ فِيهَا أَيْضًا عِنْدَ كَتْبِهِمْ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱنْتَهَتْ بِٱلْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرٍو ٱلدَّانِي ٱلْمَذْكُورِ فَكَتَبَ فِيهَا كُتُبًا مِنْ أَشْهَرِهَا كِتَابُ ٱلْمُقْنِعِ وَأَخَذَ بِهِ ٱلنَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَنَظَمَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلشَّاطِبِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ عَلَى رَوِيِّ ٱلرَّاءِ وَوَلِعَ ٱلنَّاسُ بِحِفْظِهَا ثُمَّ كَثُرَ ٱلْخِلَافُ فِي ٱلرَّسْمِ فِي كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ نَجَاحٍ مِنْ مَوَالِي مُجَاهِدٍ فِي كُتُبِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ أَبِي عَمْرٍو ٱلدَّانِيِّ وَٱلْمُشْتَهِرُ بِحَمْلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كُتُبِهِ ثُمَّ نُقِلَ بَعْدَهُ خِلَافٌ آخَرُ فَنَظَمَ ٱلْخَرَّازُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ بِٱلْمَغْرِبِ أُرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا عَلَى ٱلْمُقْنِعِ خِلَافًا كَثِيرًا وَعَزَاهُ لِنَاقِلِيهِ وَٱشْتَهَرَتْ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱقْتَصَرَ ٱلنَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا وَهَجَرُوا بِهَا كُتُبَ أَبِي دَاوُدَ وَأَبِي عَمْرٍو وَٱلشَّاطِبِيِّ فِي ٱلرَّسْمِ

(واما التفسير) . فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ ٱلْعَرَبِ وَعَلَى أَسَالِيبِ بَلَاغَتِهِمْ فَكَانُوا كُلُّهُمْ يَفْهَمُونَهُ وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرَاكِيبِهِ وَكَانَ يَنْزِلُ جُمَلًا جُمَلًا وَآيَاتٍ آيَاتٍ لِبَيَانِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلْفُرُوضِ ٱلدِّينِيَّةِ بِحَسَبِ ٱلْوَقَائِعِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ ٱلْجَوَارِحِ وَمِنْهَا مَا يَتَقَدَّمُ وَمِنْهَا مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُونُ نَاسِخًا لَهُ وَكَانَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ ٱلْمُجْمَلَ وَيُمَيِّزُ ٱلنَّاسِخَ مِنَ ٱلْمَنْسُوخِ .

وَيُعَرِّفُهُ أَصْحَابَهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نُزُولِ ٱلْآيَاتِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولاً عَنْهُ كَمَا عُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ إِنَّهَا نَعْيُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَنُقِلَ ذَٰلِكَ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ رِضْوَانُ ٱللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَتَدَاوَلَ ذَٰلِكَ ٱلتَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَنُقِلَ ذَٰلِكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقَلاً بَيْنَ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ ٱلْمَعَارِفُ عُلُوماً وَدُوِّنَتِ ٱلْكُتُبُ فَكُتِبَ ٱلْكَثِيرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَنُقِلَتِ ٱلْآثَارُ ٱلْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَٱنْتَهَى ذَٰلِكَ إِلَى ٱلطَّبَرِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ وَٱلثَّعَالِبِيِّ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْمُفَسِّرِينَ فَكَتَبُوا فِيهِ مَا شَاءَ ٱللهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ مِنَ ٱلْآثَارِ ثُمَّ صَارَتْ عُلُومُ ٱللِّسَانِ صِنَاعِيَّةً مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مَوْضُوعَاتِ ٱللُّغَةِ وَأَحْكَامِ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱلتَّرَاكِيبِ فَوُضِعَتِ ٱلدَّوَاوِينُ فِي ذَٰلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَلَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نَقْلٍ وَلَا كِتَابٍ فَتُنُوسِيَ ذَٰلِكَ وَصَارَتْ تُتَلَقَّى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ ٱللِّسَانِ فَٱحْتِيجَ إِلَى ذَٰلِكَ فِي تَفْسِيرِ ٱلْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَعَلَى مِنْهَاجِ بَلَاغَتِهِمْ وَصَارَ ٱلتَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ تَفْسِيرٍ نَقْلِيٍّ مُسْنَدٍ إِلَى ٱلْآثَارِ ٱلْمَنْقُولَةِ عَنِ ٱلسَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِخِ وَٱلْمَنْسُوخِ وَأَسْبَابِ ٱلنُّزُولِ وَمَقَاصِدِ ٱلْآيِ وَكُلُّ ذَٰلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِٱلنَّقْلِ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَقَدْ جَمَعَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ فِي ذَٰلِكَ وَأَوْعَوْا إِلَّا أَنَّ كُتُبَهُمْ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْغَثِّ وَٱلسَّمِينِ وَٱلْمَقْبُولِ وَٱلْمَرْدُودِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلَبَتْ عَلَيْهِمِ ٱلْبِدَاوَةُ وَٱلْأُمِّيَّةُ وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ ٱلْبَشَرِيَّةُ فِي أَسْبَابِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ وَبَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ ٱلْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ ٱلتَّوْرَاةِ مِنَ ٱلْيَهُودِ وَمَنْ تَبِعَ دِينَهُمْ مِنَ ٱلنَّصَارَى وَأَهْلُ ٱلتَّوْرَاةِ ٱلَّذِينَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَٰلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حِمْيَرَ ٱلَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ ٱلْيَهُودِيَّةِ فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلَّتِي يَحْتَاطُونَ لَهَا مِثْلَ أَخْبَارِ بَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلْحِدْثَانِ وَٱلْمَلَاحِمِ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ كَعْبِ ٱلْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَعَبْدِ ٱللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَٱمْتَلَأَتِ ٱلتَّفَاسِيرُ مِنَ ٱلْمَنْقُولَاتِ عِنْدَهُمْ فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَغْرَاضِ أَخْبَارٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا يُرْجَعُ إِلَى ٱلْأَحْكَامِ فَتُتَحَرَّى فِي ٱلصِّحَّةِ ٱلَّتِي يَجِبُ بِهَا ٱلْعَمَلُ وَتَسَاهَلَ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي

مِثْلِ ذَلِكَ وَمَلَأُوا كُتُبَ ٱلتَّفْسِيرِ بِهَذِهِ ٱلْمَنْقُولَاتِ وَأَصْلُهَا كَمَا قُلْنَا عَنْ أَهْلِ ٱلتَّوْرَاةِ ٱلَّذِينَ يَسْكُنُونَ ٱلْبَادِيَةَ وَلَا تَحْقِيقَ عِنْدَهُمْ بِمَعْرِفَةِ مَا يَنْقُلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعُدَ صِيتُهُمْ وَعَظُمَتْ أَقْدَارُهُمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ فِي ٱلدِّينِ وَٱلْمِلَّةِ فَتُلُقِّيَتْ بِٱلْقَبُولِ مِنْ يَوْمَئِذٍ فَلَمَّا رَجَعَ ٱلنَّاسُ إِلَى ٱلتَّحْقِيقِ وَٱلتَّمْحِيصِ وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَطِيَّةَ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ بِٱلْمَغْرِبِ فَلَخَّصَ تِلْكَ ٱلتَّفَاسِيرَ كُلَّهَا وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلصِّحَّةِ مِنْهَا وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَدَاوَلٍ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ حَسَنِ ٱلْمَنْحَى وَتَبِعَهُ ٱلْقُرْطُبِيُّ فِي تِلْكَ ٱلطَّرِيقَةِ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فِي كِتَابٍ آخَرَ مَشْهُورٍ بِٱلْمَشْرِقِ .

وَٱلصِّنْفُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلتَّفْسِيرِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى ٱللِّسَانِ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱللُّغَةِ وَٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِي تَأْدِيَةِ ٱلْمَعْنَى بِحَسَبِ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَسَالِيبِ وَهَذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّفْسِيرِ قَلَّ أَنْ يَنْفَرِدَ عَنِ ٱلْأَوَّلِ إِذِ ٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلذَّاتِ وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا بَعْدَ أَنْ صَارَ ٱللِّسَانُ وَعُلُومُهُ صِنَاعَةً نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ ٱلتَّفَاسِيرِ غَالِبًا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا ٱلْفَنُّ مِنَ ٱلتَّفَاسِيرِ كِتَابُ ٱلْكَشَّافِ لِلزَّمَخْشَرِيِّ مِنْ أَهْلِ خَوَارَزْمِ ٱلْعِرَاقِ إِلَّا أَنَّ مُؤَلِّفَهُ مِنْ أَهْلِ ٱلِٱعْتِزَالِ فِي ٱلْعَقَائِدِ فَيَأْتِي بِٱلْحِجَاجِ عَلَى مَذَاهِبِهِمِ ٱلْفَاسِدَةِ حَيْثُ تَعْرِضُ فِي آيِ ٱلْقُرْآنِ مِنْ طُرُقِ ٱلْبَلَاغَةِ فَصَارَ ذَلِكَ لِلْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ ٱنْحِرَافٌ عَنْهُ وَتَحْذِيرٌ لِلْجُمْهُورِ مِنْ مَكَامِنِهِ مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِرُسُوخِ قَدَمِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِٱللِّسَانِ وَٱلْبَلَاغَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاظِرُ فِيهِ وَاقِفًا مَعَ ذَلِكَ عَلَى ٱلْمَذَاهِبِ ٱلسُّنِّيَّةِ مُحْسِنًا لِلْحِجَاجِ عَنْهَا فَلَا جَرَمَ إِنَّهُ مَأْمُونٌ مِنْ غَوَائِلِهِ فَلْتُغْتَنَمْ مُطَالَعَتُهُ لِغَرَابَةِ فُنُونِهِ فِي ٱللِّسَانِ وَلَقَدْ وَصَلَ إِلَيْنَا فِي هَذِهِ ٱلْعُصُورِ تَأْلِيفٌ لِبَعْضِ ٱلْعِرَاقِيِّينَ وَهُوَ شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيُّ مِنْ أَهْلِ تُورِيزَ مِنْ عِرَاقِ ٱلْعَجَمِ شَرَحَ فِيهِ كِتَابَ ٱلزَّمَخْشَرِيِّ هَذَا وَتَتَبَّعَ أَلْفَاظَهُ وَتَعَرَّضَ لِمَذَاهِبِهِ فِي ٱلِٱعْتِزَالِ بِأَدِلَّةٍ تُزَيِّفُهَا وَيُبَيِّنُ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا تَقَعُ فِي ٱلْآيَةِ عَلَى مَا يَرَاهُ أَهْلُ ٱلسُّنَّةِ لَا عَلَى مَا يَرَاهُ ٱلْمُعْتَزِلَةُ فَأَحْسَنَ فِي ذَلِكَ مَا شَاءَ مَعَ إِمْتَاعِهِ فِي سَائِرِ فُنُونِ ٱلْبَلَاغَةِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

الفصل السادس

في علوم الحديث

وَأَمَّا عُلُومُ ٱلْحَدِيثِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ لِأَنَّ مِنْهَا مَا يُنْظَرُ فِي نَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ

وَذٰلِكَ بِمَا ثَبَتَ فِي شَرِيعَتِنَا مِنْ جَوَازِ ٱلنَّسْخِ وَوُقُوعِهِ لُطْفًا مِنَ ٱللّٰهِ بِعِبَادِهِ وَتَخْفِيفًا عَنْهُمْ
بِٱعْتِبَارِ مَصَالِحِهِمِ ٱلَّتِي تَكَفَّلَ لَهُمْ بِهَا قَالَ تَعَالَى مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ
مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا فَإِذَا تَعَارَضَ ٱلْخَبَرَانِ بِٱلنَّفْيِ وَٱلْإِثْبَاتِ وَتَعَذَّرَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِبَعْضِ ٱلتَّأْوِيلِ
وَعُلِمَ تَقَدُّمُ أَحَدِهِمَا تَعَيَّنَ أَنَّ ٱلْمُتَأَخِّرَ نَاسِخٌ وَمَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِخِ وَٱلْمَنْسُوخِ مِنْ أَهَمِّ عُلُومِ
ٱلْحَدِيثِ وَأَصْعَبِهَا قَالَ ٱلزُّهْرِيُّ أَعْيَا ٱلْفُقَهَاءَ وَأَعْجَزَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ ٱللّٰهِ
صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنْسُوخِهِ وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ وَمِنْ
عُلُومِ ٱلْأَحَادِيثِ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ ٱلْعَمَلُ بِهِ مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ بِوُقُوعِهِ
عَلَى ٱلسَّنَدِ ٱلْكَامِلِ ٱلشُّرُوطِ لِأَنَّ ٱلْعَمَلَ إِنَّمَا وَجَبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى ٱلظَّنِّ صِدْقُهُ مِنْ
أَخْبَارِ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَجْتَهِدُ فِي ٱلطَّرِيقِ ٱلَّتِي تُحَصِّلُ ذٰلِكَ ٱلظَّنَّ وَهُوَ
بِمَعْرِفَةِ رُوَاةِ ٱلْحَدِيثِ بِٱلْعَدَالَةِ وَٱلضَّبْطِ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ ذٰلِكَ بِٱلنَّقْلِ عَنْ أَعْلَامِ ٱلدِّينِ
بِتَعْدِيلِهِمْ وَبَرَاءَتِهِمْ مِنَ ٱلْجَرْحِ وَٱلْغَفْلَةِ وَيَكُونُ لَنَا ذٰلِكَ دَلِيلًا عَلَى ٱلْقَبُولِ أَوِ ٱلتَّرْكِ
وَكَذٰلِكَ مَرَاتِبُ هٰؤُلَاءِ ٱلنَّقَلَةِ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَتَفَاوُتُهُمْ فِي ذٰلِكَ وَتَمَيُّزُهُمْ فِيهِ
وَاحِدًا وَاحِدًا وَكَذٰلِكَ ٱلْأَسَانِيدُ تَتَفَاوَتُ بِٱتِّصَالِهَا وَٱنْقِطَاعِهَا بِأَنْ يَكُونَ ٱلرَّاوِي لَمْ يَلْقَ
ٱلرَّاوِيَ ٱلَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِسَلَامَتِهَا مِنَ ٱلْعِلَلِ ٱلْمُوهِنَةِ لَهَا وَتَنْتَهِي بِٱلتَّفَاوُتِ إِلَى طَرَفَيْنِ
فَحُكِمَ بِقَبُولِ ٱلْأَعْلَى وَرَدِّ ٱلْأَسْفَلِ وَيُخْتَلَفُ فِي ٱلْمُتَوَسِّطِ بِحَسَبِ ٱلْمَنْقُولِ عَنْ
أَئِمَّةِ ٱلشَّأْنِ وَلَهُمْ فِي ذٰلِكَ أَلْفَاظٌ ٱصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهٰذِهِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْمُرَتَّبَةِ مِثْلَ
ٱلصَّحِيحِ وَٱلْحَسَنِ وَٱلضَّعِيفِ وَٱلْمُرْسَلِ وَٱلْمُنْقَطِعِ وَٱلْمُعْضَلِ وَٱلشَّاذِّ وَٱلْغَرِيبِ وَغَيْرِ
ذٰلِكَ مِنْ أَلْقَابِهِ ٱلْمُتَدَاوَلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَوَّبُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَنَقَلُوا مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخِلَافِ
لِأَئِمَّةِ ٱللِّسَانِ أَوِ ٱلْوِفَاقِ ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِ ٱلرِّوَايَةِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ بِقِرَاءَةٍ
أَوْ كِتَابَةٍ أَوْ مُنَاوَلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ وَتَفَاوُتِ رُتَبِهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْخِلَافِ بِٱلْقَبُولِ
وَٱلرَّدِّ ثُمَّ أَتْبَعُوا ذٰلِكَ بِكَلَامٍ فِي أَلْفَاظٍ تَقَعُ فِي مُتُونِ ٱلْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ
أَوْ تَصْحِيفٍ أَوْ مُفْتَرِقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلِفٍ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ هٰذَا مُعْظَمُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ أَهْلُ
ٱلْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ وَكَانَتْ أَحْوَالُ نَقَلَةِ ٱلْحَدِيثِ فِي عُصُورِ ٱلسَّلَفِ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ
مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِٱلْحِجَازِ وَمِنْهُمْ بِٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ مِنَ ٱلْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ
بِٱلشَّامِ وَمِصْرَ بِٱلْجَمِيعِ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي أَعْصَارِهِمْ وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ

فِي أَعْصَارِهِمْ فِي ٱلْأَسَانِيدِ أَعْلَى مِمَّنْ سِوَاهُمْ وَأَمْتَنَ فِي ٱلصِّحَّةِ لِٱسْتِبْدَادِهِمْ فِي شُرُوطِ ٱلنَّقْلِ مِنَ ٱلْعَدَالَةِ وَٱلضَّبْطِ وَتَجَافِيهِمْ عَنْ قَبُولِ ٱلْمَجْهُولِ ٱلْحَالِ فِي ذٰلِكَ وَسَنَدُ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ ٱلسَّلَفِ ٱلْإِمَامُ مَالِكٌ عَالِمُ ٱلْمَدِينَةِ رَضِيَ ٱللّٰهُ تَعَالَى عَنْهُ ثُمَّ أَصْحَابُهُ مِثْلُ ٱلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ ٱلشَّافِعِيِّ وَٱلْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَانَ عِلْمُ ٱلشَّرِيعَةِ فِي مَبْدَإِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ نَقْلًا صِرْفًا شَمَّرَ لَهَا ٱلسَّلَفُ وَتَحَرَّوْا ٱلصَّحِيحَ حَتَّى أَكْمَلُوهَا وَكَتَبَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ كِتَابَ ٱلْمُوَطَّإِ أَوْدَعَهُ أُصُولَ ٱلْأَحْكَامِ مِنَ ٱلصَّحِيحِ ٱلْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَرَتَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ ٱلْفِقْهِ ثُمَّ عُنِيَ ٱلْحُفَّاظُ بِمَعْرِفَةِ طُرُقِ ٱلْأَحَادِيثِ وَأَسَانِيدِهَا ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَرُبَّمَا يَقَعُ إِسْنَادُ ٱلْحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ رُوَاةٍ مُخْتَلِفِينَ وَقَدْ يَقَعُ ٱلْحَدِيثُ أَيْضًا فِي أَبْوَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ٱشْتَمَلَ عَلَيْهَا وَجَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ ٱلْبُخَارِيُّ إِمَامُ ٱلْمُحَدِّثِينَ فِي عَصْرِهِ فَخَرَّجَ أَحَادِيثَ ٱلسُّنَّةِ عَلَى أَبْوَابِهَا فِي مُسْنَدِهِ ٱلصَّحِيحِ بِجَمِيعِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي لِلْحِجَازِيِّينَ وَٱلْعِرَاقِيِّينَ وَٱلشَّامِيِّينَ وَٱعْتَمَدُوا مِنْهَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ دُونَ مَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَكَرَّرَ ٱلْأَحَادِيثَ يَسُوقُهَا فِي كُلِّ بَابٍ بِمَعْنَى ذٰلِكَ ٱلْبَابِ ٱلَّذِي تَضَمَّنَهُ ٱلْحَدِيثُ فَتَكَرَّرَتْ لِذٰلِكَ أَحَادِيثُهُ حَتَّى يُقَالَ إِنَّهُ ٱشْتَمَلَ عَلَى تِسْعَةِ [1] آلَافِ حَدِيثٍ وَمِائَتَيْنِ مِنْهَا ثَلَاثَةُ آلَافٍ مُتَكَرِّرَةٍ وَفَرَّقَ ٱلطُّرُقَ وَٱلْأَسَانِيدَ عَلَيْهَا مُخْتَلِفَةً فِي كُلِّ بَابٍ ثُمَّ جَاءَ ٱلْإِمَامُ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْحَجَّاجِ ٱلْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى فَأَلَّفَ مُسْنَدَهُ ٱلصَّحِيحَ حَذَا فِيهِ حَذْوَ ٱلْبُخَارِيِّ فِي نَقْلِ ٱلْمُجْمَعِ عَلَيْهِ وَحَذَفَ ٱلْمُتَكَرِّرَ مِنْهَا وَجَمَعَ ٱلطُّرُقَ وَٱلْأَسَانِيدَ وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ ٱلْفِقْهِ وَتَرَاجِمِهِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَسْتَوْعِبَا ٱلصَّحِيحَ كُلَّهُ وَقَدِ ٱسْتَدْرَكَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِمَا فِي ذٰلِكَ ثُمَّ كَتَبَ أَبُو دَاوُدَ ٱلسِّجِسْتَانِيُّ وَأَبُو عِيسَى ٱلتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّسَائِيُّ فِي ٱلسُّنَنِ بِأَوْسَعَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَقَصَدُوا مَا تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ ٱلْعَمَلِ إِمَّا مِنَ ٱلرُّتْبَةِ ٱلْعَالِيَةِ فِي ٱلْأَسَانِيدِ وَهُوَ ٱلصَّحِيحُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِمَّا مِنَ ٱلَّذِي دُونَهُ مِنَ ٱلْحَسَنِ وَغَيْرِهِ لِيَكُونَ ذٰلِكَ إِمَامًا لِلسُّنَّةِ وَٱلْعَمَلِ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَسَانِيدُ ٱلْمَشْهُورَةُ فِي ٱلْمِلَّةِ وَهِيَ أُمَّهَاتُ كُتُبِ ٱلْحَدِيثِ فِي ٱلسُّنَّةِ فَإِنَّهَا وَإِنْ تَعَدَّدَتْ تَرْجِعُ إِلَى هٰذِهِ فِي ٱلْأَغْلَبِ وَمَعْرِفَةُ هٰذِهِ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْاصْطِلَاحَاتِ كُلِّهَا هِيَ عِلْمُ ٱلْحَدِيثِ وَرُبَّمَا يُفْرَدُ عَنْهَا ٱلنَّاسِخُ وَٱلْمَنْسُوخُ فَيُجْعَلُ فَنًّا بِرَأْسِهِ وَكَذَا ٱلْغَرِيبُ وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ مَشْهُورَةٌ

---

١ قوله تسعة الذي في النووي على مسلم انها سبعة بتقديم السين فحرره

ثمّ المؤتلف والمختلف وقد ألّف النّاس في علوم الحديث وأكثروا ومن فحول علمائه وأئمّتهم أبو عبد الله الحاكم وتآليفه فيه مشهورة وهو الّذي هذّبه وأظهر محاسنه وأشهر كتاب للمتأخّرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصّلاح كان لعهد أوائل المائة السّابعة وتلاه محيي الدّين النّووي بمثل ذلك والفنّ شريف في مغزاه لأنّه معرفة ما يحفظ به السّنن المنقولة عن صاحب الشّريعة وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدّمين إذ العادة تشهد بأنّ هؤلاء الأئمّة على تعدّدهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئًا من السّنّة أو يتركوه حتّى يعثر عليه المتأخّر هذا بعيد عنهم وإنّما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمّهات المكتوبة وضبطها بالرّواية عن مصنّفيها والنّظر في أسانيدها إلى مؤلّفها وعرض ذلك على ما تقرّر في علم الحديث من الشّروط والأحكام لتتّصل الأسانيد محكمة إلى منتهاها ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمّهات الخمس إلاّ في القليل. فأمّا البخاريّ وهو أعلاها رتبة فاستصعب النّاس شرحه واستغلقوا منحاه من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطّرق المتعدّدة ورجالها من أهل الحجاز والشّام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف النّاس فيهم ولذلك يحتاج إلى إمعان النّظر في التّفقّه في تراجمه لأنّه يترجم التّرجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ثمّ يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمّنه من المعنى الّذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرّر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوفّ حقّ الشّرح كابن بطّال وابن المهلّب وابن التّين ونحوهم ولقد سمعت كثيرًا من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخاريّ دين على الأمّة يعنون أنّ أحدًا من علماء الأمّة لم يوفّ ما يجب له من الشّرح بهذا الاعتبار. وأمّا صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبّوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاريّ من غير الصّحيح ممّا لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في التّراجم وأملى الإمام المازريّ من فقهاء المالكيّة عليه شرحًا وسمّاه المعلّم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه ثمّ أكمله القاضي عياض من بعده وتمّمه وسمّاه إكمال

الْمُعَلِّمِ وَتَلَاهُمَا مُحْيِي ٱلدِّينِ ٱلنَّوَوِيُّ بِشَرْحٍ ٱسْتَوْفَى مَا فِي ٱلْكِتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهِمَا فَجَاءَ شَرْحًا وَافِيًا. وَأَمَّا كُتُبُ ٱلسُّنَنِ ٱلْأُخْرَى وَفِيهَا مُعْظَمُ مَآخِذِ ٱلْفُقَهَاءِ فَأَكْثَرُ شَرْحِهَا فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ إِلَّا مَا يَخْتَصُّ بِعِلْمِ ٱلْحَدِيثِ فَكَتَبَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْفَوْا مِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِ ٱلْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَٱلْأَسَانِيدِ ٱلَّتِي ٱشْتَمَلَتْ عَلَى ٱلْأَحَادِيثِ ٱلْمَعْمُولِ بِهَا مِنَ ٱلسُّنَّةِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبُهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ وَحَسَنٍ وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ وَغَيْرِهَا تَنَزَّلَهَا أَئِمَّةُ ٱلْحَدِيثِ وَجَهَابِذَتُهُ وَعَرَّفُوهَا وَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ فِي تَصْحِيحِ مَا يَصِحُّ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ كَانَ ٱلْأَئِمَّةُ فِي ٱلْحَدِيثِ يُعَرِّفُونَ ٱلْأَحَادِيثَ بِطُرُقِهَا وَأَسَانِيدِهَا بِحَيْثُ لَوْ رُوِيَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ يَفْطَنُونَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ قُلِبَ عَنْ وَضْعِهِ وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذٰلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ وَقَصَدَ ٱلْمُحَدِّثُونَ ٱمْتِحَانَهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَلَبُوا أَسَانِيدَهَا فَقَالَ لَا أَعْرِفُ هٰذِهِ وَلٰكِنْ حَدَّثَنِي فُلَانٌ ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ ٱلْأَحَادِيثِ عَلَى ٱلْوَضْعِ ٱلصَّحِيحِ وَرَدَّ كُلَّ مَتْنٍ إِلَى سَنَدِهِ وَأَقَرُّوا لَهُ بِٱلْإِمَامَةِ. وَٱعْلَمْ أَيْضًا أَنَّ ٱلْأَئِمَّةَ ٱلْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي ٱلْإِكْثَارِ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْإِقْلَالِ فَأَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ ٱللّٰهُ تَعَالَى عَنْهُ يُقَالُ بَلَغَتْ رِوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةَ عَشَرَ حَدِيثًا أَوْ نَحْوِهَا وَمَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ إِنَّمَا صَحَّ عِنْدَهُ مَا فِي كِتَابِ ٱلْمُوَطَّإِ (١) وَغَايَتُهَا ثَلَاثُمِائَةِ حَدِيثٍ أَوْ نَحْوُهَا. وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى فِي مُسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَلِكُلٍّ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ ٱجْتِهَادُهُ فِي ذٰلِكَ وَقَدْ تَقَوَّلَ بَعْضُ ٱلْمُبْغِضِينَ ٱلْمُتَعَسِّفِينَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَلِيلَ ٱلْبِضَاعَةِ فِي ٱلْحَدِيثِ فَلِهٰذَا قَلَّتْ رِوَايَتُهُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى هٰذَا ٱلْمُعْتَقَدِ فِي كِبَارِ ٱلْأَئِمَّةِ لِأَنَّ ٱلشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ ٱلْبِضَاعَةِ مِنَ ٱلْحَدِيثِ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ طَلَبُهُ وَرِوَايَتُهُ وَٱلْجِدُّ وَٱلتَّشْمِيرُ فِي ذٰلِكَ لِيَأْخُذَ ٱلدِّينَ عَنْ أُصُولٍ صَحِيحَةٍ وَيَتَلَقَّى ٱلْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا ٱلْمُبَلِّغِ لَهَا وَإِنَّمَا قَلَّلَ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّلَ ٱلرِّوَايَةَ لِأَجْلِ ٱلْمَطَاعِنِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيهَا وَٱلْعِلَلِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ فِي طُرُقِهَا سِيَّمَا وَٱلْجَرْحُ مُقَدَّمٌ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ فَيُؤَدِّيهِ ٱلِاجْتِهَادُ إِلَى تَرْكِ ٱلْأَخْذِ بِمَا يَعْرِضُ مِثْلَ ذٰلِكَ فِيهِ مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ وَطُرُقِ ٱلْأَسَانِيدِ وَيَكْثُرُ ذٰلِكَ فَتَقِلُّ رِوَايَتُهُ

---

(١) الذي في شرح الزرقاني على الموطا حكاية اقوال خمسة في عدة احاديثه اولها ٥٠٠ ثانيها ٧٠٠ ثالثها الف ونيف رابعها ١٧٢٠ خامسها ٦٦٦ وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الهوريني

لضعف في الطرق هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي وقلت من أجلها روايته فقل حديثه لأنه ترك رواية الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم وروى الطحاوي فأكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل الصحيحين لأن الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما مجمع عليها بين الأمة كما قالوه وشروط الطحاوي غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره فلهذا قدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه عن شروطهم ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالإجماع على قبولهما من جهة الإجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها فلا تأخذك ريبة في ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الأمور

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهة والإباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ولا بد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف وأيضا فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضا فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص وما كان منها غير ظاهر في المنصوص

فيحمل على المنصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم ومن عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرأون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقي الأمر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قليلاً في أهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان إمام هذا المذهب داود ابن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم ولا نروي كتبهم ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وإنكار الجمهور على منتحله ولم يبق إلا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين

ممّن تكلّف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يخلو بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه وربّما عدّ بهذه النّحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلّمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علوّ رتبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظّاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف إمامهم داود وتعرّض للكثير من الأئمّة المسلمين فنقم النّاس ذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجانا وإنكارا وتلقّوا كتبه بالإغفال والتّرك حتّى إنّها ليحظر بيعها بالأسواق وربّما تمزّق في بعض الأحيان ولم يبق إلاّ مذهب أهل الرّأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز. فأمّا أهل العراق فإمامهم الّذي استقرّت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النّعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصا مالك والشّافعيّ. وأمّا أهل الحجاز فكان إمامهم مالك ابن أنس الأصبحيّ إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختصّ بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لأنّه رأى أنّهم فيما ينفسون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الآخذين ذلك عنه وصار ذلك عنده من أصول الأدلّة الشّرعيّة وظنّ كثير أنّ ذلك من مسائل الإجماع فأنكره لأنّ دليل الإجماع لا يخصّ أهل المدينة من سواهم بل هو شامل للأمّة. واعلم أنّ الإجماع إنّما هو الاتّفاق على الأمر الدّينيّ عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وإنّما اعتبره من حيث اتّباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشّارع صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعمّ الملّة ذكرت في باب الإجماع والأبواب بها من حيث ما فيها من الاتّفاق الجامع بينها وبين الإجماع إلاّ أنّ اتّفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلّة واتّفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت المسألة في باب فعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتقريره أو مع الأدلّة المختلف فيها مثل مذهب الصّحابيّ وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان أليق ثمّ كان من بعد مالك بن أنس محمّد بن إدريس المطّلبيّ الشّافعيّ رحمهما الله تعالى رحل إلى العراق

مِنْ بَعْدِ مَالِكٍ وَلَقِيَ أَصْحَابَ ٱلْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَمَزَجَ طَرِيقَةَ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ بِطَرِيقَةِ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَٱخْتَصَّ بِمَذْهَبٍ وَخَالَفَ مَالِكًا رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ مَذْهَبِهِ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ ٱللهُ وَكَانَ مِنْ عِلْيَةِ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَقَرَأَ أَصْحَابُهُ عَلَى أَصْحَابِ ٱلْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ مَعَ وُفُورِ بِضَاعَتِهِمْ مِنَ ٱلْحَدِيثِ فَٱخْتَصُّوا بِمَذْهَبٍ آخَرَ وَوَقَفَ ٱلتَّقْلِيدُ فِي ٱلْأَمْصَارِ عِنْدَ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَدَرَسَ ٱلْمُقَلِّدُونَ لِمَنْ سِوَاهُمْ وَسَدَّ ٱلنَّاسُ بَابَ ٱلْخِلَافِ وَطُرُقَهُ لَمَّا كَثُرَ تَشَعُّبُ ٱلِٱصْطِلَاحَاتِ فِي ٱلْعُلُومِ وَلِمَا عَاقَ عَنِ ٱلْوُصُولِ إِلَى رُتْبَةِ ٱلِٱجْتِهَادِ وَلِمَا خُشِيَ مِنْ إِسْنَادِ ذٰلِكَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَمَنْ لَا يُوثَقُ بِرَأْيِهِ وَلَا بِدِينِهِ فَصَرَّحُوا بِٱلْعَجْزِ وَٱلْإِعْوَازِ وَرَدُّوا ٱلنَّاسَ إِلَى تَقْلِيدِ هٰؤُلَاءِ كُلٌّ مَنِ ٱخْتَصَّ بِهِ مِنَ ٱلْمُقَلِّدِينَ وَحَظَرُوا أَنْ يَتَدَاوَلَ تَقْلِيدُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّلَاعُبِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَقْلُ مَذَاهِبِهِمْ وَعَمِلَ كُلُّ مُقَلِّدٍ بِمَذْهَبِ مَنْ قَلَّدَهُ مِنْهُمْ بَعْدَ تَصْحِيحِ ٱلْأُصُولِ وَٱتِّصَالِ سَنَدِهَا بِٱلرِّوَايَةِ لَا مَحْصُولَ ٱلْيَوْمَ لِلْفِقْهِ غَيْرُ هٰذَا وَمُدَّعِي ٱلِٱجْتِهَادِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ مَهْجُورٌ تَقْلِيدُهُ وَقَدْ صَارَ أَهْلُ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْيَوْمَ عَلَى تَقْلِيدِ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَأَمَّا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فَمُقَلِّدُهُ قَلِيلٌ لِبُعْدِ مَذْهَبِهِ عَنِ ٱلِٱجْتِهَادِ وَأَصَالَتِهِ فِي مُعَاضَدَةِ ٱلرِّوَايَةِ وَلِلْأَخْبَارِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ وَأَكْثَرُهُمْ بِٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ مِنْ بَغْدَادَ وَنَوَاحِيهَا وَهُمْ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ حِفْظًا لِلسُّنَّةِ وَرِوَايَةِ ٱلْحَدِيثِ وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَقَلَّدَهُ ٱلْيَوْمَ أَهْلُ ٱلْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةُ ٱلْهِنْدِ وَٱلصِّينِ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَبِلَادِ ٱلْعَجَمِ كُلِّهَا لِمَا كَانَ مَذْهَبُهُ أَخَصَّ بِٱلْعِرَاقِ وَدَارِ ٱلسَّلَامِ وَكَانَ تِلْمِيذُهُ صَحَابَةَ ٱلْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَكَثُرَتْ تَآلِيفُهُمْ وَمُنَاظَرَاتُهُمْ مَعَ ٱلشَّافِعِيَّةِ وَحَسُنَتْ مَبَاحِثُهُمْ فِي ٱلْخِلَافِيَّاتِ وَجَاءُوا مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَظْرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي ٱلنَّاسِ وَبِٱلْمَغْرِبِ مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ نَقَلَهُ إِلَيْهِ ٱلْقَاضِي بْنُ ٱلْعَرَبِيِّ وَأَبُو ٱلْوَلِيدِ ٱلْبَاجِيُّ فِي رِحْلَتِهِمَا وَأَمَّا ٱلشَّافِعِيُّ فَمُقَلِّدُوهُ بِمِصْرَ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهَا وَقَدْ كَانَ ٱنْتَشَرَ مَذْهَبُهُ بِٱلْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَقَاسَمُوا ٱلْحَنَفِيَّةَ فِي ٱلْفَتْوَى وَٱلتَّدْرِيسِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَمْصَارِ وَعَظُمَتْ مَجَالِسُ ٱلْمُنَاظَرَاتِ بَيْنَهُمْ وَشُحِنَتْ كُتُبُ ٱلْخِلَافِيَّاتِ بِأَنْوَاعِ ٱسْتِدْلَالَاتِهِمْ ثُمَّ دَرَسَ ذٰلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ ٱلْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ وَكَانَ ٱلْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ ٱلشَّافِعِيُّ لَمَّا نَزَلَ عَلَى بَنِي عَبْدِ ٱلْحَكَمِ بِمِصْرَ أَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ ٱلْحَكَمِ وَأَشْهَبُ وَٱبْنُ ٱلْقَاسِمِ

وَٱبْنُ ٱلْمَوَّازِ وَغَيْرُهُمْ ثُمَّ ٱلْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينٍ وَبَنُوهُ ثُمَّ ٱنْقَرَضَ فِقْهُ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ مِنْ مِصْرَ بِظُهُورِ دَوْلَةِ ٱلرَّافِضَةِ وَتَدَاوَلَ بِهَا فِقْهُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَتَلَاشَى مَنْ سِوَاهُمْ إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ ٱلرَّافِضَةِ عَلَى يَدِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِقْهُ ٱلشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ فَعَادَ إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَنَفَقَتْ سُوقُهُ وَٱشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُحْيِي ٱلدِّينِ ٱلنَّوَوِيُّ مِنَ ٱلْحَلْبَةِ ٱلَّتِي رُبِيَتْ فِي ظِلِّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَيُّوبِيَّةِ بِٱلشَّامِ وَعِزُّ ٱلدِّينِ بْنُ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ أَيْضًا ثُمَّ ٱبْنُ ٱلرِّفْعَةِ بِمِصْرَ وَتَقِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ دَقِيقِ ٱلْعِيدِ ثُمَّ تَقِيُّ ٱلدِّينِ ٱلسُّبْكِيُّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنِ ٱنْتَهَى ذَٰلِكَ إِلَى شَيْخِ ٱلْإِسْلَامِ بِمِصْرَ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ ٱلدِّينِ ٱلْبَلْقِينِيُّ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ أَكْبَرُ ٱلشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ ٱلْعُلَمَاءِ بَلْ أَكْبَرُ ٱلْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ. وَأَمَّا مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فَٱخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُقَلِّدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ لِمَا أَنَّ رِحْلَتَهُمْ كَانَتْ غَالِبًا إِلَى ٱلْحِجَازِ وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ وَٱلْمَدِينَةُ يَوْمَئِذٍ دَارُ ٱلْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى ٱلْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَٱقْتَصَرُوا عَنِ ٱلْأَخْذِ عَنْ عُلَمَاءِ ٱلْمَدِينَةِ وَشَيْخُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَإِمَامُهُمْ مَالِكٌ وَشُيُوخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتِلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَقَلَّدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ وَأَيْضًا فَٱلْبِدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَانُونَ ٱلْحَضَارَةَ ٱلَّتِي لِأَهْلِ ٱلْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى أَهْلِ ٱلْحِجَازِ أَمْيَلَ لِمُنَاسَبَةِ ٱلْبِدَاوَةِ وَلِهَٰذَا لَمْ يَزَلِ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمَالِكِيُّ غَضًّا عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْقِيحُ ٱلْحَضَارَةِ وَتَهْذِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْمَذَاهِبِ وَلَمَّا صَارَ مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْمًا مَخْصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ٱلِٱجْتِهَادِ وَٱلْقِيَاسِ فَٱحْتَاجُوا إِلَى تَنْظِيرِ ٱلْمَسَائِلِ فِي ٱلْإِلْحَاقِ وَتَفْرِيقِهَا عِنْدَ ٱلِٱشْتِبَاهِ بَعْدَ ٱلِٱسْتِنَادِ إِلَى ٱلْأُصُولِ ٱلْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ وَصَارَ ذَٰلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى ذَٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّنْظِيرِ أَوِ ٱلتَّفْرِقَةِ وَٱتِّبَاعِ مَذْهَبِ إِمَامِهِمْ فِيهِمَا مَا ٱسْتَطَاعُوا وَهَٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ هِيَ عِلْمُ ٱلْفِقْهِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَأَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ جَمِيعًا مُقَلِّدُونَ لِمَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ ٱفْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَٱلْعِرَاقِ فَكَانَ بِٱلْعِرَاقِ مِنْهُمُ ٱلْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ ٱبْنِ خُوَيْزِ مَنْدَادَ وَٱبْنِ ٱللَّبَّانِ وَٱلْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ ٱلْأَبْهَرِيِّ وَٱلْقَاضِي أَبِي حُسَيْنِ بْنِ ٱلْقَصَّارِ وَٱلْقَاضِي عَبْدِ ٱلْوَهَّابِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَانَ

بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين وطبقتهم ورحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الأندلس ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية ورحل من أفريقية أسد بن الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولا ثم انتقل إلى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء إلى القيروان بكتابه وسمي الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات فقرأ بها سحنون على أسد ثم ارتحل إلى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الأسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لأسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل أفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع فكتب أهل أفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذاهب وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسئلة فجاء كالبرنامج للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين وابن المبشر وابن اللهيث وابن الرشيق وابن شاس وكانت بالإسكندرية في بني عوف

وَبَنِي سَنَدٍ وَٱبْنِ عَطَاءِ ٱللهِ وَلَمْ أَدْرِ عَمَّنْ أَخَذَهَا أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْحَاجِبِ لَكِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَذَهَابِ فِقْهِ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَظُهُورِ فُقَهَاءِ ٱلسُّنَّةِ مِنَ ٱلشَّافِعِيَّةِ وَٱلْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ آخِرَ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ عَكَفَ عَلَيْهِ ٱلْكَثِيرُ مِنْ طَلَبَةِ ٱلْمَغْرِبِ وَخُصُوصًا أَهْلُ بِجَايَةَ لِمَا كَانَ كَبِيرُ مَشْيَخَتِهِمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ ٱلدِّينِ ٱلزَّوَاوِيُّ هُوَ ٱلَّذِي جَلَبَهُ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مُخْتَصَرَهُ ذٰلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَٱنْتَشَرَ بِقُطْرِ بِجَايَةَ فِي تِلْمِيذِهِ وَمِنْهُمُ ٱنْتَقَلَ إِلَى سَائِرِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمَغْرِبِيَّةِ وَطَلَبَةُ ٱلْفِقْهِ بِٱلْمَغْرِبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَ قِرَاءَتَهُ وَيَتَدَارَسُونَهُ لِمَا يُؤْثَرُ عَنِ ٱلشَّيْخِ نَاصِرِ ٱلدِّينِ مِنَ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ كَٱبْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ وَٱبْنِ رُشْدٍ وَٱبْنِ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشْيَخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقُ حَلْبَتِهِمْ فِي ٱلْإِجَادَةِ فِي ذٰلِكَ ٱبْنُ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ يَتَعَاهَدُونَ كِتَابَ ٱلتَّهْذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ ٱلْوِرَاثَةِ وَتَصْحِيحِ سِهَامِ ٱلْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصِحُّ بِٱعْتِبَارِ فُرُوضِهَا ٱلْأُصُولِ أَوْ مُنَاسَخَتِهَا وَذٰلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ ٱلْوَرَثَةِ وَٱنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى حِسَبِ تَصْحِيحِ ٱلْفَرِيضَةِ ٱلْأُولَى حَتَّى يَصِلَ أَهْلُ ٱلْفُرُوضِ جَمِيعًا فِي ٱلْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجْزِئَةٍ وَقَدْ تَكُونُ هٰذِهِ ٱلْمُنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ وَٱثْنَيْنِ وَتَتَعَدَّدُ لِذٰلِكَ بِعَدَدٍ أَكْثَرَ وَبِقَدَرِ مَا تَحْتَاجُ إِلَى ٱلْحُسْبَانِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةٌ ذَاتُ وَجْهَيْنِ مِثْلَ أَنْ يُقِرَّ بَعْضُ ٱلْوَرَثَةِ بِوَارِثٍ وَيُنْكِرَهُ ٱلْآخَرُ فَتُصَحَّحُ عَلَى ٱلْوَجْهَيْنِ حِينَئِذٍ وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ ٱلسِّهَامِ ثُمَّ تُقْسَمُ ٱلتَّرِكَةُ عَلَى نِسَبِ سِهَامِ ٱلْوَرَثَةِ مِنْ أَصْلِ ٱلْفَرِيضَةِ وَكُلُّ ذٰلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْحُسْبَانِ وَكَانَ غَالِبًا فِيهِ وَجَعَلُوهُ فَنًّا مُفْرَدًا وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ أَشْهَرُهَا عِنْدَ ٱلْمَالِكِيَّةِ مِنْ مُتَأَخِّرِي ٱلْأَنْدَلُسِ كِتَابُ ٱبْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ ٱلْقَاضِي أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلْحَوفِيِّ ثُمَّ ٱلْجَعْدِيِّ وَمِنْ مُتَأَخِّرِي أَفْرِيقِيَّةَ ٱبْنُ ٱلنَّمِرِ ٱلطَّرَابُلُسِيُّ وَأَمْثَالُهُمْ وَأَمَّا ٱلشَّافِعِيَّةُ وَٱلْحَنَفِيَّةُ وَٱلْحَنَابِلَةُ فَلَهُمْ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ وَأَعْمَالٌ عَظِيمَةٌ صَعْبَةٌ شَاهِدَةٌ لَهُمْ بِٱتِّسَاعِ ٱلْبَاعِ فِي ٱلْفِقْهِ وَٱلْحِسَابِ

وَخُصُوصًا أَبَا ٱلْمَعَالِي رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَمْثَالَهُ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ وَهُوَ فَنٌّ شَرِيفٌ لِجَمْعِهِ بَيْنَ ٱلْمَعْقُولِ وَٱلْمَنْقُولِ وَٱلْوُصُولِ بِهِ إِلَى ٱلْحُقُوقِ فِي ٱلْوِرَاثَاتِ بِوُجُوهٍ صَحِيحَةٍ يَقِينِيَّةٍ عِنْدَ مَا تَجْهَلُ ٱلْحُظُوظُ وَتُشْكِلُ عَلَى ٱلْقَاسِمِينَ وَلِلْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ بِهَا عِنَايَةٌ وَمِنَ ٱلْمُصَنِّفِينَ مَنْ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى ٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْحِسَابِ وَفَرْضِ ٱلْمَسَائِلِ ٱلَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَجْهُولَاتِ مِنْ فُنُونِ ٱلْحِسَابِ كَٱلْجَبْرِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي ٱلْجُذُورِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَيَمْلَأُونَ بِهَا تَآلِيفَهُمْ وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَدَاوَلًا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُفِيدُ فِيمَا يَتَدَاوَلُونَهُ مِنْ وِرَاثَتِهِمْ لِغَرَابَتِهِ وَقِلَّةِ وُقُوعِهِ فَهُوَ يُفِيدُ ٱلْمِرَانَ وَتَحْصِيلَ ٱلْمَلَكَةِ فِي ٱلْمُتَدَاوَلِ عَلَى أَكْمَلِ ٱلْوُجُوهِ وَقَدْ يَحْتَجُّ ٱلْأَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ عَلَى فَضْلِهِ بِٱلْحَدِيثِ ٱلْمَنْقُولِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَنَّ ٱلْفَرَائِضَ ثُلُثُ ٱلْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُنْسَى وَفِي رِوَايَةٍ نِصْفُ ٱلْعِلْمِ خَرَّجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ ٱلْحَافِظُ وَٱحْتَجَّ بِهِ أَهْلُ ٱلْفَرَائِضِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلْفَرَائِضِ فُرُوضُ ٱلْوِرَاثَةِ وَٱلَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ هٰذَا ٱلْمَحْمَلَ بَعِيدٌ وَأَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلْفَرَائِضِ إِنَّمَا هِيَ ٱلْفَرَائِضُ ٱلتَّكْلِيفِيَّةُ فِي ٱلْعِبَادَاتِ وَٱلْعَادَاتِ وَٱلْمَوَارِيثِ وَغَيْرِهَا وَبِهٰذَا ٱلْمَعْنَى يَصِحُّ فِيهَا ٱلنِّصْفِيَّةُ وَٱلثُّلُثِيَّةُ وَأَمَّا فُرُوضُ ٱلْوِرَاثَةِ فَهِيَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِ ٱلشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَيُعِينُ هٰذَا ٱلْمُرَادَ أَنَّ حَمْلَ لَفْظِ ٱلْفَرَائِضِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْمَخْصُوصِ أَوْ تَخْصِيصِهِ بِفُرُوضِ ٱلْوِرَاثَةِ إِنَّمَا هُوَ ٱصْطِلَاحٌ نَاشِئٌ لِلْفُقَهَاءِ عِنْدَ حُدُوثِ ٱلْفُنُونِ وَٱلِاصْطِلَاحَاتِ وَلَمْ يَكُنْ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ يُطْلَقُ عَلَى هٰذَا إِلَّا عَلَى عُمُومِهِ مُشْتَقًّا مِنَ ٱلْفَرْضِ ٱلَّذِي هُوَ لُغَةً ٱلتَّقْدِيرُ أَوِ ٱلْقَطْعُ وَمَا كَانَ ٱلْمُرَادُ بِهِ فِي إِطْلَاقِهِ إِلَّا جَمِيعَ ٱلْفُرُوضِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهِيَ حَقِيقَتُهُ ٱلشَّرْعِيَّةُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى مَا كَانَ يُحْمَلُ فِي عَصْرِهِمْ فَهُوَ أَلْيَقُ بِمُرَادِهِمْ مِنْهُ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل التاسع

في اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

إِعْلَمْ أَنَّ أُصُولَ ٱلْفِقْهِ مِنْ أَعْظَمِ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَأَجَلِّهَا قَدْرًا وَأَكْثَرِهَا فَائِدَةً وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ تُؤْخَذُ مِنْهَا ٱلْأَحْكَامُ وَٱلتَّآلِيفُ وَأُصُولُ ٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ هِيَ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْقُرْآنُ ثُمَّ ٱلسُّنَّةُ ٱلْمُبَيِّنَةُ لَهُ فَعَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتِ ٱلْأَحْكَامُ تُتَلَقَّى بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَيُبَيِّنُهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ

بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الإجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهما ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فإن كثيراً من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل إلينا منها فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من إنفاذ الكتب والرسل إلى النواحي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً وأما الإجماع فلاتفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة وأما القياس فبإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه أصول الأدلة ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضاً من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما

معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضاً وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الألفاظ وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها لأنها جبلة وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علوماً يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الأطلاق بل لا بد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة مثل أن اللغة لا تثبت قياساً والمشترك لا يراد به معناه معاً والواو لا تقتضي الترتيب والعام إذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها والأمر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخي والنهي يقتضي الفساد أو الصحة والمطلق هل يحمل على المقيد والنص على العلة كاف في التعدد أم لا وأمثال هذه فكانت كلها من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية ثم إن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس ويماثل من الأحكام وينقح الوصف الذي يغلب على الظن أن الحكم علق به في الأصل من تبين أوصاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف والفرع من معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن . (واعلم) أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنية عنه بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية وأما القوانين التي يحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً فمنهم أخذ معظمها وأما الأسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم . فلما انقرض السلف وذهب

الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فنا قائماً برأسه سموه أصول الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضاً كذلك إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الأمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل على الفقه ويميلون إلى الاستدلال العقلي ما أمكن لأنه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم فكتب في القياس بأوسع من جميعهم وتمم الأبحاث والشروط التي يحتاج إليها فيه وكملت صناعة أصول الفقه بكماله وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لإمام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من الأشعرية وكتاب العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانه ثم لخص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين وهما الإمام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي في كتاب الأحكام واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل وأما كتاب المحصول فاختصره تلميذ الإمام سراج الدين الأرموي في كتاب التحصيل وتاج الدين الأرموي في كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التنقيحات وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج وعني المبتدئون بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس. وأما كتاب الإحكام للآمدي وهو أكثر تحقيقاً في المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب في كتابه

المعروف بالمختصر الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم وعني أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات . وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرا وكان من أحسن كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبي زيد الدبوسي وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الإسلام البزدوي من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الإحكام وكتاب البزدوي في الطريقتين وسمي كتابه بالبدائع فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثا وأولع كثير من علماء العجم بشرحه والحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعديد التآليف المشهورة لهذا العهد فيه والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه إنه على كل شيء قدير

(واما الخلافات) . فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافا لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك في الملة اتساعا عظيما وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاءوا منهم ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة وأجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذي قلده وتمسك به وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما وتارة بين مالك وأبي حنيفة والشافعي يوافق أحدهما وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ومالك يوافق أحدهما وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الأئمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها

إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط وصاحب الخلافيات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلته وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال عليه وتآليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث . وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدهم وليسوا بأهل نظر وأيضاً فأكثرهم أهل الغرب وهم بادية غفل من الصنائع إلا في الأقل وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المآخذ ولأبي زيد الدبوسي كتاب التعليقة ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبني عليها من الفقه الخلافي مدرجاً في كل مسألة ما ينبني عليها من الخلافيات

(واما الجدال) وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره وهي طريقتان طريقة البزدوي وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال وطريقة العميدي وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان وأكثره استدلال وهو من المناحي الحسنة والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة تتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي وهذا العميدي هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة إليه وضع الكتاب المسمى بالإرشاد مختصراً وتبعه من بعده

مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ وَغَيْرِهِ جَاءُوا عَلَى أَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ ٱلْحِجَاجَ عَنِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلرَّدَّ عَلَى ٱلْمُبْتَدِعَةِ ٱلْمُنْحَرِفِينَ فِي ٱلْاعْتِقَادَاتِ عَنْ مَذَاهِبِ ٱلسَّلَفِ وَأَهْلِ ٱلسُّنَّةِ وَسِرُّ هٰذِهِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ هُوَ ٱلتَّوْحِيدُ فَلْنُقَدِّمْ هُنَا لَطِيفَةً فِي بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ ٱلتَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ ٱلطُّرُقِ وَٱلْمَآخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ وَفِيمَا يُنْظَرُ وَيُشِيرُ إِلَى حُدُوثِهِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْحَوَادِثَ فِي عَالَمِ ٱلْكَائِنَاتِ سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ ٱلذَّوَاتِ أَوْ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْبَشَرِيَّةِ أَوِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا بِهَا تَقَعُ فِي مُسْتَقَرِّ ٱلْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ حَادِثٌ أَيْضًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَسْبَابٍ أُخَرَ وَلَا تَزَالُ تِلْكَ ٱلْأَسْبَابُ مُرْتَقِيَةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ ٱلْأَسْبَابِ وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَتِلْكَ ٱلْأَسْبَابُ فِي ٱرْتِقَائِهَا تَتَفَسَّحُ وَتَتَضَاعَفُ طُولًا وَعَرْضًا وَيَحَارُ ٱلْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا فَإِذًا لَا يَحْصُرُهَا إِلَّا ٱلْعِلْمُ ٱلْمُحِيطُ سِيَّمَا ٱلْأَفْعَالُ ٱلْبَشَرِيَّةُ وَٱلْحَيَوَانِيَّةُ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي ٱلشَّاهِدِ ٱلْقُصُودُ وَٱلْإِرَادَاتُ إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ ٱلْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَٱلْقَصْدِ إِلَيْهِ وَٱلْقُصُودُ وَٱلْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ نَاشِئَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا وَتِلْكَ ٱلتَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ قَصْدِ ٱلْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ إِذْ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِئِ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءُ يُلْقِيهَا ٱللّٰهُ فِي ٱلْفِكْرِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَٱلْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ مَعْرِفَةِ مَبَادِئِهَا وَغَايَاتِهَا وَإِنَّمَا يُحِيطُ عِلْمًا فِي ٱلْغَالِبِ بِٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَيَقَعُ فِي مَدَارِكِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لِأَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ مَحْصُورَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا وَأَمَّا ٱلتَّصَوُّرَاتُ فَنِطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ ٱلنَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ ٱلَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ ٱلنَّفْسِ فَلَا تُدْرِكُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا فَضْلًا عَنِ ٱلْإِحَاطَةِ وَتَأَمَّلْ مِنْ ذٰلِكَ حِكْمَةَ ٱلشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ ٱلنَّظَرِ

إِلَى ٱلْأَسْبَابِ وَٱلْوُقُوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَادٍ يَهِيمُ فِيهِ ٱلْفِكْرُ وَلَا يَحْلُو مِنْهُ بِطَائِلٍ وَلَا يَظْفَرُ بِحَقِيقَةٍ قَالَ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وَرُبَّمَا ٱنْقَطَعَ فِي وُقُوفِهِ عَنِ ٱلِٱرْتِقَاءِ إِلَى مَا فَوْقَهُ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ ٱلْهَالِكِينَ نَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلْحِرْمَانِ وَٱلْخُسْرَانِ ٱلْمُبِينِ وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ هٰذَا ٱلْوُقُوفَ أَوِ ٱلرُّجُوعَ عَنْهُ فِي قُدْرَتِكَ وَٱخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْنٌ يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ وَصِبْغَةٌ تَسْتَحْكِمُ مِنَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةٍ لَا نَعْلَمُهَا إِذْ لَوْ عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّزْنَا مِنْهَا فَلْنَتَحَرَّزْ مِنْ ذٰلِكَ بِقَطْعِ ٱلنَّظَرِ عَنْهَا جُمْلَةً وَأَيْضًا فَوَجْهُ تَأْثِيرِ هٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ فِي ٱلْكَثِيرِ مِنْ مُسَبَّبَاتِهَا مَجْهُولٌ لِأَنَّهَا إِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِٱلْعَادَةِ لِٱقْتِرَانِ ٱلشَّاهِدِ بِٱلِٱسْتِنَادِ إِلَى ٱلظَّاهِرِ وَحَقِيقَةُ ٱلتَّأْثِيرِ وَكَيْفِيَّتُهُ مَجْهُولَةٌ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فَلِذٰلِكَ أُمِرْنَا بِقَطْعِ ٱلنَّظَرِ عَنْهَا وَإِلْغَائِهَا جُمْلَةً وَٱلتَّوَجُّهِ إِلَى مُسَبِّبِ ٱلْأَسْبَابِ كُلِّهَا وَفَاعِلِهَا وَمُوجِدِهَا لِتَرْسَخَ صِفَةُ ٱلتَّوْحِيدِ فِي ٱلنَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمَنَا ٱلشَّارِعُ ٱلَّذِي هُوَ أَعْرَفُ بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِٱطِّلَاعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ ٱلْحِسِّ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ ٱلْأَسْبَابِ فَقَدِ ٱنْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْكُفْرِ وَإِنْ سَبَحَ فِي بَحْرِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ عَنْهَا وَعَنْ أَسْبَابِهَا وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَنَا ٱلضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَّا بِٱلْخَيْبَةِ فَلِذٰلِكَ نَهَانَا ٱلشَّارِعُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَسْبَابِ وَأَمَرَنَا بِٱلتَّوْحِيدِ ٱلْمُطْلَقِ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ وَلَا يَثِقَنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ ٱلْفِكْرُ مِنْ أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى ٱلْإِحَاطَةِ بِٱلْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَٱلْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ ٱلْوُجُودِ كُلِّهِ وَسَفِّهْ رَأْيَهُ فِي ذٰلِكَ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِئِ رَأْيِهِ مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ لَا يَعْدُوهَا وَٱلْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلَافِ ذٰلِكَ وَٱلْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ أَلَا تَرَى ٱلْأَصَمَّ كَيْفَ يَنْحَصِرُ ٱلْوُجُودُ عِنْدَهُ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْأَرْبَعِ وَٱلْمَعْقُولَاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ ٱلْوُجُودِ عِنْدَهُ صِنْفُ ٱلْمَسْمُوعَاتِ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَعْمَى أَيْضًا يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ وَلَوْلَا مَا يَرُدُّهُمْ إِلَى ذٰلِكَ تَقْلِيدُ ٱلْآبَاءِ وَٱلْمَشْيَخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِمْ وَٱلْكَافَّةِ لَمَا أَقَرُّوا بِهِ لٰكِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ ٱلْكَافَّةَ فِي إِثْبَاتِ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ لَا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ إِدْرَاكِهِمْ وَلَوْ سُئِلَ ٱلْحَيَوَانُ ٱلْأَعْجَمُ وَنَطَقَ لَوَجَدْنَاهُ مُنْكِرًا لِلْمَعْقُولَاتِ وَسَاقِطَةً لَدَيْهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ فَإِذَا عَلِمْتَ هٰذَا فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدْرَاكِ غَيْرَ مُدْرَكَاتِنَا لِأَنَّ إِدْرَاكَاتِنَا مَخْلُوقَةٌ

مُحْدَثَةٌ وَخَلْقُ ٱللهِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَٱلْحَصْرُ مَجْهُولٌ وَٱلْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ ذَٰلِكَ وَٱللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ فَٱتَّهِمْ إِدْرَاكَكَ وَمُدْرَكَاتِكَ فِي ٱلْحَصْرِ وَٱتَّبِعْ مَا أَمَرَكَ ٱلشَّارِعُ بِهِ مِنِ ٱعْتِقَادِكَ وَعَمَلِكَ فَهُوَ أَحْرَصُ عَلَى سَعَادَتِكَ وَأَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُكَ لِأَنَّهُ مِنْ طَوْرٍ فَوْقَ إِدْرَاكِكَ وَمِنْ نِطَاقٍ أَوْسَعَ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ وَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِحٍ فِي ٱلْعَقْلِ وَمَدَارِكِهِ بَلِ ٱلْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ فَأَحْكَامُهُ يَقِينِيَّةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعُ أَنْ تَزِنَ بِهِ أُمُورَ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلْآخِرَةِ وَحَقِيقَةَ ٱلنُّبُوَّةِ وَحَقَائِقَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ وَكُلَّ مَا وَرَاءَ طَوْرِهِ فَإِنَّ ذَٰلِكَ طَمَعٌ فِي مُحَالٍ وَمِثَالُ ذَٰلِكَ مِثَالُ رَجُلٍ رَأَى ٱلْمِيزَانَ ٱلَّذِي يُوزَنُ بِهِ ٱلذَّهَبُ فَطَمِعَ أَنْ يَزِنَ بِهِ ٱلْجِبَالَ وَهٰذَا لَا يُدْرَكُ عَلَى أَنَّ ٱلْمِيزَانَ فِي أَحْكَامِهِ غَيْرُ صَادِقٍ لٰكِنَّ ٱلْعَقْلَ قَدْ يَقِفُ عِنْدَهُ وَلَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِٱللهِ وَبِصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ ذَرَّةٌ مِنْ ذَرَّاتِ ٱلْوُجُودِ ٱلْحَاصِلِ مِنْهُ وَتَفَطَّنْ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ وَمَنْ يُقَدِّمُ ٱلْعَقْلَ عَلَى ٱلسَّمْعِ فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْقَضَايَا وَقُصُورَ فَهْمِهِ وَٱضْمِحْلَالَ رَأْيِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ ذَٰلِكَ وَإِذْ تَبَيَّنَ ذَٰلِكَ فَلَعَلَّ ٱلْأَسْبَابَ إِذَا تَجَاوَزَتْ فِي ٱلْاِرْتِقَاءِ نِطَاقَ إِدْرَاكِنَا وَوُجُودِنَا خَرَجَتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ مُدْرَكَةً فَيَضِلَّ ٱلْعَقْلُ فِي بَيْدَاءِ ٱلْأَوْهَامِ وَيَحَارُ وَيَنْقَطِعُ فَإِذًا ٱلتَّوْحِيدُ أَوِ ٱلْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ ٱلْأَسْبَابِ وَكَيْفِيَّاتِ تَأْثِيرِهَا وَتَفْوِيضُ ذَٰلِكَ إِلَى خَالِقِهَا ٱلْمُحِيطِ بِهَا إِذْ لَا فَاعِلَ غَيْرُهُ وَكُلُّهَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ وَتَرْجِعُ إِلَى قُدْرَتِهِ وَعِلْمُنَا بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ صُدُورُنَا عَنْهُ وَهٰذَا مَعْنَى مَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ ٱلصِّدِّيقِينَ ٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي هٰذَا ٱلتَّوْحِيدِ لَيْسَ هُوَ ٱلْإِيمَانَ فَقَطْ ٱلَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ حُكْمِيٌّ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ حَدِيثِ ٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ٱلْكَمَالُ فِيهِ حُصُولُ صِفَةٍ مِنْهُ تَتَكَيَّفُ بِهَا ٱلنَّفْسُ كَمَا أَنَّ ٱلْمَطْلُوبَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلْعِبَادَاتِ أَيْضًا حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلطَّاعَةِ وَٱلْاِنْقِيَادِ وَتَفْرِيغُ ٱلْقَلْبِ عَنْ شَوَاغِلِ مَا سِوَى ٱلْمَعْبُودِ حَتَّى يَنْقَلِبَ ٱلْمُرِيدُ ٱلسَّالِكُ رَبَّانِيًّا وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْحَالِ وَٱلْعِلْمِ فِي ٱلْعَقَائِدِ فَرْقُ مَا بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَٱلْاِتِّصَافِ وَشَرْحُهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ ٱلْيَتِيمِ وَٱلْمِسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا وَيَقُولُ بِذَٰلِكَ وَيَعْتَرِفُ بِهِ وَيَذْكُرُ مَأْخَذَهُ مِنَ ٱلشَّرِيعَةِ وَهُوَ لَوْ رَأَى يَتِيمًا أَوْ مِسْكِينًا مِنْ أَبْنَاءِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ لَفَرَّ عَنْهُ وَٱسْتَنْكَفَ أَنْ يُبَاشِرَهُ فَضْلًا عَنِ ٱلتَّمَسُّحِ عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ وَمَا بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ ٱلْعَطْفِ وَٱلْحُنُوِّ وَٱلصَّدَقَةِ فَهٰذَا إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ

من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها فمتى رأى يتيماً أو مسكيناً بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم حاصل عن الاتصاف ضرورة وهو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مراراً غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجيء العلم الثاني النافع في الآخرة فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع وهذا علم أكثر النظار والمطلوب إنما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة . واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به إنما هو في هذا فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقق بها ثم إن الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات جعلت قرة عيني في الصلاة فإن الصلاة صارت له صفة وحالاً يجد فيها منتهى لذاته وقرة عينه وأين هذا من صلاة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم وفقنا واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية وهو الذي تحصل به السعادة وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية ويتفهم منه أن الإيمان الذي هو أصل التكاليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني وهذا أرفع مراتب الإيمان وهو الإيمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن

معه صغيرة ولا كبيرة إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجها طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وفي حديث هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال في أصحابه هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه قال لا قال وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات إذا استقرت فإنها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوبا سابقا وهذه حاصلة للمؤمنين حصولا تابعا لأعمالهم وتصديقهم وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الإيمان كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الإيمان كثير منه مثل أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص وأن الصلاة والصيام من الإيمان وأن تطوع رمضان من الإيمان والحياء من الإيمان والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى ملكته وهو فعلي وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الإيمان الكامل ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق إذ التصديق موجود في جميع رتبه لأنه أقل ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو المخلص من عهدة الكفر والفيصل بين الكافر والمسلم فلا يجزي أقل منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه فافهم واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق وعين أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بألسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام : ولنشر إليها مجملة لتتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فنقول . إعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رد

ٱلْأَفعَالَ كُلَّهَا إِلَيْهِ وَأَفْرَدَهُ بِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَعَرَفْنَا أَنَّ فِي هٰذَا ٱلْإِيمَانِ نَجَاتَنَا عِنْدَ ٱلْمَوْتِ إِذَا حُضِرْنَا لَمْ يُعَرِّفْنَا بِكُنْهِ حَقِيقَةِ هٰذَا ٱلْخَالِقِ ٱلْمَعْبُودِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ مُتَعَذِّرٌ عَلَى إِدْرَاكِنَا وَمِنْ فَوْقِ طَوْرِنَا وَكَلَّفَنَا أَوَّلاً ٱعْتِقَادَ تَنْزِيهِهِ فِي ذَاتِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ ٱلْمَخْلُوقِينَ وَإِلَّا لَمَا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقٌ لَهُمْ لِعَدَمِ ٱلْفَارِقِ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْدِيرِ ثُمَّ تَنْزِيهِهِ عَنْ صِفَاتِ ٱلنَّقْصِ وَإِلَّا لَشَابَهَ ٱلْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ تَوْحِيدِهِ بِٱلِٱتِّحَادِ وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ ٱلْخَلْقُ لِلتَّمَانُعِ ثُمَّ ٱعْتِقَادَ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ فَبِذٰلِكَ تَتِمُّ ٱلْأَفْعَالُ شَاهِدٌ قَضِيَّتِهِ لِكَمَالِ ٱلِٱتِّحَادِ وَٱلْخَلْقِ وَمُرِيدٌ وَإِلَّا لَمْ يَخْصُصْ شَيْءٌ مِنَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ وَمُقَدِّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ وَإِلَّا فَٱلْإِرَادَةُ حَادِثَةٌ وَأَنَّهُ يُعِيدُنَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ تَكْمِيلاً لِعِنَايَتِهِ بِٱلْإِيجَادِ وَلَوْ كَانَ لِأَمْرٍ فَإِنْ كَانَ عَبَثاً فَهُوَ لِلْبَقَاءِ ٱلسَّرْمَدِيِّ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ ٱعْتِقَادَ بَعْثَةِ ٱلرُّسُلِ لِلنَّجَاةِ مِنْ شَقَاءِ هٰذَا ٱلْمَعَادِ لِٱخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ بِٱلشَّقَاءِ وَٱلسَّعَادَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا بِذٰلِكَ وَتَمَامِ لُطْفِهِ بِنَا فِي ٱلْإِيتَاءِ بِذٰلِكَ وَبَيَانِ ٱلطَّرِيقَيْنِ وَأَنَّ ٱلْجَنَّةَ لِلنَّعِيمِ وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ هٰذِهِ أُمَّهَاتُ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بِأَدِلَّتِهَا ٱلْعَقْلِيَّةِ وَأَدِلَّتُهَا مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كَثِيرٌ وَعَنْ تِلْكَ ٱلْأَدِلَّةِ أَخَذَهَا ٱلسَّلَفُ وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا ٱلْعُلَمَاءُ وَحَقَّقَهَا ٱلْأَئِمَّةُ إِلَّا أَنَّهُ عَرَضَ بَعْدَ ذٰلِكَ خِلَافٌ فِي تَفَاصِيلِ هٰذِهِ ٱلْعَقَائِدِ أَكْثَرُ مُثَارِهَا مِنَ ٱلْآيِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ فَدَعَا ذٰلِكَ إِلَى ٱلْخِصَامِ وَٱلتَّنَاظُرِ وَٱلِٱسْتِدْلَالِ بِٱلْعَقْلِ وَزِيَادَةٍ إِلَى ٱلنَّقْلِ فَحَدَثَ بِذٰلِكَ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ وَلْنُبَيِّنْ لَكَ تَفْصِيلَ هٰذَا ٱلْمُجْمَلِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقُرْآنَ وَرَدَ فِيهِ وَصْفُ ٱلْمَعْبُودِ بِٱلتَّنْزِيهِ ٱلْمُطْلَقِ ٱلظَّاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ سُلُوبٌ كُلُّهَا وَصَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا فَوَجَبَ ٱلْإِيمَانُ بِهَا وَوَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلشَّارِعِ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا ثُمَّ وَرَدَتْ فِي ٱلْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى قَلِيلَةٌ تُوهِمُ ٱلتَّشْبِيهَ وَقَضَوْا بِأَنَّ ٱلْآيَاتِ مِنْ كَلَامِ ٱللهِ فَآمَنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بِبَحْثٍ وَلَا تَأْوِيلٍ وَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِ ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ إِقْرَأُوهَا كَمَا جَاءَتْ أَيْ آمِنُوا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِتَأْوِيلِهَا وَلَا تَفْسِيرِهَا لِجَوَازِ أَنْ تَكُونَ ٱبْتِلَاءً فَيَجِبُ ٱلْوَقْفُ وَٱلْإِذْعَانُ لَهُ وَشَذَّ لِعَصْرِهِمْ مُبْتَدِعَةٌ ٱتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنَ ٱلْآيَاتِ وَتَوَغَّلُوا فِي ٱلتَّشْبِيهِ فَفَرِيقٌ أَشْبَهُوا فِي ٱلذَّاتِ بِٱعْتِقَادِ ٱلْيَدِ وَٱلْقَدَمِ وَٱلْوَجْهِ عَمَلاً بِظَوَاهِرَ وَرَدَتْ بِذٰلِكَ فَوَقَعُوا فِي ٱلتَّجْسِيمِ ٱلصَّرِيحِ وَمُخَالَفَةِ آيِ ٱلتَّنْزِيهِ ٱلْمُطْلَقِ ٱلَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةً لِأَنَّ مَعْقُولِيَّةَ ٱلْجِسْمِ تَقْتَضِي ٱلنَّقْصَ وَٱلِٱفْتِقَارَ وَتَغْلِيبَ

آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلق بظواهر هذه التي لنا عنها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول متناقض وجمع بين نفي وإثبات إن كان بالمعقولية واحدة من الجسم وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه ويتوقف مثله على الإذن وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم إلى التجسيم فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كالأصوات جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول يعنون من الأجسام واندفع ذلك بما اندفع به الأول ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي لئلا يكر النفي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له وفي كتاب الحافظ ابن عبد البر وغيرهم فإنهم يحومون على هذا المعنى ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس فقضوا بأن القرآن مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم فحمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستحل لخلافهم إيسار كثير منهم ودماؤهم وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعاً في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات

ٱلْمَعْنَوِيَّةَ وَقَصَرَ ٱلتَّنْزِيهَ عَلَى مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَفُ وَشَهِدَتْ لَهُ ٱلْأَدِلَّةُ ٱلْمُخَصِّصَةُ لِعُمُومِهِ فَأَثْبَتَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْأَرْبَعَ ٱلْمَعْنَوِيَّةَ وَٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَائِمَ بِٱلنَّفْسِ بِطَرِيقِ ٱلنَّقْلِ وَٱلْعَقْلِ وَرَدَّ عَلَى ٱلْمُبْتَدِعَةِ فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهَّدُوهُ لِهَٰذِهِ ٱلْبِدَعِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلصَّلَاحِ وَٱلْأَصْلَحِ وَٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّقْبِيحِ وَكَمَّلَ ٱلْعَقَائِدَ فِي ٱلْبَعْثَةِ وَأَحْوَالِ ٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ وَٱلثَّوَابِ وَٱلْعِقَابِ وَأَلْحَقَ بِذَٰلِكَ ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْإِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ مِنْ بِدْعَةِ ٱلْإِمَامِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِ وَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ تَعْيِينُهَا وَٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلْعُهْدَةِ فِي ذَٰلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ وَكَذَٰلِكَ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَقُصَارَى أَمْرِ ٱلْإِمَامَةِ أَنَّهَا قَضِيَّةٌ مَصْلَحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تَلْحَقُ بِٱلْعَقَائِدِ فَلِذَٰلِكَ أَلْحَقُوهَا بِمَسَائِلِ هَٰذَا ٱلْفَنِّ وَسَمَّوْا مَجْمُوعَهُ عِلْمَ ٱلْكَلَامِ إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ عَلَى ٱلْبِدَعِ وَهِيَ كَلَامٌ صِرْفٌ وَلَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ وَإِمَّا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَٱلْخَوْضِ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي إِثْبَاتِ ٱلْكَلَامِ ٱلنَّفْسِيِّ وَكَثُرَ أَتْبَاعُ ٱلشَّيْخِ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْأَشْعَرِيِّ وَٱقْتَفَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تِلْمِيذُهُ كَٱبْنِ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ وَأَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَهَذَّبَهَا وَوَضَعَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْعَقْلِيَّةَ ٱلَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا ٱلْأَدِلَّةُ وَٱلْأَنْظَارُ وَذَٰلِكَ مِثْلُ إِثْبَاتِ ٱلْجَوْهَرِ ٱلْفَرْدِ وَٱلْخَلَاءِ وَأَنَّ ٱلْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِٱلْعَرَضِ وَأَنَّهُ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أَدِلَّتُهُمْ وَجَعَلَ هَٰذِهِ ٱلْقَوَاعِدَ تَبَعًا لِلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ فِي وُجُوبِ ٱعْتِقَادِهَا لِتَوَقُّفِ تِلْكَ ٱلْأَدِلَّةِ عَلَيْهَا وَأَنَّ بُطْلَانَ ٱلدَّلِيلِ يُؤْذِنُ بِبُطْلَانِ ٱلْمَدْلُولِ وَجُمْلَتْ هَٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْفُنُونِ ٱلنَّظَرِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ إِلَّا أَنَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ تُعْتَبَرُ بِهَا ٱلْأَقْيِسَةُ وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي ٱلْمِلَّةِ وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا بَعْضُ ٱلشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ لِمُلَابَسَتِهَا لِلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ٱلْمُبَايِنَةِ لِلْعَقَائِدِ ٱلشَّرْعِيَّةِ بِٱلْجُمْلَةِ فَكَانَتْ مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذَٰلِكَ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ٱلْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَّانِيِّ إِمَامُ ٱلْحَرَمَيْنِ أَبُو ٱلْمَعَالِي فَأَمْلَى فِي ٱلطَّرِيقَةِ كِتَابَ ٱلشَّامِلِ وَأَوْسَعَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ ٱلْإِرْشَادِ وَٱتَّخَذَهُ ٱلنَّاسُ إِمَامًا لِعَقَائِدِهِمْ ثُمَّ ٱنْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عُلُومُ ٱلْمَنْطِقِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَقَرَأَهُ ٱلنَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ قَانُونٌ وَمِعْيَارٌ لِلْأَدِلَّةِ فَقَطْ يُسْبَرُ بِهِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْهَا كَمَا يُسْبَرُ مِنْ سِوَاهَا ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ فِي فَنِّ ٱلْكَلَامِ لِلْأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلَّتِي

أدلّت إلى ذلك وربّما أنّ كثيرًا منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطّبيعيّات والإلهيّات فلمّا سبروها بمعيار المنطق ردّهم إلى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار إليه القاضي فصارت هذه الطّريقة من مصطلحهم مباينة للطّريقة الأولى وتسمّى طريقة المتأخّرين وربّما أدخلوا فيها الرّدّ على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانيّة وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم وأوّل من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزاليّ رحمه الله وتبعه الإمام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم ثمّ توغّل المتأخّرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحدًا من اشتباه المسائل فيهما. واعلم أنّ المتكلّمين لمّا كانوا يستدلّون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبًا والجسم الطّبيعيّ ينظر فيه الفيلسوف في الطّبيعيّات وهو بعض من هذه الكائنات إلّا أنّ نظره فيها مخالف لنظر المتكلّم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرّك ويسكن والمتكلّم ينظر فيه من حيث يدلّ على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيّات إنّما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلّم في الوجود من حيث إنّه يدلّ على الموجد وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنّما هو العقائد الإيمانيّة بعد فرضها صحيحة من الشّرع من حيث يمكن أن يستدلّ عليها بالأدلّة العقليّة فترفع البدع وتزول الشّكوك والشّبه عن تلك العقائد وإذا تأمّلت حال الفنّ في حدوثه وكيف تدرّج كلام النّاس فيه صدرًا بعد صدر وكلّهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلّة علمت حينئذ ما قرّرناه لك في موضوع الفنّ وأنّه لا يعدوه ولقد اختلطت الطّريقتان عند هؤلاء المتأخّرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميّز أحد الفنّين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاويّ في الطّوالع ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تآليفهم إلّا أنّ هذه الطّريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للاطّلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها وأمّا محاذاة طريقة السّلف بعقائد علم الكلام فإنّما هو للطّريقة القديمة

لِلْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْلُهَا كِتَابُ ٱلْإِرْشَادِ وَمَا حَذَا حَذْوَهُ وَمَنْ أَرَادَ إِدْخَالَ ٱلرَّدِّ عَلَى ٱلْفَلَاسِفَةِ فِي عَقَائِدِهِ فَعَلَيْهِ بِكُتُبِ ٱلْغَزَالِيِّ وَٱلْإِمَامِ ٱبْنِ ٱلْخَطِيبِ فَإِنَّهَا وَإِنْ وَقَعَ فِيهَا مُخَالَفَةٌ لِلِاصْطِلَاحِ ٱلْقَدِيمِ فَلَيْسَ فِيهَا مِنَ ٱلِاخْتِلَاطِ فِي ٱلْمَسَائِلِ وَٱلِالْتِبَاسِ فِي ٱلْمَوْضُوعِ مَا فِي طَرِيقَةِ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَعَلَى ٱلْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ هٰذَا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عَلَى طَالِبِ ٱلْعِلْمِ إِذِ ٱلْمُلْحِدَةُ وَٱلْمُبْتَدِعَةُ قَدِ ٱنْقَرَضُوا وَٱلْأَئِمَّةُ مِنْ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ كَفَوْنَا شَأْنَهُمْ فِيمَا كَتَبُوا وَدَوَّنُوا وَٱلْأَدِلَّةُ ٱلْعَقْلِيَّةُ إِنَّمَا ٱحْتَاجُوا إِلَيْهَا حِينَ دَافَعُوا وَنَصَرُوا وَأَمَّا ٱلْآنَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا كَلَامٌ تَنَزَّهَ ٱلْبَارِي عَنْ كَثِيرِ إِيهَامَاتِهِ وَإِطْلَاقِهِ وَلَقَدْ سُئِلَ ٱلْجُنَيْدُ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ عَنْ قَوْمٍ مَرَّ بِهِمْ بَعْضُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ يُفِيضُونَ فِيهِ فَقَالَ مَا هٰؤُلَاءِ فَقِيلَ قَوْمٌ يُنَزِّهُونَ ٱللّٰهَ بِٱلْأَدِلَّةِ عَنْ صِفَاتِ ٱلْحُدُوثِ وَسِمَاتِ ٱلنَّقْصِ فَقَالَ نَفْيُ ٱلْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ ٱلْعَيْبُ عَيْبٌ لٰكِنْ فَائِدَتَهُ فِي آحَادِ ٱلنَّاسِ وَطَلَبَةِ ٱلْعِلْمِ فَائِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِذْ لَا يَحْسُنُ بِحَامِلِ ٱلسُّنَّةِ ٱلْجَهْلُ بِٱلْحُجَجِ ٱلنَّظَرِيَّةِ عَلَى عَقَائِدِهَا وَٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

الفصل الحادي عشر

في علم التصوّف

هٰذَا ٱلْعِلْمُ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْحَادِثَةِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَةَ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَ سَلَفِ ٱلْأُمَّةِ وَكِبَارِهَا مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ طَرِيقَةَ ٱلْحَقِّ وَٱلْهِدَايَةِ وَأَصْلُهَا ٱلْعُكُوفُ عَلَى ٱلْعِبَادَةِ وَٱلِانْقِطَاعُ إِلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى وَٱلْإِعْرَاضُ عَنْ زُخْرُفِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَٱلزُّهْدُ فِيمَا يُقْبِلُ عَلَيْهِ ٱلْجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةٍ وَمَالٍ وَجَاهٍ وَٱلِانْفِرَادُ عَنِ ٱلْخَلْقِ فِي ٱلْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ وَكَانَ ذٰلِكَ عَامًّا فِي ٱلصَّحَابَةِ وَٱلسَّلَفِ فَلَمَّا فَشَا ٱلْإِقْبَالُ عَلَى ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْقَرْنِ ٱلثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ وَجَنَحَ ٱلنَّاسُ إِلَى مُخَالَطَةِ ٱلدُّنْيَا ٱخْتَصَّ ٱلْمُقْبِلُونَ عَلَى ٱلْعِبَادَةِ بِٱسْمِ ٱلصُّوفِيَّةِ وَٱلْمُتَصَوِّفَةِ وَقَالَ ٱلْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ وَلَا يَشْهَدُ لِهٰذَا ٱلِاسْمِ ٱشْتِقَاقٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَلَا قِيَاسٌ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبٌ وَمَنْ قَالَ ٱشْتِقَاقُهُ مِنَ ٱلصَّفَا أَوْ مِنَ ٱلصُّفَّةِ فَبَعِيدٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْقِيَاسِ ٱللُّغَوِيِّ قَالَ وَكَذٰلِكَ مِنَ ٱلصُّوفِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَصُّوا بِلُبْسِهِ . قُلْتُ وَٱلْأَظْهَرُ إِنْ قِيلَ بِٱلِاشْتِقَاقِ أَنَّهُ مِنَ ٱلصُّوفِ وَهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ مُخْتَصُّونَ بِلُبْسِهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ ٱلنَّاسِ فِي لُبْسِ فَاخِرِ ٱلثِّيَابِ إِلَى لُبْسِ ٱلصُّوفِ

فلمَّا اختُصَّ هؤلاء بمذهب الزُّهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصُّوا بمآخذ مُدرَكة لهم وذلك أنَّ الإنسان بما هو إنسانٌ إنَّما يتميَّز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان إدراكٌ للعلوم والمعارف من اليقين والظَّنِّ والشَّكِّ والوهم وإدراكٌ للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرِّضى والغضب والصَّبر والشُّكر وأمثال ذلك فالرُّوح العاقل والمتصرِّف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال وهي الَّتي يميز بها الإنسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلَّة والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذَّذ به والنَّشاط عن الحمَّام والكسل عن الإعياء وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بدَّ وأن ينشأ له عن كلِّ مجاهدة حالٌ نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال إمَّا أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقامًا للمريد وإمَّا أن لا تكون عبادةً وإنَّما تكون صفةً حاصلةً للنَّفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقَّى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التَّوحيد والمعرفة الَّتي هي الغاية المطلوبة للسَّعادة قال صلَّى الله عليه وسلَّم من مات يشهد أن لا إله إلَّا الله دخل الجنَّة فالمريد لا بدَّ له من التَّرقِّي في هذه الأطوار وأصلها كلِّها الطَّاعة والإخلاص ويتقدَّمها الإيمان ويصاحبها وتنشأ عنها الأحوال والصِّفات نتائج وثمرات ثمَّ تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التَّوحيد والعرفان وإذا وقع تقصيرٌ في النَّتيجة أو خللٌ فنعلم أنَّه إنَّما أتى من قبل التَّقصير في الَّذي قبله وكذلك في الخواطر النَّفسانيَّة والواردات القلبيَّة فلهذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها لأنَّ حصول النَّتائج عن الأعمال ضروريٌّ وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك إلَّا القليل من النَّاس لأنَّ الغفلة عن هذا كأنَّها شاملةٌ وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النَّوع أنَّهم يأتون بالطَّاعات مخلصةً من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطَّلعوا على أنَّها خالصةٌ من التَّقصير أو لا فظهر أنَّ أصل طريقتهم كلِّها محاسبة النَّفس على الأفعال والتُّروك والكلام في هذه الأذواق والمواجد الَّتي تحصل عن المجاهدات ثمَّ تستقرُّ للمريد

مقاماً يترقى منها إلى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي منها من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الأحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك . ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوؤه وأعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق

ٱلْوُجُودِ مَا لَا يُدْرِكُ سِوَاهُمْ وَكَذَٰلِكَ يُدْرِكُونَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْوَاقِعَاتِ قَبْلَ وُقُوعِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ بِهِمَمِهِمْ وَقُوَى نُفُوسِهِمْ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلسُّفْلِيَّةِ وَتَصِيرُ طَوْعَ إِرَادَتِهِمْ فَٱلْعُظَمَاءُ مِنْهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ هٰذَا ٱلْكَشْفَ وَلَا يَتَصَرَّفُونَ وَلَا يُخْبِرُونَ عَنْ حَقِيقَةِ شَيْءٍ لَمْ يُؤْمَرُوا بِٱلتَّكَلُّمِ فِيهِ بَلْ يَعُدُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ مِحْنَةً وَيَتَعَوَّذُونَ مِنْهُ إِذَا هَاجَمَهُمْ وَقَدْ كَانَ ٱلصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ عَلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْمُجَاهَدَةِ وَكَانَ حَظُّهُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْكَرَامَاتِ أَوْفَرَ ٱلْحُظُوظِ لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَقَعْ لَهُمْ بِهَا عِنَايَةٌ وَفِي فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهَا وَتَبِعَهُمْ فِي ذٰلِكَ أَهْلُ ٱلطَّرِيقَةِ مِمَّنِ ٱشْتَمَلَتْ رِسَالَةُ ٱلْقُشَيْرِيِّ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَمَنْ تَبِعَ طَرِيقَتَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ قَوْمًا مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ٱنْصَرَفَتْ عِنَايَتُهُمْ إِلَى كَشْفِ ٱلْحِجَابِ وَٱلْمَدَارِكِ ٱلَّتِي وَرَاءَهُ وَٱخْتَلَفَتْ طُرُقُ ٱلرِّيَاضَةِ عَنْهُمْ فِي ذٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ تَعْلِيمِهِمْ فِي إِمَاتَةِ ٱلْقُوَى ٱلْحِسِّيَّةِ وَتَغْذِيَةِ ٱلرُّوحِ ٱلْعَاقِلِ بِٱلذِّكْرِ حَتَّى يَحْصُلَ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِتَمَامِ نُشُوئِهَا وَتَغْذِيَتِهَا فَإِذَا حَصَلَ ذٰلِكَ زَعَمُوا أَنَّ ٱلْوُجُودَ قَدِ ٱنْحَصَرَ فِي مَدَارِكِهَا حِينَئِذٍ وَأَنَّهُمْ كَشَفُوا ذَوَاتِ ٱلْوُجُودِ وَتَصَوَّرُوا حَقَائِقَهَا كُلَّهَا مِنَ ٱلْعَرْشِ إِلَى ٱلطَّشِّ هٰكَذَا قَالَ ٱلْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ فِي كِتَابِ ٱلْإِحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صُورَةَ ٱلرِّيَاضَةِ . ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلْكَشْفَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا كَامِلًا عِنْدَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ نَاشِئًا عَنِ ٱلِٱسْتِقَامَةِ لِأَنَّ ٱلْكَشْفَ قَدْ يَحْصُلُ لِصَاحِبِ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَلْوَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ٱسْتِقَامَةٌ كَٱلسَّحَرَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُرْتَاضِينَ وَلَيْسَ مُرَادَنَا إِلَّا ٱلْكَشْفَ ٱلنَّاشِئَ عَنِ ٱلِٱسْتِقَامَةِ وَمِثَالُهُ أَنَّ ٱلْمِرْآةَ ٱلصَّقِيلَةَ إِذَا كَانَتْ مُحَدَّبَةً أَوْ مُقَعَّرَةً وَحُوذِيَ بِهَا جِهَةُ ٱلْمَرْئِيِّ فَإِنَّهُ يَتَشَكَّلُ فِيهِ مُعَوَّجًا عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ وَإِنْ كَانَتْ مُسَطَّحَةً تَشَكَّلَ فِيهَا ٱلْمَرْئِيُّ صَحِيحًا فَٱلِٱسْتِقَامَةُ لِلنَّفْسِ كَٱلِٱنْبِسَاطِ لِلْمِرْآةِ فِيمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَمَّا عُنِيَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِهٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْكَشْفِ تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلسُّفْلِيَّةِ وَحَقَائِقِ ٱلْمَلَكِ وَٱلرُّوحِ وَٱلْعَرْشِ وَٱلْكُرْسِيِّ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَقَصُرَتْ مَدَارِكُ مَنْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَنْ فَهْمِ أَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ فِي ذٰلِكَ وَأَهْلُ ٱلْفُتْيَا بَيْنَ مُنْكِرٍ عَلَيْهِمْ وَمُسَلِّمٍ لَهُمْ وَلَيْسَ ٱلْبُرْهَانُ وَٱلدَّلِيلُ بِنَافِعٍ فِي هٰذَا ٱلطَّرِيقِ رَدًّا وَقَبُولًا إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ ٱلْوِجْدَانِيَّاتِ وَرُبَّمَا قَصَدَ بَعْضُ ٱلْمُصَنِّفِينَ بَيَانَ مَذْهَبِهِمْ فِي كَشْفِ ٱلْوُجُودِ وَتَرْتِيبِ حَقَائِقِهِ فَأَتَى بِٱلْأَغْمَضِ

فَالْأَغْمَضِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ النَّظَرِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ وَالْعُلُومِ كَمَا فَعَلَ الْفَرْغَانِيُّ شَارِحُ قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارِضِ فِي الدِّيبَاجَةِ الَّتِي كَتَبَهَا فِي صَدْرِ ذَلِكَ الشَّرْحِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي صُدُورِ الْوُجُودِ عَنِ الْفَاعِلِ وَتَرْتِيبِهِ أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ صَادِرٌ عَنْ صِفَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَظْهَرُ الْأَحَدِيَّةِ وَهُمَا مَعًا صَادِرَانِ عَنِ الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ الْوَحْدَةِ لَا غَيْرُ وَيُسَمُّونَ هَذَا الصُّدُورَ بِالتَّجَلِّي وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ التَّجَلِّيَاتِ عِنْدَهُمْ تَجَلِّي الذَّاتِ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْكَمَالَ بِإِفَاضَةِ الْإِيجَادِ وَالظُّهُورِ لِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَتَنَاقَلُونَهُ كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَعْرِفُونِي وَهَذَا الْكَمَالُ فِي الْإِيجَادِ الْمُتَنَزِّلِ فِي الْوُجُودِ وَتَفْصِيلِ الْحَقَائِقِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عَالَمُ الْمَعَانِي وَالْحَضْرَةُ الْكَمَالِيَّةُ وَالْحَقِيقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ وَفِيهَا حَقَائِقُ الصِّفَاتِ وَاللَّوْحُ وَالْقَلَمُ وَحَقَائِقُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ أَجْمَعِينَ وَالْكُمَّلِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَهَذَا كُلُّهُ تَفْصِيلُ الْحَقِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَيَصْدُرُ عَنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ حَقَائِقُ أُخْرَى فِي الْحَضْرَةِ الْهَبَائِيَّةِ وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْمِثَالِ ثُمَّ عَنْهَا الْعَرْشُ ثُمَّ الْكُرْسِيُّ ثُمَّ الْأَفْلَاكُ ثُمَّ عَالَمُ الْعَنَاصِرِ ثُمَّ عَالَمُ التَّرْكِيبِ هَذَا فِي عَالَمِ الرَّتْقِ فَإِذَا تَجَلَّتْ فَهِيَ فِي عَالَمِ الْفَتْقِ وَيُسَمَّى هَذَا الْمَذْهَبُ مَذْهَبَ أَهْلِ التَّجَلِّي وَالْمَظَاهِرِ وَالْحَضَرَاتِ وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَقْتَدِرُ أَهْلُ النَّظَرِ إِلَى تَحْصِيلِ مُقْتَضَاهُ لِغُمُوضِهِ وَانْغِلَاقِهِ وَبُعْدِ مَا بَيْنَ كَلَامِ صَاحِبِ الْمُشَاهَدَةِ وَالْوِجْدَانِ وَصَاحِبِ الدَّلِيلِ وَرُبَّمَا أُنْكِرَ بِظَاهِرِ الشَّرْعِ هَذَا التَّرْتِيبُ وَكَذَلِكَ ذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ وَهُوَ رَأْيٌ أَغْرَبُ مِنَ الْأَوَّلِ فِي تَعَقُّلِهِ وَتَفَارِيعِهِ يَزْعُمُونَ فِيهِ أَنَّ الْوُجُودَ لَهُ قُوًى فِي تَفَاصِيلِهِ بِهَا كَانَتْ حَقَائِقُ الْمَوْجُودَاتِ وَصُوَرُهَا وَمَوَادُّهَا وَالْعَنَاصِرُ إِنَّمَا كَانَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَكَذَلِكَ مَادَّتُهَا لَهَا فِي نَفْسِهَا قُوَّةٌ بِهَا كَانَ وُجُودُهَا ثُمَّ إِنَّ الْمُرَكَّبَاتِ فِيهَا تِلْكَ الْقُوَى مُتَضَمِّنَةً فِي الْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ بِهَا التَّرْكِيبُ كَالْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ فِيهَا قُوَى الْعَنَاصِرِ بِهَيُولَاهَا وَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ ثُمَّ الْقُوَّةُ الْحَيَوَانِيَّةُ تَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْمَعْدِنِيَّةَ وَزِيَادَةَ قُوَّتِهَا فِي نَفْسِهَا وَكَذَا الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ ثُمَّ الْفَلَكُ يَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَزِيَادَةً وَكَذَا الذَّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الْجَامِعَةُ لِلْكُلِّ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ هِيَ الْقُوَّةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي انْبَثَّتْ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّيَّةً وَجُزْئِيَّةً وَجَمَعَتْهَا وَأَحَاطَتْ بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَا مِنْ جِهَةِ الظُّهُورِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْخَفَاءِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ وَلَا مِنْ

جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ فَٱلْكُلُّ وَاحِدٌ وَهُوَ نَفْسُ ٱلذَّاتِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ وَهِيَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ بَسِيطَةٌ
وَٱلِٱعْتِبَارُ هُوَ ٱلْمُفَصِّلُ لَهَا كَٱلْإِنْسَانِيَّةِ مَعَ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ أَلَا تَرَى أَنَّهَا مُنْدَرِجَةٌ فِيهَا وَكَائِنَةٌ
بِكَوْنِهَا فَتَارَةً يُمَثِّلُونَهَا بِٱلْجِنْسِ مَعَ ٱلنَّوْعِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَتَارَةً بِٱلْكُلِّ
مَعَ ٱلْجُزْءِ عَلَى طَرِيقَةِ ٱلْمِثَالِ وَهُمْ فِي هٰذَا كُلِّهِ يَفِرُّونَ مِنَ ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْكَثْرَةِ بِوَجْهٍ
مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَإِنَّمَا أَوْجَبَهَا عِنْدَهُمُ ٱلْوَهْمُ وَٱلْخَيَالُ وَٱلَّذِي يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ ٱبْنِ دِهْقَانَ
فِي تَقْرِيرِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنَّ حَقِيقَةَ مَا يَقُولُونَهُ فِي ٱلْوَحْدَةِ شَبِيهٌ بِمَا تَقُولُهُ ٱلْحُكَمَاءُ فِي
ٱلْأَلْوَانِ مِنْ أَنَّ وُجُودَهَا مَشْرُوطٌ بِٱلضَّوْءِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلضَّوْءُ لَمْ تَكُنِ ٱلْأَلْوَانُ مَوْجُودَةً
بِوَجْهٍ وَكَذَا عِنْدَهُمُ ٱلْمَوْجُودَاتُ ٱلْمَحْسُوسَةُ كُلُّهَا مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ ٱلْمُدْرِكِ ٱلْعَقْلِيِّ
فَإِذًا ٱلْوُجُودُ ٱلْمُفَصَّلُ كُلُّهُ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ ٱلْمُدْرِكِ ٱلْبَشَرِيِّ فَلَوْ فَرَضْنَا عَدَمَ ٱلْمُدْرِكِ
ٱلْبَشَرِيِّ جُمْلَةً لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَفْصِيلُ ٱلْوُجُودِ بَلْ هُوَ بَسِيطٌ وَاحِدٌ فَٱلْحَرُّ وَٱلْبَرْدُ وَٱلصَّلَابَةُ
وَٱللِّينُ بَلْ وَٱلْأَرْضُ وَٱلْمَاءُ وَٱلنَّارُ وَٱلسَّمَاءُ وَٱلْكَوَاكِبُ إِنَّمَا وُجِدَتْ لِوُجُودِ ٱلْحَوَاسِّ
ٱلْمُدْرِكَةِ لَهَا لِمَا جُعِلَ فِي ٱلْمُدْرِكِ مِنَ ٱلتَّفْصِيلِ ٱلَّذِي لَيْسَ فِي ٱلْمَوْجُودِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي
ٱلْمَدَارِكِ فَقَطْ فَإِذَا فُقِدَتِ ٱلْمَدَارِكُ ٱلْمُفَصِّلَةُ فَلَا تَفْصِيلَ إِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكٌ وَاحِدٌ وَهُوَ
أَنَا لَا غَيْرُهُ وَيَعْتَبِرُونَ ذٰلِكَ بِحَالِ ٱلنَّائِمِ فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَفَقَدَ ٱلْحِسَّ ٱلظَّاهِرَ فَقَدَ كُلَّ
مَحْسُوسٍ وَهُوَ فِي تِلْكَ ٱلْحَالَةِ إِلَّا مَا يُفَصِّلُهُ لَهُ ٱلْخَيَالُ قَالُوا فَكَذَا ٱلْيَقْظَانُ إِنَّمَا يَعْتَبِرُ تِلْكَ
ٱلْمُدْرَكَاتِ كُلَّهَا عَلَى ٱلتَّفْصِيلِ بِنَوْعِ مُدْرِكِهِ ٱلْبَشَرِيِّ وَلَوْ قُدِّرَ فَقْدُ مُدْرِكِهِ فَقَدَ ٱلتَّفْصِيلَ
وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمِ ٱلْمُوهِمِ لَا ٱلْوَهْمِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْبَشَرِيَّةِ هٰذَا
مُلَخَّصُ رَأْيِهِمْ عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱبْنِ دِهْقَانَ وَهُوَ فِي غَايَةِ ٱلسُّقُوطِ لِأَنَّا نَقْطَعُ بِوُجُودِ
ٱلْبَلَدِ ٱلَّذِي نَحْنُ مُسَافِرُونَ عَنْهُ وَإِلَيْهِ يَقِينًا مَعَ غَيْبَتِهِ عَنْ أَعْيُنِنَا وَبِوُجُودِ ٱلسَّمَاءِ ٱلْمُظِلَّةِ
وَٱلْكَوَاكِبِ وَسَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْغَائِبَةِ عَنَّا وَٱلْإِنْسَانُ قَاطِعٌ بِذٰلِكَ وَلَا يُكَابِرُ أَحَدٌ
نَفْسَهُ فِي ٱلْيَقِينِ مَعَ أَنَّ ٱلْمُحَقِّقِينَ مِنَ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ يَقُولُونَ إِنَّ ٱلْمُرِيدَ عِنْدَ
ٱلْكَشْفِ رُبَّمَا يَعْرِضُ لَهُ تَوَهُّمُ هٰذِهِ ٱلْوَحْدَةِ وَيُسَمَّى ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ مَقَامَ ٱلْجَمْعِ ثُمَّ
يَتَرَقَّى عَنْهُ إِلَى ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَيُعَبِّرُونَ عَنْ ذٰلِكَ بِمَقَامِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مَقَامُ
ٱلْعَارِفِ ٱلْمُحَقِّقِ وَلَا بُدَّ لِلْمُرِيدِ عِنْدَهُمْ مِنْ عَقَبَةِ ٱلْجَمْعِ وَهِيَ عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ لِأَنَّهُ يُخْشَى
عَلَى ٱلْمُرِيدِ مِنْ وُقُوفِهِ عِنْدَهَا فَتَخْسَرُ صَفْقَتُهُ فَقَدْ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ ثُمَّ

إنّ هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها فقال جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم رفعوه إلى علي رضي الله عنه وهو من هذا المعنى أيضاً وإلا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي إلى الحق ثم إن كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فإن كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التي

تصير مقاماً ويترقى منه إلى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأكوان في صدورها عن موجودها وتكونها كما مر وثالثها التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطى له دلالة على مرادهم منه لأنها لم توضع للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن

عُلِمَ منهم فضلُهُ واقتداؤُهُ حُمِلَ على القصدِ الجميلِ من هذا وأنَّ العبارةَ عن المواجدِ صعبةٌ لفقدانِ الوضعِ لها كما وقعَ لأبي يزيدَ وأمثالِهِ ومن لم يُعلَمْ فضلُهُ ولا اشتهرَ فمؤاخذٌ بما صدرَ عنهُ من ذلكَ إذا لم يتبيَّنْ لنا ما يحملُنا على تأويلِ كلامِهِ وأمَّا من تكلَّمَ بمثلِها وهوَ حاضرٌ في حسِّهِ ولم يملكْهُ الحالُ فمؤاخذٌ أيضًا ولهذا أفتى الفقهاءُ وأكابرُ المتصوِّفةِ بقتلِ الحلاجِ لأنَّهُ تكلَّمَ في حضورٍ وهوَ مالكٌ لحالِهِ واللهُ أعلمُ وسلفُ المتصوِّفةِ من أهلِ الرِّسالةِ أعلامُ الملَّةِ الذينَ أشرنا إليهم من قبلُ لم يكنْ لهم حرصٌ على كشفِ الحجابِ ولا هذا النَّوعِ من الإدراكِ إنَّما همُّهم الاتِّباعُ والاقتداءُ ما استطاعوا ومن عرضَ لهُ شيءٌ من ذلكَ أعرضَ عنهُ ولم يحفلْ بهِ بل يفرُّونَ منهُ ويرونَ أنَّهُ من العوائقِ والمحنِ وأنَّهُ إدراكٌ من إدراكاتِ النَّفسِ مخلوقٌ حادثٌ وأنَّ الموجوداتِ لا تنحصرُ في مداركِ الإنسانِ وعلمُ اللهِ أوسعُ وخلقُهُ أكبرُ وشريعتُهُ بالهدايةِ أملكُ فلا ينطقونَ بشيءٍ ممَّا يدركونَ بل حظروا الخوضَ في ذلكَ ومنعوا من يكشفُ لهُ الحجابُ من أصحابِهم من الخوضِ فيهِ والوقوفِ عندَهُ بل يلتزمونَ طريقتَهم كما كانوا في عالمِ الحسِّ قبلَ الكشفِ من الاتِّباعِ والاقتداءِ ويأمرونَ أصحابَهم بالتزامِها وهكذا ينبغي أن يكونَ حالُ المريدِ واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ

الفصل الثاني عشر

في علم تعبير الرؤيا

هذا العلمُ من العلومِ الشَّرعيَّةِ وهوَ حادثٌ في الملَّةِ عندما صارتِ العلومُ صنائعَ وكتبَ النَّاسُ فيها وأمَّا الرُّؤيا والتَّعبيرُ لها فقد كانَ موجودًا في السَّلفِ كما هوَ في الخلفِ وربَّما كانَ في الملوكِ والأممِ من قبلُ إلَّا أنَّهُ لم يصلْ إلينا للاكتفاءِ فيهِ بكلامِ المعبِّرينَ من أهلِ الإسلامِ وإلَّا فالرُّؤيا موجودةٌ في صنفِ البشرِ على الإطلاقِ ولا بدَّ من تعبيرِها فلقد كانَ يوسفُ الصِّدِّيقُ صلواتُ اللهِ عليهِ يعبِّرُ الرُّؤيا كما وقعَ في القرآنِ وكذلكَ ثبتَ عنِ الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعن أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ والرُّؤيا مدركٌ من مداركِ الغيبِ وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الرُّؤيا الصَّالحةُ جزءٌ من ستَّةٍ وأربعينَ جزءًا من النُّبوَّةِ وقالَ لم يبقَ من المبشِّراتِ إلَّا الرُّؤيا

الصَّالِحَةُ يَرَاهَا ٱلرَّجُلُ ٱلصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ ٱلْوَحْيِ ٱلرُّؤْيَا فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ ٱلصُّبْحِ وَكَانَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ٱنْفَتَلَ مِنْ صَلاَةِ ٱلْغَدَاةِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ ٱللَّيْلَةَ رُؤْيَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ لِيَسْتَبْشِرَ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا فِيهِ ظُهُورُ ٱلدِّينِ وَإِعْزَازُهُ وَأَمَّا ٱلسَّبَبُ فِي كَوْنِ ٱلرُّؤْيَا مُدْرِكاً لِلْغَيْبِ فَهُوَ أَنَّ ٱلرُّوحَ ٱلْقَلْبِيَّ وَهُوَ ٱلْبُخَارُ ٱللَّطِيفُ ٱلْمُنْبَعِثُ مِنْ تَجْوِيفِ ٱلْقَلْبِ ٱللَّحْمِيِّ يَنْتَشِرُ فِي ٱلشِّرْيَانَاتِ وَمَعَ ٱلدَّمِ فِي سَائِرِ ٱلْبَدَنِ وَبِهِ تَكْمُلُ أَفْعَالُ ٱلْقُوَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ وَإِحْسَاسُهَا فَإِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْمَلاَلُ بِكَثْرَةِ ٱلتَّصَرُّفِ فِي ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلْحَوَاسِّ ٱلْخَمْسِ وَتَصْرِيفِ ٱلْقُوَى ٱلظَّاهِرَةِ وَغَشِيَ سَطْحَ ٱلْبَدَنِ مَا يَغْشَاهُ مِنْ بَرْدِ ٱللَّيْلِ ٱنْخَنَسَ ٱلرُّوحُ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ ٱلْبَدَنِ إِلَى مَرْكَزِهِ ٱلْقَلْبِيِّ فَيَسْتَجِمُّ بِذٰلِكَ لِمُعَاوَدَةِ فِعْلِهِ فَتَعَطَّلَتِ ٱلْحَوَاسُّ ٱلظَّاهِرَةُ كُلُّهَا وَذٰلِكَ هُوَ مَعْنَى ٱلنَّوْمِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ ٱلْكِتَابِ ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلرُّوحَ ٱلْقَلْبِيَّ هُوَ مَطِيَّةٌ لِلرُّوحِ ٱلْعَاقِلِ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلرُّوحُ ٱلْعَاقِلُ مُدْرِكٌ لِجَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ ٱلْأَمْرِ بِذَاتِهِ إِذْ حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ عَيْنُ ٱلْإِدْرَاكِ وَإِنَّمَا يُمْنَعُ مِنْ تَعَلُّقِهِ لِلْمَدَارِكِ ٱلْغَيْبِيَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ حِجَابِ ٱلْاِشْتِغَالِ بِٱلْبَدَنِ وَقُوَاهُ وَحَوَاسِّهِ فَلَوْ قَدْ خَلاَ مِنْ هٰذَا ٱلْحِجَابِ وَتَجَرَّدَ عَنْهُ لَرَجَعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ عَيْنُ ٱلْإِدْرَاكِ فَيَعْقِلُ كُلَّ مُدْرَكٍ فَإِذَا تَجَرَّدَ عَنْ بَعْضِهَا خَفَّتْ شَوَاغِلُهُ فَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ إِدْرَاكِ لَمْحَةٍ مِنْ عَالَمِهِ بِقَدْرِ مَا تَجَرَّدَ لَهُ وَهُوَ فِي هٰذِهِ ٱلْحَالَةِ قَدْ خَفَّتْ شَوَاغِلُ ٱلْحِسِّ ٱلظَّاهِرِ كُلُّهَا وَهِيَ ٱلشَّاغِلُ ٱلْأَعْظَمُ فَٱسْتَعَدَّ لِقَبُولِ مَا هُنَالِكَ مِنَ ٱلْمَدَارِكِ ٱللاَّئِقَةِ مِنْ عَالَمِهِ وَإِذَا أَدْرَكَ مَا يُدْرِكُ مِنْ عَوَالِمِهِ رَجَعَ إِلَى بَدَنِهِ إِذْ هُوَ مَا دَامَ فِي بَدَنِهِ جِسْمَانِيٌّ لاَ يُمْكِنُهُ ٱلتَّصَرُّفُ إِلاَّ بِٱلْمَدَارِكِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَٱلْمَدَارِكُ ٱلْجِسْمَانِيَّةُ لِلْعِلْمِ إِنَّمَا هِيَ ٱلدِّمَاغِيَّةُ وَٱلْمُتَصَرِّفُ مِنْهَا هُوَ ٱلْخَيَالُ فَإِنَّهُ يَنْتَزِعُ مِنَ ٱلصُّوَرِ ٱلْمَحْسُوسَةِ صُوَرًا خَيَالِيَّةً ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى ٱلْحَافِظَةِ تَحْفَظُهَا لَهُ إِلَى وَقْتِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا عِنْدَ ٱلنَّظَرِ وَٱلْاِسْتِدْلاَلِ وَكَذٰلِكَ تُجَرِّدُ ٱلنَّفْسُ مِنْهَا صُوَرًا أُخْرَى نَفْسَانِيَّةً عَقْلِيَّةً فَيَتَرَقَّى ٱلتَّجْرِيدُ مِنَ ٱلْمَحْسُوسِ إِلَى ٱلْمَعْقُولِ وَٱلْخَيَالُ وَاسِطَةٌ بَيْنَهُمَا وَلِذٰلِكَ إِذَا أَدْرَكَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ عَالَمِهَا مَا تُدْرِكُهُ أَلْقَتْهُ إِلَى ٱلْخَيَالِ فَيُصَوِّرُهُ بِٱلصُّورَةِ ٱلْمُنَاسِبَةِ لَهُ وَيَدْفَعُهُ إِلَى ٱلْحِسِّ ٱلْمُشْتَرَكِ فَيَرَاهُ ٱلنَّائِمُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ فَيَتَنَزَّلُ ٱلْمُدْرَكُ مِنَ ٱلرُّوحِ ٱلْعَقْلِيِّ إِلَى ٱلْحِسِّيِّ وَٱلْخَيَالُ أَيْضاً وَاسِطَةٌ هٰذِهِ حَقِيقَةُ

اَلرُّؤْيَا وَمِنْ هٰذَا التَّقْرِيرِ يَظْهَرُ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ وَأَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ الْكَاذِبَةِ فَإِنَّهَا كِلَاهُمَا صُوَرٌ فِي الْخَيَالِ حَالَةَ النَّوْمِ وَلٰكِنْ إِنْ كَانَتْ تِلْكَ الصُّوَرُ مُتَنَزِّلَةً مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ الْمُدْرِكِ فَهُوَ رُؤْيَا وَإِنْ كَانَتْ مَأْخُوذَةً مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ الَّتِي كَانَ الْخَيَالُ أَوْدَعَهَا إِيَّاهَا مُنْذُ الْيَقَظَةِ فَهِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَأَمَّا مَعْنَى التَّعْبِيرِ فَاعْلَمْ أَنَّ الرُّوحَ الْعَقْلِيَّ إِذَا أَدْرَكَ مُدْرَكَهُ وَأَلْقَاهُ إِلَى الْخَيَالِ فَصَوَّرَهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الصُّوَرِ الْمُنَاسِبَةِ لِذٰلِكَ الْمَعْنَى بَعْضَ الشَّيْءِ كَمَا يُدْرِكُ مَعْنَى السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ فَيُصَوِّرُهُ الْخَيَالُ بِصُورَةِ الْبَحْرِ أَوْ يُدْرِكُ الْعَدَاوَةَ فَيُصَوِّرُهَا الْخَيَالُ فِي صُورَةِ الْحَيَّةِ فَإِذَا اسْتَيْقَظَ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى الْبَحْرَ أَوِ الْحَيَّةَ فَيَنْظُرُ الْمُعَبِّرُ بِقُوَّةِ التَّشْبِيهِ بَعْدَ أَنْ يَتَيَقَّنَ أَنَّ الْبَحْرَ صُورَةٌ مَحْسُوسَةٌ وَأَنَّ الْمُدْرَكَ وَرَاءَهَا وَهُوَ يَهْتَدِي بِقَرَائِنَ أُخْرَى تُعَيِّنُ لَهُ الْمُدْرَكَ فَيَقُولُ مَثَلًا هُوَ السُّلْطَانُ لِأَنَّ الْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيمٌ يُنَاسِبُ أَنْ يُشَبَّهَ بِهَا السُّلْطَانُ وَكَذٰلِكَ الْحَيَّةُ يُنَاسِبُ أَنْ تُشَبَّهَ بِالْعَدُوِّ لِعِظَمِ ضَرَرِهَا وَكَذَا الْأَوَانِي تُشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّهُنَّ أَوْعِيَةٌ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ وَمِنَ الْمَرْئِيِّ مَا يَكُونُ صَرِيحًا لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْبِيرٍ لِجَلَائِهَا وَوُضُوحِهَا أَوْ لِقُرْبِ الشَّبَهِ فِيهَا بَيْنَ الْمُدْرَكِ وَشِبْهِهِ وَلِهٰذَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ اَلرُّؤْيَا ثَلَاثٌ رُؤْيَا مِنَ اللهِ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلَكِ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ فَالرُّؤْيَا الَّتِي مِنَ اللهِ هِيَ الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا تَفْتَقِرُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَالَّتِي مِنَ الْمَلَكِ هِيَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ تَفْتَقِرُ إِلَى التَّعْبِيرِ وَالرُّؤْيَا الَّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ هِيَ الْأَضْغَاثُ وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَيَالَ إِذَا أَلْقَى إِلَيْهِ الرُّوحُ مُدْرَكَهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ لِلْحِسِّ وَمَا لَمْ يَكُنِ الْحِسُّ أَدْرَكَهُ قَطُّ فَلَا يُصَوِّرُ فِيهِ فَلَا يُمْكِنُ مَنْ وُلِدَ أَعْمَى أَنْ يُصَوِّرَ لَهُ السُّلْطَانَ بِالْبَحْرِ وَلَا الْعَدُوَّ بِالْحَيَّةِ وَلَا النِّسَاءَ بِالْأَوَانِي لِأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هٰذِهِ وَإِنَّمَا يُصَوِّرُ لَهُ الْخَيَالُ أَمْثَالَ هٰذِهِ فِي شِبْهِهَا وَمُنَاسِبِهَا مِنْ جِنْسِ مَدَارِكِهِ الَّتِي هِيَ الْمَسْمُوعَاتُ وَالْمَشْمُومَاتُ وَلْيَتَحَفَّظِ الْمُعَبِّرُ مِنْ مِثْلِ هٰذَا فَرُبَّمَا اخْتَلَطَ بِهِ التَّعْبِيرُ وَفَسَدَ قَانُونُهُ ثُمَّ إِنَّ عِلْمَ التَّعْبِيرِ عِلْمٌ بِقَوَانِينَ كُلِّيَّةٍ يَبْنِي عَلَيْهَا الْمُعَبِّرُ عِبَارَةَ مَا يُقَصُّ عَلَيْهِ وَتَأْوِيلَهُ كَمَا يَقُولُونَ الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى السُّلْطَانِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْغَيْظِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْهَمِّ وَالْأَمْرِ الْفَادِحِ وَمِثْلَ مَا يَقُولُونَ الْحَيَّةُ تَدُلُّ عَلَى الْعَدُوِّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ هِيَ كَاتِمُ سِرٍّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ تَدُلُّ عَلَى

ٱلْحَيَاةِ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ فَيَحْفَظُ ٱلْمُعَبِّرُ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ ٱلْكُلِّيَّةَ وَيُعَبِّرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ ٱلْقَرَائِنُ ٱلَّتِي تُعَيِّنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ مَا هُوَ أَلْيَقُ بِٱلرُّؤْيَا وَتِلْكَ ٱلْقَرَائِنُ مِنْهَا فِي ٱلْيَقَظَةِ وَمِنْهَا فِي ٱلنَّوْمِ وَمِنْهَا مَا يَنْقَدِحُ فِي نَفْسِ ٱلْمُعَبِّرِ بِٱلْخَاصِّيَّةِ ٱلَّتِي خُلِقَتْ فِيهِ وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا ٱلْعِلْمُ مُتَنَاقَلًا بَيْنَ ٱلسَّلَفِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ فِيهِ مِنْ أَشْهَرِ ٱلْعُلَمَاءِ وَكُتِبَ عَنْهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْقَوَانِينُ وَتَنَاقَلَهَا ٱلنَّاسُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَأَلَّفَ ٱلْكَرْمَانِيُّ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ أَلَّفَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ وَأَكْثَرُوا وَٱلْمُتَدَاوَلُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كُتُبُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱلْقَيْرَوَانِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْقَيْرَوَانِ مِثْلُ ٱلْمُمْتِعِ وَغَيْرِهِ وَكِتَابُ ٱلْإِشَارَةِ لِلسَّالِمِيِّ وَهُوَ عِلْمٌ مُضِيءٌ بِنُورِ ٱلنُّبُوَّةِ لِلْمُنَاسَبَةِ ٱلَّتِي بَيْنَهُمَا كَمَا وَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحِ وَٱللهُ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ

الفصل الثالث عشر

في العلوم العقلية واصنافها

وَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ فَهِيَ غَيْرُ مُخْتَصَّةٍ بِمِلَّةٍ بَلْ بِوَجْهِ ٱلنَّظَرِ فِيهَا إِلَى أَهْلِ ٱلْمِلَلِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَوُونَ فِي مَدَارِكِهَا وَمَبَاحِثِهَا وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ مُنْذُ كَانَ عُمْرَانُ ٱلْخَلِيقَةِ وَتُسَمَّى هٰذِهِ ٱلْعُلُومُ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ وَٱلْحِكْمَةِ وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ ٱلْأَوَّلُ عِلْمُ ٱلْمَنْطِقِ وَهُوَ عِلْمٌ يَعْصِمُ ٱلذِّهْنَ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي ٱقْتِنَاصِ ٱلْمَطَالِبِ ٱلْمَجْهُولَةِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْحَاصِلَةِ ٱلْمَعْلُومَةِ وَفَائِدَتُهُ تَمْيِيزُ ٱلْخَطَإِ مِنَ ٱلصَّوَابِ فِيمَا يَلْتَمِسُهُ ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا لِيَقِفَ عَلَى تَحْقِيقِ ٱلْحَقِّ فِي ٱلْكَائِنَاتِ بِمُنْتَهَى فِكْرِهِ ثُمَّ ٱلنَّظَرُ بَعْدَ ذَٰلِكَ عِنْدَهُمْ إِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ مِنَ ٱلْأَجْسَامِ ٱلْعُنْصُرِيَّةِ وَٱلْمُكَوَّنَةِ عَنْهَا مِنَ ٱلْمَعْدِنِ وَٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانِ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْفَلَكِيَّةِ وَٱلْحَرَكَاتِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي تَنْبَعِثُ عَنْهَا ٱلْحَرَكَاتُ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلْفَنُّ بِٱلْعِلْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَهُوَ ٱلثَّانِي مِنْهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي وَرَاءَ ٱلطَّبِيعَةِ مِنَ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلْإِلٰهِيَّ وَهُوَ ٱلثَّالِثُ مِنْهَا وَٱلْعِلْمُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْمَقَادِيرِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ وَتُسَمَّى ٱلتَّعَالِيمَ أَوَّلُهَا عِلْمُ ٱلْهَنْدَسَةِ وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْمَقَادِيرِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ إِمَّا ٱلْمُنْفَصِلَةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةً أَوِ ٱلْمُتَّصِلَةِ وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْخَطُّ أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ وَهُوَ ٱلسَّطْحُ أَوْ ذُو أَبْعَادٍ ثَلَاثَةٍ وَهُوَ

ٱلْجِسْمُ ٱلتَّعْلِيمِيُّ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَادِيرِ وَمَا يَعْرِضُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا أَوْ مِنْ حَيْثُ نِسْبَةُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَانِيهَا عِلْمُ ٱلْأَرِتْمَاطِيقِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَعْرِضُ لِلْكَمِّ ٱلْمُنْفَصِلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعَدَدُ وَيُؤْخَذُ لَهُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ وَٱلْعَوَارِضِ ٱللَّاحِقَةِ وَثَالِثُهَا عِلْمُ ٱلْمُوسِيقَى وَهُوَ مَعْرِفَةُ نِسَبِ ٱلْأَصْوَاتِ وَٱلنَّغَمِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِٱلْعَدَدِ وَثَمَرَتُهُ مَعْرِفَةُ تَلَاحِينِ ٱلْغِنَاءِ وَرَابِعُهَا عِلْمُ ٱلْهَيْئَةِ وَهُوَ تَعْيِينُ ٱلْأَشْكَالِ لِلْأَفْلَاكِ وَحَصْرُ أَوْضَاعِهَا وَتَعَدُّدِهَا لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ ٱلسَّيَّارَةِ وَٱلْقِيَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحَرَكَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ ٱلْمُشَاهَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَٱسْتِقَامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا فَهٰذِهِ أُصُولُ ٱلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةٌ ٱلْمَنْطِقُ وَهُوَ ٱلْمُقَدَّمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ ٱلتَّعَالِيمُ فَٱلْأَرِتْمَاطِيقِي أَوَّلًا ثُمَّ ٱلْهَنْدَسَةُ ثُمَّ ٱلْهَيْئَةُ ثُمَّ ٱلْمُوسِيقَى ثُمَّ ٱلطَّبِيعِيَّاتُ ثُمَّ ٱلْإِلٰهِيَّاتُ وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا فُرُوعٌ تَتَفَرَّعُ عَنْهُ فَمِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ ٱلطِّبُّ وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلْعَدَدِ عِلْمُ ٱلْحِسَابِ وَٱلْفَرَائِضِ وَٱلْمُعَامَلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلْأَزْيَاجُ وَهِيَ قَوَانِينُ لِحِسَابِ حَرَكَاتِ ٱلْكَوَاكِبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَى قُصِدَ ذٰلِكَ وَمِنْ فُرُوعِهَا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنُّجُومِ عَلَى ٱلْأَحْكَامِ ٱلنُّجُومِيَّةِ وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهَا وَٱعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ عُنِيَ بِهَا فِي ٱلْأَجْيَالِ ٱلَّذِينَ عَرَفْنَا أَخْبَارَهُمُ ٱلْأُمَّتَانِ ٱلْعَظِيمَتَانِ فِي ٱلدَّوْلَةِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَهُمَا فَارِسُ وَٱلرُّومُ فَكَانَتْ أَسْوَاقُ ٱلْعُلُومِ نَافِقَةً لَدَيْهِمْ عَلَى مَا بَلَغَنَا لِمَا كَانَ ٱلْعُمْرَانُ مَوْفُورًا فِيهِمْ وَٱلدَّوْلَةُ وَٱلسُّلْطَانُ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَعَصْرِهِ لَهُمْ فَكَانَ لِهٰذِهِ ٱلْعُلُومِ بُحُورٌ زَاخِرَةٌ فِي آفَاقِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ وَكَانَ لِلْكَلْدَانِيِّينَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلسُّرْيَانِيِّينَ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ ٱلْقِبْطِ عِنَايَةٌ بِٱلسِّحْرِ وَٱلنِّجَامَةِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلطَّلَاسِمِ وَأَخَذَ ذٰلِكَ عَنْهُمُ ٱلْأُمَمُ مِنْ فَارِسَ وَيُونَانَ فَٱخْتَصَّ بِهَا ٱلْقِبْطُ وَطَمَى بَحْرُهَا فِيهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْمَتْلُوِّ مِنْ خَبَرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَشَأْنِ ٱلسَّحَرَةِ وَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ مِنْ شَأْنِ ٱلْبَرَارِيِّ بِصَعِيدِ مِصْرَ ثُمَّ تَتَابَعَتِ ٱلْمِلَلُ بِحَظْرِ ذٰلِكَ وَتَحْرِيمِهِ فَدَرَسَتْ عُلُومُهُ وَبَطَلَتْ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَقَايَا يَتَنَاقَلُهَا مُنْتَحِلُو هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا مَعَ أَنَّ سُيُوفَ ٱلشَّرْعِ قَائِمَةٌ عَلَى ظُهُورِهَا مَانِعَةٌ مِنِ ٱخْتِبَارِهَا وَأَمَّا ٱلْفُرْسُ فَكَانَ شَأْنُ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ عَظِيمًا وَنِطَاقُهَا مُتَّسِعًا لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دَوْلَتُهُمْ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱتِّصَالِ ٱلْمُلْكِ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هٰذِهِ ٱلْعُلُومَ إِنَّمَا وَصَلَتْ إِلَى يُونَانَ مِنْهُمْ

حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم مما لا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتب سعد ابن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا. وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرأون في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط الدن ثم إلى تلميذه أفلاطون ثم إلى تلميذه أرسطو ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفرودسي وتامسطيون وغيرهم وكان أرسطو معلماً للإسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرسخهم في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيه صيتاً وكان يسمى المعلم الأول فطار له في العالم ذكر. ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقياصرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم قد ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأمم وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا تبحبح من السلطان والدولة وأخذ الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصاً وأوفد الرسل على ملوك الروم

فِي ٱسْتِخْرَاجِ عُلُومِ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَٱنْتِسَاخِهَا بِٱلْخَطِّ ٱلْعَرَبِيِّ وَبَعَثَ ٱلْمُتَرْجِمِينَ لِذٰلِكَ فَأَوْعَى مِنْهُ وَٱسْتَوْعَبَ وَعَكَفَ عَلَيْهَا ٱلنُّظَّارُ مِنْ أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ وَحَذَقُوا فِي فُنُونِهَا وَٱنْتَهَتْ إِلَى ٱلْغَايَةِ أَنْظَارُهُمْ فِيهَا وَخَالَفُوا كَثِيرًا مِنْ آرَاءِ ٱلْمُعَلِّمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱخْتَصُّوهُ بِٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ لِوُقُوفِ ٱلشُّهْرَةِ عِنْدَهُ وَدَوَّنُوا فِي ذٰلِكَ ٱلدَّوَاوِينَ وَأَرْبَوْا عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَكَانَ مِنْ أَكَابِرِهِمْ فِي ٱلْمِلَّةِ أَبُو نَصْرٍ ٱلْفَارَابِيُّ وَأَبُو عَلِيِّ بْنُ سِينَا بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ وَٱلْوَزِيرُ أَبُو بَكْرِ بْنُ ٱلصَّائِغِ بِٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى آخَرِينَ بَلَغُوا ٱلْغَايَةَ فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَٱخْتَصَّ هٰؤُلَاءِ بِٱلشُّهْرَةِ وَٱلذِّكْرِ وَٱقْتَصَرَ كَثِيرُونَ عَلَى ٱنْتِحَالِ ٱلتَّعَالِيمِ وَمَا يَنْضَافُ إِلَيْهَا مِنْ عُلُومِ ٱلنِّجَامَةِ وَٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ وَوَقَفَتِ ٱلشُّهْرَةُ فِي هٰذَا ٱلْمُنْتَحَلِ عَلَى مَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ ٱلْمَجْرِيطِيِّ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَتَلْمِيذِهِ وَدَخَلَ عَلَى ٱلْمِلَّةِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَأَهْلِهَا دَاخِلَةٌ وَٱسْتَهْوَتِ ٱلْكَثِيرَ مِنَ ٱلنَّاسِ بِمَا جَنَحُوا إِلَيْهَا وَقَلَّدُوا آرَاءَهَا وَٱلذَّنْبُ فِي ذٰلِكَ لِمَنِ ٱرْتَكَبَهُ وَلَوْ شَاءَ ٱللّٰهُ مَا فَعَلُوهُ. ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَغْرِبَ وَٱلْأَنْدَلُسَ لَمَّا رَكَدَتْ رِيحُ ٱلْعُمْرَانِ بِهِمَا وَتَنَاقَصَتِ ٱلْعُلُومُ بِتَنَاقُصِهِ ٱضْمَحَلَّ ذٰلِكَ مِنْهُمَا إِلَّا قَلِيلًا مِنْ رُسُومِهِ تَجِدُهَا فِي تَفَارِيقَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَتَحْتَ رَقَبَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلسُّنَّةِ وَيَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ أَنَّ بَضَائِعَ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُمْ مَوْفُورَةً وَخُصُوصًا فِي عِرَاقِ ٱلْعَجَمِ وَمَا بَعْدَهُ فِيمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَأَنَّهُمْ عَلَى بَحَجٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ لِتَوَفُّرِ عُمْرَانِهِمْ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلْحَضَارَةِ فِيهِمْ وَلَقَدْ وَقَفْتُ بِمِصْرَ عَلَى تَآلِيفَ مُتَعَدِّدَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ هَرَاةَ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ يُشْهَرُ بِسَعْدِ ٱلدِّينِ ٱلتَّفْتَازَانِيِّ مِنْهَا فِي عِلْمِ ٱلْكَلَامِ وَأُصُولِ ٱلْفِقْهِ وَٱلْبَيَانِ تَشْهَدُ بِأَنَّ لَهُ مَلَكَةً رَاسِخَةً فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَفِي أَثْنَائِهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ ٱطِّلَاعًا عَلَى ٱلْعُلُومِ ٱلْحِكْمِيَّةِ وَقَدَمًا عَالِيَةً فِي سَائِرِ ٱلْفُنُونِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱللّٰهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ

كَذٰلِكَ بَلَغَنَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْعُلُومَ ٱلْفَلْسَفِيَّةَ بِبِلَادِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ مِنْ أَرْضِ رُومَةَ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ ٱلْعُدْوَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ نَافِقَةُ ٱلْأَسْوَاقِ وَأَنَّ رُسُومَهَا هُنَاكَ مُتَجَدِّدَةٌ وَمَجَالِسَ تَعْلِيمِهَا مُتَعَدِّدَةٌ وَدَوَاوِينَهَا جَامِعَةٌ مُتَوَفِّرَةٌ وَطَلَبَتَهَا مُتَكَثِّرَةٌ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

الفصل الرابع عشر
في العلوم العددية

وأولها الأرتماطيقي وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف مثل أن الأعداد إذا توالت متفاضلة بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة تلك الأعداد فردا مثل الأفراد على تواليها والأزواج على تواليها ومثل أن الأعداد إذا توالت على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ فإن ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل مربع الواسطة إن كانت العدة فردا وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات إذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد إلى العدد الأخير فتكون مثلثة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الأضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون مخمسة وهلم جرا وتتوالى الأشكال على توالي الأضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض ففي عرضه الأعداد على تواليها ثم المثلثات على تواليها ثم المربعات ثم المخمسات الخ وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغا ما بلغ وتحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقريت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها كذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد فإن لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ويدخل في براهين الحساب وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتأليف فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجا وغيره من المتقدمين وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور إذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية

كَمَا فعلَهُ ٱبْنُ ٱلْبَنَّاء فِي كِتَابِ رَفْعِ ٱلْحِجَابِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . (ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي حِسَابِ ٱلْأَعْدَادِ بِٱلضَّمِّ وَٱلتَّفْرِيقِ فَٱلضَّمُّ يَكُونُ فِي ٱلْأَعْدَادِ بِٱلْأَفْرَادِ وَهُوَ ٱلْجَمْعُ وَبِٱلتَّضْعِيفِ تُضَاعِفُ عَدَدًا بِآحَادِ عَدَدٍ آخَرَ وَهٰذَا هُوَ ٱلضَّرْبُ وَٱلتَّفْرِيقُ أَيْضًا يَكُونُ فِي ٱلْأَعْدَادِ إِمَّا بِٱلْإِفْرَادِ مِثْلِ إِزَالَةِ عَدَدٍ مِنْ عَدَدٍ وَمَعْرِفَةِ ٱلْبَاقِي وَهُوَ ٱلطَّرْحُ أَوْ تَفْصِيلِ عَدَدٍ بِأَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَكُونُ عِدَّتُهَا مُحَصَّلَةً وَهُوَ ٱلْقِسْمَةُ وَسَوَاءٌ كَانَ هٰذَا ٱلضَّمُّ وَٱلتَّفْرِيقُ فِي ٱلصَّحِيحِ مِنَ ٱلْعَدَدِ أَوِ ٱلْكَسْرِ وَمَعْنَى ٱلْكَسْرِ نِسْبَةُ عَدَدٍ إِلَى عَدَدٍ وَتِلْكَ ٱلنِّسْبَةُ تُسَمَّى كَسْرًا وَكَذٰلِكَ يَكُونُ بِٱلضَّمِّ وَٱلتَّفْرِيقِ فِي ٱلْجُذُورِ وَمَعْنَاهَا ٱلْعَدَدُ ٱلَّذِي يُضْرَبُ فِي مِثْلِهِ فَيَكُونُ مِنْهُ ٱلْعَدَدُ ٱلْمُرَبَّعُ فَإِنَّ تِلْكَ ٱلْجُذُورَ أَيْضًا يَدْخُلُهَا ٱلضَّمُّ وَٱلتَّفْرِيقُ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ حَادِثَةٌ ٱحْتِيجَ إِلَيْهَا لِلْحِسَابِ فِي ٱلْمُعَامَلَاتِ وَأَلَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهَا كَثِيرًا وَتَدَاوَلُوهَا فِي ٱلْأَمْصَارِ بِٱلتَّعْلِيمِ لِلْوِلْدَانِ وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلتَّعْلِيمِ عِنْدَهُمُ ٱلِٱبْتِدَاءُ بِهَا لِأَنَّهَا مَعَارِفُ مُتَّضِحَةٌ وَبَرَاهِينُ مُنْتَظِمَةٌ فَيَنْشَأُ عَنْهَا فِي ٱلْغَالِبِ عَقْلٌ مُضِيءٌ دُرِّبَ عَلَى ٱلصَّوَابِ وَقَدْ يُقَالُ مَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِتَعْلِيمِ ٱلْحِسَابِ أَوَّلَ أَمْرِهِ إِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱلصِّدْقُ لِمَا فِي ٱلْحِسَابِ مِنْ صِحَّةِ ٱلْمَبَانِي وَمُنَاقَشَةِ ٱلنَّفْسِ فَيَصِيرُ ذٰلِكَ خُلُقًا وَيَتَعَوَّدُ ٱلصِّدْقَ وَيُلَازِمُهُ مَذْهَبًا وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلتَّآلِيفِ ٱلْمَبْسُوطَةِ فِيهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَغْرِبِ كِتَابُ ٱلْحَصَّارِ ٱلصَّغِيرِ وَلِٱبْنِ ٱلْبَنَّاءِ ٱلْمَرَّاكُشِيِّ فِيهِ تَلْخِيصٌ ضَابِطٌ لِقَوَانِينِ أَعْمَالِهِ مُفِيدٌ ثُمَّ شَرَحَهُ بِكِتَابٍ سَمَّاهُ رَفْعَ ٱلْحِجَابِ وَهُوَ مُسْتَغْلَقٌ عَلَى ٱلْمُبْتَدِىءِ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ ٱلْوَثِيقَةِ ٱلْمَبَانِي وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلُ ٱلْقَدْرِ أَدْرَكْنَا ٱلْمَشْيَخَةَ تُعَظِّمُهُ وَهُوَ كِتَابٌ جَدِيرٌ بِذٰلِكَ وَإِنَّمَا جَاءَهُ ٱلِٱسْتِغْلَاقُ مِنْ طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ بِبَيَانِ عُلُومِ ٱلتَّعَالِيمِ لِأَنَّ مَسَائِلَهَا وَأَعْمَالَهَا وَاضِحَةٌ كُلَّهَا وَإِذَا قُصِدَ شَرْحُهَا فَإِنَّمَا هُوَ إِعْطَاءُ ٱلْعِلَلِ فِي تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَفِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُسْرِ عَلَى ٱلْفَهْمِ مَا لَا يُوجَدُ فِي أَعْمَالِ ٱلْمَسَائِلِ فَتَأَمَّلْهُ وَٱللهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْمَتِينُ . (ومن فروعه الجبر والمقابلة) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُسْتَخْرَجُ بِهَا ٱلْعَدَدُ ٱلْمَجْهُولُ مِنْ قِبَلِ ٱلْمَعْلُومِ ٱلْمَفْرُوضِ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ تَقْتَضِي ذٰلِكَ فَٱصْطَلَحُوا فِيهَا عَلَى أَنْ جَعَلُوا لِلْمَجْهُولَاتِ مَرَاتِبَ مِنْ طَرِيقِ ٱلتَّضْعِيفِ بِٱلضَّرْبِ أَوَّلُهَا ٱلْعَدَدُ لِأَنَّهُ بِهِ يَتَعَيَّنُ ٱلْمَطْلُوبُ ٱلْمَجْهُولُ بِٱسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلْمَجْهُولِ إِلَيْهِ وَثَانِيهَا ٱلشَّيْءُ لِأَنَّ كُلَّ مَجْهُولٍ فَهُوَ مِنْ جِهَةِ إِبْهَامِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَيْضًا جِذْرٌ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ تَضْعِيفِهِ

في ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَثَالِثُهَا ٱلْمَالُ وَهُوَ أَمْرٌ مُبْهَمٌ وَمَا بَعْدَ ذٰلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْأُسِّ فِي ٱلْمَضْرُوبَيْنِ ثُمَّ يَقَعُ ٱلْعَمَلُ ٱلْمَفْرُوضُ فِي ٱلْمَسْأَلَةِ فَتَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْنَاسِ فَيُقَابِلُونَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَيَجْبُرُونَ مَا فِيهَا مِنَ ٱلْكَسْرِ حَتَّى يَصِيرَ صَحِيحًا وَيَحُطُّونَ ٱلْمَرَاتِبَ إِلَى أَقَلِّ ٱلْأُسُوسِ إِنْ أَمْكَنَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ ٱلْجَبْرِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدَدُ وَٱلشَّيْءُ وَٱلْمَالُ فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَاحِدٍ تَعَيَّنَ فَٱلْمَالُ وَٱلْجَذْرُ يَزُولُ إِبْهَامُهُ بِمُعَادَلَةِ ٱلْعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ وَٱلْمَالُ وَإِنْ عَادَلَ ٱلْجُذُورَ فَيَتَعَيَّنُ بِعِدَّتِهَا وَإِنْ كَانَتِ ٱلْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَٱثْنَيْنِ أَخْرَجَهُ ٱلْعَمَلُ ٱلْهَنْدَسِيُّ مِنْ طَرِيقِ تَفْصِيلِ ٱلضَّرْبِ فِي ٱلِٱثْنَيْنِ وَهِيَ مُبْهَمَةٌ فَيُعَيِّنُهَا ذٰلِكَ ٱلضَّرْبُ ٱلْمُفَصَّلُ وَلَا يُمْكِنُ ٱلْمُعَادَلَةُ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ وَٱثْنَيْنِ وَأَكْثَرُ مَا ٱنْتَهَتِ ٱلْمُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ مَسَائِلَ لِأَنَّ ٱلْمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجَذْرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةً أَوْ مُرَكَّبَةً تَجِيءُ سِتَّةً وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي هٰذَا ٱلْفَنِّ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلْخُوَارِزْمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ شُجَاعُ بْنُ أَسْلَمَ وَجَاءَ ٱلنَّاسُ عَلَى أَثَرِهِ فِيهِ وَكِتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ ٱلسِّتِّ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهِ وَشَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ ٱلْقُرَشِيِّ وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ بَعْضَ أَئِمَّةِ ٱلتَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ أَنْهَى ٱلْمُعَامَلَاتِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّتَّةِ ٱلْأَجْنَاسِ وَبَلَغَهَا إِلَى فَوْقِ ٱلْعِشْرِينَ وَٱسْتَخْرَجَ لَهَا كُلِّهَا أَعْمَالًا وَأَتْبَعَهُ بِبَرَاهِينَ هَنْدَسِيَّةٍ وَٱللهُ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . (ومن فروعه ايضاً المعاملات) . وَهُوَ تَصْرِيفُ ٱلْحِسَابِ فِي مُعَامَلَاتِ ٱلْمُدُنِ فِي ٱلْبِيَاعَاتِ وَٱلْمِسَاحَاتِ وَٱلزَّكَوَاتِ وَسَائِرِ مَا يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْعَدَدُ مِنَ ٱلْمُعَامَلَاتِ يُصَرَّفُ فِي صِنَاعَتَيْ ذٰلِكَ ٱلْحِسَابِ فِي ٱلْمَجْهُولِ وَٱلْمَعْلُومِ وَٱلْكَسْرِ وَٱلصَّحِيحِ وَٱلْجُذُورِ وَغَيْرِهَا وَٱلْغَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ ٱلْمَسَائِلِ ٱلْمَفْرُوضَةِ فِيهَا حُصُولُ ٱلْمِرَانِ وَٱلدُّرْبَةِ بِتَكْرَارِ ٱلْعَمَلِ حَتَّى تَرْسَخَ ٱلْمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ وَلِأَهْلِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ تَآلِيفُ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا مُعَامَلَاتُ ٱلزَّهْرَاوِيِّ وَٱبْنِ ٱلسَّمْحِ وَأَبِي مُسْلِمِ بْنِ خَلْدُونَ مِنْ تِلْمِيذِ مَسْلَمَةَ ٱلْمَجْرِيطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ (ومن فروعه ايضاً الفرائض) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ فِي تَصْحِيحِ ٱلسِّهَامِ لِذَوِي ٱلْفُرُوضِ فِي ٱلْوِرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّدَتْ وَهَلَكَ بَعْضُ ٱلْوَارِثِينَ وَٱنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى وَرَثَتِهِ أَوْ زَادَتِ ٱلْفُرُوضُ عِنْدَ ٱجْتِمَاعِهَا وَتَزَاحُمِهَا عَلَى ٱلْمَالِ كُلِّهِ أَوْ كَانَ فِي ٱلْفَرِيضَةِ إِقْرَارٌ

وَإِنْكَارٌ مِنْ بَعْضِ ٱلْوَرَثَةِ فَتَحْتَاجُ فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ إِلَى عَمَلٍ يَعَيَّنُ بِهِ سِهَامُ ٱلْفَرِيضَةِ مِنْ كَمْ تَصِحُّ وَسِهَامُ ٱلْوَرَثَةِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مُصَحَّحًا حَتَّى تَكُونَ حُظُوظُ ٱلْوَارِثِينَ مِنَ ٱلْمَالِ عَلَى نِسْبَةِ سِهَامِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ سِهَامِ ٱلْفَرِيضَةِ فَيَدْخُلُهَا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ صَحِيحِهِ وَكَسْرِهِ وَجَذْرِهِ وَمَعْلُومِهِ وَمَجْهُولِهِ وَتُرَتَّبُ عَلَى تَرْتِيبِ أَبْوَابِ ٱلْفَرَائِضِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَمَسَائِلِهَا فَتَشْتَمِلُ حِينَئِذٍ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَلَى جُزْءٍ مِنَ ٱلْفِقْهِ وَهُوَ أَحْكَامُ ٱلْوِرَاثَةِ مِنَ ٱلْفُرُوضِ وَٱلْعَوْلِ وَٱلْإِقْرَارِ وَٱلْإِنْكَارِ وَٱلْوَصَايَا وَٱلتَّدْبِيرِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ مَسَائِلِهَا وَعَلَى جُزْءٍ مِنَ ٱلْحِسَابِ وَهُوَ تَصْحِيحُ ٱلسُّهْمَانِ بِٱعْتِبَارِ ٱلْحُكْمِ ٱلْفِقْهِيِّ وَهِيَ مِنْ أَجَلِّ ٱلْعُلُومِ وَقَدْ يُورِدُ أَهْلُهَا أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً تَشْهَدُ بِفَضْلِهَا مِثْلَ ٱلْفَرَائِضُ ثُلُثُ ٱلْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَغَيْرُ ذَٰلِكَ وَعِنْدِي أَنَّ ظَوَاهِرَ تِلْكَ ٱلْأَحَادِيثِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْفَرَائِضِ ٱلْعَيْنِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ لَا فَرَائِضِ ٱلْوِرَاثَاتِ فَإِنَّهَا أَقَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ فِي كَمِّيَّتِهَا ثُلُثَ ٱلْعِلْمِ وَأَمَّا ٱلْفَرَائِضُ ٱلْعَيْنِيَّةُ فَكَثِيرَةٌ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلنَّاسُ فِي هٰذَا ٱلْفَنِّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَأَوْعَبُوا وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلتَّآلِيفِ فِيهِ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ كِتَابُ ٱبْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ ٱلْقَاضِي أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلْحَوْفِيِّ وَكِتَابُ ٱبْنِ ٱلْمُنَمَّرِ وَٱلْجَعْدِيِّ وَٱلصُّرْدِيِّ وَغَيْرِهِمْ لٰكِنَّ ٱلْفَضْلَ لِلْحَوْفِيِّ فَكِتَابُهُ مُقَدَّمٌ عَلَى جَمِيعِهَا وَقَدْ شَرَحَهُ مِنْ شُيُوخِنَا أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ سُلَيْمَانُ ٱلشَّطِّيُّ كَبِيرُ مَشْيَخَةِ فَاسَ فَأَوْضَحَ وَأَوْعَبَ وَلِإِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ فِيهَا تَآلِيفُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلشَّافِعِيِّ تَشْهَدُ بِٱتِّسَاعِ بَاعِهِ فِي ٱلْعُلُومِ وَرُسُوخِ قَدَمِهِ وَكَذَا لِلْحَنَفِيَّةِ وَٱلْحَنَابِلَةِ وَمَقَامَاتُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْعُلُومِ مُخْتَلِفَةٌ وَٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس عشر

في العلوم الهندسية

هٰذَا ٱلْعِلْمُ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْمَقَادِيرِ إِمَّا ٱلْمُتَّصِلَةِ كَٱلْخَطِّ وَٱلسَّطْحِ وَٱلْجِسْمِ وَإِمَّا ٱلْمُنْفَصِلَةِ كَٱلْأَعْدَادِ وَفِيمَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلذَّاتِيَّةِ مِثْلَ أَنَّ كُلَّ مُثَلَّثٍ فَزَوَايَاهُ مِثْلُ قَائِمَتَيْنِ وَمِثْلَ أَنَّ كُلَّ خَطَّيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ لَا يَلْتَقِيَانِ فِي وَجْهٍ وَلَوْ خَرَجَا إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ وَمِثْلَ أَنَّ كُلَّ خَطَّيْنِ مُتَقَاطِعَيْنِ فَٱلزَّاوِيَتَانِ ٱلْمُتَقَابِلَتَانِ مِنْهُمَا مُتَسَاوِيَتَانِ وَمِثْلَ أَنَّ ٱلْأَرْبَعَةَ مَقَادِيرَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ ضَرْبُ ٱلْأَوَّلِ مِنْهَا فِي ٱلثَّالِثِ كَضَرْبِ ٱلثَّانِي فِي ٱلرَّابِعِ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَٱلْكِتَابُ ٱلْمُتَرْجَمُ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كِتَابُ أُوقْلِيدِسَ وَيُسَمَّى

كِتَابَ ٱلْأُصُولِ وَكِتَابَ ٱلْأَرْكَانِ وَهُوَ أَبْسَطُ مَا وُضِعَ فِيهَا لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوَّلُ مَا تُرْجِمَ مِنْ كِتَابِ ٱلْيُونَانِيِّينَ فِي ٱلْمِلَّةِ أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ وَنُسَخُهُ مُخْتَلِفَةٌ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمُتَرْجِمِينَ فَمِنْهَا لِحُنَيْنِ بْنِ إِسْحَاقَ وَلِثَابِتِ بْنِ قُرَّةَ وَلِيُوسُفَ بْنِ ٱلْحَجَّاجِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ مَقَالَةً أَرْبَعٍ فِي ٱلسُّطُوحِ وَوَاحِدَةٍ فِي ٱلْأَقْدَارِ ٱلْمُتَنَاسِبَةِ وَأُخْرَى فِي نِسَبِ ٱلسُّطُوحِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَلَاثٍ فِي ٱلْعَدَدِ وَٱلْعَاشِرَةِ فِي ٱلْمُنْطَقَاتِ وَٱلْقُوَى عَلَى ٱلْمُنْطَقَاتِ وَمَعْنَاهُ ٱلْجُذُورُ وَخَمْسٍ فِي ٱلْمُجَسَّمَاتِ وَقَدِ ٱخْتَصَرَهُ ٱلنَّاسُ ٱخْتِصَارَاتٍ كَثِيرَةً كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ سِينَا فِي تَعَالِيمِ ٱلشِّفَاءِ أَفْرَدَ لَهُ جُزْءًا مِنْهَا ٱخْتَصَّهُ بِهِ وَكَذَلِكَ ٱبْنُ ٱلصَّلْتِ فِي كِتَابِ ٱلِٱقْتِصَارِ وَغَيْرُهُمْ وَشَرَحَهُ آخَرُونَ شُرُوحًا كَثِيرَةً وَهُوَ مَبْدَأُ ٱلْعُلُومِ ٱلْهَنْدَسِيَّةِ بِإِطْلَاقٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْهَنْدَسَةَ تُفِيدُ صَاحِبَهَا إِضَاءَةً فِي عَقْلِهِ وَٱسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا كُلَّهَا بَيِّنَةُ ٱلِٱنْتِظَامِ جَلِيَّةُ ٱلتَّرْتِيبِ لَا يَكَادُ ٱلْغَلَطُ يَدْخُلُ أَقْيِسَتَهَا لِتَرْتِيبِهَا وَٱنْتِظَامِهَا فَيَبْعُدُ ٱلْفِكْرُ بِمُمَارَسَتِهَا عَنِ ٱلْخَطَإِ وَيَنْشَأُ لِصَاحِبِهَا عَقْلٌ عَلَى ذَلِكَ ٱلْمَهْيَعِ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ أَفْلَاطُونَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُهَنْدِسًا فَلَا يَدْخُلَنَّ مَنْزِلَنَا وَكَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ ٱللهُ يَقُولُونَ مُمَارَسَةُ عِلْمِ ٱلْهَنْدَسَةِ لِلْفِكْرِ بِمَثَابَةِ ٱلصَّابُونِ لِلثَّوْبِ ٱلَّذِي يَغْسِلُ مِنْهُ ٱلْأَقْذَارَ وَيُنَقِّيهِ مِنَ ٱلْأَوْضَارِ وَٱلْأَدْرَانِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ تَرْتِيبِهِ وَٱنْتِظَامِهِ . (ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكروية والمخروطات) . أَمَّا ٱلْأَشْكَالُ ٱلْكُرَوِيَّةُ فَفِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ ٱلْيُونَانِيِّينَ لِثَاوُذُوسِيُوسَ وَمِيلَاوُشَ فِي سُطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَكِتَابُ ثَاوُذُوسِيُوسَ مُقَدَّمٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ عَلَى كِتَابِ مِيلَاوُشَ لِتَوَقُّفِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ عَلَيْهِ وَلَا بُدَّ مِنْهُمَا لِمَنْ يُرِيدُ ٱلْخَوْضَ فِي عِلْمِ ٱلْهَيْئَةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ فَٱلْكَلَامُ فِي ٱلْهَيْئَةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي ٱلْكُرَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ ٱلْقُطُوعِ وَٱلدَّوَائِرِ بِأَسْبَابِ ٱلْحَرَكَاتِ كَمَا نَذْكُرُهُ فَقَدْ يَتَوَقَّفُ عَلَى أَحْكَامِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْكُرَوِيَّةِ سُطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَأَمَّا ٱلْمَخْرُوطَاتُ فَهُوَ مِنْ فُرُوعِ ٱلْهَنْدَسَةِ أَيْضًا وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيمَا يَقَعُ فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلْمَخْرُوطَةِ مِنَ ٱلْأَشْكَالِ وَٱلْقُطُوعِ وَيُبَرْهِنُ عَلَى مَا يَعْرِضُ لِذَلِكَ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينَ هَنْدَسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَفَائِدَتُهَا تَظْهَرُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ٱلَّتِي مَوَادُّهَا ٱلْأَجْسَامُ مِثْلَ ٱلنِّجَارَةِ وَٱلْبِنَاءِ وَكَيْفَ تُصْنَعُ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلْغَرِيبَةُ وَٱلْهَيَاكِلُ ٱلنَّادِرَةُ وَكَيْفَ يُتَحَيَّلُ عَلَى جَرِّ ٱلْأَثْقَالِ وَنَقْلِ ٱلْهَيَاكِلِ

بِالْهِنْدَامِ وَالْمِيخَالِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ أَفْرَدَ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ فِي هٰذَا الْفَنِّ كِتَابًا فِي الْحِيَلِ الْعَمَلِيَّةِ يَتَضَمَّنُ مِنَ الصِّنَاعَاتِ الْغَرِيبَةِ وَالْحِيَلِ الْمُسْتَظْرَفَةِ كُلَّ عَجِيبَةٍ وَرُبَّمَا اسْتَغْلَقَ عَلَى الْفُهُومِ لِصُعُوبَةِ بَرَاهِينِهِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِأَيْدِي النَّاسِ يَنْسِبُونَهُ إِلَى بَنِي شَاكِرٍ وَاللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ (ومن فروع الهندسة المساحة) وَهُوَ فَنٌّ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مَسْحِ الْأَرْضِ وَمَعْنَاهُ اسْتِخْرَاجُ مِقْدَارِ الْأَرْضِ الْمَعْلُومَةِ بِنِسْبَةِ شِبْرٍ أَوْ ذِرَاعٍ أَوْ غَيْرِهِمَا وَنِسْبَةِ أَرْضٍ مِنْ أَرْضٍ إِذْ قُويِسَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَيُحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَوْظِيفِ الْخَرَاجِ عَلَى الْمَزَارِعِ وَالْفُدُنِ وَبَسَاتِينِ الْغِرَاسَةِ وَفِي قِسْمَةِ الْحَوَائِطِ وَالْأَرَاضِي بَيْنَ الشُّرَكَاءِ أَوِ الْوَرَثَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَلِلنَّاسِ فِيهَا مَوْضُوعَاتٌ حَسَنَةٌ وَكَثِيرَةٌ وَاللّٰهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. (المناظرة من فروع الهندسة) وَهُوَ عِلْمٌ يَتَبَيَّنُ بِهِ أَسْبَابُ الْغَلَطِ فِي الْإِدْرَاكِ الْبَصَرِيِّ بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ إِدْرَاكَ الْبَصَرِ يَكُونُ بِمَخْرُوطٍ شُعَاعِيٍّ رَأْسُهُ نُقْطَةُ الْبَاصِرِ وَقَاعِدَتُهُ الْمَرْئِيُّ ثُمَّ يَقَعُ الْغَلَطُ كَثِيرًا فِي رُؤْيَةِ الْقَرِيبِ كَبِيرًا وَالْبَعِيدِ صَغِيرًا وَكَذَا رُؤْيَةُ الْأَشْبَاحِ الصَّغِيرَةِ تَحْتَ الْمَاءِ وَوَرَاءَ الْأَجْسَامِ الشَّفَّافَةِ كَبِيرَةً وَرُؤْيَةُ النُّقْطَةِ النَّازِلَةِ مِنَ الْمَطَرِ خَطًّا مُسْتَقِيمًا وَالشُّعْلَةِ دَائِرَةً وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَيَتَبَيَّنُ فِي هٰذَا الْعِلْمِ أَسْبَابُ ذَلِكَ وَكَيْفِيَّاتُهُ بِالْبَرَاهِينِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَيَتَبَيَّنُ بِهِ أَيْضًا اخْتِلَافُ الْمَنْظَرِ فِي الْقَمَرِ بِاخْتِلَافِ الْعُرُوضِ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الْأَهِلَّةِ وَحُصُولُ الْكُسُوفَاتِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَمْثَالِ هٰذَا وَقَدْ أَلَّفَ فِي هٰذَا الْفَنِّ كَثِيرٌ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَشْهَرُ مَنْ أَلَّفَ فِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ ابْنُ الْهَيْثَمِ وَلِغَيْرِهِ أَيْضًا تَآلِيفُ وَهُوَ مِنْ هٰذِهِ الرِّيَاضَةِ وَتَفَارِيعِهَا

الفصل السادس عشر

في علم الهيئة

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَالْمُتَحَرِّكَةِ وَالْمُتَحَيِّرَةِ وَيَسْتَدِلُّ مِنْ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ عَلَى أَشْكَالٍ وَأَوْضَاعٍ لِلْأَفْلَاكِ لَزِمَتْ عَنْهَا لِهٰذِهِ الْحَرَكَاتِ الْمَحْسُوسَةِ بِطُرُقٍ هَنْدَسِيَّةٍ كَمَا يُبَرْهَنُ عَلَى أَنَّ مَرْكَزَ الْأَرْضِ مُبَايِنٌ لِمَرْكَزِ فَلَكِ الشَّمْسِ بِوُجُودِ حَرَكَةِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ وَكَمَا يُسْتَدَلُّ بِالرُّجُوعِ وَالْاِسْتِقَامَةِ لِلْكَوَاكِبِ عَلَى وُجُودِ أَفْلَاكٍ صَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ لَهَا مُتَحَرِّكَةٍ دَاخِلَ فَلَكِهَا الْأَعْظَمِ وَكَمَا يُبَرْهَنُ عَلَى وُجُودِ الْفَلَكِ الثَّامِنِ بِحَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَكَمَا يُبَرْهَنُ عَلَى تَعَدُّدِ الْأَفْلَاكِ لِلْكَوْكَبِ

ٱلْوَاحِدِ بِتَعْدَادِ ٱلْمُيُولِ لَهُ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ وَإِدْرَاكُ ٱلْمَوْجُودِ مِنَ ٱلْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِٱلرَّصْدِ فَإِنَّا إِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ ٱلْإِقْبَالِ وَٱلْإِدْبَارِ بِهِ وَكَذَا تَرْكِيبُ ٱلْأَفْلَاكِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا ٱلرُّجُوعُ وَٱلِاسْتِقَامَةُ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَكَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يَعْتَنُونَ بِٱلرَّصْدِ كَثِيرًا وَيَتَّخِذُونَ لَهُ ٱلْآلَاتِ ٱلَّتِي تُوضَعُ لِيُرْصَدَ بِهَا حَرَكَةُ ٱلْكَوْكَبِ ٱلْمُعَيَّنِ وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَاتَ ٱلْحَلَقِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِهَا وَٱلْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ ٱلْفَلَكِ مَنْقُولٌ بِأَيْدِي ٱلنَّاسِ وَأَمَّا فِي ٱلْإِسْلَامِ فَلَمْ تَقَعْ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ وَكَانَ فِي أَيَّامِ ٱلْمَأْمُونِ شَيْءٌ مِنْهُ وَصَنَعَ ٱلْآلَةَ ٱلْمَعْرُوفَةَ لِلرَّصْدِ ٱلْمُسَمَّاةَ ذَاتَ ٱلْحَلَقِ وَشَرَعَ فِي ذَٰلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأُغْفِلَ وَٱعْتَمَدَ مَنْ بَعْدَهُ عَلَى ٱلْأَرْصَادِ ٱلْقَدِيمَةِ وَلَيْسَتْ بِمُغْنِيَةٍ لِٱخْتِلَافِ ٱلْحَرَكَاتِ بِٱتِّصَالِ ٱلْأَحْقَابِ وَأَنَّ مُطَابَقَةَ حَرَكَةِ ٱلْآلَةِ لِلرَّصْدِ بِحَرَكَةِ ٱلْأَفْلَاكِ وَٱلْكَوَاكِبِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلتَّقْرِيبِ وَهَٰذِهِ ٱلْهَيْئَةُ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ وَلَيْسَتْ عَلَى مَا يُفْهَمُ فِي ٱلْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَتَرْتِيبَ ٱلْأَفْلَاكِ وَٱلْكَوَاكِبِ بِٱلْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هَٰذِهِ ٱلصُّوَرَ وَٱلْهَيْئَاتِ لِلْأَفْلَاكِ لَزِمَتْ عَنْ هَٰذِهِ ٱلْحَرَكَاتِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلْوَاحِدُ لَازِمًا لِمُخْتَلِفَيْنِ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ ٱلْحَرَكَاتِ لَازِمَةٌ فَهُوَ ٱسْتِدْلَالٌ بِٱللَّازِمِ عَلَى وُجُودِ ٱلْمَلْزُومِ وَلَا يُعْطِي ٱلْحَقِيقَةَ بِوَجْهٍ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ ٱلتَّعَالِيمِ وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلتَّآلِيفِ فِيهِ كِتَابُ ٱلْمَجِسْطِي مَنْسُوبٌ لِبَطْلِيمُوسَ وَلَيْسَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْيُونَانِ ٱلَّذِينَ أَسْمَاؤُهُمْ بَطْلِيمُوسُ عَلَى مَا حَقَّقَهُ شُرَّاحُ ٱلْكِتَابِ وَقَدِ ٱخْتَصَرَهُ ٱلْأَئِمَّةُ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ سِينَا وَأَدْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ ٱلشِّفَاءِ وَلَخَّصَهُ ٱبْنُ رُشْدٍ أَيْضًا مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱبْنُ ٱلسَّمْحِ وَٱبْنُ ٱلصَّلْتِ فِي كِتَابِ ٱلِاقْتِصَارِ وَلِٱبْنِ ٱلْفَرْغَانِيِّ هَيْئَةٌ مُلَخَّصَةٌ قَرَّبَهَا وَحَذَفَ بَرَاهِينَهَا ٱلْهَنْدَسِيَّةَ وَٱللهُ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ سُبْحَانَهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ. (ومن فروعه علم الازياج) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ عَلَى قَوَانِينَ عَدَدِيَّةٍ فِيمَا يَخُصُّ كُلَّ كَوْكَبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ بُرْهَانُ ٱلْهَيْئَةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةٍ وَبُطْءٍ وَٱسْتِقَامَةٍ وَرُجُوعٍ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ يُعْرَفُ بِهِ مَوَاضِعُ ٱلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا لِأَيِّ وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قِبَلِ حُسْبَانِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ ٱلْهَيْئَةِ وَلِهَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ قَوَانِينُ كَٱلْمُقَدِّمَاتِ وَٱلْأُصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ ٱلشُّهُورِ وَٱلْأَيَّامِ

وَٱلتَّوَارِيخِ ٱلْمَاضِيَةِ وَأُصُولٌ مُتَقَرِّرَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْأَوْجِ وَٱلْحَضِيضِ وَٱلْمُيُولِ وَأَصْنَافِ ٱلْحَرَكَاتِ وَٱسْتِخْرَاجِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَضَعُونَهَا فِي جَدَاوِلَ مُرَتَّبَةٍ تَسْهِيلاً عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَتُسَمَّى ٱلْأَزْيَاجَ وَيُسَمَّى ٱسْتِخْرَاجُ مَوَاضِعِ ٱلْكَوَاكِبِ لِلْوَقْتِ ٱلْمَفْرُوضِ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ تَعْدِيلاً وَتَقْوِيماً وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ ٱلْبَتَّانِيِّ(١) وَٱبْنِ ٱلْكَمَّادِ وَقَدْ عَوَّلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَغْرِبِ عَلَى زِيجٍ مَنْسُوبٍ لِٱبْنِ إِسْحٰقَ مِنْ مُنَجِّمِي تُونِسَ فِي أَوَّلِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ٱبْنَ إِسْحَاقَ عَوَّلَ فِيهِ عَلَى ٱلرَّصْدِ وَأَنَّ يَهُودِيّاً كَانَ بِصِقِلِّيَةَ مَاهِرًا فِي ٱلْهَيْئَةِ وَٱلتَّعَالِيمِ وَكَانَ قَدْ عُنِيَ بِٱلرَّصْدِ وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ بِمَا يَقَعُ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْكَوَاكِبِ وَحَرَكَاتِهَا فَكَانَ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ لِذٰلِكَ عُنُوا بِهِ لِوَثَاقَةِ مَبْنَاهُ عَلَى مَا يَزْعُمُونَ وَلَخَّصَهُ ٱبْنُ ٱلْبَنَّاءِ فِي آخَرَ سَمَّاهُ ٱلْمِنْهَاجَ فَوَلِعَ بِهِ ٱلنَّاسُ لِمَا سَهُلَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ فِيهِ وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى مَوَاضِعِ ٱلْكَوَاكِبِ مِنَ ٱلْفَلَكِ لِتَنْبَنِيَ عَلَيْهَا ٱلْأَحْكَامُ ٱلنُّجُومِيَّةُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ ٱلْآثَارِ ٱلَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا بِأَوْضَاعِهَا فِي عَالَمِ ٱلْإِنْسَانِ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ وَٱلْمَوَالِيدِ ٱلْبَشَرِيَّةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ وَنُوضِحُ فِيهِ أَدِلَّتَهُمْ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ

الفصل السابع عشر

في علم المنطق

وَهُوَ قَوَانِينُ يُعْرَفُ بِهَا ٱلصَّحِيحُ مِنَ ٱلْفَاسِدِ فِي ٱلْحُدُودِ ٱلْمُعَرِّفَةِ لِلْمَاهِيَّاتِ وَٱلْحُجَجِ ٱلْمُفِيدَةِ لِلتَّصْدِيقَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي ٱلْإِدْرَاكِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْمَحْسُوسَاتُ بِٱلْحَوَاسِّ ٱلْخَمْسِ وَجَمِيعُ ٱلْحَيَوَانَاتِ مُشْتَرِكَةٌ فِي هٰذَا ٱلْإِدْرَاكِ مِنَ ٱلنَّاطِقِ وَغَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَتَمَيَّزُ ٱلْإِنْسَانُ عَنْهَا بِإِدْرَاكِ ٱلْكُلِّيَّاتِ وَهِيَ مُجَرَّدَةٌ مِنَ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَذٰلِكَ بِأَنْ يَحْصُلَ فِي ٱلْخَيَالِ مِنَ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمُتَّفِقَةِ صُورَةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمَحْسُوسَةِ وَهِيَ ٱلْكُلِّيُّ ثُمَّ يَنْظُرُ ٱلذِّهْنُ بَيْنَ تِلْكَ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمُتَّفِقَةِ وَأَشْخَاصٍ أُخْرَى تُوَافِقُهَا فِي بَعْضٍ فَيَحْصُلُ لَهُ صُورَةٌ تَنْطَبِقُ أَيْضاً عَلَيْهِمَا بِٱعْتِبَارِ مَا ٱتَّفَقَا فِيهِ وَلَا يَزَالُ يَرْتَقِي فِي ٱلتَّجْرِيدِ إِلَى ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي لَا يَجِدُ كُلِّيّاً آخَرَ مَعَهُ يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ لِأَجْلِ ذٰلِكَ بَسِيطاً وَهٰذَا مِثْلُ مَا يُجَرَّدُ مِنْ أَشْخَاصِ ٱلْإِنْسَانِ صُورَةُ ٱلنَّوْعِ ٱلْمُنْطَبِقَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَهُ

١ قوله البتاني بفتح الموحدة وتشديد المثناة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل اخر المحمدين

وَبَيْنَ ٱلْحَيَوَانِ وَيُجَرِّدُ صُورَةَ ٱلْجِنْسِ ٱلْمُنْطَبِقَةَ عَلَيْهَا ثُمَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلنَّبَاتِ إِلَى ان يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْجِنْسِ ٱلْعَالِي وَهُوَ ٱلْجَوْهَرُ فَلَا يَجِدُ كُلِّيًّا يُوَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقِفُ ٱلْعَقْلُ هُنَالِكَ عَنِ ٱلتَّجْرِيدِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَمَّا خَلَقَ ٱللهُ لَهُ ٱلْفِكْرَ ٱلَّذِي بِهِ يُدْرِكُ ٱلْعُلُومَ وَٱلصَّنَائِعَ وَكَانَ ٱلْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّرًا لِلْمَاهِيَّاتِ وَيُعْنَى بِهِ إِدْرَاكٌ سَاذَجٌ مِنْ غَيْرِ حُكْمٍ مَعَهُ وَإِمَّا تَصْدِيقًا أَيْ حُكْمًا بِثُبُوتِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ ٱلْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ ٱلْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ تُجْمَعَ تِلْكَ ٱلْكُلِّيَّاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّأْلِيفِ فَتَحْصُلُ صُورَةٌ فِي ٱلذِّهْنِ كُلِّيَّةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى أَفْرَادٍ فِي ٱلْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ تِلْكَ ٱلْأَشْخَاصِ وَإِمَّا بِأَنْ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيَثْبُتَ لَهُ وَيَكُونُ ذَلِكَ تَصْدِيقًا وَغَايَتُهُ فِي ٱلْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ فَائِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ مُقْتَضَى ٱلْعِلْمِ وَهَذَا ٱلسَّعْيُ مِنَ ٱلْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ فَاسِدٍ فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَمْيِيزَ ٱلطَّرِيقِ ٱلَّذِي يَسْعَى بِهِ ٱلْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ ٱلْمَطَالِبِ ٱلْعِلْمِيَّةِ لِيَتَمَيَّزَ ٱلصَّحِيحُ مِنَ ٱلْفَاسِدِ فَكَانَ ذَلِكَ قَانُونَ ٱلْمَنْطِقِ وَتَكَلَّمَ فِيهِ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ جُمَلًا جُمَلًا وَمُفْتَرِقًا وَلَمْ تُهَذَّبْ طُرُقُهُ وَلَمْ تُجْمَعْ مَسَائِلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرِسْطُو فَهَذَّبَ مَبَاحِثَهُ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصُولَهُ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ ٱلْعُلُومِ ٱلْحِكْمِيَّةِ وَفَاتِحَتَهَا وَلِذَلِكَ يُسَمَّى بِٱلْمُعَلِّمِ ٱلْأَوَّلِ وَكِتَابُهُ ٱلْمَخْصُوصُ بِٱلْمَنْطِقِ يُسَمَّى ٱلنَّصَّ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا فِي صُورَةِ ٱلْقِيَاسِ وَأَرْبَعَةٍ فِي مَادَّتِهِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْمَطَالِبَ ٱلتَّصْدِيقِيَّةَ عَلَى أَنْحَاءٍ. فَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلْيَقِينُ بِطَبْعِهِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلظَّنُّ وَهُوَ عَلَى مَرَاتِبَ فَيُنْظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَطْلُوبُ ٱلَّذِي يُفِيدُهُ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ بِذَلِكَ ٱلْاعْتِبَارِ وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ يَكُونُ مِنَ ٱلْعِلْمِ أَوْ مِنَ ٱلظَّنِّ وَقَدْ يُنْظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ لَا بِٱعْتِبَارِ مَطْلُوبٍ مَخْصُوصٍ بَلْ مِنْ جِهَةِ إِنْتَاجِهِ خَاصَّةً وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ ٱلْأَوَّلِ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَادَّةُ وَنَعْنِي بِهِ ٱلْمَادَّةَ ٱلْمُنْتِجَةَ لِلْمَطْلُوبِ ٱلْمَخْصُوصِ مِنْ يَقِينٍ أَوْ ظَنٍّ وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ ٱلثَّانِي إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ ٱلصُّورَةُ وَإِنْتَاجُ ٱلْقِيَاسِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ فَكَانَتْ لِذَلِكَ كُتُبُ ٱلْمَنْطِقِ ثَمَانِيَةً . ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْأَجْنَاسِ ٱلْعَالِيَةِ ٱلَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا تَجْرِيدُ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا جِنْسٌ وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْمَقُولَاتِ . وَٱلثَّانِي فِي ٱلْقَضَايَا ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَأَصْنَافِهَا وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْعِبَارَةِ . وَٱلثَّالِثُ فِي ٱلْقِيَاسِ وَصُورَةِ إِنْتَاجِهِ عَلَى

ٱلإِطْلَاقِ وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْقِيَاسِ وَهٰذَا آخِرُ ٱلنَّظَرِ مِنْ حَيْثُ ٱلصُّورَةُ . ثُمَّ ٱلرَّابِعُ كِتَابُ ٱلْبُرْهَانِ وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ ٱلْمُنْتِجِ لِلْيَقِينِ وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ يَقِينِيَّةً وَيَخْتَصُّ بِشُرُوطٍ أُخْرَى لِإِفَادَةِ ٱلْيَقِينِ مَذْكُورَةٍ فِيهِ مِثْلِ كَوْنِهَا ذَاتِيَّةً وَأَوَّلِيَّةً وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَفِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْمُعَرِّفَاتِ وَٱلْحُدُودِ إِذِ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْيَقِينُ لِوُجُوبِ ٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْحَدِّ وَٱلْمَحْدُودِ لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَهَا فَلِذٰلِكَ ٱخْتُصَّتْ عِنْدَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِهٰذَا ٱلْكِتَابِ . وَٱلْخَامِسُ كِتَابُ ٱلْجَدَلِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُفِيدُ قَطْعَ ٱلْمُشَاغِبِ وَإِفْحَامَ ٱلْخَصْمِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَيَخْتَصُّ أَيْضًا مِنْ جِهَةِ إِفَادَتِهِ لِهٰذَا ٱلْغَرَضِ بِشُرُوطٍ أُخْرَى مِنْ حَيْثُ إِفَادَتُهُ لِهٰذَا ٱلْغَرَضِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَفِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ يُذْكَرُ ٱلْمَوَاضِعُ ٱلَّتِي يَسْتَنْبِطُ مِنْهَا صَاحِبُ ٱلْقِيَاسِ قِيَاسَهُ وَفِيهِ عُكُوسُ ٱلْقَضَايَا . وَٱلسَّادِسُ كِتَابُ ٱلسَّفْسَطَةِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يُفِيدُ خِلَافَ ٱلْحَقِّ وَيُغَالِطُ بِهِ ٱلْمُنَاظِرُ صَاحِبَهُ وَهُوَ فَاسِدٌ وَهٰذَا إِنَّمَا كُتِبَ لِيُعْرَفَ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُغَالِطِيُّ فَيُحْذَرُ مِنْهُ . وَٱلسَّابِعُ كِتَابُ ٱلْخَطَابَةِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُفِيدُ تَرْغِيبَ ٱلْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى ٱلْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَقَالَاتِ . وَٱلثَّامِنُ كِتَابُ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلتَّمْثِيلَ وَٱلتَّشْبِيهَ خَاصَّةً لِلْإِقْبَالِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلنُّفْرَةِ عَنْهُ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ ٱلْقَضَايَا ٱلتَّخْيِيلِيَّةِ هٰذِهِ هِيَ كُتُبُ ٱلْمَنْطِقِ ٱلثَّمَانِيَةُ عِنْدَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ثُمَّ إِنَّ حُكَمَاءَ ٱلْيُونَانِيِّينَ بَعْدَ أَنْ تَهَذَّبَتِ ٱلصِّنَاعَةُ وَرُتِّبَتْ رَأَوْا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْكُلِّيَّاتِ ٱلْخَمْسِ ٱلْمُفِيدَةِ لِلتَّصَوُّرِ فَٱسْتَدْرَكُوا فِيهَا مَقَالَةً تَخْتَصُّ بِهَا مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفَنِّ فَصَارَتْ تِسْعًا وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَكَتَبَهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَاسِفَةُ ٱلْإِسْلَامِ بِٱلشَّرْحِ وَٱلتَّلْخِيصِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْفَارَابِيُّ وَٱبْنُ سِينَا ثُمَّ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَلِٱبْنِ سِينَا كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ ٱسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلسَّبْعَةَ كُلَّهَا ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا ٱصْطِلَاحَ ٱلْمَنْطِقِ وَأَلْحَقُوا بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكُلِّيَّاتِ ٱلْخَمْسِ ثَمَرَتَهُ وَهِيَ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ نَقَلُوهَا مِنْ كِتَابِ ٱلْبُرْهَانِ وَحَذَفُوا كِتَابَ ٱلْمَقُولَاتِ لِأَنَّ نَظَرَ ٱلْمَنْطِقِيِّ فِيهِ بِٱلْعَرَضِ لَا بِٱلذَّاتِ وَأَلْحَقُوا فِي كِتَابِ ٱلْعِبَارَةِ ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْعَكْسِ لِأَنَّهُ مِنْ تَوَابِعِ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْقَضَايَا بِبَعْضِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ إِنْتَاجُهُ لِلْمَطَالِبِ عَلَى ٱلْعُمُومِ لَا بِحَسَبِ مَادَّةٍ وَحَذَفُوا ٱلنَّظَرَ فِيهِ

بِحَسَبِ ٱلْمَادَّةِ وَهِيَ ٱلْكُتُبُ ٱلْخَمْسَةُ ٱلْبُرْهَانُ وَٱلْجَدَلُ وَٱلْخِطَابَةُ وَٱلشِّعْرُ وَٱلسَّفْسَطَةُ وَرُبَّمَا يُلِمُّ بَعْضُهُمْ بِٱلْيَسِيرِ مِنْهَا إِلْمَامًا وَأَغْفَلُوهَا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَهِيَ ٱلْمُهِمُّ ٱلْمُعْتَمَدُ فِي ٱلْفَنِّ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِيمَا وَضَعُوهُ مِنْ ذٰلِكَ كَلَامًا مُسْتَبْحِرًا وَنَظَرُوا فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَنٌّ بِرَأْسِهِ لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ آلَةٌ لِلْعُلُومِ فَطَالَ ٱلْكَلَامُ فِيهِ وَٱتَّسَعَ وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ وَمَنْ بَعْدَهُ أَفْضَلُ ٱلدِّينِ ٱلْخُونَجِيُّ وَعَلَى كُتُبِهِ مُعْتَمَدُ ٱلْمَشَارِقَةِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كِتَابُ كَشْفِ ٱلْأَسْرَارِ وَهُوَ طَوِيلٌ وَٱخْتَصَرَ فِيهَا مُخْتَصَرَ ٱلْمُوجَزِ وَهُوَ حَسَنٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ثُمَّ مُخْتَصَرَ ٱلْجُمَلِ فِي قَدْرِ أَرْبَعَةِ أَوْرَاقٍ أَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْفَنِّ وَأُصُولِهِ فَتَدَاوَلَهُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ وَهُجِرَتْ كُتُبُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَطُرُقُهُمْ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَهِيَ مُمْتَلِئَةٌ مِنْ ثَمَرَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَفَائِدَتِهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْهَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن عشر

في الطبيعيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ ٱلْجِسْمِ مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ ٱلْحَرَكَةِ وَٱلسُّكُونِ فَيَنْظُرُ فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَٱلْعُنْصُرِيَّةِ وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَإِنْسَانٍ وَنَبَاتٍ وَمَعْدِنٍ وَمَا يَتَكَوَّنُ فِي ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْعُيُونِ وَٱلزَّلَازِلِ وَفِي ٱلْجَوِّ مِنَ ٱلسَّحَابِ وَٱلْبُخَارِ وَٱلرَّعْدِ وَٱلْبَرْقِ وَٱلصَّوَاعِقِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَفِي مَبْدَإِ ٱلْحَرَكَةِ لِلْأَجْسَامِ وَهُوَ عَلَى تَنَوُّعِهَا فِي ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ وَكُتُبُ أَرِسْطُو فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي ٱلنَّاسِ تُرْجِمَتْ مَعَ مَا تُرْجِمَ مِنْ عُلُومِ ٱلْفَلْسَفَةِ أَيَّامَ ٱلْمَأْمُونِ وَأَلَّفَ ٱلنَّاسُ عَلَى حَذْوِهَا وَأَوْعَبُ مَنْ أَلَّفَ فِي ذٰلِكَ ٱبْنُ سِينَا فِي كِتَابِ ٱلشِّفَاءِ جَمَعَ فِيهِ ٱلْعُلُومَ ٱلسَّبْعَةَ لِلْفَلَاسِفَةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ ٱلنَّجَا وَفِي كِتَابِ ٱلْإِشَارَاتِ وَكَأَنَّهُ يُخَالِفُ أَرِسْطُو فِي ٱلْكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِهَا وَيَقُولُ بِرَأْيِهِ فِيهَا وَأَمَّا ٱبْنُ رُشْدٍ فَلَخَّصَ كُتُبَ أَرِسْطُو وَشَرَحَهَا مُتَّبِعًا لَهُ غَيْرَ مُخَالِفٍ وَأَلَّفَ ٱلنَّاسُ فِي ذٰلِكَ كَثِيرًا لٰكِنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلْمَشْهُورَةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَٱلْمُعْتَبَرَةُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَلِأَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ عِنَايَةٌ بِكِتَابِ ٱلْإِشَارَاتِ لِٱبْنِ سِينَا وَلِلْإِمَامِ ٱبْنِ ٱلْخَطِيبِ عَلَيْهِ شَرْحٌ حَسَنٌ وَكَذَا ٱلْآمِدِيُّ وَشَرَحَهُ أَيْضًا نَصِيرُ ٱلدِّينِ ٱلطُّوسِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ بِخَوَاجَه مِنْ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ وَبَحَثَ مَعَ ٱلْإِمَامِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهِ فَأَوْفَى عَلَى أَنْظَارِهِ وَبُحُوثِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

وَٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل التاسع عشر

في علم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ ٱلطِّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَمْرَضُ وَيَصِحُّ فَيُحَاوِلُ صَاحِبُهَا حِفْظَ ٱلصِّحَّةِ وَبُرْءَ ٱلْمَرَضِ بِٱلْأَدْوِيَةِ وَٱلْأَغْذِيَةِ بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ ٱلْمَرَضَ ٱلَّذِي يَخُصُّ كُلَّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ ٱلْبَدَنِ وَأَسْبَابَ تِلْكَ ٱلْأَمْرَاضِ ٱلَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ ٱلْأَدْوِيَةِ مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذٰلِكَ بِأَمْزِجَةِ ٱلْأَدْوِيَةِ وَقُوَاهَا وَعَلَى ٱلْمَرَضِ بِٱلْعَلَامَاتِ ٱلْمُؤْذِنَةِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ ٱلدَّوَاءَ أَوَّلاً فِي ٱلسَّحْنَةِ وَٱلْفَضَلَاتِ وَٱلنَّبْضِ مُحَاذِينَ لِذٰلِكَ قُوَّةَ ٱلطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا ٱلْمُدَبِّرَةُ فِي حَالَتَيِ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَإِنَّمَا ٱلطَّبِيبُ يُحَاذِيهَا وَيُعِينُهَا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ ٱلْمَادَّةِ وَٱلْفَصْلِ وَٱلسِّنِّ وَيُسَمَّى ٱلْعِلْمُ ٱلْجَامِعُ لِهٰذَا كُلِّهِ عِلْمَ ٱلطِّبِّ وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضَ ٱلْأَعْضَاءِ بِٱلْكَلَامِ وَجَعَلُوهُ عِلْماً خَاصّاً كَٱلْعَيْنِ وَعِلَلِهَا وَأَكْحَالِهَا وَكَذٰلِكَ أَلْحَقُوا بِٱلْفَنِّ مِنْ مَنَافِعِ ٱلْأَعْضَاءِ وَمَعْنَاهَا ٱلْمَنْفَعَةَ ٱلَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ كُلُّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ ٱلْبَدَنِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ ٱلطِّبِّ إِلَّا أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ وَإِمَامُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلَّتِي تُرْجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ ٱلْأَقْدَمِينَ جَالِينُوسُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِراً لِعِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصِقِلِّيَّةَ فِي سَبِيلِ تَغَلُّبٍ وَمُطَاوَعَةِ ٱغْتِرَابٍ وَتَآلِيفُهُ فِيهَا هِيَ ٱلْأُمَّهَاتُ ٱلَّتِي ٱقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ ٱلْأَطِبَّاءِ بَعْدَهُ وَكَانَ فِي ٱلْإِسْلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَئِمَّةٌ جَاءُوا مِنْ وَرَاءِ ٱلْغَايَةِ مِثْلَ ٱلرَّازِي وَٱلْمَجُوسِيِّ وَٱبْنِ سِينَا وَمِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيرٌ وَأَشْهَرُهُمْ ٱبْنُ زُهْرٍ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ كَأَنَّهَا نَقَصَتْ لِوُقُوفِ ٱلْعُمْرَانِ وَتَنَاقُصِهِ وَهِيَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي لَا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا ٱلْحَضَارَةُ وَٱلتَّرَفُ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ .

وَلِلْبَادِيَةِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ طِبٌّ يَبْنُونَهُ فِي غَالِبِ ٱلْأَمْرِ عَلَى تَجْرِبَةٍ قَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ ٱلْأَشْخَاصِ مُتَوَارَثاً عَنْ مَشَايِخِ ٱلْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ وَرُبَّمَا يَصِحُّ مِنْهُ ٱلْبَعْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى قَانُونٍ طَبِيعِيٍّ وَلَا عَلَى مُوَافَقَةِ ٱلْمِزَاجِ وَكَانَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ مِنْ هٰذَا ٱلطِّبِّ كَثِيرٌ وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ مَعْرُوفُونَ كَٱلْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَغَيْرِهِ وَٱلطِّبُّ ٱلْمَنْقُولُ فِي ٱلشَّرْعِيَّاتِ مِنْ هٰذَا ٱلْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ ٱلْوَحْيِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ كَانَ عَادِيّاً لِلْعَرَبِ وَوَقَعَ فِي

ذِكْرِ أَحْوَالِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْعِ ذِكْرِ أَحْوَالِهِ ٱلَّتِي هِيَ عَادَةٌ وَجِبِلَّةٌ لَا مِنْ جِهَةِ أَنَّ ذٰلِكَ مَشْرُوعٌ عَلَى ذٰلِكَ ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلْعَمَلِ فَإِنَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا بُعِثَ لِيُعَلِّمَنَا ٱلشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبْعَثْ لِتَعْرِيفِ ٱلطِّبِّ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ ٱلْعَادِيَّاتِ وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي شَأْنِ تَلْقِيحِ ٱلنَّخْلِ مَا وَقَعَ فَقَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ شَيْءٌ مِنَ ٱلطِّبِّ ٱلَّذِي وَقَعَ فِي ٱلْأَحَادِيثِ ٱلْمَنْقُولَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ٱللّٰهُمَّ إِلَّا إِذَا ٱسْتُعْمِلَ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبَرُّكِ وَصِدْقِ ٱلْعَقْدِ ٱلْإِيمَانِيِّ فَيَكُونُ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي ٱلنَّفْعِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ فِي ٱلطِّبِّ ٱلْمِزَاجِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ آثَارِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ ٱلْمَبْطُونِ بِٱلْعَسَلِ وَٱللهُ ٱلْهَادِي إِلَى ٱلصَّوَابِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل العشرون

في الفلاحة

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَتُهُ وَنُشُوؤُهُ بِٱلسَّقْيِ وَٱلْعِلَاجِ وَتَعَهُّدُهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ ٱلنَّظَرُ فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِّهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ ٱلْكَوَاكِبِ وَٱلْهَيَاكِلِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ ذٰلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ ٱلسِّحْرِ فَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذٰلِكَ وَتُرْجِمَ مِنْ كُتُبِ ٱلْيُونَانِيِّينَ كِتَابُ ٱلْفِلَاحَةِ ٱلنَّبَطِيَّةِ مَنْسُوبَةً لِعُلَمَاءِ ٱلنَّبَطِ مُشْتَمِلَةً مِنْ ذٰلِكَ عَلَى عِلْمٍ كَبِيرٍ وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ ٱلْمِلَّةِ فِيمَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ ٱلسِّحْرِ مَسْدُودًا وَٱلنَّظَرُ فِيهِ مَحْظُورًا فَٱقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلَاجِهِ وَمَا يَعْرِضُ لَهُ فِي ذٰلِكَ وَحَذَفُوا ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْفَنِّ ٱلْآخَرِ مِنْهُ جُمْلَةً وَٱخْتَصَرَ ٱبْنُ ٱلْعَوَّامِ كِتَابَ ٱلْفِلَاحَةِ ٱلنَّبَطِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلْمِنْهَاجِ وَبَقِيَ ٱلْفَنُّ ٱلْآخَرُ مِنْهُ مُغْفَلًا نَقَلَ مِنْهُ مَسْلَمَةُ فِي كُتُبِهِ ٱلسِّحْرِيَّةِ أُمَّهَاتٍ مِنْ مَسَائِلِهِ كَمَا نَذْكُرُهُ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلسِّحْرِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى وَكُتُبُ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِي ٱلْفِلَاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا يَعْدُونَ فِيهَا ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْغِرَاسِ وَٱلْعِلَاجِ وَحِفْظِ ٱلنَّبَاتِ مِنْ جَوَائِحِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَعْرِضُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ

الفصل الحادي والعشرون

في علم الالهيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَنظُرُ فِي الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ فَأَوَّلاً فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ لِلْجِسْمَانِيَّاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ مِنَ الْمَاهِيَّاتِ وَالْوَحْدَةِ وَالْكَثْرَةِ وَالْوُجُوبِ وَالْإِمْكَانِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ ثُمَّ يَنظُرُ فِي مَبَادِئِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَنَّهَا رُوحَانِيَّاتٌ ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَمَرَاتِبِهَا ثُمَّ فِي أَحْوَالِ النَّفْسِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَجْسَامِ وَعَوْدِهَا إِلَى الْمَبْدَإِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُوقِفُهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ الْوُجُودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ عَيْنُ السَّعَادَةِ فِي زَعْمِهِمْ وَسَيَأْتِي الرَّدُّ عَلَيْهِمْ وَهُوَ تَالٍ لِلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَهُ عِلْمَ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ وَكُتُبُ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَلَخَّصَهُ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَا وَكَذٰلِكَ لَخَّصَهُ ابْنُ رُشْدٍ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَلَمَّا وَضَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِي عُلُومِ الْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا وَرَدَّ عَلَيْهِمِ الْغَزَالِيُّ مَا رَدَّ مِنْهَا ثُمَّ خَلَطَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ الْإِلٰهِيَّاتِ وَمَسَائِلَهُ بِمَسَائِلِهَا فَصَارَتْ كَأَنَّهَا فَنٌّ وَاحِدٌ ثُمَّ غَيَّرُوا تَرْتِيبَ الْحُكَمَاءِ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلٰهِيَّاتِ وَخَلَطُوهُمَا فَنًّا وَاحِدًا قَدَّمُوا الْكَلَامَ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ثُمَّ أَتْبَعُوهُ بِالْجِسْمَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا ثُمَّ بِالرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا إِلَى آخِرِ الْعِلْمِ كَمَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْمَبَاحِثِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَجَمِيعُ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَصَارَ عِلْمُ الْكَلَامِ مُخْتَلِطًا بِمَسَائِلِ الْحِكْمَةِ وَكُتُبُهُ مَحْشُوَّةً بِهَا كَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ مَوْضُوعِهِمَا وَمَسَائِلِهِمَا وَاحِدٌ وَالْتَبَسَ ذٰلِكَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ صَوَابٌ لِأَنَّ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ إِنَّمَا هِيَ عَقَائِدُ مُتَلَقَّاةٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ كَمَا نَقَلَهَا السَّلَفُ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ فِيهَا إِلَى الْعَقْلِ وَلَا تَعْوِيلٍ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِهِ فَإِنَّ الْعَقْلَ مَعْزُولٌ عَنِ الشَّرْعِ وَأَنْظَارِهِ وَمَا تَحَدَّثَ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَجِ فَلَيْسَ بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ فِيهَا فَالتَّعْلِيلُ بِالدَّلِيلِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا هُوَ شَأْنُ الْفَلْسَفَةِ بَلْ إِنَّمَا هُوَ الْتِمَاسُ حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ تَعْضُدُ عَقَائِدَ الْإِيمَانِ وَمَذَاهِبَ السَّلَفِ فِيهَا وَتَدْفَعُ شُبَهَ أَهْلِ الْبِدَعِ عَنْهَا الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مَدَارِكَهُمْ فِيهَا عَقْلِيَّةٌ وَذٰلِكَ بَعْدَ أَنْ تُفْرَضَ صَحِيحَةً بِالْأَدِلَّةِ النَّقْلِيَّةِ كَمَا تَلَقَّاهَا السَّلَفُ وَاعْتَقَدُوهَا وَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ مَدَارِكَ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ أَوْسَعُ لِاتِّسَاعِ نِطَاقِهَا عَنْ مَدَارِكِ الْأَنْظَارِ الْعَقْلِيَّةِ

فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها فإذا هدانا الشارع إلى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادا وعلما ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها وأما النظر في مسائل الطبيعيات والإلهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين فاعلم ذلك لتميز به بين الفنين فإنهما مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتقاد بالدليل وليس كذلك بل إنما هو رد على الملحدين والمطلوب مفروض الصدق معلومه وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضا فخلطوا مسائل الفنين بفنهم وجعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم في النبوءات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لأنهم يدعون فيها الوجدان ويفرون عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه والله يهدي من يشاء إلى طريق مستقيم والله أعلم بالصواب

الفصل الثاني والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وهي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقودة بين الناس

إلا ما وجد في كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام مثل النبط
والكلدانيين فإن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤوا بالأحكام
إنما كانت كتبهم مواعظ وتوحيدا لله وتذكيرا بالجنة والنار وكانت هذه العلوم
في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم وكان
لهم فيها التآليف والآثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحة
النبطية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد
ذلك الأوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندي في صور
الدرج والكواكب وغيرها ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه
الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص في زبدتها واستخرجها ووضع فيها
غيرها من التآليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها لأن
إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة
العملية فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه ثم جاء مسلمة بن أحمد
المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب
وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد في هذا
العلم بعده ولنقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر وذلك أن النفوس البشرية
وإن كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف مختص
بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة
لصنفها فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية
ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر وما يتبع في ذلك
من التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير
بقوة نفسانية أو شيطانية فأما تأثير الأنبياء فمدد إلهي وخاصية ربانية ونفوس
الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف
مختص بخاصية لا توجد في الآخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتي شرحها
فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة
السحر والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه

الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول والثالث تأثير في القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك كما يحكى عن بعضهم أنه يري البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة . هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له والوجهة إلى غير الله كفر فلهذا كان السحر كفرا والكفر من مواده وأسبابه كما رأيت ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد في الأكوان والكل حاصل منه ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو إنما هو تخييل فالقائلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم . واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان فأنزل الله عز وجل عليه في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها كان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين

فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة
موسى عليه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون
فيه وبقي من آثار ذلك في البراري بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعيان
من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة
بالمسحور وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم
على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى ثم ينفث من ريقه
بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على
ذلك المعنى في سبب أعده لذلك تفاؤلاً بالعقد واللزام وأخذ العهد على من أشرك
به من الجن في نفثه في فعله ذلك استشعاراً للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والأسماء
السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتنزل
عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضاً من
المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فإذا
هو مقطوع متخرق ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فإذا أمعاؤها ساقطة
من بطونها إلى الأرض وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحتت
قلبه ويقع ميتاً وينقلب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا
يوجد من حبوبها شيء وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر
السحاب فيمطر الأرض المخصوصة وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في
الأعداد المتحابة وهي رك رف د أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان
وأربعة وثمانون ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلث
وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان مساوياً للعدد الآخر صاحبه فتسمى
لأجل ذلك المتحابة ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الألفة بين
المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو
شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويضع على
أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر ويقصد بالأكثر الذي يراد
ائتلافه أعني المحبوب ما أدري الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء فيكون لذلك

مِنَ ٱلتَّآلُفِ ٱلْعَظِيمِ بَيْنَ ٱلْمُتَحَابِّيْنِ مَا لَا يَكَادُ يَنْفَكُّ أَحَدُهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ قَالَهُ صَاحِبُ ٱلْغَايَةِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ هٰذَا ٱلشَّأْنِ وَشَهِدَتْ لَهُ ٱلتَّجْرِبَةُ وَكَذَا طَابَعُ ٱلْأَسَدِ وَيُسَمَّى أَيْضًا طَابَعَ ٱلْحَصَى وَهُوَ أَنْ يُرْسَمَ فِي قَالَبِ هِنْد اصبع صُورَةُ أَسَدٍ شَائِلًا ذَنَبَهُ عَاضًّا عَلَى حَصَاةٍ قَدْ قَسَمَهَا بِنِصْفَيْنِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ صُورَةُ حَيَّةٍ مُنْسَابَةٍ مِنْ رِجْلَيْهِ إِلَى قُبَالَةِ وَجْهِهِ فَاغِرَةً فَاهَا فِيهِ وَعَلَى ظَهْرِهِ صُورَةُ عَقْرَبٍ تَدُبُّ وَيَتَحَيَّنُ بِرَسْمِهِ حُلُولَ ٱلشَّمْسِ بِٱلْوَجْهِ ٱلْأَوَّلِ أَوِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلْأَسَدِ بِشَرْطِ صَلَاحِ ٱلنَّيِّرَيْنِ وَسَلَامَتِهِمَا مِنَ ٱلنُّحُوسِ فَإِذَا وَجَدَ ذٰلِكَ وَعَثَرَ عَلَيْهِ طُبِعَ فِي ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ فِي مِقْدَارِ ٱلْمِثْقَالِ فَمَا دُونَهُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَغُمِسَ بَعْدُ فِي ٱلزَّعْفَرَانِ مَحْلُولًا بِمَاءِ ٱلْوَرْدِ وَرُفِعَ فِي خِرْقَةِ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ انَّ لِمُمْسِكِهِ مِنَ ٱلْعِزِّ عَلَى ٱلسَّلَاطِينِ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ وَخِدْمَتِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ لَهُ مَا لَا يُعَبَّرُ وَكَذٰلِكَ لِلسَّلَاطِينِ فِيهِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْعِزِّ عَلَى مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ذَكَرَ ذٰلِكَ أَيْضًا أَهْلُ هٰذَا ٱلشَّأْنِ فِي ٱلْغَايَةِ وَغَيْرِهَا وَشَهِدَتْ لَهُ ٱلتَّجْرِبَةُ وَكَذٰلِكَ وَفْقُ ٱلْمُسَدَّسِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلشَّمْسِ ذَكَرُوا أَنَّهُ يُوضَعُ عِنْدَ حُلُولِ ٱلشَّمْسِ فِي شَرَفِهَا وَسَلَامَتِهَا مِنَ ٱلنُّحُوسِ وَسَلَامَةِ ٱلْقَمَرِ بِطَالِعٍ مُلُوكِيٍّ يُعْتَبَرُ فِيهِ نَظَرُ صَاحِبِ ٱلْعَاشِرِ لِصَاحِبِ ٱلطَّالِعِ نَظَرَ مَوَدَّةٍ وَقَبُولٍ وَيَصْلُحُ فِيهِ مَا يَكُونُ مِنْ مَوَالِيدِ ٱلْمُلُوكِ مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرِيفَةِ وَيُرْفَعُ فِي خِرْقَةِ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ بَعْدَ أَنْ يُغْمَسَ فِي ٱلطِّيبِ فَزَعَمُوا أَنَّ لَهُ أَثَرًا فِي صَحَابَةِ ٱلْمُلُوكِ وَخِدْمَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ وَكِتَابُ ٱلْغَايَةِ لِمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ ٱلْمَجْرِيطِيِّ هُوَ مُدَوَّنَةُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَفِيهِ ٱسْتِيفَاؤُهَا وَكَمَالُ مَسَائِلِهَا وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ ٱلْإِمَامَ ٱلْفَخْرَ بْنَ ٱلْخَطِيبِ وَضَعَ كِتَابًا فِي ذٰلِكَ وَسَمَّاهُ بِٱلسِّرِّ ٱلْمَكْتُومِ وَأَنَّهُ بِٱلْمَشْرِقِ يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُهُ وَنَحْنُ لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ وَٱلْإِمَامُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَئِمَّةِ هٰذَا ٱلشَّأْنِ فِيمَا نَظُنُّ وَلَعَلَّ ٱلْأَمْرَ بِخِلَافِ ذٰلِكَ وَبِٱلْمَغْرِبِ صِنْفٌ مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِهٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ يُعْرَفُونَ بِٱلْبَعَّاجِينَ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ذَكَرْتُ أَوَّلًا أَنَّهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ٱلْكِسَاءِ أَوِ ٱلْجِلْدِ فَيَتَخَرَّقُ وَيُشِيرُونَ إِلَى بُطُونِ ٱلْغَنَمِ بِٱلْبَعْجِ فَتَنْبَعِجُ وَيُسَمَّى أَحَدُهُمْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱسْمِ ٱلْبَعَّاجِ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَنْتَحِلُ مِنَ ٱلسِّحْرِ بَعْجُ ٱلْأَنْعَامِ يُرْهِبُ بِذٰلِكَ أَهْلَهَا لِيُعْطُوهُ مِنْ فَضْلِهَا وَهُمْ مُسْتَتِرُونَ بِذٰلِكَ فِي ٱلْغَايَةِ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلْحُكَّامِ لَقِيتُ مِنْهُمْ جَمَاعَةً وَشَاهَدْتُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ هٰذِهِ بِذٰلِكَ وَأَخْبَرُونِي أَنَّ لَهُمْ وِجْهَةً وَرِيَاضَةً

خاصة بدعوات كفرية وإشراك الروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة
عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وأنهم بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه
الأفعال لهم وأن التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحر من المتاع
والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم إنما نفعل فيما تمشي فيه الدراهم أي ما
يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات هذا ما زعموه وسألت بعضهم فأخبرني
به وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعاينتها من غير ريبة في
ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في العالم فأما الفلاسفة ففرقوا بين
السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعاً أثر للنفس الإنسانية واستدلوا على
وجود الأثر للنفس الإنسانية بأن لها آثاراً في بدنها على غير المجرى الطبيعي وأسبابه
الجسمانية بل آثار عارضة من كيفيات الأرواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح
والسرور ومن جهة التصورات النفسانية أخرى كالذي يقع من قبل التوهم فإن
الماشي على حرف حائط أو على حبل منتصب إذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا
شك ولهذا تجد كثيراً من الناس يعودون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم
فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت أن
ذلك من آثار النفس الإنسانية وتصورها للسقوط من أجل الوهم وإذا كان ذلك
أثراً للنفس في بدنها من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية فجائز أن يكون لها
مثل هذا الأثر في غير بدنها إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير
واحدة لأنها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام
وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى
معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص
الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون
السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع
العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب
ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره
بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم

بَيْنَ ٱلْمُعْجِزَةِ وَٱلسِّحْرِ أَنَّ ٱلْمُعْجِزَةَ قُوَّةٌ إِلٰهِيَّةٌ تَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّفْسِ ذٰلِكَ ٱلتَّأْثِيرَ فَهُوَ مُؤَيَّدٌ بِرُوحِ ٱللّٰهِ عَلَى فِعْلِهِ ذٰلِكَ وَٱلسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ وَبِإِمْدَادِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا ٱلْفَرْقُ فِي ٱلْمَعْقُولِيَّةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَٱلذَّاتِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَدِلُّ نَحْنُ عَلَى ٱلتَّفْرِقَةِ بِٱلْعَلَامَاتِ ٱلظَّاهِرَةِ وَهِيَ وُجُودُ ٱلْمُعْجِزَةِ لِصَاحِبِ ٱلْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ ٱلْخَيْرِ وَلِلنُّفُوسِ ٱلْمُتَمَحِّضَةِ لِلْخَيْرِ وَٱلتَّحَدِّي بِهَا عَلَى دَعْوَى ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلسِّحْرِ إِنَّمَا يُوجَدُ لِصَاحِبِ ٱلشَّرِّ وَفِي أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ فِي ٱلْغَالِبِ مِنَ ٱلتَّفْرِيقِ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ وَضَرَرِ ٱلْأَعْدَاءِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَلِلنُّفُوسِ ٱلْمُتَمَحِّضَةِ لِلشَّرِّ . هٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْإِلٰهِيِّينَ وَقَدْ يُوجَدُ لِبَعْضِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ ٱلْكَرَامَاتِ تَأْثِيرٌ أَيْضًا فِي أَحْوَالِ ٱلْعَالَمِ وَلَيْسَ مَعْدُودًا مِنْ جِنْسِ ٱلسِّحْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِٱلْإِمْدَادِ ٱلْإِلٰهِيِّ لِأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ وَنِحْلَتَهُمْ مِنْ آثَارِ ٱلنُّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَلَهُمْ فِي ٱلْمَدَدِ ٱلْإِلٰهِيِّ حَظٌّ عَلَى قَدْرِ حَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ ٱللّٰهِ وَإِذَا ٱقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا لِأَنَّهُ مُتَقَيِّدٌ فِيمَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ لِلْأَمْرِ ٱلْإِلٰهِيِّ فَمَا لَا يَقَعُ لَهُمْ فِيهِ ٱلْإِذْنُ لَا يَأْتُونَهُ بِوَجْهٍ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ ٱلْحَقِّ وَرُبَّمَا سُلِبَ حَالَهُ وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمُعْجِزَةُ بِإِمْدَادِ رُوحِ ٱللّٰهِ وَٱلْقُوَى ٱلْإِلٰهِيَّةِ فَلِذٰلِكَ لَا يُعَارِضُهَا شَيْءٌ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱنْظُرْ شَأْنَ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي مُعْجِزَةِ ٱلْعَصَا كَيْفَ تَلَقَّفَتْ مَا كَانُوا بِهِ يَأْفِكُونَ وَذَهَبَ سِحْرُهُمْ وَٱضْمَحَلَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَكَذٰلِكَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ٱلْمُعَوِّذَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهَا فَكَانَ لَا يَقْرَأُهَا عَلَى عُقْدَةٍ مِنَ ٱلْعُقَدِ ٱلَّتِي سُحِرَ فِيهَا إِلَّا ٱنْحَلَّتْ فَٱلسِّحْرُ لَا يَثْبُتُ مَعَ ٱسْمِ ٱللّٰهِ وَذِكْرِهِ وَقَدْ نَقَلَ ٱلْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ زَرْكَشَ كَاوِيَانَ وَهِيَ رَايَةُ كِسْرَى كَانَ فِيهَا ٱلْوَفْقُ ٱلْمِئِينِيُّ ٱلْعَدَدِيُّ مَنْسُوجًا بِٱلذَّهَبِ فِي أَوْضَاعٍ فَلَكِيَّةٍ رُصِدَتْ لِذٰلِكَ ٱلْوَفْقِ وَوُجِدَتِ ٱلرَّايَةُ يَوْمَ قُتِلَ رُسْتُمُ بِٱلْقَادِسِيَّةِ وَاقِعَةً عَلَى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ ٱنْهِزَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَاتِهِمْ وَهُوَ فِيمَا تَزْعُمُ أَهْلُ ٱلطِّلَّسْمَاتِ وَٱلْأَوْفَاقِ مَخْصُوصٌ بِٱلْغَلَبِ فِي ٱلْحُرُوبِ وَأَنَّ ٱلرَّايَةَ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ مَعَهَا لَا تَنْهَزِمُ أَصْلًا إِلَّا أَنَّ هٰذِهِ عَارَضَهَا ٱلْمَدَدُ ٱلْإِلٰهِيُّ مِنْ إِيمَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ ٱللّٰهِ فَٱنْحَلَّ مَعَهَا كُلُّ عَقْدٍ سِحْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا ٱلشَّرِيعَةُ فَلَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ وَجَعَلَتْهُ كُلَّهُ بَابًا وَاحِدًا مَحْظُورًا

لأنّ الأفعال إنّما أباح لنا الشارع منها ما يهمّنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا وما لا يهمّنا في شيءٍ منهما فإن كان فيه ضررٌ أو نوع ضررٍ كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات لأنّ أثرهما واحدٌ وكالنجامة التي فيها نوع ضررٍ باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانيّة بردّ الأمور إلى غير الله فيكون حينئذٍ ذلك الفعل محظورًا على نسبته في الضرر وإن لم يكن مهمًّا علينا ولا فيه ضررٌ فلا أقلّ من تركه قربةً إلى الله فإنّ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابًا واحدًا لما فيها من الضرر وخصّته بالحظر والتحريم وأمّا الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذي ذكره المتكلّمون أنّه راجعٌ إلى التحدّي وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادّعاه قالوا والساحر مصروفٌ عن مثل هذا التحدّي فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدورٍ لأنّ دلالة المعجزة على الصدق عقليّةٌ لأنّ صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبًا وهو محالٌ فإذًا لا تقع المعجزة مع الكاذب بإطلاقٍ وأمّا الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشرّ في نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشرّ ولا يستعمل في أسباب الشرّ وكأنّهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما والله يهدي من يشاء وهو القويّ العزيز لا ربّ سواه ومن قبيل هذه التأثيرات النفسيّة الإصابة بالعين وهو تأثيرٌ من نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركًا من الذوات أو الأحوال ويفرط في استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذٍ أنّه يروم معه سلب ذلك الشيء عمّن اتّصف به فيؤثّر فساده وهو جبلّةٌ فطريّةٌ أعني هذه الإصابة بالعين والفرق بينها وبين التأثيرات وإن كان منها ما لا يكتسب فصدورها راجعٌ إلى اختيار فاعلها والفطريّ منها قوّة صدورها ولهذا قالوا القاتل بالسحر او بالكرامة يقتل والقاتل بالعين لا يقتل وما ذلك إلّا أنّه ليس ممّا يريده ويقصده أو يتركه وإنّما هو مجبورٌ في صدوره عنه والله أعلم بما في الغيوب ومطّلعٌ على ما في السرائر

الفصل الثالث والعشرون

في علم الكيمياء

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلَّتِي يَتِمُّ بِهَا كَوْنُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ بِٱلصِّنَاعَةِ وَيَشْرَحُ ٱلْعَمَلَ ٱلَّذِي يُوصِلُ إِلَى ذَٰلِكَ فَيَتَصَفَّحُونَ ٱلْمُكَوَّنَاتِ كُلَّهَا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَمْزِجَتِهَا وَقُوَاهَا لَعَلَّهُمْ يَعْثُرُونَ عَلَى ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُسْتَعِدَّةِ لِذَٰلِكَ حَتَّى مِنَ ٱلْفَضَلَاتِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَٱلْعِظَامِ وَٱلرِّيشِ وَٱلْبَيْضِ وَٱلْعَذِرَاتِ فَضْلاً عَنِ ٱلْمَعَادِنِ ثُمَّ يَشْرَحُ ٱلْأَعْمَالَ ٱلَّتِي تَخْرُجُ بِهَا تِلْكَ ٱلْمَادَّةُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ مِثْلَ حَلِّ ٱلْأَجْسَامِ إِلَى أَجْزَائِهَا ٱلطَّبِيعِيَّةِ بِٱلتَّصْعِيدِ وَٱلتَّقْطِيرِ وَجَمْدِ ٱلذَّائِبِ مِنْهَا بِٱلتَّكْلِيسِ وَإِمْهَاءِ ٱلصُّلْبِ بِٱلْقَهْرِ وَٱلصَّلَايَةِ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ وَفِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِهَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا جِسْمٌ طَبِيعِيٌّ يُسَمُّونَهُ ٱلْإِكْسِيرَ وَأَنَّهُ يُلْقَى مِنْهُ عَلَى ٱلْجِسْمِ ٱلْمَعْدِنِيِّ ٱلْمُسْتَعِدِّ لِقَبُولِ صُورَةِ ٱلذَّهَبِ أَوِ ٱلْفِضَّةِ بِٱلِٱسْتِعْدَادِ ٱلْقَرِيبِ مِنَ ٱلْفِعْلِ مِثْلَ ٱلرَّصَاصِ وَٱلْقَصْدِيرِ وَٱلنُّحَاسِ بَعْدَ أَنْ يُحْمَى بِٱلنَّارِ فَيَعُودُ ذَهَبًا إِبْرِيزًا. وَيُكَنُّونَ عَنْ ذَٰلِكَ ٱلْإِكْسِيرِ إِذَا أَلْغَزُوا فِي ٱصْطِلَاحَاتِهِمْ بِٱلرُّوحِ وَعَنِ ٱلْجِسْمِ ٱلَّذِي يُلْقَى عَلَيْهِ بِٱلْجَسَدِ فَشَرْحُ هَٰذِهِ ٱلِٱصْطِلَاحَاتِ وَصُورَةُ هَٰذَا ٱلْعَمَلِ ٱلصِّنَاعِيِّ ٱلَّذِي يَقْلِبُ هَٰذِهِ ٱلْأَجْسَادَ ٱلْمُسْتَعِدَّةَ إِلَى صُورَةِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ هُوَ عِلْمُ ٱلْكِيمِيَاءِ وَمَا زَالَ ٱلنَّاسُ يُؤَلِّفُونَ فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَرُبَّمَا يُعْزَى ٱلْكَلَامُ فِيهَا إِلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا وَإِمَامُ ٱلْمُدَوِّنِينَ فِيهَا جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ حَتَّى إِنَّهُمْ يَخُصُّونَهَا بِهِ فَيُسَمُّونَهَا عِلْمَ جَابِرٍ وَلَهُ فِيهَا سَبْعُونَ رِسَالَةً كُلُّهَا شَبِيهَةٌ بِٱلْأَلْغَازِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَا يَفْتَحُ مُقْفَلَهَا إِلَّا مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ مَا فِيهَا وَٱلطُّغْرَائِيُّ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْمَشْرِقِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ لَهُ فِيهَا دَوَاوِينُ وَمُنَاظَرَاتٌ مَعَ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ وَكَتَبَ فِيهَا مَسْلَمَةُ ٱلْمَجْرِيطِيُّ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ كِتَابَهُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ رُتْبَةَ ٱلْحَكِيمِ وَجَعَلَهُ قَرِينًا لِكِتَابِهِ ٱلْآخَرِ فِي ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ ٱلْحَكِيمِ وَزَعَمَ أَنَّ هَاتَيْنِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا نَتِيجَتَانِ لِلْحِكْمَةِ وَثَمَرَتَانِ لِلْعُلُومِ وَمَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِمَا فَهُوَ فَاقِدٌ ثَمَرَةَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْحِكْمَةِ أَجْمَعَ وَكَلَامُهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابِ وَكَلَامُهُمْ أَجْمَعُ فِي تَآلِيفِهِمْ هِيَ أَلْغَازٌ يَتَعَذَّرُ فَهْمُهَا عَلَى مَنْ لَمْ يُعَانِ ٱصْطِلَاحَاتِهِمْ فِي ذَٰلِكَ. وَنَحْنُ نَذْكُرُ سَبَبَ عُدُولِهِمْ إِلَى هَٰذِهِ ٱلرُّمُوزِ وَٱلْأَلْغَازِ وَلِٱبْنِ ٱلْمُغَيْرِبِيِّ مِنْ أَئِمَّةِ هَٰذَا ٱلشَّأْنِ كَلِمَاتٌ شِعْرِيَّةٌ عَلَى حُرُوفِ ٱلْمُعْجَمِ مِنْ أَبْدَعِ مَا يَجِيءُ

في الشعر ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التآليف فيها وليس بصحيح لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطإ ما يذهبون إليه حتى ينتحله وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين أن خالدا من الجيل العربي والبداوة إليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن . وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لأبي السمح في هذه الصناعة وكلاهما من تلاميذ مسلمة فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطيته حقه من التأمل قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما تحتاج إليه فتبدأ بمعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولا ثلاث خصال أولها هل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من أي كيف تكون فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم وأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به إليك من الإكسير وأما من أي شيء تكون فإنما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وإن كان العمل موجودا من كل شيء بالقوة لأنها من الطبائع الأربع منها تركبت ابتداء وإليها ترجع انتهاء ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة إلى الفعل والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لأنها فيها بالقوة فقط وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفقك الله أن تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد

وَٱلتَّنْقِيَةِ وَٱلتَّكْلِيسِ وَٱلتَّنْشِيفِ وَٱلتَّقْلِيبِ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ هٰذِهِ ٱلْأُصُولَ ٱلَّتِي هِيَ عِمَادُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ لَمْ يَنْجَحْ وَلَمْ يَظْفَرْ بِخَيْرٍ أَبَدًا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِغَيْرِهِ أَوْ يُكْتَفَى بِهِ وَحْدَهُ وَهَلْ هُوَ وَاحِدٌ فِي ٱلْاِبْتِدَاءِ أَوْ شَارَكَهُ غَيْرُهُ فَصَارَ فِي ٱلتَّدْبِيرِ وَاحِدًا فَسُمِّيَ حَجَرًا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ عَمَلِهِ وَكَمِّيَّةَ أَوْزَانِهِ وَأَزْمَانِهِ وَكَيْفَ تَرْكِيبُ ٱلرُّوحِ فِيهِ وَإِدْخَالُ ٱلنَّفْسِ عَلَيْهِ وَهَلْ تَقْدِرُ ٱلنَّارُ عَلَى تَفْصِيلِهَا مِنْهُ بَعْدَ تَرْكِيبِهَا فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَلِأَيِّ عِلَّةٍ وَمَا ٱلسَّبَبُ ٱلْمُوجِبُ لِذٰلِكَ فَإِنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْمَطْلُوبُ فَٱفْهَمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْفَلَاسِفَةَ كُلَّهَا مَدَحَتِ ٱلنَّفْسَ وَزَعَمَتْ أَنَّهَا ٱلْمُدَبِّرَةُ لِلْجَسَدِ وَٱلْحَامِلَةُ لَهُ وَٱلدَّافِعَةُ عَنْهُ وَٱلْفَاعِلَةُ فِيهِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَسَدَ إِذَا خَرَجَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْهُ مَاتَ وَبَرَدَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ٱلْحَرَكَةِ وَٱلْاِمْتِنَاعِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُورَ وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ ٱلْجَسَدَ وَٱلنَّفْسَ لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ شَبِيهَةٌ بِجَسَدِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلَّذِي تَرْكِيبُهُ عَلَى ٱلْغِذَاءِ وَٱلْعَشَاءِ وَقِوَامُهُ وَتَمَامُهُ بِٱلنَّفْسِ ٱلْحَيَّةِ ٱلنُّورَانِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا يَفْعَلُ ٱلْعَظَائِمَ وَٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُتَقَابِلَةَ ٱلَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا بِٱلْقُوَّةِ ٱلْحَيَّةِ ٱلَّتِي فِيهَا وَإِنَّمَا ٱنْفَعَلَ ٱلْإِنْسَانُ لِٱخْتِلَافِ تَرْكِيبِ طَبَائِعِهِ وَلَوِ ٱتَّفَقَتْ طَبَائِعُهُ لَسَلِمَتْ مِنَ ٱلْأَعْرَاضِ وَٱلتَّضَادِّ وَلَمْ تَقْدِرِ ٱلنَّفْسُ عَلَى ٱلْخُرُوجِ مِنْ بَدَنِهِ وَلَكَانَ خَالِدًا بَاقِيًا فَسُبْحَانَ مُدَبِّرِ ٱلْأَشْيَاءِ تَعَالَى. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلطَّبَائِعَ ٱلَّتِي يَحْدُثُ عَنْهَا هٰذَا ٱلْعَمَلُ كَيْفِيَّةٌ دَافِعَةٌ فِي ٱلْاِبْتِدَاءِ فَيْضِيَّةٌ مُحْتَاجَةٌ إِلَى ٱلْاِنْتِهَاءِ وَلَيْسَ لَهَا إِذَا صَارَتْ فِي هٰذَا ٱلْحَدِّ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى مَا مِنْهُ تَرَكَّبَتْ كَمَا قُلْنَاهُ آنِفًا فِي ٱلْإِنْسَانِ لِأَنَّ طَبَائِعَ هٰذَا ٱلْجَوْهَرِ قَدْ لَزِمَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَصَارَتْ شَيْئًا وَاحِدًا شَبِيهًا بِٱلنَّفْسِ فِي قُوَّتِهَا وَفِعْلِهَا وَبِٱلْجَسَدِ فِي تَرْكِيبِهِ وَمَجَسَّتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ طَبَائِعَ مُفْرَدَةً بِأَعْيَانِهَا فَيَا عَجَبًا مِنْ أَفَاعِيلِ ٱلطَّبَائِعِ إِنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلضَّعِيفِ ٱلَّذِي يَقْوَى عَلَى تَفْصِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ وَتَرْكِيبِهَا وَتَمَامِهَا فَلِذٰلِكَ قُلْتُ قَوِيٌّ وَضَعِيفٌ وَإِنَّمَا وَقَعَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلْفَنَاءُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْأَوَّلِ لِلِٱخْتِلَافِ وَعُدِمَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لِلِٱتِّفَاقِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱلتَّفْصِيلُ وَٱلتَّقْطِيعُ فِي هٰذَا ٱلْعَمَلِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ وَٱلتَّرْكِيبُ مَوْتٌ وَفَنَاءٌ وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ دَقِيقُ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْحَكِيمَ أَرَادَ بِقَوْلِهِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ خُرُوجَهُ مِنَ ٱلْعَدَمِ إِلَى ٱلْوُجُودِ لِأَنَّهُ مَا دَامَ عَلَى تَرْكِيبِهِ ٱلْأَوَّلِ فَهُوَ فَانٍ لَا مُحَالَةَ فَإِذَا رُكِّبَ ٱلتَّرْكِيبَ ٱلثَّانِيَ عَدِمَ ٱلْفَنَاءَ وَٱلتَّرْكِيبُ ٱلثَّانِي لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ ٱلتَّفْصِيلِ وَٱلتَّقْطِيعِ فَإِذًا ٱلتَّفْصِيلُ وَٱلتَّقْطِيعُ فِي هٰذَا ٱلْعَمَلِ خَاصَّةً فَإِذَا بَقِيَ ٱلْجَسَدُ

ٱلْمحْلُولُ ٱنْبَسَطَ فِيهِ لِعَدَمِ ٱلصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ فِي ٱلْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ ٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي لَا صُورَةَ لَهَا وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا وَزْنَ لَهُ فِيهِ وَسَتَرَى ذٰلِكَ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱخْتِلَاطَ ٱللَّطِيفِ بِٱللَّطِيفِ أَهْوَنُ مِنَ ٱخْتِلَاطِ ٱلْغَلِيظِ بِٱلْغَلِيظِ وَإِنَّمَا أُرِيدُ بِذٰلِكَ ٱلتَّشَاكُلَ فِي ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَادِ لِأَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ تَتَّصِلُ بِأَشْكَالِهَا وَذَكَرْتُ لَكَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمَ أَنَّ ٱلْعَمَلَ أَوْفَقُ وَأَيْسَرُ مِنَ ٱلطَّبَائِعِ ٱللَّطَائِفِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ مِنْهَا مِنَ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَقَدْ يُتَصَوَّرُ فِي ٱلْعَقْلِ أَنَّ ٱلْأَحْجَارَ أَقْوَى وَأَصْبَرُ عَلَى ٱلنَّارِ مِنَ ٱلْأَرْوَاحِ كَمَا تَرَى ٱلذَّهَبَ وَٱلْحَدِيدَ وَٱلنُّحَاسَ أَصْبَرَ عَلَى ٱلنَّارِ مِنَ ٱلْكِبْرِيتِ وَٱلزِّئْبَقِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ ٱلْأَرْوَاحِ فَأَقُولُ إِنَّ ٱلْأَجْسَادَ قَدْ كَانَتْ أَرْوَاحًا فِي بَدْئِهَا فَلَمَّا أَصَابَهَا حَرُّ ٱلْكِيَانِ قَلَبَهَا أَجْسَادًا لَزِجَةً غَلِيظَةً فَلَمْ تَقْدِرِ ٱلنَّارُ عَلَى أَكْلِهَا لِإِفْرَاطِ غِلَظِهَا وَتَلَزُّجِهَا فَإِذَا أُفْرِطَتِ ٱلنَّارُ عَلَيْهَا صَيَّرَتْهَا أَرْوَاحًا كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ خَلْقِهَا وَإِنَّ تِلْكَ ٱلْأَرْوَاحَ ٱللَّطِيفَةَ إِذَا أَصَابَتْهَا ٱلنَّارُ أَبْقَتْ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى ٱلْبَقَاءِ عَلَيْهَا فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا صَيَّرَ ٱلْأَجْسَادَ فِي هٰذِهِ ٱلْحَالَةِ وَصَيَّرَ ٱلْأَرْوَاحَ فِي هٰذَا ٱلْحَالِ فَهُوَ أَجَلُّ مَا تَعْرِفُهُ. أَقُولُ إِنَّمَا أَبْقَتْ تِلْكَ ٱلْأَرْوَاحُ لِٱشْتِعَالِهَا وَلَطَافَتِهَا وَإِنَّمَا ٱشْتَعَلَتْ لِكَثْرَةِ رُطُوبَتِهَا وَلِأَنَّ ٱلنَّارَ إِذَا أَحَسَّتْ بِٱلرُّطُوبَةِ تَعَلَّقَتْ بِهَا لِأَنَّهَا هَوَائِيَّةٌ تُشَاكِلُ ٱلنَّارَ وَلَا تَزَالُ تَغْتَذِي بِهَا إِلَى أَنْ تَفْنَى وَكَذٰلِكَ ٱلْأَجْسَادُ إِذَا أَحَسَّتْ بِوُصُولِ ٱلنَّارِ إِلَيْهَا لِقِلَّةِ تَلَزُّجِهَا وَغِلَظِهَا وَإِنَّمَا صَارَتْ تِلْكَ ٱلْأَجْسَادُ لَا تَشْتَعِلُ لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ أَرْضٍ وَمَاءٍ صَابِرٍ عَلَى ٱلنَّارِ فَلَطِيفُهُ مُتَّحِدٌ بِكَثِيفِهِ لِطُولِ ٱلطَّبْخِ ٱللَّيِّنِ ٱلْمَازِجِ لِلْأَشْيَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مُتَلَاشٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى بِٱلنَّارِ لِمُفَارَقَةِ لَطِيفِهِ مِنْ كَثِيفِهِ وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضٍ عَلَى غَيْرِ ٱلتَّحَايُلِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فَصَارَ ذٰلِكَ ٱلِٱنْضِمَامُ وَٱلتَّدَاخُلُ مُجَاوَرَةً لَا مُمَازَجَةً فَسَهُلَ بِذٰلِكَ ٱفْتِرَاقُهُمَا كَٱلْمَاءِ وَٱلدُّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا وَإِنَّمَا وَصَفْتُ ذٰلِكَ لِتَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى تَرْكِيبِ ٱلطَّبَائِعِ وَتَقَابُلِهَا فَإِذَا عَلِمْتَ ذٰلِكَ عِلْمًا شَافِيًا فَقَدْ أَخَذْتَ حَظَّكَ مِنْهَا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱلْأَخْلَاطَ ٱلَّتِي هِيَ طَبَائِعُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مُوَافِقَةٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ مُفَصَّلَةٌ مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُهَا نِظَامٌ وَاحِدٌ بِتَدْبِيرٍ وَاحِدٍ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي ٱلْجُزْءِ مِنْهُ وَلَا فِي ٱلْكُلِّ كَمَا قَالَ ٱلْفَيْلَسُوفُ إِنَّكَ إِذَا أَحْكَمْتَ تَدْبِيرَ ٱلطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفَهَا وَلَمْ تُدْخِلْ عَلَيْهَا غَرِيبًا فَقَدْ أَحْكَمْتَ مَا أَرَدْتَ إِحْكَامَهُ وَقِوَامَهُ إِذِ ٱلطَّبِيعَةُ وَاحِدَةٌ لَا غَرِيبَ فِيهَا فَمَنْ أَدْخَلَ عَلَيْهَا غَرِيبًا

فقد زاغ عنها ووقع في الخطإ . واعلم أن هذه الطبيعة إذا حل لها جسد من قرائنها على ما ينبغي في الحل حتى يشا كلها في الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاوج وحل الأجساد لا يكون بغير الأرواح فافهم هداك الله هذا القول واعلم هداك الله أن هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينقص وهو الذي يقلب الطبائع ويمسكها ويظهر لها ألوانا وأزهارا عجيبة وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لأنه مخالف للحياة وإنما حله بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ وتنقلب الطبائع عن حالاتها إلى ما لها أن تنقلب من اللطافة والغلظ فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله فلا خير فيه . واعلم أن البارد من الطبائع هو ييبس الأشياء ويعقد رطوبتها والحار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها وإنما أفردت الحر والبرد لأنهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الأجسام وتتكون وإن كان الحر أكثر فعلا في ذلك من البرد لأن البرد ليس له نقل الأشياء ولا تحركها والحر هو علة الحركة ومتى ضعفت علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبدا كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد أحرقته وأهلكته فمن أجل هذه العلة احتيج إلى البارد في هذه الأعمال ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة أكبر شيء إلا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والأنفاس وإخراج دنسها ورطوبتها ونفي آفاتها وأوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم فإنما عملهم إنما هو مع النار أولا وإليها يصير أخيرا فلذلك قالوا إياكم والنيران المحرقات وإنما أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها فتجمع على الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه وكذلك كل شيء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته واعلم أن الحكماء كلها ذكرت تزداد الأرواح على الأجساد مرارا ليكون الزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هي باشرتها عند الإلفة أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه . ولنقل الآن على الحجر الذي

يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه فمنهم من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن ومنهم من زعم أنه في الجميع وهذه الدعاوي ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها لأن الكلام يطول جداً وقد قلت فيما تقدم إن العمل يكون في كل شيء بالقوة لأن الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فتريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد إلى ما قاله الحراني إن الصبغ كله أحد صبغين إما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه وهو مضمحل منتقض التركيب والصبغ الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه حتى يصير التراب نباتاً والنبات حيواناً ولا يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الأجرام وقلب الأعيان فإذا كان هذا هكذا فنقول إن العمل لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في النبات وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتمامهما فأما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء فيه وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك أن المعدن يستحيل نباتاً والنبات يستحيل حيواناً والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو ألطف منه إلا أن ينعكس راجعاً إلى الغلظ وأنه أيضاً لا يوجد في العالم شيء تتعلق فيه الروح الحية غيره والروح ألطف ما في العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها فأما الروح التي في النبات فإنها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلاظه وغلظ روحه والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيراً وذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده ولا تجري إذا قيست بالروح الحية إلا كالأرض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر فينبغي للعاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلاً ويترك ما يخشى فيه عسراً. واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساماً من الأمهات التي هي الطبائع والحديثة التي هي المواليد وهذا معروف متيسر الفهم فلذلك قسمت

الحكماء العناصر والمواليد أقساماً حية وأقساماً ميتة فجعلوا كل متحرك فاعلاً حياً وكل ساكن مفعولاً ميتاً وقسموا ذلك في جميع الأشياء وفي الأجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية فسموا كل شيء يذوب في النار ويطير ويشتعل حياً وما كان على خلاف ذلك سموه ميتاً فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعاً حياً وما لم ينفصل سموه ميتاً ثم إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية فلم يجدوا لوفق هذه الصناعة مما ينفصل فصولاً أربعة ظاهرة للعيان ولم يجدوا غير الحجر الذي في الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه فتكيف لهم منه الذي أرادوا وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد ذلك فأما النبات فمنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول مثل الأشنان وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس إذا مزجت ودبرت كان منها ما له تأثير وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتدبيره أسهل وأيسر فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده إنا بينا أن الحيوان أرفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الأرض وإنما كان النبات ألطف من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والرقة وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب وبالجملة فإنه ليس في الحيوان شيء ينفصل طبائع أربعاً غيره فافهم هذا القول فإنه لا يكاد يخفى إلا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعلمتك جنسه وأنا أبين لك وجوه تدابيره حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الإنصاف إن شاء الله سبحانه

(التدبير على بركة الله) خذ الحجر الكريم فأودعه القرعة والإنبيق وفصل طبائعه الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء وهي الجسد والصبغ فإذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فارفع كل واحد في إنائه على حدة وخذ الهابط أسفل الإناء وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجناوته وبيضه تبييضاً محكماً وطير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه فإنه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ثم اعمد إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه فطهرها أيضاً من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتصعيد

حَتَّى تَلْطُفَ وَتَرِقَّ وَتَصْفُوَ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَٰلِكَ فَقَدْ فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ فَٱبْدَأْ بِٱلتَّرْكِيبِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ ٱلْعَمَلِ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلتَّرْكِيبَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلتَّزْوِيجِ وَٱلتَّعْفِينِ فَأَمَّا ٱلتَّزْوِيجُ فَهُوَ ٱخْتِلَاطُ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغَلِيظِ وَأَمَّا ٱلتَّعْفِينُ فَهُوَ ٱلتَّمْشِيَةُ وَٱلسَّحْقُ حَتَّى يَخْتَلِطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئًا وَاحِدًا لَا ٱخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا نُقْصَانَ بِمَنْزِلَةِ ٱلِٱمْتِزَاجِ بِٱلْمَاءِ فَعِنْدَ ذَٰلِكَ يَقْوَى ٱلْغَلِيظُ عَلَى إِمْسَاكِ ٱللَّطِيفِ وَتَقْوَى ٱلنَّفْسُ عَلَى ٱلْغَوْصِ فِي ٱلْأَجْسَادِ وَٱلدَّبِيبِ فِيهَا وَإِنَّمَا وُجِدَ ذَٰلِكَ بَعْدَ ٱلتَّرْكِيبِ لِأَنَّ ٱلْجَسَدَ ٱلْمَحْلُولَ لَمَّا ٱزْدَوَجَ بِٱلرُّوحِ مَازَجَهُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ لِتَشَاكُلِهَا فَصَارَ شَيْئًا وَاحِدًا وَوَجَبَ مِنْ ذَٰلِكَ أَنْ يَعْرِضَ لِلرُّوحِ مِنَ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْفَسَادِ وَٱلْبَقَاءِ وَٱلثُّبُوتِ وَمَا يَعْرِضُ لِلْجَسَدِ لِمَوْضِعِ ٱلِٱمْتِزَاجِ وَكَذَٰلِكَ ٱلنَّفْسُ إِذَا ٱمْتَزَجَتْ بِهِمَا وَدَخَلَتْ فِيهِمَا بِخِدْمَةِ ٱلتَّدْبِيرِ ٱخْتَلَطَتْ أَجْزَاؤُهَا بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ ٱلْآخَرِينَ أَعْنِي ٱلرُّوحَ وَٱلْجَسَدَ وَصَارَتْ هِيَ وَهُمَا شَيْئًا وَاحِدًا لَا ٱخْتِلَافَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ ٱلْجُزْءِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي سَلِمَتْ طَبَائِعُهُ وَٱتَّفَقَتْ أَجْزَاؤُهُ فَإِذَا أُلْقِيَ هٰذَا ٱلْمُرَكَّبُ ٱلْجَسَدَ ٱلْمَحْلُولَ وَأَلَحَّ عَلَيْهِ ٱلنَّارَ وَأَظْهَرَ مَا فِيهِ مِنَ ٱلرُّطُوبَةِ عَلَى وَجْهِهِ ذَابَ فِي ٱلْجَسَدِ ٱلْمَحْلُولِ وَمِنْ شَأْنِ ٱلرُّطُوبَةِ ٱلِٱشْتِعَالُ وَتَعَلُّقُ ٱلنَّارِ بِهَا فَإِذَا أَرَادَتِ ٱلنَّارُ ٱلتَّعَلُّقَ بِهَا مَنَعَهَا مِنَ ٱلِٱتِّحَادِ بِٱلنَّفْسِ مُمَازَجَةُ ٱلْمَاءِ لَهَا فَإِنَّ ٱلنَّارَ لَا تَتَّحِدُ بِٱلدُّهْنِ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا وَكَذَٰلِكَ ٱلْمَاءُ مِنْ شَأْنِهِ ٱلنُّفُورُ مِنَ ٱلنَّارِ فَإِذَا أَلَحَّتْ عَلَيْهِ ٱلنَّارُ وَأَرَادَتْ تَطْيِيرَهُ حَبَسَهُ ٱلْجَسَدُ ٱلْيَابِسُ ٱلْمُمَازِجُ لَهُ فِي جَوْفِهِ فَمَنَعَهُ مِنَ ٱلطَّيَرَانِ فَكَانَ ٱلْجَسَدُ عِلَّةً لِإِمْسَاكِ ٱلْمَاءِ وَٱلْمَاءُ عِلَّةً لِبَقَاءِ ٱلدُّهْنِ وَٱلدُّهْنُ عِلَّةً لِثَبَاتِ ٱلصِّبْغِ وَٱلصِّبْغُ عِلَّةً لِظُهُورِ ٱلدُّهْنِ وَإِظْهَارِ ٱلدُّهْنِيَّةِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُظْلِمَةِ ٱلَّتِي لَا نُورَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ فِيهَا فَهٰذَا هُوَ ٱلْجَسَدُ ٱلْمُسْتَقِيمُ وَهٰكَذَا يَكُونُ ٱلْعَمَلُ وَهٰذِهِ ٱلتَّصْفِيَةُ ٱلَّتِي سَأَلْتَ عَنْهَا وَهِيَ ٱلَّتِي سَمَّتْهَا ٱلْحُكَمَاءُ بَيْضَةً وَإِيَّاهَا يَعْنُونَ لَا بَيْضَةَ ٱلدَّجَاجِ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْحُكَمَاءَ لَمْ تُسَمِّهَا بِهٰذَا ٱلِٱسْمِ لِغَيْرِ مَعْنًى بَلْ أَشْبَهَتْهَا وَلَقَدْ سَأَلْتُ مَسْلَمَةَ عَنْ ذَٰلِكَ يَوْمًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرِي فَقُلْتُ لَهُ أَيُّهَا ٱلْحَكِيمُ ٱلْفَاضِلُ أَخْبِرْنِي لِأَيِّ شَيْءٍ سَمَّتِ ٱلْحُكَمَاءُ مُرَكَّبَ ٱلْحَيَوَانِ بَيْضَةً ٱخْتِيَارًا مِنْهُمْ لِذَٰلِكَ. أَمْ لِمَعْنًى دَعَاهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ بَلْ لِمَعْنًى غَامِضٍ فَقُلْتُ أَيُّهَا ٱلْحَكِيمُ وَمَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَٱلِٱسْتِدْلَالِ عَلَى ٱلصِّنَاعَةِ حَتَّى شَبَّهُوهَا وَسَمَّوْهَا بَيْضَةً فَقَالَ لِشَبَهِهَا وَقَرَابَتِهَا مِنَ ٱلْمُرَكَّبِ فَفَكِّرْ فِيهِ فَإِنَّهُ سَيَظْهَرُ لَكَ مَعْنَاهُ

فَبَقِيتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَفَكِّرًا لاَ أَقْدِرُ عَلَى ٱلْوُصُولِ إِلَى مَعْنَاهُ فَلَمَّا رَأَى مَا بِي مِنَ ٱلْفِكْرِ وَأَنَّ نَفْسِي قَدْ مَضَتْ فِيهَا أَخَذَ بِعَضُدِي وَهَزَّنِي هَزَّةً خَفِيفَةً وَقَالَ لِي يَا أَبَا بَكْرٍ ذٰلِكَ لِلنِّسْبَةِ ٱلَّتِي بَيْنَهُمَا فِي كَمِّيَّةِ ٱلْأَلْوَانِ عِنْدَ ٱمْتِزَاجِ ٱلطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفِهَا فَلَمَّا قَالَ ذٰلِكَ ٱنْجَلَتْ عَنِّي ٱلظُّلْمَةُ وَأَضَاءَ لِي نُورُ قَلْبِي وَقَوِيَ عَقْلِي عَلَى فَهْمِهِ فَنَهَضْتُ شَاكِرًا ٱللّٰهَ عَلَيْهِ إِلَى مَنْزِلِي وَأَقَمْتُ عَلَى ذٰلِكَ شَكْلاً هَنْدَسِيًّا يُبَرْهَنُ بِهِ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ مَسْلَمَةُ وَأَنَا وَاضِعُهُ لَكَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ كَانَ نِسْبَةُ مَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلْهَوَاءِ كَنِسْبَةِ مَا فِي ٱلْمُرَكَّبِ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلنَّارِ إِلَى مَا فِي ٱلْبَيْضَةِ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلنَّارِ وَكَذٰلِكَ ٱلطَّبِيعَتَانِ ٱلْأُخْرَيَانِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْمَاءُ فَأَقُولُ إِنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ هُمَا مُتَشَابِهَانِ وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنْ تَجْعَلَ لِسَطْحِ ٱلْبَيْضَةِ هزوح فَإِذَا أَرَدْنَا ذٰلِكَ فَإِنَّا نَأْخُذُ أَقَلَّ طَبَائِعِ ٱلْمُرَكَّبِ وَهِيَ طَبِيعَةُ ٱلْيُبُوسَةِ وَنُضِيفُ إِلَيْهَا مِثْلَهَا مِنْ طَبِيعَةِ ٱلرُّطُوبَةِ وَنُدَبِّرُهُمَا حَتَّى تُنَشِّفَ طَبِيعَةُ ٱلْيُبُوسَةِ طَبِيعَةَ ٱلرُّطُوبَةِ وَتَقْبَلَ قُوَّتَهَا وَكَانَ فِي هٰذَا ٱلْكَلاَمِ رَمْزًا وَلٰكِنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا مِثْلَيْهِمَا مِنَ ٱلرُّوحِ وَهُوَ ٱلْمَاءُ فَيَكُونُ ٱلْجَمِيعُ سِتَّةَ أَمْثَالٍ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَى ٱلْجَمِيعِ بَعْدَ ٱلتَّدْبِيرِ مِثْلاً مِنْ طَبِيعَةِ ٱلْهَوَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلنَّفْسُ وَذٰلِكَ ثَلاَثَةُ أَجْزَاءٍ فَيَكُونُ ٱلْجَمِيعُ تِسْعَةَ أَمْثَالِ ٱلْيُبُوسَةِ بِٱلْقُوَّةِ وَتَجْعَلُ تَحْتَ كُلِّ ضِلْعَيْنِ مِنَ ٱلْمُرَكَّبِ ٱلَّذِي طَبِيعَتُهُ مُحِيطَةٌ بِسَطْحِ ٱلْمُرَكَّبِ طَبِيعَتَيْنِ فَتَجْعَلُ أَوَّلاً ٱلضِّلْعَيْنِ ٱلْمُحِيطَيْنِ بِسَطْحِهِ طَبِيعَةَ ٱلْمَاءِ وَطَبِيعَةَ ٱلْهَوَاءِ وَهُمَا ضِلْعَا احد وَسَطْحَ ابجد وَكَذٰلِكَ ٱلضِّلْعَانِ ٱلْمُحِيطَانِ بِسَطْحِ ٱلْبَيْضَةِ ٱللَّذَانِ هُمَا ٱلْمَاءُ وَٱلْهَوَاءُ ضِلْعَا هزوح فَأَقُولُ إِنَّ سَطْحَ ابجد يُشْبِهُ سَطْحَ هزوح طَبِيعَةِ ٱلْهَوَاءِ ٱلَّتِي تُسَمَّى نَفْسًا وَكَذٰلِكَ بج مِنْ سَطْحِ ٱلْمُرَكَّبِ وَٱلْحُكَمَاءُ لَمْ تُسَمِّ شَيْئًا بِٱسْمِ شَيْءٍ إِلاَّ ٱلشَّبِيهَ بِهِ وَٱلْكَلِمَاتُ ٱلَّتِي سَأَلْتَ عَنْ شَرْحِهَا ٱلْأَرْضُ ٱلْمُقَدَّسَةُ وَهِيَ ٱلْمُنْعَقِدَةُ مِنَ ٱلطَّبَائِعِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلسُّفْلِيَّةِ وَٱلنُّحَاسُ هُوَ ٱلَّذِي أُخْرِجَ سَوَادُهُ وَقُطِّعَ حَتَّى صَارَ هَبَاءً ثُمَّ حُمِّرَ بِٱلزَّاجِ حَتَّى صَارَ نُحَاسِيًّا وَٱلْمَغْنِيسِيَا حَجَرُهُمُ ٱلَّذِي تَجْمُدُ فِيهِ ٱلْأَرْوَاحُ وَتُخْرِجُهُ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلْعُلْوِيَّةُ ٱلَّتِي تَسْتَجِنُّ فِيهَا ٱلْأَرْوَاحُ لِتُقَابِلَ عَلَيْهَا ٱلنَّارَ وَٱلْفَرْفَرَةُ لَوْنٌ أَحْمَرُ قَانٍ يُحْدِثُهُ ٱلْكِيَانُ وَٱلرَّصَاصُ حَجَرٌ لَهُ ثَلاَثُ قُوًى مُخْتَلِفَةُ ٱلشُّخُوصِ وَلٰكِنَّهَا مُتَشَاكِلَةٌ وَمُتَجَانِسَةٌ فَٱلْوَاحِدَةُ رُوحَانِيَّةٌ نَيِّرَةٌ صَافِيَةٌ وَهِيَ ٱلْفَاعِلَةُ وَٱلثَّانِيَةُ نَفْسَانِيَّةٌ وَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ حَسَّاسَةٌ

غَيْرَ أَنَّهَا أَغْلَظُ مِنَ ٱلْأُولَى وَمَرْكَزُهَا دُونَ مَرْكَزِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّالِثَةُ قُوَّةٌ أَرْضِيَّةٌ حَاسَّةٌ قَابِضَةٌ مُنْعَكِسَةٌ إِلَى مَرْكَزِ ٱلْأَرْضِ لِثِقَلِهَا وَهِيَ ٱلْمَاسِكَةُ ٱلرُّوحَانِيَّةَ وَٱلنَّفْسَانِيَّةَ جَمِيعًا وَٱلْمُحِيطَةُ بِهِمَا وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْبَاقِيَةِ فَمُبْتَدَعَةٌ وَمُخْتَرَعَةٌ إِلْبَاسًا عَلَى ٱلْجَاهِلِ وَمَنْ عَرَفَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱسْتَغْنَى عَنْ غَيْرِهَا . فَهٰذَا جَمِيعُ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ وَقَدْ بَعَثْتُ بِهِ إِلَيْكَ مُفَسَّرًا وَنَرْجُو بِتَوْفِيقِ ٱللهِ أَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ وَٱلسَّلَامُ ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ بِشْرُونَ وَهُوَ مِنْ كِبَارِ تَلَامِيذِ مَسْلَمَةَ ٱلْمَجْرِيطِيِّ شَيْخِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي عُلُومِ ٱلْكِيمِيَاءِ وَٱلسِّيمِيَاءِ وَٱلسِّحْرِ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلثَّالِثِ وَمَا بَعْدَهُ وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ صَرَفَ أَلْفَاظَهُمْ كُلَّهَا فِي ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى ٱلرَّمْزِ وَٱلْأَلْغَازِ ٱلَّتِي لَا تَكَادُ تَبِينُ وَلَا تُعْرَفُ وَذٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِصِنَاعَةٍ طَبِيعِيَّةٍ . وَٱلَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ فِي أَمْرِ ٱلْكِيمِيَاءِ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ٱلَّذِي يَعْضُدُهُ ٱلْوَاقِعُ أَنَّهَا مِنْ جِنْسِ آثَارِ ٱلنُّفُوسِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ وَتَصَرُّفِهَا فِي عَالَمِ ٱلطَّبِيعَةِ إِمَّا مِنْ نَوْعِ ٱلْكَرَامَةِ إِنْ كَانَتِ ٱلنُّفُوسُ خَيِّرَةً أَوْ مِنْ نَوْعِ ٱلسِّحْرِ إِنْ كَانَتِ ٱلنُّفُوسُ شِرِّيرَةً فَاجِرَةً فَأَمَّا ٱلْكَرَامَةُ فَظَاهِرَةٌ وَأَمَّا ٱلسِّحْرُ فَلِأَنَّ ٱلسَّاحِرَ كَمَا ثَبَتَ فِي مَكَانِ تَحْقِيقِهِ يَقْلِبُ ٱلْأَعْيَانَ ٱلْمَادِّيَّةَ بِقُوَّتِهِ ٱلسِّحْرِيَّةِ وَلَا بُدَّ لَهُ مَعَ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَادَّةٍ يَقَعُ فِعْلُهُ ٱلسِّحْرِيُّ فِيهَا كَتَخْلِيقِ بَعْضِ ٱلْحَيَوَانَاتِ مِنْ مَادَّةِ ٱلتُّرَابِ أَوِ ٱلشَّعْرِ وَٱلنَّبَاتِ وَبِٱلْجُمْلَةِ مِنْ غَيْرِ مَادَّتِهَا ٱلْمَخْصُوصَةِ بِهَا كَمَا وَقَعَ لِسَحَرَةِ فِرْعَوْنَ فِي ٱلْحِبَالِ وَٱلْعِصِيِّ وَكَمَا يُنْقَلُ عَنْ سَحَرَةِ ٱلسُّودَانِ وَٱلْهُنُودِ فِي قَاصِيَةِ ٱلْجَنُوبِ وَٱلتُّرْكِ فِي قَاصِيَةِ ٱلشَّمَالِ أَنَّهُمْ يَسْحَرُونَ ٱلْجَوَّ لِلْأَمْطَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ تَخْلِيقًا لِلذَّهَبِ فِي غَيْرِ مَادَّتِهِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ كَانَ مِنْ قَبِيلِ ٱلسِّحْرِ وَٱلْمُتَكَلِّمُونَ فِيهِ مِنْ أَعْلَامِ ٱلْحُكَمَاءِ مِثْلَ جَابِرٍ وَمَسْلَمَةَ وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْأُمَمِ إِنَّمَا نَحَوْا هٰذَا ٱلْمَنْحَى وَلِهٰذَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِيهِ أَلْغَازًا حَذَرًا عَلَيْهَا مِنْ إِنْكَارِ ٱلشَّرَائِعِ عَلَى ٱلسِّحْرِ وَأَنْوَاعِهِ لَا أَنَّ ذٰلِكَ يَرْجِعُ إِلَى ٱلضِّنَانَةِ بِهَا كَمَا هُوَ رَأْيُ مَنْ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى ٱلتَّحْقِيقِ فِي ذٰلِكَ وَٱنْظُرْ كَيْفَ سَمَّى مَسْلَمَةُ كِتَابَهُ فِيهَا رُتْبَةَ ٱلْحَكِيمِ وَسَمَّى كِتَابَهُ فِي ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ غَايَةَ ٱلْحَكِيمِ إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ مَوْضُوعِ ٱلْغَايَةِ وَخُصُوصِ مَوْضُوعِ هٰذِهِ لِأَنَّ ٱلْغَايَةَ أَعْلَى مِنَ ٱلرُّتْبَةِ فَكَانَ مَسَائِلُ ٱلرُّتْبَةِ بَعْضٌ مِنْ مَسَائِلِ ٱلْغَايَةِ وَتُشَارِكُهَا فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ وَمِنْ كَلَامِهِ فِي ٱلْفَنَّيْنِ يَتَبَيَّنُ مَا قُلْنَاهُ وَنَحْنُ نُبَيِّنُ فِيمَا بَعْدُ غَلَطَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَدَارِكَ هٰذَا ٱلْأَمْرِ بِٱلصِّنَاعَةِ

ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَٱللّٰهُ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ

الفصل الرابع والعشرون

في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هٰذَا ٱلْفَصْلُ وَمَا بَعْدَهُ مُهِمٌّ لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْعُلُومَ عَارِضَةٌ فِي ٱلْعُمْرَانِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلْمُدُنِ وَضَرَرُهَا فِي ٱلدِّينِ كَثِيرٌ فَوَجَبَ أَنْ يُصْدَعَ بِشَأْنِهَا وَيُكْشَفَ عَنِ ٱلْمُعْتَقَدِ ٱلْحَقِّ فِيهَا وَذٰلِكَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ عُقَلَاءِ ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ زَعَمُوا أَنَّ ٱلْوُجُودَ كُلَّهُ ٱلْحِسِّيَّ مِنْهُ وَمَا وَرَاءَ ٱلْحِسِّيِّ تُدْرَكُ أَدَوَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ بِأَسْبَابِهَا وَعِلَلِهَا بِٱلْأَنْظَارِ ٱلْفِكْرِيَّةِ وَٱلْأَقْيِسَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَأَنَّ تَصْحِيحَ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ مِنْ قِبَلِ ٱلنَّظَرِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلسَّمْعِ فَإِنَّهَا بَعْضٌ مِنْ مَدَارِكِ ٱلْعَقْلِ وَهٰؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ فَلَاسِفَةً جَمْعَ فَيْلَسُوفٍ وَهُوَ بِٱللِّسَانِ ٱلْيُونَانِيِّ مُحِبُّ ٱلْحِكْمَةِ فَبَحَثُوا عَنْ ذٰلِكَ وَشَمَّرُوا لَهُ وَحَوَّمُوا عَلَى إِصَابَةِ ٱلْغَرَضِ مِنْهُ وَوَضَعُوا قَانُونًا يَهْتَدِي بِهِ ٱلْعَقْلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ وَسَمَّوْهُ بِٱلْمَنْطِقِ وَمُحَصَّلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي يُفِيدُ تَمْيِيزَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلْبَاطِلِ إِنَّمَا هُوَ لِلذِّهْنِ فِي ٱلْمَعَانِي ٱلْمُنْتَزَعَةِ مِنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلشَّخْصِيَّةِ فَيُجَرَّدُ مِنْهَا أَوَّلًا صُوَرٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ ٱلْأَشْخَاصِ كَمَا يَنْطَبِقُ ٱلطَّابَعُ عَلَى جَمِيعِ ٱلنُّقُوشِ ٱلَّتِي تَرْسُمُهَا فِي طِينٍ أَوْ شَمْعٍ وَهٰذِهِ مُجَرَّدَةٌ مِنَ ٱلْمَحْسُوسَاتِ تُسَمَّى ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلْأَوَائِلَ ثُمَّ تُجَرَّدُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْكُلِّيَّةِ إِذَا كَانَتْ مُشْتَرَكَةً مَعَ مَعَانٍ أُخْرَى وَقَدْ تَمَيَّزَتْ عَنْهَا فِي ٱلذِّهْنِ فَتُجَرَّدُ مِنْهَا مَعَانٍ أُخْرَى وَهِيَ ٱلَّتِي ٱشْتَرَكَتْ بِهَا ثُمَّ تُجَرَّدُ ثَانِيًا إِنْ شَارَكَهَا غَيْرُهَا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ٱلتَّجْرِيدُ إِلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُنْطَبِقَةِ عَلَى جَمِيعِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَشْخَاصِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا تَجْرِيدٌ بَعْدَ هٰذَا وَهِيَ ٱلْأَجْنَاسُ ٱلْعَالِيَةُ وَهٰذِهِ ٱلْمُجَرَّدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ ٱلْمَحْسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأْلِيفُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ لِتَحْصِيلِ ٱلْعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلثَّوَانِي فَإِذَا نَظَرَ ٱلْفِكْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلْمُجَرَّدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ ٱلْوُجُودِ كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذِّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَنَفْيِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِٱلْبُرْهَانِ ٱلْعَقْلِيِّ ٱلْيَقِينِيِّ لِيَحْصُلَ تَصَوُّرُ ٱلْوُجُودِ تَصَوُّرًا صَحِيحًا مُطَابِقًا إِذَا كَانَ ذٰلِكَ بِقَانُونٍ صَحِيحٍ كَمَا مَرَّ وَصِنْفُ ٱلتَّصْدِيقِ ٱلَّذِي هُوَ تِلْكَ ٱلْإِضَافَةُ وَٱلْحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُمْ عَلَى صِنْفِ ٱلتَّصَوُّرِ فِي ٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّصَوُّرُ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ فِي ٱلْبِدَاءَةِ وَٱلتَّعْلِيمِ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَ ٱلتَّامَّ عِنْدَهُمْ هُوَ غَايَةُ ٱلطَّلَبِ ٱلْإِدْرَاكِيِّ وَإِنَّمَا

التَّصْدِيقُ وَسِيلَةٌ لَهُ وَمَا تَسْمَعُهُ فِي كُتُبِ الْمَنْطِقِيِّينَ مِنْ تَقَدُّمِ التَّصَوُّرِ وَتَوَقُّفِ التَّصْدِيقِ عَلَيْهِ فَبِمَعْنَى الشُّعُورِ لَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ التَّامِّ وَهٰذَا هُوَ مَذْهَبُ كَبِيرِهِمْ أَرِسْطُو ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مَا فِي الْحِسِّ وَمَا وَرَاءَ الْحِسِّ بِهٰذَا النَّظَرِ وَتِلْكَ الْبَرَاهِينِ. وَحَاصِلُ مَدَارِكِهِمْ فِي الْوُجُودِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ الَّذِي فَرَّعُوا عَلَيْهِ قَضَايَا أَنْظَارِهِمْ أَنَّهُمْ عَثَرُوا أَوَّلًا عَلَى الْجِسْمِ السُّفْلِيِّ بِحُكْمِ الشُّهُودِ وَالْحِسِّ ثُمَّ تَرَقَّى إِدْرَاكُهُمْ قَلِيلًا فَشَعَرُوا بِوُجُودِ النَّفْسِ مِنْ قِبَلِ الْحَرَكَةِ وَالْحِسِّ فِي الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ أَحَسُّوا مِنْ قُوَى النَّفْسِ بِسُلْطَانِ الْعَقْلِ وَوَقَفَ إِدْرَاكُهُمْ فَقَضَوْا عَلَى الْجِسْمِ الْعَالِي السَّمَاوِيِّ بِنَحْوٍ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى أَمْرِ الذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَوَجَبَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلْفَلَكِ نَفْسٌ وَعَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ ثُمَّ أَنْهَوْا ذٰلِكَ نِهَايَةَ عَدَدِ الْآحَادِ وَهِيَ الْعَشْرُ تِسْعٌ مُفَصَّلَةٌ ذَوَاتُهَا جُمَلٌ وَوَاحِدٌ أَوَّلُ مُفْرَدٌ وَهُوَ الْعَاشِرُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْوُجُودِ عَلَى هٰذَا النَّحْوِ مِنَ الْقَضَاءِ مَعَ تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَتَخَلُّقِهَا بِالْفَضَائِلِ وَأَنَّ ذٰلِكَ مُمْكِنٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ لَمْ يَرِدْ شَرْعٌ لِتَمْيِيزِهِ بَيْنَ الْفَضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ مِنَ الْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ وَمَيْلِهِ إِلَى الْمَحْمُودِ مِنْهَا وَاجْتِنَابِهِ لِلْمَذْمُومِ بِفِطْرَتِهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ إِذَا حَصَلَ لِلنَّفْسِ حَصَلَتْ لَهَا الْبَهْجَةُ وَاللَّذَّةُ وَأَنَّ الْجَهْلَ بِذٰلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ السَّرْمَدِيُّ وَهٰذَا عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْنَى النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى خَبْطٍ لَهُمْ فِي تَفَاصِيلِ ذٰلِكَ مَعْرُوفٍ فِي كَلِمَاتِهِمْ وَإِمَامُ هٰذِهِ الْمَذَاهِبِ الَّذِي حَصَّلَ مَسَائِلَهَا وَدَوَّنَ عِلْمَهَا وَسَطَّرَ حِجَجَهَا فِيمَا بَلَغَنَا فِي هٰذِهِ الْأَحْقَابِ هُوَ أَرِسْطُو الْمَقْدُونِيُّ مِنْ أَهْلِ مَقْدُونِيَةَ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ تَلَامِيذِ أَفْلَاطُونَ وَهُوَ مُعَلِّمُ الْإِسْكَنْدَرِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَعْنُونَ مُعَلِّمَ صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ إِذْ لَمْ تَكُنْ قَبْلَهُ مُهَذَّبَةً وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ قَانُونَهَا وَاسْتَوْفَى مَسَائِلَهَا وَأَحْسَنَ بَسْطَهَا وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِي ذٰلِكَ الْقَانُونِ مَا شَاءَ لَوْ تَكَفَّلَ لَهُ بِقَصْدِهِمْ فِي الْإِلٰهِيَّاتِ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ أَخَذَ بِتِلْكَ الْمَذَاهِبِ وَاتَّبَعَ فِيهَا رَأْيَهُ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ وَذٰلِكَ أَنَّ كُتُبَ أُولٰئِكَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَمَّا تَرْجَمَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنَ اللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ تَصَفَّحَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَأَخَذَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ مَنْ أَضَلَّهُ اللّٰهُ مِنْ مُنْتَحِلِي الْعُلُومِ وَجَادَلُوا عَنْهَا وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ مِنْ تَفَارِيعِهَا وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو نَصْرٍ الْفَارَابِيُّ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ لِعَهْدِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَأَبُو عَلِيِّ بْنُ سِينَا فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ لِعَهْدِ نِظَامِ

المُلْكُ مِنْ بَنِي بُوَيْهِ بِأَصْبَهَانَ وَغَيْرِهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بَاطِلٌ بِجَمِيعِ وُجُوهِهِ فَأَمَّا إِسْنَادُهُمُ ٱلْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا إِلَى ٱلْعَقْلِ ٱلْأَوَّلِ وَٱكْتِفَاؤُهُمْ بِهِ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلَى ٱلْوَاجِبِ فَهُوَ قُصُورٌ عَمَّا وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنْ رُتَبِ خَلْقِ ٱللهِ فَٱلْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ ذٰلِكَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَكَأَنَّهُمْ فِي ٱقْتِصَارِهِمْ عَلَى إِثْبَاتِ ٱلْعَقْلِ فَقَطْ وَٱلْغَفْلَةِ عَمَّا وَرَاءَهُ بِمَثَابَةِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ ٱلْمُقْتَصِرِينَ عَلَى إِثْبَاتِ ٱلْأَجْسَامِ خَاصَّةً ٱلْمُعْرِضِينَ عَنِ ٱلنَّقْلِ وَٱلْعَقْلِ ٱلْمُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ ٱلْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ ٱللهِ شَيْءٌ وَأَمَّا ٱلْبَرَاهِينُ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَهَا عَلَى مُدَّعَيَاتِهِمْ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى مِعْيَارِ ٱلْمَنْطِقِ وَقَانُونِهِ فَهِيَ قَاصِرَةٌ وَغَيْرُ وَافِيَةٍ بِٱلْغَرَضِ أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلطَّبِيعِيَّ فَوَجْهُ قُصُورِهِ أَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ بَيْنَ تِلْكَ ٱلنَّتَائِجِ ٱلذِّهْنِيَّةِ ٱلَّتِي تُسْتَخْرَجُ بِٱلْحُدُودِ وَٱلْأَقْيِسَةِ كَمَا فِي زَعْمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي ٱلْخَارِجِ غَيْرُ يَقِينِيٍّ لِأَنَّ تِلْكَ أَحْكَامٌ ذِهْنِيَّةٌ كُلِّيَّةٌ عَامَّةٌ وَٱلْمَوْجُودَاتُ ٱلْخَارِجِيَّةُ مُتَشَخِّصَةٌ بِمَوَادِّهَا وَلَعَلَّ فِي ٱلْمَوَادِّ مَا يَمْنَعُ مُطَابَقَةَ ٱلذِّهْنِيِّ ٱلْكُلِّيِّ لِلْخَارِجِيِّ ٱلشَّخْصِيِّ ٱللَّهُمَّ إِلَّا مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ ٱلْحِسُّ مِنْ ذٰلِكَ فَدَلِيلُهُ شُهُودُهُ لَا تِلْكَ ٱلْبَرَاهِينُ فَأَيْنَ ٱلْيَقِينُ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ تَصَرُّفُ ٱلذِّهْنِ أَيْضًا فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلْأُوَلِ ٱلْمُطَابِقَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ بِٱلصُّوَرِ ٱلْخَيَالِيَّةِ لَا فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلثَّوَانِي ٱلَّتِي تَجْرِيدُهَا فِي ٱلرُّتْبَةِ ٱلثَّانِيَةِ فَيَكُونُ ٱلْحُكْمُ حِينَئِذٍ يَقِينِيًّا بِمَثَابَةِ ٱلْمَحْسُوسَاتِ إِذِ ٱلْمَعْقُولَاتُ ٱلْأُوَلُ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابَقَةِ ٱلْخَارِجِ لِكَمَالِ ٱلِٱنْطِبَاقِ فِيهَا فَنُسَلِّمُ لَهُمْ حِينَئِذٍ دَعَاوِيَهُمْ فِي ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ ٱلْمُسْلِمِ لِمَا لَا يَعْنِيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ لَا تُهِمُّنَا فِي دِينِنَا وَلَا مَعَاشِنَا فَوَجَبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا .

وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي وَرَاءَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلرُّوحَانِيَّاتُ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلْإِلٰهِيَّ وَعِلْمَ مَا بَعْدَ ٱلطَّبِيعَةِ فَإِنَّ ذَوَاتِهَا مَجْهُولَةٌ رَأْسًا وَلَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلَا ٱلْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَجْرِيدَ ٱلْمَعْقُولَاتِ مِنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْخَارِجِيَّةِ ٱلشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ مُمْكِنٌ فِيمَا هُوَ مُدْرَكٌ لَنَا وَنَحْنُ لَا نُدْرِكُ ٱلذَّوَاتِ ٱلرُّوحَانِيَّةَ حَتَّى نُجَرِّدَ مِنْهَا مَاهِيَّاتٍ أُخْرَى بِحِجَابِ ٱلْحِسِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فَلَا يَتَأَتَّى لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلَا مُدْرَكٌ لَنَا فِي إِثْبَاتِ وُجُودِهَا عَلَى ٱلْجُمْلَةِ إِلَّا مَا نَجِدُهُ بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ أَمْرِ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَدَارِكِهَا وَخُصُوصًا فِي ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي هِيَ وِجْدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا وَصِفَاتِهَا

فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه وقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا إلى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه لأن مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية وقال كبيرهم أفلاطون إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى اليقين وإنما يقال فيها بالأخلق والأولى يعني الظن وإذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا الظن الذي كان أولاً فأي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن إنما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات وهذه هي غاية الأفكار الإنسانية عندهم وأما قولهم إن السعادة في إدراك الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود وتفسيره أن الإنسان مركب من جزءين أحدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به ولكل واحد من الجزءين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية إلا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه واعتبره بحال الصبي في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يبتهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الأصوات ولا شك أن الابتهاج بالإدراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ فالنفس الروحانية إذا شعرت بإدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنهما وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم وإنما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثيرًا ما يعنون بحصول هذا الإدراك للنفس بحصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ وليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنهما وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم فأما قولهم إن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيته إذ البراهين والأدلة من جملة المدارك الجسمانية لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر ونحن نقول إن أول شيء نعنى به في تحصيل هذا الإدراك إماتة هذه القوى الدماغية كلها لأنها منازعة له قادحة فيه وتجد الماهر منهم عاكفًا

عَلَى كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالإِشَارَاتِ وَالنَّجَاةِ وَتَلَاخِيصِ ابْنِ رُشْدٍ لِلْقَصِّ مِنْ تَأْلِيفِ أَرِسْطُو
وَغَيْرِهِ يُبَعْثِرُ أَوْرَاقَهَا وَيَتَوَثَّقُ مِنْ بَرَاهِينِهَا وَيَلْتَمِسُ هٰذَا الْقِسْطَ مِنَ السَّعَادَةِ فِيهَا وَلَا
يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَكْثِرُ بِذٰلِكَ مِنَ الْمَوَانِعِ عَنْهَا. وَمُسْتَنَدُهُمْ فِي ذٰلِكَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْ
أَرِسْطُو وَالْفَارَابِيِّ وَابْنِ سِينَا أَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ وَاتَّصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ
فَقَدْ حَصَلَ حَظُّهُ مِنْ هٰذِهِ السَّعَادَةِ. وَالْعَقْلُ الْفَعَّالُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتْبَةٍ يَنْكَشِفُ
عَنْهَا الْحِسُّ مِنْ رُتَبِ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ الِاتِّصَالَ بِالْعَقْلِ الْفَعَّالِ عَلَى الإِدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ
وَقَدْ رَأَيْتَ فَسَادَهُ. وَإِنَّمَا يَعْنِي أَرِسْطُو وَأَصْحَابُهُ بِذٰلِكَ الِاتِّصَالِ وَالإِدْرَاكِ إِدْرَاكَ النَّفْسِ
الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَبِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهُوَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِكَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ
إِنَّ الْبَهْجَةَ النَّاشِئَةَ عَنْ هٰذَا الإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا فَبَاطِلٌ أَيْضًا لِأَنَّا
إِنَّمَا تَبَيَّنَ لَنَا بِمَا قَرَّرُوهُ أَنَّ وَرَاءَ الْحِسِّ مُدْرَكًا آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَأَنَّهَا تَبْتَهِجُ
بِإِدْرَاكِهَا ذٰلِكَ ابْتِهَاجًا شَدِيدًا وَذٰلِكَ لَا يُعَيِّنُ لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ السَّعَادَةِ الأُخْرَوِيَّةِ وَلَا بُدَّ
بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَلَاذِّ الَّتِي لِتِلْكَ السَّعَادَةِ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ هٰذِهِ
الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كُنَّا قَدَّمْنَاهُ فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ مِنَ
الأَوْهَامِ وَالأَغْلَاطِ فِي أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيَّنَّا فَسَادَ
ذٰلِكَ وَإِنَّ الْوُجُودَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ أَوْ يُسْتَوْفَى إِدْرَاكُهُ بِجُمْلَتِهِ رُوحَانِيًّا أَوْ جِسْمَانِيًّا.
وَالَّذِي يَحْصُلُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ الْجُزْءَ الرُّوحَانِيَّ إِذَا فَارَقَ الْقُوَى
الْجِسْمَانِيَّةَ أَدْرَكَ إِدْرَاكًا ذَاتِيًّا لَهُ مُخْتَصًّا بِصِنْفٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَهِيَ الْمَوْجُودَاتُ الَّتِي
أَحَاطَ بِهَا عِلْمُنَا وَلَيْسَ بِعَامِّ الإِدْرَاكِ فِي الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِذْ لَمْ تَنْحَصِرْ وَأَنَّهُ يَبْتَهِجُ
بِذٰلِكَ النَّحْوِ مِنَ الإِدْرَاكِ ابْتِهَاجًا شَدِيدًا كَمَا يَبْتَهِجُ الصَّبِيُّ بِمَدَارِكِهِ الْحِسِّيَّةِ فِي أَوَّلِ
نُشُوئِهِ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ ذٰلِكَ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ أَوْ بِحُصُولِ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدَنَا
بِهَا الشَّارِعُ إِنْ لَمْ نَعْمَلْ لَهَا هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ
بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِهَا بِمُلَابَسَةِ الْمَحْمُودِ مِنَ الْخُلُقِ وَمُجَانَبَةِ الْمَذْمُومِ فَأَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى
أَنَّ ابْتِهَاجَ النَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا لِأَنَّ
الرَّذَائِلَ عَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تَمَامِ إِدْرَاكِهَا ذٰلِكَ بِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ
وَأَلْوَانِهَا وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَثَرَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ مِنْ وَرَاءِ الإِدْرَاكَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ

فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي ابن سينا فقال في كتاب المبدإ والمعاد ما معناه إن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع في أحواله إليها فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار هذه ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الفصل الخامس والعشرون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع

الكائنات الكلية والشخصية فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة إبطاله ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع أحدا جحده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القثاء وسائر أفعاله ثم قال ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان الأولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مقنع للنفس الثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا إلى النير الأعظم وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به النطف والبزر فتصير حالا للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال لأن كيفيات البزرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما قال وهو مع ذلك ظني وليس هو أيضا من القضاء الإلهي يعني القدر إنما هو من جملة الأسباب

الطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَائِنِ وَالْقَضَاءُ الإِلٰهِيُّ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ هٰذَا مُحَصَّلُ كَلَامِ بَطْلِيمُسَ وَأَصْحَابِهِ وَهُوَ مَنْصُوصٌ فِي كِتَابِهِ الأَرْبَعِ وَغَيْرِهِ وَمِنْهُ يَتَبَيَّنُ ضُعْفُ مُدْرَكِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ أَنَّ العِلْمَ الْكَائِنَ أَوِ الظَّنَّ بِهِ إِنَّمَا يَحْصُلُ عَنِ العِلْمِ بِجُمْلَةِ أَسْبَابِهِ مِنَ الفَاعِلِ وَالقَابِلِ وَالصُّورَةِ وَالغَايَةِ عَلَى مَا يَتَبَيَّنُ فِي مَوْضِعِهِ وَالقُوَى النُّجُومِيَّةُ عَلَى مَا قَرَّرُوهُ إِنَّمَا هِيَ فَاعِلَةٌ فَقَطْ وَالْجُزْءُ العُنْصُرِيُّ هُوَ القَابِلُ ثُمَّ إِنَّ القُوَى النُّجُومِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الفَاعِلَ بِجُمْلَتِهَا بَلْ هُنَاكَ قُوًى أُخْرَى فَاعِلَةٌ مَعَهَا فِي الْجُزْءِ المَادِّيِّ مِثْلَ قُوَّةِ التَّوْلِيدِ لِلأَبِ وَالنَّوْعِ الَّتِي فِي النُّطْفَةِ وَقُوَى الْخَاصَّةِ الَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا صِنْفٌ مِنَ النَّوْعِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ فَالقُوَى النُّجُومِيَّةُ إِذَا حَصَلَ كَمَالُهَا وَحَصَلَ العِلْمُ فِيهَا إِنَّمَا هِيَ فَاعِلٌ وَاحِدٌ مِنْ جُمْلَةِ الأَسْبَابِ الفَاعِلَةِ لِلْكَائِنِ ثُمَّ إِنَّهُ يُشْتَرَطُ مَعَ العِلْمِ بِقُوَى النُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا مَزِيدُ حَدْسٍ وَتَخْمِينٍ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ عِنْدَهُ الظَّنُّ بِوُقُوعِ الْكَائِنِ وَالحَدْسُ وَالتَّخْمِينُ قُوًى لِلنَّاظِرِ فِي فِكْرِهِ وَلَيْسَ مِنْ عِلَلِ الْكَائِنِ وَلَا مِنْ أُصُولِ الصِّنَاعَةِ فَإِذَا فُقِدَ هٰذَا الحَدْسُ وَالتَّخْمِينُ رَجَعَتْ أَدْرَاجَهَا عَنِ الظَّنِّ إِلَى الشَّكِّ هٰذَا إِذَا حَصَلَ العِلْمُ بِالقُوَى النُّجُومِيَّةِ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْتَرِضْهُ آفَةٌ وَهٰذَا مُعْوِزٌ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةِ حُسْبَانَاتِ الكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا لِتَتَعَرَّفَ بِهِ أَوْضَاعُهَا وَلِمَا أَنَّ اخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَمُدْرَكُ بَطْلِيمُسَ فِي إِثْبَاتِ القُوَى لِلْكَوَاكِبِ الخَمْسَةِ بِقِيَاسِهَا إِلَى الشَّمْسِ مُدْرَكٌ ضَعِيفٌ لِأَنَّ قُوَّةَ الشَّمْسِ غَالِبَةٌ لِجَمِيعِ القُوَى مِنَ الكَوَاكِبِ وَمُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهَا فَقَلَّ أَنْ يُشْعَرَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا أَوِ النُّقْصَانِ مِنْهَا عِنْدَ المُقَارَنَةِ كَمَا قَالَ وَهٰذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تَعْرِيفِ الْكَائِنَاتِ الوَاقِعَةِ فِي عَالَمِ العَنَاصِرِ بِهٰذِهِ الصِّنَاعَةِ ثُمَّ إِنَّ تَأْثِيرَ الْكَوَاكِبِ فِيمَا تَحْتَهَا بَاطِلٌ إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ أَنْ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللهُ بِطَرِيقٍ اسْتِدْلَالِيٍّ كَمَا رَأَيْتَهُ وَاحْتَجَّ لَهُ أَهْلُ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَا هُوَ غَنِيٌّ عَنِ البَيَانِ مِنْ أَنَّ إِسْنَادَ الأَسْبَابِ إِلَى المُسَبَّبَاتِ مَجْهُولُ الْكَيْفِيَّةِ وَالعَقْلُ مُتَّهَمٌ عَلَى مَا يَقْضِي بِهِ فِيمَا يَظْهَرُ بَادِيَ الرَّأْيِ مِنَ التَّأْثِيرِ فَلَعَلَّ اسْتِنَادَهَا عَلَى غَيْرِ صُورَةِ التَّأْثِيرِ المُتَعَارَفِ وَالقُدْرَةُ الإِلٰهِيَّةُ رَابِطَةٌ بَيْنَهُمَا كَمَا رَبَطَتْ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ عُلْوًا وَسُفْلًا سِيَّمَا وَالشَّرْعُ يَرُدُّ الحَوَادِثَ كُلَّهَا إِلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَيَبْرَأُ مِمَّا سِوَى ذٰلِكَ وَالنُّبُوَّاتُ أَيْضًا مُنْكِرَةٌ لِشَأْنِ النُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاسْتِقْرَاءُ الشَّرْعِيَّاتِ شَاهِدٌ بِذٰلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا

لحياته وفي قوله أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث من عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقا لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثيرا في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك أنها وإن كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحدا من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها بل إن نظر فيها ناظر وظن الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متسترا عن الناس وتحت ربقة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه دينا ودنيا وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها إنما يحذق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال فكيف بعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حدس وتخمين

يَكْتَنِفَانِ بِهِ مِنَ ٱلنَّاظِرِ فَأَيْنَ ٱلتَّحْصِيلُ وَٱلْحِذْقُ فِيهِ مَعَ هٰذِهِ كُلِّهَا وَمُدَّعِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ وَلَا شَاهِدَ لَهُ يَقُومُ بِذٰلِكَ لِغَرَابَةِ ٱلْفَنِّ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمِلَّةِ وَقِلَّةِ حَمَلَتِهِ فَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ يَتَبَيَّنْ لَكَ صِحَّةُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . وَمِمَّا وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ عِنْدَمَا غَلَبَ ٱلْعَرَبُ عَسَاكِرَ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي ٱلْحَسَنِ وَحَاصَرُوهُ بِٱلْقَيْرَوَانِ وَكَثُرَ إِرْجَافُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ٱلْأَوْلِيَاءِ وَٱلْأَعْدَاءِ وَقَالَ فِي ذٰلِكَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلرُّوحِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ أَهْلِ تُونِسَ

أَسْتَغْفِرُ ٱللّٰهَ كُلَّ حِينٍ ... قَدْ ذَهَبَ ٱلْعَيْشُ وَٱلْهَنَاءُ
أُصْبِحُ فِي تُونِسٍ وَأُمْسِي ... وَٱلصُّبْحُ لِلّٰهِ وَٱلْمَسَاءُ
أَلْخَوْفُ وَٱلْجُوعُ وَٱلْمَنَايَا ... يُحْدِثُهَا ٱلْهَرْجُ وَٱلْوَبَاءُ
وَٱلنَّاسُ فِي مِرْيَةٍ وَحَرْبٍ ... وَمَا عَسَى يَنْفَعُ ٱلْمِرَاءُ
فَأَحْمَدِيٌّ يَرَى عَلِيًّا ... حَلَّ بِهِ ٱلْهُلْكُ وَٱلتَّوَاءُ
وَآخَرٌ قَالَ سَوْفَ يَأْتِي ... بِهِ إِلَيْكُمْ صَبًا وَرُخَاءُ
وَٱللّٰهُ مِنْ فَوْقِ ذَا وَهٰذَا ... يَقْضِي لِعَبْدَيْهِ مَا يَشَاءُ
يَا رَاصِدَ ٱلْخُنَّسِ ٱلْجَوَارِي ... مَا فَعَلَتْ هٰذِهِ ٱلسَّمَاءُ
مَطَلْتُمُونَا وَقَدْ زَعَمْتُمْ ... أَنَّكُمُ ٱلْيَوْمَ أَمْلِيَاءُ
مَرَّ خَمِيسٌ عَلَى خَمِيسٍ ... وَجَاءَ سَبْتٌ وَأَرْبِعَاءُ
وَنِصْفُ شَهْرٍ وَعُشْرُ ثَانٍ ... وَثَالِثٌ ضَمَّهُ ٱلْقَضَاءُ
وَلَا نَرَى غَيْرَ زُورِ قَوْلٍ ... أَذَاكَ جَهْلٌ أَمِ ٱزْدِرَاءُ
إِنَّا إِلَى ٱللّٰهِ قَدْ عَلِمْنَا ... أَنْ لَيْسَ يُسْتَدْفَعُ ٱلْقَضَاءُ
رَضِيتُ بِٱللّٰهِ لِي إِلٰهًا ... حَسْبُكُمُ ٱلْبَدْرُ أَوْ ذُكَاءُ
مَا هٰذِهِ ٱلْأَنْجُمُ ٱلسَّوَارِي ... إِلَّا عَبَادِيدُ أَوْ إِمَاءُ
يُقْضَى عَلَيْهَا وَلَيْسَ تَقْضِي ... وَمَا لَهَا فِي ٱلْوَرَى ٱقْتِضَاءُ
ضَلَّتْ عُقُولٌ تَرَى قَدِيمًا ... مَا شَأْنُهُ ٱلْجِرْمُ وَٱلْفَنَاءُ
وَحَكَّمَتْ فِي ٱلْوُجُودِ طَبْعًا ... يُحْدِثُهُ ٱلْمَاءُ وَٱلْهَوَاءُ
لَمْ تَرَ حُلْوًا إِزَاءَ مُرٍّ ... تَغْذُوهُمُ تُرْبَةٌ وَمَاءُ

أَللهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَدْرِي ... مَا ٱلْجَوْهَرُ ٱلْفَرْدُ وَٱلْخَلَاءُ
وَلَا ٱلْهَيُولَى ٱلَّتِي تُنَادِي ... مَا لِيَ عَنْ صُورَةٍ عَرَاءُ
وَلَا وُجُودٌ وَلَا ٱنْعِدَامٌ ... وَلَا ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِفَاءُ
وَٱلْكَسْبُ لَمْ أَدْرِ فِيهِ إِلَّا ... مَا جَلَبَ ٱلْبَيْعُ وَٱلشِّرَاءُ
وَإِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي ... مَا كَانَ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءُ
إِذْ لَا فُصُولٌ وَلَا أُصُولٌ ... وَلَا جِدَالٌ وَلَا رِيَاءُ
مَا تَبِعَ ٱلصَّدْرَ وَٱقْتَفَيْنَا ... يَا حَبَّذَا كَانَ ٱلِاقْتِفَاءُ
كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ ... وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ ٱلْهُذَاءُ
يَا أَشْعَرِيَّ ٱلزَّمَانِ إِنِّي ... أَشْعَرَنِي ٱلصَّيْفُ وَٱلشِّتَاءُ
لَمْ أُجْزَ بِٱلشَّرِّ غَيْرَ شَرٍّ ... وَٱلْخَيْرُ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءُ
وَإِنَّنِي إِنْ أَكُنْ مُطِيعًا ... فَلَسْتُ أَعْصَى وَلِي رَجَاءُ
وَإِنَّنِي تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ ... أَطَاعَهُ ٱلْعَرْشُ وَٱلثَّرَاءُ
لَيْسَ ٱنْتِصَارٌ بِكُمْ وَلٰكِنْ ... أَتَاحَهُ ٱلْحُكْمُ وَٱلْقَضَاءُ
لَوْ حُدِّثَ ٱلْأَشْعَرِيُّ عَمَّنْ ... لَهُ إِلَى رَأْيِهِ ٱنْتِمَاءُ
لَقَالَ أَخْبِرْهُمُ بِأَنِّي ... مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

الفصل السادس والعشرون

في انكار ثمرة الكيميا واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

إِعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْعَاجِزِينَ عَنْ مَعَاشِهِمْ تَحْمِلُهُمُ ٱلْمَطَامِعُ عَلَى ٱنْتِحَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ ٱلْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ وَأَنَّ ٱقْتِنَاءَ ٱلْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ عَلَى مُبْتَغِيهِ فَيَرْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ وَٱلْمَشَاقِّ وَمُعَانَاةِ ٱلصِّعَابِ وَعَسْفِ ٱلْحُكَّامِ وَخَسَارَةِ ٱلْأَمْوَالِ فِي ٱلنَّفَقَاتِ زِيَادَةً عَلَى ٱلنَّيْلِ مِنْ غَرَضِهِ وَٱلْعَطَبِ آخِرًا إِذَا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَةٍ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا وَإِنَّمَا أَطْمَعَهُمْ فِي ذٰلِكَ رُؤْيَةُ أَنَّ ٱلْمَعَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَنْقَلِبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لِلْمَادَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ فَيُحَاوِلُونَ بِٱلْعِلَاجِ صَيْرُورَةَ ٱلْفِضَّةِ ذَهَبًا وَٱلنُّحَاسِ وَٱلْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَحْسَبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمْكِنَاتِ عَالَمِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَهُمْ فِي عِلَاجِ ذٰلِكَ طُرُقٌ مُخْتَلِفَةٌ لِٱخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ فِي ٱلتَّدْبِيرِ وَصُورَتِهِ

وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرّم هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك وجملة التدبير عندهم بعد تعيين المادة أن تُمهى بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء إمهائها بالماء وبعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في انقلابها إلى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعّد أو تكلّس لاستخراج مائها أو ترابها فإذا رضي بذلك كله من علاجها وتمّ تدبيره على ما اقتضته أصول صنعته حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسمّونه الإكسير ويزعمون أنه إذا ألقي على الفضة المحماة بالنار عادت ذهبا أو النحاس المحمى بالنار عاد فضة على ما قصد به في عمله ويزعم المحققون منهم أن ذلك الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها وتقلبه إلى صورتها ومزاجها وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالخميرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعا إلى الغذاء وكذا إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتهما هذا محصّل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف أسرارها إذ هي في الأكثر تشبه المعمّى كتآليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ومسلمة المجريطي في كتابه رتبة الحكيم والطغرائي والمغيربي في قصائده العريقة في إجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها . ففاوضت يوما شيخنا أبا البركات التلفيقي كبير مشيخة الأندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التآليف فيها فتصفحه طويلا ثم ردّه إليّ وقال لي وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بيته إلا بالخيبة ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط إما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جزء أو جزءين أو ثلاثة أو الخفية كإلقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزوق المصعّد فيجيء جسما معدنيا

شَبِيهًا بِالْفِضَّةِ وَيَخْفَى إِلاَّ عَلَى النُّقَّادِ الْمَهَرَةِ فَيُقَدِّرُ أَصْحَابُ هٰذِهِ الدُّلْسَةِ مَعَ دُلْسَتِهِمْ هٰذِهِ سِكَّةً يَسْرِبُونَهَا فِي النَّاسِ وَيَطْبَعُونَهَا بِطَابَعِ السُّلْطَانِ تَمْوِيهًا عَلَى الْجُمْهُورِ بِالْخَلاَصِ وَهٰؤُلاَءِ أَخَسُّ النَّاسِ حِرْفَةً وَأَسْوَأُهُمْ عَاقِبَةً لِتَلَبُّسِهِمْ بِسَرِقَةِ أَمْوَالِ النَّاسِ فَإِنَّ صَاحِبَ هٰذِهِ الدُّلْسَةِ إِنَّمَا هُوَ يَدْفَعُ نُحَاسًا فِي الْفِضَّةِ وَفِضَّةً فِي الذَّهَبِ لِيَسْتَخْلِصَهَا لِنَفْسِهِ فَهُوَ سَارِقٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ السَّارِقِ وَمُعْظَمُ هٰذَا الصِّنْفِ لَدَيْنَا بِالْمَغْرِبِ مِنْ طَلَبَةِ الْبَرْبَرِ الْمُنْتَبِذِينَ بِأَطْرَافِ الْبِقَاعِ وَمَسَاكِنِ الأَغْمَارِ يَأْوُونَ إِلَى مَسَاجِدِ الْبَادِيَةِ وَيُمَوِّهُونَ عَلَى الأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ بِأَنَّ بِأَيْدِيهِمْ صِنَاعَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّفُوسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّهِمَا وَالاِسْتِهْلاَكِ فِي طَلَبِهِمَا فَيَحْصُلُونَ مِنْ ذٰلِكَ عَلَى مَعَاشٍ ثُمَّ يَبْقَى ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ تَحْتَ الْخَوْفِ وَالرِّقْبَةِ إِلَى أَنْ يَظْهَرَ الْعَجْزُ وَتَقَعَ الْفَضِيحَةُ فَيَفِرُّونَ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ وَيَسْتَجِدُّونَ حَالاً أُخْرَى فِي اسْتِهْوَاءِ بَعْضِ أَهْلِ الدُّنْيَا بِأَطْمَاعِهِمْ فِيمَا لَدَيْهِمْ وَلاَ يَزَالُونَ كَذٰلِكَ فِي ابْتِغَاءِ مَعَاشِهِمْ وَهٰذَا الصِّنْفُ لاَ كَلاَمَ مَعَهُمْ لأَنَّهُمْ بَلَغُوا الْغَايَةَ فِي الْجَهْلِ وَالرَّدَاءَةِ وَالاِحْتِرَافِ بِالسَّرِقَةِ وَلاَ حَاسِمَ لِعِلَّتِهِمْ إِلاَّ اشْتِدَادُ الْحُكَّامِ عَلَيْهِمْ وَتَنَاوُلُهُمْ مِنْ حَيْثُ كَانُوا وَقَطْعُ أَيْدِيهِمْ مَتَى ظَهَرُوا عَلَى شَأْنِهِمْ لأَنَّ فِيهِ إِفْسَادًا لِلسِّكَّةِ الَّتِي تَعُمُّ بِهَا الْبَلْوَى وَهِيَ مُتَمَوَّلُ النَّاسِ كَافَّةً وَالسُّلْطَانُ مُكَلَّفٌ بِإِصْلاَحِهَا وَالاِحْتِيَاطِ عَلَيْهَا وَالاِشْتِدَادِ عَلَى مُفْسِدِيهَا وَأَمَّا مَنِ انْتَحَلَ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ وَلَمْ يَرْضَ بِحَالِ الدُّلْسَةِ بَلِ اسْتَنْكَفَ عَنْهَا وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ إِفْسَادِ سِكَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَنُقُودِهِمْ وَإِنَّمَا يَطْلُبُ إِحَالَةَ الْفِضَّةِ لِلذَّهَبِ وَالرَّصَاصِ وَالنُّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ إِلَى الْفِضَّةِ بِذٰلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْعِلاَجِ وَبِالإِكْسِيرِ الْحَاصِلِ عِنْدَهُ فَلَنَا مَعَ هٰؤُلاَءِ مُتَكَلَّمٌ وَبَحْثٌ فِي مَدَارِكِهِمْ لِذٰلِكَ مَعَ أَنَّا لاَ نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ تَمَّ لَهُ هٰذَا الْغَرَضُ أَوْ حَصَلَ مِنْهُ عَلَى بُغْيَةٍ إِنَّمَا تَذْهَبُ أَعْمَارُهُمْ فِي التَّدْبِيرِ وَالْفِهْرِ وَالصَّلاَيَةِ وَالتَّصْعِيدِ وَالتَّكْلِيسِ وَاعْتِيَامِ الأَخْطَارِ بِجَمْعِ الْعَقَاقِيرِ وَالْبَحْثِ عَنْهَا وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذٰلِكَ حِكَايَاتٍ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَمَّ لَهُ الْغَرَضُ مِنْهَا أَوْ وَقَفَ عَلَى الْوُصُولِ يَقْنَعُونَ بِاسْتِمَاعِهَا وَالْمُفَاوَضَاتِ فِيهَا وَلاَ يَسْتَرِيبُونَ فِي تَصْدِيقِهَا شَأْنَ الْكَلِفِينَ الْمُغْرَمِينَ بِوَسَاوِسِ الأَخْبَارِ فِيمَا يُكْلَفُونَ بِهِ فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ ذٰلِكَ بِالْمُعَايَنَةِ أَنْكَرُوهُ وَقَالُوا إِنَّمَا سَمِعْنَا وَلَمْ نَرَ هٰكَذَا شَأْنُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَجِيلٍ وَاعْلَمْ أَنَّ انْتِحَالَ هٰذِهِ الصَّنْعَةِ قَدِيمٌ فِي الْعَالَمِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فَلْنَنْقُلْ مَذَاهِبَهُمْ فِي ذٰلِكَ

ثم نتلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه فنقول إن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين هل هي مختلفات بالفصول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو إنها مختلفة بخواص من الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد فالذي ذهب إليه أبو النصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الأنواع وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض لإمكان تبدل الأعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبنى أبو علي بن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجهولة الحقائق رأسا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه وإنما هو في إعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الأجسام بالصقل والإمهاء ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته قال وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والتبن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فقدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكرا بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي بمعناه وهو

ٱلَّذِي ذَكَرَهُ فِي ٱلرَّدِّ عَلَى ٱبْنِ سِينَا صَحِيحٌ لَكِنَّ لَنَا فِي ٱلرَّدِّ عَلَى أَهْلِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ
مَأْخَذًا آخَرَ يَتَبَيَّنُ مِنْهُ ٱسْتِحَالَةُ وُجُودِهَا وَبُطْلَانُ مَزْعَمِهِمْ أَجْمَعِينَ لَا ٱلطُّغْرَائِيُّ وَلَا ٱبْنُ
سِينَا وَذٰلِكَ أَنَّ حَاصِلَ عِلَاجِهِمْ أَنَّهُمْ بَعْدَ ٱلْوُقُوفِ عَلَى ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُسْتَعِدَّةِ بِٱلِٱسْتِعْدَادِ
ٱلْأَوَّلِ يَجْعَلُونَهَا مَوْضُوعًا وَيُحَاذُونَ فِي تَدْبِيرِهَا وَعِلَاجِهَا تَدْبِيرَ ٱلطَّبِيعَةِ فِي ٱلْجِسْمِ ٱلْمَعْدِنِيِّ
حَتَّى أَحَالَتْهُ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً وَيُضَاعِفُونَ ٱلْقُوَى ٱلْفَاعِلَةَ وَٱلْمُنْفَعِلَةَ لِيَتِمَّ فِي زَمَانٍ أَقْصَرَ
لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ مُضَاعَفَةَ قُوَّةِ ٱلْفَاعِلِ تَنْقُصُ مِنْ زَمَنِ فِعْلِهِ وَتُبُيِّنَ أَنَّ ٱلذَّهَبَ
إِنَّمَا يَتِمُّ كَوْنُهُ فِي مَعْدِنِهِ بَعْدَ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ مِنَ ٱلسِّنِينَ دَوْرَةَ ٱلشَّمْسِ ٱلْكُبْرَى فَإِذَا
تَضَاعَفَتِ ٱلْقُوَى وَٱلْكَيْفِيَّاتُ فِي ٱلْعِلَاجِ كَانَ زَمَنُ كَوْنِهِ أَقْصَرَ مِنْ ذٰلِكَ ضَرُورَةً عَلَى
مَا قُلْنَاهُ أَوْ يَتَحَرَّوْنَ بِعِلَاجِهِمْ ذٰلِكَ حُصُولَ صُورَةٍ مِزَاجِيَّةٍ لِتِلْكَ ٱلْمَادَّةِ تُصَيِّرُهَا
كَٱلْخَمِيرَةِ فَتَفْعَلُ فِي ٱلْجِسْمِ ٱلْمُعَالَجِ ٱلْأَفَاعِيلَ ٱلْمَطْلُوبَةَ فِي إِحَالَتِهِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْإِكْسِيرُ
عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مُتَكَوِّنٍ مِنَ ٱلْمُوَلَّدَاتِ ٱلْعُنْصُرِيَّةِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنِ ٱجْتِمَاعِ
ٱلْعَنَاصِرِ ٱلْأَرْبَعَةِ عَلَى نِسْبَةٍ مُتَفَاوِتَةٍ إِذْ لَوْ كَانَتْ مُتَكَافِئَةً فِي ٱلنِّسْبَةِ لَمَا تَمَّ ٱمْتِزَاجُهَا
فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْغَالِبِ عَلَى ٱلْكُلِّ وَلَا بُدَّ فِي كُلِّ مُمْتَزِجٍ مِنَ ٱلْمُوَلَّدَاتِ مِنْ
حَرَارَةٍ غَرِيزِيَّةٍ هِيَ ٱلْفَاعِلَةُ لِكَوْنِهِ ٱلْحَافِظَةُ لِصُورَتِهِ ثُمَّ كُلُّ مُتَكَوِّنٍ فِي زَمَانٍ فَلَا بُدَّ
مِنِ ٱخْتِلَافِ أَطْوَارِهِ وَٱنْتِقَالِهِ فِي زَمَنِ ٱلتَّكْوِينِ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى
غَايَتِهِ وَٱنْظُرْ شَأْنَ ٱلْإِنْسَانِ فِي طَوْرِ ٱلنُّطْفَةِ ثُمَّ ٱلْعَلَقَةِ ثُمَّ ٱلْمُضْغَةِ ثُمَّ ٱلتَّصْوِيرِ ثُمَّ ٱلْجَنِينِ
ثُمَّ ٱلْمَوْلُودِ ثُمَّ ٱلرَّضِيعِ ثُمَّ إِلَى نِهَايَتِهِ وَنِسَبُ ٱلْأَجْزَاءِ فِي كُلِّ طَوْرٍ تَخْتَلِفُ فِي مَقَادِيرِهَا
وَكَيْفِيَّاتِهَا وَإِلَّا لَكَانَ ٱلطَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ هُوَ ٱلْآخِرَ وَكَذَا ٱلْحَرَارَةُ ٱلْغَرِيزِيَّةُ فِي كُلِّ
طَوْرٍ مُخَالِفَةٌ لَهَا فِي ٱلطَّوْرِ ٱلْآخَرِ فَٱنْظُرْ إِلَى ٱلذَّهَبِ مَا يَكُونُ لَهُ فِي مَعْدِنِهِ مِنَ
ٱلْأَطْوَارِ مُنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ وَثَمَانِينَ وَمَا يَنْتَقِلُ فِيهِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْكِيمِيَاءِ
إِلَى أَنْ يُسَاوِقَ فِعْلَ ٱلطَّبِيعَةِ فِي ٱلْمَعْدِنِ وَيُحَاذِيَهُ بِتَدْبِيرِهِ وَعِلَاجِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَمِنْ
شَرْطِ ٱلصِّنَاعَةِ أَبَدًا تَصَوُّرُ مَا يُقْصَدُ إِلَيْهِ بِٱلصَّنْعَةِ فَمِنَ ٱلْأَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ لِلْحُكَمَاءِ أَوَّلُ
ٱلْعَمَلِ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْفِكْرَةِ أَوَّلُ ٱلْعَمَلِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَصَوُّرِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ لِلذَّهَبِ
فِي أَحْوَالِهِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَنِسَبِهَا ٱلْمُتَفَاوِتَةِ فِي كُلِّ طَوْرٍ وَٱخْتِلَافِ ٱلْحَارِّ ٱلْغَرِيزِيِّ عِنْدَ
ٱخْتِلَافِهَا وَمِقْدَارِ ٱلزَّمَانِ فِي كُلِّ طَوْرٍ وَمَا يَنُوبُ عَنْهُ مِنْ مِقْدَارِ ٱلْقُوَى ٱلْمُضَاعَفَةِ وَيَقُومُ

مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة
مزاجية كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها
وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وإنما حال
من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق إنسان من
المني ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه
وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا
الإنسان وأنى له ذلك ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول. حاصل
صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي
ومحاذاتها به إلى أن يتم كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة
مزاجية تفعل في الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وتقلبه إلى صورتها والفعل الصناعي مسبوق
بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها أو فعل المادة
ذات القوى فيها تصورا مفصلا واحدة بعد أخرى وتلك الأحوال لا نهاية لها والعلم
البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان
أو نبات هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة
الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة إنما هو من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها
وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك
أن حكمة الله في الحجرين وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم
فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل
أحد من اقتنائهما على شيء وله وجه آخر من الاستحالة أيضا وهو أن الطبيعة لا تترك
أقرب الطرق في أفعالها وتركب الأعوص والأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي
الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها أو أقل زمانا لما تركته
الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخلقهما وأما تشبيه
الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل
والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى إليه العثور كما زعم. وأما الكيمياء فلم
ينقل عن أحد من أهل العالم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون

فِيهَا عَشْوَاءَ إِلَى هَلُمَّ جَرًّا وَلَا يَظْفَرُونَ إِلَّا بِالْحِكَايَاتِ الْكَاذِبَةِ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ لَحَفِظَهُ عَنْهُ أَوْلَادُهُ أَوْ تِلْمِيذُهُ وَأَصْحَابُهُ وَتُنُوقِلَ فِي الْأَصْدِقَاءِ وَضُمِنَ تَصْدِيقَهُ صِحَّةُ الْعَمَلِ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَشِرَ وَيَبْلُغَ إِلَيْنَا وَإِلَى غَيْرِنَا. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِكْسِيرَ بِمَثَابَةِ الْخَمِيرَةِ وَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ يُحِيلُ مَا يَحْصُلُ فِيهِ وَيَقْلِبُهُ إِلَى ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَمِيرَةَ إِنَّمَا تَقْلِبُ الْعَجِينَ وَتُعِدُّهُ لِلْهَضْمِ وَهُوَ فَسَادٌ وَالْفَسَادُ فِي الْمَوَادِّ سَهْلٌ يَقَعُ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالطَّبَائِعِ وَالْمَطْلُوبُ بِالْإِكْسِيرِ قَلْبُ الْمَعْدِنِ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى فَهُوَ تَكْوِينٌ وَصَلَاحٌ وَالتَّكْوِينُ أَصْعَبُ مِنَ الْفَسَادِ فَلَا يُقَاسُ الْإِكْسِيرُ بِالْخَمِيرَةِ وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكِيمِيَاءَ إِنْ صَحَّ وُجُودُهَا كَمَا تَزْعُمُ الْحُكَمَاءُ الْمُتَكَلِّمُونَ فِيهَا مِثْلُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْمَجْرِيطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ فَلَيْسَتْ مِنْ بَابِ الصَّنَائِعِ الطَّبِيعِيَّةِ وَلَا تَتِمُّ بِأَمْرٍ صِنَاعِيٍّ وَلَيْسَ كَلَامُهُمْ فِيهَا مِنْ مَنْحَى الطَّبِيعِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنْحَى كَلَامِهِمْ فِي الْأُمُورِ السِّحْرِيَّةِ وَسَائِرِ الْخَوَارِقِ وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلْحَلَّاجِ وَغَيْرِهِ وَقَدْ ذَكَرَ مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ وَكَلَامُهُ فِيهَا فِي كِتَابِ رُتْبَةِ الْحَكِيمِ مِنْ هَذَا الْمَنْحَى وَهَذَا كَلَامُ جَابِرٍ فِي رَسَائِلِهِ وَنَحْوُ كَلَامِهِمْ فِيهِ مَعْرُوفٌ وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى شَرْحِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَأَمْرُهَا عِنْدَهُمْ مِنْ كُلِّيَّاتِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ عَنْ حُكْمِ الصَّنَائِعِ فَكَمَا لَا يَتَدَبَّرُ مَا مِنْهُ الْخَشَبُ وَالْحَيَوَانُ فِي يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ خَشَبًا أَوْ حَيَوَانًا فِيمَا عَدَا مَجْرَى تَخْلِيقِهِ كَذَلِكَ لَا يَتَدَبَّرُ ذَهَبٌ مِنْ مَادَّةِ الذَّهَبِ فِي يَوْمٍ وَلَا شَهْرٍ وَلَا يَتَغَيَّرُ طَرِيقُ عَادَتِهِ إِلَّا بِإِرْفَادِ مَا وَرَاءَ عَالَمِ الطَّبَائِعِ وَعَمَلِ الصَّنَائِعِ فَكَذَلِكَ مَنْ طَلَبَ الْكِيمِيَاءَ طَلَبًا صِنَاعِيًّا ضَيَّعَ مَالَهُ وَعَمَلَهُ وَيُقَالُ لِهَذَا التَّدْبِيرِ الصِّنَاعِيِّ التَّدْبِيرُ الْعَقِيمُ لِأَنَّ نَيْلَهُ إِنْ كَانَ صَحِيحًا فَهُوَ وَاقِعٌ مِمَّا وَرَاءَ الطَّبَائِعِ وَالصَّنَائِعِ كَالْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ وَامْتِطَاءِ الْهَوَاءِ وَالنُّفُوذِ فِي كَثَائِفِ الْأَجْسَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ أَوْ مِثْلِ تَخْلِيقِ الطَّيْرِ وَنَحْوِهَا مِنْ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ تَعَالَى وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهِ فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَعَلَى ذَلِكَ فَسَبِيلُ تَيْسِيرِهَا مُخْتَلِفٌ بِحَسَبِ حَالِ مَنْ يُؤْتَاهَا فَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَيُؤْتِيهَا غَيْرَهُ فَتَكُونُ عِنْدَهُ مُعَارَةً وَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَلَا يَمْلِكُ إِيتَاءَهَا فَلَا تَتِمُّ فِي يَدِ غَيْرِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَكُونُ عَمَلُهَا سِحْرِيًّا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهَا إِنَّمَا تَقَعُ بِتَأْثِيرَاتِ النُّفُوسِ وَخَوَارِقِ الْعَادَةِ إِمَّا مُعْجِزَةً أَوْ

سِحْرًا وَلِهٰذَا كَانَ كَلَامُ ٱلْحُكَمَاءِ كُلُّهُمْ فِيهَا إِلْغَازًا لَا يَظْفَرُ بِحَقِيقَتِهِ إِلَّا مَنْ خَاضَ لُجَّةً مِنْ عِلْمِ ٱلسِّحْرِ وَٱطَّلَعَ عَلَى تَصَرُّفَاتِ ٱلنَّفْسِ فِي عَالَمِ ٱلطَّبِيعَةِ وَأُمُورُ خَرْقِ ٱلْعَادَةِ غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ وَلَا يَقْصِدُ أَحَدٌ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَٱللّٰهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَأَكْثَرُ مَا يَحْمِلُ عَلَى ٱلْتِمَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱنْتِحَالِهَا هُوَ كَمَا قُلْنَاهُ ٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْمَعَاشِ وَٱبْتِغَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ وُجُوهِهِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ كَٱلْفِلَاحَةِ وَٱلتِّجَارَةِ وَٱلصِّنَاعَةِ فَيَسْتَصْعِبُ ٱلْعَاجِزُ ٱبْتِغَاءَهُ مِنْ هٰذِهِ وَيَرُومُ ٱلْحُصُولَ عَلَى ٱلْكَثِيرِ مِنَ ٱلْمَالِ دَفْعَةً بِوُجُوهٍ غَيْرِ طَبِيعِيَّةٍ مِنَ ٱلْكِيمِيَاءِ وَغَيْرِهَا وَأَكْثَرُ مَنْ يَعْنَى بِذٰلِكَ ٱلْفُقَرَاءُ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ حَتَّى فِي ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فِي إِنْكَارِهَا وَٱسْتِحَالَتِهَا فَإِنَّ ٱبْنَ سِينَا ٱلْقَائِلَ بِٱسْتِحَالَتِهَا كَانَ عِلْيَةَ ٱلْوُزَرَاءِ فَكَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلْغِنَى وَٱلثَّرْوَةِ وَٱلْفَارَابِيَّ ٱلْقَائِلَ بِإِمْكَانِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَقْرِ ٱلَّذِينَ يُعْوِزُهُمْ أَدْنَى بُلْغَةٍ مِنَ ٱلْمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ وَهٰذِهِ تُهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْظَارِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْمُولَعَةِ بِطُرُقِهَا وَٱنْتِحَالِهَا وَٱللّٰهُ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع والعشرون

في ان كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إِعْلَمْ أَنَّهُ مِمَّا أَضَرَّ بِٱلنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى غَايَاتِهِ كَثْرَةُ ٱلتَّآلِيفِ وَٱخْتِلَافُ ٱلِٱصْطِلَاحَاتِ فِي ٱلتَّعَالِيمِ وَتَعَدُّدُ طُرُقِهَا ثُمَّ مُطَالَبَةُ ٱلْمُتَعَلِّمِ وَٱلتِّلْمِيذِ بِٱسْتِحْضَارِ ذٰلِكَ وَحِينَئِذٍ يُسَلَّمُ لَهُ مَنْصِبُ ٱلتَّحْصِيلِ فَيَحْتَاجُ ٱلْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِفْظِهَا كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرِهَا وَمُرَاعَاةِ طُرُقِهَا وَلَا يَفِي عُمْرُهُ بِمَا كُتِبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا تَجَرَّدَ لَهَا فَيَقَعُ ٱلْقُصُورُ وَلَا بُدَّ دُونَ رُتْبَةِ ٱلتَّحْصِيلِ وَيُمَثَّلُ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ ٱلْفِقْهِ فِي ٱلْمَذْهَبِ ٱلْمَالِكِيِّ بِٱلْكُتُبِ ٱلْمُدَوَّنَةِ مَثَلًا وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشُّرُوحَاتِ ٱلْفِقْهِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ ٱبْنِ يُونُسَ وَٱللَّخْمِيِّ وَٱبْنِ بَشِيرٍ وَٱلتَّنْبِيهَاتِ وَٱلْمُقَدِّمَاتِ وَٱلْبَيَانِ وَٱلتَّحْصِيلِ عَلَى ٱلْعُتْبِيَّةِ وَكَذٰلِكَ كِتَابُ ٱبْنِ ٱلْحَاجِبِ وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِ ثُمَّ إِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى تَمْيِيزِ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْقَيْرَوَانِيَّةِ مِنَ ٱلْقُرْطُبِيَّةِ وَٱلْبَغْدَادِيَّةِ وَٱلْمِصْرِيَّةِ وَطُرُقِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ عَنْهُمْ وَٱلْإِحَاطَةِ بِذٰلِكَ كُلِّهِ وَحِينَئِذٍ يُسَلَّمُ لَهُ مَنْصِبُ ٱلْفُتْيَا وَهِيَ كُلُّهَا مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ وَٱلْمُتَعَلِّمُ مُطَالَبٌ بِٱسْتِحْضَارِ جَمِيعِهَا وَتَمْيِيزِ مَا بَيْنَهَا وَٱلْعُمْرُ يَنْقَضِي فِي وَاحِدٍ مِنْهَا وَلَوِ ٱقْتَصَرَ ٱلْمُعَلِّمُونَ بِٱلْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى ٱلْمَسَائِلِ ٱلْمَذْهَبِيَّةِ فَقَطْ لَكَانَ ٱلْأَمْرُ دُونَ ذٰلِكَ بِكَثِيرٍ وَكَانَ ٱلتَّعْلِيمُ سَهْلًا وَمَأْخَذُهُ

قريبًا ولكنّه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثّل أيضًا علم العربيّة من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريّين والكوفيّين والبغداديّين والأندلسيّين من بعدهم وطرق المتقدّمين والمتأخّرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك كيف يطالب به المتعلّم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه إلّا في القليل النّادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربيّة من أهل مصر يعرف بابن هاشم ظهر من كلامه فيها أنّه استولى على غاية من ملكة تلك الصّناعة لم تحصل إلّا لسيبويه وابن جنّي وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفنّ وتفاريعه وحسن تصرّفه فيه ودلّ على أنّ الفضل ليس منحصرًا في المتقدّمين سيّما مع ما قدّمناه من كثرة الشّواغب بتعدّد المذاهب والطّرق والتّآليف ولكنّ فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود وإلّا فالظّاهر أنّ المتعلّم ولو قطع عمره في هذا كلّه فلا يفي له بتحصيل علم العربيّة مثلًا الّذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الّذي هو الثّمرة ولكنّ الله يهدي من يشاء

الفصل الثامن والعشرون

في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخّرين إلى اختصار الطّرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدوّنون منها برنامجًا مختصرًا في كلّ علم يشتمل على حصر مسائله وأدلّتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفنّ وصار ذلك مخلًّا بالبلاغة وعسرًا على الفهم وربّما عمدوا إلى الكتب الأمّهات المطوّلة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبًا للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربيّة والخونجيّ في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التّعليم وفيه إخلال بالتّحصيل وذلك لأنّ فيه تخليطًا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعدّ لقبولها بعد وهو من سوء التّعليم كما سيأتي ثمّ فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلّم بتتبّع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل

مِنْ بَيْنِهَا لِأَنَّ أَلْفَاظَ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ تَجِدُهَا لِأَجْلِ ذٰلِكَ صَعْبَةً عَوِيصَةً فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حَظٌّ صَالِحٌ عَنِ ٱلْوَقْتِ ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ فَٱلْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ مِنَ ٱلتَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ إِذَا تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْقُبْهُ آفَةٌ فَهِيَ مَلَكَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلَّتِي تَحْصُلُ مِنَ ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْمُطَوَّلَةِ بِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِي تِلْكَ مِنَ ٱلتَّكْرَارِ وَٱلْإِحَالَةِ ٱلْمُفِيدَيْنِ لِحُصُولِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلتَّامَّةِ وَإِذَا ٱقْتُصِرَ عَلَى ٱلتَّكْرَارِ قَصُرَتِ ٱلْمَلَكَةُ لِقِلَّتِهِ كَشَأْنِ هٰذِهِ ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْمُخْتَصَرَةِ فَقَصَدُوا إِلَى تَسْهِيلِ ٱلْحِفْظِ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِينَ فَأَرْكَبُوهُمْ صَعْبًا يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلنَّافِعَةِ وَتَمَكُّنِهَا وَمَنْ يَهْدِ ٱللّٰهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته

إِعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ ٱلْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا يُلْقَى عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ ٱلْفَنِّ هِيَ أُصُولُ ذٰلِكَ ٱلْبَابِ وَيُقَرَّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِجْمَالِ وَيُرَاعَى فِي ذٰلِكَ قُوَّةُ عَقْلِهِ وَٱسْتِعْدَادُهُ لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلْفَنِّ وَعِنْدَ ذٰلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَّأَتْهُ لِفَهْمِ ٱلْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى ٱلْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِي ٱلتَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِي ٱلشَّرْحَ وَٱلْبَيَانَ وَيَخْرُجُ عَنِ ٱلْإِجْمَالِ وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ ٱلْخِلَافِ وَوَجْهِهِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلْفَنِّ فَتَجُودُ مَلَكَتُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَّ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيصًا وَلَا مُهِمًّا وَلَا مُغْلَقًا إِلَّا وَضَّحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ فَيَخْلُصُ مِنَ ٱلْفَنِّ وَقَدِ ٱسْتَوْلَى عَلَى مَلَكَتِهِ هٰذَا وَجْهُ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْمُفِيدِ وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكْرَارَاتٍ وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ فِي أَقَلَّ مِنْ ذٰلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ وَقَدْ شَاهَدْنَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْمُعَلِّمِينَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلَّذِي أَدْرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ ٱلتَّعْلِيمِ وَإِفَادَاتِهِ وَيُحْضِرُونَ لِلْمُتَعَلِّمِ فِي أَوَّلِ تَعْلِيمِهِ ٱلْمَسَائِلَ ٱلْمُقْفَلَةَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَيُطَالِبُونَهُ بِإِحْضَارِ ذِهْنِهِ فِي حَلِّهَا وَيَحْسَبُونَ ذٰلِكَ مِرَانًا عَلَى ٱلتَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ رَعْيَ ذٰلِكَ وَتَحْصِيلَهُ وَيَخْلِطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يُلْقُونَ لَهُ مِنْ غَايَاتِ ٱلْفُنُونِ فِي مَبَادِئِهَا وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنَّ قَبُولَ ٱلْعِلْمِ وَٱلِاسْتِعْدَادَاتِ

لفهمه تنشأ تدريجا ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن وإذا ألقيت عليه الغايات في البداءات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وإنما أتى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا وأقرب صبغة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه فربما كان ذلك أجدر لتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب. واعلم أيها المتعلم أني أتحفك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها وذلك أن الفكر

الإنسانيّ طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلاً بأن يتوجّه إلى المطلوب وقد يصوّر طرفيه يروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن كان واحداً أو ينتقل إلى تحصيل آخر إن كان متعدّداً ويصير إلى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميّز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثمّ الصناعة المنطقيّة هي كيفيّة فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطائه وأنها وإن كان الصواب لها ذاتيّاً إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقلّ من تصوّر الطرفين على غير صورتهما من اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنتاج فتعين المنطق للتخلّص من ورطة هذا الفساد إذا عرض فالمنطق إذاً أمر صناعيّ مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمراً صناعيّاً استغني عنه في الأكثر ولذلك تجد كثيراً من فحول النظّار في الخليقة يحصّلون على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق ولا سيّما مع صدق النيّة والتعرّض لرحمة الله فإنّ ذلك أعظم معين ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضي بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثمّ من دون هذا الأمر الصناعيّ الذي هو المنطق مقدّمة أخرى من التعلّم وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنيّة تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بدّ أيّها المتعلّم من مجاوزتك هذه الحجب كلّها إلى الفكر في مطلوبك فأوّلاً دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفّها ثمّ دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثمّ القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق ثمّ تلك المعاني مجرّدة في الفكر اشتراطاً يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرّض لرحمة الله ومواهبه وليس كلّ أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة بل ربّما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشتراك الأدلّة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكد يتخلّص من تلك الغمرة إلا قليل ممّن هداه الله فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو

تَشْغِيبٌ بِالشُّبُهَاتِ فِي ذِهْنِكَ فَاطْرَحْ ذَلِكَ وَٱنْتَبِذْ حُجُبَ ٱلْأَلْفَاظِ وَعَوَائِقَ ٱلشُّبُهَاتِ وَٱتْرُكِ ٱلْأَمْرَ ٱلصِّنَاعِيَّ جُمْلَةً وَٱخْلُصْ إِلَى فَضَاءِ ٱلْفِكْرِ ٱلطَّبِيعِيِّ ٱلَّذِي فُطِرْتَ عَلَيْهِ وَسَرِّحْ نَظَرَكَ فِيهِ وَفَرِّغْ ذِهْنَكَ فِيهِ لِلْغَوْصِ عَلَى مَرَامِكَ مِنْهُ وَاضِعًا لَهَا حَيْثُ وَضَعَهَا أَكَابِرُ ٱلنُّظَّارِ قَبْلَكَ مُسْتَعْرِضًا لِلْفَتْحِ مِنَ ٱللهِ كَمَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذِهْنِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ ٱلْفَتْحِ مِنَ ٱللهِ بِالظَّفَرِ بِمَطْلُوبِكَ وَحَصَلَ ٱلْإِمَامُ ٱلْوَسَطُ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱللهُ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ هَذَا ٱلْفِكْرِ وَنَظَرِهِ عَلَيْهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَحِينَئِذٍ فَارْجِعْ بِهِ إِلَى قَوَالِبِ ٱلْأَدِلَّةِ وَصُوَرِهَا فَأَفْرِغْهُ فِيهَا وَوَفِّهِ حَقَّهُ مِنَ ٱلْقَانُونِ ٱلصِّنَاعِيِّ ثُمَّ ٱكْسُهُ صُوَرَ ٱلْأَلْفَاظِ وَأَبْرِزْهُ إِلَى عَالَمِ ٱلْخِطَابِ وَٱلْمُشَافَهَةِ وَثِيقَ ٱلْعُرَى صَحِيحَ ٱلْبُنْيَانِ. وَأَمَّا إِنْ وَقَفْتَ عِنْدَ ٱلْمُنَاقَشَةِ وَٱلشُّبْهَةِ فِي ٱلْأَدِلَّةِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ وَتَمْحِيصِ صَوَابِهَا مِنْ خَطَائِهَا وَهَذِهِ أُمُورٌ صِنَاعِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ تَسْتَوِي جِهَاتُهَا ٱلْمُتَعَدِّدَةُ وَتَتَشَابَهُ لِأَجْلِ ٱلْوَضْعِ وَٱلِاصْطِلَاحِ فَلَا تَتَمَيَّزُ جِهَةُ ٱلْحَقِّ مِنْهَا إِذْ جِهَةُ ٱلْحَقِّ إِنَّمَا تَسْتَبِينُ إِذَا كَانَتْ بِالطَّبْعِ فَيَسْتَمِرُّ مَا حَصَلَ مِنَ ٱلشَّكِّ وَٱلِارْتِيَابِ وَتُسْدَلُ ٱلْحُجُبُ عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ وَتَقْعُدُ بِالنَّاظِرِ عَنْ تَحْصِيلِهِ وَهَذَا شَأْنُ ٱلْأَكْثَرِينَ مِنَ ٱلنُّظَّارِ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ سِيَّمَا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ عُجْمَةٌ فِي لِسَانِهِ فَرَبَطَتْ عَنْ ذِهْنِهِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ شَغَبٌ بِالْقَانُونِ ٱلْمَنْطِقِيِّ تَعَصَّبَ لَهُ فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ ٱلذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ ٱلْحَقِّ بِالطَّبْعِ فَيَقَعُ فِي ٱلْحَيْرَةِ بَيْنَ شُبَهِ ٱلْأَدِلَّةِ وَشُكُوكِهَا وَلَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْهَا وَٱلذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ ٱلْحَقِّ بِالطَّبْعِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْفِكْرُ ٱلطَّبِيعِيُّ كَمَا قُلْنَاهُ إِذَا جُرِّدَ عَنْ جَمِيعِ ٱلْأَوْهَامِ وَتَعَرَّضَ ٱلنَّاظِرُ فِيهِ إِلَى رَحْمَةِ ٱللهِ تَعَالَى وَأَمَّا ٱلْمَنْطِقُ فَإِنَّمَا هُوَ وَاصِفٌ لِفِعْلِ هَذَا ٱلْفِكْرِ فَيُسَاوِقُهُ فِي ٱلْأَكْثَرِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَٱسْتَمْطِرْ رَحْمَةَ ٱللهِ تَعَالَى مَتَى أَعْوَزَكَ فَهْمُ ٱلْمَسَائِلِ تُشْرِقْ عَلَيْكَ أَنْوَارُهُ بِالْإِلْهَامِ إِلَى ٱلصَّوَابِ وَٱللهُ ٱلْهَادِي إِلَى رَحْمَتِهِ وَمَا ٱلْعِلْمُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ

الفصل الثلاثون

في ان العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعُلُومَ ٱلْمُتَعَارَفَةَ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ عُلُومٍ مَقْصُودَةٍ بِالذَّاتِ كَالشَّرْعِيَّاتِ مِنَ ٱلتَّفْسِيرِ وَٱلْحَدِيثِ وَٱلْفِقْهِ وَعِلْمِ ٱلْكَلَامِ وَكَالطَّبِيعِيَّاتِ وَٱلْإِلٰهِيَّاتِ

منَ ٱلفَلسفةِ وَعلُومٍ هِيَ وَسيلةٌ آليةٌ لهذِهِ ٱلعلُوم كٱلعربيةِ وٱلحسابِ وغيرِهِما للشرعيَّاتِ، كٱلمنطقِ للفلسفةِ ورُبَّما كانَ آلةً لعلمِ ٱلكلامِ ولأُصولِ ٱلفقهِ على طريقةِ ٱلمتأخِّرين فأمَّا ٱلعلُومُ ٱلَّتي هِيَ مقاصدُ فلا حرجَ في توسعةِ ٱلكلامِ فيها وتفريعِ ٱلمسائلِ وٱستكشافِ ٱلأدلَّةِ وٱلأنظارِ فإنَّ ذلكَ يزيدُ طالبَها تمكُّنًا في ملكتهِ وإيضاحًا لمعانيها ٱلمقصودةِ وأمَّا ٱلعلومُ ٱلَّتي هِيَ آلةٌ لغيرِها مثلَ ٱلعربيةِ وٱلمنطقِ وأمثالِها فلا ينبغي أن يُنظرَ فيها إلاَّ من حيثُ هِيَ آلةٌ لذلكَ ٱلغيرِ فقطْ ولا يُوسَّعُ فيها ٱلكلامُ ولا تفرَّعُ ٱلمسائلُ لأنَّ ذلكَ مُخرجٌ لها عنِ ٱلمقصودِ إذِ ٱلمقصودُ منها ما هِيَ آلةٌ لهُ لا غيرُ فكلَّما خرجتْ عنْ ذلكَ خرجتْ عنِ ٱلمقصودِ وصارَ ٱلإشتغالُ بها لغوًا معَ ما فيهِ منْ صعوبةِ ٱلحصُولِ على ملكتِها بطولِها وكثرةِ فروعِها وربَّما يكونُ ذلكَ عائقًا عنْ تحصيلِ ٱلعلومِ ٱلمقصودةِ بٱلذَّاتِ لطولِ وسائلِها معَ أنَّ شأنَها أهمُّ وٱلعمرُ يقصرُ عنْ تحصيلِ ٱلجميعِ على هذهِ ٱلصورةِ فيكونُ ٱلإشتغالُ بهذهِ ٱلعلومِ ٱلآليةِ تضييعًا للعمرِ وشغلاً بما لا يعني وهذا كما فعلَ ٱلمتأخِّرونَ في صناعةِ ٱلنَّحوِ وصناعةِ ٱلمنطقِ وأُصولِ ٱلفقهِ لأنَّهم أوسعوا دائرةَ ٱلكلامِ فيها وأكثروا منَ ٱلتفاريعِ وٱلإستدلالاتِ بما أخرجَها عنْ كونِها آلةً وصيَّرها منَ ٱلمقاصدِ وربَّما يقعُ فيها أنظارٌ لا حاجةَ بها في ٱلعلومِ ٱلمقصودةِ فهيَ منْ نوعِ ٱللَّغوِ وهيَ أيضًا مضرَّةٌ بٱلمتعلِّمينَ على ٱلإطلاقِ لأنَّ ٱلمتعلِّمينَ ٱهتمامُهم بٱلعلومِ ٱلمقصودةِ أكثرُ منَ ٱهتمامِهم بوسائلِها فإذا قطعوا ٱلعمرَ في تحصيلِ ٱلوسائلِ فمتى يظفرُونَ بٱلمقاصدِ فلهذا يجبُ على ٱلمعلِّمينَ لهذهِ ٱلعلومِ ٱلآليةِ أنْ لا يستبحِرُوا في شأنِها وينبِّهوا ٱلمتعلِّمَ على ٱلغرضِ منها ويقفُوا بهِ عندهُ فمنْ نزعتْ بهِ همَّتُهُ بعدَ ذلكَ إلى شيءٍ منَ ٱلتوغُّلِ فليرقَ لهُ ما شاءَ منَ ٱلمراقي صعبًا أوْ سهلاً وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ

الفصل الواحد والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه

إعلمْ أنَّ تعليمَ ٱلولدانِ للقرآنِ شعارُ ٱلدِّينِ أخذَ بهِ أهلُ ٱلملَّةِ ودرجوا عليهِ في جميعِ أمصارِهم لما يسبقُ فيهِ إلى ٱلقلوبِ منْ رسوخِ ٱلإيمانِ وعقائدهِ منْ آياتِ ٱلقرآنِ وبعضِ متونِ ٱلأحاديثِ وصارَ ٱلقرآنُ أصلَ ٱلتعليمِ ٱلَّذي ينبني عليهِ

مَا يَحْصُلُ بَعْدُ مِنَ ٱلْمَلَكَاتِ وَسَبَبُ ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ فِي ٱلصِّغَرِ أَشَدُّ رُسُوخًا وَهُوَ أَصْلٌ لِمَا بَعْدَهُ لِأَنَّ ٱلسَّابِقَ ٱلْأَوَّلَ لِلْقُلُوبِ كَٱلْأَسَاسِ لِلْمَلَكَاتِ وَعَلَى حَسَبِ ٱلْأَسَاسِ وَأَسَالِيبِهِ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَنْبَنِي عَلَيْهِ وَٱخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ ٱلْقُرْآنِ لِلْوِلْدَانِ بِٱخْتِلَافِهِمْ بِٱعْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَٰلِكَ ٱلتَّعْلِيمِ مِنَ ٱلْمَلَكَاتِ فَأَمَّا أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ فَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلْوِلْدَانِ ٱلِٱقْتِصَارُ عَلَى تَعْلِيمِ ٱلْقُرْآنِ فَقَطْ وَأَخْذُهُمْ أَثْنَاءَ ٱلْمُدَارَسَةِ بِٱلرَّسْمِ وَمَسَائِلِهِ وَٱخْتِلَافِ حَمَلَةِ ٱلْقُرْآنِ فِيهِ لَا يَخْلِطُونَ ذَٰلِكَ بِسِوَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ لَا مِنْ حَدِيثٍ وَلَا مِنْ فِقْهٍ وَلَا مِنْ شِعْرٍ وَلَا مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَى أَنْ يَحْذِقَ فِيهِ أَوْ يَنْقَطِعَ دُونَهُ فَيَكُونُ ٱنْقِطَاعُهُ فِي ٱلْغَالِبِ ٱنْقِطَاعًا عَنِ ٱلْعِلْمِ بِٱلْجُمْلَةِ وَهَٰذَا مَذْهَبُ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ بِٱلْمَغْرِبِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قُرَى ٱلْبَرْبَرِ أُمَمِ ٱلْمَغْرِبِ فِي وِلْدَانِهِمْ إِلَى أَنْ يُجَاوِزُوا حَدَّ ٱلْبُلُوغِ إِلَى ٱلشَّبِيبَةِ وَكَذَا فِي ٱلْكَبِيرِ إِذَا رَجَعَ مُدَارَسَةَ ٱلْقُرْآنِ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنْ عُمْرِهِ فَهُمْ لِذَٰلِكَ أَقْوَمُ عَلَى رَسْمِ ٱلْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فَمَذْهَبُهُمْ تَعْلِيمُ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَهَٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُرَاعُونَهُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ ٱلْقُرْآنُ أَصْلَ ذَٰلِكَ وَأُسَّهُ وَمَنْبَعَ ٱلدِّينِ وَٱلْعُلُومِ جَعَلُوهُ أَصْلًا فِي ٱلتَّعْلِيمِ فَلَا يَقْتَصِرُونَ لِذَٰلِكَ عَلَيْهِ فَقَطْ بَلْ يَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ رِوَايَةَ ٱلشِّعْرِ فِي ٱلْغَالِبِ وَٱلتَّرَسُّلَ وَأَخْذَهُمْ بِقَوَانِينِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَحِفْظِهَا وَتَجْوِيدِ ٱلْخَطِّ وَٱلْكِتَابِ وَلَا تَخْتَصُّ عِنَايَتُهُمْ فِيهِ بِٱلْخَطِّ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِهَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ ٱلْوَلَدُ مِنْ عُمْرِ ٱلْبُلُوغِ إِلَى ٱلشَّبِيبَةِ وَقَدْ شَدَا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلشِّعْرِ وَٱلْبَصَرِ بِهِمَا وَبَرَّزَ فِي ٱلْخَطِّ وَٱلْكِتَابِ وَتَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ لَوْ كَانَ فِيهَا سَنَدٌ لِتَعْلِيمِ ٱلْعُلُومِ لَكِنَّهُمْ يَنْقَطِعُونَ عَنْ ذَٰلِكَ لِٱنْقِطَاعِ سَنَدِ ٱلتَّعْلِيمِ فِي آفَاقِهِمْ وَلَا يَحْصُلُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَّا مَا حَصَلَ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَفِيهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ أَرْشَدَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى وَٱسْتِعْدَادٌ إِذَا وُجِدَ ٱلْمُعَلِّمُ وَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ فَيَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ ٱلْقُرْآنَ بِٱلْحَدِيثِ فِي ٱلْغَالِبِ وَمُدَارَسَةِ قَوَانِينِ ٱلْعُلُومِ وَتَلْقِينِ بَعْضِ مَسَائِلِهَا إِلَّا أَنَّ عِنَايَتَهُمْ بِٱلْقُرْآنِ وَٱسْتِظْهَارَ ٱلْوِلْدَانِ إِيَّاهُ وَوُقُوفَهُمْ عَلَى ٱخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِ وَقِرَاءَاتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا سِوَاهُ وَعِنَايَتُهُمْ بِٱلْخَطِّ تَبَعٌ لِذَٰلِكَ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَطَرِيقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ ٱلْقُرْآنِ أَقْرَبُ إِلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱسْتَقَرُّوا بِتُونِسَ وَعَنْهُمْ أَخَذَ وِلْدَانُهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ فَيَخْلِطُونَ فِي ٱلتَّعْلِيمِ كَذَٰلِكَ عَلَى مَا يَبْلُغُنَا

وَلَا أَدْرِي بِمَ عِنَايَتُهُمْ مِنْهَا وَالَّذِي يُنْقَلُ لَنَا أَنَّ عِنَايَتَهُمْ بِدِرَاسَةِ الْقُرْآنِ وَصُحُفِ الْعِلْمِ وَقَوَانِينِهِ فِي زَمَنِ الشَّبِيبَةِ وَلَا يَخْلِطُونَ بِتَعْلِيمِ الْخَطِّ بَلْ لِتَعْلِيمِ الْخَطِّ عِنْدَهُمْ قَانُونٌ وَمُعَلِّمُونَ لَهُ عَلَى انْفِرَادِهِ كَمَا تُتَعَلَّمُ سَائِرُ الصَّنَائِعِ وَلَا يَتَدَاوَلُونَهَا فِي مَكَاتِبِ الصِّبْيَانِ وَإِذَا كَتَبُوا لَهُمُ الْأَلْوَاحَ فَبِخَطٍّ قَاصِرٍ عَنِ الْإِجَادَةِ وَمَنْ أَرَادَ تَعَلُّمَ الْخَطِّ فَعَلَى قَدْرِ مَا يَسْنَحُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْهِمَّةِ فِي طَلَبِهِ وَيَبْتَغِيهِ مِنْ أَهْلِ صَنْعَتِهِ فَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ فَأَفَادَهُمُ الِاقْتِصَارُ عَلَى الْقُرْآنِ الْقُصُورَ عَنْ مَلَكَةِ اللِّسَانِ جُمْلَةً وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَنْشَأُ عَنْهُ فِي الْغَالِبِ مَلَكَةٌ لِمَا أَنَّ الْبَشَرَ مَصْرُوفُونَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فَهُمْ مَصْرُوفُونَ لِذَلِكَ عَنِ الِاسْتِعْمَالِ عَلَى أَسَالِيبِهِ وَالِاحْتِذَاءِ بِهَا وَلَيْسَ لَهُمْ مَلَكَةٌ فِي غَيْرِ أَسَالِيبِهِ فَلَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مَلَكَةٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحَظُّهُ الْجُمُودُ فِي الْعِبَارَاتِ وَقِلَّةُ التَّصَرُّفِ فِي الْكَلَامِ وَرُبَّمَا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ فِي ذَلِكَ أَخَفَّ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِمَا يَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمُ الْقُرْآنَ بِعِبَارَاتِ الْعُلُومِ فِي قَوَانِينِهَا كَمَا قُلْنَاهُ فَيَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَمُحَاذَاةِ الْمِثْلِ بِالْمِثْلِ إِلَّا أَنَّ مَلَكَتَهُمْ فِي ذَلِكَ قَاصِرَةٌ عَنِ الْبَلَاغَةِ كَمَا سَيَأْتِي فِي فَصْلِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَأَفَادَهُمُ التَّفَنُّنُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثْرَةُ رِوَايَةِ الشِّعْرِ وَالتَّرَسُّلُ وَمُدَارَسَةُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ الْعُمْرِ حُصُولَ مَلَكَةٍ صَارُوا بِهَا أَعْرَفَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَقَصَّرُوا فِي سَائِرِ الْعُلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ مُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعُلُومِ وَأَسَاسُهَا فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهْلَ حَظٍّ وَأَدَبٍ بَارِعٍ أَوْ مُقَصِّرٍ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّعْلِيمُ الثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ الصَّبِيِّ وَلَقَدْ ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي كِتَابِ رِحْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ فِي وَجْهِ التَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَأَ وَقَدَّمَ تَعْلِيمَ الْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ عَلَى سَائِرِ الْعُلُومِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ قَالَ لِأَنَّ الشِّعْرَ دِيوَانُ الْعَرَبِ وَيَدْعُو عَلَى تَقْدِيمِهِ وَتَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ ضَرُورَةُ فَسَادِ اللُّغَةِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى الْحِسَابِ فَيَتَمَرَّنُ فِيهِ حَتَّى يَرَى الْقَوَانِينَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دَرْسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَيَسَّرُ عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ ثُمَّ قَالَ وَيَا غَفْلَةَ أَهْلِ بِلَادِنَا فِي أَنْ يُؤْخَذَ الصَّبِيُّ بِكِتَابِ اللهِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ يَقْرَأُ مَا لَا يَفْهَمُ وَيَنْصَبُ فِي أَمْرٍ غَيْرُهُ أَهَمُّ مَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَنْظُرُ فِي أُصُولِ الدِّينِ ثُمَّ أُصُولِ الْفِقْهِ ثُمَّ الْجَدَلِ ثُمَّ الْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُخْلَطَ فِي التَّعْلِيمِ عِلْمَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُتَعَلِّمُ قَابِلًا لِذَلِكَ بِجَوْدَةِ الْفَهْمِ وَالنَّشَاطِ هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي

أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَهُوَ لَعَمْرِي مَذْهَبٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْعَوَائِدَ لَا تُسَاعِدُ عَلَيْهِ وَهِيَ أَمْلَكُ بِٱلْأَحْوَالِ وَوَجْهُ مَا ٱخْتُصَّتْ بِهِ ٱلْعَوَائِدُ مِنْ تَقَدُّمِ دِرَاسَةِ ٱلْقُرْآنِ إِيثَارًا لِلتَّبَرُّكِ وَٱلثَّوَابِ وَخَشْيَةَ مَا يَعْرِضُ لِلْوَلَدِ فِي جُنُونِ ٱلصِّبَى مِنَ ٱلْآفَاتِ وَٱلْقَوَاطِعِ عَنِ ٱلْعِلْمِ فَيَفُوتُهُ ٱلْقُرْآنُ لِأَنَّهُ مَا دَامَ فِي ٱلْحَجْرِ مُنْقَادٌ لِلْحُكْمِ فَإِذَا تَجَاوَزَ ٱلْبُلُوغَ وَٱنْحَلَّ مِنْ رِبْقَةِ ٱلْقَهْرِ فَرُبَّمَا عَصَفَتْ بِهِ رِيَاحُ ٱلشَّبِيبَةِ فَأَلْقَتْهُ بِسَاحِلِ ٱلْبَطَالَةِ فَيَغْتَنِمُونَ فِي زَمَانِ ٱلْحَجْرِ وَرِبْقَةِ ٱلْحُكْمِ تَحْصِيلَ ٱلْقُرْآنِ لِئَلَّا يَذْهَبَ خُلْوًا مِنْهُ وَلَوْ حَصَلَ ٱلْيَقِينُ بِٱسْتِمْرَارِهِ فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ وَقَبُولِهِ ٱلتَّعْلِيمَ لَكَانَ هٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱلْقَاضِي أَوْلَى مَا أَخَذَ بِهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْمَشْرِقِ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثاني والثلاثون

في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وَذٰلِكَ أَنَّ إِرْهَافَ ٱلْحَدِّ بِٱلتَّعْلِيمِ مُضِرٌّ بِٱلْمُتَعَلِّمِ سِيَّمَا فِي أَصَاغِرِ ٱلْوُلْدِ لِأَنَّهُ مِنْ سُوءِ ٱلْمَلَكَةِ وَمَنْ كَانَ مَرْبَاهُ بِٱلْعَسْفِ وَٱلْقَهْرِ مِنَ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ أَوِ ٱلْمَمَالِيكِ أَوِ ٱلْخَدَمِ سَطَا بِهِ ٱلْقَهْرُ وَضَيَّقَ عَنِ ٱلنَّفْسِ فِي ٱنْبِسَاطِهَا وَذَهَبَ بِنَشَاطِهَا وَدَعَاهُ إِلَى ٱلْكَسَلِ وَحَمَلَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَٱلْخُبْثِ وَهُوَ ٱلتَّظَاهُرُ بِغَيْرِ مَا فِي ضَمِيرِهِ خَوْفًا مِنِ ٱنْبِسَاطِ ٱلْأَيْدِي بِٱلْقَهْرِ عَلَيْهِ وَعَلَّمَهُ ٱلْمَكْرَ وَٱلْخَدِيعَةَ لِذٰلِكَ وَصَارَتْ لَهُ هٰذِهِ عَادَةً وَخُلُقًا وَفَسَدَتْ مَعَانِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ ٱلِٱجْتِمَاعُ وَٱلتَّمَرُّنُ وَهِيَ ٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْمُدَافَعَةُ عَنْ نَفْسِهِ وَمَنْزِلِهِ وَصَارَ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فِي ذٰلِكَ بَلْ وَكَسِلَتِ ٱلنَّفْسُ عَنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْخُلُقِ ٱلْجَمِيلِ فَٱنْقَبَضَتْ عَنْ غَايَتِهَا وَمَدَى إِنْسَانِيَّتِهَا فَٱرْتَكَسَ وَعَادَ فِي أَسْفَلِ ٱلسَّافِلِينَ وَهٰكَذَا وَقَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ حَصَلَتْ فِي قَبْضَةِ ٱلْقَهْرِ وَنَالَ مِنْهَا ٱلْعَسْفُ وَٱعْتَبِرْهُ فِي كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ أَمْرَهُ عَلَيْهِ وَلَا تَكُونُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلْكَافِلَةُ لَهُ رَفِيقَةً بِهِ وَتَجِدُ ذٰلِكَ فِيهِمِ ٱسْتِقْرَاءً وَٱنْظُرْهُ فِي ٱلْيَهُودِ وَمَا حَصَلَ بِذٰلِكَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ ٱلسُّوءِ حَتَّى إِنَّهُمْ يُوصَفُونَ فِي كُلِّ أُفُقٍ وَعَصْرٍ بِٱلْحَرَجِ وَمَعْنَاهُ فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ ٱلْمَشْهُورِ ٱلتَّخَابُثُ وَٱلْكَيْدُ وَسَبَبُهُ مَا قُلْنَاهُ فَيَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ فِي مُتَعَلِّمِهِ وَٱلْوَالِدِ فِي وَلَدِهِ أَنْ لَا يَسْتَبِدَّا عَلَيْهِمَا فِي ٱلتَّأْدِيبِ وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ ٱلَّذِي أَلَّفَهُ فِي حُكْمِ ٱلْمُعَلِّمِينَ وَٱلْمُتَعَلِّمِينَ لَا يَنْبَغِي لِمُؤَدِّبِ ٱلصِّبْيَانِ أَنْ يَزِيدَ فِي ضَرْبِهِمْ إِذَا ٱحْتَاجُوا إِلَيْهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ شَيْئًا وَمَنْ

كَلَامِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ ٱلشَّرْعُ لَا أَدَّبَهُ ٱللّٰهُ حِرْصًا عَلَى صَوْنِ ٱلنُّفُوسِ عَنْ مَذَلَّةِ ٱلتَّأْدِيبِ وَعِلْمًا بِأَنَّ ٱلْمِقْدَارَ ٱلَّذِي عَيَّنَهُ ٱلشَّرْعُ لِذٰلِكَ أَمْلَكُ لَهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَتِهِ وَمِنْ أَحْسَنِ مَذَاهِبِ ٱلتَّعْلِيمِ مَا تَقَدَّمَ بِهِ ٱلرَّشِيدُ لِمُعَلِّمِ وَلَدِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْأَمِينِ فَقَالَ يَا أَحْمَرُ إِنَّ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مُهْجَةَ نَفْسِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَصَيِّرْ يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً وَطَاعَتَهُ لَكَ وَاجِبَةً وَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَقْرِئْهُ ٱلْقُرْآنَ وَعَرِّفْهُ ٱلْأَخْبَارَ وَرَوِّهِ ٱلْأَشْعَارَ وَعَلِّمْهُ ٱلسُّنَنَ وَبَصِّرْهُ بِمَوَاقِعِ ٱلْكَلَامِ وَبَدْئِهِ وَٱمْنَعْهُ مِنَ ٱلضَّحِكِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ مَشَايِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَرَفْعِ مَجَالِسِ ٱلْقُوَّادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ وَلَا تَمُرَّنَّ بِكَ سَاعَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ مُغْتَنِمٌ فَائِدَةً تُفِيدُهُ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحْزِنَهُ فَتُمِيتَ ذِهْنَهُ وَلَا تُمْعِنْ فِي مُسَامَحَتِهِ فَيَسْتَحْلِيَ ٱلْفَرَاغَ وَيَأْلَفَهُ وَقَوِّمْهُ مَا ٱسْتَطَعْتَ بِٱلْقُرْبِ وَٱلْمُلَايَنَةِ فَإِنْ أَبَاهُمَا فَعَلَيْكَ بِٱلشِّدَّةِ وَٱلْغِلْظَةِ انتهى

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْبَشَرَ يَأْخُذُونَ مَعَارِفَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ وَمَا يَنْتَحِلُونَ بِهِ مِنَ ٱلْمَذَاهِبِ وَٱلْفَضَائِلِ تَارَةً عِلْمًا وَتَعْلِيمًا وَإِلْقَاءً وَتَارَةً مُحَاكَاةً وَتَلْقِينًا بِٱلْمُبَاشَرَةِ إِلَّا أَنَّ حُصُولَ ٱلْمَلَكَاتِ عَنِ ٱلْمُبَاشَرَةِ وَٱلتَّلْقِينِ أَشَدُّ ٱسْتِحْكَامًا وَأَقْوَى رُسُوخًا فَعَلَى قَدْرِ كَثْرَةِ ٱلشُّيُوخِ يَكُونُ حُصُولُ ٱلْمَلَكَاتِ وَرُسُوخُهَا وَٱلِٱصْطِلَاحَاتُ أَيْضًا فِي تَعْلِيمِ ٱلْعُلُومِ مُخَلِّطَةٌ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِ حَتَّى لَقَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ ذٰلِكَ إِلَّا مُبَاشَرَتُهُ لِٱخْتِلَافِ ٱلطُّرُقِ فِيهَا مِنَ ٱلْمُعَلِّمِينَ فَلِقَاءُ أَهْلِ ٱلْعُلُومِ وَتَعَدُّدُ ٱلْمَشَايِخِ يُفِيدُهُ تَمْيِيزَ ٱلِٱصْطِلَاحَاتِ بِمَا يَرَاهُ مِنِ ٱخْتِلَافِ طُرُقِهِمْ فِيهَا فَيُجَرِّدُ ٱلْعِلْمَ عَنْهَا وَيَعْلَمُ أَنَّهَا أَنْحَاءُ تَعْلِيمٍ وَطُرُقُ تُوصِلُ وَتَنْهَضُ قُوَاهُ إِلَى ٱلرُّسُوخِ وَٱلِٱسْتِحْكَامِ فِي ٱلْمَلَكَاتِ وَتُصَحِّحُ مَعَارِفَهُ وَتُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا مَعَ تَقْوِيَةِ مَلَكَتِهِ بِٱلْمُبَاشَرَةِ وَٱلتَّلْقِينِ وَكَثْرَتِهِمَا مِنَ ٱلْمَشْيَخَةِ عِنْدَ تَعَدُّدِهِمْ وَتَنَوُّعِهِمْ وَهٰذَا لِمَنْ يَسَّرَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ طُرُقَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْهِدَايَةِ فَٱلرِّحْلَةُ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ لِٱكْتِسَابِ ٱلْفَوَائِدِ وَٱلْكَمَالِ بِلِقَاءِ ٱلْمَشَايِخِ وَمُبَاشَرَةِ ٱلرِّجَالِ وَٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الرابع والثلاثون

في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ ٱلنَّظَرَ ٱلْفِكْرِيَّ وَٱلْغَوْصَ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَٱنْتِزَاعَهَا مِنَ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَتَجْرِيدَهَا فِي ٱلذِّهْنِ أُمُورًا كُلِّيَّةً عَامَّةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ ٱلْعُمُومِ لَا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جِيلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ٱلْكُلِّيَّ عَلَى ٱلْخَارِجِيَّاتِ وَأَيْضًا يَقِيسُونَ ٱلْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا بِمَا ٱعْتَادُوهُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْفِقْهِيِّ فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُلُّهَا فِي ٱلذِّهْنِ وَلَا تَصِيرُ إِلَى ٱلْمُطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ ٱلْفَرَاغِ مِنَ ٱلْبَحْثِ وَٱلنَّظَرِ وَلَا تَصِيرُ بِٱلْجُمْلَةِ إِلَى ٱلْمُطَابَقَةِ وَإِنَّمَا يَتَفَرَّعُ مَا فِي ٱلْخَارِجِ عَمَّا فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ ذَٰلِكَ كَٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا فُرُوعٌ عَمَّا فِي ٱلْمَحْفُوظِ مِنْ أَدِلَّةِ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ فَتَطْلُبُ مُطَابَقَةَ مَا فِي ٱلْخَارِجِ لَهَا عَكْسَ ٱلْأَنْظَارِ فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلَّتِي تَطْلُبُ فِي صِحَّتِهَا مُطَابَقَتَهَا لِمَا فِي ٱلْخَارِجِ فَهُمْ مُتَعَوِّدُونَ فِي سَائِرِ أَنْظَارِهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلذِّهْنِيَّةَ وَٱلْأَنْظَارَ ٱلْفِكْرِيَّةَ لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَٱلسِّيَاسَةُ يَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ مَا فِي ٱلْخَارِجِ وَمَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَيَتْبَعُهَا فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ مِنْ إِلْحَاقِهَا بِشَبَهٍ أَوْ مِثَالٍ وَيُنَافِي ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي يُحَاوِلُ تَطْبِيقَهُ عَلَيْهَا وَلَا يُقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْعُمْرَانِ عَلَى ٱلْآخَرِ كَمَا ٱشْتَبَهَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ فَلَعَلَّهُمَا ٱخْتَلَفَا فِي أُمُورٍ فَتَكُونُ ٱلْعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ تَعْمِيمِ ٱلْأَحْكَامِ وَقِيَاسِ ٱلْأُمُورِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ إِذَا نَظَرُوا فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱفْرَغُوا ذَٰلِكَ فِي قَالَبِ أَنْظَارِهِمْ وَنَوْعِ ٱسْتِدْلَالَاتِهِمْ فَيَقَعُونَ فِي ٱلْغَلَطِ كَثِيرًا وَلَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِمْ وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْكَيْسِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ لِأَنَّهُمْ يَنْزِعُونَ بِثُقُوبِ أَذْهَانِهِمْ إِلَى مِثْلِ شَأْنِ ٱلْفُقَهَاءِ مِنَ ٱلْغَوْصِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَٱلْقِيَاسِ وَٱلْمُحَاكَاةِ فَيَقَعُونَ فِي ٱلْغَلَطِ وَٱلْعَامِّيُّ ٱلسَّلِيمُ ٱلطَّبْعِ ٱلْمُتَوَسِّطُ ٱلْكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنْ ذَٰلِكَ وَعَدَمِ ٱعْتِيَادِهِ إِيَّاهُ يَقْتَصِرُ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلَى حُكْمِهَا وَفِي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا ٱخْتُصَّ بِهِ وَلَا يُعَدِّي ٱلْحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلَا تَعْمِيمٍ وَلَا يُفَارِقُ فِي أَكْثَرِ نَظَرِهِ ٱلْمَوَادَّ ٱلْمَحْسُوسَةَ وَلَا يُجَاوِزُهَا فِي ذِهْنِهِ كَٱلسَّابِحِ لَا يُفَارِقُ ٱلْبَرَّ عِنْدَ ٱلْمَوْجِ قَالَ ٱلشَّاعِرُ

فَلَا تُوغِلَنَّ إِذَا مَا سَبَحْتَ ❊ فَإِنَّ ٱلسَّلَامَةَ فِي ٱلسَّاحِلِ

فَيَكُونُ مَأْمُونًا مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ مُسْتَقِيمَ ٱلنَّظَرِ فِي مُعَامَلَةِ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ فَيَحْسُنُ مَعَاشُهُ وَتَنْدَفِعُ آفَاتُهُ وَمَضَارُّهُ بِٱسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونَةِ ٱلْغَلَطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلِٱنْتِزَاعِ وَبُعْدِهَا عَنِ ٱلْمَحْسُوسِ فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلثَّوَانِي وَلَعَلَّ ٱلْمَوَادَّ فِيهَا مَا يُمَانِعُ تِلْكَ ٱلْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا عِنْدَ مُرَاعَاةِ ٱلتَّطْبِيقِ ٱلْيَقِينِيِّ وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلْأُوَلِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَجْرِيدُهَا قَرِيبٌ فَلَيْسَ كَذَٰلِكَ لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ وَصُوَرُ ٱلْمَحْسُوسَاتِ حَافِظَةٌ مُؤْذِنَةٌ بِتَصْدِيقِ ٱنْطِبَاقِهِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والثلاثون

في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

مِنَ ٱلْغَرِيبِ ٱلْوَاقِعِ أَنَّ حَمَلَةَ ٱلْعِلْمِ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرُهُمُ ٱلْعَجَمُ لَا مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَلَا مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ ٱلنَّادِرِ وَإِنْ كَانَ مِنْهُمُ ٱلْعَرَبِيُّ فِي نِسْبَتِهِ فَهُوَ عَجَمِيٌّ فِي لُغَتِهِ وَمَرْبَاهُ وَمَشْيَخَتِهِ مَعَ أَنَّ ٱلْمِلَّةَ عَرَبِيَّةٌ وَصَاحِبَ شَرِيعَتِهَا عَرَبِيٌّ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمِلَّةَ فِي أَوَّلِهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا عِلْمٌ وَلَا صِنَاعَةٌ لِمُقْتَضَى أَحْوَالِ ٱلسَّذَاجَةِ وَٱلْبَدَاوَةِ وَإِنَّمَا أَحْكَامُ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَوَامِرُ ٱللّٰهِ وَنَوَاهِيهِ كَانَ ٱلرِّجَالُ يَنْقُلُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ وَقَدْ عَرَفُوا مَأْخَذَهَا مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ بِمَا تَلَقَّوْهُ مِنْ صَاحِبِ ٱلشَّرْعِ وَأَصْحَابِهِ وَٱلْقَوْمُ يَوْمَئِذٍ عَرَبٌ لَمْ يَعْرِفُوا أَمْرَ ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلتَّدْوِينِ وَلَا دُفِعُوا إِلَيْهِ وَلَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ وَجَرَى ٱلْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ زَمَنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ ٱلْمُخْتَصِّينَ بِحَمْلِ ذٰلِكَ وَنَقْلِهِ إِلَى ٱلْقُرَّاءِ أَيِ ٱلَّذِينَ يَقْرَأُونَ ٱلْكِتَابَ وَلَيْسُوا أُمِّيِّينَ لِأَنَّ ٱلْأُمِّيَّةَ يَوْمَئِذٍ صِفَةٌ عَامَّةٌ فِي ٱلصَّحَابَةِ بِمَا كَانُوا عَرَبًا فَقِيلَ لِحَمَلَةِ ٱلْقُرْآنِ يَوْمَئِذٍ قُرَّاءٌ إِشَارَةٌ إِلَى هٰذَا فَهُمْ قُرَّاءٌ لِكِتَابِ ٱللّٰهِ وَٱلسُّنَّةِ ٱلْمَأْثُورَةِ عَنِ ٱللّٰهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا ٱلْأَحْكَامَ ٱلشَّرْعِيَّةَ إِلَّا مِنْهُ وَمِنَ ٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي هُوَ فِي غَالِبِ مَوَارِدِهِ تَفْسِيرٌ لَهُ وَشَرْحٌ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ ٱللّٰهِ وَسُنَّتِي فَلَمَّا بَعُدَ ٱلنَّقْلُ مِنْ لَدُنْ دَوْلَةِ ٱلرَّشِيدِ فَمَا بَعْدُ ٱحْتِيجَ إِلَى وَضْعِ ٱلتَّفَاسِيرِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ وَتَقْيِيدِ ٱلْحَدِيثِ مَخَافَةَ ضَيَاعِهِ ثُمَّ ٱحْتِيجَ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْأَسَانِيدِ وَتَعْدِيلِ ٱلنَّاقِلِينَ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ ٱلصَّحِيحِ مِنَ ٱلْأَسَانِيدِ وَمَا دُونَهُ ثُمَّ كَثُرَ ٱسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِ ٱلْوَاقِعَاتِ مِنَ

الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَفَسَدَ مَعَ ذٰلِكَ اللِّسَانُ فَاحْتِيجَ إِلَى وَضْعِ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ وَصَارَتِ الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مَلَكَاتٍ فِي الِاسْتِنْبَاطَاتِ وَالِاسْتِخْرَاجِ وَالتَّنْظِيرِ وَالْقِيَاسِ وَاحْتَاجَتْ إِلَى عُلُومٍ أُخْرَى وَهِيَ الْوَسَائِلُ لَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَوَانِينِ ذٰلِكَ الِاسْتِنْبَاطِ وَالْقِيَاسِ وَالذَّبِّ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدِلَّةِ لِكَثْرَةِ الْبِدَعِ وَالْإِلْحَادِ فَصَارَتْ هٰذِهِ الْعُلُومُ كُلُّهَا عُلُومًا ذَاتَ مَلَكَاتٍ مُحْتَاجَةً إِلَى التَّعْلِيمِ فَانْدَرَجَتْ فِي جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ مِنْ مُنْتَحَلِ الْحَضَرِ وَأَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهَا فَصَارَتِ الْعُلُومُ لِذٰلِكَ حَضَرِيَّةً وَبَعُدَ عَنْهَا الْعَرَبُ وَعَنْ سُوقِهَا وَالْحَضَرُ لِذٰلِكَ الْعَهْدِ هُمُ الْعَجَمُ أَوْ مَنْ هُمْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْمَوَالِي وَأَهْلُ الْحَوَاضِرِ الَّذِينَ هُمْ يَوْمَئِذٍ تَبَعٌ لِلْعَجَمِ فِي الْحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ لِأَنَّهُمْ أَقْوَمُ عَلَى ذٰلِكَ لِلْحَضَارَةِ الرَّاسِخَةِ فِيهِمْ مُنْذُ دَوْلَةِ الْفُرْسِ فَكَانَ صَاحِبُ صِنَاعَةِ النَّحْوِ سِيبَوَيْهِ وَالْفَارِسِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَالزَّجَّاجُ مِنْ بَعْدِهِمَا وَكُلُّهُمْ عَجَمٌ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنَّمَا رُبُّوا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَاكْتَسَبُوهُ بِالْمَرْبَى وَمُخَالَطَةِ الْعَرَبِ وَصَيَّرُوهُ قَوَانِينَ وَفَنًّا لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَذَا حَمَلَةُ الْحَدِيثِ الَّذِينَ حَفِظُوهُ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمْ عَجَمٌ أَوْ مُسْتَعْجِمُونَ بِاللُّغَةِ وَالْمَرْبَى وَكَانَ عُلَمَاءُ أُصُولِ الْفِقْهِ كُلُّهُمْ عَجَمًا كَمَا يُعْرَفُ وَكَذَا حَمَلَةُ عِلْمِ الْكَلَامِ وَكَذَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَلَمْ يَقُمْ بِحِفْظِ الْعِلْمِ وَتَدْوِينِهِ إِلَّا الْأَعَاجِمُ وَظَهَرَ مِصْدَاقُ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ تَعَلَّقَ الْعِلْمُ بِأَكْنَافِ السَّمَاءِ لَنَالَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا هٰذِهِ الْحَضَارَةَ وَسُوقَهَا وَخَرَجُوا إِلَيْهَا عَنِ الْبَدَاوَةِ فَشَغَلَتْهُمُ الرِّئَاسَةُ فِي الدَّوْلَةِ وَحَامِيَتِهَا وَأُولِي سِيَاسَتِهَا مَعَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْأَنَفَةِ عَنِ انْتِحَالِ الْعِلْمِ حِينَئِذٍ بِمَا صَارَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَالرُّؤَسَاءُ أَبَدًا يَسْتَنْكِفُونَ عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْمِهَنِ وَمَا يَجُرُّ إِلَيْهَا وَدَفَعُوا ذٰلِكَ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ مِنَ الْعَجَمِ وَالْمُوَلَّدِينَ وَمَا زَالُوا يَرَوْنَ لَهُمْ حَقَّ الْقِيَامِ بِهِ فَإِنَّهُ دِينُهُمْ وَعُلُومُهُمْ وَلَا يَحْتَقِرُونَ حَمَلَتَهَا كُلَّ الِاحْتِقَارِ حَتَّى إِذَا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنَ الْعَرَبِ جُمْلَةً وَصَارَ لِلْعَجَمِ صَارَتِ الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ غَرِيبَةَ النِّسْبَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْمُلْكِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ نِسْبَتِهَا وَامْتُهِنَ حَمَلَتُهَا بِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ بُعَدَاءُ عَنْهُمْ مُشْتَغِلِينَ بِمَا لَا يُغْنِي وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ فِي الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي نَقْلِ الْمَرَاتِبِ الدِّينِيَّةِ فَهٰذَا الَّذِي قَرَّرْنَاهُ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ حَمَلَةَ الشَّرِيعَةِ أَوْ عَامَّتَهُمْ مِنَ الْعَجَمِ وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ أَيْضًا فَلَمْ تَظْهَرْ فِي الْمِلَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ

تَمَيَّزَ حَمَلَةُ ٱلْعِلْمِ وَمُؤَلِّفُوهُ وَٱسْتَقَرَّ ٱلْعِلْمُ كُلُّهُ صِنَاعَةً فَٱخْتُصَّتْ بِٱلْعَجَمِ وَتَرَكَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَٱنْصَرَفُوا عَنِ ٱنْتِحَالِهَا فَلَمْ يَحْمِلْهَا إِلَّا ٱلْمُعَرَّبُونَ مِنَ ٱلْعَجَمِ شَأْنَ ٱلصَّنَائِعِ كَمَا قُلْنَاهُ أَوَّلًا فَلَمْ يَزَلْ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَمْصَارِ مَا دَامَتِ ٱلْحَضَارَةُ فِي ٱلْعَجَمِ وَبِلَادِهِمْ مِنَ ٱلْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ فَلَمَّا خَرِبَتْ تِلْكَ ٱلْأَمْصَارُ وَذَهَبَتْ مِنْهَا ٱلْحَضَارَةُ ٱلَّتِي هِيَ سِرُّ ٱللهِ فِي حُصُولِ ٱلْعِلْمِ وَٱلصَّنَائِعِ ذَهَبَ ٱلْعِلْمُ مِنَ ٱلْعَجَمِ جُمْلَةً لِمَا شَمَلَهُمْ مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ وَٱخْتُصَّ ٱلْعِلْمُ بِٱلْأَمْصَارِ ٱلْمَوْفُورَةِ ٱلْحَضَارَةِ وَلَا أَوْفَرَ ٱلْيَوْمَ فِي ٱلْحَضَارَةِ مِنْ مِصْرَ فَهِيَ أُمُّ ٱلْعَالَمِ وَإِيوَانُ ٱلْإِسْلَامِ وَيَنْبُوعُ ٱلْعِلْمِ وَٱلصَّنَائِعِ وَبَقِيَ بَعْضُ ٱلْحَضَارَةِ فِي مَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ لِمَا هُنَاكَ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي فِيهَا فَلَهُمْ بِذٰلِكَ حِصَّةٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ لَا تُنْكَرُ وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى ذٰلِكَ كَلَامُ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ مِنْ تَآلِيفَ وَصَلَتْ إِلَيْنَا إِلَى هٰذِهِ ٱلْبِلَادِ وَهُوَ سَعْدُ ٱلدِّينِ ٱلتَّفْتَازَانِيُّ وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ ٱلْعَجَمِ فَلَمْ نَرَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ٱلْإِمَامِ ٱبْنِ ٱلْخَطِيبِ وَنَصِيرِ ٱلدِّينِ ٱلطُّوسِيِّ كَلَامًا يُعَوَّلُ عَلَى نِهَايَتِهِ فِي ٱلْإِصَابَةِ فَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ وَتَأَمَّلْهُ تَرَ عَجَبًا فِي أَحْوَالِ ٱلْخَلِيقَةِ وَٱللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَحَسْبُنَا ٱللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ

الفصل السادس والثلاثون

في علوم اللسان العربي

أَرْكَانُهُ أَرْبَعَةٌ وَهِيَ ٱللُّغَةُ وَٱلنَّحْوُ وَٱلْبَيَانُ وَٱلْأَدَبُ وَمَعْرِفَتُهَا ضَرُورِيَّةٌ عَلَى أَهْلِ ٱلشَّرِيعَةِ إِذْ مَأْخَذُ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ كُلِّهَا مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَهِيَ بِلُغَةِ ٱلْعَرَبِ وَنَقَلَتُهَا مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ عَرَبٌ وَشَرْحُ مُشْكِلَاتِهَا مِنْ لُغَاتِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْعُلُومِ ٱلْمُتَعَلِّقَةِ بِهٰذَا ٱللِّسَانِ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ ٱلشَّرِيعَةِ وَتَتَفَاوَتُ فِي ٱلتَّأْكِيدِ بِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا فِي ٱلتَّوْفِيَةِ بِمَقْصُودِ ٱلْكَلَامِ حَسْبَمَا يَتَبَيَّنُ فِي ٱلْكَلَامِ عَلَيْهَا فَنًّا فَنًّا وَٱلَّذِي يَتَحَصَّلُ أَنَّ ٱلْأَهَمَّ ٱلْمُقَدَّمَ مِنْهَا هُوَ ٱلنَّحْوُ إِذْ بِهِ تَتَبَيَّنُ أُصُولُ ٱلْمَقَاصِدِ بِٱلدَّلَالَةِ فَيُعْرَفُ ٱلْفَاعِلُ مِنَ ٱلْمَفْعُولِ وَٱلْمُبْتَدَأُ مِنَ ٱلْخَبَرِ وَلَوْلَاهُ لَجُهِلَ أَصْلُ ٱلْإِفَادَةِ وَكَانَ مِنْ حَقِّ عِلْمِ ٱللُّغَةِ ٱلتَّقَدُّمُ لَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ ٱلْأَوْضَاعِ بَاقِيَةٌ فِي مَوْضُوعَاتِهَا لَمْ تَتَغَيَّرْ بِخِلَافِ ٱلْإِعْرَابِ ٱلدَّالِّ عَلَى ٱلْإِسْنَادِ وَٱلْمُسْنَدِ وَٱلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ تَغَيَّرَ بِٱلْجُمْلَةِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ فَلِذٰلِكَ كَانَ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ أَهَمَّ مِنَ ٱللُّغَةِ إِذْ فِي جَهْلِهِ ٱلْإِخْلَالُ بِٱلتَّفَاهُمِ جُمْلَةً وَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ

اَللُّغَةُ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

علم النحو

إِعْلَمْ أَنَّ اللُّغَةَ فِي الْمُتَعَارَفِ هِيَ عِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِ عَنْ مَقْصُودِهِ وَتِلْكَ الْعِبَارَةُ فِعْلٌ لِسَانِيٌّ فَلَا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَةً مُتَقَرِّرَةً فِي الْعُضْوِ الْفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ اللِّسَانُ وَهُوَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ اصْطِلَاحَاتِهِمْ وَكَانَتِ الْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ الْمَلَكَاتِ وَأَوْضَحَهَا إِبَانَةً عَنِ الْمَقَاصِدِ لِدَلَالَةِ غَيْرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي مِنَ الْمَجْرُورِ أَعْنِي الْمُضَافَ وَمِثْلَ الْحُرُوفِ الَّتِي تُفْضِي بِالْأَفْعَالِ إِلَى الذَّوَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفِ أَلْفَاظٍ أُخْرَى وَلَيْسَ يُوجَدُ ذَلِكَ إِلَّا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعْنًى أَوْ حَالٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَلْفَاظٍ تَخُصُّهُ بِالدَّلَالَةِ وَلِذَلِكَ نَجِدُ كَلَامَ الْعَجَمِ مِنْ مُخَاطَبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تُقَدِّرُهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَارًا فَصَارَ لِلْحُرُوفِ فِي لُغَتِهِمْ وَالْحَرَكَاتِ وَالْهَيْئَاتِ أَيِ الْأَوْضَاعِ اعْتِبَارٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ غَيْرَ مُتَكَلِّفِينَ فِيهِ لِصِنَاعَةٍ يَسْتَفِيدُونَ ذَلِكَ مِنْهَا إِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَلْسِنَتِهِمْ يَأْخُذُهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ كَمَا تَأْخُذُ صِبْيَانُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ لُغَاتِنَا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَفَارَقُوا الْحِجَازَ لِطَلَبِ الْمُلْكِ الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ وَخَالَطُوا الْعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْمَلَكَةُ بِمَا أَلْقَى إِلَيْهَا السَّمْعُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الَّتِي لِلْمُسْتَعْرِبِينَ وَالسَّمْعُ أَبُو الْمَلَكَاتِ اللِّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا أُلْقِيَ إِلَيْهَا مِمَّا يُغَايِرُهَا لِجُنُوحِهَا إِلَيْهِ بِاعْتِيَادِ السَّمْعِ وَخَشِيَ أَهْلُ الْعُلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسُدَ تِلْكَ الْمَلَكَةُ رَأْسًا وَيَطُولَ الْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَلِقَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ فَاسْتَنْبَطُوا مِنْ مَجَارِي كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ الْمَلَكَةِ مُطَّرِدَةً شِبْهَ الْكُلِّيَّاتِ وَالْقَوَاعِدِ يَقِيسُونَ عَلَيْهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ وَيُلْحِقُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِثْلَ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولَ مَنْصُوبٌ وَالْمُبْتَدَأَ مَرْفُوعٌ ثُمَّ رَأَوْا تَغَيُّرَ الدَّلَالَةِ بِتَغَيُّرِ حَرَكَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهِ إِعْرَابًا وَتَسْمِيَةِ الْمُوجِبِ لِذَلِكَ التَّغَيُّرِ عَامِلًا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَصَارَتْ كُلُّهَا اصْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ فَقَيَّدُوهَا بِالْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مَخْصُوصَةً وَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهَا بِعِلْمِ النَّحْوِ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَيُقَالُ بِإِشَارَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغَيُّرَ الْمَلَكَةِ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِحِفْظِهَا فَفَزِعَ إِلَى

ضَبْطِهَا بِٱلْقَوَانِينِ ٱلْحَاصِرَةِ ٱلْمُسْتَقْرَأَةِ ثُمَّ كَتَبَ فِيهَا ٱلنَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَنِ ٱنْتَهَتْ إِلَى ٱلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ ٱلْفَرَاهِيدِيِّ أَيَّامَ ٱلرَّشِيدِ وَكَانَ ٱلنَّاسُ أَحْوَجَ إِلَيْهَا لِذَهَابِ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةِ مِنَ ٱلْعَرَبِ فَهَذَّبَ ٱلصِّنَاعَةَ وَكَمَّلَ أَبْوَابَهَا وَأَخَذَهَا عَنْهُ سِيبَوَيْهِ فَكَمَّلَ تَفَارِيعَهَا وَٱسْتَكْثَرَ مِنْ أَدِلَّتِهَا وَشَوَاهِدِهَا وَوَضَعَ فِيهَا كِتَابَهُ ٱلْمَشْهُورَ ٱلَّذِي صَارَ إِمَامًا لِكُلِّ مَا كُتِبَ فِيهَا مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ وَضَعَ أَبُو عَلِيٍّ ٱلْفَارِسِيُّ وَأَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلزَّجَّاجُ كُتُبًا مُخْتَصَرَةً لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَحْذُونَ فِيهَا حَذْوَ ٱلْإِمَامِ فِي كِتَابِهِ ثُمَّ طَالَ ٱلْكَلَامُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَحَدَثَ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي ٱلْكُوفَةِ وَٱلْبَصْرَةِ ٱلْمِصْرَيْنِ ٱلْقَدِيمَيْنِ لِلْعَرَبِ وَكَثُرَتِ ٱلْأَدِلَّةُ وَٱلْحِجَاجُ بَيْنَهُمْ وَتَبَايَنَتِ ٱلطُّرُقُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَكَثُرَ ٱلِٱخْتِلَافُ فِي إِعْرَابِ كَثِيرٍ مِنْ آيِ ٱلْقُرْآنِ بِٱخْتِلَافِهِمْ فِي تِلْكَ ٱلْقَوَاعِدِ وَطَالَ ذٰلِكَ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَجَاءَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِمَذَاهِبِهِمْ فِي ٱلِٱخْتِصَارِ فَٱخْتَصَرُوا كَثِيرًا مِنْ ذٰلِكَ ٱلطُّولِ مَعَ ٱسْتِيعَابِهِمْ لِجَمِيعِ مَا نُقِلَ كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ ٱلتَّسْهِيلِ وَأَمْثَالِهِ أَوِ ٱقْتِصَارِهِمْ عَلَى ٱلْمَبَادِئِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ كَمَا فَعَلَهُ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ فِي ٱلْمُفَصَّلِ وَٱبْنُ ٱلْحَاجِبِ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ لَهُ وَرُبَّمَا نَظَمُوا ذٰلِكَ نَظْمًا مِثْلَ ٱبْنِ مَالِكٍ فِي ٱلْأُرْجُوزَتَيْنِ ٱلْكُبْرَى وَٱلصُّغْرَى وَٱبْنِ مُعْطِي فِي ٱلْأُرْجُوزَةِ ٱلْأَلْفِيَّةِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلتَّآلِيفُ فِي هٰذَا ٱلْفَنِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ يُحَاطَ بِهَا وَطُرُقُ ٱلتَّعْلِيمِ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَطَرِيقَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مُغَايِرَةٌ لِطَرِيقَةِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَٱلْكُوفِيُّونَ وَٱلْبَصْرِيُّونَ وَٱلْبَغْدَادِيُّونَ وَٱلْأَنْدَلُسِيُّونَ مُخْتَلِفَةٌ طُرُقُهُمْ كَذٰلِكَ وَقَدْ كَادَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ تُؤْذِنُ بِٱلذَّهَابِ لِمَا رَأَيْنَا مِنَ ٱلنَّقْصِ فِي سَائِرِ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ بِتَنَاقُصِ ٱلْعُمْرَانِ وَوَصَلَ إِلَيْنَا بِٱلْمَغْرِبِ لِهٰذِهِ ٱلْعُصُورِ دِيوَانٌ مِنْ مِصْرَ مَنْسُوبٌ إِلَى جَمَالِ ٱلدِّينِ بْنِ هِشَامٍ مِنْ عُلَمَائِهَا ٱسْتَوْفَى فِيهِ أَحْكَامَ ٱلْإِعْرَابِ مُجْمَلَةً وَمُفَصَّلَةً وَتَكَلَّمَ عَلَى ٱلْحُرُوفِ وَٱلْمُفْرَدَاتِ وَٱلْجُمَلِ وَحَذَفَ مَا فِي ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلْمُتَكَرِّرِ فِي أَكْثَرِ أَبْوَابِهَا وَسَمَّاهُ بِٱلْمُغْنِي فِي ٱلْإِعْرَابِ وَأَشَارَ إِلَى نُكَتِ إِعْرَابِ ٱلْقُرْآنِ كُلِّهَا وَضَبَطَهَا بِأَبْوَابٍ وَفُصُولٍ وَقَوَاعِدَ ٱنْتَظَمَ سَائِرُهَا فَوَقَفْنَا مِنْهُ عَلَى عِلْمٍ جَمٍّ يَشْهَدُ بِعُلُوِّ قَدْرِهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَوُفُورِ بِضَاعَتِهِ مِنْهَا وَكَأَنَّهُ يَنْحُو فِي طَرِيقَتِهِ مَنْحَاةَ أَهْلِ ٱلْمَوْصِلِ ٱلَّذِينَ ٱقْتَفَوْا أَثَرَ ٱبْنِ جِنِّي وَٱتَّبَعُوا مُصْطَلَحَ تَعْلِيمِهِ فَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ عَجِيبٍ دَالٍّ عَلَى قُوَّةِ مَلَكَتِهِ وَٱطِّلَاعِهِ وَٱللّٰهُ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

علم اللغة

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا فتكون كلها أعدادا على توالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين لأن كل ثنائية يزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم

الشَّمَةِ وَجعلَ حرُوفَ العلَّةِ آخِرًا وَهِيَ الحُرُوفُ الهَوَائِيَّةُ وَبَدَأَ من حُرُوفِ الحلْقِ بالعَيْنِ لأنَّهُ الأَقصَى منها فلذلك سُمّيَ كتابُهُ بالعَيْنِ لأنَّ المُتقدّمينَ كانُوا يذهبُونَ في تسميةِ دَوَاوينِهِمْ إِلى مثلِ هذا وهوَ تسميتُهُ بأوّلِ ما يقعُ فيهِ منَ الكلماتِ والألفاظِ ثمّ بيَّنَ المُهمَلَ منها منَ المُستعملِ وكانَ المُهمَلُ في الرُّباعيِّ والخُماسيِّ أكثَرَ لقلَّةِ استعمالِ العربِ لهُ لثقلِهِ ولحِقَ بهِ الثُّنائيُّ لقلَّةِ دورانِهِ وكانَ الاستعمالُ في الثُّلاثيِّ أغلبَ فكانَتْ أوضاعُهُ أكثرَ لدورانِهِ وضمّنَ الخليلُ ذلكَ كلَّهُ في كتابِ العَيْنِ واستوعبَهُ أحسنَ استيعابٍ وأوعاهُ وجاءَ أبو بكرٍ الزُّبيديُّ وكتبَ لهشامٍ المؤيّدِ بالأندلسِ في المائةِ الرّابعةِ فاختصرَهُ معَ المحافظةِ على الاستيعابِ وحذفَ منهُ المُهمَلَ كلَّهُ وكثيرًا منْ شواهدِ المُستعمَلِ ولخّصَهُ للحفظِ أحسنَ تلخيصٍ وألّفَ الجوهريُّ منَ المشارقةِ كتابَ الصّحاحِ على التّرتيبِ المتعارفِ لحروفِ المُعجمِ فجعلَ البداءةَ منها بالهمزةِ وجعلَ التّرجمةَ بالحروفِ على الحرفِ الأخيرِ منَ الكلمةِ لاضطرارِ النّاسِ في الأكثرِ إلى أواخرِ الكلمِ وحصرَ اللُّغةَ اقتداءً بحصرِ الخليلِ ثمّ ألّفَ فيها منَ الأندلسيّينَ ابنُ سيدهْ منْ أهلِ دانيةَ في دولةِ عليِّ بنِ مجاهدٍ كتابَ المحكمِ على ذلكَ المنحى منَ الاستيعابِ وعلى نحوِ ترتيبِ كتابِ العينِ وزادَ فيهِ التّعرّضَ لاشتقاقاتِ الكلمِ وتصاريفها فجاءَ منْ أحسنِ الدّواوينِ ولخّصَهُ محمّدُ بنُ أبي الحسينِ صاحبُ المستنصرِ منْ ملوكِ الدّولةِ الحفصيّةِ بتونسَ وقلبَ ترتيبَهُ إلى ترتيبِ كتابِ الصّحاحِ في اعتبارِ أواخرِ الكلمِ وبناءِ التّراجمِ عليها فكانا توأمَيْ رحمٍ وسليلَيْ أبوّةٍ هذهِ أصولُ كتبِ اللُّغةِ فيما علمناهُ وهناكَ مختصراتٌ أخرى مختصّةٌ بصنفٍ منَ الكلمِ ومستوعبةٌ لبعضِ الأبوابِ أوْ لكلّها إلّا أنَّ وجهَ الحصرِ فيها خفيٌّ ووجهَ الحصرِ في تلكَ جليٌّ منْ قبلِ التّراكيبِ كما رأيتَ ومنَ الكتبِ الموضوعةِ أيضًا في اللُّغةِ كتابُ الزّمخشريِّ في المجازِ بيّنَ فيهِ كلَّ ما تجوّزتْ بهِ العربُ منَ الألفاظِ وفيما تجوّزتْ بهِ منَ المدلولاتِ وهوَ كتابٌ شريفُ الإفادةِ ثمّ لمّا كانتِ العربُ تضعُ الشّيءَ على العمومِ ثمّ تستعملُ في الأمورِ الخاصّةِ ألفاظًا أخرى خاصّةً بها فوقَ ذلكَ عندنا بينَ الوضعِ والاستعمالِ واحتاجَ إلى فقهٍ في اللُّغةِ عزيزِ المأخذِ كما وُضعَ الأبيضُ بالوضعِ العامِّ لكلِّ ما فيهِ بياضٌ ثمّ اختصَّ ما فيهِ بياضٌ منَ الخيلِ بالأشهبِ ومنَ الإنسانِ بالأزهرِ ومنَ الغنمِ بالأملحِ حتّى صارَ استعمالُ

ٱلْأَبْيَضِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا لَحْنًا وَخُرُوجًا عَنْ لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱخْتَصَّ بِٱلتَّأْلِيفِ فِي هٰذَا ٱلْمَنْحَى ٱلثَّعَالِبِيُّ وَأَفْرَدَهُ فِي كِتَابٍ لَهُ سَمَّاهُ فِقْهَ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مِنْ آكَدِ مَا يَأْخُذُ بِهِ ٱللُّغَوِيُّ نَفْسَهُ أَنْ يُحَرِّفَ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْعَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِ فَلَيْسَ مَعْرِفَةُ ٱلْوَضْعِ ٱلْأَوَّلِ بِكَافٍ فِي ٱلتَّرْتِيبِ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَرَبِ لِذٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْأَدِيبُ فِي فَنَّيْ نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ حَذَرًا مِنْ أَنْ يَكْثُرَ لَحْنُهُ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱللُّغَوِيَّةِ فِي مُفْرَدَاتِهَا وَتَرَاكِيبِهَا وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ ٱللَّحْنِ فِي ٱلْإِعْرَابِ وَأَفْحَشُ وَكَذٰلِكَ أَلَّفَ بَعْضُ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَتَكَفَّلَ بِحَصْرِهَا وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى ٱلنِّهَايَةِ فِي ذٰلِكَ فَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ لِلْأَكْثَرِ وَأَمَّا ٱلْمُخْتَصَرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ فِي هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِٱلْمُتَدَاوَلِ مِنَ ٱللُّغَةِ ٱلْكَثِيرِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ تَسْهِيلًا لِحِفْظِهَا عَلَى ٱلطَّالِبِ فَكَثِيرَةٌ مِثْلَ ٱلْأَلْفَاظِ لِٱبْنِ ٱلسِّكِّيتِ وَٱلْفَصِيحِ لِثَعْلَبَ وَغَيْرِهِمَا وَبَعْضُهَا أَقَلُّ لُغَةً مِنْ بَعْضٍ لِٱخْتِلَافِ نَظَرِهِمْ فِي ٱلْأَهَمِّ عَلَى ٱلطَّالِبِ لِلْحِفْظِ وَٱللّٰهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

علم البيان

هٰذَا ٱلْعِلْمُ حَادِثٌ فِي ٱلْمِلَّةِ بَعْدَ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱللُّغَةِ وَهُوَ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱللِّسَانِيَّةِ لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِٱلْأَلْفَاظِ وَمَا تُفِيدُهُ وَيُقْصَدُ بِهَا ٱلدَّلَالَةُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي يَقْصِدُ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِهَا إِفَادَةَ ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ هِيَ إِمَّا تَصَوُّرُ مُفْرَدَاتٍ تُسْنَدُ وَيُسْنَدُ إِلَيْهَا وَيُفْضِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَٱلدَّالَّةُ عَلَى هٰذِهِ هِيَ ٱلْمُفْرَدَاتُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ وَٱلْأَفْعَالِ وَٱلْحُرُوفِ وَإِمَّا تَمْيِيزُ ٱلْمُسْنَدَاتِ مِنَ ٱلْمُسْنَدِ إِلَيْهَا وَٱلْأَزْمِنَةِ وَيُدَلُّ عَلَيْهَا بِتَغَيُّرِ ٱلْحَرَكَاتِ مِنَ ٱلْإِعْرَابِ وَأَبْنِيَةِ ٱلْكَلِمَاتِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا هِيَ صِنَاعَةُ ٱلنَّحْوِ وَيَبْقَى مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُكْتَنِفَةِ بِٱلْوَاقِعَاتِ ٱلْمُحْتَاجَةِ لِلدَّلَالَةِ أَحْوَالُ ٱلْمُتَخَاطِبِينَ أَوِ ٱلْفَاعِلِينَ وَمَا يَقْتَضِيهِ حَالُ ٱلْفِعْلِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ ٱلْإِفَادَةِ وَإِذَا حَصَلَتْ لِلْمُتَكَلِّمِ فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ ٱلْإِفَادَةِ فِي كَلَامِهِ وَإِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ وَاسِعٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ عِنْدَهُمْ مَقَالٌ يَخْتَصُّ بِهِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْإِبَانَةِ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ زَيْدٌ جَاءَنِي مُغَايِرٌ لِقَوْلِهِمْ جَاءَنِي زَيْدٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُتَقَدِّمَ مِنْهُمَا هُوَ ٱلْأَهَمُّ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَمَنْ قَالَ جَاءَنِي زَيْدٌ أَفَادَ أَنَّ ٱهْتِمَامَهُ بِٱلْمَجِيءِ قَبْلَ ٱلشَّخْصِ ٱلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ وَمَنْ قَالَ زَيْدٌ جَاءَنِي أَفَادَ أَنَّ ٱهْتِمَامَهُ بِٱلشَّخْصِ

قَبْلَ ٱلْمَجِيءِ ٱلْمُسْنَدِ وَكَذَا ٱلتَّعْبِيرُ عَنْ أَجْزَاءِ ٱلْجُمْلَةِ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ مُبْهَمٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ وَكَذَا تَأْكِيدُ ٱلْإِسْنَادِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِمْ زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا لَقَائِمٌ مُتَغَايِرَةٌ كُلُّهَا فِي ٱلدَّلَالَةِ وَإِنِ ٱسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ ٱلْإِعْرَابِ فَإِنَّ ٱلْأَوَّلَ ٱلْعَارِيَ عَنِ ٱلتَّأْكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ ٱلْخَالِيَ ٱلذِّهْنِ وَٱلثَّانِيَ ٱلْمُؤَكَّدَ بِإِنَّ يُفِيدُ ٱلْمُتَرَدِّدَ وَٱلثَّالِثَ يُفِيدُ ٱلْمُنْكِرَ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ وَكَذَلِكَ تَقُولُ جَاءَنِي ٱلرَّجُلُ ثُمَّ تَقُولُ مَكَانَهُ بِعَيْنِهِ جَاءَنِي رَجُلٌ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ ٱلتَّنْكِيرِ تَعْظِيمَهُ وَأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلرِّجَالِ ثُمَّ ٱلْجُمْلَةُ ٱلْإِسْنَادِيَّةُ تَكُونُ خَبَرِيَّةً وَهِيَ ٱلَّتِي لَهَا خَارِجٌ تُطَابِقُهُ أَوْ لَا وَإِنْشَائِيَّةً وَهِيَ ٱلَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا كَٱلطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ ٱلْعَاطِفِ بَيْنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ إِذَا كَانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ ٱلْإِعْرَابِ فَيُشْرِكُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ ٱلتَّابِعِ ٱلْمُفْرَدِ نَعْتًا وَتَوْكِيدًا وَبَدَلًا بِلَا عَطْفٍ أَوْ يَتَعَيَّنُ ٱلْعَطْفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ ٱلْإِعْرَابِ ثُمَّ يَقْتَضِي ٱلْمَحَلُّ ٱلْإِطْنَابَ وَٱلْإِيجَازَ فَيُورَدُ ٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمَا ثُمَّ قَدْ يَدُلُّ بِٱللَّفْظِ وَلَا يُرَادُ مَنْطُوقُهُ وَيُرَادُ لَازِمُهُ إِنْ كَانَ مُفْرَدًا كَمَا تَقُولُ زَيْدٌ أَسَدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ ٱلْأَسَدِ ٱلْمَنْطُوقَةَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ شَجَاعَتَهُ ٱللَّازِمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمَّى هَذِهِ ٱسْتِعَارَةً وَقَدْ تُرِيدُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُرَكَّبِ ٱلدَّلَالَةَ عَلَى مَلْزُومِهِ كَمَا تَقُولُ زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ وَتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنَ ٱلْجُودِ وَقِرَى ٱلضَّيْفِ لِأَنَّ كَثْرَةَ ٱلرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهُمَا فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَيْهِمَا وَهَذِهِ كُلُّهَا دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى دَلَالَةِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنَ ٱلْمُفْرَدِ وَٱلْمُرَكَّبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيْئَاتٌ وَأَحْوَالٌ لِلْوَاقِعَاتِ جُعِلَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا أَحْوَالٌ وَهَيْئَاتٌ فِي ٱلْأَلْفَاظِ كُلٌّ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ مَقَامُهُ فَٱشْتَمَلَ هَذَا ٱلْعِلْمُ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْبَيَانِ عَلَى ٱلْبَحْثِ عَنْ هَذِهِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلَّتِي لِلْهَيْئَاتِ وَٱلْأَحْوَالِ وَٱلْمَقَامَاتِ وَجُعِلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ ٱلصِّنْفُ ٱلْأَوَّلُ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ هَذِهِ ٱلْهَيْئَاتِ وَٱلْأَحْوَالِ ٱلَّتِي تُطَابِقُ بِٱللَّفْظِ جَمِيعَ مُقْتَضَيَاتِ ٱلْحَالِ وَيُسَمَّى عِلْمَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱللَّازِمِ ٱللَّفْظِيِّ وَمَلْزُومِهِ وَهِيَ ٱلْاسْتِعَارَةُ وَٱلْكِنَايَةُ كَمَا قُلْنَاهُ وَيُسَمَّى عِلْمَ ٱلْبَيَانِ وَأَلْحَقُوا بِهِمَا صِنْفًا آخَرَ وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي تَزْيِينِ ٱلْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلتَّنْمِيقِ إِمَّا بِسَجْعٍ يَفْصِلُهُ أَوْ تَجْنِيسٍ يُشَابِهُ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ أَوْزَانَهُ أَوْ تَوْرِيَةٍ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بِإِيهَامِ مَعْنًى أَخْفَى مِنْهُ لِٱشْتِرَاكِ ٱللَّفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ عِلْمَ ٱلْبَدِيعِ وَأُطْلِقَ عَلَى ٱلْأَصْنَافِ ٱلثَّلَاثَةِ عِنْدَ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱسْمُ

ٱلْبَيَانِ وَهُوَ ٱسْمُ ٱلصِّنْفِ ٱلثَّانِي لِأَنَّ ٱلْأَقْدَمِينَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمُوا فِيهِ ثُمَّ تَلَاحَقَتْ مَسَائِلُ
ٱلْفَنِّ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَكَتَبَ فِيهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَٱلْجَاحِظُ وَقُدَامَةُ وَأَمْثَالُهُمْ إِمْلَاءَاتٍ
غَيْرَ وَافِيَةٍ فِيهَا ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَسَائِلُ ٱلْفَنِّ تَكْمُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ مَحَّصَ ٱلسَّكَاكِيُّ زُبْدَتَهُ
وَهَذَّبَ مَسَائِلَهُ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا مِنَ ٱلتَّرْتِيبِ وَأَلَّفَ كِتَابَهُ ٱلْمُسَمَّى
بِٱلْمِفْتَاحِ فِي ٱلنَّحْوِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْبَيَانِ فَجَعَلَ هٰذَا ٱلْفَنَّ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ وَأَخَذَهُ
ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ كِتَابِهِ وَلَخَّصُوا مِنْهُ أُمَّهَاتٍ هِيَ ٱلْمُتَدَاوَلَةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلسَّكَاكِيُّ
فِي كِتَابِ ٱلتِّبْيَانِ وَٱبْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ ٱلْمِصْبَاحِ وَجَلَالُ ٱلدِّينِ ٱلْقَزْوِينِيُّ فِي كِتَابِ
ٱلْإِيضَاحِ وَٱلتَّلْخِيصِ وَهُوَ أَصْغَرُ حَجْمًا مِنَ ٱلْإِيضَاحِ وَٱلْعِنَايَةُ بِهِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ أَهْلِ
ٱلْمَشْرِقِ فِي ٱلشَّرْحِ وَٱلتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلْمَشَارِقَةُ عَلَى هٰذَا
ٱلْفَنِّ أَقْوَمُ مِنَ ٱلْمَغَارِبَةِ وَسَبَبُهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَالِيٌّ فِي ٱلْعُلُومِ ٱللِّسَانِيَّةِ وَٱلصَّنَائِعُ
ٱلْكَمَالِيَّةُ تُوجَدُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْمَشْرِقُ أَوْفَرُ عُمْرَانًا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوْ
نَقُولُ لِعِنَايَةِ ٱلْعَجَمِ وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ كَتَفْسِيرِ ٱلزَّمَخْشَرِيِّ وَهُوَ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى
هٰذَا ٱلْفَنِّ وَهُوَ أَصْلُهُ وَإِنَّمَا ٱخْتَصَّ بِأَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ مِنْ أَصْنَافِهِ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ خَاصَّةً
وَجَعَلُوهُ مِنْ جُمْلَةِ عُلُومِ ٱلْأَدَبِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَفَرَّعُوا لَهُ أَلْقَابًا وَعَدَّدُوا أَبْوَابًا وَنَوَّعُوا أَنْوَاعًا
وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْهَا مِنْ لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوَلُوعُ بِتَزْيِينِ ٱلْأَلْفَاظِ
وَأَنَّ عِلْمَ ٱلْبَدِيعِ سَهْلُ ٱلْمَأْخَذِ وَصَعُبَتْ عَلَيْهِمْ مَآخِذُ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْبَيَانِ لِدِقَّةِ أَنْظَارِهِمَا
وَغُمُوضِ مَعَانِيهِمَا فَتَجَافَوْا عَنْهُمَا وَمِمَّنْ أَلَّفَ فِي ٱلْبَدِيعِ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ ٱبْنُ رَشِيقٍ
وَكِتَابُ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ مَشْهُورٌ وَجَرَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْأَنْدَلُسِ عَلَى مَنْحَاهُ وَٱعْلَمْ
أَنَّ ثَمَرَةَ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ فِي فَهْمِ ٱلْإِعْجَازِ مِنَ ٱلْقُرْآنِ لِأَنَّ إِعْجَازَهُ فِي وَفَاءِ ٱلدَّلَالَةِ
مِنْهُ بِجَمِيعِ مُقْتَضَيَاتِ ٱلْأَحْوَالِ مَنْطُوقَةً وَمَفْهُومَةً وَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْكَلَامِ مَعَ
ٱلْكَمَالِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِٱلْأَلْفَاظِ فِي ٱنْتِقَائِهَا وَجَوْدَةِ رَصْفِهَا وَتَرْكِيبِهَا وَهٰذَا هُوَ ٱلْإِعْجَازُ
ٱلَّذِي تَقْصُرُ ٱلْأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ مِنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ ذَوْقٌ
بِمُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ فَيُدْرِكُ مِنْ إِعْجَازِهِ عَلَى قَدْرِ ذَوْقِهِ فَلِهٰذَا كَانَتْ
مَدَارِكُ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ أَعْلَى مَقَامًا فِي ذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ فُرْسَانُ ٱلْكَلَامِ
وَجَهَابِذَتُهُ وَٱلذَّوْقُ عِنْدَهُمْ مَوْجُودٌ بِأَوْفَرِ مَا يَكُونُ وَأَصَحِّهِ وَأَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى هٰذَا

الفنّ المفسّرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفنّ بما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنّه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنّة مع وفور بضاعته من البلاغة فمن أحكم عقائد السنّة وشارك في هذا الفنّ بعض المشاركة حتى يقتدر على الردّ عليه من جنس كلامه أو يعلم أنّه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فإنّه يتعيّن عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل

علم الادب

هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها وإنّما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهمّ من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة والمقصود بذلك كلّه أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه لأنّه لا تحصل الملكة من حفظه إلّا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثمّ إنّهم إذا أرادوا حدّ هذا الفنّ قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كلّ علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلّا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسّلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفنّ حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنّ أصول هذا الفنّ وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ

وَكِتَابُ ٱلنَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيّ ٱلْقَالِي ٱلْبَغْدَادِيّ وَمَا سِوَى هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوعٌ عَنْهَا وَكُتُبُ ٱلْمُحْدَثِينَ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَكَانَ ٱلْغِنَاءُ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلْفَنّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ ٱلْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ وَكَانَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْفُضَلَاءُ مِنَ ٱلْخَوَاصّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ ٱنْتِحَالُهُ قَادِحًا فِي ٱلْعَدَالَةِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْفَرَجِ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي ٱلْأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ وَدُوَلَهُمْ وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى ٱلْغِنَاءِ فِي ٱلْمِائَةِ صَوْتًا ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا ٱلْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَوْعَبَ فِيهِ ذٰلِكَ أَتَمَّ ٱسْتِيعَابٍ وَأَوْفَاهُ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلَّتِي سَلَفَتْ لَهُمْ فِي كُلّ فَنّ مِنْ فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَٱلتَّارِيخِ وَٱلْغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا ٱلْأَدِيبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا وَأَنَّى لَهُ بِهَا وَنَحْنُ ٱلْآنَ نَرْجِعُ بِٱلتَّحْقِيقِ عَلَى ٱلْإِجْمَالِ فِيمَا تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ وَٱللّٰهُ ٱلْهَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل السابع والثلاثون

في ان اللغة ملكة صناعية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱللُّغَاتِ كُلَّهَا مَلَكَاتٌ شَبِيهَةٌ بِٱلصِّنَاعَةِ إِذْ هِيَ مَلَكَاتٌ فِي ٱللِّسَانِ لِلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْمَعَانِي وَجَوْدَتُهَا وَقُصُورُهَا بِحَسَبِ تَمَامِ ٱلْمَلَكَةِ أَوْ نُقْصَانِهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْمُفْرَدَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ بِٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلتَّرَاكِيبِ فَإِذَا حَصَلَتِ ٱلْمَلَكَةُ ٱلتَّامَّةُ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمَقْصُودَةِ وَمُرَاعَاةِ ٱلتَّأْلِيفِ ٱلَّذِي يُطَبِّقُ ٱلْكَلَامَ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بَلَغَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حِينَئِذٍ ٱلْغَايَةَ مِنْ إِفَادَةِ مَقْصُودِهِ لِلسَّامِعِ وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْمَلَكَاتُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِتَكْرَارِ ٱلْأَفْعَالِ لِأَنَّ ٱلْفِعْلَ يَقَعُ أَوَّلًا وَتَعُودُ مِنْهُ لِلذَّاتِ صِفَةٌ ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالًا وَمَعْنَى ٱلْحَالِ أَنَّهَا صِفَةٌ غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ ٱلتَّكْرَارُ فَتَكُونُ مَلَكَةً أَيْ صِفَةً رَاسِخَةً فَٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلْعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَتُهُ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ مَوْجُودَةً فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ وَأَسَالِيبَهُمْ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ تَعْبِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ ٱلصَّبِيُّ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْمُفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيُلَقَّنُهَا أَوَّلًا ثُمَّ يَسْمَعُ ٱلتَّرَاكِيبَ بَعْدَهَا فَيُلَقَّنُهَا كَذٰلِكَ ثُمَّ لَا يَزَالُ

سَمَاعِهِمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مُتَكَلِّمٍ وَٱسْتِعْمَالُهُ يَتَكَرَّرُ إِلَى أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً وَصِفَةً رَاسِخَةً وَيَكُونَ كَأَحَدِهِمْ هٰكَذَا تَصَيَّرَتِ ٱلْأَلْسُنُ وَٱللُّغَاتُ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعَلَّمَهَا ٱلْعَجَمُ وَٱلْأَطْفَالُ وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى مَا تَقُولُهُ ٱلْعَامَّةُ مِنْ أَنَّ ٱللُّغَةَ لِلْعَرَبِ بِٱلطَّبْعِ أَيْ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُولَى ٱلَّتِي أُخِذَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ يَأْخُذُوهَا عَنْ غَيْرِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمُضَرَ بِمُخَالَطَتِهِمِ ٱلْأَعَاجِمَ وَسَبَبُ فَسَادِهَا أَنَّ ٱلنَّاشِئَ مِنَ ٱلْجِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ كَيْفِيَّاتٍ أُخْرَى غَيْرَ ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيُعَبِّرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكَثْرَةِ ٱلْمُخَالِطِينَ لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ كَيْفِيَّاتِ ٱلْعَرَبِ أَيْضًا فَٱخْتَلَطَ عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ وَأَخَذَ مِنْ هٰذِهِ وَهٰذِهِ فَٱسْتَحْدَثَ مَلَكَةً وَكَانَتْ نَاقِصَةً عَنِ ٱلْأُولَى وَهٰذَا مَعْنَى فَسَادِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَلِهٰذَا كَانَتْ لُغَةُ قُرَيْشٍ أَفْصَحَ ٱللُّغَاتِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَأَصْرَحَهَا لِبُعْدِهِمْ عَنْ بِلَادِ ٱلْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ثُمَّ مَنِ ٱكْتَنَفَهُمْ مِنْ ثَقِيفٍ وَهُذَيْلٍ وَخُزَاعَةَ وَبَنِي كِنَانَةَ وَغَطَفَانَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ مِنْ رَبِيعَةَ وَلَخْمٍ وَجُذَامَ وَغَسَّانَ وَإِيَادٍ وَقُضَاعَةَ وَعَرَبِ ٱلْيَمَنِ ٱلْمُجَاوِرِينَ لِأُمَمِ ٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱلْحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمْ تَامَّةَ ٱلْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ ٱلْأَعَاجِمِ وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَ ٱلِٱحْتِجَاجُ بِلُغَاتِهِمْ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في ان لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُهَا فِي بَيَانِ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْوَفَاءِ بِٱلدَّلَالَةِ عَلَى سَنَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْمُضَرِيِّ وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْهَا إِلَّا دَلَالَةُ ٱلْحَرَكَاتِ عَلَى تَعَيُّنِ ٱلْفَاعِلِ مِنَ ٱلْمَفْعُولِ فَٱعْتَاضُوا مِنْهَا بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَبِقَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ ٱلْمَقَاصِدِ إِلَّا أَنَّ ٱلْبَيَانَ وَٱلْبَلَاغَةَ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْمُضَرِيِّ أَكْثَرُ وَأَعْرَفُ لِأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ بِأَعْيَانِهَا دَالَّةٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِأَعْيَانِهَا وَيَبْقَى مَا تَقْتَضِيهِ ٱلْأَحْوَالُ وَيُسَمَّى بِسَاطَ ٱلْحَالِ مُحْتَاجًا إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَكُلُّ مَعْنًى لَا بُدَّ وَأَنْ تَكْتَنِفَهُ أَحْوَالٌ تَخُصُّهُ فَيَجِبُ أَنْ تُعْتَبَرَ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالُ فِي تَأْدِيَةِ ٱلْمَقْصُودِ لِأَنَّهَا صِفَاتُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَحْوَالُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَلْسُنِ أَكْثَرُ مَا يُدَلُّ عَلَيْهَا بِأَلْفَاظٍ تَخُصُّهَا بِٱلْوَضْعِ وَأَمَّا فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ فَإِنَّمَا يُدَلُّ عَلَيْهَا بِأَحْوَالٍ وَكَيْفِيَّاتٍ فِي تَرَاكِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَأْلِيفِهَا مِنْ

تقديمٍ أو تأخيرٍ أو حذفٍ أو حركةِ أعرابٍ وقد يدلُّ عليها بالحروفِ غيرِ المستقلّةِ ولذلك تفاوتت طبقاتُ الكلامِ في اللسانِ العربيّ بحسبِ تفاوتِ الدلالةِ على تلكَ الكيفيّاتِ كما قدّمناهُ فكانَ الكلامُ العربيُّ لذلكَ أوجزَ وأقلَّ ألفاظاً وعبارةً من جميعِ الألسنِ وهذا معنى قولِهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ أوتيتُ جوامعَ الكلمِ واختصرَ ليَ الكلامُ اختصاراً واعتبِرْ ذلكَ بما يُحكى عن عيسى بن عمرَ وقد قالَ لهُ بعضُ النحاةِ إنّي أجدُ في كلامِ العربِ تكراراً في قولِهِم زيدٌ قائمٌ وإنَّ زيداً قائمٌ وإنَّ زيداً لقائمٌ والمعنى واحدٌ فقالَ لهُ إنَّ معانيها مختلفةٌ فالأوّلُ لإفادةِ الخالي الذهنِ من قيامِ زيدٍ والثاني لمن سمعهُ فتردَّدَ فيهِ والثالثُ لمن عُرِفَ بالإصرارِ على إنكارهِ فاختلفتِ الدلالةُ باختلافِ الأحوالِ وما زالت هذهِ البلاغةُ والبيانُ ديدنَ العربِ ومذهبَهم لهذا العهدِ ولا تلتفتَنَّ في ذلكَ إلى خرفشةِ النحاةِ أهلِ صناعةِ الإعرابِ القاصرةِ مداركُهم عن التحقيقِ حيثُ يزعمونَ أنَّ البلاغةَ لهذا العهدِ ذهبتْ وأنَّ اللسانَ العربيَّ فسدَ اعتباراً بما وقعَ في أواخرِ الكلمِ من فسادِ الإعرابِ الذي يتدارسونَ قوانينَهُ وهيَ مقالةٌ دسَّها التشيّعُ في طباعِهِم وألقاها القصورُ في أفئدتِهِم وإلّا فنحنُ نجدُ اليومَ الكثيرَ من ألفاظِ العربِ لم تزلْ في موضوعاتِها الأولى والتعبيرُ عن المقاصدِ والتعاونُ فيهِ بتفاوتِ الإبانةِ موجودٌ في كلامِهِم لهذا العهدِ وأساليبُ اللسانِ وفنونُهُ من النظمِ والنثرِ موجودةٌ في مخاطباتِهِم وفهمُ الخطيبِ المصقعِ في محافلِهِم ومجامعِهِم والشاعرِ المفلقِ على أساليبِ لغتِهِم والذوقُ الصحيحُ والطبعُ السليمُ شاهدانِ بذلكَ ولم يفقدْ من أحوالِ اللسانِ المدوّنِ إلّا حركاتُ الإعرابِ في أواخرِ الكلمِ فقط الذي لزمَ في لسانِ مضرَ طريقةً واحدةً ومهيعاً معروفاً وهو الإعرابُ وهو بعضٌ من أحكامِ اللسانِ وإنّما وقعتِ العنايةُ بلسانِ مضرَ لمّا فسدَ بمخالطتِهِم الأعاجمَ حينَ استولَوا على ممالكِ العراقِ والشامِ ومصرَ والمغربِ وصارتْ ملكتُهُ على غيرِ الصورةِ التي كانتْ أوّلاً فانقلبَ لغةً أخرى وكانَ القرآنُ منزّلاً بهِ والحديثُ النبويُّ منقولاً بلغتِهِ وهما أصلا الدينِ والملّةِ فخشيَ تناسيهما وانغلاقُ الأفهامِ عنهما بفقدانِ اللسانِ الذي نُزّلا بهِ فاحتيجَ إلى تدوينِ أحكامِهِ ووضعِ مقاييسِهِ واستنباطِ قوانينِهِ وصارَ علماً ذا فصولٍ وأبوابٍ ومقدّماتٍ ومسائلَ سمّاهُ أهلُهُ بعلمِ النحوِ وصناعةِ

العربية فأصبح فنا محفوظا وعلما مكتوبا وسلما إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافيا ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر فليست اللغات وملكاتها مجانا ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغير عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري أنه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال مختصا بهم لا يشاركهم بها غيرهم حتى إن من يريد التقرب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها وعندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها فإن هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر ابن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد أكثر الأمم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف

أُسْوَةٌ وَهٰذِهِ ٱللُّغَةُ لَمْ يَبْتَدِعْهَا هٰذَا ٱلْجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوَارَثَةٌ فِيهِمْ مُتَعَاقِبَةٌ وَيَظْهَرُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرَ ٱلْأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لُغَةُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَيْنِهَا قَدِ ٱدَّعَى ذٰلِكَ فُقَهَاءُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي أُمِّ ٱلْقُرْآنِ إِهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ بِغَيْرِ ٱلْقَافِ ٱلَّتِي لِهٰذَا ٱلْجِيلِ فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ جَاءَ هٰذَا فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرَ لَمَّا نَزَلُوا ٱلْأَمْصَارَ مِنْ لَدُنِ ٱلْفَتْحِ وَأَهْلُ ٱلْجِيلِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ فَهٰذَا يُرَجِّحُ فِيمَا يُوجَدُ مِنَ ٱللُّغَةِ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ هٰذَا مَعَ ٱتِّفَاقِ أَهْلِ ٱلْجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي ٱلنُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا ٱلْخَاصِيَّةُ ٱلَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا ٱلْعَرَبِيُّ مِنَ ٱلْهَجِينِ وَٱلْحَضَرِيِّ فَتَفَهَّمْ ذٰلِكَ وَٱللهُ ٱلْهَادِي ٱلْمُبِينُ

الفصل التاسع والثلاثون

في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

إِعْلَمْ أَنَّ عُرْفَ ٱلتَّخَاطُبِ فِي ٱلْأَمْصَارِ وَبَيْنَ ٱلْحَضَرِ لَيْسَ بِلُغَةِ مُضَرَ ٱلْقَدِيمَةِ وَلَا بِلُغَةِ أَهْلِ ٱلْجِيلِ بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنْ لُغَةِ مُضَرَ وَعَنْ لُغَةِ هٰذَا ٱلْجِيلِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي لِعَهْدِنَا وَهِيَ عَنْ لُغَةِ مُضَرَ أَبْعَدُ فَأَمَّا إِنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ ٱلتَّغَايُرِ ٱلَّذِي يُعَدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ ٱلنَّحْوِ لَحْنًا وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ تَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَمْصَارِ فِي ٱصْطِلَاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ مُبَايِنَةٌ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ لِلُغَةِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَكَذَا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلٌّ مِنْهُمْ مُتَوَصِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلَى تَأْدِيَةِ مَقْصُودِهِ وَٱلْإِبَانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَهٰذَا مَعْنَى ٱللِّسَانِ وَٱللُّغَةِ وَفِقْدَانُ ٱلْإِعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَاهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَأَمَّا إِنَّهَا أَبْعَدُ عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هٰذَا ٱلْجِيلِ فَلِأَنَّ ٱلْبُعْدَ عَنِ ٱللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمُخَالَطَةِ ٱلْعُجْمَةِ فَمَنْ خَالَطَ ٱلْعَجَمَ أَكْثَرَ كَانَتْ لُغَتُهُ عَنْ ذٰلِكَ ٱللِّسَانِ ٱلْأَصْلِيِّ أَبْعَدَ لِأَنَّ ٱلْمَلَكَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِٱلتَّعْلِيمِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهٰذِهِ مَلَكَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنَ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُولَى ٱلَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ وَمِنَ ٱلْمَلَكَةِ ٱلثَّانِيَةِ ٱلَّتِي لِلْعَجَمِ فَعَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ ٱلْعَجَمِ وَيَرْبَوْنَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُولَى وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَشْرِقِ أَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَٱلْمَغْرِبُ فَخَالَطَتِ ٱلْعَرَبُ فِيهَا ٱلْبَرَابِرَةَ مِنَ ٱلْعَجَمِ بِوُفُورِ عُمْرَانِهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكَدْ يَخْلُو عَنْهُمْ مِصْرٌ

وَلاَ جِيلٌ فَغَلَبَتِ ٱلْعُجْمَةُ فِيهَا عَلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةً أُخْرَى مُمْتَزِجَةً وَٱلْعُجْمَةُ فِيهَا أَغْلَبُ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَهِيَ عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْأَوَّلِ أَبْعَدُ وَكَذَا ٱلْمَشْرِقُ لَمَّا غَلَبَ ٱلْعَرَبُ عَلَى أُمَمِهِ مِنْ فَارِسَ وَٱلتُّرْكِ فَخَالَطُوهُمْ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي ٱلْأَكَرَةِ وَٱلْفَلَّاحِينَ وَٱلسَّبْيِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوهُمْ خَوَلاً وَدَايَاتٍ وَأَظْآرًا وَمَرَاضِعَ فَفَسَدَتْ لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ ٱلْمَلَكَةِ حَتَّى ٱنْقَلَبَتْ لُغَةً أُخْرَى وَكَذَا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ ٱلْجَلَالِقَةِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَصَارَ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ كُلُّهُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ أَهْلَ لُغَةٍ أُخْرَى مَخْصُوصَةٍ بِهِمْ تُخَالِفُ لُغَةَ مُضَرَ وَيُخَالِفُ أَيْضًا بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا نَذْكُرُهُ وَكَأَنَّهُ لُغَةٌ أُخْرَى لِٱسْتِحْكَامِ مَلَكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ وَٱللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ

الفصل الاربعون

في تعليم اللسان المضري

إِعْلَمْ أَنَّ مَلَكَةَ ٱللِّسَانِ ٱلْمُضَرِيِّ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ ٱلْجِيلِ كُلِّهِمْ مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرَ ٱلَّتِي نَزَلَ بِهَا ٱلْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى مِنِ ٱمْتِزَاجِ ٱلْعُجْمَةِ بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَّا أَنَّ ٱللُّغَاتِ لَمَّا كَانَتْ مَلَكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُمْكِنًا شَأْنَ سَائِرِ ٱلْمَلَكَاتِ وَوَجْهُ ٱلتَّعْلِيمِ لِمَنْ يَبْتَغِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةَ وَيَرُومُ تَحْصِيلَهَا أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمِ ٱلْقَدِيمِ ٱلْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِهِمْ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ وَكَلَامِ ٱلسَّلَفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ ٱلْعَرَبِ فِي أَسْجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ ٱلْمُوَلَّدِينَ أَيْضًا فِي سَائِرِ فُنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكَثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ مَنْزِلَةَ مَنْ نَشَأَ بَيْنَهُمْ وَلُقِّنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحَفِظَهُ مِنْ أَسَالِيبِهِمْ وَتَرْتِيبِ أَلْفَاظِهِمْ فَتَحْصُلُ لَهُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِهٰذَا ٱلْحِفْظِ وَٱلِٱسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ بِكَثْرَتِهِمَا رُسُوخًا وَقُوَّةً وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ إِلَى سَلَامَةِ ٱلطَّبْعِ وَٱلتَّفَهُّمِ ٱلْحَسَنِ لِمَنَازِعِ ٱلْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي ٱلتَّرَاكِيبِ وَمُرَاعَاةِ ٱلتَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضَيَاتِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلذَّوْقُ يَشْهَدُ بِذٰلِكَ وَهُوَ يَنْشَأُ مَا بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ وَٱلطَّبْعِ ٱلسَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا نَذْكُرُ وَعَلَى قَدْرِ ٱلْمَحْفُوظِ وَكَثْرَةِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ تَكُونُ جَوْدَةُ ٱلْمَقُولِ ٱلْمَصْنُوعِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَمَنْ حَصَّلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةِ مُضَرَ وَهُوَ ٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ بِٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا وَهٰكَذَا يَنْبَغِي

ان يكون تعلّمها والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه

الفصل الحادي والاربعون

في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك أنّ صناعة العربيّة إنّما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصّة فهو علم بكيفيّة لا نفس كيفيّة فليست نفس الملكة وانّما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصّنائع علماً ولا يحكمها عملاً مثل أن يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكتها في التّعبير عن بعض أنواعها الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الإبرة ثمّ يغرزها في لفقي الثّوب مجتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثمّ يردّها إلى حيث ابتدأت ويخرجها قدّام منفذها الأوّل بمطرح ما بين الثّقبين الأوّلين ثمّ يتمادى على ذلك إلى آخر العمل ويعطي صورة الحبك والتّثبيت والتّفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها وهو إذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً وكذا لو سئل عالم بالنّجارة عن تفصيل الخشب فيقول هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما وأطرافه المضرّسة المحدّدة تقطع ما مرّت عليه ذاهبة وجائية إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها فإنّ العلم بقوانين الإعراب إنّما هو علم بكيفيّة العمل ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النّحاة والمهرة في صناعة العربيّة المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودّته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصّواب وأكثر من اللّحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللّسان العربيّ وكذا نجد كثيراً ممّن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنّين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المفعول من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربيّة فمن هذا تعلم أنّ تلك الملكة هي غير صناعة العربيّة وأنّها مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة وهو قليل واتّفاقيّ وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فإنّه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط

بَلْ مَلَأَ كِتَابَهُ مِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ وَشَوَاهِدِ أَشْعَارِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ فَكَانَ فِيهِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْ تَعْلِيمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فَتَجِدُ ٱلْعَاكِفَ عَلَيْهِ وَٱلْمُحَصِّلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى حَظٍّ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَٱنْدَرَجَ فِي مَحْفُوظِهِ فِي أَمَاكِنِهِ وَمَفَاصِلِ حَاجَاتِهِ وَتَنَبَّهَ بِهِ لِشَأْنِ ٱلْمَلَكَةِ فَٱسْتَوْفَى تَعْلِيمَهَا فَكَانَ أَبْلَغَ فِي ٱلْإِفَادَةِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سِيبَوَيْهِ مَنْ يَغْفُلُ عَنِ ٱلتَّفَطُّنِ لِهٰذَا فَيَحْصُلُ عَلَى عِلْمِ ٱللِّسَانِ صِنَاعَةً وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ مَلَكَةً وَأَمَّا ٱلْمُخَالِطُونَ لِكُتُبِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ٱلْعَارِيَةِ عَنْ ذٰلِكَ إِلَّا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنْ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ فَقَلَّ مَا يَشْعُرُونَ لِذٰلِكَ بِأَمْرِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ أَوْ يَنْتَبِهُونَ لِشَأْنِهَا فَتَجِدُهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى رُتْبَةٍ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُمْ أَبْعَدُ ٱلنَّاسِ عَنْهُ وَأَهْلُ صِنَاعَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَمُعَلِّمُوهَا أَقْرَبُ إِلَى تَحْصِيلِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمِهَا مِنْ سِوَاهُمْ لِقِيَامِهِمْ فِيهَا عَلَى شَوَاهِدِ ٱلْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَٱلتَّفَقُّهِ فِي ٱلْكَثِيرِ مِنَ ٱلتَّرَاكِيبِ فِي مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ فَيَسْبِقُ إِلَى ٱلْمُبْتَدِئِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَلَكَةِ أَثْنَاءَ ٱلتَّعْلِيمِ فَتَنْقَطِعُ ٱلنَّفْسُ لَهَا وَتَسْتَعِدُّ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْرَوْا صِنَاعَةَ ٱلْعَرَبِيَّةِ مُجْرَى ٱلْعُلُومِ بَحْثًا وَقَطَعُوا ٱلنَّظَرَ عَنِ ٱلتَّفَقُّهِ فِي تَرَاكِيبِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَّا إِنْ أَعْرَبُوا شَاهِدًا أَوْ رَجَّحُوا مَذْهَبًا مِنْ جِهَةِ ٱلِاقْتِضَاءِ ٱلذِّهْنِيِّ لَا مِنْ جِهَةِ مَحَامِلِ ٱللِّسَانِ وَتَرَاكِيبِهِ فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ ٱلْعَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَانِينِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَوِ ٱلْجَدَلِ وَبَعُدَتْ عَنْ مَنَاحِي ٱللِّسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِعُدُولِهِمْ عَنِ ٱلْبَحْثِ فِي شَوَاهِدِ ٱللِّسَانِ وَتَرَاكِيبِهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيبِهِ وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ ٱلْمِرَانِ فِي ذٰلِكَ لِلْمُتَعَلِّمِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا تُفِيدُهُ ٱلْمَلَكَةُ فِي ٱللِّسَانِ وَتِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلُ لِلتَّعْلِيمِ لٰكِنَّهُمْ أَجْرَوْهَا عَلَى غَيْرِ مَا قُصِدَ بِهَا وَأَصَارُوهَا عِلْمًا بَحْتًا وَبَعُدُوا عَنْ ثَمَرَتِهَا وَتَعْلَمُ مِمَّا قَرَّرْنَاهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ أَنَّ حُصُولَ مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكَثْرَةِ ٱلْحِفْظِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خَيَالِهِ ٱلْمِنْوَالُ ٱلَّذِي نَسَجُوا عَلَيْهِ تَرَاكِيبَهُمْ فَيَنْسِجُ هُوَ عَلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ بِذٰلِكَ مَنْزِلَةَ مَنْ نَشَأَ مَعَهُمْ وَخَالَطَ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلْمُسْتَقِرَّةُ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ عَلَى نَحْوِ كَلَامِهِمْ وَٱللهُ مُقَدِّرُ ٱلْأُمُورِ كُلِّهَا وَٱللهُ أَعْلَمُ بِٱلْغَيْبِ

الفصل الثاني والاربعون

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يحصل للمستعربين من العجم

إِعْلَمْ أَنَّ لَفْظَةَ ٱلذَّوْقِ يَتَدَاوَلُهَا ٱلْمُعْتَنُونَ بِفُنُونِ ٱلْبَيَانِ وَمَعْنَاهَا حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِلِّسَانِ وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَأَنَّهَا مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِلْمَعْنَى مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ بِخَوَاصَّ تَقَعُ لِلتَّرَاكِيبِ فِي إِفَادَةِ ذٰلِكَ فَٱلْمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَلِيغُ فِيهِ يَتَحَرَّى ٱلْهَيْئَةَ ٱلْمُفِيدَةَ لِذٰلِكَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ وَأَنْحَاءِ مُخَاطَبَاتِهِمْ وَيَنْظِمُ ٱلْكَلَامَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوَجْهِ جُهْدَهُ فَإِذَا ٱتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ بِمُخَالَطَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ فِي نَظْمِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوَجْهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ أَمْرُ ٱلتَّرْكِيبِ حَتَّى لَا يَكَادُ يَنْحُو فِيهِ غَيْرَ مَنْحَى ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي لِلْعَرَبِ وَإِنْ سَمِعَ تَرْكِيبًا غَيْرَ جَارٍ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَنْحَى مَجَّهُ وَنَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بِأَدْنَى فِكْرٍ بَلْ وَبِغَيْرِ فِكْرٍ إِلَّا بِمَا ٱسْتَفَادَ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فَإِنَّ ٱلْمَلَكَاتِ إِذَا ٱسْتَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحَالِّهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلْمَحَلِّ وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ ٱلْمَلَكَاتِ أَنَّ ٱلصَّوَابَ لِلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ إِعْرَابًا وَبَلَاغَةً أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ كَانَتِ ٱلْعَرَبُ تَنْطِقُ بِٱلطَّبْعِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ فِي نَظْمِ ٱلْكَلَامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بَادِئِ ٱلرَّأْيِ أَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَطَبْعٌ وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱللِّسَانِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذٰلِكَ ٱللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا وَقَدْ مَرَّ ذٰلِكَ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱللِّسَانِ تَهْدِي ٱلْبَلِيغَ إِلَى وُجُودِ ٱلنَّظْمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ ٱلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هٰذِهِ ٱلسُّبُلِ ٱلْمُعَيَّنَةِ وَٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَا وَافَقَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ أُسْلُوبِ ٱلْعَرَبِ وَبَلَاغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصْنَعُ أَهْلُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ

وَالْبَيَانِيَّةِ فَإِنَّ ذَٰلِكَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُفَادَةِ بِالْاسْتِقْرَاءِ وَهٰذَا أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ الْإِعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ الْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ وَكَذَٰلِكَ تَحْصُلُ هٰذِهِ الْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذَٰلِكَ الْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذَٰلِكَ بِحَيْثُ يَحْصُلُ الْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ وَالْقَوَانِينُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا وَاسْتُعِيرَ لِهٰذِهِ الْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرْسَخُ وَتَسْتَقِرُّ اسْمُ الذَّوْقِ الَّذِي اصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ صِنَاعَةِ الْبَيَانِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِدْرَاكِ الطُّعُومِ لٰكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ فِي اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ بِالْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحَلٌّ لِإِدْرَاكِ الطُّعُومِ اسْتُعِيرَ لَهَا اسْمُهُ وَأَيْضًا فَهُوَ وِجْدَانِيٌّ اللِّسَانِ كَمَا أَنَّ الطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَٰلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ الْأَعَاجِمَ الدَّاخِلِينَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّينَ إِلَى النُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ كَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَكَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هٰذَا الذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هٰذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي قَرَّرْنَا أَمْرَهَا لِأَنَّ قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُمُرِ وَسَبْقِ مَلَكَةٍ أُخْرَى إِلَى اللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ أَنْ يَعْتَنُوا بِمَا يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُ مِصْرٍ بَيْنَهُمْ فِي الْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ ذَٰلِكَ وَهٰذِهِ الْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي ذَٰلِكَ مَلَكَةٌ أُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْمَطْلُوبَةِ وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ الْمَلَكَةَ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُسَطَّرَةِ فِي الْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا حَصَّلَ أَحْكَامَهَا كَمَا عَرَفْتَ وَإِنَّمَا تَحْصُلُ هٰذِهِ الْمَلَكَةُ بِالْمُمَارَسَةِ وَالْاعْتِيَادِ وَالتَّكَرُّرِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أَنَّ سِيبَوَيْهِ وَالْفَارِسِيَّ وَالزَّمَخْشَرِيَّ وَأَمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ الْكَلَامِ كَانُوا أَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ لَهُمْ فَاعْلَمْ أَنَّ أُولٰئِكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَأَمَّا الْمَرْبَى وَالنَّشْأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ أَهْلِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَاسْتَوْلَوْا بِذَٰلِكَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا وَكَأَنَّهُمْ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَجْيَالِهِمْ

حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ اللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عُجْماً فِي النَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ فِي اللُّغَةِ وَالْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا الْمِلَّةَ فِي عُنْفُوَانِهَا وَاللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى الْمُمَارَسَةِ وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى اسْتَوْلَوْا عَلَى غَايَتِهِ وَالْيَوْمَ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالْأَمْصَارِ فَأَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ الْآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ الْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى الْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى فِي الْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً وَإِنْ فَرَضْنَا أَعْجَمِيًّا فِي النَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لٰكِنَّهُ مِنَ النُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا الذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُغَالَطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ الْعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَاللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثالث والاربعون

في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن اللسان العربي كان حصولها له اصعب واعسر

وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ الْمَطْلُوبَةِ بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ اللِّسَانِ الْحَضَرِيِّ الَّذِي أَفَادَتْهُ الْعُجْمَةُ حَتَّى نَزَلَ بِهَا اللِّسَانُ عَنْ مَلَكَتِهِ الْأُولَى إِلَى مَلَكَةٍ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ الْحَضَرِ لِهٰذَا الْعَهْدِ وَلِهٰذَا نَجِدُ الْمُعَلِّمِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْمُسَابَقَةِ بِتَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلْوِلْدَانِ وَتَعْتَقِدُ النُّحَاةُ أَنَّ هٰذِهِ الْمُسَابَقَةَ بِصِنَاعَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ نَعَمْ صِنَاعَةُ النَّحْوِ أَقْرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذٰلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَعْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنْ لِسَانِ مُضَرَ قَصَّرَ بِصَاحِبِهِ عَنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْمُضَرِيَّةِ. وَحُصُولِ

مَلَكتها التمكّن المنافاة حينئذٍ واعتبر ذلك في أهل الأمصار فأهل أفريقيّة والمغرب لمّا كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللّسان الأوّل كان لهم قصور تامّ في تحصيل ملكته بالتّعليم ولقد نقل ابن الرّقيق أنّ بعض كتّاب القيروان كتب إلى صاحب له يا أخي ومن لا عدمت فقده أعلمني أبو سعيد كلامًا أنّك كنت ذكرت أنّك تكون مع الّذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتهيّأ لنا الخروج وأمّا أهل المنزل الكلاب من أمر الشّين فقد كذبوا هذا باطلًا ليس من هذا حرفًا واحدًا وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله وهكذا كانت ملكتهم في اللّسان المضريّ شبيه بما ذكرنا وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطّبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بأفريقيّة من مشاهير الشّعراء إلّا ابن رشيق وابن شرف وأكثر ما يكون فيها الشّعراء طارئين عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتّى الآن مائلة إلى القصور وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللّغويّة نظمًا ونثرًا وكان فيهم ابن حيّان المؤرّخ إمام أهل الصّناعة في هذه الملكة ورافع الرّاية لهم فيها وابن عبد ربّه والقسطليّ وأمثالهم من شعراء ملوك الطّوائف لما زخرت فيها بحار اللّسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السّنين حتّى كان الانفضاض والجلاء أيّام تغلّب النّصرانيّة وشغلوا عن تعلّم ذلك وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصّنائع كلّها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتّى بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن مرحّل من تلاميذ الطّبقة الإشبيليّين بسبتة وكتّاب دولة ابن الأحمر في أوّلها وألقت الأندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجلاء إلى العدوة لعدوة الإشبيليّة إلى سبتة ومن شرقيّ الأندلس إلى أفريقيّة ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصّناعة لعسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربريّة وهي منافية لما قلناه ثمّ عادت الملكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجيّاب وطبقتهم ثمّ إبراهيم السّاحليّ الطّريحيّ وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيدًا بسعاية أعدائه وكان له في اللّسان ملكة لا تدرك واتّبع أثره تلميذه وبالجملة

فَشَأْنُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ أَكْثَرُ وَتَعْلِيمُهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ مُعَانَاةِ عُلُومِ ٱللِّسَانِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عُلُومِ ٱلْأَدَبِ وَسَنَدِ تَعَالِيمِهَا وَلِأَنَّ أَهْلَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ ٱلَّذِينَ تَفْسُدُ مَلَكَتُهُمْ إِنَّمَا هُمْ طَارِئُونَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ عُجْمَتُهُمْ أَصْلاً لِلُغَةِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْبَرْبَرِ فِي هٰذِهِ ٱلْعُدْوَةِ وَهُمْ أَهْلُهَا وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا إِلاَّ فِي ٱلْأَمْصَارِ فَقَطْ وَهُمْ فِيهَا مُنْغَمِسُونَ فِي بَحْرِ عُجْمَتِهِمْ وَرَطَانَتِهِمِ ٱلْبَرْبَرِيَّةِ فَيَصْعُبُ عَلَيْهِمْ تَحْصِيلُ ٱلْمَلَكَةِ ٱللِّسَانِيَّةِ بِٱلتَّعْلِيمِ بِخِلَافِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِحَالِ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ لِعَهْدِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَٱلْعَبَّاسِيَّةِ فَكَانَ شَأْنُهُمْ شَأْنَ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي تَمَامِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ وَإِجَادَتِهَا لِبُعْدِهِمْ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ عَنِ ٱلْأَعَاجِمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ إِلاَّ فِي ٱلْقَلِيلِ فَكَانَ أَمْرُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ أَقْوَمَ وَكَانَ فُحُولُ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْكُتَّابِ أَوْفَرَ لِتَوَفُّرِ ٱلْعَرَبِ وَأَبْنَائِهِمْ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱنْظُرْ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلْأَغَانِي مِنْ نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱلْكِتَابَ هُوَ كِتَابُ ٱلْعَرَبِ وَدِيوَانُهُمْ وَفِيهِ لُغَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَأَيَّامُهُمْ وَمِلَّتُهُمُ ٱلْعَرَبِيَّةُ وَسِيرَتُهُمْ وَآثَارُ خُلَفَائِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَغِنَاؤُهُمْ وَسَائِرُ مَعَانِيهِمْ لَهُ فَلَا كِتَابَ أَوْعَبُ مِنْهُ لِأَحْوَالِ ٱلْعَرَبِ وَبَقِيَ أَمْرُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ مُسْتَحْكِمًا فِي ٱلْمَشْرِقِ فِي ٱلدَّوْلَتَيْنِ وَرُبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ أَبْلَغَ مِمَّنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ كَانَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ كَمَا نَذْكُرُهُ بَعْدُ حَتَّى تَلَاشَى أَمْرُ ٱلْعَرَبِ وَدَرَسَتْ لُغَتُهُمْ وَفَسَدَ كَلَامُهُمْ وَٱنْقَضَى أَمْرُهُمْ وَدَوْلَتُهُمْ وَصَارَ ٱلْأَمْرُ لِلْأَعَاجِمِ وَٱلْمُلْكُ فِي أَيْدِيهِمْ وَٱلتَّغَلُّبُ لَهُمْ وَذٰلِكَ فِي دَوْلَةِ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلسَّلْجُوقِيَّةِ وَخَالَطُوا أَهْلَ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْحَوَاضِرِ حَتَّى بَعُدُوا عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَمَلَكَتِهِ وَصَارَ مُتَعَلِّمُهَا مِنْهُمْ مُقَصِّرًا عَنْ تَحْصِيلِهَا وَعَلَى ذٰلِكَ نَجِدُ لِسَانَهُمْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي فَنَّيِ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثِرِينَ مِنْهُ وَٱللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الرابع والاربعون

في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر

إِعْلَمْ أَنَّ لِسَانَ ٱلْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنْظُومِ وَهُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَوْزُونُ ٱلْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ وَفِي ٱلنَّثْرِ وَهُوَ ٱلْكَلَامُ غَيْرُ ٱلْمَوْزُونِ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ

فِي ٱلْكَلَامِ فَأَمَّا ٱلشِّعْرُ فَمِنْهُ ٱلْمَدْحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلرِّثَاءُ وَأَمَّا ٱلنَّثْرُ فَمِنْهُ ٱلسَّجْعُ ٱلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ يُسَمَّى سَجْعًا وَمِنْهُ ٱلْمُرْسَلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ ٱلْكَلَامُ إِطْلَاقًا وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَيُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ ٱلْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ وَأَمَّا ٱلْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ ٱلْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ ٱلذَّوْقُ بِٱنْتِهَاءِ ٱلْكَلَامِ عِنْدَهَا ثُمَّ يُعَادُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا وَلَا قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ٱللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ وَيُسَمَّى آخِرُ ٱلْآيَاتِ مِنْهَا فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا ٱلْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي ٱلسَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ وَأُطْلِقَ ٱسْمُ ٱلْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱخْتُصَّتْ بِأُمِّ ٱلْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَٱلنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهٰذَا سُمِّيَتِ ٱلسَّبْعَ ٱلْمَثَانِي وَٱنْظُرْ هٰذَا مَعَ مَا قَالَهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ ٱلْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ . وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ ٱلْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ ٱلنَّسِيبِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحَمْدِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي ٱلْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْتِزَامِ ٱلتَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ ٱلنَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْأَغْرَاضِ وَصَارَ هٰذَا ٱلْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ ٱلشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي ٱلْوَزْنِ وَٱسْتَمَرَّ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِٱسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفَّلِ جَارِيَةً عَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطَبِ وَٱلْمُخَاطِبِ وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى أَدْخَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي

ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْاسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذَٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ وَٱلْتِزَامُ ٱلتَّقْفِيَةِ أَيْضًا مِنَ ٱللَّوْذَعَةِ وَٱلتَّزْيِينِ وَجَلَالُ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَخِطَابُ ٱلْجُمْهُورِ عَنِ ٱلْمُلُوكِ بِٱلتَّرْغِيبِ وَٱلتَّرْهِيبِ يُنَافِي ذَٰلِكَ وَيُبَايِنُهُ وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ ٱلْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ كِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلَاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذَٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خُطُوبِهِ وَوَلِعُوا بِهَٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذَٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذَٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهَٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذَٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ فَتَأَمَّلْ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللَّهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الفصل الخامس والاربعون

في انه لا تتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معًا الا للاقل

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُ كَمَا بَيَّنَّاهُ مَلَكَةٌ فِي ٱللِّسَانِ فَإِذَا تَسَبَّقَتْ إِلَى مَحَلِّهِ مَلَكَةٌ أُخْرَى قَصَّرَتْ بِٱلْمَحَلِّ عَنْ تَمَامِ ٱلْمَلَكَةِ ٱللَّاحِقَةِ لِأَنَّ تَمَامَ ٱلْمَلَكَاتِ وَحُصُولَهَا لِلطَّبَائِعِ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ وَإِذَا تَقَدَّمَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى كَانَتْ مُنَازِعَةً لَهَا فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْقَابِلَةِ وَعَائِقَةً عَنْ سُرْعَةِ ٱلْقَبُولِ فَوَقَعَتِ ٱلْمُنَافَاةُ وَتَعَذَّرَ ٱلتَّمَامُ فِي ٱلْمَلَكَاتِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَقَدْ بَرْهَنَّا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ بِنَحْوٍ مِنْ هَٰذَا

الْبُرْهَانِ فَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي اللُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ اللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الصِّنَاعَةِ وَانْظُرْ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْعُجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِرًا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَبَدًا فَالْأَعْجَمِيُّ الَّذِي سَبَقَتْ لَهُ اللُّغَةُ الْفَارِسِيَّةُ لَا يَسْتَوْلِي عَلَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ قَاصِرًا فِيهِ وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ وَكَذَا الْبَرْبَرِيُّ وَالرُّومِيُّ وَالْإِفْرَنْجِيُّ قَلَّ أَنْ تَجِدَ أَحَدًا مِنْهُمْ مُحْكِمًا لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا سَبَقَ إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْآخَرِ حَتَّى إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَلْسُنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ جَاءَ مُقَصِّرًا فِي مَعَارِفِهِ عَنِ الْغَايَةِ وَالتَّحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ اللِّسَانِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّ الْأَلْسُنَ وَاللُّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَائِعِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَمَلَكَاتِهَا لَا تَزْدَحِمُ وَأَنَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوْلِيَ فِيهَا عَلَى الْغَايَةِ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس والاربعون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هَذَا الْفَنُّ مِنْ فُنُونِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ فِي سَائِرِ اللُّغَاتِ إِلَّا أَنَّنَا الْآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي الشِّعْرِ الَّذِي لِلْعَرَبِ فَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ أَهْلُ الْأَلْسُنِ الْأُخْرَى مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ وَإِلَّا فَلِكُلِّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ فِي الْبَلَاغَةِ تَخُصُّهُ وَهُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْمَنْحَى إِذْ هُوَ كَلَامٌ مُفَصَّلٌ قِطَعًا قِطَعًا مُتَسَاوِيَةً فِي الْوَزْنِ مُتَّحِدَةً فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِطَعَاتِ عِنْدَهُمْ بَيْتًا وَيُسَمَّى الْحَرْفُ الْأَخِيرُ الَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيًّا وَقَافِيَةً وَيُسَمَّى جُمْلَةُ الْكَلَامِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَاكِيبِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ كَلَامٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ وَإِذَا أُفْرِدَ كَانَ تَامًّا فِي بَابِهِ فِي مَدْحٍ أَوْ تَشْبِيبٍ أَوْ رِثَاءٍ فَيَحْرِصُ الشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذَلِكَ الْبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ فِي الْبَيْتِ الْآخَرِ كَلَامًا آخَرَ كَذَلِكَ وَيَسْتَطْرِدُ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ وَمِنْ مَقْصُودٍ إِلَى مَقْصُودٍ بِأَنْ يُوَطِّئَ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ وَمَعَانِيَهُ إِلَى أَنْ تُنَاسِبَ الْمَقْصُودَ الثَّانِيَ وَيُبْعِدَ الْكَلَامَ عَنِ التَّنَافُرِ كَمَا يَسْتَطْرِدُ مِنَ التَّشْبِيبِ إِلَى الْمَدْحِ وَمِنْ وَصْفِ الْبَيْدَاءِ وَالطُّلُولِ إِلَى وَصْفِ الرِّكَابِ أَوِ الْخَيْلِ أَوِ الطَّيْفِ وَمِنْ وَصْفِ الْمَمْدُوحِ إِلَى وَصْفِ

قَوْمِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَمِنَ ٱلتَّفَجُّعِ وَٱلْعَزَاءِ فِي ٱلرِّثَاءِ إِلَى ٱلتَّأَثُّرِ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ وَيُرَاعِي فِيهِ ٱتِّفَاقَ ٱلْقَصِيدَةِ كُلِّهَا فِي ٱلْوَزْنِ ٱلْوَاحِدِ حَذَرًا مِنْ أَنْ يَتَسَاهَلَ ٱلطَّبْعُ فِي ٱلْخُرُوجِ مِنْ وَزْنٍ إِلَى وَزْنٍ يُقَارِبُهُ فَقَدْ يَخْفَى ذَٰلِكَ مِنْ أَجْلِ ٱلْمُقَارَبَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلِهَٰذِهِ ٱلْمَوَازِينِ شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ تَضَمَّنَهَا عِلْمُ ٱلْعَرُوضِ وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَتَّفِقُ فِي ٱلطَّبْعِ ٱسْتَعْمَلَتْهُ ٱلْعَرَبُ فِي هَٰذَا ٱلْفَنِّ وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مَخْصُوصَةٌ تُسَمِّيهَا أَهْلُ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْبُحُورَ وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةَ عَشَرَ بَحْرًا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْمَوَازِينِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلشِّعْرِ مِنْ بَيْنِ ٱلْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ ٱلْعَرَبِ وَلِذَٰلِكَ جَعَلُوهُ دِيوَانَ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطَائِهِمْ وَأَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي ٱلْكَثِيرِ مِنْ عُلُومِهِمْ وَحِكَمِهِمْ وَكَانَتْ مَلَكَتُهُ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ شَأْنَ ٱلْمَلَكَاتِ كُلِّهَا وَٱلْمَلَكَاتُ ٱللِّسَانِيَّةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تُكْتَسَبُ بِٱلصِّنَاعَةِ وَٱلِٱرْتِيَاضِ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى يَحْصُلَ شِبْهٌ فِي تِلْكَ ٱلْمَلَكَةِ وَٱلشِّعْرُ مِنْ بَيْنِ ٱلْكَلَامِ صَعْبُ ٱلْمَأْخَذِ عَلَى مَنْ يُرِيدُ ٱكْتِسَابَ مَلَكَتِهِ بِٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ لِٱسْتِقْلَالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ كَلَامٌ تَامٌّ فِي مَقْصُودِهِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ إِلَى نَوْعِ تَلَطُّفٍ فِي تِلْكَ ٱلْمَلَكَةِ حَتَّى يُفْرِغَ ٱلْكَلَامَ ٱلشِّعْرِيَّ فِي قَوَالِبِهِ ٱلَّتِي عُرِفَتْ لَهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْمَنْحَى مِنْ شِعْرِ ٱلْعَرَبِ وَيُبْرِزَهُ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخَرَ كَذَٰلِكَ ثُمَّ بِبَيْتٍ وَيَسْتَكْمِلُ ٱلْفُنُونَ ٱلْوَافِيَةَ بِمَقْصُودِهِ ثُمَّ يُنَاسِبُ بَيْنَ ٱلْبُيُوتِ فِي مُوَالَاةِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي فِي ٱلْقَصِيدَةِ وَلِصُعُوبَةِ مَنْحَاهُ وَغَرَابَةِ فَنِّهِ كَانَ مِحَكًّا لِلْقَرَائِحِ فِي ٱسْتِجَادَةِ أَسَالِيبِهِ وَشَحْذِ ٱلْأَفْكَارِ فِي تَنْزِيلِ ٱلْكَلَامِ فِي قَوَالِبِهِ وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَلَكَةُ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ بَلْ يُحْتَاجُ بِخُصُوصِهِ إِلَى تَلَطُّفٍ وَمُحَاوَلَةٍ فِي رِعَايَةِ ٱلْأَسَالِيبِ ٱلَّتِي ٱخْتَصَّتْهُ ٱلْعَرَبُ بِهَا وَٱسْتِعْمَالِهَا وَلْنَذْكُرْ هُنَا سُلُوكَ ٱلْأُسْلُوبِ عِنْدَ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَمَا يُرِيدُونَ بِهَا فِي إِطْلَاقِهِمْ فَٱعْلَمْ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عِنْدَهُمْ عَنِ ٱلْمِنْوَالِ ٱلَّذِي يُنْسَجُ فِيهِ ٱلتَّرَاكِيبُ أَوِ ٱلْقَالَبِ ٱلَّذِي يُفْرَغُ فِيهِ وَلَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلْكَلَامِ بِٱعْتِبَارِ إِفَادَتِهِ أَصْلَ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ ٱلْإِعْرَابِ وَلَا بِٱعْتِبَارِ إِفَادَتِهِ كَمَالَ ٱلْمَعْنَى مِنْ خَوَاصِّ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْبَيَانِ وَلَا بِٱعْتِبَارِ ٱلْوَزْنِ كَمَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْعَرَبُ فِيهِ ٱلَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ ٱلْعَرُوضِ فَهَٰذِهِ ٱلْعُلُومُ

الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله يا دار مية بالعلياء فالسند ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله . قفا نسأل الدار التي خف أهلها . أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله . قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله . ألم تسأل فتخبرك الرسوم . ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله . حي الديار بجانب الغزل . أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله

أسقى طلولهم أجش هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله

يا برق طالع منزلاً بالأبرق واحد السحاب لها حداء الأينق

أو مثل التفجع في الجزع باستدعاء البكاء كقوله

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله . أرأيت من حملوا على الأعواد . أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله

منابت العشب لا حام ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

او بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله

ألقى الرماح ربيعة بن نزار أودى الردى بفريقك المغوار

وَأَمثَالُ ذٰلِكَ كَثيرٌ مِنْ سَائِرِ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ وَمَذَاهِبِهِ وَتَنْتَظِمُ ٱلتَّرَاكِيبُ فِيهِ بِٱلْجُمَلِ وَغَيْرِ ٱلْجُمَلِ إِنْشَائِيَّةً وَخَبَرِيَّةً إِسْمِيَّةً وَفِعْلِيَّةً مُتَّفِقَةً وَغَيْرَ مُتَّفِقَةٍ مَفْصُولَةً وَمَوْصُولَةً عَلَى مَا هُوَ شَأْنُ ٱلتَّرَاكِيبِ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ فِي مَكَانِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ ٱلْأُخْرَى يُعَرِّفُكَ فِيهِ مَا تَسْتَفِيدُهُ بِٱلِٱرْتِيَاضِ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْقَالَبِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْمُجَرَّدِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنَ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ٱلَّتِي يَنْطَبِقُ ذٰلِكَ ٱلْقَالَبُ عَلَى جَمِيعِهَا فَإِنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ هُوَ كَٱلْبَنَّاءِ أَوِ ٱلنَّسَّاجِ وَٱلصُّورَةَ ٱلذِّهْنِيَّةَ ٱلْمُنْطَبِقَةَ كَٱلْقَالَبِ ٱلَّذِي يَبْنِي فِيهِ أَوِ ٱلْمِنْوَالِ ٱلَّذِي يُنْسَجُ عَلَيْهِ فَإِنْ خَرَجَ عَنِ ٱلْقَالَبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ ٱلْمِنْوَالِ فِي نَسْجِهِ كَانَ فَاسِدًا وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ مَعْرِفَةَ قَوَانِينِ ٱلْبَلَاغَةِ كَافِيَةٌ لِذٰلِكَ لِأَنَّا نَقُولُ قَوَانِينُ ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّمَا هِيَ قَوَاعِدُ عِلْمِيَّةٌ قِيَاسِيَّةٌ تُفِيدُ جَوَازَ ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّرَاكِيبِ عَلَى هَيْئَتِهَا ٱلْخَاصَّةِ بِٱلْقِيَاسِ وَهُوَ قِيَاسٌ عِلْمِيٌّ صَحِيحٌ مُطَّرِدٌ كَمَا هُوَ قِيَاسُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْإِعْرَابِيَّةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَسَالِيبُ ٱلَّتِي نَحْنُ نُقَرِّرُهَا لَيْسَتْ مِنَ ٱلْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةٌ تَرْسَخُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلتَّرَاكِيبِ فِي شِعْرِ ٱلْعَرَبِ لِجَرَيَانِهَا عَلَى ٱللِّسَانِ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ صُورَتُهَا فَيَسْتَفِيدَ بِهَا ٱلْعَمَلَ عَلَى مِثَالِهَا وَٱلِٱحْتِذَاءَ بِهَا فِي كُلِّ تَرْكِيبٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَمَا قَدَّمْنَا ذٰلِكَ فِي ٱلْكَلَامِ بِإِطْلَاقٍ وَإِنَّ ٱلْقَوَانِينَ ٱلْعِلْمِيَّةَ مِنَ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْبَيَانِ لَا يُفِيدُ تَعْلِيمُهُ بِوَجْهٍ وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَصِحُّ فِي قِيَاسِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَقَوَانِينِهِ ٱلْعِلْمِيَّةِ ٱسْتَعْمَلُوهُ وَإِنَّمَا ٱلْمُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ أَنْحَاءٌ مَعْرُوفَةٌ يَطَّلِعُ عَلَيْهَا ٱلْحَافِظُونَ لِكَلَامِهِمْ تَنْدَرِجُ صُورَتُهَا تَحْتَ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ فَإِذَا نَظَرَ فِي شِعْرِ ٱلْعَرَبِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ وَبِهٰذِهِ ٱلْأَسَالِيبِ ٱلذِّهْنِيَّةِ ٱلَّتِي تَصِيرُ كَٱلْقَوَالِبِ كَانَ نَظَرًا فِي ٱلْمُسْتَعْمَلِ مِنْ تَرَاكِيبِهِمْ لَا فِيمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْقِيَاسُ وَلِهٰذَا قُلْنَا إِنَّ ٱلْمُحَصِّلَ لِهٰذِهِ ٱلْقَوَالِبِ فِي ٱلذِّهْنِ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ وَهٰذِهِ ٱلْقَوَالِبُ كَمَا تَكُونُ فِي ٱلْمَنْظُومِ تَكُونُ فِي ٱلْمَنْثُورِ فَإِنَّ ٱلْعَرَبَ ٱسْتَعْمَلُوا كَلَامَهُمْ فِي كِلَا ٱلْفَنَّيْنِ وَجَاءُوا بِهِ مُفَصَّلًا فِي ٱلنَّوْعَيْنِ فَفِي ٱلشِّعْرِ بِٱلْقِطَعِ ٱلْمَوْزُونَةِ وَٱلْقَوَافِي ٱلْمُقَيَّدَةِ وَٱسْتِقْلَالِ ٱلْكَلَامِ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ وَفِي ٱلْمَنْثُورِ يَعْتَبِرُونَ ٱلْمُوَازَنَةَ وَٱلتَّشَابُهَ بَيْنَ ٱلْقِطَعِ غَالِبًا وَقَدْ يُقَيِّدُونَهُ بِٱلْأَسْجَاعِ وَقَدْ يُرْسِلُونَهُ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ مَعْرُوفَةٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلَّذِي يَبْنِي مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ تَأْلِيفَهُ وَلَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ كَلَامَهُمْ حَتَّى يَتَجَرَّدَ فِي ذِهْنِهِ مِنَ ٱلْقَوَالِبِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ٱلشَّخْصِيَّةِ

قَالَبٌ كُلِّيٌّ مُطْلَقٌ يَحْذُو حَذْوَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ كَمَا يَحْذُو ٱلْبَنَّاءُ عَلَى ٱلْقَالَبِ وَٱلنَّسَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْوَالِ فَلِهٰذَا كَانَ مِنْ تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مُنْفَرِدًا عَنْ نَظَرِ ٱلنَّحْوِيِّ وَٱلْبَيَانِيِّ وَٱلْعَرُوضِيِّ نَعَمْ إِنَّ مُرَاعَاةَ قَوَانِينِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لَا يَتِمُّ بِدُونِهَا فَإِذَا تَحَصَّلَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ كُلُّهَا فِي ٱلْكَلَامِ ٱخْتَصَّ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلنَّظَرِ لَطِيفٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَوَالِبِ ٱلَّتِي يُسَمُّونَهَا أَسَالِيبَ وَلَا يُفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَإِذَا تَقَرَّرَ مَعْنَى ٱلْأُسْلُوبِ مَا هُوَ فَلْنَذْكُرْ بَعْدَهُ حَدًّا أَوْ رَسْمًا لِلشِّعْرِ بِهِ تَفْهَمُ حَقِيقَتَهُ عَلَى صُعُوبَةِ هٰذَا ٱلْغَرَضِ فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْنَاهُ وَقَوْلُ ٱلْعَرُوضِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَوْزُونُ ٱلْمُقَفَّى لَيْسَ بِحَدٍّ لِهٰذَا ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ وَلَا رَسْمٍ لَهُ وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي ٱلشِّعْرِ بِٱعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْوَزْنِ وَٱلْقَوَالِبِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا جَرَمَ إِنَّ حَدَّهُمْ ذٰلِكَ لَا يَصْلُحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفٍ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْحَيْثِيَّةِ فَنَقُولُ أَلشِّعْرُ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْبَلِيغُ ٱلْمَبْنِيُّ عَلَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَٱلْأَوْصَافِ ٱلْمُفَصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ فِي ٱلْوَزْنِ وَٱلرَّوِيِّ مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ ٱلْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ بِهِ فَقَوْلُنَا ٱلْكَلَامُ ٱلْبَلِيغُ جِنْسٌ وَقَوْلُنَا ٱلْمَبْنِيُّ عَلَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَٱلْأَوْصَافِ فَصْلٌ عَمَّا يَخْلُو مِنْ هٰذِهِ فَإِنَّهُ فِي ٱلْغَالِبِ لَيْسَ بِشِعْرٍ وَقَوْلُنَا ٱلْمُفَصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةِ ٱلْوَزْنِ وَٱلرَّوِيِّ فَصْلٌ لَهُ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ ٱلَّذِي لَيْسَ بِشِعْرٍ عِنْدَ ٱلْكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بَيَانٌ لِلْحَقِيقَةِ لِأَنَّ ٱلشِّعْرَ لَا تَكُونُ أَبْيَاتُهُ إِلَّا كَذٰلِكَ وَلَمْ يُفْصَلْ بِهِ شَيْءٌ وَقَوْلُنَا ٱلْجَارِي عَلَى ٱلْأَسَالِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ بِهِ فَصْلٌ لَهُ عَمَّا لَمْ يَجْرِ مِنْهُ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ ٱلْمَعْرُوفَةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ شِعْرًا إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مَنْظُومٌ لِأَنَّ ٱلشِّعْرَ لَهُ أَسَالِيبُ تَخُصُّهُ لَا تَكُونُ لِلْمَنْثُورِ وَكَذَا أَسَالِيبُ ٱلْمَنْثُورِ لَا تَكُونُ لِلشِّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَنْظُومًا وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ ٱلْأَسَالِيبِ فَلَا يَكُونُ شِعْرًا وَبِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ كَانَ ٱلْكَثِيرُ مِمَّنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْأَدَبِيَّةِ يَرَوْنَ أَنَّ نَظْمَ ٱلْمُتَنَبِّي وَٱلْمَعَرِّي لَيْسَ هُوَ مِنَ ٱلشِّعْرِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَجْرِيَا عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْأُمَمِ عِنْدَ مَا يَرَى أَنَّ ٱلشِّعْرَ يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذٰلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ ٱلْجَارِي عَلَى ٱلْأَسَالِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ وَإِذْ قَدْ فَرَغْنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ ٱلشِّعْرِ فَلْنَرْجِعْ

إِلَى ٱلْكَلَامِ فِي كَيْفِيَّةِ عَمَلِهِ فَنَقُولُ . إِعْلَمْ أَنَّ لِعَمَلِ ٱلشِّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا أَوَّلُهَا ٱلْحِفْظُ مِنْ جِنْسِهِ أَيْ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي ٱلنَّفْسِ مَلَكَةٌ يُنْسَجُ عَلَى مِنْوَالِهَا وَيَتَخَيَّرُ ٱلْمَحْفُوظُ مِنَ ٱلْحُرِّ ٱلنَّقِيِّ ٱلْكَثِيرِ ٱلْأَسَالِيبِ وَهٰذَا ٱلْمَحْفُوظُ ٱلْمُخْتَارُ أَقَلُّ مَا يَكْفِي فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ ٱلْفُحُولِ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلِ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَكُثَيِّرٍ وَذِي ٱلرُّمَّةِ وَجَرِيرٍ وَأَبِي نُوَاسٍ وَحَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱلرَّضِيِّ وَأَبِي فِرَاسٍ وَأَكْثَرُهُ شِعْرُ كِتَابِ ٱلْأَغَانِي لِأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ كُلَّهُ وَٱلْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ كَانَ خَالِيًا مِنَ ٱلْمَحْفُوظِ فَنَظْمُهُ قَاصِرٌ رَدِيءٌ وَلَا يُعْطِيهِ ٱلرَّوْنَقَ وَٱلْحَلَاوَةَ إِلَّا كَثْرَةُ ٱلْمَحْفُوظِ فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عُدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ وَٱجْتِنَابُ ٱلشِّعْرِ أَوْلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحْفُوظٌ ثُمَّ بَعْدَ ٱلْاِمْتِلَاءِ مِنَ ٱلْحِفْظِ وَشَحْذِ ٱلْقَرِيحَةِ لِلنَّسْجِ عَلَى ٱلْمِنْوَالِ يُقْبِلُ عَلَى ٱلنَّظْمِ وَبِٱلْإِكْثَارِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتُهُ وَتَرْسَخُ وَرُبَّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانَ ذٰلِكَ ٱلْمَحْفُوظِ لِتُمْحَى رُسُومُهُ ٱلْحَرْفِيَّةُ ٱلظَّاهِرَةُ إِذْ هِيَ صَادِرَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ ٱلنَّفْسُ بِهَا ٱنْتَقَشَ ٱلْأُسْلُوبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مِنْوَالٌ يُؤْخَذُ بِٱلنَّسْجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةً ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلْخَلْوَةِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلْمَكَانِ ٱلْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ ٱلْمِيَاهِ وَٱلْأَزْهَارِ وَكَذَا ٱلْمَسْمُوعُ لِٱسْتِنَارَةِ ٱلْقَرِيحَةِ بِٱسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمَلَاذِّ ٱلسُّرُورِ ثُمَّ مَعَ هٰذَا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمَامٍ وَنَشَاطٍ فَذٰلِكَ أَجْمَعُ لَهُ وَأَنْشَطُ لِلْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ ٱلَّذِي فِي حِفْظِهِ قَالُوا وَخَيْرُ ٱلْأَوْقَاتِ لِذٰلِكَ أَوْقَاتُ ٱلْبُكَرِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ وَفَرَاغِ ٱلْمَعِدَةِ وَنَشَاطِ ٱلْفِكْرِ وَفِي هٰؤُلَاءِ ٱلْجَمَامُ وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ بَوَاعِثِهِ ٱلْعِشْقَ وَٱلْاِنْتِشَاءَ ذَكَرَ ذٰلِكَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ وَهُوَ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي ٱنْفَرَدَ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَإِعْطَاءِ حَقِّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَالُوا فَإِنِ ٱسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ بَعْدَ هٰذَا كُلِّهِ فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَلَا يُكْرِهْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ وَلْيَكُنْ بِنَاءُ ٱلْبَيْتِ عَلَى ٱلْقَافِيَةِ مِنْ أَوَّلِ صَوْغِهِ وَنَسْجِهِ بَعْضَهَا وَيَبْنِي ٱلْكَلَامَ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ عَنْ بِنَاءِ ٱلْبَيْتِ عَلَى ٱلْقَافِيَةِ صَعُبَ عَلَيْهِ وَضْعُهَا فِي مَحَلِّهَا فَرُبَّمَا تَجِيءُ نَافِرَةً قَلِقَةً وَإِذَا سَمَحَ ٱلْخَاطِرُ بِٱلْبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ ٱلَّذِي عِنْدَهُ فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ ٱلْأَلْيَقِ بِهِ فَإِنَّ كُلَّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا ٱلْمُنَاسَبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ

أَلْخَلَاصِ مِنْهُ بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلنَّقْدِ وَلَا يَضَنَّ بِهِ عَلَى ٱلتَّرْكِ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ ٱلْإِجَادَةَ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَفْتُونٌ بِشِعْرِهِ إِذْ هُوَ نَبَاتُ فِكْرِهِ وَٱخْتِرَاعُ قَرِيحَتِهِ وَلَا يَسْتَعْمِلْ فِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِلَّا ٱلْأَفْصَحَ مِنَ ٱلتَّرَاكِيبِ وَٱلْخَالِصَ مِنَ ٱلضَّرُورَاتِ ٱللِّسَانِيَّةِ فَلْيَهْجُرْهَا فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِٱلْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَقَدْ حَظَرَ أَئِمَّةُ ٱللِّسَانِ ٱلْمُوَلَّدَ مِنِ ٱرْتِكَابِ ٱلضَّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِي سَعَةٍ مِنْهَا بِٱلْعُدُولِ عَنْهَا إِلَى ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْمُثْلَى مِنَ ٱلْمَلَكَةِ وَيَجْتَنِبُ أَيْضًا ٱلْمُعَقَّدَ مِنَ ٱلتَّرَاكِيبِ جُهْدَهُ وَإِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى ٱلْفَهْمِ وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ فَإِنَّ فِيهِ نَوْعَ تَعْقِيدٍ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَإِنَّمَا ٱلْمُخْتَارُ مِنْهُ مَا كَانَتْ أَلْفَاظُهُ طِبْقًا عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوْفَى فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةً كَانَ حَشْوًا وَٱسْتُعْمِلَ ٱلذِّهْنُ بِٱلْغَوْصِ عَلَيْهَا فَمَنَعَ ٱلذَّوْقَ عَنِ ٱسْتِيفَاءِ مُدْرَكِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ وَلَا يَكُونُ ٱلشِّعْرُ سَهْلًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى ٱلذِّهْنِ وَلِهَذَا كَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَعِيبُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرِ (١) بْنِ خَفَاجَةَ شَاعِرِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ مَعَانِيهِ وَٱزْدِحَامِهَا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعِيبُونَ شِعْرَ ٱلْمُتَنَبِّي وَٱلْمَعَرِّي بِعَدَمِ ٱلنَّسْجِ عَلَى ٱلْأَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِيَّةِ كَمَا مَرَّ فَكَانَ شِعْرُهُمَا كَلَامًا مَنْظُومًا نَازِلًا عَنْ طَبَقَةِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْحَاكِمُ بِذَلِكَ هُوَ ٱلذَّوْقُ وَلْيَجْتَنِبِ ٱلشَّاعِرُ أَيْضًا ٱلْحُوشِيَّ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمُقَصَّرَ وَكَذَلِكَ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْمُبْتَذَلَ بِٱلتَّدَاوُلِ بِٱلِٱسْتِعْمَالِ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِٱلْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْبَلَاغَةِ أَيْضًا فَيَصِيرُ مُبْتَذَلًا وَيَقْرُبُ مِنْ عَدَمِ ٱلْإِفَادَةِ كَقَوْلِهِمُ ٱلنَّارُ حَارَّةٌ وَٱلسَّمَاءُ فَوْقَنَا وَبِمِقْدَارِ مَا يَقْرُبُ مِنْ طَبَقَةِ عَدَمِ ٱلْإِفَادَةِ يَبْعُدُ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذْ هُمَا طَرَفَانِ وَلِهَذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ فِي ٱلرَّبَّانِيَّاتِ وَٱلنَّبَوِيَّاتِ قَلِيلَ ٱلْإِجَادَةِ فِي ٱلْغَالِبِ وَلَا يَحْذِقُ فِيهِ إِلَّا ٱلْفُحُولُ وَفِي ٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْعُسْرِ لِأَنَّ مَعَانِيَهَا مُتَدَاوَلَةٌ بَيْنَ ٱلْجُمْهُورِ فَتَصِيرُ مُبْتَذَلَةً لِذَلِكَ وَإِذَا تَعَذَّرَ ٱلشِّعْرُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيُرَاوِضْهُ وَيُعَاوِدْهُ فَإِنَّ ٱلْقَرِيحَةَ مِثْلُ ٱلضَّرْعِ يَدِرُّ بِٱلِٱمْتِرَاءِ وَيَجِفُّ بِٱلتَّرْكِ وَٱلْإِهْمَالِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهَذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ وَتَعَلُّمُهَا مُسْتَوْفًى فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لِٱبْنِ رَشِيقٍ وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا مَا حَضَرَنَا بِحَسَبِ ٱلْجُهْدِ وَمَنْ أَرَادَ ٱسْتِيفَاءَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ بِذَلِكَ ٱلْكِتَابِ فَفِيهِ ٱلْبُغْيَةُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ نُبْذَةٌ كَافِيَةٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُعِينُ وَقَدْ نَظَمَ ٱلنَّاسُ فِي أَمْرِ هَذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ مَا يَجِبُ فِيهَا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ رَشِيقٍ

---

(١) قوله ابي بكر وفي نسخة ابي اسحاق الخ

لَعَنَ ٱللّٰهُ صَنْعَةَ ٱلشِّعْرِ مَاذَا　　مِنْ صُنُوفِ ٱلْجُهَّالِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤْثِرُونَ ٱلْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا　　كَانَ سَهْلاً لِلسَّامِعِينَ مُبِينَا
وَيَرَوْنَ ٱلْمُحَالَ مَعْنًى صَحِيحًا　　وَخَسِيسَ ٱلْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينَا
يَجْهَلُونَ ٱلصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَدْ م　　رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا
فَهُمُ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا يُلَامُو م　　نَ وَفِي ٱلْحَقِّ عِنْدَنَا يُعْذَرُونَا
إِنَّمَا ٱلشِّعْرُ مَا يُنَاسِبُ فِي ٱلنَّظْمِ م　　وَإِنْ كَانَ فِي ٱلصِّفَاتِ فُنُونَا
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا　　وَأَقَامَتْ لَهُ ٱلصُّدُورُ ٱلْمُتُونَا
كُلُّ مَعْنًى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا　　تَتَمَنَّى وَلَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ ٱلْبَيَانِ إِلَى أَنْ　　كَادَ حُسْنًا يَبِينُ لِلنَّاظِرِينَا
فَكَأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ مِنْهُ وُجُوهٌ　　وَٱلْمَعَانِي رُكِّبْنَ فِيهَا عُيُونَا
إِنَّمَا فِي ٱلْمَرَامِ حَسْبُ ٱلْأَمَانِي　　يَتَحَلَّى بِحُسْنِهِ ٱلْمُنْشِدُونَا
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِٱلشِّعْرِ حُرًّا　　رُمْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ ٱلْمُشْتَهِينَا
فَجَعَلْتَ ٱلنَّسِيبَ سَهْلاً قَرِيبًا　　وَجَعَلْتَ ٱلْمَدِيحَ صِدْقًا مُبِينَا
وَتَنَكَّبْتَ مَا يُهَجَّنُ فِي ٱلسَّمْعِ م　　وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مَوْزُونَا
وَإِذَا مَا عَرَضْتَهُ بِهِجَاءٍ　　عِبْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ ٱلْمُرْقِبِينَا
فَجَعَلْتَ ٱلتَّصْرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً　　وَجَعَلْتَ ٱلتَّعْرِيضَ دَاءً دَفِينَا
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى ٱلْعَا م　　دِينَ يَوْمًا لِلْبَيْنِ وَٱلظَّاعِنِينَا
حُلْتَ دُونَ ٱلْأَسَى وَذَلَّلْتَ مَا كَا م　　نَ مِنَ ٱلدَّمْعِ فِي ٱلْعُيُونِ مَصُونَا
ثُمَّ إِنْ كُنْتَ عَاتِبًا جِئْتَ بِٱلْوَعْدِ　　وَعِيدًا وَبِٱلصُّعُوبَةِ لِينَا
فَتَرَكْتَ ٱلَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ　　حَذِرًا آمِنًا عَزِيزًا مَهِينَا
وَأَصَحُّ ٱلْقَرِيضِ مَا قَارَبَ ٱلنَّظْمَ م　　وَإِنْ كَانَ وَاضِحًا مُسْتَبِينَا
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعَ ٱلنَّاسَ طُرًّا　　وَإِذَا رِيمَ أَعْجَزَ ٱلْمُعْجِزِينَا

ومن ذلك ايضاً قول بعضهم

أَلشِّعْرُ مَا قَوَّمْتَ زَيْغَ صُدُورِهِ　　وَشَدَدْتَ بِٱلتَّهْذِيبِ أُسَّ مُتُونِهِ
وَرَأَبْتَ بِٱلْإِطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ　　وَفَتَحْتَ بِٱلْإِيجَازِ عُورَ عُيُونِهِ

وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ ... وَجَمَعْتَ بَيْنَ مُحِمِّهِ وَمَعِينِهِ
وَإِذَا مَدَحْتَ بِهِ جَوَادًا مَاجِدًا ... وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ دُيُونِهِ
أَصْفَيْتَهُ بِتَفَتُّشٍ وَرَضِيتَهُ ... وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
فَيَكُونُ جَزْلًا فِي مَسَاقِ صُنُوفِهِ ... وَيَكُونُ سَهْلًا فِي اتِّفَاقِ فُنُونِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا ... أَجْرَيْتَ لِلْمَحْزُونِ مَاءَ شُؤُونِهِ
وَإِذَا أَرَدْتَ كِنَايَةً عَنْ رِيبَةٍ ... بَايَنْتَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَبُطُونِهِ
فَجَعَلْتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ ... بِثُبُوتِهِ وَظُنُونَهُ بِيَقِينِهِ

الفصل السابع والاربعون

في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني

إِعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ الْكَلَامِ نَظْمًا وَنَثْرًا إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَاظِ لَا فِي الْمَعَانِي وَإِنَّمَا الْمَعَانِي تَبَعٌ لَهَا وَهِيَ أَصْلٌ فَالصَّانِعُ الَّذِي يُحَاوِلُ مَلَكَةَ الْكَلَامِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ إِنَّمَا يُحَاوِلُهَا فِي الْأَلْفَاظِ بِحِفْظِ أَمْثَالِهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ لِيَكْثُرَ اسْتِعْمَالُهُ وَجَرْيُهُ عَلَى لِسَانِهِ حَتَّى تَسْتَقِرَّ لَهُ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ مُضَرَ وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعُجْمَةِ الَّتِي رُبِّيَ عَلَيْهَا فِي جِيلِهِ وَيَفْرِضَ نَفْسَهُ مِثْلَ وَلِيدٍ نَشَأَ فِي جِيلِ الْعَرَبِ وَيُلَقَّنُ لُغَتَهُمْ كَمَا يُلَقَّنُهَا الصَّبِيُّ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي لِسَانِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ لِلِّسَانِ مَلَكَةً مِنَ الْمَلَكَاتِ فِي النُّطْقِ يُحَاوِلُ تَحْصِيلَهَا بِتَكْرَارِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَحْصُلَ وَالَّذِي فِي اللِّسَانِ وَالنُّطْقِ إِنَّمَا هُوَ الْأَلْفَاظُ وَأَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ فِي الضَّمَائِرِ وَأَيْضًا فَالْمَعَانِي مَوْجُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ وَفِي طَوْعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَرْضَى فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى صِنَاعَةٍ وَتَأْلِيفُ الْكَلَامِ لِلْعِبَارَةِ عَنْهَا هُوَ الْمُحْتَاجُ لِلصِّنَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي فَكَمَا أَنَّ الْأَوَانِيَ الَّتِي يُغْتَرَفُ بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آنِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصَّدَفِ وَالزُّجَاجِ وَالْخَزَفِ وَالْمَاءُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ وَتَخْتَلِفُ الْجَوْدَةُ فِي الْأَوَانِي الْمَمْلُوءَةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ جِنْسِهَا لَا بِاخْتِلَافِ الْمَاءِ كَذَلِكَ جَوْدَةُ اللُّغَةِ وَبَلَاغَتُهَا فِي الِاسْتِعْمَالِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبَقَاتِ الْكَلَامِ فِي تَأْلِيفِهِ بِاعْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيفِ الْكَلَامِ وَأَسَالِيبِهِ عَلَى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ إِذَا حَاوَلَ الْعِبَارَةَ عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ النُّهُوضَ

وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لِفِقْدَانِ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَٱللهُ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

الفصل الثامن والاربعون

في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعَلُّمَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَعَلَى قَدَرِ جُودَةِ ٱلْمَحْفُوظِ وَطَبَقَتِهِ فِي جِنْسِهِ وَكَثْرَتِهِ مِنْ قِلَّتِهِ تَكُونُ جُودَةُ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنْهُ لِلْحَافِظِ فَمَنْ كَانَ مَحْفُوظُهُ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوِ ٱلْعَتَّابِيِّ أَوِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ أَوِ ٱبْنِ هَانِئٍ أَوِ ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ أَوْ رَسَائِلَ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ أَوْ سَهْلِ ٱبْنِ هَارُونَ أَوِ ٱبْنِ ٱلزَّيَّاتِ أَوِ ٱلْبَدِيعِ أَوِ ٱلصَّابِئِ تَكُونُ مَلَكَتُهُ أَجْوَدَ وَأَعْلَى مَقَامًا وَرُتْبَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِمَّنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ٱبْنِ سَهْلٍ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ أَوِ ٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ أَوْ تَرَسُّلَ ٱلْبَيْسَانِيِّ أَوِ ٱلْعِمَادِ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ لِنُزُولِ طَبَقَةِ هٰؤُلَاءِ عَنْ أُولٰئِكَ يَظْهَرُ ذٰلِكَ لِلْبَصِيرِ ٱلنَّاقِدِ صَاحِبِ ٱلذَّوْقِ وَعَلَى مِقْدَارِ جُودَةِ ٱلْمَحْفُوظِ أَوِ ٱلْمَسْمُوعِ تَكُونُ جُودَةُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجَادَةُ ٱلْمَلَكَةِ مِنْ بَعْدِهِمَا فَبِٱرْتِقَاءِ ٱلْمَحْفُوظِ فِي طَبَقَتِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ تَرْتَقِي ٱلْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ لِأَنَّ ٱلطَّبْعَ إِنَّمَا يَنْسِجُ عَلَى مِنْوَالِهَا وَتَنْمُو قُوَى ٱلْمَلَكَةِ بِتَغْذِيَتِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ فِي جِبِلَّتِهَا وَاحِدَةً بِٱلنَّوْعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلْبَشَرِ بِٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ فِي ٱلْإِدْرَاكَاتِ وَٱخْتِلَافُهَا إِنَّمَا هُوَ بِٱخْتِلَافِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ ٱلْإِدْرَاكَاتِ وَٱلْمَلَكَاتِ وَٱلْأَلْوَانِ ٱلَّتِي تُكَيِّفُهَا مِنْ خَارِجٍ فَبِهٰذِهِ يَتِمُّ وُجُودُهَا وَتَخْرُجُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ صُورَتُهَا وَٱلْمَلَكَاتُ ٱلَّتِي تَحْصُلُ لَهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَٱلْمَلَكَةُ ٱلشِّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَمَلَكَةُ ٱلْكِتَابَةِ بِحِفْظِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلتَّرْسِيلِ وَٱلْعِلْمِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ ٱلْعُلُومِ وَٱلْإِدْرَاكَاتِ وَٱلْأَبْحَاثِ وَٱلْأَنْظَارِ وَٱلْفِقْهِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ ٱلْفِقْهِ وَتَنْظِيرِ ٱلْمَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَخْرِيجِ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ وَٱلتَّصَوُّفِيَّةُ ٱلرَّبَّانِيَّةُ بِٱلْعِبَادَاتِ وَٱلْأَذْكَارِ وَتَعْطِيلِ ٱلْحَوَاسِّ ٱلظَّاهِرَةِ بِٱلْخَلْوَةِ وَٱلِٱنْفِرَادِ عَنِ ٱلْخَلْقِ مَا ٱسْتَطَاعَ حَتَّى تَحْصُلَ لَهُ مَلَكَةُ ٱلرُّجُوعِ إِلَى حِسِّهِ ٱلْبَاطِنِ وَرُوحِهِ وَيَنْقَلِبُ رَبَّانِيًّا وَكَذَا سَائِرُهَا وَلِلنَّفْسِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْنٌ تَتَكَيَّفُ بِهِ وَعَلَى حَسَبِ مَا نَشَأَتِ ٱلْمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةُ فِي نَفْسِهَا فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْعَالِيَةِ ٱلطَّبَقَةِ فِي جِنْسِهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِحِفْظِ ٱلْعَالِي فِي طَبَقَتِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْفُقَهَاءُ وَأَهْلُ ٱلْعُلُومِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِمَا

يسبق إلى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب. أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالأطلال ... ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن أين لك ذلك فقال من قوله ما الفرق إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت له لله أبوك إنه ابن النحوي. وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل وانتقائهم لهم الجيد من الكلام. ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وإن كان محفوظي قليلاً وإنما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس فامتلأ محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب تعاق القريحة عن بلوغها فنظر إلي ساعة معجباً ثم قال لله أنت وهل يقول هذا إلا مثلك. ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها

مِنْ كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمَنْظُومِهِمْ فَإِنَّا نَجِدُ شِعْرَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَٱلْحُطَيْئَةِ وَجَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ وَنُصَيْبٍ وَغَيْلَانَ ذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلْأَحْوَصِ وَبَشَّارٍ ثُمَّ كَلَامَ ٱلسَّلَفِ مِنَ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَصَدْرًا مِنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ فِي خُطَبِهِمْ وَتَرَسِيلِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ لِلْمُلُوكِ أَرْفَعَ طَبَقَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِنْ شِعْرِ ٱلنَّابِغَةِ وَعَنْتَرَةَ وَٱبْنِ كُلْثُومٍ وَزُهَيْرٍ وَعَلْقَمَةَ بْنِ عَبَدَةَ وَطَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ وَمِنْ كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَٱلطَّبْعُ ٱلسَّلِيمُ وَٱلذَّوْقُ ٱلصَّحِيحُ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ لِلنَّاقِدِ ٱلْبَصِيرِ بِٱلْبَلَاغَةِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَدْرَكُوا ٱلْإِسْلَامَ سَمِعُوا ٱلطَّبَقَةَ ٱلْعَالِيَةَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ ٱللَّذَيْنِ عَجَزَ ٱلْبَشَرُ عَنِ ٱلْإِتْيَانِ بِمِثْلَيْهِمَا لِكَوْنِهَا وَلَجَتْ فِي قُلُوبِهِمْ وَنَشَأَتْ عَلَى أَسَالِيبِهَا نُفُوسُهُمْ فَنَهَضَتْ طِبَاعُهُمْ وَٱرْتَقَتْ مَلَكَاتُهُمْ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى مَلَكَاتِ مِنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَسْمَعْ هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةَ وَلَا نَشَأَ عَلَيْهَا فَكَانَ كَلَامُهُمْ فِي نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ أَحْسَنَ دِيبَاجَةً وَأَصْفَى رَوْنَقًا مِنْ أُولٰئِكَ وَأَرْصَفَ مَبْنًى وَأَعْدَلَ تَثْقِيفًا بِمَا ٱسْتَفَادُوهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَالِي ٱلطَّبَقَةِ وَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ يَشْهَدْ لَكَ بِهِ ذَوْقُكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلذَّوْقِ وَٱلْبَصَرِ بِٱلْبَلَاغَةِ · وَلَقَدْ سَأَلْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا ٱلشَّرِيفَ أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَاضِي غَرْنَاطَةَ لِعَهْدِنَا وَكَانَ شَيْخَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَخَذَ بِسَبْتَةَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ مَشْيَخَتِهَا مِنْ تَلَامِيذِ ٱلشَّلَوْبِينِ وَٱسْتَبْحَرَ فِي عِلْمِ ٱللِّسَانِ وَجَاءَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْغَايَةِ فِيهِ فَسَأَلْتُهُ يَوْمًا مَا بَالُ ٱلْعَرَبِ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ أَعْلَى طَبَقَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِنَ ٱلْجَاهِلِيِّينَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَسْتَنْكِرَ ذٰلِكَ بِذَوْقِهِ فَسَكَتَ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ لِي وَٱللهِ مَا أَدْرِي فَقُلْتُ أَعْرِضُ عَلَيْكَ شَيْئًا ظَهَرَ لِي فِي ذٰلِكَ وَلَعَلَّهُ ٱلسَّبَبُ فِيهِ وَذَكَرْتُ لَهُ هٰذَا ٱلَّذِي كَتَبْتُ فَسَكَتَ مُعْجَبًا ثُمَّ قَالَ لِي يَا فَقِيهُ هٰذَا كَلَامٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُكْتَبَ بِٱلذَّهَبِ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا يُؤْثِرُ مَحَلِّي وَيُصِيخُ فِي مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيمِ إِلَى قَوْلِي وَيَشْهَدُ لِي بِٱلنَّبَاهَةِ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱللهُ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ

الفصل التاسع والاربعون

في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلشِّعْرَ كَانَ دِيوَانًا لِلْعَرَبِ فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحِكَمُهُمْ وَكَانَ رُؤَسَاءُ ٱلْعَرَبِ مُنَافِسِينَ فِيهِ وَكَانُوا يَقِفُونَ بِسُوقِ عُكَاظَ لِإِنْشَادِهِ وَعَرْضِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

دِيباجَتَهُ عَلَى فُحُولِ ٱلشَّأْنِ وَأَهْلِ ٱلْبَصَرِ لِتَمْيِيزِ حَوْلِهِ حَتَّى ٱنْتَهَوْا إِلَى ٱلْمُنَاغَاةِ فِي تَعْلِيقِ أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ مَوْضِعِ حَجِّهِمْ وَبَيْتِ إِبْرٰهِيمَ كَمَا فَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ ٱبْنُ حُجْرٍ وَٱلنَّابِغَةُ ٱلذُّبْيَانِيُّ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبَدَةَ وَٱلْأَعْشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلسَّبْعِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ إِلَى تَعْلِيقِ ٱلشِّعْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ وَمَكَانِهِ فِي مُضَرَ عَلَى مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمُعَلَّقَاتِ ثُمَّ ٱنْصَرَفَ ٱلْعَرَبُ عَنْ ذٰلِكَ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ بِمَا شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ ٱلدِّينِ وَٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْوَحْيِ وَمَا أَدْهَشَهُمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ فَأُخْرِسُوا عَنْ ذٰلِكَ وَسَكَتُوا عَنِ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ زَمَانًا ثُمَّ ٱسْتَقَرَّ ذٰلِكَ وَأُونِسَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْمِلَّةِ وَلَمْ يَنْزِلِ ٱلْوَحْيُ فِي تَحْرِيمِ ٱلشِّعْرِ وَحَظْرِهِ وَسَمِعَهُ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَثَابَ عَلَيْهِ فَرَجَعُوا حِينَئِذٍ إِلَى دِيدَنِهِمْ مِنْهُ وَكَانَ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ كَبِيرِ قُرَيْشٍ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ مَقَامَاتٌ فِيهِ عَالِيَةٌ وَطَبَقَةٌ مُرْتَفِعَةٌ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ شِعْرَهُ عَلَى ٱبْنِ عَبَّاسٍ فَيَقِفُ لِٱسْتِمَاعِهِ مُعْجَبًا بِهِ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ٱلْمُلْكُ وَٱلدَّوْلَةُ ٱلْعَزِيزَةُ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمِ ٱلْعَرَبُ بِأَشْعَارِهِمْ يَمْتَدِحُونَهُمْ بِهَا وَيُجِيزُهُمُ ٱلْخُلَفَاءُ بِأَعْظَمِ ٱلْجَوَائِزِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْجُودَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَمَكَانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَحْرِصُونَ عَلَى ٱسْتِهْدَاءِ أَشْعَارِهِمْ يَطَّلِعُونَ مِنْهَا عَلَى ٱلْآثَارِ وَٱلْأَخْبَارِ وَٱللُّغَةِ وَشَرَفِ ٱللِّسَانِ وَٱلْعَرَبُ يُطَالِبُونَ وُلْدَهُمْ بِحِفْظِهَا وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا ٱلشَّأْنُ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ وَصَدْرًا مِنْ دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ صَاحِبُ ٱلْعِقْدِ فِي مُسَامَرَةِ ٱلرَّشِيدِ لِلْأَصْمَعِيِّ فِي بَابِ ٱلشِّعْرِ وَٱلشُّعَرَاءِ تَجِدْ مَا كَانَ عَلَيْهِ ٱلرَّشِيدُ مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ بِذٰلِكَ وَٱلرُّسُوخِ فِيهِ وَٱلْعِنَايَةِ بِٱنْتِحَالِهِ وَٱلتَّبَصُّرِ بِجَيِّدِ ٱلْكَلَامِ وَرَدِيئِهِ وَكَثْرَةِ مَحْفُوظِهِ مِنْهُ ثُمَّ جَاءَ خَلْقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنِ ٱللِّسَانُ لِسَانَهُمْ مِنْ أَجْلِ ٱلْعُجْمَةِ وَتَقْصِيرِهَا بِٱللِّسَانِ وَإِنَّمَا تَعَلَّمُوهُ صِنَاعَةً ثُمَّ مَدَحُوا بِأَشْعَارِهِمْ أُمَرَاءَ ٱلْعَجَمِ ٱلَّذِينَ لَيْسَ ٱللِّسَانُ لَهُمْ طَالِبِينَ مَعْرُوفَهُمْ فَقَطْ لَا سِوَى ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَغْرَاضِ كَمَا فَعَلَهُ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَٱبْنُ هَانِئٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهَلُمَّ جَرًّا فَصَارَ غَرَضُ ٱلشِّعْرِ فِي ٱلْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْكَذِبُ وَٱلِٱسْتِجْدَاءُ لِذَهَابِ ٱلْمَنَافِعِ ٱلَّتِي كَانَتْ فِيهِ لِلْأَوَّلِينَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا وَأَنِفَ مِنْهُ لِذٰلِكَ أَهْلُ ٱلْهِمَمِ وَٱلْمَرَاتِبِ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَتَغَيَّرَ ٱلْحَالُ وَأَصْبَحَ تَعَاطِيهِ هُجْنَةً فِي ٱلرِّئَاسَةِ وَمَذَمَّةً لِأَهْلِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلْكَبِيرَةِ وَٱللّٰهُ مُقَلِّبُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

الفصل الخمسون

في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

إعلَمْ أنَّ الشِّعْرَ لا يختصُّ باللِّسانِ العربيِّ فقط بل هو موجودٌ في كلِّ لغةٍ سواءٌ كانت عربيةً أو عجميةً وقد كان في الفُرْسِ شعراءُ وفي يونانَ كذلك وذكرَ منهم أرسطو في كتاب المنطقِ أوميروسَ الشاعرَ وأثنى عليهِ وكان في حِمْيَرَ أيضاً شعراءُ متقدِّمونَ ولمَّا فسدَ لسانُ مُضَرَ ولغتُهم التي دُوِّنَتْ مقاييسُها وقوانينُ إعرابها وفسدتِ اللغاتُ من بعدُ بحسبِ ما خالطها ومازجها من العُجْمةِ فكانت تحيلُ العربُ بأنفسِهم لغةً خالفتْ لغةَ سلفِهِم من مُضَرَ في الإعرابِ جملةً وفي كثيرٍ من الموضوعاتِ اللغويةِ وبناءِ الكلماتِ وكذلك الحضرُ أهلُ الأمصارِ نشأتْ فيهم لغةٌ أخرى خالفتْ لسانَ مُضَرَ في الإعرابِ وأكثرِ الأوضاعِ والتصاريفِ وخالفتْ أيضاً لغةَ الجيلِ من العربِ لهذا العهدِ واختلفتْ هي في نفسِها بحسبِ اصطلاحاتِ أهلِ الآفاقِ فلأهلِ الشرقِ وأمصارِه لغةٌ غيرُ لغةِ أهلِ المغربِ وأمصارِه وتخالفُهما أيضاً لغةُ أهلِ الأندلسِ وأمصارِه ثمَّ لمَّا كان الشعرُ موجوداً بالطبعِ في أهلِ كلِّ لسانٍ لأنَّ الموازينَ على نسبةٍ واحدةٍ في أعدادِ المتحركاتِ والسواكنِ وتقابلِها موجودةٌ في طباعِ البشرِ فلم يُهجَرِ الشعرُ بفقدانِ لغةٍ واحدةٍ وهي لغةُ مُضَرَ الذين كانوا فحولَهُ وفرسانَ ميدانِهِ حسبما اشتهرَ بينَ أهلِ الخليقةِ بل كلُّ جيلٍ وأهلُ كلِّ لغةٍ من العربِ المستعجمينَ والحضرِ أهلِ الأمصارِ يتعاطونَ منهُ ما يطاوعُهم في انتحالِهِ ورصفِ بنائِهِ على مهيعِ كلامِهم فأمَّا العربُ أهلُ هذا الجيلِ المستعجمونَ عن لغةِ سلفِهم من مُضَرَ فيقرضونَ الشعرَ لهذا العهدِ في سائرِ الأعاريضِ على ما كانَ عليهِ سلفُهم المستعربونَ ويأتونَ منهُ بالمطوَّلاتِ مشتملةً على مذاهبِ الشعرِ وأغراضِهِ من النسيبِ والمدحِ والرثاءِ والهجاءِ ويستطردونَ في الخروجِ من فنٍّ إلى فنٍّ في الكلامِ وربَّما هجموا على المقصودِ لأوَّلِ كلامِهم وأكثرُ ابتدائِهم في قصائدِهم باسمِ الشاعرِ ثمَّ بعدَ ذلك ينسبونَ فأهلُ أمصارِ المغربِ من العربِ يسمُّونَ هذه القصائدَ بالأصمعيَّاتِ نسبةً إلى الأصمعيِّ راويةِ العربِ في أشعارِهم وأهلُ المشرقِ من العربِ يسمُّونَ هذا النوعَ من الشعرِ بالبدويِّ وربَّما يلحِّنونَ فيهِ ألحاناً بسيطةً لا على طريقةِ الصناعةِ الموسيقيةِ ثمَّ

يغنون بِهِ وَيسمون الغناء بِهِ بِاسْم الحوراني نسبة إِلَى حوران من أَطْرَاف الْعرَاق وَالشَّام وَهِي من منَازِل الْعَرَب الْبَادِيَة وَمَسَاكِنهمْ إِلَى هَذَا الْعَهْد. وَلَهُم فن آخر كثير التداول فِي نظمهم يجيئون بِهِ معصباً عَلَى أَرْبَعَة أَجزَاء يُخَالف آخرهَا الثَّلَاثَة فِي رويه وَيَلْتَزِمُونَ الْقَافِيَة الرَّابِعَة فِي كل بَيت إِلَى آخر القصيدة شَبِيها بالمربع والمخمس الَّذِي أحدثه الْمُتَأَخّرُونَ من المولدين وَلِهَؤُلَاء الْعَرَب فِي هَذَا الشّعْر بلاغة فائقة وَفِيهِمْ الفحول وَالْمُتَأَخّرُونَ وَالْكثير من المنتحلين للعلوم لهَذَا الْعَهْد وخصوصاً علم اللِّسَان يستنكر صَاحبهَا هَذِه الْفُنُون الَّتِي لَهُم إِذا سَمعهَا وَيمج نظمهم إِذا أنْشد وَيعْتَقد أَن ذوقه إِنَّمَا نبا عَنْهَا لاستهجانها وفقدان الْإِعْرَاب مِنْهَا وَهَذَا إِنَّمَا أَتَى من فقدان الملكة فِي لغتهم فَلَو حصلت لَهُ ملكة من ملكاتهم لشهد لَهُ طبعه وذوقه ببلاغتها إِن كَانَ سليماً من الْآفَات فِي فطرته وَنَظره وَإِلَّا فالإعراب لَا مدْخل لَهُ فِي البلاغة إِنَّمَا البلاغة مُطَابقَة الْكَلَام لِلْمَقْصُودِ ولمقتضى الْحَال من الْوُجُود فِيهِ سَوَاء كَانَ الرّفْع دَالا عَلَى الْفَاعِل وَالنّصب دَالا عَلَى الْمَفْعُول أَو بِالْعَكْسِ وَإِنَّمَا يدل عَلَى ذَلِك قَرَائِن الْكَلَام كَمَا هُوَ فِي لغتهم هَذِه فالدلالة بِحَسب مَا يصطلح عَلَيْهِ أهل الملكة فَإِذا عرف اصْطِلَاح فِي ملكة واشتهر صحت الدّلَالَة وَإِذا طابقت تِلْكَ الدّلَالَة الْمَقْصُود ومقتضى الْحَال صحت البلاغة وَلَا عِبْرَة بقوانين النُّحَاة فِي ذَلِك وأساليب الشّعْر وفنونه مَوْجُودَة فِي أشعارهم هَذِه مَا عدا حركات الْإِعْرَاب فِي أَوَاخِر الْكَلم فَإِن غَالب كلماتهم مَوْقُوفَة الآخر وَيتَمَيَّز عِنْدهم الْفَاعِل من الْمَفْعُول والمبتدأ من الْخَبَر بقرائن الْكَلَام لَا بحركات الْإِعْرَاب

(الموشحات والازجال للاندلس)

وَأما أهل الأندلس فَلَمَّا كثر الشّعْر فِي قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وَبلغ التنميق فِيهِ الْغَايَة اسْتحْدث الْمُتَأَخّرُونَ مِنْهُم فَنًّا مِنْهُ سموهُ بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً يكثرون من أعاريضها الْمُخْتَلفَة وَيسمونَ الْمُتَعَدد مِنْهَا بَيْتا وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ عِنْد قوافي تِلْكَ الأغصان وأوزانها متتالياً فِيمَا بعد إِلَى آخر القطعة وَأكْثر مَا تَنْتَهِي عِنْدهم إِلَى سَبْعَة أَبْيَات وَيشْتَمل كل بَيت عَلَى أغصان عَددهَا بِحَسب الْأَغْرَاض والمذاهب وينسبون فِيهَا ويمدحون كَمَا يفعل فِي القصائد وتجاروا

فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغَايَةِ وَٱسْتَظْرَفَهُ ٱلنَّاسُ جُمْلَةً ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْكَافَّةُ لِسُهُولَةِ تَنَاوُلِهِ وَقُرْبِ طَرِيقِهِ وَكَانَ ٱلْمُخْتَرِعُ لَهَا بِجَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ مُقَدَّمَ بْنَ مُعَافِرٍ ٱلْفَرِيرِيَّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْأَمِيرِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْمَرْوَانِيِّ وَأَخَذَ ذٰلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ ٱلْعِقْدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لَهُمَا مَعَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مُوَشَّحَاتُهُمَا فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَرَعَ فِي هٰذَا ٱلشَّأْنِ عِبَادَةَ ٱلْقَزَّازَ شَاعِرَ ٱلْمُعْتَصِمِ ٱبْنِ صُمَادِحٍ صَاحِبِ ٱلْمَرِيَّةِ

بدرُ تم . شمسُ ضحا غصنُ نقا . مسكُ شم
ما اتم . ما اوضحا مـا اورقا . ما انم
لا جرم . من لمحـا قد عشقا . قد حُرِمْ

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ وَشَّاحٌ مِنْ مُعَاصِرِيهِ ٱلَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ ٱلطَّوَائِفِ

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمَشَايِخِ أَنَّ أَهْلَ هٰذَا ٱلشَّأْنِ بِٱلْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْوَشَّاحِينَ ٱجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِإِشْبِيلِيَّةَ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ ٱصْطَنَعَ مُوَشَّحَةً وَتَأَنَّقَ فِيهَا فَتَقَدَّمَ ٱلْأَعْمَى ٱلطُّلَيْطِلِيُّ لِلْإِنْشَادِ فَلَمَّا ٱفْتَتَحَ مُوَشَّحَتَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ بِقَوْلِهِ

ضَاحِكٌ عَنْ جُمَانِ . سَافِرٌ عَنْ دُرِّ ضَاقَ عَنْهُ ٱلزَّمَانُ . وَحَوَاهُ صَدْرِي

صَرَفَ ٱبْنُ بَقِيٍّ مُوَشَّحَتَهُ وَتَبِعَهُ ٱلْبَاقُونَ وَذَكَرَ ٱلْأَعْلَمُ ٱلْبَطْلْيُوسِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ ٱبْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَّاحًا عَلَى قَوْلٍ إِلَّا ٱبْنَ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ

أَمَا تَرَى أَحْمَدَ . فِي مَجْدِهِ ٱلْعَالِي لَا يُلْحَقْ أَطْلَعَهُ ٱلْغَرْبُ . فَأَرِنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقْ

وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا مِنَ ٱلْمُوَشِّحِينَ ٱلْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ ٱلْأَبْيَضُ وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا أَيْضًا ٱلْحَكِيمُ أَبُو بَكْرِ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ ٱلتَّلَاحِينِ ٱلْمَعْرُوفَةِ وَمِنَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ٱبْنِ تِيفَلْوِيتَ صَاحِبِ سَرَقُسْطَةَ فَأَلْقَى عَلَى بَعْضِ قَيْنَاتِهِ مُوَشَّحَتَهُ

جَرِّرِ ٱلذَّيْلَ أَيَّمَا جَرِّ وَصِلِ ٱلشُّكْرَ مِنْكَ بِٱلشُّكْرِ

فَطَرِبَ ٱلْمَمْدُوحُ لِذٰلِكَ لَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ

عَقَدَ ٱللّٰهُ رَايَةَ ٱلنَّصْرِ لِأَمِيرِ ٱلْعُلَا أَبِي بَكْرِ

فَلَمَّا طَرَقَ ذٰلِكَ ٱلتَّلْحِينُ سَمْعَ ٱبْنِ تِيفَلْوِيتَ صَاحَ وَا طَرَبَاهُ وَشَقَّ ثِيَابَهُ وَقَالَ مَا أَحْسَنَ مَا بَدَأْتَ وَخَتَمْتَ وَحَلَفَ بِٱلْأَيْمَانِ ٱلْمُغَلَّظَةِ لَا يَمْشِي ٱبْنُ بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا عَلَى ٱلذَّهَبِ فَخَافَ ٱلْحَكِيمُ سُوءَ ٱلْعَاقِبَةِ فَٱحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَبًا فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ

وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ زُهْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زُهَيْرٍ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ الْأَبْيَضِ الْوَشَّاحِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ فَغَضَّ مِنْهُ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ تَغُضُّ مِمَّنْ يَقُولُ

مَا لَذَّ لِي شُرْبُ رَاحْ . عَلَى رِيَاضِ الْأَقَاحْ لَوْلَا هَضِيمُ الْوِشَاحْ . إِذَا أَسَا فِي الصَّبَاحْ

أَوْ فِي الْأَصِيلِ . أَضْحَى يَقُولُ مَا لِلشَّمُولِ . لَطَمَتْ خَدِّي

وَلِلشَّمَالِ . هَبَّتْ فَمَالَ غُصْنُ اعْتِدَالِ . ضَمَّهُ بُرْدِي

مِمَّا أَبَادَ الْقُلُوبَا . يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيبَا يَا لَحْظَهُ رُدَّ نُوبَا . وَيَا لَمَاهُ الشَّنِيبَا

بَرِّدْ غَلِيلْ . صَبّ عَلِيلْ لَا يَسْتَحِيلْ . فِيهِ عَنْ عَهْدِي

وَلَا يَزَالْ . فِي كُلِّ حَالْ يَرْجُو الْوِصَالْ . وَهْوَ فِي الصَّدِّ

وَاشْتَهَرَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ شَرَفٍ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هٰذَا الْافْتِتَاحِ

شمسٌ قارنت بدرًا راحٌ ونديمْ

وابن بهرودس الذي لهُ يا ليلة الوصل والسعودِ بالله عودي

وَابْنُ مُؤَهَّلٍ الَّذِي لَهُ . مَا الْعِيدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقٍ . وَشَمٍّ وَطِيبْ . وَإِنَّمَا الْعِيدُ فِي التَّلَاقِي . مَعَ الْحَبِيبْ

وَأَبُو إِسْحَاقَ الرُّوَيْنِيُّ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى ابْنِ زُهَيْرٍ وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحِصْنِ سَبْتَةَ فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَجَلَسَ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ وَجَرَتِ الْمُحَاضَرَةُ فَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ مُوَشَّحَةً وَقَعَ فِيهَا

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِي . مِنْ مُقْلَةِ الْفَجْرِ . عَلَى الصَّبَاحْ

وَمِعْصَمُ النَّهْرِ . فِي حُلَلٍ خُضْرِ . مِنَ الْبِطَاحْ

فَتَحَرَّكَ ابْنُ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هٰذَا قَالَ اخْتَبِرْ قَالَ وَمَنْ تَكُونُ فَعَرَّفَهُ فَقَالَ ارْتَفِعْ فَوَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْحَلْبَةِ الَّذِي أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ أَبُو بَكْرِ بْنُ زُهَيْرٍ وَقَدْ شَرَّقَتْ مُوَشَّحَاتُهُ وَغَرَّبَتْ قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِابْنِ زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبْدَعُ وَأَرْفَعُ مَا وَقَعَ لَكَ فِي التَّوْشِيحِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ

مَا لِلْمُوَلَّهِ مِنْ سُكْرِهِ لَا يُفِيقْ . يَا لَهُ سَكْرَانْ . مِنْ غَيْرِ خَمْرْ . مَا لِلْكَئِيبِ الْمَشُوقْ . يَنْدُبُ الْأَوْطَانْ

هل تستعادْ . ايامُنا بالخليجْ . ولياليِنا

او نستفادْ . من النسيم الاريجْ . مِسْكَ دارينا

واد يكاد حسن المكان البهيج ان يحيينا

تهزه اظلة دوح عليه أنيق مورق فينان والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان

وَمِنْ مَحاسنِ الْمُوَشَّحاتِ لِلْمتأخرينَ مُوشَّحةُ ابْنِ سَهْلٍ شاعرِ أشبيلِيَّةَ وَسَبْتَةَ مِنْ بَعْدِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ

هَلْ دَرِي ظَبْيُ الْحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى　　قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهُ عَنْ مَكْنَسِ
فَهْوَ فِي نَارٍ وَخَفْقٍ مِثْلَ مَا　　لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

وَقَدْ نَسَجَ عَلَى مِنْوَالِهِ فِيهَا صَاحِبُنَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللهِ ابْنُ الْخَطِيبِ شَاعِرُ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ لِعَصْرِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فَقَالَ

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى　　يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلُمَا　　فِي الْكَرَى أَوْ خِلْسَةَ الْمُخْتَلِسِ
إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمُنَى　　يَنْقُلُ الْخَطْوَ عَلَى مَا يَرْسُمُ
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَا　　مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوُفُودَ الْمَوْسِمُ
وَالْحَيَا قَدْ جَلَّلَ الرَّوْضَ سَنَى　　فَثُغُورُ الزَّهْرِ فِيهِ تَبْسِمُ
وَرَوَى النُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَا　　كَيْفَ يَرْوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسِ
فَكَسَاهُ الْحُسْنُ ثَوْبًا مُعْلَمَا　　يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ
فِي لَيَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ الْهَوَى　　بِالدُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ الْغُرَرِ
مَالَ نَجْمُ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى　　مُسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَعْدَ الْأَثَرِ
وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى　　أَنَّهُ مَرَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ
حِينَ لَذَّ النَّوْمُ مِنَّا أَوْ كَمَا　　هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومَ الْحَرَسِ
غَارَتِ الشُّهْبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا　　أَثَّرَتْ فِينَا عُيُونُ النَّرْجِسِ
أَيُّ شَيْءٍ لِامْرِئٍ قَدْ خَلَصَا　　فَيَكُونُ الرَّوْضُ قَدْ مُكِّنَ فِيهِ
تَنْهَبُ الْأَزْهَارُ فِيهِ الْفُرَصَا　　أَمِنَتْ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ
فَإِذَا الْمَاءُ يُنَاجِي وَالْحَصَا　　وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بَرِمَا　　يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
وَتَرَى الْآسَ لَبِيبًا فَهِمَا　　يَسْرِقُ الدَّمْعَ بِأُذْنَيْ فَرَسِ

يَا أُهَيْلَ ٱلْحَيِّ مِنْ وَادِي ٱلْغَضَا ... وَبِقَلْبِي مَسْكَنٌ أَنْتُمْ بِهِ
ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ ٱلْفَضَا ... لَا أُبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
فَأَعِيدُوا عَهْدَ أُنْسٍ قَدْ مَضَى ... تُنْقِذُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
وَٱتَّقُوا ٱللّٰهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمًا ... يَتَلَاشَى نَفَسًا فِي نَفَسِ
حَبَسَ ٱلْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا ... أَفَتَرْضَوْنَ خَرَابَ ٱلْحَبَسِ
وَبِقَلْبِي مِنْكُمُ مُقْتَرِبُ ... بِأَحَادِيثِ ٱلْمُنَى وَهْوَ بَعِيدْ
قَمَرًا أَطْلَعَ مِنْهُ ٱلْمَغْرِبُ ... شَقْوَةَ ٱلْمُغْرَى بِهِ وَهْوَ سَعِيدْ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبُ ... فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدْ
سَاحِرُ ٱلْمُقْلَةِ مَعْسُولُ ٱللَّمَى ... جَالَ فِي ٱلنَّفْسِ مَجَالَ ٱلنَّفَسِ
سَدَّدَ ٱلسَّهْمَ فَأَصْمَى إِذْ رَمَى ... بِفُؤَادِي نَبْلَةَ ٱلْمُفْتَرِسِ
إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابَ ٱلْأَمَلُ ... وَفُؤَادُ ٱلصَّبِّ بِٱلشَّوْقِ يَذُوبْ
فَهْوَ لِلنَّفْسِ حَبِيبٌ أَوَّلُ ... لَيْسَ فِي ٱلْحُبِّ لِمَحْبُوبٍ ذُنُوبْ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثَلُ ... فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبْ
حَكَمَ ٱللَّحْظُ بِهَا فَٱحْتَكَمَا ... لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضِعَافِ ٱلْأَنْفُسِ
يُنْصِفُ ٱلْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا ... وَيُجَازِي ٱلْبَرَّ مِنْهَا وَٱلْمُسِي
مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا ... عَادَهُ عِيدٌ مِنَ ٱلشَّوْقِ جَدِيدْ
كَانَ فِي ٱللَّوْحِ لَهُ مُكْتَتَبَا ... قَوْلُهُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدْ
جَلَبَ ٱلْهَمَّ لَهُ وَٱلْوَصَبَا ... فَهْوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جُهْدٍ جَهِيدْ
لَاعِجٌ فِي أَضْلُعِي قَدْ أُضْرِمَا ... فَهْيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ ٱلْيَبَسِ
لَمْ يَدَعْ مِنْ مُهْجَتِي إِلَّا ٱلدِّمَا ... كَبَقَاءِ ٱلصُّبْحِ بَعْدَ ٱلْغَلَسِ
سَلِّمِي يَا نَفْسُ فِي حُكْمِ ٱلْقَضَا ... وَٱعْبُرِي ٱلْوَقْتَ بِرُجْعَى وَمَتَابْ
وَٱتْرُكِي ذِكْرَى زَمَانٍ قَدْ مَضَى ... بَيْنَ عُتْبَى قَدْ تَقَضَّتْ وَعِتَابْ
وَٱصْرِفِي ٱلْقَوْلَ إِلَى ٱلْمَوْلَى ٱلرِّضَى ... مُلْهِمِ ٱلتَّوْفِيقِ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابْ
ٱلْكَرِيمِ ٱلْمُنْتَهَى وَٱلْمُنْتَمَى ... أَسَدِ ٱلسَّرْجِ وَبَدْرِ ٱلْمَجْلِسِ
يَنْزِلُ ٱلنَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا ... يَنْزِلُ ٱلْوَحْيُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَذْوَاقَ كُلَّهَا فِي مَعْرِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تَحْصُلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ ٱللُّغَةَ وَكَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهُ لَهَا وَمُخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحَصِّلَ مَلَكَتَهَا كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَلَا ٱلْأَنْدَلُسِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَلَا ٱلْمَغْرِبِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَشْرِقِ وَلَا ٱلْمَشْرِقِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّ ٱللِّسَانَ ٱلْحَضَرِيَّ وَتَرَاكِيبَهُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ لِبَلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَائِقٌ لِمَحَاسِنِ ٱلشِّعْرِ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِ وَفِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ آيَاتٌ وَقَدْ كِدْنَا نَخْرُجُ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلِذَٰلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ ٱلْعِنَانَ عَنِ ٱلْقَوْلِ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي هُوَ طَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهِ وَقَدِ ٱسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ مَا حَسِبْنَاهُ كِفَايَةً وَلَعَلَّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا مِمَّنْ يُؤَيِّدُهُ ٱللّٰهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ مُبِينٍ يَغُوصُ مِنْ مَسَائِلِهِ عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا كَتَبْنَا فَلَيْسَ عَلَى مُسْتَنْبِطِ ٱلْفَنِّ إِحْصَاءُ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ تَعْيِينُ مَوْضِعِ ٱلْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ فُصُولِهِ وَمَا يُتَكَلَّمُ فِيهِ وَٱلْمُتَأَخِّرُونَ يُلْحِقُونَ ٱلْمَسَائِلَ مِنْ بَعْدِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَكْمُلَ وَٱللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

قال مؤلف الكتاب عفى الله عنه اتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتاليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبته والحقت به تواريخ الامم كما ذكرت في اوله وشرطته وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم

لقد تم بحوله تعالى طبع هذا الكتاب طبعة ثالثة في المطبعة الادبية وعلى نفقتها نزفه الى طلبة اللغة العربية الشريفة تحفة كريمة من تحف المتقدمين نهديه للمتأخرين مثالاً يقتدى به ومنوالاً ينسجون عليه وقد عُني بشكله جناب الكاتب البليغ رشيد افندي عطيه احد محرري جريدة لسان الحال ثم نظر فيه وصحّح ما احالته عن اصله ايدي النساخ والطباع جناب العالم المدقق واللغوي المحقق الكاتب البليغ المعلم عبدالله افندي البستاني متوخياً بذلك خدمة خالصة للعلم والادب نسأله تعالى ان يثيبه على هذه الخدمة النافعة وينفعنا بمعارفه وقد جعلنا ثمن النسخة من هذا الكتاب خمسة وعشرين غرشاً تسهيلاً لاقتنائه ولا سيما لتلامذة المدارس ومن طلب منه كمية تفوق الخمسين نسخة جعلنا له اسقاطاً لقاء اهتمامه نسأله تعالى ان يوفقنا الى ما فيه خدمة الدولة العلية والوطن